

إدوارد جيبون

اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها

الجزء الثاني



اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها

الجزء الثاني

تأليف إدوارد جيبون
ترجمة د. محمد سليم سالم

مراجعة وتقديم
أحمد نجيب هاشم

الطبعة الثانية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لمختصر كتاب :

DECLINE AND FALL OF THE ROMAN EMPIRE

EDWARD GIBBON'S

الذي أعده

D. M. Low

فهرس

الصفحة

الموضوع

الاصلاح الوثني المضاد

الفصل الثاني والعشرون (٣٦١ - ٣٦٣)

١١	• • • • •	اعتلاء جوليان العرش
١٤	• • • • •	أخلاق جوليان

الفصل الثالث والعشرون (٣٦١ - ٣٦٣)

١٧	• • • • •	ديانة جوليان
٢٣	• • • • •	تعصب جوليان
٢٨	• • • • •	جوليان يعيد الوثنية ويصلحها
٣٥	• • • • •	جوليان واليهود
٤٠	• • • • •	اضطهاد جوليان للمسيحيين
٤٤	• • • • •	معبد دافنى وغابتها المقدسة
٤٧	• • • • •	القديس جورج
٥٠	• • • • •	جوليان وأثناسيوس

الفصل الرابع والعشرون (٣٦٣)

٥٣	• • • • •	انتخاب جوفيان
٦٢	• • • • •	تأملات فى موت جوليان

عودة المسيحية الى مكان الحظوة

الفصل الخامس والعشرون (٣٦٣ - ٣٨٤)

٦٧	• • • • •	المسيحية فى عهد جوفيان
----	-----------	------------------------

الفصل السابع والعشرون (٣٧٤ - ٣٩٧)

٧٠	• • • • •	أمبروز أسقف ميلان
٧٥	• • • • •	فضائل ثيودوسيوس وعيوبه
٧٧	• • • • •	فتنة أنطاكية
٨٠	• • • • •	مذبحة سالونيك

٨٢	• • • • •	ثيودوسيوس يكفر عن ذنبه
٨٥	• • • • •	أخلاق فالنتينيان وموته
٩٠	• • • • •	موت ثيودوسيوس

الفصل الثامن والعشرون (٣٧٨ - ٤٢٠)

٩٣	• • • • •	نهاية الوثنية
١٠١	• • • • •	تدمير معبد سراييس
١٠٤	• • • • •	حظر الشعائر الوثنية
١٠٨	• •	عبادة الشهداء المسيحيين وانتعاش عادات الشرك

الغزوات الكبرى

الفصل الحادى والثلاثون (٤٠٨ - ٤١٠)

١١٧	• • • • •	الاريك يغزو ايطاليا
١٢٠	• • • • •	أخلاق نبلاء الرومان
١٣٠	• • • • •	شعب روما
١٣٤	• • • • •	حصار روما الأول
١٤١	• • • • •	حصار روما الثانى
١٤٤	• • • • •	حصار روما الثالث ونهبها
١٥١	• • • • •	تراجع القوط وموت الاريك

الفصل الثانى والثلاثون (٣٩٥ - ٤٦٠)

١٥٤	• • • • •	حكم أركاديوس
١٥٦	• • • • •	القديس يوحنا كريسوستم
١٦٢	•	موت أركاديوس وارتقاء ثيودوسيوس الأصغر للعرش
١٦٥	• • • • •	حكم بولكيريا
١٦٨	• • • • •	مغامرات يودوكيا

الفصل الثالث والثلاثون (٤٣١ - ٤٣٩)

١٧١	• • • • •	الوندال يغزون أفريقيا
١٧٢	• • • • •	سانت أوغسطين وحصار مدينة هيبو
١٧٥	• • • • •	نهب قرطاجة
١٧٨	• • • • •	قصة النيام السبعة

نهاية الامبراطورية فى الغرب

الفصل الخامس والثلاثون (٤٥١ - ٤٥٣)

١٨٤	• • • • •	أتيليا يغزو بلاد الغال
-----	-----------	------------------------

١٩٠	• • • • •	غزو إيطاليا
١٩١	• • • • •	تأسيس فينيسيا (البندقية)
١٩٥	• • • • •	موت أتيللا ودمار امبراطوريته
١٩٧	• • • • •	قتل أيثيوس وموت فالنتينيان الثالث
٢٠٠	•	أعراض الاضمحلال في الامبراطورية الرومانية الغربية

الفصل السادس والثلاثون (٤٥٧ - ٤٩٠)

٢٠١	• • • • •	الامبراطور ماجوريان
٢٠٩	• • • • •	أدواكر : ملك إيطاليا

الفصل السابع والثلاثون (٣٠٥ - ٤٥١)

٢١٢	• • • • •	نشأة الرهبان
٢١٦	• • • • •	أسباب سرعة تطور الرهبنة
٢٢٤	• • • • •	سانت سيميون « العمود »

الفصل الثامن والثلاثون (٤٧٦)

٢٣٣	• • •	سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب
		ملاحظات عامة على سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب
٢٣٤	• • • • •	

دولة إيطاليا

الفصل التاسع والثلاثون (٤٩٤ - ٥٢٦)

٢٤٥	• • • • •	عهد ثيودوريك
٢٤٩	• • • • •	رخاء روما وإيطاليا
٢٥٢	• • • • •	أريوسية ثيودوريك
٢٥٦	• • • • •	اعدام بويثيوس
٢٦٠	• • • • •	موت ثيودوريك

عصر جستنيان

الفصل الأربعون (٥٢٧ - ٥٦٥)

٦٦٥	• • • • •	عصر جستنيان
٢٧٠	• • • • •	الامبراطورة تيودورا
٢٧٦	• • • • •	شغب نيقا
٢٨٣	• • • • •	استيراد الحرير من الصين
٢٨٩	• • • • •	كنيسة آياصوفيا

الموضوع الصفحة

القضاء على مدارس أثينا ٢٩٥

القضاء على وظيفة القنصل الرومانى ٣٠٠

الفصل الثالث والأربعون (٥٤٦ - ٥٩٤)

آخر انتصارات لبليساريوس وموته ٣٠٢

أخلاق جستنيان وموته ٣٠٦

المنذبات ٣٠٨

الزلازل ٣١٠

الطاعون ٣١١

الفصل الخامس والأربعون (٥٩٠ - ٥٩٤)

شقاء روما فى نهاية القرن السادس ٣١٥

بابوية جريجورى العظيم ٣١٧

المؤثرات اللاهوتية

الفصل السابع والأربعون (٤١٢ - ٥٦٥)

الأيونيون ٣٢٥

الغنوصيون ٣٢٧

النظريات المضادة التى قال بها كرنيثوس وأبولليناريوس ٣٣٠

كيرلس ونسطور ومجالس افيسوس الكنسية الأولى ٣٣٣

هرطقة يوتيكس ومجلس افيسوس الثانى ٣٤٤

مجلس خلقدونية الكنس ٣٤٦

قانون التوفيق الذى وصفه زينون ٣٥٠

لاهوت جستنيان ٣٥٣

الفصل التاسع والأربعون (٧٢٦ - ٨١٤)

ليو محطم التماثيل ٣٦٥

ثورة ايطاليا ٣٧٠

علاقات بين وشارلمان بالبابوات ٣٧٧

اعادة التماثيل والصور الدينية فى الشرق ٣٨٢

انفصال البابوات عن الامبراطورية الشرقية نهائيا ٣٨٥

عصر شارلمان وشخصيته ٣٨٨

الامبراطور شارل الرابع ٣٩١

موازنة بين شارل الرابع واغسطس ٣٩٣

الإصلاح الوثني المضاد

الفصل الثانى والعشرون

(٣٦١ - ٣٦٣)

اعتلاء جوليان العرش • أخلاق جوليان

فى سنة ٣٦١ بعد الميلاد ، وبعد حكم اتسم بالطغيان ، مات قسطنطينوس فى مطلع حرب أهلية ضد جوليان الذى أصبح نتيجة لهذا الامبراطور الأوحى • ولقد تحكم فى جوليان خلال فترة حكمه القصيرة ، دافعان استمدهما من دراساته الباكورة • وكان الدافع الأول هو تحقيق المثل الأعلى للملك الفيلسوف ، ولقد مزج هذا باصلاحات عملية وتوفير فى النفقات كما حاول أن يغير الروح الشرقية التى سادت بلاط سلفه ويدخل بدلا منها بساطة أساليب الحياة القديمة • أما الدافع الثانى فهو انه كان طموحا الى التشبه بالاسكندر الأكبر فى الفتوحات الشرقية • وكانت أهميته الخاصة بالنسبة للأجيال القادمة انه نبذ المسيحية ، وحاول اصلاح الوثنية وازساء قواعدها من جديد •

اعتلاء جوليان العرش

كان جوليان يتحرق شوقا لزيارة المكان الذى ولد فيه والذى أصبح العاصمة الجديدة للامبراطورية ، فتقدم من نائسوس مخترقا جبال هيموس ومدائن تراقيا • وعندما وصل الى هرقليا ، على بعد ستين ميلا من القسطنطينية ، خرجت العاصمة كلها لاستقباله ، ودخلها دخول الظافرين وسط تهليل الولاء الواجبة الصادرة من الجنود والشعب وأعضاء السناتو • واندفعت نحوه الجماهير التى لا تعد وأحاطت به فى احترام ولهفة ، وربما خاب أملهم عندما شاهدوا الرجل بقامته القصيرة وفى ردائه البسيط ، وهو البطل الذى قهو برايرة الألمان وهو لا يزال شابا تنقصه التجربة ، والذى عبر الآن كل قارة أوروبا فى مسيرة طافرة ، من شواطئ الأطلنطى الى شواطئ البسفور • وبعد ذلك بأيام قليلة ،

عندما وصل جثمان الامبراطور الراحل الى المرفأ ، صفق رعايا جوليان لما أظهره ملكهم من انسانية حقيقية أو مصطنعة . وسار الامبراطور على قدميه ، دون تاج على رأسه ، مرتديا ملابس الحداد ، ورافق موكب الجنازة حتى كنيسة « الرسل المقدسون » ، حيث دفن الجثمان . واذا كانت آيات الاحترام هذه يمكن تفسيرها بأنها ضريبة يدفعها الامبراطور بحافز الانانية اجلالا لمنبت قريبه الامبراطور ورفعة مقامه ، فان الدموع التي سكبها أظهرت للعالم أنه نسي الاساءات التي أصابته من قسطنطيوس ، ولم يذكر الا التزاماته نحوه . وما أن تأكلت فيالق أكويليا Aquileia من وفاة الامبراطور حتى فتحت أبواب المدينة ، وقتلت قوادها المذنبين ، وبهذا غنمت عفوا سهلا من الامبراطور جوليان ، اما حكمة منه أو لينا وتساهلا . وهكذا أصبح جوليان ، وهو فى الثانية والثلاثين من عمره حاكما على الامبراطورية الرومانية ، لا ينازعه منازع .

وقد تعلم جوليان من الفلسفة أن يفرق بين مزايا العمل والجهاد وبين مزايا الركود والالتزوا ، غير أن سمو أرومته والحوادث التي اعتورت حياته لم تترك له أبدا حرية الاختيار . وربما كان يفضل فى اخلاص بساتين الأكاديمية الأثينية والمجتمع الأثينى ، غير أن مشيئة قسطنطيوس أولا ثم ظلمه بعد ذلك أجبراه على تعريض شخصه وسمعته الى أخطار المجد الامبراطورى ، والى تحمل مسئولية سعادة الملايين أمام العالم وأمام الأجيال القادمة . وتذكر جوليان فى فزع ورهبة ملاحظة أستاذه أفلاطون أن حكم الرعية ينبغى أن يلتزم به أناس من نوع رفيع ، وأن قيادة الأمم تحتاج بل وتستحق قوة الآلهة أو قدرة العباقر . ولقد كان محقا فى أن ينتهى من هذا كله الى أن الرجل الذى يأخذ على عاتقه الحكم ، يجب أن يتطلع الى كمال الطبيعة الالهية ، وأن ينقى نفسه من جانبها الدنيوى الفانى ، وأن يكبت شهواته ، ويثقف عقله ، وينظم أهواه ، ويكبح جماح ذلك الوحش الكاسر الرابض فى دخيلة نفسه والذى قلما يعجز عن ارتقاء عرش الحاكم المطلق ، على حد التشبيه الحى الذى قاله أرسطو . ولقد جعل جوليان من العرش الوطيد الذى استقل به بعد وفاة قسطنطيوس ، مقاما للتفكير السليم ، وملاذا للفضيلة ، وربما كان فيه أيضا مجال للغرور . فكان يحتقر أمجاد وامتيازات مقامه السامى ، وينبذ ملذاته ، ويؤدى ما يلقيه عليه مركزه الرفيع هذا من تبعات فى جد ودأب دائمين . وقلة من أبناء شعبه كان يمكن أن ترضى باراحته من ثقل تاجه لو أنها أجبرت على اخضاع أوقاتها وأعمالها لتلك القوانين الصارمة التي فرضها الامبراطور الفيلسوف على نفسه . ولقد ذكر واحد من أقرب أصدقائه اليه ، طالما شاركه مائدته البسيطة الخالية من الترف والبذخ ،

أن أكلته الخفيفة الضعيفة (التي كانت من النوع النباتي عادة) ، كانت
 تتيح لعقله وجسمه تلك الحرية وذلك النشاط اللازمين للعمل المنوع
 الهام الذي كان يقوم به كمؤلف ، وحبر أعظم ، وقاض ، وقائد وحاكم .
 وكان في اليوم الواحد يستقبل العديد من السفراء ، ويكتب أو يملأ عددا
 كبيرا من الرسائل الموجهة الى قواده ، وحكامه المدنيين ، وخاصة أصدقائه ،
 ومختلف مدائن البلدان التابعة له . وكان الى جانب ذلك يستمع الى
 المذكرات التي يتلقاها ، ويدرس مواضيع الملتزمات ، ويصدر قراراته
 فيها بأسرع مما كان يمكن لأمناء سره أن يختزلوا كتابتها رغم جدهم
 ودأبهم . وكان على درجة من مرونة التفكير وقوة الانتباه تمكنه من
 استخدام يده في الكتابة ، وأذنه في الاصغاء ، وصوته في الاملاء ، ومن أن
 يتابع في وقت واحد ثلاث سلاسل من أفكار مختلفة ، دون تردد أو خطأ .
 وعندما كان وزراؤه يركنون الى الراحة ، كان الملك ينتقل في خفة ونشاط
 من عمل الى عمل ، وبعد أن يتناول غداء سريعا ، كان يأوى الى مكتبته
 حتى تدعوه المهام العامة التي خصص لها أمسيته فتقطع عليه متابعة
 دراساته . وكان عشاء الامبراطور أخف من وجبة غذائه ، ومن ثم فإن
 نومه كان هادئا لا يزعجه سوء الهضم . وكان زواج الامبراطور قصير
 الأمد ، دفعته اليه السياسة ، أكثر من أن يكون مبعثه الحب ، وفيما عدا
 هذا الزواج لم يقتسم جوليان العفيف فراشه مع واحدة أخرى من بنات
 حواء . ومن ثم فإن الامبراطور سرعان ما كان يستيقظ من نومه بدخول
 أمناء سر آخرين من أولئك الذين أخذوا قسطهم من النوم في اليوم
 السابق ، وكان على وصفائه أن يتبادلوا السهر بينما يظل سيدهم ، الذي
 لا يعمل العمل أو يعتريه التعب ، ساهرا لا يكاد يرفه عن نفسه الا بتغيير
 نوع العمل . وكان أسلافه الأباطرة - عمه وأخوه وابن عمه ، يشبعون
 هوايتهم الصبيانية بالعباب « السيرك » ، مدعين في تبرير ذلك أنهم انما
 يتمشون مع رغبات الشعب ، وكثيرا ما كانوا يقضون الجزء الأكبر من
 النهار نظارة عاطلين ، أو يكونون جزءا من المشهد الرائع ، حتى تتم
 الأشواط الأربعة والعشرون تماما . أما جوليان ، فقد كان يشعر ، على
 غير عادة العصر ، بكراهية لتلك الملذات الطائشة التافهة ويجهر بذلك ،
 ومن ثم فقد كان في الاحتفالات الهامة يتنازل بحضور السيرك ، وبعد أن
 يلقي نظرة عابرة في غير اهتمام على خمسة أو ستة أشواط ، كان
 ينسحب سريعا في ملل الفيلسوف الذي يعتبر أن كل لحظة لا يكرسها
 لخير الشعب أو لتهديب عقله كأنها لحظة ضاعت هباء . ويبدو أنه بهذا
 الحرص الشديد على الوقت كان يطيل فترة حكمه القصيرة ، ولو لم تكن
 على ثقة من دقة التواريخ لما صدقنا أن ستة عشر شهرا فقط هي التي

انقضت بين موت قسطنطينوس وبين رحيل خلفه جوليان الى الحرب الفارسية . ولا شك في أن أعمال هذا الامبراطور لا يمكن أن يخلدها الا حرص المؤرخ واهتمامه ، غير أن ذلك الجزء من كتاباته الضخمة الذي ما يزال باقيا ، انما يظل أثرا يشهد له بالمشاورة والعبقرية . فلقد ألف ، « الميزوبوجون » (رسالة يرد فيها على من سخروا من فلسفته من انطاكيين) و « القياصرة » ، وكثيرا من الخطب التي ألقاها ، وكتابه الغد ضد الديانة المسيحية ، في الليالي الطويلة من فصلي شتاء قضى أحدهما في القسطنطينية والآخر في أنطاكية .

أخلاق جوليان

كانت الادارة المجهدة للشئون العسكرية والمدنية ، التي ازدادت باتساع رقعة الامبراطورية ، هي الميدان الذي مارس فيه جوليان قدراته . غير أنه كثيرا ما كان يقوم بدور الخطيب ودور القاضي ، وهما دوران لا وجود لهما تقريبا في حياة ملوك أوربا الحديثين . ولقد كان القياصرة الأولون يتقنون فنون الاقناع ، غير أن خلفاءهم من جهلة العسكريين المتسمين بالغطرسية الآسيوية أهملوا تلك الفنون ، وإذا حدث أنهم كانوا يتنازلون بالتحدث الى الجنود الذين كانوا يرهبونهم ، فانهم كانوا يعاملون أعضاء السناتو ، الذين كانوا موضع احتقارهم ، في ازدراء صامت . أما جوليان فقد كان يعتبر اجتماعات السناتو التي تحاشاها قسطنطينوس ، مكانا يستطيع أن يعرض فيه ، بأعظم قدر من اللياقة والكياسة ، مبادئ الرجل الجمهوري ومواهب صاحب الفصاحة والبيان . فكان يمارس في تلك الاجتماعات ، كما لو كان في مدرسة للخطابة ، مختلف أساليب المدح والتقريع والنصح والتحذير ، مرة هذا ومرة ذاك . ولقد ذكر صديقه ليبانيوس أن دراسة هوميروس علمته أن يقلد بساطة أسلوب مينلاوس وإيجازه ، أو يحاكي غزارة أسلوب نسطور Nestor الذي كانت كلماته تتساقط كرقائق ثلج الشتاء ، أو فصاحة يولسيس Ulysses التي تثير الشجون وتتفجر منها القوة . أما القضاء بين الناس ، وهو مهمة لا تتفق أحيانا مع مهام الحاكم ، فقد كان جوليان يمارسه لا كواجب فحسب ، بل من قبيل التسلية . ورغم أنه كان يثق في نزاهة ولائ البريتوريين وحسن تقديرهم وفطنتهم ، الا أنه كثيرا ما كان يجلس الى جوارهم على منصة الحكم . وكان يلذ له أن يستغل قريحته النفاذة في كشف وهزيمة حيل المحامين الذين كانوا يعملون جاهدين على إخفاء الحقائق الصادقة وتحوير معنى القوانين . وكان في بعض الأحيان ينسى مهابة مقامه ويسأل أسئلة طائشة أو غير مناسبة ، ويفصح بصوته الجمهوري

واهتزاز جسمه ، عن حماسه الجدى فى التمسك بأرائه ضد القضاة وضد المحامين وموكليهم . غير أن معرفته بطباعه كانت تدفعه الى تشجيع ، بل والتماس النقد من أصدقائه ووزرائه ، وعندما كان هؤلاء يجلسون فى أنفسهم الجراءة على معارضة نزوات أهوائه الشاذة ، كان فى مقدور المشاهدين أن يلاحظوا ما كان يعترى ملبسهم من خجل ، وما كان يبدو عليه من عرفان للجميل . وكانت قرارات جوليان تقوم دائما على أساس من مبادئ العدالة ، وكان لديه من الحزم ما يمكنه من مقاومة اغراءين هما أخطر الثغريات التى تهدد محكمة الحاكم والتى تتمثل له فى صورة زائفة من الشفقة والانصاف ، فكان يحدد ما تستأهله القضية دون اعتبار لظروف أطرافها . ورغم نزوعه الى مساعدة الفقراء ، الا أنه كان يدينهم اذا كانت فى ذلك استجابة للمطالب العادلة التى يطالب بها خصومهم من النبلاء والأغنياء . وكان يفرق فى عناية بين مهمة القاضى ومهمة المشرع ورغم أنه كان يفكر فى ضرورة اصلاح التشريع الرومانى ، الا أنه كان ينطق بالحكم وفق التفسير الحرفى الدقيق لتلك القوانين التى كان يتحتم على الحكام تنفيذها ، ويتحتم على الرعية طاعتها .

والمعروف أن أكثرية الملوك ، لو أنهم جردوا من أردية الملك ، وألقى بهم عراة فى غمار هذا العالم لهبطوا على الفور الى أدنى مراتب المجتمع دون أمل فى النهوض من وهديهم . غير أن الفضائل الشخصية التى كان يتصف بها جوليان كانت الى درجة ما مستقلة عن حظه فى الحياة . ومهما كان اختياره لطريق حياته ، فان شجاعته التى لا تنهاوى أو تنزعزع ، وذكاءه الوقاد ، ومثابرته القوية ، كانت كلها كفيلا بأن ترقى به الى أسنى مراتب مهنته ، أو تجعله أهلا لتلك المكانة على أقل تقدير . وكان فى مقدور جوليان أن يرتفع الى مركز الوزارة أو القيادة فى الدولة التى ولد فيها مواطنا بعيدا عن الأضواء . ولو أن تقلبات السلطة الحاكمة قد خيبت آماله ، أو لو أنه شاء عن حكمة وحرص أن ينبذ مسالك العظمة ، لاستطاع باستخدام هذه المواهب نفسها فى الدراسة ، بمعزل عن الناس ، أن يجعل من سعادته الحالية وشهرته الخالدة شيئا يقصر عن نواله الملوك . واذا نحن حللنا شخصية جوليان بامعان دقيق ، أو ربما اذا كان مقصدنا من ذلك التحليل شيئا ، لبدت لنا الصورة كلها ، فى جمالها ، وكمالها ، مفتقرة الى شىء ما . فلقد كانت عبقريته أقل سموا وقوة من عبقرية قيصر ، كما أنه لم يتسم بما كان يتحلى به أغسطس Augustus من حكمة بلغ منها الذروة . وكذلك كانت فضائل تراجان أكثر ثباتا وأقرب الى الطبيعة ، أما فلسفة ماركوس فقد كانت أكثر بساطة واتساقا . ومع هذا كله فقد كان جوليان يجابه العسر فى ثبات ، ويقابل اليسر فى

اعتدال . وبعد مائة وعشرين عاما من موت الاسكندر سفيرس ، شاهد
الرومان امبراطورا كان لا يفرق بين واجباته ومسراته ، ويعمل جاهدا على
التخفيف من محن رعاياه وعلى انعاش روحهم ، ويحاول دائما أن يربط
السلطة بالجدارة ، والسعادة بالفضيلة . بل ان الحزبية ، والحزبية
الدينية ، اضطرت الى الاعتراف بسمو عبقريته في السلم وفي الحرب
سواء بسواء ، والى التسليم في أسف ، بأن جوليان المرتد عن دينه ،
كان محبا لبلاده ، وبأنه جدير بأن يتربع على عرش امبراطورية العالم أجمع .

الفصل الثالث والعشرون

(٣٦٣ - ٣٦١)

ديانة جوليان • تعصبه • اعادته للوثنية واصلاحه لها •
مسلكه نحو اليهود • ظلمه للمسيحيين • معبد دافني والبستان
المقدس • سانت جورج • جوليان واثناسيوس

أساءت صفة « المرتد » الى سمعة جوليان ، كما أن الحماس الذى طغى على فضائله والقى عليه ظلا كان من شأنه أن يجسم ضخامة أخطائه الحقيقية أو الظاهرة • وان جهلنا الجزئى به قد يصوره لنا ملكا فيلسوفا ، يهدف الى بسط حمايته فى مساواة على الأحزاب الدينية القائمة فى الامبراطورية ، والى تخفيف الحمى الدينية التى ألهمت عقول الناس ، منذ صدور مراسيم دقلديانوس الى نفى اثناسيوس • غير أن من يدرس فى دقة أكثر أخلاق جوليان وسلوكه ، سوف يتخلى عن هذا التحيز الى جانب ملك لم يستطع النجاة من عدوى أمراض ذلك العصر • ونحن فى هذا انشأن نفرد بميزة وحيدة وهى أننا نستطيع أن نعقد مقارنة بين الصور التى رسمها له أشد المعجبين به وتلك التى رسمها له أعدائه • أما أعماله وتصرفاته فقد وصفها وصفا أميناً مؤرخ منصف سليم الحكم ، كان شاهداً غير متحيز شاهده فى حياته وفى موته • وتؤكد التصريحات الخاصة والعامة التى أدلى بها الامبراطور نفسه تلك الأقوال التى صدرت عن معاصريه بصورة اجتماعية • كما أن كتاباته المختلفة انما تعبر عن الطابع الواحد الذى اتسمت به أحاسيسه الدينية التى كان يجوز للسياسة أن تدفعه الى اخفائها لا الى اصطناعها • وكان تعلق جوليان فى صدق واخلاص بالهة أثينا وروما ، هو الذى يشكل العاطفة الغالبة عليه ، ومن ثم فإن تأثير التحيز للخرافات كان يفسد عليه قدرات قريحته المستنيرة كما كان للأوهام التى لا وجود لها الا فى عقل الامبراطور تأثيرها الحقيقى الهدام على حكومة الامبراطورية • وقد احتقر المسيحيون عبادة تلك الآلهة

الخرافية وحطموا مذابحها ، وهذا الحماس المشتعل من جانبهم جعل ولائهم لدينهم يتجه نحو العداء العنيد لطائفة كبيرة العدد جدا من رعاياه ، وكانت رغبته فى الفوز والانتصار ، أو خجله من حدوث نكسة ، من الأمور التى تدفعه أحيانا الى خرق قوانين الحكمة بل وقوانين العدالة . وكان فوز الفريق الذى هجره جوليان وعمل على مقاومته ، شيئا ألحق باسمه وصمة عار لا تزول ولا تمحى ، ثم انصب سيل من الاتهامات الصادرة عن ورع أصحابها وتقواهم ، على الامبراطور المرتد المخذول ، وكان الأسقف جريجورى نازيانزن هو الذى رفع صوتا مدويا ايذانا بذلك الهجوم . ولقد ازدحمت الفترة القصيرة التى حكمها هذا الامبراطور النشيط بأحداث هامة شائقة تستحق أن تروى رواية منصفه مفصلة ، وسوف نتناول فى هذا الفصل أعماله وآراءه ودوافعه ، بقدر ارتباطها بتاريخ الديانة .

وفى مقدورنا أن نعرف السبب فى ارتداده عن الديانة المسيحية بالرجوع الى الفترة الباكورة من حياته عندما ترك يتيما فى أيدي قتله أسرته . فلقد ارتبط فى مخيلته الفتية اسم المسيح باسم قسطنطيوس ، كما ارتبطت فكرة العبودية بفكرة الدين ، حين كانت تلك المخيلة أكثر ما يكون احساسا بما ينطبع عليها . ولقد كفله ابان طفولته يوسيبوس أسقف نيقوميديا ، الذى كان قريبا له من ناحية أمه . وحتى بلغ جوليان العشرين من عمره كان يتلقى من معلميه المسيحيين تعليما يليق بالقديسين لا بالأبطال ، وكان الامبراطور أقل غيرة على التاج السماوى منه على التاج الأرضى ومن ثم فقد قنع بشخصية طالب العمودية ، وهى شخصية غير كاملة بينما منح ابنى شقيق قسطنطين (جالوس وجوليان) منزلة العمودية ذاتها . بل ان الاثنين سمح لهما بالدخول فى سلك المراكز الصغيرة من الرتب الكنسية ، فكان جوليان يقرأ الانجيل المقدس على شعب كنيسة نيقوميديا . وكان يبدو أن دراسة الدين التى تابرا على تعلمها قد آتت أحسن ثمار الايمان والورع ، فكانا يقيمان الصلاة ، ويصومان ويتصدقان على الفقراء ، ويقدمان الهدايا لرجال الدين ، ويوزعان القرايين فى مقابر الشهداء ، وعندما أقيم التمثال الرائع للقديس « ماماس » فى مدينة قيصرية ، اشترك جالوس وجوليان فى بنائه أو على الأقل فى الاشراف على اقامته . وكانا يتحدثان فى احترام الى الأساقفة الذين اشتهروا بسمو قداستهم ، ويلتمسان البركة من الرهبان والنسك الذين كانوا ، فى « كبادوكيا » مثالا لتحمل المصاعب التى تطوى عليها حياة النقشف . وعندما تقدم الأميران نحو مرحلة الرجولة ، اكتشفا فى أجاسيسهما الدينية ذلك الفرق القائم بين أخلاقهما . فلقد كان

جاللوس جامد الذهن بطيء الفهم يتقبل مبادئ المسيحية في حماس وتسليم ، دون أن تؤثر هذه المبادئ في سلوكه أو تطف من أهوائه ، أما أخوه الأصغر ، فكانت طباعه أكثر رقة وأقل مجافاة لتعاليم الانجيل ، كما أن حبه الزائد للاستطلاع والمعرفة كان يمكن أن يشبعه نظام لاهوتي يفسر الجوهر الغامض للاله ، ويفتح أمام المرء أملا لا حدود له في العالم المقبل غير المنظور . غير أن روح الاستقلال التي كان يتمتع بها جوليان كانت تأبى عليه أن يسلم بما ينطلبه رجال الكنيسة المتغطرسون باسم الدين من خضوع سلبى لا يثير اعتراضا أو يبدى مقاومة . وكانت آراؤهم الفلسفية تفرض على الناس على أنها قوانين قطعية يحميها ادهاب العقوبات الأبدية . ولكن بينما كانوا يرسمون للأمر الشاب قواعد جامدة صارمة تحدد أفكاره وكلماته وأعماله ، وبينما كانوا يخرسون اعتراضاته ويكبتون حرية الاستفسار عنده في شدة وقسوة كانت عبقريته الطموحة المتحرقة للمعرفة تدفعه سرا الى نبذ سلطان مرشديه الدينيين . وقد تلقى تعليمه في آسيا الصغرى حيث شاهد فضائح الجدل الآريوسى . وكانت النزاعات الوحشية بين الأساقفة الشرقيين ، وتغييرهم المستمر لعقائدهم ، والدوافع الدنيئة التي كان يبدو أنها تحدد مسلكهم ، كل أولئك قوى لدى جوليان ، دون أن يشعر ، ما كان يعتقده فيهم من أنهم لا يفهمون الديانة التي يصارعون من أجلها بمثل هذه القسوة ، بل ولا يؤمنون بها . وبدلا من أن يصغى الى أدلة المسيحية بما يناسب ذلك من انتباه يقوى أكثر الأدلة احتراماً ، كان يستمع في شك وريبة الى المبادئ التي كان يكن لها نفورا لا يستطيع التغلب عليه ، ويتحداها في عناد وحدة . وكلما كان يطلب الى الأمراء ان يدلوا بآرائهم في موضوع الخصومات السائدة ، كان جوليان يعلن دائما أنه نصير الوثنية ، مدعيا في تبرير ذلك أنه ، في اندفاع عن القضية الأضعف ، يستطيع أن يمارس ويظهر علمه وبراعته بصورة أنفع وأجدى .

وما أن تسلم جاللوس مقاليد الملك حتى أتيح لجوليان أن يستنشق نسيم الحرية ، ويستمتع بالأدب وبالوثنية . وكان جمهور السفسطائيين الذين أعجبهم ذوق تلميذهم الملكي وتحرره قد عقدوا صلة وثيقة بين علم اليونان وبين ديانتها . وبعد أن كانت أشعار هوميروس موضع الإعجاب على أساس أنها إنتاج أصيل للعبقرية الانسانية ، أصبحوا ينسبونها في جدية الى الوحي السماوى الصادر من الاله أبولو وآلهة الشعر والفنون . ولا شك في أن آلهة أوليمبوس ، كما يصورها الشاعر الخالد هوميروس ، يمكن أن تنطبع على العقول التي تكون أبعد ما يكون عن تصديق الخرافات : ويبدو أننا عندما نألف معرفة أسمائهم

وشخصياتهم وصفاتهم وأشكالهم ، فان ذلك يضيف على تلك المخلوقات الخيالية وجودا ماديا حقيقيا ، وهذا الافتتان الشهى يفرى مخيلة المرء على أن تتقبل بصفة مؤقتة وبصورة معيبة تلك الأساطير التى تنفر منها عقولنا وتجاربنا . وفى عصر جوليان أسهمت كل الظروف فى استمرار تدعيم تلك الخيالات وإطالة فترة تصديق الناس لها - كالمعابد الرائعة فى اليونان وآسيا ، وما أنتجه الفنانون الذين عبروا بالتصوير والنحت عن أفكار الشاعر ، وفخامة الاحتفالات وتقديم القرابين ، وفنون التكهّن بالغيب المزدهرة ، والتقاليد الشعبية منذ ألفى سنة . ومع أن عبادة الآلهة المتعددة كان لها ضعفها ، إلا أن الناس التمسوا لهذا الضعف بعض العذر لأن مطالب تلك الديانة كانت معتدلة ، ومن ثم فان ولاء الوثنيين كان شيئا يمكن أن يمشى مع أشد ألوان التشكك تطرفا . وبدلا من أن يكون هناك نظام دينى رتيب لا يقبل التجزئة ، ويشغل نطاق العقل المؤمن كله ، فان الميثولوجيا اليونانية كانت تتألف من آلاف الأجزاء المفككة المطاطة ، وكان المتعبد للآلهة حرا فى تحديد مدى إيمانه الدينى وقدره . ولقد اتخذ جوليان لنفسه عقيدة لها أوسع الأبعاد ، وازدري . فى تناقض عجيب ، ذلك الخضوع النافع للإنجيل ، بينما قدم عنه بمحض اختياره قربانا على مذبح الإله جوبيتر والإله أبولو ، ووقف إحدى خطبه على تمجيد الهة الطبيعة « كيبلى » ، التى طلبت من كهانها المخنثين ذبيحة دموية كتلك التى قدمها الصبى من أهل « فريجيا » فى جنون وتهور . ويتنازل الامبراطور التقى فيقص فى جدية ودون خجل ، رحلة الآلهة من شواطئ برجاموس Pergamus الى مصب نهر التيبر ويحكى تلك المعجزة المذهلة التى أقنعت السناتو وأهل روما بأن كتلة الطين التى نقلها سفراؤها عبر البحار كانت تنبض بالحياة والأحاسيس والقوة الالهية . ويلتمس من الآثار العامة فى المدينة أن تثبت صدق هذه المعجزة ، ويلوم فى شئ من الحدة والخشونة ذلك الذوق المريض الذى اتصف به أولئك الرجال الذين كانوا يسخرون فى وقاحة من تقاليد أجدادهم المقدسة .

غير أن الفيلسوف الورع الذى اعتنق فى اخلاص خرافات الشعب ، وشجعها فى حرارة ، احتفظ لنفسه بميزة تفسيرها تفسيراً متحرراً ، وكان ينسحب فى صمت من عتبات الهيكل الى محراب المعبد . وكانت الأساطير اليونانية المتسمة بالنظر والمغالاة تقرر فى صوت جلى مسموع أن الرجل التقى الذى يسعى وراء المعرفة ، يجدر به ألا يكتفى بالمعنى الحرفى لما يقرأ ، أو يقبل أن يتضح جهله ، بل ينبغى عليه أن يعمل جاهدا على كشف الحكمة الغامضة التى حرص الأقدمون على

اخفائها تحت ستار من الحماقة والخرافة (١) ولقد كان فلاسفة المدرسة الأفلاطونية - بلوتينوس ، يورفيرى - أيامبليخوس المقدس Iamblichus - موضع الإعجاب ، على اعتبار أنهم أمهر أساتذة علم المجاز الذى عمل على تخفيف وتنسيق ما فى الوثنية من قسّمات مشوهة . وكان جوليان نفسه ، الذى تلقى التوجيه فى تلك الدراسة الغامضة على يد ايديسيوس المبجل ، خليفة أيامبليخوس ، يتطلع من وراء ذلك الى امتلاك كنز كان يفوق فى نظره ملك العالم أجمع ، اذا كان لنا أن نصدق فى هذا الشأن تصريحاته الجدية . وفى الحق أنه كان كنزا يستمد قيمته من رأى الانسان فقط ، وكل فنان أطرى نفسه بأنه قد استخلص المكنى النفيس من الصدا المحيط به كان يدعى لنفسه الحق فى أن يطلق على ما يكتشفه ذلك الاسم الذى يلذ لحiale ، أو يصوره بالصورة التى تشبع هذا الخيال . فخرافة آتيس وكيبيلى كان يورفيرى قد وضع لها تفسيرا ، غير أن اجتهاده فى هذا التفسير لم يكن له من أثر على جوليان التقى المثابر سوى أنه دفعه الى المحاولة من جانبه ، فابتكر تفسيره الخاص لتلك القصة القديمة الغامضة وتولى نشره . غير أن حرية التفسير هذه ، التى أرضت كبرياء الأفلاطونيين ، كانت كفيّلة بأن تظهر عبث فنهّم ، فأصبح القارئ الحديث عاجزا ، بغير الدخول فى تفاصيل مضنية ، عن تكوين فكرة صائبة سليمة ، عن المجازات الغريبة ، والاشتقاقات القسرية ، والهراء المحمول محمل الجد ، والغموض الذى لا يستنطاع النفاذ اليه ، وما الى ذلك من أشياء أوردها أولئك الحكماء الذين كانوا ينادون بأنهم أباطوا اللثام عن نظام الكون . وبما أن الأساطير الوثنية قد تناولتها مختلف القصص ، فإن المفسرين المقدسين كانوا أحرارا فى اختيار أنسب الظروف والملابسات التى تلائم تفسيراتهم ، وبما أنهم كانوا يفسرون أشياء أشبه ما تكون بالألغاز ، فقد كان فى مقدورهم أن يستخلصوا من أية خرافة أى معنى يلائم النظام الدينى والفلسفى الذى يحبونه . فكانوا يمسخون قصة التمثال الشهوانى العارى للالهة فينوس ، ويكتشفون منها درسا أخلاقيا ، أو حقيقة مادية ، كما استخلصوا

(١) ارجع الى مبادئ المجاز التى وضعها جوليان . ولقد كان تفكيره فى هذا المجال أقل سخفا من تفكير بعض اللاهوتيين الحديثين ، الذين يقررون أن المذهب الذى ينطوى على مغالاة أو تناقض ، لابد أن يكون الهيا ، لأنه لا يمكن أن يكون ابتكارا فكريا من أى انسان حى .

من قصة خصي آتيس تفسيراً لدورة الشمس بين المدارين ، أو لانتزاع النفس البشرية من الخطأ والرديلة (١) .

ويبدو أن مذهب جوليان اللاهوتي كان يشتمل على المبادئ السامية الهامة للديانة الطبيعية ، ولكن بما أن الإيمان الذي لا يقوم على الوحي والالهام يظل مفتقراً إلى الرسوخ والثبات فإن تلميذ أفلاطون ارتد في غير حرص أو فطنة إلى عادات الخرافة المبتذلة ، وبدأت الفكرة الشائعة الفلسفية للاله ، فكرة مهوشة ، في أعمال جوليان وفي كتاباته بل وفي عقله . وكان الامبراطور انورع يعترف « بالخالق الأزل » الذي خلق الكون ، ويعبده ، وينسب إليه كل صفات الكمال التي لا حدود لها ، وهي صفات لا تراها العين ولا يرقى إليها فهم الإنسان الضعيف الصائر إلى الفناء . وهذا الإله الأسمى هو الذي خلق ، أو في لغة أفلاطون ، هو الذي أوجد سلسلة متدرجة تتألف من أرواح ، وآلهة ، وشياطين ، وأبطال ورجال ، وكل مخلوق استمد وجوده مباشرة من « الخالق الأول » ، منح هبة الخلود الكامنة فيه ، وبما أن الخالق شاء ألا تمنح هذه الميزة الغالية إلا لمن يستحقها فقد وكل إلى مهارة وقدره الآلهة الأقل مرتبة مهمة تكوين الجسم الإنساني ، وتدبير الاتساق الجميل بين مملكة الحيوان ومملكة النبات ومملكة الجماد . وكلف هؤلاء الوزراء السماويين بأن يتولوا الحكم الدنيوي لهذا العالم الأدنى ، غير أن حكمهم المفتقر إلى الكمال ليس معصوماً من التنافر أو الزلل . ولقد قسمت بينهم الأرض ومن عليها ، وفي مقدورنا أن نتتبع بصورة واضحة طابع مارس (إله الحرب) أو طابع مينرفا (إلهة الحكمة والفنون) ، وطابع مركوري (رسول الآلهة المشرف على التجارة) أو طابع فينوس (إلهة العشق والجمال) ، في القوانين والأساليب التي ابتدعها كل منهم في النطاق الذي خصص له . وطالما بقيت أرواحنا الخائفة حبيسة في سجن أجسامنا الفانية ، فانه من مصلحتنا ، بل ومن واجبنا أن نلتصق بفضاء القوات السماوية ، ونستعبد من غضبها ، وهي قوات يشبع ولاء الناس كبريادها ، كما أن جوانب القسوة والغلظة فيها من المفروض أنها تستمد بعض غذائها من دخان الذبائح التي تقدم لها . وقد تتنازل هذه الآلهة أحيانا فتبعث الحياة في التماثيل التي أقيمت لتمجيدها ، وتأوى إلى المعابد التي شيدت

(١) انظر الخطاب الخامس الذي ألقاه جوليان . غير أن كل المجازات التي صدرت من المدرسة الأفلاطونية لا تساوى المقطوعة الشعرية القصيرة التي ألفها « كاتوللوس » في هذا الموضوع الغريب نفسه ، وفيها ترى وصفاً لهذا الرجل « آتيس » وقد انتقل من أشد الحماس إلى الشكوى الحزينة مما لحق به من خسارة لا تعوض ، وهو وصف يتتبع الشفقة في نفس الرجل ويبعث اليأس في نفس الخصي .

وخصصت لتكريمها . وقد تزور الأرض بين الحين والحين ، غير أن السموات هي العرش اللائق بمجدها ، وهي رمز هذا المجد . وسرعان ما تقبل جوليان النظام الثابت المتمثل فى الشمس والقمر والنجوم دليلا على دوامها الأبدى ، كما أن أبعديتها هذه كانت دليلا كافيا على أنها من صنع الاله القادر على كل شيء ، وليست من صنع اله أقل مرتبة منه . وفى مذهب الأفلاطونيين كانت المرثيات مثالا للعالم غير المرئى ، وبما أن الأجرام السماوية قد شكلتها روح الهية ففى مقدورنا اعتبارها أكثر الأشياء أهلا للعبادة الدينية . وهكذا ترى أن الشمس التى يسرى تأثيرها المنعش فى الكون ويدعمه قد استحققت أن يعبدوها الناس على أساس أنها تمثل كلمة الله Logos أى الصورة الحية الرشيدة الخيرة للآب العاقل .

تعصب جوليان

عندما يفتقر أى عصر من العصور الى الالهام الأصيل ، فإن الناس يعوضون هذا النقص بالتعلق بالأوهام القوية التى تثير حماسهم ، ويفنون الدجل الزائفة . وإذا كان الكهنة الوثنيون فى عهد جوليان هم وحدهم الذين مارسوا تلك الفنون تأييدا لقضية زائلة منتهية ، فربما جاز لنا أن نتغاضى عن ذلك الشئ على أساس أن الطابع الكهنوتى كان ينحو هذا النحو من حيث العادات ومن حيث المصلحة . غير أن الذى يبدو غريبا مشينا أن يسهم الفلاسفة أنفسهم فى اساءة استغلال تصدير الناس للخرافات (١) . وأن يستخدم الأفلاطونيون الحديثون ضروب الشعوذة أو استخارة الآلهة فى مساندة الأسرار والغوامض اليونانية . فقد زعموا فى زهو وخيلاء أنهم يتحكمون فى نظام الطبيعة ، ويكشفون أسرار المستقبل ، ويستخدمون الأرواح السفلية ، ويتمتعون برؤية الآلهة العليا والتحدث اليهم ، وبأنهم يستطيعون تحرير النفس من قيودها المادية ، وبذلك يعيدون احكام الصلة بين هذه الذرة الخالدة وبين الروح الالهية اللانهائية .

ولقد كان جوليان تقيا ومحبا للاستطلاع دون أن يخشى فى ذلك شيئا ، وأغرق كل هذا فلاسفة عصره على أن يأملوا فى غزو سهل

(١) قام سفسطاثيو « يونابايوس » بقدر من المعجزات لا يقل عن ذلك الذى قام به قديمو الصحراء والشئ الوحيد الذى ميز معجزاتهم هذه أنها كانت من طابع أقل كابة . ولم يعمد أيامبليخوس الى استحضار الشياطين ذوى القرون والذيل ، ولكنه استحضر روح الحب أيروس وروح الحب أنتييروس من نافورتين مجاورتين . فخرج صبيان جميلان من الماء واحتضناه كوالدهما ، ثم انصرفا عندما طلب منهما ذلك .

ميسور يستطيعون به أن يحققوا أخطر النتائج ، بحكم مركز ذلك المرتد الشاب . ولقد تلقى جوليان أول مبادئ المذاهب الأفلاطونية من فم ايديسيوس ، الذى أقام فى مدينة برجاموس مدرسته الجواله المضطهدة . غير أن ذلك الحكيم الوقور كان يعانى تدهورا فى صحته لا يمكنه من أن يشبع حماس تلميذه ، ولا جده ودأبه ، ولا سرعة ادراكه وتفهمه للأمور ، ومن ثم فقد كلف جوليان اثنين من أعلم تلاميذه بأن يأخذوا مكان أستاذهم العجوز ، وهما كريسانتيس ويوسيبيوس . ويبدو أن هذين الفيلسوفين قد دبرا ووزعا فيما بينهما الدور الذى سوف يقوم كل منهما به ، وحاولا فى دهاء ، بالتلميحات المريبة ، وبالمجادلات المفتعلة أن يثبرا الآمال المتلهفة فى تلميذهما المتطلع الطموح ، حتى ألقيا به فى يد زميلهم مكسيموس ، الذى كان أجرا وأمهر أستاذ لعلم المعجزات . وعندما بلغ جوليان العشرين من عمره رسمه مكسيموس سرا فى مدينة افيسوس عضوا فى مدرسته الفلسفية ، كما أن اقامته فى أثينا ثبتت هذه الصلة غير الطبيعية بين الفلسفة والخرافات . ثم حصل على ميزة معرفة الأسرار الاليوزية التى ظلت تحتفظ ببعض قدسياتها الأولى وسط التدهور العام الذى اعتور العبادة اليونانية . وبلغ به الحماس درجة جعلته يدعو الحبر الاليوزى فيما بعد الى بلاط الغال مستهدفا فى ذلك غرضا واحدا هو أن يكمل هذا الحبر ، بتقديم القرابين وأداء الشعائر السرية ، عملية التقديس العظيمة التى أرادها لنفسه . وبما أن تلك الاحتفالات أقيمت فى أعماق الكهوف فى سكون الليل ، وبما أن جوليان الذى أقيمت هذه الاحتفالات من أجله ، قد احتفظ لنفسه بأسرار الغوامض التى حدثت ، على اعتبار أنها أسرار لا يمكن البوح بها ، فأنى لن أخوض فى وصف الأصوات المزعجة التى سمعها بأذنيه والأشباح النارية التى رآها بعينه ، أو التى خيل إليه أنه سمعها وأبصرها ، وهو المتطلع الطموح الذى يصدق كل شيء (١) ، حتى بدت عليه علائم الراحة والمعرفة فى وهج من نور سماوى . وفى كهوف افيسوس واليوزيا نفذ الى عقل جوليان حماسى صادق عميق لا يعتريه التغير ، رغم ما كان يظهره فى بعض الأحيان من تقلبات الخداع والنفاق التى يتسم بها المتدينون ، والتى يمكن ملاحظتها ، أو على الأقل يمكن الارتياح فى وجودها ، فى أخلاق من يستبد بهم التعصب . ومنذ تلك اللحظة وقف حياته على خدمة الآلهة . ورغم أن

(١) عندما رسم جوليان علامة الصليب ، فى لحظة ذعر مؤقتة ، اختفت الأبراج على الفور . ويعتقد جريجورى أنها خالت . غير أن الكهنة أعلنوا أنها استاءت وغضبت . وللقارئ أن يقرر فى هذه المسألة العويصة ما يراه على قدر إيمانه .

مشاغل الحرب والحكم والدراسة كان يبدو أنها تشغل كل أوقاته .
 إلا أنه كان يخصص جزءا محددا لا يحيد عنه من ساعات الليل لممارسة
 عبادته الخاصة . وكان ما فى خلقه من اعتدال جعل به السلوك العنيف
 الذى يتسم به الجندى والفيلسوف ، متصلا بقواعد صارمة قليلة الوزن
 من التقشف الدينى ، فكان فى أيام معينة ، وتكريما للاله بان أو الاله
 مركورى أو للاله هكيت أو للالهة ايزيس ، يحرم نفسه من تناول طعام
 بعينه قد لا ترضى عنه الالهة الوصية عليه . وبهذه الصيامات الاختيارية
 كان يهيئ ادراكه للزيارات الكثيرة المألوفة التى تشرفه بها القوى
 السماوية . ورغم أن جوليان قد أخذ نفسه بالصمت المتواضع ، إلا أننا
 نعلم من صديقه المخلص « ليبانيوس الخطيب » ، أنه كان على اتصال دائم
 بالآلهة ، وأن هؤلاء الآلهة كانوا يهبطون الى الأرض للتمتع بحديث بطلهم
 المفضل ، فانهم كانوا يقطعون عليه نومه فى لين ورقة ويلمسون يده أو
 شعره ، وأنهم كانوا يحذرونه من كل خطر محقق به ، ويرشدونه بحكمتهم
 المعصومة من الخطأ فى كل عمل من أعمال حياته ، وأنه اكتسب من المعرفة
 الوثيقة بضيوفه السماويين ما كان يمكنه من التمييز بين صوت جوبيتر
 وصوت مينرفا ، وبين شكل أبولو وشكل هرقل ولا شك فى أن كل
 رؤى النوم أو اليقظة هذه ، وهى نتيجة عادية للتعصب والتقشف ، يمكن
 أن تهبط بالامبراطور الى مستوى راهب من رهبان مصر ، غير أن
 أنطونيوس وباخوميوس قد استنفدا حياتهما التأففة فى مثل هذه
 الاهتمامات الباطلة ، وكان فى مقدور جوليان أن يصحو من أحلام
 الخرافة ليجهز نفسه للمعركة ، وبعد أن يقهر فى ساحة الحرب أعداء
 روما ، كان ينسحب فى هدوء الى خيمته ليملى القوانين الحكيمة النافعة
 التى كان يسنها للامبراطورية ، أو ليوجه عبقريته الى متابعة الادب
 والفلسفة متابعة يرتاح لها وينشرح لها صدره .

وكان ارتداد جوليان الى الوثنية سرا خطيرا لم يعرفه الا المخلصون
 من رفاقه فى الأسرار الذين ارتبط بهم برباط الدين والصداقة المقدس .
 وسرت هذه الاشاعة السارة فى حذر وحرص بين أنصار العبادة القديمة ،
 وأصبح ما ينتظره من عظمة ومجد موضع آمال الوثنيين وصلواتهم
 وتكهناتهم فى كل ولاية من ولايات امبراطوريته . وكانوا جميعا يتحرقون
 الى البرء من كل سوء واستعادة كل خير على يد ذلك المهدي الملكى .
 ولم يبد جوليان أى اعتراض على حماس رغباتهم الورعة ، بل اعترف
 فى براعة ومهارة بأنه يطمع فى بلوغ مركز يسمح له بأن يكون نافعا
 لبلاده ولدينه . غير أن خليفة قسطنطين كان ينظر نظرة عدائية الى ذلك
 الدين ، وكانت أهواؤه المتقلبة تنفذ حياته تارة وتهدها تارة أخرى .

وكانت فنون السحر والكهانة محظورة كل الحظر تحت حكومة استبدادية لم تتعال عن التصريح بأنها كانت تخشاه ، وإذا كانت هذه الحكومة قد سمحت للوثنيين ، على غير رغبة منها ، بممارسة خرافاتهم ، فإن مكانة جوليان كانت لا تتيح له التمتع بهذا التسامح ، وسرعان ما أصبح جوليان ولى العهد المنتظر للملكة ، ولم يكن ثمة شيء آخر يهدى من روح المسيحيين ومن مخاوفهم التي كانوا محققين فيها سوى موت هذا الرجل . غير أن الأمير الشاب ، الذي كان يتطلع الى بلوغ مجد البطولة لا مجد الاستشهاد ، توخى لنفسه الأمان بالمراعاة في دينه ، وسمح له يسر الوثنية وتساهلها بأن يشترك جهارا في عبادة الطائفة الأخرى التي كان يحتقرها في دخيلة نفسه ، وكان ليبيانيوس يعتبر نفاق صديقه هذا موضع المدح لا موضع النقد والتجريح . يقول ذلك الخطيب :

« كما أن تماثيل الآلهة التي لطختها الأقذار تقام ثانية في معبد فخم ، كذلك أعيد جمال الحق الى عقل جوليان بعد أن تظهر من أخطاء وحياقات تعليمه . ولقد تغيرت أحاسيسه فعلا ، غير أن خطورة تصريحه بتلك الأحاسيس أرغمته على ابقاء مسلكه كما كان دون تغير . وهو لم يفعل كما فعل الحمار في قصة ايسوب الذي أخفى نفسه في جلد الأسد . بل ان أسدنا قد اضطر الى إخفاء نفسه في جلد حمار ، ورغم أنه آمن بما أملاه عليه عقله ، الا أنه رضى لقوانين الحرص والضرورة . ولقد ظل جوليان على ريائه هذا أكثر من عشر سنوات ، منذ أن أدخل في زمرة عارفى الأسرار في مدينة أفيسوس ، حتى بدأت الحرب الأهلية ، وعند ذاك أعلن أنه عدو لدود للمسيح وعدو لقسطنطينوس سواء بسواء . ولا شك في أن حالة الكبت هذه كان من شأنها أن تلهب ولاءه للعقيدة الجديدة ، ومن ثم فانه ما كان يفرغ من الوفاء بالتزامه حضور اجتماعات المسيحيين في بعض الاحتفالات الرسمية ، حتى كان يعود ، في الهفة المحب الولهان ، الى حرق البخور حرا مختارا في معابد جوبيتر ومركورى القائمة في قصره . غير أن كل عمل من أعمال الرياء هو بالضرورة شيء يؤلم الروح البشرية الصادقة ، ومن ثم فان ادعاءه المسيحية زاده كراهية لديانة تكبت حرية عقله وتضطره الى التمسك بمسلك تنفر منه أنبل صفات الطبيعة البشرية ، صفة الاخلاص وصفة الشجاعة . »

وكان جوليان بطبيعة ميوله يفضل آلهة هوميروس وآلهة سكيبيوس على الديانة الجديدة التي أقامها عمه فى الامبراطورية الرومانية ، والتي بنى لها هو نفسه بسر المعمودية . غير أنه كان من المحتم عليه ، كفيلسوف ، أن يبرر انشغاقه عن المسيحية التي تؤيدها كثرة عدد معتنقيها وسلسلة من النبوءات ، وروعة المعجزات ، والأدلة التي لها وزنها ، ومن ثم فقد

ضمن كتابه الفذ الذى ألفه وسط الاستعدادات للحرب الفارسية جوهر تلك الحجج التى طالما دارت فى عقله زمنا طويلا . ولقد نسخ خصمه المتوقد كيرلس أسقف الاسكندرية بعض أجزاء من هذا الكتاب واحتفظ بها ، وهى تبين خليطا عجيبا من الذكاء والعلم ، ومن السفسطة والتعصب . وكانت رشاقة أسلوب الكتاب ومكانة مؤلفه من العوامل التى جعلت كتاباته تشد إليها الانتباه العام ، وطففت شهرة جوليان وجدارته على جميع من وردت أسماؤهم فى قائمة أعداء المسيحية المارقين ، الى درجة أنها طمست اسم بورفيرى الذى كان فى هذا المجال واسع الشهرة ذائع الصيت . ولقد أثر هذا الكتاب على عقول المؤمنين بصور مختلفة ، فاستمال بعض العقول ، وأزعج البعض ، وصدّم البعض الآخر . أما الوثنيون ، الذين كانوا فى بعض الأحيان يشتبهون فى النزاع غير المتكافئ ، فانهم كانوا يستمدون من ذلك الكتاب الذائع الذى ألفه مبشرهم الامبراطورى مادة لا ينضب معينها من الاعتراضات السفسطائية المليئة بالمغالطات . غير أن امبراطور الرومان ، فى موالاته لهذه الدراسات اللاهوتية ، تشرب بالتحيزات والأهواء المتزمتة التى يتسم بها معلمو الجدل والتزم التزاما لا رجعة فيه بالتمسك بأرائه الدينية والعمل على نشرها ، وبينما كان فى دخيلة نفسه يعجب بمهارته فى استخدام أسلحة الجدل ، فانه كان فى الوقت عينه يشك فى اخلاص خصومه أو يحقر مداركهم وفهمهم ، لأنهم يقاومون فى عناد قوة العقل وقوة الفصاحة .

وكان المسيحيون يشاهدون ردة جوليان فى فزع وسخط ، ويخشون بطشه وقوته أكثر من خوفهم من حججه ، أما الوثنيون فقد كانوا يشعرون بحماسة المشتعل ويتوقعونه منه فى لهفة أن يشعل على الفور نار الاضطهاد ضد أعداء الآلهة ، وأن حققه الماكر الماهر سوف يبتكر ألوانا جديدة من أساليب التعذيب والقتل القاسية لم تكن معروفة لدى أجداده المتسمين بالفظاظة والمفتقرين الى الخبرة . غير أن ما كانت تعقده الأحزاب الدينية من آمال وما كان يساورها من مخاوف ، لم يتحقق ، لأن حاكم البلاد كان ينصف بانسانية حكيمة وبالحرص على سمعته ، وعلى السلام العام وعلى حقوق الانسان . ولقد تعلم من التاريخ والتفكير الفلسفى أن أمراض الجسم قد تعالج أحيانا بشئ من العنف المفيد ، غير أن الآراء الخاطئة التى يعتنقها العقل لا يمكن أن تستأصل بالحديد والنار ، فقد تجر الضحية كارهة مرغمة الى المذبح ، غير أن قلبها يظل ينبض بالنقمة والسخط على ذلك الرجس الذى تقتصره أيدي أعدائها . ولا شك فى أن الظلم يذكى نار العناد الدينى ويزيده صلابة ، وما أن تنحسر موجة الاضطهاد حتى يتوب الذين استكانوا واستسلموا ، ويرفع الذين استشهدوا فى سبيل دينهم الى مصاف القديسين والشهداء . ولقد أحس جوليان أنه اذا استخدم

الأساليب القاسية الفاشلة التي استخدمها دقلديانوس وزملاؤه فانه سوف يطلع ذكراه باسم الطاعية ويضيف مجدا جديدا الى أمجاد الكنيسة الكاثوليكية التي استمدت من قسوة الحكام الوثنيين قوة ونمو . وبفعل هذه الدوافع التي تحكمت فى تصرفات جوليان ، وخوفا من ازعاج سكية ذلك العهد غير المستقر فقد فاجأ العالم بمرسوم يليق برجل سياسى أو بفيلسوف ، منح بمقتضاه كل سكان العالم الرومانى مزايا التمتع بالتسامح الحر الذى لا يميز فيه واحد على الآخر ، ولم يقيد المسيحيين الا بقيد واحد هو أنه حرمهم من القدرة على تعذيب أولئك الرعايا من زملائهم الذين وصوهم بذلك اللقب الكريه المحقوت ، لقب الوثنيين والهراطقة . وتلقى الوثنيون اذنه الكريم ، أو قل أمره الصريح بفتح « كل » معابدهم . وبهذا أنقذهم على الفور من القوانين الظالمة والمضايقات التعسفية التى تحماها تحت حكم قسطنطين وأبنائه . وفى الوقت عينه أعاد من المنفى أولئك الأساقفة ورجال الدين الذين كان الملك الآريوسى قد أبعدهم ، وهم أتباع دوناسيوس ، وأتباع نوفاسيانوس ، واليونوميون (المتطرفون من أتباع آربوس) والمقدونيون ، وأولئك الذين كانوا أسعد حظا وتمسكوا بعقيدة مجمع نيقيا ، أعاد هؤلاء جميعا ، كل الى كنيسته ، وبما أن جوليان كان يفهم خلافاتهم اللاهوتية ويسخر منها فقد دعا زعماء الطوائف المتخاصمة الى قصره حتى يستمتع بذلك المشهد الشائق ، مشهد صدامهم العنيف ، وفى بعض الأحيان كان ضجيج أصوات المتنازعين يدفع الامبراطور الى مخاطبتهم قائلا : « استمعوا الى ، لقد استمع الى الفرنجة ، وأصغى الى الجرمان » ، غير أنه سرعان ما كان يتبين أنه الآن أمام أعداء أشد حقا وأكثر عنادا . ومع أنه استخدم قدرته الخطابية فى حثهم على أن يعيشوا فى وفاق ، أو على الأقل فى ، سلام ، الا أنه اقتنع كل الاقتناع ، قبل أن يأمرهم بالانصراف من مجلسه ، بأنه لم يعد هناك ما يخشاه من اتحاد المسيحيين . وهذا التسامح المصطنع من جانب جوليان ينسبه اميانوس فى غير تحيز أو محاباة الى رغبة الامبراطور فى اثارة الانقسامات الداخلية فى الكنيسة ، ويقرر أن الخطة الماكرة التى دبرها لتقويض أسس المسيحية ، كانت وثيقة الصلة بتحمله الى إعادة الديانة القديمة للامبراطورية .

جوليان يعيد الوثنية ويصلحها

ما أن ارتقى جوليان عرش الامبراطورية حتى اتخذ لنفسه ، وفق عادات أجداده ، لقب الحبر الأعظم ، لا على أساس أن هذا اللقب هو أشرف ألقاب العظمة الامبراطورية فحسب ، بل على أساس أن هذا المركز

هو أيضا مركز مقدس هام صمم جوليان على أداء واجباته في جد وتقوى . ولما كانت مشاغل الدولة تحول دون اشتراكه كل يوم في العبادة العامة إلى يقرم بها رعاياه ، فقد خصص في قصره معبدا لاله الشمس الذي كان يتعبد له ، وكانت حدائقه مملوءة بالتماثيل وهياكل الآلهة ، كما أن كل جناح في القصر كان يبدو عليه مظهر المعبد الفخم . وفي كل صباح كان الامبراطور ينحر ذبيحة تحية للشمس ربّة النور ، وفي اللحظة التي تغرب فيها الشمس وراء الأفق كان ينحر ذبيحة أخرى كما أن القمر والنجوم وأرواح الليل ، كان كل منها يلقي التكريم اللائق به من جانب الامبراطور الذي لا يعترية تعب من تعبدته لتلك الآلهة . وكان في الاحتفالات الدينية الرسمية يزور بصورة منتظمة معبد الاله أو الآلهة التي كرس لها اليوم ، ويحاول أن يثير في الحكام وفي الشعب ذلك الحماس الديني الذي يضرب لهم مثله بما يبدية هو من حماس . ولم يكن في هذه المناسبات يبدو أمام الناس في مظهر الملك الرفيع ولا في رداء الملك الرائع المهيّب ، يخف به الحراس في دروعهم المذهبة ، بل كان بدلا من ذلك يقوم ، في لهفة خاشعة ، بأحقر أعمال التعبد للآلهة فكان يندفع وسط جموع الكهنة الخليعين ذوي المراكز المقدسة ، ووسط رجال الدين الأقل منهم مرتبة ، ووسط الراقصات المكرسات لخدمة المعبد ، وكان عليه حينذاك أن يحضر الاخشاب ، وينفخ في النار ، ويمسك بالسكين ، ويذبح الضحية ، ثم يدوم بيديه الملطختين بالسما داخل أحشاء الحيوان المذبح ليخرج قلبه أو كبده ، ويقرأ في مهارة العراف الكاملة تلك الانعلائم التي تدل على الأحداث المقبلة . غير أن الانراط في هذه الخرافات المأجنة كان موضع نقد عقلاء الوثنيين ، لأنه لا يقيم وزنا للقيود والضوابط التي يفرضها التعقل والوقار ، ورغم أن هذا الملك كان يتوخى قواعد الاقتصاد الصارمة ، إلا أن نفقات العبادة الدينية كانت تستهلك جزءا كبيرا جدا من الدخل ، فكانت أندر الطيور وأجملها تنقل من أجوائها البعيدة لتذبح على هياكل الآلهة وكثيرا ما كان جوليان ينحر مائة ثور قربانا للآلهة في يوم واحد ، وسرعان ما أصبح الناس يتندرون بأنه إذا عاد جوليان من الحرب الفارسية ظافرا فان سلالة الماشية ذوات القرون كلها سوف تفنى ، ومع ذلك فان كل هذه النفقات تبدو تافهة هزيلة اذا قيسست بالهدايا الفاخرة التي كان يمنحها الامبراطور بنفسه ، أو كانت تمنح بأمر منه ، إلى كل أماكن العبادة الشهيرة في العالم الروماني أو اذا قورنت بالمبالغ التي خصصت لاصلاح وزخرفة المعابد القديمة التي نالت منها معاول الزمن ، أو التي امتدت إليها يد المسيحيين حديثا بالسلب والتدمير . وكان سخاء هذا الملك التقى والمثل الذي ضربه لشعبه وأساليب الاغراء التي اتبعها ، كل أولئك كان مشجعا للمدن

والأسرات على أن تمارس من جديد ما كانت قد أهملته من طقوس وشعائر . يقول ليبانيوس في حماس التقى والورع : « كان كل جزء من أجزاء العالم يعبر ، دون خوف ودون تعرض للخطر ، عن نصره الديانة وظفريها ، وكنت ترى في كل مكان منظر الهياكل الموقدة البهيجة ، والضحايا التي تسيل منها الدماء ، والدخان المتصاعد من حرق البخور ، وطابورا من الكهنة والمتنبئين الخاشعين . وكانت أصوات الصلاة والموسيقى تنردد على قمم الجبال الشامخة ، وكان الثور نفسه ينحر قربانا للآلهة وغذاء لعبادها المهللين الفرحين » .

غير أن عبقرية جوليان وقوته لم تكونا على قدر المهمة التي اضطلع بها ، وهي إعادة ديانة تفتقر الى المبادئ اللاهوتية ، والقواعد الأخلاقية ، والنظام الكنسى ، ديانة تسير بخطوات سريعة الى التفكك والاضمحلال . ولا تقبل أى اصلاح ثابت مكين . وكانت السلطة القضائية التي يمارسها الحبر الأعظم ، وخاصة بعد أن أصبح ذلك المنصب موكولا الى العظمة الامبراطورية ، تمتد الى جميع أرجاء الامبراطورية الرومانية . وكان جوليان يعين فى مختلف الولايات أولئك القساوسة والفلاسفة الذين كان يرى أنهم أحسن من يتعاونون على تنفيذ خطته الكبرى . وكانت رسائله الكهنوتية ، اذا جاز لنا أن نستخدم هذا اللفظ ، ترسم صورة عجيبة لرغباته ومقاصده ، فهو يقرر فيها أن الطائفة الكهنوتية فى كل مدينة يجب أن تشكل من أكثر الأشخاص تميزا بحبهم للآلهة وللناس دون أى تفضيل للأصل أو الثروة . يقول جوليان : (فاذا صدر منهم أى سلوك معيب فان الحبر الأعظم هو الذى يوجه اليهم اللوم أو يخفض رتبته الكهنوتية ، ولكنهم طالما ظلوا شاغلين لمناصبهم فمن حقهم أن يتمتعوا باحترام الحكام والشعب . وينبغى أن يتمثل تواضعهم فى بساطة أرديتهم العادية ، وأن تتمثل هيبتهم فى فخامة أرديتهم الدينية . وعندما تستدعى جماعة منهم للخدمة أمام الهيكل ، فينبغى عليهم فى الأيام المقررة لذلك العمل ألا يغادروا حدود المعبد ، ويجب ألا يضيعوا يوما واحدا دون أن يقيموا الصلوات ويقدموا القرابين اللازمة لرفاهية الدولة وسعادة الأفراد . ان ممارسة مهامهم المقدسة تتطلب نقاء الجسم والعقل نقاء لا تشوبه شائبة ولا يمسه دنس ، وحتى عندما ينصرفون من المعبد لمباشرة أعمال حياتهم العادية ، فمن المحتم عليهم أن يبزوا بقية المواطنين وقارا وفضيلة . وينبغى ألا يشاهد كاهن الآلهة فى الملاحى والحانات وأن يكون حديثه طاهرا ، وطعامه معتدلا وأصدقائه ذوى سمعة شريفة . واذا قام بين حين وآخر بزيارة ساحة القضاء أو القصر ، فينبغى أن يسلك هناك مسلك المدافع عن أولئك الذين التمسوا العدالة أو الرحمة دون جدوى . ويجب أن تتلاءم دراساته مع

قدسية مهنته • أما مكتبته فلا بد من أن تستبعد منها القصة الماجنة والملمهة الخلية ، وكتب الهجو المتطرفة ، بحيث لا تشمل الا المؤلفات التاريخية القائمة على الحقيقة ، والكتابات الفلسفية المتعلقة بالدين • أما الآراء الضالة التي نادى بها الابيقوريون والمتشككون فينبغى ان يدون موضع كراهيته واحتقاره (١) ، غير أنه ينبغى عليه أن يثابر على دراسة آراء فيثاغورس وأفلاطون والرواقيين ، وهى تلك الآراء التي تقرر أن هناك آلهة ، وأن هؤلاء الآلهة يدبرون شئون الدنيا بعنايتهم ، وأن احسانهم هو مصدر كل نعمة دنيوية ، وأنهم قد أعدوا للنفس الانسانية ما تستحقه فى المستقبل من ثواب أو عقاب • ويشرح الحبر الامبراطورى فى أسلوب أعظم ما يكون اقناعا كل ما ينبغى أن يتضمنه الاحسان والكرم ويحث رجال الدين التابعين له على توصية الناس عامة بممارسة هذه الفضائل ، ويعددهم بأن يسد عوزهم من بيت المال ، ويعلن عن عزمه على انشاء المستشفيات فى كل مدينة حيث يعالج الفقراء دون تمييز لبلد من البلاد أو لدين من الأديان ، مما يثير الكراهية أو الحقد • وكان جوليان يرقب فى غيره ما سنته الكنيسة المسيحية من قواعد انسانية حكيمة ، ويقرر فى صراحة أنه يعتزم حرمان المسيحيين من التأييد الذى حصلوا عليه والمزية التى اكتسبوها نتيجة انفرادهم دون الوثنيين بممارسة أعمال البر والاحسان (٢) • وكانت روح التقليد هذه كفيلة بأن تدفع الامبراطور الى الأخذ بعدة نظم كنسية كان نجاح أعدائه دليلا على فائدتها وأهميتها • غير أن خطط الإصلاح الخيالية هذه ، لو أنها تحققت ، لجاءت صورة ناقصة لا تطابق الأصل ، ولكانت أمرا يفرض على الناس فرضا ، بحيث لا تفيده الوثنية بقدر ما تشرف المسيحية • وكان الوثنيون يتبعون عادات أسلافهم فى هدوء وسلام ، ولا ينظرون الى ادخال الغريب عليهم من العادات نظرة الرضا بقدر ما ينظرون اليه بعين الدهشة • وكثيرا ما حدث من الظروف والمناسبات ما جعل جوليان فى فترة حكمه القصيرة يشكو من افتقار طائفته الى الحرارة والغيرة •

(١) اغتباط جوليان بأن هذه الطوائف ، بل وكتاباتهما ، قد اندثرت ، انما يتمشى مع خلق رجال الكهنوت ، غير أنه لا يجدر بالفيلسوف أن يكون راغبا فى أن يخفى عن معرفة الانسان أية آراء وحجج مهما كان قدر تعارضها ومجافاتها لأرائه الخاصة •

(٢) غير أن ذلك - الى أن المسيحيين ، تحت شعار من الاحساس ، كانوا يفرون الاطفال على أيديهم وآبائهم ، وينقلونهم على ظهور السفن الى بلدان أخرى بعيدة ، حيث يخلصون - يحاييهم هؤلاء بحياة الفقر والعبودية •

ولو أن هذا الاتهام ثبتت صحته - لكان من واجبه أن يعاقبهم لا أن يجعل أعمالهم موضع شكوا •

وكان حرص جوليان دافعا حفزه على أن يحتضن مريدى الاله جوبيتر كأصدقائه وأشقائه الشخصيين ، وفى الوقت الذى كان يفض فيه الطرف قليلا عن مزية الثبات والجلد المسيحى ، كان يعجب بما اتصف به الوثنيون من مثابرة نبيلة على التمسك بآلهتهم جعلتهم يفضلون خطوة الآلهة على خطوة الامبراطور ، بل انه كان يكافئهم على ذلك . فاذا ما أخذوا بالأدب اليونانى مثل أخذهم بالديانة اليونانية ، كسبوا قدرا أكبر من صداقة الامبراطور الذى ضم آلهة الشعر والفنون الجميلة الى صفوف الآلهة التى يدين لها بالخضوع والطاعة . وكانت الديانة التى أخذ بها تعتبر التقوى والعلم صنوين ، ومن ثم فان جمهورا من الشعراء والفلاسفة وأرباب الخطابة والبيان سارعوا الى البلاط الامبراطورى لشغل الوظائف الشاغرة التى كان يشغلها الأساقفة الذين كانوا قد استحوذوا على ثقة قسطنطينوس .

أما خلفه جوليان فكان يعتبر روابط الاشتراك فى الأسرار الدينية أكثر قاسية من روابط قرابة الدم ، ومن ثم فقد اختار المقربين اليه والمفضلين لديه من بين الحكماء الماهرين فى علوم السحر والكهانة الغامضة ، وكل محتال دجال يدعى القدرة على كشف أسرار المستقبل ، كان فى مقدوره أن يتمتع فى حاضره بما يفدقه عليه الامبراطور من تشریف وميسرة . ومن بين هؤلاء الفلاسفة كان مكسيموس يحتل أسمى مراتب الصداقة لدى تلميذه الملكى الذى كان يفضى اليه ، فى ثقة كاملة ، بأعماله وأحاسيسه وخططه الدينية ، إبان فترة القلق التى توقفت فيها الحرب الأهلية .

وبمجرد أن استولى جوليان على قصر القسطنطينية ، بعث بدعوة كريمة عاجلة الى مكسيموس الذى كان اذ ذاك يقيم فى سارديس باقليم ليديا مع كريسانشيوس رفيق دراسته وزميل فنه ، ولقد كان هذا الرجل حريصا مؤمنا بالخرافات ، الأمر الذى جعله يرفض القيام برحلة أظهرت قواعد علم الغيب أنها تنذر بأشد الأخطار والمهلك . غير أن زميله مكسيموس كان أشد جرأة فى تعصبه ، فالحف فى السؤال والاستفسار حتى انتزع من الآلهة ما يبدو أنه موافقة على رغباته الخاصة ورغبات الامبراطور . وأظهرت رحلة مكسيموس الى القسطنطينية مارا بمدن آسيا أن الزهو بالفلسفة قد اكتسح الميدان ، فكان الولاة ينافس بعضهم بعضا فى استقبالات التكريم التى أعدوها لصديق مليكهم . وعندما علم جوليان بوصول مكسيموس ، وكان اذ ذاك يلقي خطابا أمام مجلس السناتو ، أوقف حديثه على الفور وتقدم للقاءه ، وبعد أن عانقه عناقا رقيقا قاده بيده الى وسط الاجتماع حيث اعترف علانية بما اكتسبه من تعاليم الفيلسوف . وسرعان ما اكتسب مكسيموس ثقة جوليان وأصبح له نفوذه على مجالسه ، غير أن مغريات البلاط أفسدت خلقه دون أن يحس ، فازداد فخامة فى

ملبسه وتعاليا في مسلكه الى درجة أنه تعرض ، في العهد الذي تلا عهد جوليان ، الى تحقيق مشين سئل فيه عن الوسائل التي استطاع بها تلميذ أفلاطون أن يجمع في الفترة القصيرة التي نال فيها حظوة الامبراطور قدرا ضخما من المال يجلب الفضيحة على صاحبه . أما الفلاسفة والسفسطائيون الآخرون الذين دعاهم جوليان باختياره الى مقامه الامبراطوري ، أو الذين نحح مكسيموس في دعوتهم ، فان قلة منهم استطاعت أن تحتفظ ببراءتها أو بسمعتها ، ولم تستطع المنح السخية التي أغدقها عليهم الامبراطور ، من أموال وأراض وبيوت ، أن تشبع أطماعهم الجشعة ، وثار سخط الناس عليهم بحق عندما تذكروا حالة الفقير المدقع التي كان عليها هؤلاء الفلاسفة حين جاءوا ، وما يجب أن تتصف به مهنتهم من ترفع عن الأغراض ، ولم يكن من السهل على بصيرة جوليان النفاذة أن تنخدع دائما بما كان يجري أمامه ، غير أنه لم يكن راغبا في امتهان شخصيات أولئك الرجال الذين كانت مواهبهم موضع تقديره ، وكان يريد أن يتجنب لوما مزدوجا ، لوما على افتقاره الى التبصر ، ولوما على عدم ثباته على مبدأ واحد . كما أنه كان يخشى أن يحط من شرف الأدب والدين في نظر الدنيويين من الناس .

وكانت رعاية جوليان مقسمة قسمة متساوية بين الوثنيين الذين تمسكوا في صلابة عبادة أجدادهم وبين المسيحيين الذين دفعهم الحرص الى اعتناق دين مليكهم . وكان اكتساب عدد جديد من المهتدين (١) الى الوثنية شيئا يشبع فيه أهواء الغالية على نفسه ، كما يشبع فيه غروره وميله الى الخرافات ، وسمع عنه أنه قال في حماس المبشرين انه حتى لو استطاع أن يجعل كل فرد من الأفراد أكثر ثراء من الملك ميداس ، وكل مدينة أعظم من مدينة بابل ، لما اعتبر نفسه ولى نعمة الناس الا اذا استطاع في الوقت عينه أن يرد رعاياه عن ثورتهم الضالة على الآلهة الخالدة . وكان في مقدور هذا الملك ، الذي درس الطبيعة الانسانية ، وامتلك خزائن الامبراطورية الرومانية ، أن يشكل حججه ووعوده وهباته بما يناسب كل طائفة من الطوائف المسيحية ، ومن ثم فانه كان يعتبر الارتداد الى الوثنية ، لو أنه جاء في أوانه ، ميزة في المرتد تعوض عن

(١) في عهد لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، كان رعاياه من كل طبقة يتطلعون الى الحصول على اللقب المجيد ، لقب « الهادي » Convertisseur الذي يعبر عن حماسهم ونجاحهم في كسب المرتدين .

ولقد أصبحت هذه الكلمة والمعنى الذي تعبر عنه شيئا عتيقا في فرنسا ، وبرجو الا يدخلنا انجلترا ابدا .

عيبه ، بل وتكفر عن الجرائم التي ارتكبها لو أنه كان مجرما . ولما كان الجيش أقوى أداة للحكم المطلق ، فقد حرص جوليان حرصا خاصا على افساد ديانة قواته ، لأن عدم تعاونها معه كان كفيلا بأن يعرض كل اجراء يتخذ للخطر والفشل . وكان فوزه في هذه المهمة أمرا سهلا بقدر ما كان أمرا هاما ، وذلك بفضل الخلق الطبيعي الذي كان يتصف به الجنود . وقد أخلصت فرق الجيش في بلاد الغال لعقيدة قائدهم المظفر ولمصائره ، وحتى قبل موت قسطنطيوس كان جوليان يصرح لأصدقائه ، في سرور ورضا ، بأن تلك القوات كانت تحضر في ولاء حار وشهية نهمة تلك الاحتفالات التي كان يقيمها في معسكره وينحر فيها مئات الثيران السمينة . أما جيوش الشرق التي تدربت تحت لواء الصليب ولواء قسطنطيوس ، فقد كانت في حاجة الى أسلوب من الاغراء أشد دهاء وأكثر تكلفة . ففي أيام الاحتفالات الرسحية العامة ، كان الامبراطور يتلقى ولاء قواته ويكافئها على جدارتها . وفي هذه المناسبات كان يحيط عرش ملكه بأعلام روما الحربية وأعلام الجمهورية ، وأزال اسم المسيح المقدس من علم قسطنطين الكبير (The Labarum) ، كما مزج شعارات الحرب والملك والخرافات الوثنية مزجا بارعا ، وكان من شأنه أن يجعل الجندي الذي يقدم تحية الاجلال لشخص مليكه ، أو لصورته ، يرتكب ذنب عبادة الأوثان . وكان الجنود يمرون في العرض تباعا ، وقبل أن يتسلم الواحد منهم من يد جوليان منحة سخية تناسب رتبته وخدماته ، وكان يطلب منه أن يلقي حبات قليلة من البخور في النار المشتعلة فوق الهيكل . وربما اعترض على ذلك بعض المسيحيين المعترفين ، وربما ندم على ذلك بعض آخر ، غير أن الاكثرية الكبرى كان يبهر نظرها الذهب ويرهبها وجود الامبراطور ، فترتبط بهذا الارتباط الاجرامى . وترغم على المواظبة على عبادة الآلهة في المستقبل بكل اعتبار من اعتبارات الواجب والمصلحة . وبكثرة تكرار هذه الحيل الماكرة ، وعلى حساب انفاق مبالغ ضخمة كانت تكفى لشراء خدمة نصف الامم السكودية ، استطاع جوليان أن يحصل لجنوده على الحماية الموهومة التي تمنحها الآلهة ، وأن يكتسب لنفسه ذلك التأييد القوي الفعال انذى أراده من القوات الرومانية . وفي الحق أنه من المحتمل ، بل ومن المحقق ، ان إعادة الوثنية وتشجيعها ، قد أظهر عددا كبيرا من أدياء المسيحية الذين كانوا بدافع من النفع المؤقت ، قد اعتنقوا ديانة العهد السابق ، والذين عادوا بعد ذلك بنفس الضمائر المرنة المطاعة الى العقيدة التي اتخذها خلفاء جوليان .

جوليان واليهود

فى الوقت الذى كان الملك التقى يعمل فيه دون انقطاع على ارجاع ديانة أسلافه ونشرها كان يدبر خطة عجيبة لاعادة بناء معبد اورشليم (بيت المقدس) . وفى رسالة عامة وجهها الى أمة المجتمع اليهودى المشتتة فى ولايات الامبراطورية ، نراه يرثى لمحنهم ، ويدين ظالمهم ، ويمتدح ثباتهم ، ويعلن أنه حاميمهم الكريم ، ويعبر عن أمله الورع فى أنهم ، بعد عودته من الحرب الفارسية ، سوف يأذنون له بأن يوفى ندور الشكر « للرب القادر على كل شيء » ، فى مدينة اورشليم المقدسة . ولا شك فى أن التزمت الدينى الأعمى الذى اتصف به هؤلاء المشردون البؤساء وعبوديتهم الوضعية لابد أن يثيرا ازدراء امبراطور فيلسوف ، غير أنهم اكتسبوا صداقة جوليان بحكم كراهيتهم العاتية لاسم المسيح . وكانت معابد اليهود الفقيرة الجرداء تثير فيهم الكراهية والحقد نحو الكنائس الثائرة المليئة بالمتعبدین ، غير أن قوتهم لم تكن معادلة لحقدهم ، ومن ثم فإن المتزمتين من رجال الدين عندهم كانوا يوافقون على اغتيال المرتد الى المسيحية سرا ، وكثيرا ما أثار صخبهم وضجيجهم المحرك للفتنة نائرة الحكام الوثنيين النزاعين الى الهدوء . وفى عهد قسطنطين أصبح اليهود رعايا لأبنائهم التأثيرين المرتدين الى المسيحية ، ولم يمض زمن طويل حتى شعروا بمرارة طغيان هؤلاء عليهم ، وألقى الملوك المسيحيون شيئا فشيئا تلك الحصانات المدنية التى منحها أو أكدها لهم سفروس ، ثم قام يهود فلسطين بحركة مضطربة طائشة كانت فيما يبدو ، مبررا لشتى أساليب الاضطهاد الناجمة التى ابتكرها أساقفة قسطنطينوس وخصيانه ضدهم . أما الحاخام اليهودى ، الذى كان لا يزال مسموحا له بممارسة سلطة قانونية مقلقلة ، فقد أقام فى طبرية . واحتلت مدائن فلسطين المجاورة ببقايا شعب ظل متمسكا فى شغف بأرض الميعاد . غير أن مرسوم هادريان تجدد ونفذ ، وكان أبناء هذا الشعب يرقبون من بعيد أسوار المدينة المقدسة التى دنسها فى نظرهم انتصار الصليب وولاء المسيحيين .

كانت اورشليم قائمة وسط أرض صخرية جرداء ، وكانت أسوارها تضم بينها جبل صهيون وأكرا داخل رقعة بيضوية الشكل مساحتها ثلاثة أميال انجليزية ، وأقيم الجزء الأعلى من المدينة وحصن داود صوب الجنوب على السفح المرتفع من جبل صهيون . وعلى الجانب الشمالى كانت مباني المدينة السفلى تغطى القمة الفسيحة لجبل أكرا ، كما أن جزءا من التل المعروف باسم المرية ، مهدته وسوته أيدي الانسان ، كان يقوم عليه هيكل مهيب ضخم ، هو هيكل الأمة اليهودية . وبعد أن دمر تيتوس

وهادريان ذلك الهيكل تدميرا نهائيا رسم على الأرض المقدسة شكل يمثل سن المحراث علامة على أن المكان أصبح محرما تحريما دائما . وبعد ذلك هجر الناس جبل صهيون وامتلات الرقعة الخالية من المدينة السفلى بالمباني الخاصة والعمامة لمستعمرة « عيليا » The Aelian Colony ، وانتشرت هذه المباني فوق تل كلفارى Calvary المجاور لتلك المنطقة وكانت الآثار الوثنية تدنس تلك الأماكن المقدسة ، وكرس معبد من المعابد للالهة فينوس في المكان المقدس الذي حدث فيه موت المسيح وبعثه ، ولسنا نعلم اذا كان ذلك شيئا متصودا أو أنه حدث مصادفة ، وبعد ثلاثمائة سنة تقريبا من تلك الأحداث العجيبة هدم معبد فينوس الدنس بأمر من قسطنطين ، وبعد أن أزيلت الأحجار والأتربة أبصر الناس ضريح المسيح المقدس . ثم أقام أول الأباطرة المسيحيين كنيسة فخمة في ذلك المكان المليء بالأسرار الغامضة المقدسة ، وكذلك امتدت أريحيته الورعة الى كل بقعة قدستها أقدام البطارقة وأقدام الأنبياء ، وأقدام ابن الله .

وقد جذبت أورشليم اليها جمهورا متلاحقا من الحجاج القادمين من شواطئ المحيط الأطلنطي ومن أقصى بلدان الشرق ، تتملكهم رغبة جامحة فى رؤية الآثار القديمة الأصيلة التى يتمثل فيها فداؤهم و خلاصهم . محتدين فى ورعهم وتقواهم حذو الامبراطورة هيلانة التى جمعت فى كبر سنها بين سلامة الطوية وبين المشاعر الحارة التى يبعثها فى الانسان ارتداد حديث الى الدين . ولقد اعترف الحكماء والأبطال الذين زاروا تلك الأماكن الشهيرة ، أماكن الحكمة والمجد ، اعترف هؤلاء جميعا بالالهام الذى تبعته روعة المكان ، وكل مسيحي ركع أمام الضريح المقدس كان يعزو ايمانه الحى وولاه الحار الى التأثير المباشر للروح الالهية . وكان حماس رجال الدين فى أورشليم وربما طمعهم ونهمهم ، من العوامل التى عززت هذه الزيارات النافعة وزادتها . فكانوا يحددون بصورة تقليدية لا جدال فيها المكان الذى حدث فيه كل حدث مشهود ، ويعرضون الأدوات التى استخدمت فى تعذيب المسيح ، كالمسامير والحربة التى اخترقت يديه ورجليه وجنبه ، وتاج الشوك الذى وضع على رأسه ، والعمود الذى جلد الى جواره ، وأهم من ذلك كله كانوا يعرضون الصليب الذى تألم فوقه ، والذى استخرج من بطن الأرض فى عهد أولئك الملوك الذين أدخلوا رمز المسيحية فى أعلام الجيوش الرومانية . وانتشرت دون مقاومة أخبار المعجزات التى كان يتحدث عنها لازما لتفسير ذلك الحدث الخارق ، حدث بقاء الصليب مدفونا لم يمسه سوء ، ثم الكشف عنه فى الوقت المناسب . وكان هذا الصليب الأصيل فى حراسة أسقف أورشليم ، يعرضه أمام الناس فى جلال يوم أحد عيد القيامة ، وكان الأسقف وحده هو الذى يشبع ما فى نفوس

الحجاج من ولاء عجيب بأن يمنحهم قطعاً صغيرة من الصليب الخشبي يوشونها بالذهب أو الجواهر ويحملونها معهم الى بلادهم ظافرين . غير أن هذا النوع من التجارة المربحة كان لابد أن ينتهى سريعاً بنفاذ المادة التى تباع وتشتري ، ومن ثم فقد أصبح من الأمور المجدية أن يناع أن الخشب العجيب له قوة غامضة على النمو ، وأن مادته ، رغم تناقصها المستمر ، ظلت كاملة غير منقوصة . وقد كان من المتوقع أن قدسية المكان واعتقاد الناس بالمعجزة الدائمة لا بد أن يكون لهما بعض التأثير النافع المفيد على أخلاق الناس وإيمانهم . غير أن أكثر الكتاب الدينين وقارا لم يسعهم إلا الاعتراف بأن طرقات أورشليم كانت تضج بضوضاء التجارة وصخب المذات ، وأن كل ضروب الرذيلة من فسق وسرقة وعبادة أوثان وقتل وتسميم ، كانت شيئاً مألوفاً لدى أهل المدينة المقدسة . ولقد أثار ثراء كنيسة أورشليم ورفعة شأنها أطماع الراغبين فيها من آريوسيين وأرثوذكس ، وتجلت قدرات الأسقف كيرلس ، الذى أنعم عليه بعد موته بلقب « القديس » ، فى ممارسة منصبه الأسقفى الوقور أكثر من أن تتجلى فى حصوله على هذا المنصب (١) .

وكان جوليان يتطلع الى استعادة المجد القديم الذى كان لهيكل أورشليم بدافع من الغرور والطموح اللذين اتسمت بهما عقليته . وبما أن المسيحيين كانوا مقتنعين كل الاقتناع بأن صرح القانون الموسوى كله كان مقضياً عليه بالدمار الدائم ، فإن الامبراطور السفسطائي كان يريد أن يجعل من نجاحه فى تلك المهمة حجة براقة ضد الايمان بالنبوءات وصدق الوحي والرؤيا (٢) . ولم يكن جوليان راضياً عن العبادة الروحية التى يمارسها المجتمع اليهودى ، غير أنه كان يجذب أنظمة موسى الذى لم يترفع عن الأخذ بكثير من شعائر مصر وطقوسها . وكان الاله الذى يعبد اليهود سواء فى مجتمعاتهم المحلية أو فى مجتمعهم القومى موضع اعجاب صادق من

(١) نيد كيرلس رسامته الارثوذكسية قسيساً وياشر أعمال الشمس ، ثم أعاد الأريوسيون رسامته قسيساً . غير أن كيرلس تغير مع الزمن . وكان من الحكمة بحيث اعتنق عقيدة « نيقيا » .

ويجل « تلمونت » ذكره ويتناولها فى لين ورفق ، ومن ثم فقد تحدث عن فضائله فى متن كتابه ، أما الأخطاء التى ارتكبها ، فقد أشار إليها اشارة عابرة فى المذكرات التى ذيل بها مؤلفه .

(٢) كشف العالم المتعسف وربرتن Warburton أسقف جلوسستر الراحل ، عن نوايا جوليان الخفية . وقد تحدث فى ثقة العالم اللاهوتى عن مسلك الاله الاعلى وواقعه ويتسم حديثه عن جوليان بكل الخصائص التى تنسب الى المدرسة الواربرتونية .

امبراطور يدين بتعدد الآلهة ، ولا يرغب الا فى زيادة عددها . وكان هذا الرجل شديد النهم بالقرايين النملوية الى درجة أنه كان يريد أن يبرز الملك سليمان فى تقواه وورعه حين نحر فى عيد التقدمة اثنى عشر ألف ثور ، ومائة وعشرين ألفا من الخراف . وربما كان لكل هذه الاعتبارات أثرها فى مخططاته ، غير أن الأمل فى تحقيق ميزة هامة عاجلة لم يسمح للملك المتعجل للأمر بأن يصبر حتى تنتهى الحرب الفارسية ، وهى حدث بعيد وغير أكيد . ومن ثم فقد صمم على أن يشيد ، دون إبطاء ، فوق المرتفع الشامخ من جبل موريه ، معبدا ضخما تتضاءل الى جانبه فخامة كنيسة القيامة القائمة على تل كلفارى المجاور ، وأن يشكل طائفة من الكهنة يكون لهم من الحماس لدينهم ما يمكنهم من كشف حيل منافسيهم المسيحيين ومن مقاومة أطماعهم ، وأن يدعو الى ذلك المكان جالية يهودية على درجة من انتعصب الشديدي تدفعها دائما الى تأييد الاجراءات العدوانية التى تستخدمها الحكومة الوثنية ، بل وتسبقها اليها . ولقد اتخذ الامبراطور لنفسه صديقا فاضلا عالما ، هو أليبيوس Alipius ، خصه من بين أصدقائه (اذا أمكن أن تتمشى كلمة امبراطور مع كلمة صديق) بالمكانة الأولى . وقد جمع اليببوس بين الحنان وبين العدالة الصارمة والجلد اللاتى بالرجال ، وبينما كان يمارس قدراته هذه فى الادارة المدنية فى بريطانيا ، كان ينظم المقطوعات الشعرية على نحو قصائد الشاعر اليونانى سافو فى رقتها وانسجامها . وكان جوليان يفضى الى هذا الوزير دون تحفظ بأشد حماقاته طيشا وبأخطر آرائه ، فكلفه بمهمة عجيبة غير عادية ، وهى أن يعيد بناء هيكل اورشليم فى جماله الأول الاصيل ، ولقى اليببوس فى هذا العمل الذى باشره بجده ومثابرة تأييدا قويا من حاكم فلسطين ، اذ كان العمل فى حد ذاته يتطلب مثل هذا التأييد ، وعندما تلقى اليهود دعوة منةذهم العظيم جوليان الى اورشليم اجتمعوا من كل ولايات الامبراطورية فوق جبل اجدادهم المقدس ، وأزعج انتصارهم الفاجر سكان اورشليم المسيحيين ، بل وأثار سخطهم وغضبهم . ولقد كانت الرغبة فى اعادة بناء المعبد عاطفة تملك أبناء اسرائيل فى كل العصور وفى تلك اللحظة الموفقة نسي الرجال جشعهم ، ونسى النساء رقتهن ، فتقدم الأغنياء المغرورون بمعاول وفؤوس من الفضة ، ونقلت الأتربة فى عباءات من الحرير . وأسهم كل انسان بأمواله فى كرم وسخاء ، وامتدت كل يد تطلب الاشتراك فى ذلك العمل الصالح ، ونفذ شعب بأسره فى حماس أوامر الملك العظيم .

ومع ذلك ، فان تضافر القوة والحماس فى مجهود مشترك لم يصب فى تلك المناسبة نجاحا ، وبقيت أرض الهيكل اليهودى ، التى يقوم عليها الآن مسجد اسلامي ، كما كانت عليه من قبل ، مشهدا للخراب والدمار ،

ومنهلا للعبر . وربما كان غياب الامبراطور ثم موته ، ومعجى عهد مسيحي بمبادئه الجديدة ، هما السبب الذى يفسر توقف عمل مجهد شاق باشره أصحابه فى الشهور الستة الأخيرة من حياة جوليان . غير أن المسيحيين كان يراودهم أمل طبيعى دينى فى حدوث معجزة خارقة تشد أزر شرفهم الدينى فى ذلك الصراع المشهود . وهناك من الأدلة المعاصرة الموثوق بها ما يؤيد ، فى قليل من الاختلاف ، حدوث زلزال ، وهبوب عاصفة هواء ، وثورة بركان عارمة ، دمرت الأسس الجديدة التى شادها اليهود للهيكل ، وطرحت بها فى جميع الأرجاء . ولقد جاء وصف هذا الحدث المشهود على لسان امبروز ، أسقف ميلان ، فى رسالة كتبها الى الامبراطور ثيودوسيوس ، وهى رسالة لابد أن تثير على صاحبها أشد اللوم فى جانب اليهود . وذكره أيضا الجبر الألمى كريسوستوم نقلا عن كانوا يكبرونه سنا من رجال الدين فى انطاكية ، وتحدث عنه كذلك جريجورن نازيانزن الذى نشر قصة المعجزة قبل انصرام السنة نفسها . وقد أعلن هذا الكاتب الأخير فى جراءة وشجاعة أن الكفار لم يكذبوا هذا الحدث الخارق للطبيعة ، وهذا القول . على غرابته ، تؤيده شهادة دامغة أدلى بها أميانوس ماركاينوس . وهذا الجندى الفيلسوف ، الذى أحب فضائل سيده جوليان دون أن يأخذ بتعصبه وتحيزه ، قد ذكر فى التاريخ الصادق المنصف الذى كتبه عن العصر الذى عاش فيه ، تلك العقبات العجيبة غير العادية التى حالت دون إعادة بناء معبد اورشليم . يقول هذا الكاتب : « بينما كان البيبوس ، بمعاونة حاكم الولاية ، يقوم بتنفيذ العمل فى قوة ومثابرة ، كانت تنفجر الى جوار البناء ، فى هجمات كثيرة متكررة ، كرات نارية رهيبة تفلح أجساد العمال وتحرقها ، وتجعل دخولهم الى المكان مستحيلا . واستمرت النار على هذا المنوال فى عناد وتصميم ، كما لو كانت عازمة على طردهم بعيدا ، حتى اضطر الناس الى التخلي عن المشروع بأكمله » . ولا شك فى أن مثل هذه الحجة الموثوق بها تلقى لدى العقل المؤمن قبولا ، ويدهش لها العقل الذى لا يصدق كل ما يقال . ومع ذلك فإن الفيلسوف لابد أن يشعر بالحاجة الى الدليل الاصيل الذى يأتى به شهود عيان من الأذكياء الذين لا يحابون ولا يتحيزون . وفى مثل هذه الأزمة الخطيرة ، فإن أية حادثة عجيبة من حوادث الطبيعة قد تبدوا كأنها معجزة حقيقية ، ويكون لها من التأثير مثل تأثير المعجزة . ومن ثم فقد تناول رجال الدين فى اورشليم هذا الحدث الذى كان فيه خلاصهم بالتهويل والتهذيب ، مستخدمين فى ذلك فنونهم الدينية ، ومستغلين استعداد العالم المسيحي لتصديقه والايان به . وبعد انقضاء عشرين سنة على هذا الحادث : جاز

لمؤرخ روماني لا يعبأ بالخلافات الدينية أن يزين مؤلفه بتلك المعجزة الرائعة المزعومة •

اضطهاد جوليان للمسيحيين

كانت رغبة جوليان في إعادة بناء معبد اليهود مرتبطة خفية برغبته في هدم الكنيسة المسيحية ، ولقد ظل جوليان محافظا على حرية العبادة الدينية دون أن يدري اذا كان هذا التسامح العام صادرا عن عدالة أو عن دافع من الشفقة والرحمة • وكان يدعى بأنه مشفق على المسيحيين التعتساء الذين جانبهم الصواب في أهم هدف من أهداف حياتهم ، غير أن شفقتهم هذه كانت مشروبة باحتقار للمسيحيين زادت مرارة كراهيته لهم • وكان يعبر عن أحاسيسه هذه بأسلوب ذكي ساخر يصيب الضحية بجرح قاتل ، سيما اذا كان صادرا من شفاه ملك البلاد • ولقد أدرك جوليان أن المسيحيين يتفاخرون باسم المسيح ، مخلصهم وفاديتهم ، ومن ثم فقد شجع استخدام اسم آخر أقل تشريفا لهم وهو « الجليليون » ، ان لم يكن قد أمر بذلك • وأعلن أن حماقة الجليليين ، الذين وصفهم بأنهم طائفة من المتعصبين يحتقرون الناس وتمتقتهم الآلهة ، قد دفعت الامبراطورية الى حافة الهلاك والدمار ، ولمح في مرسوم عام أصدره بأن المريض الثائر الذي لا يملك زمام نفسه قد يجدى في علاجه العنف أحيانا • وقد تملك عقل جوليان وآراءه تفرقة ظالمة تتسم بالتعصب بين طائفتين من رعاياه ، تختلف كل منهما عن الأخرى في مشاعرهما الدينية • وكان يرى أن واحدة منهما جديرة بحظوته وصداقته ، وأن الطائفة الأخرى لا تستحق الا المزايا العامة التي يأبى عليه عدله أن يحرم منها شعبا مطيعا • وقد وضع جوليان مبدأ يفيض بالظلم والأذى ، نقل بمقتضاه الى أحبار ديانته هو حق التصرف في المنح السخية التي كان قسطنطين التقى وأبناؤه قد أغدقوها من الخزانة العامة على الكنيسة المسيحية ، وقضى على ذلك النظام المجيد الذي كان يحدد مكانة رجال الكهنوت وحصاناتهم ، وهو النظام الذي وضع من قبل في كثير من العناية والمهارة • وكذلك سن من القوانين الصارمة ما هدم آمالهم في الحصول على الهبات التي كان يوصى بها الناس لهم • وهكذا أدخل القسوس المسيحيين في زمرة أحقر طبقات الشعب وأقلهم شأنا • ومما هو جدير بالذكر هنا أن ملكا أرثوذكسيا حكيما جاء بعد جوليان ، سرعان ما اتقى من تلك القواعد التي وضعها ما رآه ضروريا لكبح أطماع رجال السياسة أو من يتعصب والتزمت ، على أن تكون قاصرة على أولئك الكهنة الذين يسلمون بديانة الدولة ، غير أن مشيئة المشرع لم تكن في هذا الشأن خلوا من التحيز والهوى ، وكان جوليان يهدف بهذه السياسة

الماكرة الى أن يحرم المسيحيين من كل المزايا والأمجاد الدنيوية التي أكسبتهم اجلالا واحتراما في أعين العالم .

ولقد وجه نقد شديد عادل الى القانون الذي سنه جوليان وحرم به على المسيحيين تعليم فنون النحو والبلاغة . وكانت الدوافع التي ذكرها الامبراطور لتبرير هذا الاجراء الظالم المتحيز ، من النوع الذي يكفل تكميم أفواه العبيد واستحسان المتملقين ، طالما بقي الامبراطور على قيد الحياة . ذلك أنه استقل استغلالا سيئا كلمة من الكلمات اليونانية مبهمة المعنى بحيث يمكن أن تعنى لغة اليونان ، كما يمكن أن تعنى ديانة اليونان ، وقال في احتقار ان أولئك الذين لا يجهرن بالايمان بديانة اليونان ، لا يحق لهم أن يطالبوا أو يتمتعوا بمزايا العلم ، وأكد في غرور أنهم اذا رفضوا عبادة آلهة هوميروس وديموستين ، وجب عليهم أن يقنعوا بشرح انجيل لوقا وانجيل متى في كنائس الجليليين . وكان تعليم الشباب في كل مدن العالم الروماني موكولا الى أساتذة النحو والبلاغة الذين ينتخبهم الحكام ، وينفقون عليهم من الأموال العامة ، ويخصونهم بالكثير من الامتيازات المشرفة المربحة . ويبدو أن مرسوم جوليان شمل الأطباء وأساتذة كل الفنون الحرة . وبما أن الامبراطور قد احتفظ لنفسه بحق التصديق على طلبات مراولة هذه المهن ، فقد أصبح في مقدوره بحكم القوانين أن يعاقب أعلم المسيحيين على ثباتهم الديني اذا ثبتوا ، أو يفسد هذا الثبات اذا ما أرغموا على التحول عن دينهم . وقد ترتب على هذا الوضع أن استقال المعلمون الأكثر عنادا وصلابة ، وفتح المجال على مصراعيه أمام السفسطائيين الوثنيين الذين أصبحوا سادة الموقف دون منازع أو منافس ، وطلب جوليان من شباب الجيل الصاعد أن يتجهوا في حرية الى المدارس العامة ، وكله ثقة في أن عقولهم الغضة سوف تتلقى هناك انطباعات الأدب والوثنية . فاذا تورع الجزء الأكبر من الشباب المسيحي عن قبول هذا النوع الخطر من التعليم ، أو اذا رفض آباؤهم ذلك العرض ، فانهم سوف يحرمون ، في الوقت عينه ، من مزايا التعليم الحر . وكان جوليان على حق في توقعه أن الكنيسة سوف تعود نتيجة لذلك الى حالتها البدائية البسيطة في غضون سنوات قليلة ، وأن رجال الدين الذين كانوا يملكون قدرا مناسباً من علم ذلك العصر وفصاحته ، سوف يخلقهم جيل من المتعصبين الجهلاء غير المتبصرين الذين لا يستطيعون الدفاع عن صديق مبادئهم أو التشهير بمختلف حماقات الوثنية .

ولا شك في أن جوليان كان راغبا في حرمان المسيحيين من مزايا الثروة والعلم ، وكان يرسم الخطة لذلك . غير أن ابعادهم عن كل الوظائف

التي يكون صاحبها موضع الثقة ، والتي تدبر عليه ربحا ، كان اجراء ظلما يبدو أنه جاء نتيجة سياسته العامة أكثر منه نتيجة لأى قانون وضعى . ورغم أن أصحاب الكفاية الممتازة كانوا يستحقون بعض الاستثناءات غير العادية ويحصلون عليها ، إلا أن أكثرية الموظفين المسيحيين أبعدوا شيئا فشيئا عن وظائفهم فى الدولة وفى الجيش وفى الولايات . كما أن آمال طلاب الوظائف فى المستقبل تحطمت على يد حكام يعلن على الملأ تحيزه ضدهم ، ويذكروهم فى حقد وخبث أنه ليس من حق المسيحي أن يستخلم سيف القتال أو سيف العدالة ، ويعنى بحماية معسكرات الجيش وساحات القضاء بشعارات الوثنية . وقد سلم جوليان سلطات الحكم الى الوثنيين الذين أظهروا حماسا متقددا لديانة أسلافهم ، وبما أن اختيار الامبراطور كان فى أكثر الأحيان نتيجة توجيه الكهان والعرفان فان أولئك المحظوظين الذين كان يفضلهم على أساس أنهم أكثر الناس قبولاً لدى الآلهة لم يكونوا دائما موضع الرضا من الناس . ولهذا عانى المسيحيون كثيرا تحت حكم أعدائهم ، وكان ما يخشونه أكثر مما يعانون . ولم يكن جوليان ميالا بطبعه الى القسوة ، كما أنه كان يهتم بسمعته التى تتطلع اليها عيون العالم ، وهذا كله جعله يتورع عن خرق قوانين العدالة والتسامح التى وضعها بنفسه منذ وقت قريب . غير أن المنفذين لسلطته من حكام الولايات لم يكونوا محط الأبصار مثله ، وكانوا ، فى ممارستهم لسلطتهم المطلقة ، يتلمسون رغبات مليكهم أكثر مما يتلقون أوامره ، ومن ثم فانهم وجدوا لديهم من الجراءة ما جعلهم يمارسون طغيانهم السرى الكيدى على أبناء تلك الطوائف الذين لم يكن مسموحا لهم بقتلهم ، حتى لا يكتسبوا بذلك شرف الاستشهاد . أما الامبراطور فقد تظاهر أطول مدة ممكنة بأنه لا يدري شيئا عن أعمال الظلم التى كانت تمارس باسمه ، ولكنه كان يعبر عن شعوره الحقيقى تجاء مسلك موظفيه بالتأنيب الرقيق أو المكافآت السخية .

وكان أمضى سلاح من أسلحة الظلم والاضطهاد فى أيديهم ، ذلك القانون الذى يحتم على المسيحيين أن يقدموا تعويضا كاملا مناسباً عن المعابد التى دمرها فى العهد السابق . ولم تكن الكنيسة فى ذلك الوقت السابق تنتظر موافقة السلطات العامة على هدم المعابد ، بل كثيرا ما كان الإساقفة ، وهم فى مأمن من العقاب ، يسرون على رأس طوائفهم لمهاجمة وتدمير حصون ملك الظلام . وكانت الأراضي الموقوفة على المعابد والتى آلت بعد هدم المعابد الى الملك أو الى رجال الدين ، محددة المعالم ومن السهل اعادتها الى أصحابها غير أن المسيحيين ، فى كثير من الأحوال ، كانوا قد أقاموا صروحهم الدينية على هذه الأراضي وعلى أنقاض معابد الخرافة

الوثنية ، ولما كان من الضروري أن تزال الكنيسة قبل أن يشاد المعبد من جديد ، فقد أشاد فريق الوثنيين بعدالة الامبراطور وتقواه ، بينما اعتبر الفريق المسيحي هذا العنف من جانبه تدنيسا للأماكن المقدسة ، وصبوا سخطهم ولعناتهم عليه . وبعد أن هدمت كنائس المسيحيين ومهلت الأرض ، أصبحت إعادة بناء معابد الوثنيين الضخمة التي كانت قد سويت بالتراب ، واسترداد الزخارف الثمينة التي حولها المسيحيون إلى ما يستفيدون منه ، أصبح كل ذلك أمرا يتطلب نفقات ضخمة في صورة تعويضات وديون . ولم يكن لدى المتسببين في تلك الأضرار وهم المسيحيون ، قدرة ولا استعداد للوفاء بهذه المطالب المتراكمة ، ولو كان المشرع حكيما وغير متحيز ، لأظهر حكمته وعدم محاباته في تسوية شكاوى ومطالب طرفي النزاع عن طريق تحكيم عادل معتدل . غير أن الامبراطورية كلها ، والشرق بنوع خاص ، كانت في حالة ارتباك وفوضى من جراء المراسيم التي أصدرها جوليان في تسرع وتهور ، كما أن حكام الولايات الوثنيين ، الملهبين حماسا ورغبة في الانتقام ، أساءوا استغلال الميزة القوية التي منحهم إياها القانون الروماني ، وهي أن المدين الذي لا يستطيع الوفاء بديونه ، ويصبح من حق دائئه أن يتصرف في شخصه سدادا للدين . وقد حدث في العهد السابق أن الأسقف مرقس ، أسقف أرثوذا ، كان قد استخدم في تحويل الناس إلى المسيحية أساليب أشد فعالية من مجرد الاقتناع ، ومن بين هذه الأساليب أنه ، في حماس لا يقبل تساهلا أو تسامحا ، هدم أحد معابد الوثنيين ، ومن ثم فإن حكام جوليان طالبوه بأن يدفع ثمن المعبد الذي هدمه كاملا . ولما كانوا على يقين من فقره ، فقد كانت رغبتهم الوحيدة أن يذلوا كبرياه العنيدة بأن ينتزعوا منه وعدا بدفع أتعفه تعويض . وكانوا يخشون الحبر العجوز ، فجلدوه بطريقة وحشية ، ومنتفوا ذقنه ، ثم طلوا جسده العاري بعسل النحل ، وعلقوه في شبكة بين السماء والأرض عرضة للدغ الحشرات ولأشعة الشمس السورية . غير أن الأسقف مرقس ظل ، وهو معلق على هذه الصورة ، يفخر بالجريمة التي ارتكبها ، ويوجه الإهانات إلى معذبيه العاجزين الغاضبين . ثم أنقذ في نهاية الأمر من أيديهم ، وأصبح طليقا يستمتع بشرف نصره الإلهي . وأخذ الآريوسيون يمجدون فضيلة راعيهم التقى ، ويطمع الكاثوليك في تحالفه معهم . أما الوثنيون ، الذين ربما استشعروا الخزي والندم ، فقد أوقفهم ذلك عن تكرار مثل هذه القسوة عديمة الجدوى . ثم عفا عنه جوليان ، ومنحه حق الحياة ، غير أن أسقف أرثوذا كان هو الذي قد أظلم طفولة جوليان بحمايته ، ومن ثم فإن الجيل المقبل سوف يدين نكران الامبراطور للجميل بدلا من أن يمتدح شقيقته .

معبد « دافنى » وغابتها المقدسة

على بعد خمسة أميال من أنطاكية ، كان ملوك سوريا المقدونيون قد كرسوا للاله أبولو مكانا للعبادة يعتبر من أفخم أماكن العبادة فى العالم الوثنى ، وشادوا هناك معبدا رائعا تكريما لاله النور ، وأقاموا له فى المعبد تمثالا ضخما يكاد يملأ المحراب القسيح ، زينوه بالذهب والآلى ، وتناوله مهرة الفنانين اليونان بالزركشة والزخرفة . وتمثل الاله فى وضع منحى وهو يمسك بيده قدحا مذهبا يسكب منه على الأرض خمرا ، كما لو كان يتضرع الى الأم الوقور أن تعيد الى ذراعيه محبوبته الجميلة الفاترة « دافنى » . ولقد أضفت الأساطير على ذلك المكان رونقا وجلالا ، وكان خيال الشعراء السوريين قد نقل هذه القصة الغرامية من شواطئ بنيوس Peneus الى ضفاف نهر العاصى Orontes وظلت مستعمرة أنطاكية الملكية تقلد الشعائر القديمة التى كان يمارسها اليونان . وكانت تتدفق من النافورة « القسطالية » فى دافنى نبوءات تنافس فى صدقها وشهرتها تكهنات عرافة دلفى . وأقيم فى الحقول المجاورة ملعب كبير دفع ثمن التصريح ببنائه الى مدينة « ايلس » ، وكانت الألعاب الأولمبية يحتفل بها على نفقة المدينة ويصرف دخلها المقدر بثلاثين ألفا من الجنيهات الاسترلينية سنويا على ألوان اللهو العام . ونشأت الى جوار المعبد ، بصورة غير محسوسة ، قرية جميلة أهلة بالسكان هى قرية دافنى التى كانت تضارع فى فخامتها مدينة اقليمية دون أن يطلق عليها اسم المدينة ، وذلك نتيجة لتدفق الحجاج والمشاهدين على المكان بصورة مستديمة . وكان المعبد والقرية قائمين فى حوض غابة كثيفة من أشجار الغار والسرو يمتد محيطها عشرة أميال ، ويجد فيها الناس فى أحد أيام الصيف ظلا ظليلا رطبا لا تنفذ اليه أشعة الشمس . وتناثرت فى تلك البقعة آلاف الجداول التى تنساب فيها من كل تل أنقى المياه وأصفافها ، فتحفظ للأرض خضرتها ، وللهواء حرارته اللطفة ، ولم يكن يسمع فى تلك الغابة الهادئة الساكنة الا الأصوات الجميلة المتناسبة ، كما لم يكن يفوح منها الا العبير العطرى ، ومن ثم فقد خصصت للصحة والمرح ، وللترف والحب . وكان الفتيان الممثلون شبابا ينشدون هناك فتيات أحلامهم كما كان يفعل الاله أبولو ، أما العذارى الخجولات فقد وجدن فى مصير العذراء « دافنى » ما يشجعهن على التخلى عن حماقة الحياء : وقد وجد الفلاسفة والجنود أنه من الحكمة ألا يعرضوا أنفسهم لاغراء تلك الجنة التى تفيض بما يثير الحواس ويستهوئ الأجساد ، حيث تتخذ الملذات طابع الدين ، وتذيب فضيلة الرجولة دون أن يشعر الانسان . ورغم ذلك فقد ظلت غابات « دافنى » عصورا كثيرة تتمتع باحترام الوطنيين والأجانب ، كما أن كرم

الأباطرة المتعاقبين أغدق على المكان المقدس مزيدا من الامتيازات ، وكان كل جيل يضيف زخارف جديدة إلى رونق المعبد وروعته .

وعندما سارع جوليان ، يوم الاحتفال السنوى ، إلى التعبد للاله أبوللو فى معبد « دافنى » كانت حرارة الايمان قد ارتفعت فى صدره الى ذروتها تلهفا وولها ، وقد صور له خياله الملهب أنه سوف يشاهد عظمة قرابين الشكر المقدمة للاله من ضحايا وخمور وبخور ، وموكبا طويلا من الفتيان والعذارى فى ثياب بيضاء ترمز الى طهارتهم ، وجمعا غفيرا من الناس يهللون ويكبرون . غير أن حماس أنطاكية كان قد تحول منذ عهد المسيحية الى مجرى آخر . فبدلا من الثيران السمينه العديدة التى كانت تنحرها قبائل المدينة الثرية قربانا لالههم الذى يتعبدون له ، فإن الامبراطور لم يجد الا أوزة واحدة قدمها على نفقته الخاصة كاهن شاحب الوجه كان يعيش وحيدا فريدا فى ذلك المعبد المتهدم (١) . وكان الهيكل مهجورا . وصوت الوحى صامتا ، أما البقعة المقدسة فقد دنستها الشعائر الجنائزية المسيحية . وكان قد حدث من قبل أن جثمان الأسقف بابيلاس (أحد أساقفة أنطاكية) ، الذى مات فى سجنه اثر حركة تعذيب أجراها ديسيوس بعد أن رقد قرابة مائة عام فى قبره ، نقل بأمر من القيصر جالوس الى وسط غابة دافنى . ثم أقيمت كنيسة رائعة فوق قبره ، واغتصب جزء من الأرض المقدسة ليعيش عليها رجال الدين ، ولكى يدفن فيها مسيحيو أنطاكية الذين كانوا يطمعون فى الرقاد تحت أقدام أسقفهم ، ومن ثم فقد انسحب كهنة أبوللو وغادروا المكان مع جمهور المتعبدین له ، وهم خائفون ساخطون . وما أن بدت بوادر ثورة أخرى تهدف الى إعادة مجد الوثنية ، حتى هدمت كنيسة القديس بابيلاس ، وأضيفت مبان جديدة الى ذلك الصرح المتهدم الذى شاده ملوك سوريا الأتقياء . غير أن جوليان وجه أول وأهم سنايته الى إنقاذ الهه المظلوم من المسيحيين الذين أسكتوا صوت الحماس أو صوت الدجل والخداع ، اذ كان وجود الأحياء منهم والأموات شيئا كريها وممقوتا لديه . ومن ثم فقد طهر المكان الموبوء ، واتبعت فى ذلك الطقوس القديمة ، فنقلت جثث الموتى فى احترام ، وسمح لقساوسة الكنيسة بأن ينقلوا رفات القديس بابيلاس الى موطنهم السابق داخل أسوار أنطاكية . وقد تخلى المسيحيون فى حماسهم لهذا العمل عن مسلك التواضع الذى ربما كان كفيلا بتهدة غيرة حكومة تناصبهم العداء ، فتنجست

(١) يظهر جوليان فى كتابه « الميزوبوجون » (Misopogon) 'خلاقه الشخصية فى تلك السذاجة ، والبساطة الطبيعية التى لا يحس بها صاحبها والتى تشكل دائما موضوعا للمفاهمة .

جماهير من الناس لا يحصى عددهم ، سارت وراء العربة التي نقلت جثمان بابيلاس ، ولازمتها واستقبلتها وكانوا ينشدون في أصوات مجلجلة مزامير داود التي تعبر أصدق التعبير عن احتقارهم للأوثان ومن يعبدونها . وكانت عودة جثمان القديس نصرا للمسيحيين ، وكان النصر اهانة لدين الامبراطور الذي تحامل على كبريائه . لكي يخفى استيائه . وخلال الليلة التي انتهى فيها هذا الموكب المتسم بالتهور ، أشعلت النار في معبد « دافني » ، وأحرق تمثال أبوللو وتركت أسوار البناء أثرا عاريا يبعث الرهبة في القلوب . ولقد أكد مسيحيو أنطاكية في ثقة دينية أن قوة شفاعة القديس بابيلاس هي التي وجهت بروق السماء الى السقف المقدس ، وأصبح جوليان أمام أمرين لا ثالث لهما ، فاما أن يؤمن بحدوث المعجزة ، أو يقرر أن في المسألة جرما ، فاختار دون تردد ، ودون أى دليل لديه ، ولكن في شيء من الاحتمال ، أن الجليليين هم الذين أشعلوا النار في معبد دافني ، بدافع من الانتقام . ولو أنه استطاع أن يثبت عليهم اقتراف ذلك الجرم ، ثباتا كافيا ، لكان هذا مبررا لما اتخذته فور ذلك من اجراء ثأرى نفذ بأمر منه ، وهو اغلاق أبواب كاتدرائية أنطاكية ومصادرة ثروتها . وفي سبيل اكتشاف المجرمين الذين أثاروا الشغب ، وأشعلوا النار ، وقاموا بتهريب نفائس الكنيسة ، عذب الكثيرون من رجال الدين وقطعت رقبة نظران اسمه تيودور Theodore بمقتضى حكم أصدره حاكم الشرق . غير أن هذا العمل السريع كان موضع تائيب الامبراطور ، الذي عبر عن أسفه الحقيقي . أو المصطنع ، لهذا الحادث ، قائلا ان وزراءه ، في حماسهم المتهور ، سوف يصمون عهده بعار التعذيب والاضطهاد .

وسرعان ما كبت عبوس جوليان حماس وزراءه ، ولكن ، عندما يعلن أكبر الناس في البلد أنه زعيم حزب ، فان انطلاقة الهياج الشعبي لا يمكن قمعها بسهولة ، ولا معاقبة أصحابها عقابا مناسباً . ولقد أشاد جوليان علانية باخلاص مدن سوريا المقدسة وولائها ، تلك المدن التي حطم سكانها عند أول اشارة أضرحة الجليليين ، وشكا بصورة ضعيفة من أنهم انتقموا للاساءات التي لحقت بالآلهة بطريقة أقل اعتدالا مما كان يريد . وهذا الاعتراف المعيب الذي عبر عنه كارها ، يبدو أنه يؤكد القصص الدينية التي تقول بأن الوثنيين ، في مدن غزة ، وعسقلان ، وقيصرية ، وهليوبوليس ، وغيرها ، أساءوا استغلال لحظة انتصارهم ، درن حكمة أو تائيب ضمير ، وأن التعمساء الذين انصبت عليهم قسوتهم لم يتخلصوا من العذاب الا بالموت ، وأن أجسادهم الممزقة ، بينما كانت تجر في الطرقات ، كانت تطعن بأسياخ الطهارة ، وقرانيس النساء ، وأن أحشاء القساوسة المسيحيين والعذارى المسيحيات ، بعد أن كان يذوقها

أولئك المتعصبون المتغطشون للدماء ، كانت تخلط بالشعر ، وترمى في احتقار الى الحيوانات القذرة في المدينة . وهذه المشاهد ، التي تدل على الجنون الدينى ، انما تمثل الطبيعة البشرية فى أخط وأبشع صورها . غير أن مذبحة الاسكندرية تجذب قدرا أكبر من الانتباه ، من حيث ثبوت حقيقتها ، ومكانة ضحاياها ، وروعة عاصمة مصر .

القديس جورج

ولد جورج فى ابيفانيا باقليم قيليقيا Cilicia فى حانوت أحد المنجدين ، وأطلق عليه والداه ، أو اكتسب من تعليمه ، لقب « الكبادوكى » (من اقليم كبادوكيا) . ومن هذا المنبت الحقير المغمور أمكنه أن يرفع نفسه بمواهب الانسان الطفيلى ، واستطاع أسياده الذين كان يتملقهم دون كلل أو ملل أن يحصلوا لتابعهم التافه الحقير على عقد تزويد الجيش بلحم الخنزير ، وهو عمل يدر عليه مالا وفيرا . وكان عمله هذا وضيعا تافها ، فجعله هو دنيئا مبتذلا ، وجمع المال بأخط وسائل الغش والفساد ، غير أن مسلكه المعيب هذا بلغ من الخسة حدا أرغمه على الفرار من العدالة . وبعد هذه الفضيحة الشائنة ، التى يبدو أنه أنقذ فيها ثروته على حساب شرفه ، اعتنق الدعوة الآريوسية ، فى حماس حقيقى ، أو حماس مصطنع . ويبدو أنه كان محبا للعلم أو للزهو به ، ومن ثم فقد جمع مكتبة قيمة من كتب التاريخ والبلاغة والفلسفة واللاهوت (١) ، واستطاع الكبادوكى أن يرقى الى كرسى الأسقفية الذى كان يشغله أثناسيوس ، بعد أن اختاره الحزب السائد فى ذلك الوقت لشغل ذلك المنصب . وكان مسلك الأسقف الجديد مسلك أحد الغزاة البرابرة ، فلوث كل لحظة من لحظات عهده بالقسوة والجشع ، وأصبح كاثوليك الاسكندرية ومصر تحت رحمة طاغية هيأته طبيعته وتعليمه لممارسة التعذيب والاضطهاد ، غير أن يد اضطهاده امتدت فى غير محاباة الى مختلف سكان أسقفيته الفسيحة سواء بسواء . واتخذ أسقف مصر مظهر العظمة والتسلط الذى يتفق مع مركزه الرفيع ، غير أن مسلكه كان ينم رغم ذلك عن ذلة ووضاعة أصله . فلقد أدى احتكاره

(١) بعد أن قتل جورج أرسل جوليان أوامره للاحتفاظ له بمكتبته ، ومعاينة العبيد الذين يشتبه فى أنهم أخفوا شيئا من الكتب . ويشيد جوليان بهذه المجموعة القيمة من الكتب التى استعار منها الكثير من المخطوطات ونسخها عندما كان يتابع دراساته فى « كبادوكيا » . ومع أنه كان يرغب فى تضييع مؤلفات الجليليين ، غير أنه كان يريد أن يحتفظ بسجل لتلك الكتب اللاهوتية ، حتى لا تضيع معها مؤلفات أخرى أكثر قيمة .

الكلّي الظالم للملح والورق ونترات البوتاس ودفن الموتى الى فقر تجار الاسكندرية ، كما أنه ، وهو الاب الروحي لشعب عظيم ، انحدر الى مستوى رجل ينقل أخبار الناس ويستخدم فى ذلك مختلف الحيل الضارة الخسيسة . ولم ينس أهل الاسكندرية أو يصفحوا عن تلك الضريبة التى اقترحها على كل منازل المدينة ، مدعيا فى ذلك ادعاء عقيما بأن الملك الذى أسس المدينة كان قد نقل الى خلفه من البطالة والقياصرة حق الملكية الدائمة للأرض . وكان الوثنيون قد انخدعوا بآمال التمتع بالحرية والتسامح فى عهد ذلك الرجل ، غير أنهم أيضا أثاروا فيه جشعه الدينى ، وتعرضت معابدهم الغنية فى الاسكندرية للنهب أو الاهانة من جانب أسقف متشامخ كان يقول مهددا فى صوت مسموع : « الى متى سوف يسمح لهذه الأضرحة بالبقاء ؟ » . وفى عهد قسطنطيوس طرد الشعب هذا الأسقف من منصبه ، غضبا عليه ، أو اقتصاصا للعدالة منه ، ولم تستطع سلطات الدولة المدنية والعسكرية إعادة سلطانه اليه واشباع رغبته فى الانتقام ، الا بعد كفاح عنيف مرير . ثم جاء جوليان ، وأعلن رسول منه الى الاسكندرية خبر توليه العرش وعزل الأسقف فى وقت واحد ، ثم اقتادت السلطات جورج واثنين من وزرائه الأذلاء - الكونت ديودوروس ، ودراكونتيوس المشرف على دار سك النقود - مكبلين بالأغلال الى السجن العام ، فى صورة مخزية شائنة وبعد أربعة وعشرين يوما حطم جمهور من الوثنيين فى غضبة عارمة أبواب السجن ، بعد أن ضاقوا ذرعا بشكليات الاجراءات القانونية المحملة . ومات أعداء الآلهة والناس متأثرين بما لحق بهم من الاهانات وأعمال القسوة ، وحملت جثث الأسقف وزميليه على ظهر جمل طاف شوارع المدينة . أما فريق أثناسيوس فقد ظل بعيدا عن تلك الحركة ، وكان هذا الهدوء من جانبه مثالا رائعا للصبر الذى تحدث عنه الانجيل . ثم أقيمت جثث هؤلاء الأشقياء المذنبين فى البحر ، وأعلن زعماء الثوار عن عزمهم على هدم آمال المسيحيين وتحطيم ولائهم للأسقف ، وعلى الحيلولة مستقبلا دون منح شرف الاستشهاد لأولئك الذين عوقبوا ، كما عوقب أسلافهم ، على أيدي أعداء دينهم . وكان الوثنيون على حق فيما كانوا يخشونه ، كما أن احتياطاتهم كانت عديمة الجدوى . ذلك أن الموت الذى استحقه الأسقف محاً من ذاكرة الناس ما فعله فى حياته ، وكان هذا المنافس لأثناسيوس عزيزا ومقدسا لدى الآريوسيين ، وترتب على اعتناق أبناء تلك الطائفة للمسيحية أن أصبح ذلك الأسقف شخصية مقدسة فى قلب الكنيسة الكاثوليكية . وهكذا ترى ذلك الغريب المفقوت الذى شوه كل طرف من ظروف الزمان والمكان ، وقد ألقى عليه بعد موته قناع الشهيد ، والقديس

والبطل المسيحي (١) ، وهكذا أيضا تحول (٢) ذلك الرجل الفاجر سيي ، السمعة ، جورج الكبادوكي ، الى سانت جورج ، قديس انجلترا الشهير ، راعي الجنود والفروسية ، وصاحب وسام ربطة الساق (٣) .

وفي نفس الوقت الذي ابلغ فيه جوليان نبيا اضطرابات الاسكندرية ، تلقى نبأ من مدينه اذاسا (الرها) Edessa بأن رجال حزب الآريوسيين الثرى المتطرس قد استهانوا بضعف الغنوصيين من أتباع فلنتينوس « The Valentinians » وأنوا من أعمال الشغب ما لا ينبغي أن تقبله دولة منظمة ، وتتركه دون عقاب . فلم ينتظر الملك الغاضب اجراءات العدالة البطيئة بل أرسل أمرا الى حكام اذاسا بمصادرة كل أملاك الكنيسة ، فوزعت أموالها على الجنود ، وأضيفت الأراضي الى ممتلكات الحكومة ، وزاد من جور هذا الاجراء التعسفي قول الملك في سخريه أشد ما يكون عداء : « انى بهذا الاجراء انما أثبت انى صديق مخلص للجليلين ، ذلك أن شريعتهم (الرائعة) قد وعدت الفقراء بملكوت السماء . ومن ثم فقد أزلت عن كواهلهم عبء الممتلكات الدنيوية حتى يسيروا في طريق الفضيلة والاخلاص بهمة أكثر » . واستطرد يقول بلهجة أكثر جدية : « حذار اذن من أن تستنفدوا صبرى ومشاعرى الانسانية . واذا استمرت هذه الاضطرابات فسوف أنتقم من الحكام بسبب الجرائم التى يرتكبها الناس ، وسوف تلقون منى لا مجرد المصادرة والنفى فحسب ، بل النار والسيوف » . ولا شك فى أن اضطرابات الاسكندرية كانت أكثر خطورة وفتكا غير أنها أسفرت عن مقتل أسقف مسيحي على

(١) كان الجريجوريون ، وقديسو كبادوكيا ويازل يجهلون زميلهم المقدس ، وقد وضعه البابا جيلاسيوس (٤٩٤ بعد الميلاد) ، وهو أول كاثوليكي يعترف بسانت جورج ، فى مصاف الشهداء « الذين يعرفهم الله أكثر مما يعرفهم الناس » . ولم يصدق هذا البابا ما سجل من أعمال جورج ، بل اعتبرها من خلق الهراطقة . وماتزال بعض هذه الأعمال التى سجلت عليه محفوظة ، ومن الجائز أنها ليست أقدم أعماله . ومع ذلك فانه فى مقدورنا أن نتبين تلك الحملة التى شنها سانت جورج الكبادوكي ، فى حضرة الملكة الكسندرا ، على « الشاعر اثناسيوس » ، من ثنايا قصة حياته .

(٢) ليس فى مقدورنا أن نؤكد هذا التحول تأكيدا مطلقا ، ولكننا نورده هنا من قبيل الاحتمال الشديد .

(٣) هناك تاريخ عجيب لتقديس سانت جورج منذ القرن السادس (وكان اذ ذاك مقدسا فى فلسطين وأرمينيا وروما وفى تريفز ببلاد الغال) أورده دكتور هيلن Dr. Heylin فى كتابه « Hist. of St. George » وقد بدأت شهرته وشعبيته تظهر فى أوروبا وخاصة فى انجلترا منذ الحروب الصليبية .

أيدى الوثنيين ، وأنتك لتجد فى الرسالة العنيفة التى أصدرها جوليان ، دليلا حيا على روح المحاباة التى كانت مستيطرة على حكمه . فقد مزج فيها تأنيبه لمواطنى الاسكندرية بعبارات التقدير والعطف ، وأبدى أسفه لانهم فى تلك المناسبة قد تخلوا عن المسلك الرقيق الكريم الذى يدل على منبتهم اليونانى . ثم يلومهم بشدة على الاساءة التى ارتكبوها ضد قوانين العدالة والانسانية ، ولكنه يستعرض فى شىء من السرور الواضح تلك الاثارات غير المحتملة التى عانوها من جراء الطغيان الفاشم الذى اتصف به جورج الكبادوكى ثم يقرر جوليان ذلك المبدأ الذى يقضى بأن الحكومة العاقلة القوية ينبغى أن تعاقب المذنبين المسيئين ، غير أنه ، اكراما للاسكندر مؤسس الاسكندرية ، واکراما لآلههم سراجيس Serapis قد أصدر عفوا كريما حرا عن المدينة المذنبه ، التى يشعر نحوها بمحبة الأخ لأخيه .

جوليان واثناسيوس

بعد أن هدأت اضطرابات الاسكندرية ، ارتقى اثناسيوس عرش الاسكندرية الأسقفى الذى نبذ منه منافسه الوضيع نبذ النواة ، وسط تهليل الشعب وتكبيره . ولما كانت حكمة الأسقف عاملا فى وجود زعيم شعبى جرىء على رأس المدينة الهائجة المضطربة ، وانك لترى فى اللغة التى عبر بها عن استيائه ما يبين رأيه فى شجاعة اثناسيوس وقدراته . ذلك أن أكديكيوس Ecdicius والى مصر ، أجل تنفيذ الحكم الصادر من جوليان بنفى اثناسيوس ، حرصا منه أو اهمالا ، وأخيرا وجه انيه الامبراطور رسالة لوم شديدة اللهجة أيقظته من سباته ، وقال فيها : « اذا كنت تهمل الكتابة لى عن أى موضوع آخر ، فان من واجبك على الأقل أن تحيطنى علما بما فعلته مع اثناسيوس عدو الآلهة . وأقد أخبرتك عن نواياى منذ مدة طويلة ، وانى أقسم بالاله العظيم سراجيس أنه اذا لم ير حل اثناسيوس عن الاسكندرية ، بل عن مصر كلها ، قبل حلول شهر ديسمبر ، فان موظفى حكومتك سوف يدفعون غرامة قدرها مائة رطل من الذهب ، وانك لتعرف طباعى جيدا فأنا بطىء فى اصدار حكمى ، ولكنى أكثر بطئا فى تسامحى وصفحى » . وعزز الامبراطور هذه الرسالة بملاحظة قصيرة كتبها بخط يده فى نهاية الرسالة ، وقال فيها : « ان ما يوجه الى الآلهة من ازدراء واحتقار انما يملأ قلبى حزنا وسخطا ، وليس هناك ما يلذ لى رؤيته أو سماعه أكثر من طرد اثناسيوس من مصر كلها . يا له من شقى كربه بغيض ! ، لقد كان من نتائج وسائل الاضطهاد التى اتبعها أن قبلت المعمودية كثرات من أرقى السيدات اليونانيات وأرفعهن قدرا » .

ولم يأمر الامبراطور بقتل اثناسيوس صراحة ، غير أن والى مصر أدرك انه لكي يضمن أمانا أكثر يجب عليه ألا يمهل أوامر مليكه الناصر ، بل يبالح في تنفيذها . ومن ثم فقد لجأ الأسقف في حرص الى أديرة الصحراء ، وأفلت بمهارته المعتادة من شرك عدوه ، وعاش ليشهد انتصاره على رفات حاكم أعلن في كلمات مخيفة في معناها أن كافة سموم المدرسة الجليلية قد تجسدت في شخص اثناسيوس وحده .

لقد حاولت مخلصا أن أرسم صورة للطريقة الماكرة التي أراد بها جوليان أن يحصل على نتائج الاضطهاد ، دون أن يرمى بذنب الاضطهاد أو يلام على اقترافه . ولكن اذا كانت روح التعصب القاتلة قد أفسدت قلب حاكم فاضل وضللت تفكيره ، فينبغي في الوقت عينه أن نعترف بأن الحماس الدينى والأهواء البشرية هي التي ضخمت آلام المسيحيين وزادتها حدة . ذلك أن صفات الدعة والاستسلام والصبر التي تميز بها حواريو الانجيل الأوائل ، قد أصبحت موضع استحسان خلفهم دون أن تكون مثلاً يحتذونه . وانك لترى المسيحيين ، بعد أن انقضى عليهم الآن أكثر من أربعين عاما وهم مسيطرون على الحكم المدنى والدينى في الامبراطورية ، قد أصيبوا بعدوى الرفاهية والنقاىص المعيبة ، وسيطر عليهم الاعتقاد بأن القديسين وحدهم هم أصحاب الحق فى حكم الأرض .

وما أن ناصبهم جوليان العداء ، وحزم رجال الدين من تلك الامتيازات التي أغدقها عليهم قسطنطين ، حتى جأروا بالشكوى من أنه يضطهدهم أقسى الاضطهاد ، وأصبح تسامحه مع الوثنيين والهراطقة أمرا شائنا يدعو الى الحزن والأسى فى نظر الفريق الأرثوذكسى . ومع أن الحكام ألقوا عن أعمال العنف ولم يعودوا يجذبونها ، الا أن حماس الناس ظل يدفعهم الى ممارستها ، ففي بسينوس Pessinus قلب الناس هيكلا الالهة كيبيلي Cybele ، وكاد ذلك أن يكون فى حضرة الامبراطور . وفى مدينة قيصرية باقليم كبادوكيا ، دمر معبد « الحظ » Fortune وهو مكان العبادة الوحيد الذى تبغى للوثنيين ، فى ثورة شعبية عارمة . وفى تلك المناسبات لم يشأ الملك ، وهو الذى يحترم شرف الآلهة ، أن يعترض طريق العدالة ، بل انه استشاط غضبا عندما علم أن المتعصبين الذين عوقبوا على اشعالهم الحرائق ، وكانوا يستحقون هذا العقاب ، قد كوفئوا بما يكافأ به الشهداء . وكان رعايا جوليان من المسيحيين يعلمون حق العلم بالخطط العدوانية التي كان يرسمها مليكهم ، وكانت كل واقعة من وقائع حكمه تدعوهم الى التذمر والشك وتثير فيهم مشاعر الخوف والغيرة . وكان أمرا طبيعيا أن يسفر التطبيق العادى للقوانين

عن اذانة كثير من المسيحيين الذين كانوا يشكلون جزءا كبيرا من الشعب ، غير أن اخوتهم فى المسيحية كانوا يقررون ، بدافع من التساهل ، ودون أن يبحثوا القضية ، أنهم أبرياء ، ويصدقون دعواهم ، وينسيون صرامة قاضيهم الى حقد المحاباة الذى يتسم به الاضطهاد الدينى . وهذه المحن الحالية ، رغم أنها كانت تبدو محنا لا يمكن تحملها ، كان المسيحيون يصورونها على أنها مقدمة بسيطة لما ينتظرهم من كوارث . وكان جوليان فى نظرهم طاغية واسع الحيلة قاسى القلب ، أوقف تنفيذ انتقامه حتى يعود ظافرا من الحرب الفارسية ، وكانوا يتوقعون أنه بمجرد أن ينتصر على أعداء روما من الأجانب ، سوف ينزع عن وجهه قناع التظاهر المضنى وأن المدرجات سوف تسيل عليها دماء النساك والأساقفة ، وأن المسيحيين الذين مازالوا مصرين على الجهر بعقيدتهم ، سوف يحرمون من المزايا العامة التى يتمتعون بها بحكم الطبيعة وبحكم المجتمع . ومن ثم فقد كان خصومه المسيحيون يصدقون كل وشاية تجرح سمعة جوليان « المرتد » خوفا منه وكراهية له ، ولا شك فى أن صخبهم وضجيجهم الأحق أثارا غضب مليكهم الذى كان من واجبه أن يحترموه ، ومن مصلحتهم أن يتملقوه . ولكنهم ظلوا يجهرون بأن صلواتهم ودموعهم هى سلاحهم الوحيد ضد الطاغية الزنديق ، الذى أساء الى الله ، وأنه لا يسعهم الا ترك أمر قصاصه الى عدالة السماء ، غير أنهم قالوا فى عزم وتصميم ان خضوعهم لم يعد نتيجة ضعفهم ، وانه مادامت الفضيلة البشرية تفتقر الى الكمال ، فان الصبر المستند الى المبدأ انما يستنفده الاضطهاد . وليس فى مقدورنا أن نحدد مدى تغلب حماس جوليان على حكمته وانسانيته ، غير أننا اذا أخذنا فى اعتبارنا الجدى قوة الكنيسة وروحها ، فاننا سوف نقنع بأن الامبراطور ، قبل أن يستطيع القضاء على ديانة المسيح ، لابد أن يكون قد أوقع بلاده فى فظائع حرب أهلية .

الفصل الرابع والعشرون

(٣٦٣)

انتخاب جوفيان • تأملات فى موت جوليان

بدأ جوليان الحرب ضد الفرس فى شىء من النجاح • غير أنه مع ذلك أُرغم على الانسحاب ، وأصيب بجرح مميت فى معركة حاسمة فيما وراء نهر دجلة • ومات يوم ٢٦ يونية سنة ٣٦٣ •

انتخاب جوفيان

فى مقدورنا أن نعزو انتصار المسيحية والكوارث التى حلت بالامبراطورية الى جوليان نفسه لأنه لم يرشح فى الوقت المناسب ، وبطريقة فطنة حكيمة زميلا يخلفه بعد موته ، ويعتبر هذا اهمالا منه فى ضمان تنفيذ مخططاته المستقبلية • غير أن سلالة قسطنطيوس كلوروس الملكية لم يتبق منها الا هو ، واذا كان قد فكر جديا فى أن يرشح لتولى العرش أجدر من يستحقه من بين الرومان فان صعوبة الاختيار ، وغيرته على السلطة ، وخوفه من نكران الجميل ، وغرور الصحة والشباب والرفاهية ، كل أولئك كان كفيلا بأن يشنيه عن عزمه • ولقد ترتب على موته الفجائى أن أصبح عرش الامبراطورية شاغرا ، لا وريث له ، وفى حالة من الارتباك والخطر لم تتعرض لها خلال السنوات الثمانين التى انصرمت منذ انتخاب دقلديانوس • وفى حكومة كادت أن تنسى رفعة الدم النقى النبيل ، أصبح سمو المنبت شيئا قليل الأهمية ، وغدت حقوق المنصب الرسمى مزعزة تعتمد على الصدفة ، أما أولئك الذين كان من المحتمل أن يتطلعوا الى ارتقاء العرش الشاغر ، فلم يكن لهم من سند سوى شعورهم بما يتصفون به من فضائل شخصية ، أو آمالهم فى نوال حظوة شعبية • غير أن موقف الجيش الذى كان يتضور جوعا ، وقد أهدقت به جحافل البرابرة من كل جانب ، لم يترك الكثير من

الوقت المحزن والتدبير . وفي وسط مشاهد الفزع والمحنة هذه حنط جثمان الملك الراحل في اجلال واحترام ، بناء على توجيهاته الخاصة ، وعند مطلع الفجر عقد القواد مجلسا حربيا دعوا اليه قواد الفيالق وضباط الفرسيان والمشاة . ولم تكن قد انقضت ثلاث أو أربع ساعات من الليل دون أن تدبر بعض المؤامرات ، وعندما قدم اقتراح انتخاب الامبراطور ، بدأت روح الحزبية تثير الاضطراب في الاجتماع . فالتف الباقون من بلاط قسطنطيوس حول « فيكتور » و « ارثيوس » وتجمع أصدقاء جوليان حول زعيمى بلاد الغال « داجاليفوس » و « نفيتا » ، وخشى الجميع تلك النتائج المينة التى لابد أن يسفر عنها تنازع حزبين ، كل منهما يناقض الآخر من حيث الأخلاق والمصلحة وقواعد الحكم ، وربما من حيث المبادئ الدينية . ولم يستطع ضم صفوفهم وتوحيد آرائهم الا الحاكم « سالوست » Sallust ، بفضل ما كان يتصف به من فضائل سامية ، وكان من الممكن على الفور أن ينصب هذا الحاكم الوقور خليفة لجوليان لو أنه لم يصرح فى اخلاص وفي حزم وديع بأن كبر سنه واعتلال صحته لا يتحملان ثقل التاج الامبراطورى . وقد دهش القواد لرفضه ، وتملكتهم الحيرة ، وبدا عليهم الميل الى الأخذ بنصيحة مجدية تقدم بها أحد صفار الضباط ، وهى أنه ينبغي عليهم أن يتصرفوا الآن كما كان لزاما عليهم أن يفعلوا لو كان الامبراطور غائبا عنهم ، وأنه يجب عليهم أن يبذلوا كل ما فى مقبورهم لانقاذ الجيش من محنته الحالية ، فاذا ما وفقهم الحظ الى بلوغ حدود العراق ، بدءوا عملية انتخاب الملك الشرعى مستعينين بأراء موحدة حازمة . وبينما كانوا يتناقشون ، ارتفعت بعض الأصوات بتحية « جوفيان » Jovian ملقبة اياه باسم امبراطور وباسم أغسطس ، مع أنه لم يكن سوى رئيس الحجاب . وسرعان ما ردد الحراس المحيطون بالخيمة ذلك الهمتاف الصاخب ، ثم سرى الهمتاف فى لحظات قصيرة الى نهاية صفوف الجنود ، ودهش الملك الجديد لذلك الحظ الذى هبط عليه ، وسرعان ما ألبسوه الأردية الامبراطورية المزركشة ، وأدى القواد أمامه يمين الولاء ، ثم طلب اليهم جوفيان فى نهاية الأمر أن يمنحوه ودهم وحمايتهم . ولقد كانت أقوى تزكية لجوفيان أن والده ، الكونت فارونيان ، كان رجلا فاضلا يعيش فى عزلة شريفة ، متمتعا بشمار خدماته الطويلة . وكان الابن يشغل منصبا غير رسمى يتمتع فيه بحريته بعيدا عن العيون ، ويشبع رغبته فى الخمر والنساء ، الا أنه كان يتصف عن جدارة بأخلاق الرجل المسيحى وأخلاق الجندى . ولم يكن متميزا بأية صفة من صفات الطموح التى تكبر اعجاب الناس وحسدهم ، غير أن طالعته الجميلة ، وطباعه المرححة ، وما اشتهر

به من ذكاء ، كل أولئك أكسبه محبة رفاقه الجنود ، ووافق قواد كل من الحزبين على ذلك الانتخاب الذي أجري دون أن تستخدم فيه الأعياب أعدائهم . ولقد خفف من زهو الامبراطور الجديد بهذه الرفعة غير المتوقعة ما كان يخشاه من أن ذلك اليوم نفسه قد يكون نهاية حياته ونهاية حكمه ، ولم يكن فى خوفه هذا بعيدا عن الحقيقة ، ومن ثم فقد أطاع صوت الضرورة الملحة دون إبطاء ، وكانت أول أوامر أصدرها جوفيان بعد انقضاء ساعات قليلة من وفاة سلفه هو أن يشن هجوما على العدو ، إذ لم يكن هناك من سبيل لانقاذ الرومان من محتتهم الحالية غير ذلك .

إن مخاوف العدو هي التي تعبر أصدق تعبير عن قدره وقوته ، ويمكن أن يقاس مدى هذا الخوف قياسا دقيقا بما يظهره من فرح لنجاته . ولقد نقل أحد جنود الرومان الهاربين خبر وفاة جوليان الى معسكر سابور Sapor ، وأوحى هذا الخبر السعيد الى الملك اليأس الجزوع بثقة فجائية من أنه سوف ينتصر على الرومان . فازسل على الفور الفرسان الملكية ، التي ربما كان قوامها عشرة آلاف من « الخالدين » ، لتقوية ومساعدة جيشه الذي كان يطارد العدو ورمى بكل ثقل قواته المتحدة على مؤخرة الرومان ، فحلت بها الفوضى ، وتحطمت الفيالق الشهيرة التي استمدت اسمها من دقلديانوس ورفاقه المحاربين الأشداء ، ثم وطأتهم أقدام الفيلة ، وهلك ثلاثة قواد فى محاولة منع جنودهم من الفرار . وأخيرا استطاع الرومان بشجاعتهم وصمودهم أن يملكو زمام المعركة ، فصدوا الفرس وكبدوهم خسارة كبيرة فى الأرواح ، وقتلوا الكثير من الفيلة ، وبعد أن قضى الجيش يوما طويلا من أيام الصيف فى القتال والتقدم ، وصل فى المساء الى مدينة سامرا (سر من رأى) على شاطئ الدجلة ، وفوق « المدائن » Ctesiphon بما يقرب من مائة ميل . وفى اليوم التالى لم يحاول المتيربرون عرقلة تقدم الجيش ، ولكنهم ، بدلا من ذلك ، هاجموا معسكر جوفيان الذي كان قائما فى واد عميق منعزل ، وبدأ رماة السهام الفرس يوجهون سهامهم الى القوات المجاهدة ، واستطاعت قوة من الفرسان أن تخترق فى شجاعة مستميتة بوابة موقع الحرس الامبراطورى ، ولكنها أبيدت عن آخرها بعد صدام متأرجح بالقرب من خيمة الامبراطور . وفى الليلة التالية كان معسكر كارش Carhe فى موقع تحصينه شواطئ النهر المرتفعة . أما الجيش الرومانى ، فرغم أنه كان معرضا بصورة مستمرة الى ملاحقة القوات العربية لملاحقة تزعجه وتضايقه إلا أنه ضرب خيامه بالقرب من مدينة « ديورا » بعد أربعة أيام من موت جوليان . وكان نهر الدجلة الى يسارهم ، وقد كادت آمالهم أن تنهار ، وكادت مؤنهم أن تنفذ ، أما الجنود

فقد عيل صبرهم ، وكانوا يعللون النفس بأن حدود الامبراطورية لم تعد بعيدة عنهم ، فطلبوا من مليكهم الجديد أن يسمح لهم بالمغامرة بعبور النهر . غير أن جوفيان ، بمعاونة أعقل ضباطه ، حاول أن يثنيهم عن ذلك التهور قائلاً لهم انهم حتى اذا كان لديهم من المهارة والقدرة ما يمكنهم من مواجهة تيار نهر عميق جارف ، فانهم لن يستطيعوا أن يفعلوا أكثر من تسليم أنفسهم عراة عاجزين الى المتبريرين الذين احتلوا الضفة المقابلة . وأخيراً رضخ الى الحاحهم الصاخب ، ووافق مكرها على أن يقوم بالمخاطرة الجريئة خمسمائة من الغاليين والجرمان الذين درجوا منذ نعومة أظفارهم على السباحة في مياه نهر الراين ونهر الدانوب ، على أن تكون تلك المخاطرة مشجعا أو نذيراً لبقية الجيش . وفي سكون الليل ، عبر الرجال نهر الدجلة ، وفاجأوا مركزاً من مراكز العدو كان متروكاً بغير حراسة ، وعند مطلع الفجر أعطوا لبقية الجيش علامة تدل على توفيقهم فيما عقدوا العزم عليه . وكان نجاح تلك المحاولة مشجعاً للامبراطور على الاصغاء الى وعود مهندسيه الذين اقترحوا أن يقيموا قنطرة عائمة من جلود الخراف والثيران والماعز ، ينفخونها ثم يغطونها بالحطب والتراب . وانقضى يومان في هذا العمل المجهد غير المجدى ، وبدأ الرومان يعانقون آلام الجوع ، وأخذوا ينظرون نظرة اليأس الى نهر الدجلة والى البرابرة الذين ازداد عددهم واشتد عنادهم ، بينما كان الجيش الامبراطوري في محنته .

وبينما كان الرومان في هذا الموقف اليائس ، دوى صوت يبشر بالسلام أنعش فيهم روحهم المنهارة . ذلك أن الغرور العابر الذي كان يملأ سابور كان قد زال ، وأخذ الملك الفارسي يلاحظ في جزع شديد أن المارك المتكررة التي خاضها دون نتيجة أكيدة قد أفقدته أصدق وأجراً نبلائه ، وأشجع قواته ، والجزء الأكبر من قطيع الفيلة الذي يملكه . وخشى الملك المحنك أن يثير في أعدائه مقاومة اليأس ، ويعرض نفسه لتقلبات الخطر ، ولقوى الامبراطورية الرومانية المجهدة التي قد تتقدم لانقاذ خليفة جوليان ، أو للانتقام له . وذهب « السورناس » نفسه (لقب أحد كبار قواد الفرس) في صحبة أحد كبار حكام الولايات الى معسكر جوفيان ، حيث أعلن أن شفقة مليكه لا تمنعه من تحديد الشروط التي يرضيها في مقابل افساح الطريق أمام القيصر وبقايا جيشه الأسير المحاصر ، ولأن عناد الرومان واصرارهم أمام الأمل في النجاة ، واضطر الامبراطور ، عملاً بنصيحة مجلسه واستجابة لهتافات الجنود ، الى قبول عروض السلام ، وأرسل على الفور الوالى « سالوست » ومعه القائد « أرينثيوس » لمعرفة ما يطلبه الملك المعظم . غير أن ملك الفرس الداهية

أخذ يماطل ، بشتى الأعذار والادعاءات ، فى إبرام الاتفاق • فأنار المصاعب ، وطلب الايضاحات ، واقترح الوسائل والسبل ، وتراجع عما كان قد منحه ، وتغالى فى مطالبه ، وضيع أربعة أيام فى فنون المفاوضة ، حتى استنفد مخزون المؤن التى تبقت فى معسكر الرومان • ولو أن جوفيان استطاع أن يتخذ اجراء جريئا حكيما لواصل سيره يجد ودأب لا يفتر فى وقت توقفت فيه هجمات البرابرة بحكم وجود الاتفاق على ايقاف القتال ، ولاستطاع قبل انتهاء اليوم الرابع أن يصل فى امان الى مقاطعة كوردوين Corduene الغنية على بعد مائة ميل فقط من معسكره • غير أن الامبراطور المتردد ، بدلا من أن يخترق شباك العدو • أخذ ينتظر مصيره فى استسلام وصبر ، وقبل شروط الصلح المذلة التى لم يعد فى مقدوره أن يرفضها • وبمقتضى تلك الشروط استعاد الملك الفارسى الولايات الخمس الواقعة فيما وراء نهر دجلة ، والتى كان جد سابور قد تخلى عنها للرومان ، وحصل بمقتضى مادة واحدة على مدينة نصيبين Nisibis المنيعة التى حاصرها ثلاث مرات متوالية صمدت فيها أمام أسلحته وقواته • وكذلك اقتطعت من الامبراطورية مدينة سنجار Singara وقلعة المغاربة ، وهى من أقوى معاقل العراق ، واعتبر من قبيل التساهل أن سكان تلك المعاقل قد سمح لهم بالانسحاب منها بأمعتهم ومقتنياتهم ، غير أن الملك المنتصر أصر فى عناد وصرامة على أن يتخلى الرومان الى الأبد عن مملكة أرمينيا وملكها • وعقد اتفاق صلح • أو قل هدنة طويلة ، لمدة ثلاثين عاما بين الأمتين المتخاصمتين ، وأقسم الطرفان على احترام المعاهدة قسما جادا عززته الاحتفالات الدينية وتبادلا رهائن تتألف من شخصيات رفيعة المقام ضمانا لتنفيذ الشروط •

أما السفسطائى الأنطاكى ، الذى كان يرقب فى غضب وسخط صولجان بطله فى يد خليفة مسيحي ضعيف ، فقد جهر باعجابه باعتدال سابور وقبوله لمثل هذا الجزء الصغير من الامبراطورية الرومانية • يقول ليبانيوس ان ملك الفرس ، لو أنه مد أطماعه الى نهر الفرات ، لكان من الأمور المؤكدة أن طلبه لن يقابل بالرفض ، ولو أنه قرر أن تكون حدود فارس هى أنهار العاصى وكيدنوس وسنجاريوس ، بل وبسفور تراقيا • لما افتقر بلاط جوفيان الى بعض المتملقين الذين يستطيعون اقناع الملك الهيب بأن ما تبقى له من ولايات يمكن أن يشبع فيه شهوة السلطان والترف على أحسن ما يكون الاشباع • ولسنا نريد أن نقبل هذا التلميح الخبيث بكل ما يحمله من معنى غير أنه لا يسعنا الا الاعتراف بأن أطماع جوفيان الشخصية هى التى سهلت إبرام مثل تلك المعاهدة الشائنة • ذلك أن هذا الشخص المغور الذى كان يعمل

حاجبا فى قصر الملك ثم ارتفع الى العرش لا عن جدارة فيه بل برمية من رميات الحظ ، كان يتحرق الى الخلاص من أيدي الفرس حتى يحبط خطط بروكوبيوس ، قائد جيش العراق ، ويوطد حكمه المزعزع على فرق الجيش والولايات التى كانت لا تزال تجهل ما حدث فى معسكر ملك فارس وراء نهر دجلة ، وتسرع الامبراطور فى قبول المعاهدة ، وما اقترن بذلك من هرج واضطراب .

وفى منطقة النهر نفسه ، وعلى مسافة ليست بالكبيرة من موقع مدينة ديورا Dura المشثومة ، تركت الفرقة اليونانية المكونة من عشرة آلاف رجل ، دون قائد ودون أدلاء ودون مؤن ، على بعد أكثر من ألف ومائتى ميل من وطنهم ، وظلت كذلك معرضة لما يوقعه بها ملك غاضب منتصر . غير أن سلوك هؤلاء الرجال ونجاحهم يرجع أساسا الى أخلاقهم أكثر مما يرجع الى حالتهم . فبدلا من أن يستسلموا فى خنوع وخوف الى المداولات السرية التى يقوم بها شخص واحد ، والى آرائه الخاصة ، فقد عقدوا فيما بينهم مجالس متحدة الكلمة تستمد الهامها من طابع الاجتماع الشعبى الذى يمتلئ عقل كل مواطن فيه بحب المجد ، والزهو بالحرية واحتقار الموت . وكانوا يدركون أنهم متفوقون على البرابرة فى السلاح والنظام ، ومن ثم فقد استنكفوا الخضوع ورفضوا الاستسلام وتغلبوا على كل عقبة بالصبر والشجاعة والمهارة العسكرية ، ونجحوا فى تهقيرهم بصورة أظهرت ضعف الملكية الفارسية ، وكانت سببا واهانة لها .

وربما كان حريا بالامبراطور أن يشترط ، فى مقابل الامتيازات الشائنة التى منحها للفرس ، أن يزود معسكر الرومان الجائعين بالوفير من المؤن ، وأن يسمح له بعبور نهر دجلة على القنطرة التى بناها الفرس ، غير أن جوفيان لم يشترط شيئا من هذا ، وإذا كان قد زعم أنه التمس هذه الشروط العادلة ، فقد رفضها فى جفاء وقسوة طاغية الشرق المتشامخ ، الذى دفعته رحمته الى الصفع عن غزاة بلاده . وكان العرب فى بعض الأحيان يعترضون سبيل المتخلفين من جيش الرومان ، غير أن قواد سابور وقواته احترموا شروط ايقاف القتال ، وسمحوا لجوفيان بأن يبحث عن أنسب مكان لعبور النهر ، وأدت أعظم خدمة للرومان تلك القوارب الصغيرة التى نجت من حريق الأسطول . فقد حملت أول ما حملت الامبراطور وبطاقته ، ثم نقلت بعد ذلك ، فى رحلات كثيرة متعاقبة ، جزءا كبيرا من الجيش . غير أن كل رجل كان يتحرق الى النجاة بنفسه ، ويخشى أن يتركه الجيش على شاطئ الأعداء ، ومن ثم فإن الجنود الذين لم يكن لديهم من الصبر ما يعينهم على انتظار

عودة القوارب البطيئة ، غامروا في جراءة بالقاء أنفسهم على أطواف خفيفة أو على جلود منفوخة ، وسحبوا خيولهم وراءهم ، محاولين عبور النهر . ولم يكن النجاح نصيب الجميع في تلك المحاولات ، فقد ابتلعت الأمواج كثيرا من هؤلاء المغامرين ، واندفع كثيرون غيرهم مع التيار العاتى بعيدا عن مواقعهم فوقعوا فريسة سهلة لجشع الأعراب الهمج أو لقسوتهم . ولم تكن خسارة الجيش في عملية عبور نهر دجلة أقل من خسارته في معركة يوم كامل . وبمجرد أن وصل الرومان الى شاطئ النهر الغربي . أصبحوا في مأمن من ملاحقة أعدائهم البرابرة ، غير أنهم قطعوا في مسيرة مجهدة مسافة مائتى ميل عبر سهول العراق ، عانوا فيها أشد درجات الجوع والعطش . فقد اضطروا الى اختراق صحراء رملية لم يجدوا في سبعين ميلا منها عودة واحدا من العشب الأخضر أو عينا واحدة من الماء العذب ، أما بقية البيداء القفراء الموحشة فقد كانت أرضا لم تطأها قدم عدو أو صديق . وعندما كان يكتشف في المعسكر قدر ضئيل من الدقيق ، كان الجنود يتكالبون على شرائه بعشر قطع من الذهب ولقد ذبحت دواب الحمل والتمهم لحما ، وتناثرت في الصحراء أسلحة جنود الرومان . وأمتعتهم وكانت أرديتهم الممزقة المهلهلة ، ووجوههم النحيلة الشاحبة دليلا على الآمهم السابقة ومحنتهم الحالية . وقد تقدمت قافلة تحمل المؤن لمقابلة الجيش حتى بلغت قلعة أور Ur ، وكان ذلك اعلاقا بالولاء من القائدين سيباستيان وبروكوبيوس ، ودليلا على عرفانها بالجميل وفي مدينة ثلسافاتا Thilsaphata ، تلطف الإمبراطور بمقابلة قواد العراق ، وفي نهاية المطاف هجعت الشراذم التي تبقت من جيش كان في يوم من الأيام جيشا مظفرا تحت أسوار نصيبين .

وكان رسل جوفيان قد أعلنوا بكلمات الزلفى والملق ما كان من أمر انتخابه ومعايذاته وعودته الى بلاده . وكان الملك الجديد قد اتخذ من الاجراءات أجداهما وأقواها لضمان ولاء جيوش أوروبا وولاياتها ، وذلك بأن وضع القيادة العسكرية في أيدي أولئك الضباط الذين يؤيدون قضية ولي نعمتهم ، مدفوعين الى ذلك بدافع من مصلحتهم أو من ميولهم .

وكان أصدقاء الإمبراطور جوليان قد أعلنوا في ثقة نجاح حملته ، وأصبحوا يعللون النفس بأن معابد الآلهة سوف تزدان بغنائم الجيش من الشرق ، وأن ملكة فارس سوف تنحط مكانتها وتغدو ولاية تابعة تدين لقوانين روما ولحاكمها ، وأن البرابرة سوف يلبسون أزياء غزاتهم ويتكلمون لغتهم ويأخذون عاداتهم وطرائقهم ، وأن شباب سوسا واكباتانا سوف يدرسون فن البلاغة على أيدي أساتذة اليونان . وقد ترتب على تقدم جيوش جوليان أن انقطع اتصاله بالإمبراطورية ، ومنذ اللحظة التي

عبر فيها نهر دجلة ، أصبح شعبه المخلص يجهل مصير مليكه وتقلبات
حظه . ثم سرت اشاعة موته الحزينة فأزعجت صور الانتصارات الخيالية
التي كانت تملأ عقولهم ، وأصروا على الشك في صحة ذلك الحدث
المفجع بعد أن عجزوا عن تكذيبه أو انكاره . ثم جاء رسل جوفيان
ليعلنوا القصة الملفقة التي تحكى أن الصلح كان أمرا ضروريا حكيما .
غير أن صوت الأحداث التي وقعت ، وهو أعلى وأصدق من أصواتهم ،
قد أباط اللثام عن خزي الامبراطور وعن شروط المعاهدة الشائنة .
فامتلات عقول الناس بالحزن والدهشة وبالسخط والفرع ، عندما علموا أن
خليفة جوليان الثافه الهزيل قد تخلى عن الولايات الخمس التي ظفر بها
جاليريوس (Galerius) ، وأنه سلم الى البرابرة في خسة وعار مدينة
نصيبين الهامة ، وهي أثبت حصن يحمي ولايات الشرق ، وانطلقت
السنة الناس تسأل في حرية سؤالا خطيرا عويصا عن مدى وجوب
التمسك بالعهد اذا ما تعارض ذلك مع الأمن القومي ، وراود الناس
بعض الأمل في أن الامبراطور قد يصحح مسلكه الشائن بأن ينقض عهده
مع ملك الفرس ، وهو عمل يعتبر عملا وطنيا . ولقد كان مجلس السناتو
الروماني ، بروحه التي لا تنثنى ولا تلين ، قد رفض الشروط غير المتكافئة
التي أملت على جيوش روما الأسيرة حين كانت في محنتها . واذا
استلزم الأمر ، ارضاء للشرف القومي ، أن يسلم القائد المذنب الى
أيدي البرابرة ، فإن الجزء الأكبر من رعايا جوفيان كان في هذه الحالة
يقبل في ارتياح اتباع السابقة التي كان معمولا بها في العصور القديمة .

غير أن الامبراطور ، رغم كل القيود المفروضة على سلطته الدستورية ،
كان السيد المطلق لقوانين الدولة وجيوشها ، وكانت الدوافع التي أرغمته
على توقيع معاهدة الصلح ، هي نفسها التي تدفعه الآن الى تنفيذها ،
فلقد كان يتحرق شوقا الى ضمان حكم امبراطورية بأكملها على حساب
عدد قليل من الولايات ، أما الألفاظ المبجلة التي كان يتشدد بها جوفيان ،
من دين وشرف ، فلم تكن الا ستارا يخفى وراءه مخاوفه وأطماعه
انشخصية . ورغم ما قدمه السكان الى الامبراطور من التماسات تليق
بمقامه لكي يقيم في قصر نصيبين ، فإن اللياقة والحكمة منعته من أن
يفعل ذلك . غير أنه حدث في صباح اليوم التالي لوصوله الى المدينة أن
دخل المدينة سفير الفرس بينيسيس Benesis ، ورفع على القلعة علم
الملك المعظم ، وأعلن باسمه أن السكان ليس أمامهم الا الطرد من المدينة
أو الخضوع والاستكانة . أما كبار القوم في المدينة ، وكانوا حتى تلك
اللحظة الحاسمة الخطيرة يشقون في قدرة مليكهم على حمايتهم ، فقد
ارتموا تحت قدميه ، واستحلفوه ألا يتخلى عنهم ، أو على الأقل ،

ألا يسلم مستعمرة مخصصة الى طاغية بربرى نائر يمتلىء قلبه غيظا وحنقا من جراء الهزائم الثلاث المتتالية التى منى بها تحت أسوار نصيبين ، وقالوا انهم ما زالوا يملكون الأسلحة والشجاعة التى تمكنهم من صد الغزاة عن بلادهم ، والتمسوا منه أن يسمح لهم فقط باستخدامها فى الدفاع عن أنفسهم وبمجرد أن يحققوا استقلالهم فانهم سوف يلتمسون منه أن يتعطف بقبولهم ثانية فى عداد رعاياه . غير أن حججهم ، وفصاحتهم ، ودموعهم ، ذهبت جميعا أدراج الرياح ، وردد جوفيان فى شئ من الارتباك أن اليهود لها قدسيتهى ، ثم قبل كارها تاجا من الذهب قدمه له المواطنون ، وكان هذا المسلك من جانبه دليلا أقنع المواطنين بأن موقفهم قد وصل الى حالة اليأس ، الأمر الذى دفع المحامى سلفانوس الى مخاطبة الامبراطور قائلا : « مولاي الامبراطور ! انا لندرجو أن تتوج كما توجت الآن فى جميع مدائن ملكك » . أما جوفيان ، الذى اكتسب فى أسابيع قليلة عادات الملوك ، فقد كان لا يرتاح للحرية ويستاء من الحق ، ولما كان يعتقد أن تدمير الناس قد يدفعهم الى الخضوع للحكومة الفارسية ، وكان محقا فى اعتقاده هذا ، فقد أصدر مرسوما يحتم على الناس مغادرة المدينة فى مدى ثلاثة أيام ، والا كان الموت نصيبهم . ولقد رسم اميانوس Ammianus صورة حية لمشهد اليأس الشامل الذى يبدو أنه شاهده بقلب يفيض شفقة ورثاء . فقد ترك الشبان المحاربون فى حزن مشفوع بالغضب والاحتقار أسوار المدينة التى طالما دافعوا عنها دفاعا مجيدا ، وسكب الحزاني المعذبون اليائسون دمعة أخيرة على قبور الأبناء والأزواج التى ستندسها سريعا يد الحاكم البربرى ، وقبل المواطنون الطاعنون فى العمر أعتاب دورهم ، وتشبثوا بأبوابها ، تلك الدور التى قضوا فيها أوقات طفولتهم فى مرح ولهو . وازدحمت الطرقات بجماهير واجلة مرتجفة ، وزال وسط هذه الكارثة الشاملة كل تقدير للمركز أو الجنس أو العمر . وحاول كل انسان أن يحمل معه بقية من حطام متاعه ، ولما كانوا عاجزين عن الحصول مباشرة على العدد المناسب من الخيول أو العربات ، فقد اضطروا الى ترك الجزء الأكبر من ثمين مقتنياتهم ، ويبدو أن قسوة جوفيان الوحشية قد زادت محنة هؤلاء الشاردين . ورغم ذلك فقد خصص لاقامتهم حى جديد البناء من مدينة أميدا Amida . أما هذه المدينة النامية ، فبعد أن انضمت اليها ودعمتها

(★) قام جوفيان فى نصيبين بعمل من أعمال الملوك . فقد كان هناك ضابط شجاع يحمل نفس الاسم ، وكان جديرا بأن يصبح ملكا . وأمر جوفيان بانتزاع هذا الضابط من مائدة عشائه ، ونفى به فى بئر ، ورجم بالحجارة حتى مات ، دون أية محاكمة ، ودون دليل على ارتكاب أى ذنب .

مستعمرة كبيرة ، سرعان ما استعادت فخامتها القديمة وأصبحت عاصمة العراق . وقد أصدر الامبراطور أوامر أخرى بإخلاء مدينة سنجار وقلعه المغاربة ورد الولايات الخمس الواقعة فيما وراء نهر دجلة . وتمتع سابور بمجد انتصاره وثمرته ، ويعتبر هذا الصلح الشائن المهين بحق فترة مشهودة في اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها . لقد تخلى أجداد جوفيان في بعض الأزمنة عن حكم ولايات نائية لا نفع منها ، غير أنه منذ تأسيس مدينة روما ، فإن راعيها ، الاله ترمينوس **Terminus** ، الذي كان يذود عن حدود الجمهورية ، لم يتراجع قط أمام سيف عدو منتصر .

تأملات في موت جوليان

بعد أن وفى جوفيان بتلك العهود التي كان من المحتمل أن يغيره صوت شعبه على الاخلال بها ، أسرع في السير بعيدا عن مشهد خزيه وعاره ، وبدأ يتمتع هو وجميع حاشيته بحياة الترف في أنطاكية . ولم يأبه بما يمليه الحماس الدينى ، بل ذهب ، بدافع من الانسانية وعرفان الجميل ، يودع رفات مليكه الراحل وداعه الأخير اجلالا وتكريما . أما بروكوبيوس ، الذي كان ينعى في صدق واخلاص خسارة قريبه الراحل ، فقد أبعدته الامبراطور عن قيادة الجيش ، مدعيا في تبرير ذلك ادعاء مهذبا بأنه سوف يتولى تشييع الجنازة . ونقل جثمان جوليان من نصيبين الى طرسوس في مسيرة بطيئة استغرقت خمسة عشر يوما ، وعندما كانت تمر في مدن الشرق كانت تقابل من مختلف الأحزاب المعادية بالعويل والنحيب ، وبالاهانات الصاخبة . فالوثنيون رفعوا بطلمهم المحبوب الى مصاف تلك الآلهة التي أعاد عبادتها ، بينما كان المسيحيون يشيعون باللعنات روح ذلك المرتد الى الجحيم ، وجثمانه الى القبر . فريق يرثى لما سوف يحقق بهياكله من خراب قريب ، وفريق يحتفل بخلاص الكنيسة ذلك الخلاص العجيب . ولقد هلل المسيحيون بأصوات عالية مهوشة لرمية الانتقام الالهى الذي ظل معلقا أمدا طويلا فوق رأس جوليان المذنب ، وقالوا ان موت الطاغية قد تجلى لقديسى مصر وسوريا وكبادوكيا في اللحظة التي انتهت فيها حياته ، وصورت لهم جهالتهم أنه لم يمت بنبال الفرس ، وانما كان موته عملا بطوليا قامت به يد خفية من أيدي حماة العقيدة المسيحية ، وقد تكون يد انسان فان ، أو يد العناية الالهية الخالدة . وسرعان ما أخذ خصومهم بهذه الأقوال الحمقاء ، تصديقا لكلامهم أو حقدا عليهم ، وأخذوا يقولون في غموض ، أو يؤكدون في ثقة أن حكام الكنيسة هم الذين أثاروا على الامبراطور تعصب أحد رجال الحاشية ، وحرصوه على اغتياله . وبعد أكثر من ستة عشر عاما

من موت جوليان أثار ليبانيوس هذا الاتهام فى عنف وجدية ، فى خطاب عام وجهه الى الامبراطور ثيودوسيوس ، وان لم يدعم شكوكه هذه بحقائق أو حجج ، ونحن لا يسعنا الا أن نقدر فى السفسطائى الأنطاكى ، ليبانيوس ، ما كان يشعر به من حماس كريم نحو تلك الرفات الباردة المهملة التى تبقت من صديقه جوليان .

ولقد كان من عادات الرومان القديمة ، فى المآتم أو فى الاحتفالات بالنصر ، أن صوت الاطراء والمدح ينبغى أن يمتزج بشئ من القبح والسخرية ، وأنه فى ثنايا العرض الرائع لعظمة الأحياء أو الأموات ، ينبغى ألا تخفى نقائصهم عن أعين العالم . ولقد روعيت هذه العادة فى مآتم جوليان . فانبرى الممثلون الهزليون ، الذين كانوا يكرهون فيه احتقاره ومقته للمسرح ، يعرضون أخطاء وحماقات الامبراطور الراحل عرضا شائقا مبالغا فيه ، ويلقون من جمهور النظارة المسيحيين تصفيقا واستحسانا . وأصبحت شخصيته المتقلبة وعاداته العجيبة مجالا فسيحا للدعابة والسخرية ، فقليل عنه انه فى ممارسة مواهبه الفذة كثيرا ما نزل الى مرتبة دون جلال مركزه ، وأن شخصية الاسكندر الأكبر فيه قد تحولت الى شخصية الفيلسوف ديوجين ثم تدل الفيلسوف الى مرتبة قسيس . وقيل أيضا ان نقاء فضيلته كان يشوبها غروره الزائد وان خرافاته أزعجت أمن الامبراطورية العاتية وهددت سلامتها ، وان نزواته الشاذة لم تتجه نحو كثير من التسامح ، اذ يبدو أنها كانت نزوات عقل خبيث ماكر ، أو قل نزوات مبعثها التحيز والمحاباة . ودفن جثمان جوليان فى طرسوس باقليم قيليقيا ، غير أن ضريحه الفخم الذى شيد فى تلك المدينة على ضفاف نهر كيدنوس (Cydnus) لم يرض أصدقاء المخلصين الذين أحبوا ذلك الرجل غير العادى . فالفلاسفة منهم كانوا محقين فى التعبير عن رغبتهم فى أن تلميذ أفلاطون كان جديرا بأن يرقد وسط الغابات المحيطة بالأكاديمية ، أما رجال الحرب فقد جهرروا فى لغة أقوى بأن رفات جوليان كان ينبغى أن تختلط برفات قيصر فى ساحة مارس اله الحرب ، وبين الآثار القديمة التى تنطق بفضائل الرومان ، وذلك لأن تاريخ الملوك لا يوجد كثيرا بمثل هذا المنافس الخطير .

عودة المسيحية إلى مكان الخطوة

الفصل الخامس والعشرون (٣٦٣ - ٣٨٤)

المسيحية فى عهد جوفيان

كان موت جوليان قد ترك شئون الامبراطورية العامة فى موقف خطير مبهم . فقد أنقذ الجيش الرومانى بمعاهدة مخجلة ، بل ربما كانت معاهدة أملتها الضرورة (١) ، وكرس جوفيان الورع الفترة الأولى من السلم لاعادة الهدوء الداخلى للكنيسة والدولة . ذلك أن سلفه جوليان ، بدلا من أن يهدىء الحرب الدينية ، فقد أذكى نارها بحماقته ومكره ، أما التوازن الذى اصطنع تحقيقه بين الأحزاب المتناجزة ، فلم يترتب عليه الا دوام الصراع بينها بدافع من الآمال والمخاوف التى كان يشعر بها المتنافسون ، الذين كان بعضهم يدعى لنفسه سيطرة قديمة ، بينما يدعى البعض الآخر حظوة حالية . وقد نسى المسيحيون روح الانجيل ، وتشرب الوثنيون بروح الكنيسة . وفى محيط الأسر الخاصة قضت ثورة الحماس والانتقام العمياء على المشاعر والأحاسيس الطبيعية ، أما جلال القوانين فقد انتهكت حرمة أو أسء استغلاله ، ولطخت مدائن الشرق بالدماء ، وأصبح أعداء الرومان الألداء فى قلب البلاد . وقد تعلم جوفيان عقيدة المسيحية ، وعندما تقدم من نصيبين الى أنطاكية رفع علم الصليب (علم قسطنطين الامبراطورى) مرة ثانية على رأس قواته ، اعلنا منه للناس عن عقيدة امبراطورهم الجديد . وما أن ارتقى العرش حتى بعث برسالة دورية الى كل حكام ولاياته يعترف فيها بالحقيقة الالهية ويضمنها

(١) نياشين جوفيان تزيينه بالانتصارات ، واکاليل الغار ، والأسرى المنبطحين تحت اقدامه . والملق نوع من الانتحار الأحمق يدمر نفسه بيده .

الاقرار الشرعى بالديانة المسيحية ، ثم ألغى المراسيم الخبيثة التى أصدرها جوليان ، وأعاد الحصانات الكنسية ووسع نطاقها وتنازل ببدء أسفه على اضطراره الى تضييق نطاق احساناته بحكم المحنة التى تعرضت لها البلاد فى ذلك الوقت . وهلل المسيحيون جميعاً تهليلاً مخلصاً مسموعاً لخليفة جوليان التقي ، غير أنهم كانوا لا يزالون يجهلون نوع العقيدة الارثوذكسية التى سوف يعتنقها أو نوع المجمع الذى سوف يختار الانضمام الى مذهبه ، وسرعان ما اعتورت هدوء الكنيسة تلك النزاعات الحامية التى كانت قد توقفت خلال فترة الاضطهاد ، وسارع الزعماء الدينيون للطوائف المتناجزة الى بلاط اذاسا أو بلاط أنطاكية ، لأن التجربة علمتهم أن مصيرهم يتوقف الى حد كبير على أول الانطباعات التى يتأثر بها عقل جندى لم يصب من التعليم شيئاً ، وازدحمت طرقات الشرق بالهوموجيين (الذين يقولون بمساواة الآب والابن فى الجوهر) وبالآريوسيين ، وأشباه الآريوسيين ، وأساقفة اليونوميين ، الذين كان ينافس بعضهم بعضاً فى كسب ذلك السباق المقدس ، وكانت غرف القصر تردد صدى صخبهم وضجيجهم ويطلق أذان الملك خليط ، ربما دهش له ، من الحجج الميتافيزيقية والسباب الغاضب ، وكان جوفيان رجلاً معتدلاً ، فأوصاهم بالوفاق والبر والمحبة ونصح المتجادلين بانتظار حكم مجلس سوف يعقد فى المستقبل ، وفسر هذا الاعتدال من جانبه بأنه دليل على عدم اكتراثه ، غير أن جوليان كشف فى نهاية الأمر عن تعلقه بعقيدة نيقيا ، وأنصح عنها بالاحترام الذى أبداه لما كان يتحلى به أثناسيوس العظيم من فضائل « سماوية » . وكان جندى الدين المحنك . أثناسيوس ، الذى بلغ السبعين من عمره ، قد خرج من عزلته عندما بلغه أول نبأ عن موت الطاغية جوليان . وقد أجلسه ترحيب الشعب وتهليله مرة ثانية على عرش الأسقفية ، وتقبل ، أو توقع ، عن حكمة دعوة جوفيان . وكانت مهابة شخصه ، وشجاعته الهادئة الرزينة وفصاحته المقنعة ، عاملاً دعم الشهرة التى كان قد بلغها فى بلاط أربعة ملوك متعاقبين . وما أن كسب ثقة الامبراطور المسيحي ، واستحوذ على ايمانه به ، حتى عاد مظفراً الى أسقفيته ، وظل يدير شئون الدين فى الاسكندرية ومصر ، وفى الكنيسة الكاثوليكية عشر سنوات تالية ، بمشورات ناضجة وهمة لم يلحقها وهن . وقبل أن يرحل عن أنطاكية أكد لجوفيان أن ولاءه الأرثوذكسى سوف يكافأ عليه بحكم طويل تظلمه السكينة والهدوء ، وكان أثناسيوس محقاً فى أن يتوقع واحداً من أمرين ، فاما أن يكون له فضل النبوة الصادقة ، أو يكون عذره فى دعوات شكر وامتنان لم تستجب .

مات جوفيان بعد حكم لم يدم أكثر من ثمانية شهور . وجاء بعده
الامبراطور فالنتينيان الذى أشرك معه أخاه فالنز Valens ، وأصبحت
الولايات الغربية والشرقية على هذا النحو مقسمة بصورة رسمية . وأقر
فالنتينيان التسامح الدينى فى الغرب ، بينما اعتنق فالنز المذهب
الآريوسى فى الشرق .

وكان ضغط البرابرة يشتد على مختلف الحدود ، الألمان والبرجنديون
فى بلاد الغال ، والبكتيون ، والاسكتلنديون فى بريطانيا ، والقوط
والسرماشيون Sarmatians على نهر الدانوب . وكانت قبائل الهون Huns
تدفع تلك الشعوب أمامها ، ونتيجة لهذا الضغط سمح لقبائل القوط
الغربين باستيطان اقليم الدانوب ، غير أنهم ثاروا هناك وهددوا
القسطنطينية . وقابلهم فالنز فى أدرنة ، ولكنه هزم وقتل فى معركة
حاسمة أكدت فيها تكتيكات القتال تفوق الفرسان على المشاة تفوقا دام
حتى موقعة كريسى Crecy وألحق برجال الجيش الرومانى وبمكانته
خسارة لم يفق منها أبدا .

ووسط الكوارث العامة التى تلت ذلك ارتقى ثيودوسيوس عرش
امبراطورية الشرق وكان هذا الحدث نقطة تحول فى الحكم الدينى
والحكم الدينى . فقد هزم القوط ، وعقد معهم معاهدات ، تضمنت رغب
ذلك استيطان أخرى داخل الامبراطورية ، ثم حصل على لقب
« ثيودوسيوس العظيم » باقراره مذهب الأرثوذكسية الكاثوليكية وبعد
موت جراشيان وفالنتينيان الثانى ، ومغتصب للعرش اسمه يوجينيوس
Eugenius أصبح الحاكم الأخير الأوحى للامبراطورية فى الغرب وفى
الشرق .

كل هذه الأحداث ورد ذكرها فى بقية هذا الفصل وفى
الفصل ٢٦ (١) .

(١) ناقش جيبون نشأة قبائل الهون فى الفصل ٢٦ ، غير أن نشاطهم هذه لا تزال

E. A. Thompson

غامضة . وأحسن وصف حديث لها هو ما ورد فى كتاب

وعنوانه : Attila and the Huns (١٩٤٨)

الفصل السابع والعشرون (٣٧٤ - ٣٩٧)

- امبروز أسقف ميلان • فضائل ثيودوسيوس وأخطاؤه •
- فتنة انطاكيا ومذبحة سالونيك • توبة ثيودوسيوس •
- شخصية فالنتينيان وموته • موت ثيودوسيوس

ظلت القسطنطينية أربعين عاما حصنا للمذهب الآريوسي • وكان ثيودوسيوس أول امبراطور يعتمد على مذهب التثليث الأرثوذكسي • وفي سنة ٣٨٠ عين أسقف أرثوذكسي اسمه جريجورى نازيانزن فى القسطنطينية ، وأبعد المذهب الآريوسى عن الشرق وفى مجمع القسطنطينية الذى عقد سنة ٣٨١ اكتمل مذهب التثليث اللاهوتى الذى كان قد اقراه مجمع نيقيا • وبين ٣٨٠ ، ٣٩٤ أصدر ثيودوسيوس عدة مراسيم صارمة ضد الهرطقة •

وفى خلال تلك الفترة كان تراخى جراشيان ، امبراطور الغرب ، قد أثار التدمير بين القوات الرومانية • وثار عليه مكسيموس فى بريطانيا وقاد ضده حملة هزمته بالقرب من ليون قبل ان يخف ثيودوسيوس لنجده • ثم اغتيل جراشيان وعقد ثيودوسيوس تحالفا مع مكسيموس أصبح مكسيموس بمقتضاه حاكما للأقاليم الواقعة فيما وراء الألب ، وثبت فالنتينيان ملكا على ايطاليا •

« امبروز » أسقف ميلان

من بين رجال الدين الذين ازدان بهم عهد ثيودوسيوس تميز جريجورى نازيانزن بمواهب الواعظ صاحب البيان ، أما مارتن أسقف مدينة تور فقد اشتهر بأنه أوتى القدرة على عمل المعجزات ، وقد أضاف ذلك وزنا وعزة الى فضائله الرهبانية • أما الأسقف الجريء امبروز ، فقد حق له أن يدعى لنفسه شرف القوة والقدرة على الاضطلاع بالشئون

الكنسية . وكان سليل أسرة رومانية نبيلة ، وقد تولى والده منصبا خطيرا هو منصب الوالى البريتورى لاقليم الغال . أما الابن ، فبعد أن أتم دراسات الفنون الحرة ، وتدرج فى المناصب المدنية وصل الى منصب قنصل ليجوريا Liguria ، وهى ولاية كان يقوم فيها قصر ميلان الامبراطورى ، وفى الرابعة والثلاثين من عمره ، وقبل أن ينال سر المعمودية ، نقل من منصب الحاكم الى منصب الأسقف ، وكان ذلك مفاجأة له ومفاجأة للعالم . وقد حياه الشعب بأسره بقلب الأسقفية دون أن يكون فى الأمر أى مزيج من الدهاء أو الدس ، كما يقولون ، بل نسب اتفاق الناس واصرارهم على هذا الترحيب الى دافع فوق الطبيعى ، واضطر الحاكم كارها الى قبول منصب روى لم يكن مهيا له بحكم ما اعتاد فى حياته السابقة وبحكم المهن التى باشرها . غير أن عبقريته القوية الوثابة سرعان ما أهلتة لأن يباشر ، فى حماس وفطنة ، مهام اختصاصاته الكنسية ، وبينما نبذ فى سرور وفرح زخارف العظمة الدنيوية الفخمة الباطلة ، فقد تكرم ، من أجل خير الكنيسة ، بتوجيه ضمير الأباطرة والتحكم فى ادارة الامبراطورية . وكان جراشيان يحبه ويحترمه كوالده ، وقد قصد الأسقف بالرسالة المتقنة التى كتبها عن عقيدة التثليث أن تكون درسا للملك الشاب . وبعد فاجعة موت جراشيان ، وعندما كانت الامبراطورة جستينا Justina ترتعد خوفا على سلامتها وعلى سلامة ابنها فالنتينيان Valentinian أوفد أسقف ميلان فى مهمتين مختلفتين الى بلاد تريفز Treves . واستخدم الأسقف هناك ما لشخصيته الروحية ولشخصيته السياسية من سلطات فى حزم ولباقة متساويين ، ومن الجائز أنه أسهم بنفوذه وفصاحته فى صد أطماع مكسيموس وحماية سلام ايطاليا . وقد كرس أمبروز حياته وقدراته لخدمة الكنيسة ، وكانت الثروة موضع احتقاره ، فنبد الميراث الخاص الذى ورثه عن أبيه ، وباع الأواني المقدسة دون تردد ليفدى بثمانها الأسرى . ولقد تعلق الشعب ورجال الدين فى ميلان بأسقفهم ، واستحق هذا الرجل تقدير ملوكه الضعفاء ، دون أن يلتمس حظوتهم أو يخشى غضبهم .

ومن الطبيعى أن انتقل الى جستينا ، والدة الامبراطور ، حكم ايطاليا وحكم الامبراطور الشاب . وكانت جستينا امرأة ذات جمال وهمة ، ولكنها كانت لسوء حظها تدين بالهرطقة الآريوسية وسط شعب أرثوذكسى . وحاولت غرس عقيدتها فى عقل ابنها . وكانت جستينا مقتنعة بأن للامبراطور الرومانى أن يتطلب من الشعب فى محيط ملكه ممارسة ديانته ، واقتрحت على الأسقف أمبروز أن يقبل تنازلا معتدلا وهو أن يتنازل لها عن استخدام كنيسة واحدة ، اما فى مدينة ميلان أو فى ضواحيها . غير أن سلوك أمبروز كان خاضعا لمبادئ أخرى تختلف

عن ذلك كل الاختلاف ، فقصور الأرض يمكن في الحق أن تكون من شأن قيصر ، غير أن الكنائس هي بيوت الله ، وبوصف كونه الخليفة الشرعي للرسول ، فانه في حدود أسقفيته ينبغي أن يكون النائب الأوحـد عن الله . وكان يرى أن امتيازات المسيحية ، دينوية أو روحية ، تقتصر على المؤمنين الصادقين ، وكان عقله مقتنعا بأن آراء اللاهوتية الخاصة هي معيار الحق والأرثوذكسية (صحة المعتقد) . ولقد أبى الأسقف أن يعقد أية مداونة أو مفاوضة مع عملاء الشيطان ، وأعلن في حزم متواضع أنه يعتزم الموت شهيدا ولا يتحنى أمام الرجس والدنس . أما جستينا فقد ساءها رفض الأسقف واعتبرته وقاحة وتمردا ، ومن ثم فقد قررت في عجلة أن تستخدم حقوق ابنها الامبراطورية . ولما كانت رغبة في أداء الصلوات العامة في يوم عيد القيامة ، فقد أمرت أمبروز بأن يمثل أمام المجلس ، وأطاع الأسقف هذا الأمر بالاحترام الواجب على فرد مخلص من أفراد الرعية ، غير أن جمهورا كبيرا من الناس سار وراءه ، دون موافقته واندفعوا في حماس عنيف الى أبواب القصر . ولهذا فان وزراء فالتينيان ، الذين تولاهم الهلع ، لم يستطيعوا اصدار حكم بالنفي على أسقف ميلان ، بل التمسوا منه في خشوع وذلة أن يتوسط بنفوذه لحماية شخص الامبراطور واعادة الهدوء الى العاصمة . غير أن الوعود التي تلقاها أمبروز ثم أذاعها على الناس ، سرعان ما نقضها البلاط الغادر ، وخلال ستة من أقدس الأيام التي خصصها المسيحيون الأتقياء لممارسة شعائر الدين ، كانت المدينة في حالة اضطراب من جراء هزات الشغب والتحمس الديني التي اعتورتها . وصدر الأمر الى ضباط القصر بأن يجهزوا كنيسة « بورشيا » أولا ثم الكنيسة الجديدة (The New Basilica) لاستقبال الامبراطور وأمه على الفور . ونظم المقعد الملكي بمظلته وستائره على الطريقة المعتادة ، غير أنه كان من الضروري حمايته من تهجم الجمهور وإهانتة بحرس قوى . أما رجال الدين من الآريوسيين الذين تجاسروا على الظهور في شوارع المدينة فقد تعرضت حياتهم لأشد الأخطار ، وكسب الأسقف الفضل وحسن السمعة لأنه حمى أعداءه من أيدي الجمهور الثائر .

ورغم أن الأسقف كان يعمل جاهدا على كبح جماح حماس الشعب ، الا أن الحرارة العاطفية التي اتسمت بها عظاته كانت تلهب مشاعر شعب ميلاد الغاضب المتمرد . ونعتت أم الامبراطور في بداءة بأنها مثل حواء ، ومثل زوجة أيوب ، ومثل ايزابيل ، ومثل هيروديا ، ووصفت رغبته في اقامة كنيسة للآريوسيين بأنها لا تقل عن أقسى الاضطهادات التي عانتها الكنيسة تحت حكم الوثنيين ، ولم يكن للإجراءات التي اتخذها البلاط

من جدوى اللهم الا أنها كشفت عن جسامه الاثم . وفرضت غرامة قدرها مائتان من الجنيئات الذهبية على جمهور التجار والصناع مجتمعين ، وصدر أمر باسم الامبراطور الى كل موظفى دور القضاء والقائمين على خدمتها بالألا يغادروا منازلهم مطلقا طوال فترة الاضطرابات العامة : واعترف وزراء فالنتينيان دون حرص بأن أكثر مواطنى ميلان احتراماً ، يؤيدون قضية أسقفهم . ثم التمسوا منه مرة ثانية أن يعيد الهدوء الى بلاده بأن يلبي مشيئة مليكه بصورة مؤقتة . وقد أجاب أمبروز على ذلك باجابة غلفها فى أكثر العبارات تواضعا واحتراما ومع ذلك فقد كانت عبارات يمكن اعتبارها اعلانا خطيرا بحرب أهلية . قال الأسقف : « ان حياته ومصيره فى يد الامبراطور ، ولكنه لن يخون أبدا كنيسة المسيح ، أو يحط من كرامة الشخصية الأسقفية . وأنه فى مثل هذه القضية على استعداد لتحمل ما يستطيع حقد الشيطان أن يوقعه به ، وانه لا يرغب فى أكثر من أن يموت بين رعيته الأمانة ، وأمام المذبح . وقال انه لم يكن « هو الذى أثار غضب الشعب ، وأن الله وحده هو الذى فى مقدوره أن يهدى ذلك الغضب ، وأضاف أنه يستعيز بالله من مشاهد الدم والقوضى التى يمكن أن تحدث وأنه يدعو فى صلواته الحارة ألا يعيش ليشهد خراب مدينة مزدهرة ، وربما دمار ايطاليا بأسرها » . وكان من الممكن أن يؤدى التعصب العنيد الذى اتصفت به جستينا الى تعريض امبراطورية ابنها للخطر ، لو أنها استطاعت أن تعتمد فى صراعها هذا مع الكنيسة وأهل ميلان على طاعة قوات القصر طاعة ايجابية . وسار عدد كبير من جنود القوط لاحتلال كنيسة البازيليكا الجديدة ، وهى التى كانت هدف النزاع . وكان المتوقع من المبادئ الأريوسية التى كان يعتنقها هؤلاء المرتزقة الأجانب ، ومن طرائقهم الهمجية أنهم لن يتورعوا عن تنفيذ أشد الأوامر الدموية . غير أن الأسقف قابلهم على العتبة المقدسة وأصدر عليهم فى صوت كالرعد حكما بالحرمان من عضوية الكنيسة ، وسألهم فى لهجة الوالد والسيد ما اذا كانوا قد التمسوا أن تظلهم الجمهورية بحمايتها الكريمة لكى يقتحموا بيت الله ؟ وأتاح توقف البرابرة بضع ساعات من الوقت لمفاوضة أجرى ، وتلقت الامبراطورة نصحا من أعقل مستشاريها بأن تترك كل كنائس ميلان فى حوزة الكاثوليك ، وبأن تغض الطرف وتخفى نوايا انتقامها حتى تواتيها فرصة أنسب . ولم تستطع أم فالنتينيان أن تصفح عن انتصار أمبروز ، أما الملك الشاب فقد أبدى عجبه قائلا فى انفعال ان خدمه كانوا على استعداد لخيانته ودفعه الى أيدي قسيس وقح .

وكانت قوانين الامبراطورية ، التى كان بعضها مبصوما باسم
فالنننيان ، لا تزال تدين الهرطقة الآريوسية ، وتبرر مقاومة الكاثوليك .
ولهذا استخدمت الامبراطورة جستينا نفوذها واستصدرت مرسوما يقضى
بالتسامح ، وجه الى كل الولايات الخاضعة لبلاط ميلان ومنح بمقتضاه كل
معتنقى عقيدة ريمنى *The Faith of Rimini* حق ممارسة دينهم وأعلن
الامبراطور أن كل من يخرقون ذلك الدستور المقدس السليم سوف
يعتبرون أعداء للأمن العام ، وتوقع عليهم العقوبة العظمى . وجدير بالذكر
أن أخلاق أسقف ميلان ولفته قد تبرر الشك فى أن مسلكه سرعان ما هيا
سندا معقولا ، أو على الأقل مبررا ظاهريا للوزراء الآريوسيين ، الذين
كانوا يرقبون الفرصة لمفاجأته متلبسا بعصيان قانون كان غريبا منه أن
يصفه بأنه قانون دموى طفيانى . فصدر عليه حكم لين شريف بالنفى ،
يفرض عليه أن يغادر ميلان دون ابطاء ، ويسمح له باختيار منفاه وعدد
رفاقه . غير أن سلطة رجال الدين ، وهم الذين كانوا يعطون بمبادئ
الولاء السلبي ويمارسونها ، كانت تبدو فى نظر أمبروز أقل أهمية من
ذلك الخطر الهائل الملح الذى كان يهدد الكنيسة . ومن ثم فقد رفض
فى جراءة أن يطيع الأمر ، ولقى فى هذا الرفض تأييدا اجماعيا من شعبه
المخلص وتولى هذا الشعب حماية شخص الأسقف بالتناوب ، وحصنت
أبواب الكاتدرائية والقصر الأسقفى تحصينا قويا ، وكانت القوات
الامبراطورية التى تولت الحصار غير راغبة فى مهاجمة ذلك الحصن المنيع .
أما الفقراء الذين كان أمبروز يغدق عليهم الخيرات ، فقد رحبوا بتلك
الفرصة المواتية لظهار حماسهم وامتنانهم . ولما خشى الأسقف احتمال
نفاد صبر الجماهير من طول السهر الليلى ووتيرته ، هدته حكمته
الى أن يأخذ فى كنيسة ميلان بنظام كان له نفعه فى ذلك الوقت ، وهو
أن تتشد الجماهير المزامير بصوت مسموع وبصورة منتظمة ، وبينما كان
يواصل صراعه الشاق المضنى ، تلقى توجيهها فى أحد أحلامه بأن يحفر
الأرض فى مكان كانت قد دفنت فيه منذ أكثر من ثلاثمائة عام رفات
شهيدين هما جرفاسيوس ، وبروتاسيوس . وما أن حفرت الأرض تحت
أرضية الكنيسة حتى عثر على هيكلين آدميين كاملين ، فصلت رأسهما عن
جسديهما ، وكانا غارقين فى الدماء . ثم عرضت تلك البقايا المقدسة فى
جلال مهيب على الشعب الخاضع ، واستخدمت كل واقعة من وقائع ذلك
الاكتشاف السعيد بطريقة تدعو الى الاعجاب لخدمة مخططات أمبروز .
ف قيل ان عظام الشهيدين ، ودماءهما ، وملابسهما لها القدرة على الشفاء
من الأمراض ، وأن هذا التأثير الخارق للطبيعة يمكن أن يصل الى أبعد
الأشياء دون أن يفقد أى جزء من ميزته الأصلية . وحدث أن رجلا أعمى
استرد بصره بصورة غير عادية ، وشفى بعض أناس كان بهم مس من

الجن وانتزعت منهم اعترافات بذلك ، كل أولئك يبدو أنه أيد إيمان
وقدسية أمبروز . وقد شهد أمبروز بصحة تلك المعجزات ، كما شهد
بها أمين سره بولينوس ورجل آخر اهتمدى على يديه ، هو أوغسطين الشهير
الذى كان اذ ذاك يعلم فن البلاغة فى ميلان - ومن الجائز أن عقلية العصر
الحاضر تؤيد الامبراطورة جستينا وبلاطها الآريوسى فى عدم تصديقهم
لتلك الأحداث ، وفى سخريتهم من تلك الصور التمثيلية التى عرضت
على الناس بفضل تحايل الأسقف ، ولحسابه . غير أن تأثير تلك الأحداث
على عقول الناس كان سريعا لا يقاوم ، فوجد عاهل ايطاليا الضعيف
نفسه عاجزا عن منازعة ولى الله . وكذلك توسطت قوى الأرض فى الدفاع
عن أمبروز ، فتقدم ثيودوسيوس الى الامبراطور بنصيحة خالية من
الأغراض ، وكانت نصيحته خالصة لتقواه وصداقته ، أما طاغية بلاد
الغال فقد أخفى مقاصده العدوانية الطموحة تحت ستار من الغيرة الدينية .



وغزا مكسيموس ايطاليا فى سنة ٣٨٧ . وفر الامبراطور فالنتينيان
وامه الى ثيودوسيوس فى سالونيك . وتزوج ثيودوسيوس من شقيقة
الامبراطور ، وأنهى الحرب الأهلية بهزيمة مكسيموس وقطع رقبتة .

فضائل ثيودوسيوس وعيوبه

ان الخطيب الذى فى مقدوره أن يصمت دون التعرض للخطر .
يستطيع أن يكيل المدح طواعية وفى غير صعوبة . ولسوف تعترف
الأجيال القادمة بأن أخلاق ثيودوسيوس يمكن أن تكون موزعا لاطراء
صادق كثير . فلقد تمكن بحكمة قوانينه ونجاح جيوشه من أن يجعل
حكمه مبجلا فى أعين رعاياه وأعدائه . وكان يحب فضائل الحياة المنزلية
ويمارسها ، وهذا شئ قلما يكون له وجود فى قصور الملك . وكان
ثيودوسيوس معتدلا عفيفا ، يتمتع نفسه فى غير اسراف بملذات المائدة ،
حسية واجتماعية ، ولم تنحرف عواطف حبه الحارة عن أهدافها الشرعية .
وكانت صفاته الودعية ، كزوج مخلص ووالد غفور ، زينة تزدان بها القاب
عظمته الامبراطورية السامية . وارتفع عمه بفضل حبه له وتقديره اياه
الى مرتبة والده . وكان يحتضن أبناء أخيه وأبناء أخته كأولاده سواء
بسواء ، وامتدت أيادى عطفه الى أبعد أقاربه العديدين وأقلمهم مقاما
وظهورا . وكان يختار أصدقاءه المقربين فى حكمه من بين أولئك الذين
يظهرون أمام عينيه دون قناع فى اتصالات الحياة الخاصة المتكافئة .

ومكفه معجوره بقيمة الفضائل الشخصية وسموها من ازدراء الرفعة الملكية المحظورة . وأثبت بمسلكه أنه نسي كل الاسماء التي لحقت به قبل ارتفاعه عرش الامبراطورية الرومانية ، وتذكر بأكثر الامتنان كل أفضال الناس عليه وخدماتهم له وكان يجد أو يتبسط في حديثه حسبما يلائم أفراد الرعية الذين يأذن لهم بحضور مجتمعه ، سنا ومقاما وخلقا ، وكانت بشاشته في معاملة الناس صورة لعقله . وكان ثيودوسيوس يحترم بساطة الخيرين والفضلاء ، ويكافئ في سخاء حريص كل فن وكل موهبة من الفنون والمواهب النافعة ، بل والساذجة . وفيما عدا الهراطقة الذين اضطهدهم في كراهية عنيدة ، فان دائرة احسانه الواسعة لم يكن لها من حدود الا حدود الجنس البشرى بأكمله . ولا شك في أن حكم امبراطورية عظيمة لا بد أن يكفي لشغل وقت رجل من البشر واستنفاد قدراته ، غير أن ذلك الملك المثابر المجد كان يخصص دائما بعض لحظات فراغه للقراءة كتسليية تثقيفية ، دون أن يتطلع الى شهرة العلم العميق التي لا تلائمه . وكان التاريخ دراسته المفضلة لأنه الطريق الى توسيع تجاربه ، ومن ثم فان حوليات روما عبر فترة طويلة قدرها ألف ومائة من السنين كانت ترسم أمامه صورة رائعة متنوعة الأشكال للحياة الانسانية وقد لوحظ عليه بصفة خاصة أنه كلما كان يتابع أعمال القسوة التي أتاها سنا Cinna أو ماريوس Marius أو سللا Sylla ، كان يعبر في حماس عن مقتته الشديد لأعداء الانسانية والحرية هؤلاء . وكان يكون رأيه عن الأحداث الماضية في غير تحيز أو محاباة ، وينتفع من آرائه تلك بتطبيقها كقاعدة لأعماله وتصرفاته ، واستحق ذلك الاطراء العجيب لأن فضائله كانت تنمو وتتزايد كلما ازداد توفيقا ، وأن تواضعه واعتداله كانا يتمشيان مع ازدهاره ونجاحه ، وأن تسامحه كان أبرز ما يكون بعد فوزه في الحرب الأهلية وزوال خطرهما . ولقد حدث أن ذبح حراس الطاغية من المغاربة في حدة النصر الأولى ، كما أن عددا قليلا من المجرمين الممقوتين وقعوا تحت طائلة القانون ونالوا عقابهم ، غير أن الامبراطور اهتم باغاثة الأبرياء أكثر من اهتمامه بمعاقبة المذنبين . ولشد ما كانت دهشة الرعايا المظلومين في « الغرب » ، الذين كان يمكن أن يعدوا أنفسهم سعداء لو أنهم استردوا أراضيهم ، عندما تلقى كل منهم مبلغا من المال يعادل ما لحق به من خسارة . كما أن سخاء الامبراطور الفاتح ، ثيودوسيوس ، امتد الى أسرة عدوه مكسيموس ، فأعان أمه العجوز وتولى تعليم بناته اليتامى . ولا شك في أن مثل هذه الشخصية الكاملة المهذبة يمكن أن تبرر المغالاة التي ذهب اليها الخطيب باكاتوس Pacatus عندما افترض أن بروتس الأكبر ، وهو الجمهورى العنيد ، لو أنه استطاع أن يعود الى الدنيا مرة ثانية ، لنبتذ تحت أقدام ثيودوسيوس كراهيته للملوك ،

ولا اعترف صادقا بأن مثل ذلك الملك هو أخلص من يحمي سعادة الشعب
الروماني ويحفظ له عزته وكرامته .

غير أن مؤسس الجمهورية هذا (بروتيس) لابد أنه كان يستطيع
ببصره النافذ أن يتميز في شخصي ثيودوسيوس نقيصتين رئيسيتين ربما
خففتا من حبه الحديث للحكم المطلق . ذلك أن عقلية ثيودوسيوس
الفاضلة كثيرا ما كان ينتابها الكسل والتراخي ، كما كانت تلتهب
بالغضب والانفعال في بعض الأحيان . وعندما كان يتابع هدفا هاما
كانت همته النشيطة تمكنه من بذل أشد الجهود وأعظمها ، غير أن ذلك
البطل ، بمجرد أن كان يحقق الخطة أو يتغلب على الخطر ، كان يهبط
الى استرخاء معيب ، وينصرف الى الاستمتاع بملذات بريئة ولكنها تافهة
من تلك الملذات التي تنهيا له في جو الترف السائد في بلاطه الملكي ،
ناسيا أن وقت الملك هو ملك للشعب . وكان ثيودوسيوس بطبيعته
عجولا غضوبا ، وهناك من المواقف ما كان لا يستطيع أحد فيها أن يقاوم
نتائج سخطة الخطيرة ، كما أن قلة من الناس كانت تستطيع أن تثنيه
عن الوصول الى تلك النتائج ، غير أن الملك الرحيم كان في تلك المواقف
ينزعج بحق من شعوره بضعفه وبقوته . وكانت دراسة حياته المستمرة
تتجه الى كبح أو تعديل الشاذ من نزوات الغضب والانفعال ، وكان
نجاحه في ذلك عاملا في رفع قيمة تسامحه وحلمه . غير أن الفضيلة التي
يثابر عليها المرء ، والتي من حقها أن تنال ميزة النصر والظفر ، تتعرض
لخطر الهزيمة ، فقد تلوث عهد ذلك الملك الحكيم الرحوم بعمل من أعمال
القسوة كفيل بأن يصم سيرة نرون أو دوميتيان . ومن ثم فإن من
يؤرخ لعهد ثيودوسيوس خلال فترة ثلاث سنوات لابد أن يكون متناقضا ،
اذ عليه أن يروي قصة العفو الكريم الذي منحه لمواطني أنطاكية ، وقصة
المذبحة الوحشية التي تعرض لها أهل سالونيك .

فتنة أنطاكية

كان أهل أنطاكية في حالة من القلق الشديد لم تسمح لهم أبدا
بالرضا عن حالهم أو عن أخلاقي وسلوك من تعاقبوا عليهم من الملوك .
فكان رعايا أنطاسيوس من الأريوسيين ينعون فقدانهم لكنائسهم ، ونظرا
لأن ثلاثة أساقفة متنافسين كانوا يتنازعون كرسي أنطاكية ، فإن الحكم
الذي فصل في دعاوهم أثار تذمر المجمعين الآخرين اللذين لم يصيبا نجاحا .
وكانت ضرورات الحرب القوطية والنقبات الحتمية التي لازمت توقيع
الصلح قد أرغمت الامبراطور على زيادة أعباء الضرائب العامة ، ونظرا
لأن ولايات آسيا لم تشترك في تلك المحنة ، فأنها كانت أقل ميلا الى

المساهمة في اغاثة أوروبا . وكانت الفترة الميمونة من حكم يودوسيوس قد اقترنت من السنة العاشرة وهي مناسبة سعد بها الجنود الذين منحوا مكافآت سخية أكثر مما سعد بها أفراد الرعية الذين تحولت حياتهم الاختيارية منذ فترة طويلة الى حمل ثقل غير عادى . ثم جاءت مراسيم الضرائب فقطعت على أنطاكيا راحتها وملذاتها ، فأحاط جمهور مسترحم من الناس بدار القضاء التي كانت مقرا للحاكم ، والتمسوا منه رفع الظلم عنهم في لغة مؤثرة راعوا فيها الاحترام في بادئ الأمر ثم اشتعل غضبهم شيئا فشيئا من جراء كبرياء وتعالى حكامهم الذين اعتبروا شكواهم من قبيل المقاومة الاجرامية ، فانحط أسلوبهم الساخر الى تقريع لاذع غاضب ، وجاوز التقريع سلطات الحكومة الدنيا الى مهاجمة شخص الامبراطور المقدس نفسه . ثم انفجر غضبهم ، الذى أثارته مقاومة ضعيفة وانصب على تماثيل الأسرة الامبراطورية التي كانت مقامة في أبرز أماكن المدينة لتكون قبلة احترام الشعب وتبجيله . وهاجم الناس تماثيل يودوسيوس ، وأبيه ، وزوجته فلاكيللا Flacilla وولديه أركاديوس وأونوريوس ، ثم قذفوا بها من فوق قواعدھا بصورة معيبة ، وحطموها قطما ، أو جروھا بازدراء في شوارع المدينة ، وكانت الاهانات التي وجهت الى الصور التي تمثل الجلالة الامبراطورية اعلانا كافيا عما كان يجيش به صدر الشعب من رغبات الخيانة والكفر . غير أن هذا التمرد سرعان ما قمع بوصول قوات من رماة السهام ، وأنيحت لأنطاكيا فسحة من الوقت للتدبر في طبيعة جرمها ونتائجه . وأرسل الحاكم الى الامبراطور ، بمقتضى ما يملیه عليه واجب منصبه ، وصفا أمينا لكل ما حدث ، أما المواطنون الذين تولاهم الهلع ، فقد استودعوا الاعتراف بجرمهم وتأكيد ندمهم غيرة أسقفهم فلاقيان ، وفصاحة عضو السناتو هيلاريوس الذى كان صديق ليبيانيوس ، ومن أوجع الأمور أنه كان تلميذه . ولا شك في أن عبقرية ذلك الرجل في ذلك الظرف المحزن لم تكن عديمة الجدوى . غير أن اعاصمتين ، أنطاكيا والقسطنطينية ، كانت تفصل بينهما مسافة ثمانمائة ميل ، ورغم سرعة البريد الامبراطورى ، فقد عوقبت المدينة المذنبه عقابا شديدا بتعرضها لفترة طويلة رهيبة من الانتظار والترقب . وكانت كل اشاعة تثير آمال ومخاوف أهل أنطاكيا ومن بين ما سمعوه في فزع ورهبة أن مليكهم قد استشاط غضبا للاهانة التي لحقت بتماثيله ، وبتماثيل زوجته الحبيبة بنوع خاص ، وأنه لذلك قد عزم على تدمير المدينة تدميرا شاملا كاملا ، وعلى ذبح سكانها المجرمين دون تمييز للصبر والجنس ، وقد دفع الخوف كثيرا منهم الى الفرار واللجوء الى جبال سوريا والصحراء المجاورة . وأخيرا ، وبعد

مرور أربعة وعشرين يوما على حدوث الفتنة ، أعلن القائد هلبيكوس Hellebicus ورئيس الديوان سيزاريوس ، مشيئة الامبراطور وحكمه . وبمقتضى ذلك الحكم أنزلت تلك العاصمة الشامخة من مرتبة المدينة ، وجردت قصبة الشرق من أراضيها ، وامتيازاتها ، وموارد دخلها ، وأطلق عليها اسم القرية ، اذلالا لها ، ثم أتبعته فى ادارتها الى مدينة لاوديكية Laodicia (اللاذقية) وأغلقت الحمامات والسيرك والملاهى ، وألغى توزيع القمح بتعليمات مشددة من ثيودوسيوس لكى يقطع الامبراطور عن المدينة فى الوقت نفسه كل مورد للوفرة والمتعة . ثم بدأ مندوبوه التحقيق فى جرم الأفراد لمعرفة أولئك الذين ارتكبوا جرم تحطيم التماثيل المقدسة ، وأولئك الذين لم يحولوا دون ارتكابها وأقيمت محكمة هلبيكوس وسيزاريوس وسط ساحة السوق The Forum ، وأحيطت بالجنود المسلحين . ثم مثل أمامها أنبل وأغنى مواطنى أنطاكيا وهم مكبلون بالأغلال ، واستخدمت وسائل التعذيب فى استجوابهم ، وكان الحكم عليهم يصدر أو يوقف وفق ما يراه هذان القاضيان غير العاديين . وعرضت بيوت المجرمين للبيع وتحول أبناءهم وزوجاتهم فجأة من حالة الميسرة والترف الى أدنى حالات المحنة . وتوقع الناس أن تنتهى فظائع اليوم بمجزرة دموية ، ولقد كان يوما وصفه واعظ أنطاكيا ، وصاحب البيان ، كريسوستوم Chrysostom ومعناه الفم الذهبى ، بأنه صورة حية ليوم الحساب الشامل الأخير . غير أن وزراء ثيودوسيوس كانوا يؤدون المهمة القاسية التى أسندت اليهم وهم كارهون . فكانوا يسكبون دموع الحنان بدافع الشفقة على مصائب الناس وينصتون باحترام الى التوسلات الحارة التى أبدىها الرهبان والنسك الذين هبطوا فى جماعات من الجبال . وكان هلبيكوس وسيزاريوس يميلان الى إيقاف تنفيذ الحكم ، واتفقا على أن يبقى الأول فى أنطاكيا ، بينما يعود الثانى بكل سرعة ممكنة الى القسطنطينية . بزعم استطلاع مشيئة مليكه مرة أخرى . وكان سخط ثيودوسيوس اذ ذاك قد خفت حدته ، واستطاع مندوبا الشعب ، الأسقف والخطيب ، أن يحظيا بمقابلة الامبراطور ، فاتخذ تائبه طابع الشكوى من الاساءة الى صداقته أكثر من أن يكون تهديدا صارما من صاحب المهابة والسلطان . ومنح الامبراطور المدينة ومواطنيها عفوا شاملا غير مقيد بقيود ، وأمر بفتح أبواب السجون ، أما أعضاء السناتو الذين كانوا فى يأس من حياتهم ، فقد استردوا بيوتهم وأملاكهم ، وعادت حاضرة الشرق الى الاستمتاع بعزتها وروعها القديمة . وتفضل ثيودوسيوس باطراء شيوخ السناتو فى القسطنطينية الذين تكرموا بالتوسط لديه من أجل اخوتهم

حين كانوا في شقاء ومحنة ، ومنح هيلاريوس حكم فلسطين مكافأة له على بلاغته وقصاحته ، وودع أسقف أنطاكية بأحر عبارات احترامه وامتنانه . وقبل أهل أنطاكية هذا التسامح من جانب الامبراطور باقامة ألف تمثال جديد ، واستحسن الامبراطور من قلبه تهليل رعيته ، واعترف بأنه اذا كانت العدالة هي أهم واجبات الملك ، فان الرحمة هي أشهى متعة يستمتع بها .

مذبحة سالونيك

تعود فتنة سالونيك الى سبب أشد خزيا ، كما أنها أسفرت عن نتائج أعظم هولا . ولقد كانت تلك المدينة ، وهي حاضرة كل الولايات الاليرية ، في حمي من أخطار الحرب القوطية بفضل حصونها القوية وحاميتها الكبيرة ، وكان بوثرىك Botheric ، قائد تلك القوات من البرابرة ، كما يبدو من اسمه ، وكان من بين خدمه الأرقاء صبي جميل الطلعة أثار في صدر أحد سائقي عربات السيرك رغبات دنسة ، فأمر بوثرىك بالقاء ذلك المحب البهيمى الوقح فى السجن ، ورفض فى عنف أن يستمع الى ضجيج ولجاجة النجمور الذى ساءه ، فى يوم الألعاب العامة ، أن يغيب عنه لاعبه المفضل ، اذ كان النجمور يعتبر براعة سائق العربة أكثر أهمية من فضيلته . وثمة نزاعات سابقة زادت سخط النجمور ، كما أن جزءا من قوة الحامية كان قد سحب للخدمة فى الحرب الايطالية . ومن ثم فان البقية الضعيفة التى قل عددها من جراء هرب بعض أفرادها ، لم تستطع انقاذ قائدها التمس من ثورة غضب الشعب الجامحة ، فقتل بوثرىك وكثير من كبار ضباطه بصورة وحشية وسحبت أجسادهم الممزقة فى شوارع المدينة ، وفوجئ الامبراطور ، الذى كان اذ ذاك مقيما فى ميلان بنبا أعمال القسوة الفاجرة المتهورة التى أتاها أهل المدينة . ولا شك فى أن تلك الجريمة ، لو أنها طرحت أمام قاض رزين غير متأثر بعواطفه لأصدر حكما بتوقيع عقوبة صارمة على مرتكبيها ، كما أن صفات القائد بوثرىك لابد أنها أسهمت فى الهاب حزن مليكه وسخطه . ولما كان ثيودوسيوس حاد الطباع سريع الغضب ، ولا يستطيع الصبر انتظارا لشكليات التحقيق القضائى البطيئة ، فقد قرر فى عجلة أن دم نائبه ينبغي أن يكفر عنه بدم الشعب المذنب . ومع ذلك فقد كان عقله يتأرجح بين الرحمة والنقمة . وكادت غيرة الاساقفة تنتزع من الامبراطور وعدا بعفو عام ، دون رضائه . غير أن وزيره روفينوس Rufinus أثار حفيظته وغضبه مرة أخرى بما قدمه من اقتراحات تتسم بالملق والمداينة . وبعد أن أرسل ثيودوسيوس الى

المدينة ورسى الموت ، حاول بعد فوات الأوان أن يوقف تنفيذ أوامره . وهكذا أسند عقاب مدينة رومانية دون تبصر الى سيوف البرابرة التي لا تفرق بين مذنب وبريء ، واقتربت الاستعدادات العدوانية بخدعة غادرة غامضة تنطوى على مؤامرة غير مشروعة . فدعى أهل المدينة بطريقة خائنة لمشاهدة ألعاب السيرك ، باسم ملكهم ، وكان ولع الناس بتلك المتع لا يرتوى ولا يشبع ، ومن ثم فإن جمهور النظارة لم يلق بالا لى اعتبار من اعتبارات الخوف والشك ، وما أن اكتمل الاجتماع ، وكان الجنود اذ ذاك قد احتلوا مراكزهم سرا على محيط السيرك ، حتى تلقوا إشارة لا يبدء السباق ، بل يبدء مذبحة عامة . ودامت المذبحة ثلاث ساعات واختلط فيها الحابل بالنابل ، دون تمييز بين أجنبىين ووطنيين ، أو بين شباب وشيب ، أو بين رجل وامرأة ، أو بين برىء ومذنب . أما عدد الضحايا فقد قدرته أكثر التقديرات اعتدالا بسبعة آلاف قتيل ، ويؤكد بعض الكتاب أن أكثر من خمسة عشر ألف قتيل قدموا قربانا لروح بوثرىك وقيل ان تاجرا أجنبيا لم يكن له ، على ما يبدو أى يد فى مقتل بوثرىك ، قد عرض حياته وكل ثروته لانقاذ حياة « واحد » من ولديه ، وكان حنانه نحو ولديه متساويا ، فوقف مترددا حائرا فى اختياره ، يريد أن ينقذ أحدهما ، ولا يريد أن يهلك الآخر ، وبينما هو كذلك قطع الجنود عليه انتظاره وحيرته وأغمدوا خناجرهم فى وقت واحد فى صدر الشابىن الأعزلىن . وكان اعتذار القتلة أنهم كانوا مرغىن على قتل عدد معين من الناس ، وليس فى هذا العذر من جدوى اللهم الا أنه يضخم فظائع المذبحة التي نفذت بمقتضى تعليمات ثيودوسيوس ، لأنه يظهرها فى صورة أمر صدر وخطة نفذت . ومما يجعل ذنب الامبراطور أكثر جسامة أنه كثيرا ما تردد على هذه المدينة وكثيرا ما أطل مكنه فيها ، وأن موقع المدينة البائسة ، ومنظر الطرقات والمباني ، وأزياء السكان ووجوههم ، كل أولئك كان شيئا مألوفاً لديه ، بل وحيا فى خياله ، وأن ثيودوسيوس كان لديه احساس مرهف رقيق بوجود الشعب الذى أهلكه .

وكان الامبراطور على صلة يسودها الاحترام برجال الدين من الأرثوذكس ، وقد دفعته هذه الصلة الى حب شخصية أمبروز والاعجاب بها ، لأن هذا الرجل كان يجمع بين كل الفضائل الأسقفية فى أسمى درجاتها . وحذا أصدقاء ثيودوسيوس ووزراؤه حذو ملكهم فى التعلق بالأسقف أمبروز ، وكان مما أدهش الامبراطور أكثر مما أغضبه أن كل آرائه السرية كانت تنقل على الفور الى الأسقف الذى كان يرى ، عن اقتناع جدير بالثناء ، أن كل اجراء تتخذه الحكومة المدنية قد

تكون له بعض الصلة بمجد الله وبمصلحة الديانة الحقيقية • وحدث أن رهبان وسكان مدينة كالينيكوم Callinicum وهي مدينة صغيرة مغمورة على حدود فارس ، دفعهم تعصبهم وتعصب أسقفهم الى اشعال النار في اجتماع لاتباع فالنتينوس ، وفي كنيس لليهود بصورة يتمثل فيها الشغب والاضطراب • فحكم حاكم الولاية على الحبر الذي اثار الشغب باعادة بناء الكنيس ، أو بدفع قيمة الخسائر وصدق الامبراطور على هذا الحكم المعتدل • غير أن كبير أساقفة ميلان لم يعتمد هذا الحكم ، وأرسل الى الامبراطور رسالة نقد وتأنيب ، ربما كانت تصبح أكثر ملاءمة ، لو أن الامبراطور كان قد قبل الختان ونبد عقيدة معموديته • وذلك لأن أمبروز كان يعتبر التسامح مع اليهود بمثابة اضطهاد للديانة المسيحية ، ويعلن في جرأة أنه هو نفسه ، وكل مؤمن حقيقى يود أن ينزع أسقف كالينيكوم ميزة ذلك العمل الذى قام به ، وتاج الاستشهاد من أجل العقيدة ، كما أبدى أسفه ، فى أشد عبارات الأسى ، على أن تنفيذ ذلك الحكم سوف يكون خطيرا كل الخطورة على شهرة ثيودوسيوس وخلصه • ولما عجز ذلك التقرير الدينى الشخصى عن احداث أثر مباشر ، فقد وجه رئيس الأساقفة خطابا علنيا من فوق المنبر الى الامبراطور الجالس على عرشه وامتنع عن تقديم قربان المذبح حتى حصل من ثيودوسيوس على تصريح رسمى قاطع ضمن به عدم معاقبة أسقف كالينيكوم ورهبانها • وكان ثيودوسيوس صادقا فى الغائه الحكم السابق ، وخلال اقامته فى ميلان تزايد حبه للأسقف أمبروز بفضل ما كان يتبادل معه من احاديث الالفة والتقوى •

ثيودوسيوس يكفر عن ذنبه

عندما علم أمبروز بنبا مذبحة سالونيك امتلا عقله بالفزع والعذاب ، فاعتزل فى الريف ليطلق العنان لأحزانه ، وليتجنب مقابلة ثيودوسيوس • غير أنه اقتنع بأن الصمت الخجول كفى بأن يجعله شريكا فى جريمة الامبراطور ، ومن ثم فقد أرسل له خطابا خاصا صور له فيه فداحة الجرم الذى لا يمكن أن تزيله الا دموع التوبة ، واستمد أمبروز من حكمته وحرصه ما خفف به من عنفه الأسقفى فاكتفى فى خطابه بالاشارة غير المباشرة الى حرمانه من أخوية الكنيسة ، حيث أكد للامبراطور أنه تلقى فى الرؤيا تحذيرا بأن يقدم الذبيحة باسم ثيودوسيوس أو فى حضوره ، ونصحه بأن يقتصر على الصلاة دون الاجترار على الاقتراب من مذبح المسيح ، أو تناول القربان المقدس باليد التى لا تزال ملوثة بدم شعب برى • وتأثر الامبراطور

تأثيرا عميقا بتبكيته ضميره وتأييب أبيه الروحي ، وبعد أن انتحب على النتائج الوبيلة التي لا سبيل الى تعويضها والتي ترتبت على غضبه الطائش المتهور ، توجه بالطريقة المعتادة لتقديم صلواته فى كاتدرائية ميلان . فأوقفه الأسقف عند مدخل الكنيسة ، وصرح له فى لهجة ولغة سفير السماء أن التوبة الشخصية لا تكفى للتكفير عن خطأ عام أو لتهدة عدالة الرب المستاء . ورد ثيودوسيوس فى ذلة وخشوع

أنه اذا كان قد ارتكب خطيئة القتل ، فان داود ، وهو الرجل الذى أحبه الله ، قد اقترف خطيئة القتل وجريمة الزنا . فأجاب أمبروز فى جراءة وشجاعة : « لقد حذوت حذو داود فى جرمه ، فعليك إذن أن تحذو حذوه فى ندمه » وقبل الامبراطور شروط الصلح والغفران الصارمة ، وسجلت كفارة الامبراطور العلنية كحدث من أشرف الأحداث فى سيرة الكنيسة . وطبقا لأهون قواعد النظام الكنسى التى قررت فى القرن الرابع ، فان جريمة القتل يمكن التكفير عنها بفترة توبة قدرها عشرون عاما ، ولما كان من المستحيل فى فترة الحياة الانسانية أن يطهر الذنب المتراكم الذى اقترفه الامبراطور فى مذبة سبالونيك ، فان القاتل كان لابد أن يحرم من تناول القربان المقدس حتى تحين منيته . غير أن الأسقف ، مراعاة لقواعد السياسة الدينية ، أبدى بعض التساهل نحو مقام التائب المرموق الذى أذل كبرياء التاج ، ورأى أن تهذيب الامبراطور بصورة علنية يمكن قبوله كمبرر قوى لاختصار مدة عقوبته ، فاكتمى بالزام امبراطور الرومان بأن يظهر أمام الناس متجردا من شارات الملك فى مظهر الحزن والتوسل ، ويلتمس وسطا كنيسة ميلان غفران ذنوبه ، بالتأوهات والدموع . واستخدم أمبروز فى هذا العلاج الروحي مختلف أساليب الرقة والشدّة ، فأصدر مرسوما باعادة ثيودوسيوس الى أخوية المؤمنين بعد تأخير دام قرابة الثمانية شهور ، وضمن قراره هذا وجوب انقضاء فترة أمان قدرها ثلاثون يوما بين صدور الحكم وتنفيذه ، ويمكن اعتبار هذا القرار ثمارا قيمة لتوبة الامبراطور وندمه . وقد استحسنت الأجيال التالية موقف الأسقف المتسم بالحزم والفضيلة ، كما أن المثل الذى ضربه مع ثيودوسيوس انما يدل على ما كان من تأثير كريم لتلك المبادئ التى استطاعت أن ترغم ملكا ، كان فوق مستوى الخوف من العقوبة البشرية على احترام قوانين « قاض » غير مرئى ، وتبجيل قساوسته . ويقول مونتسكيو : « مثل الحاكم الذى يتصرف مدفوعا بالأمال والمخاوف الدينية مثل أسد لا يطيع الا صوت حارسه ، ولا ينقاد الا ليدّه » ومن ثم فان حركات الحيوان الملكى انما تتوقف على ميل واهتمام الرجل الذى يمتلك مثل هذا السلطان الخطير عليه ، كما أن الكاهن الذى يملك

فى قبضة يده ضمير الملك يستطيع أن يلفظ أو يلهب أهواءه الدموية ،
ولقد أيد أمبروز قضية الانسانية وقضية الاضطهاد بانهم نفسها
وبالنجاح نفسه .

وبعد هزيمة طاغية بلاد الغال وموته دان العالم الرومانى لسلطان
ثيودوسيوس . فقد حصل باختيار جراشيان على لقبه الكريم ملكا
على ولايات الشرق ، وحصل على ملك الغرب بحق الفتح ، واستغل
السنوات الثلاث التى قضاها فى ايطاليا استغلالا نافعا فى اعادة سلطان
القوانين واصلاح المساوىء التى سادت البلاد دون أن تلقى عقابا ،
عندما اغتصب مكسيموس السلطة ، وعندما كان فالنتينيان تحت
الوصاية ، ثم ادخل اسم فالنتينيان بصورة منتظمة فى القوانين واللوائح
العامة ، غير أن صغر سن ابن جستينا وعقيدته المشكوك فيها يبدو
أنهما كانا فى حاجة الى رعاية حريصة من وصى أرثوذكسى ، وكان
يمكن لأطماعه الظاهرية أن تبعد الشاب السيئ الحظ ، دون عناء ، بل
ودون إثارة أى لفظ ، عن حكم الامبراطورية ، بل وعن وراثتها ،
ولو أن ثيودوسيوس راعى القواعد الصارمة التى تملها المصلحة
والسياسة ، لحاز مسلكه هذا لدى أصدقائه قبولا ، غير أن مسلكه
الكريم فى ذلك الطرف المشهود انتزع من ألد أعدائه قبولهم
واستحسانهم . ذلك أنه اجلس فالنتينيان على عرش ميلان وأعاد اليه
السيطرة المطلقة على كل الولايات التى طرده منها جيوش مكسيموس ،
دون أن يشترط الحصول على أية مزايا ، حالية أو مستقبلية ، ولم يكتف
برد ميراثه الحقيقى اليه بل أضاف الى ذلك منحة خالصة كريمة هى
حكم البلدان الواقعة فيما وراء جبال الألب . والتى استطاع بشجاعته
المظفرة أن يستردها من قاتل جراشيان . وبعد أن قنع الامبراطور بالمجد
الذى حصل عليه من الانتقام لمقتل الرجل الذى أحسن اليه وبعد أن أنقذ
الغرب من نير الطغيان ، عاد من ميلان الى القسطنطينية ، وبهذا الملك
الهادئ لبلاد الشرق رجع دون أن يحس الى عاداته السابقة عادات
الترف والاسترخاء . ولقد قام ثيودوسيوس بالتزاماته نحو شقيق
فالنتينيان ، وانغمس فى عواطفه الزوجية الرقيقة نحو شقيقة فالنتينيان .
وان الأجيال التى تعاقبت بعده ، والتى أعجبت بما انفرد به من عظمة
وسمو لأبد لها من أن تثنى على كرمه الفريد فى استغلال ظفرو
وانتصاره .

اخلاق فالنتينيان وموته

لم تعش الامبراطورة جستينا طويلا بعد عودتها الى ايطاليا . ورغم أنها شهدت انتصار ثيودوسيوس ، الا أنها لم تسمح لها بالتأثير على حكم ابنها ، وتشرب منها فالنتينيان ومن تعاليمها تعلقا خبيثا بالمذهب الآريوسى ، غير أن دروس التعليم الأرثوذكسى سرعان ما محت تلك الصلة ، وكان حماسه المتزايد لعقيدة نيقيا ، واحترامه البنوى لشخصية امبروز وسلطته ، من الأشياء التى شجعت الكاثوليك على تكوين أحسن فكرة عن فضائل امبراطور الغرب الشاب (١) . وامتدحوا فيه عفوة واعتداله ، واحتقاره للمتعة ، ومثابرته على العمل ، وحبه الحنون لشقيقته ، ومع ذلك فإن هذا الحب لم يستطع أن يجعله ينحرف عن عدالته وعدم تحيزه ويصدر حكما ظالما على أخط رعاياه . غير أن هذا الشاب المحبوب قبل أن يتم العشرين من عمره ، وقع تحت وطأة خيانة داخلية ، وتعرضت الامبراطورية مرة أخرى لأهوال الحرب الأهلية . فقد كان هناك جندى شجاع اسمه أربوجاستس Arbogastes من أبناء الفرنجة يحتل المركز الثانى فى خدمة جراشيان ، ولما مات سيده ، انضم الى ثيودوسيوس ، وأسهم بشجاعته ومسلكه الحربى فى اهلاك الطاغية ، وعين بعد النصر قائدا أعلى لجيوش بلاد الغال . واكتسب بجدارته الحقيقية واخلاصه الظاهر ، ثقة الملك وثقة الشعب ، غير أن سخاه الذى لا حدود له أفسد ولاء الجيوش ، وبينما كان الجميع يعتبرونه دعامة الدولة ، كان ذلك البربرى الجرىء الماكر يعتزم سرا حكم امبراطورية الغرب أو اهلاكها ، فوزع القيادات الهامة فى الجيش على الفرنجة ، ورقى صناعته الى كل مناصب الحكومة المدنية ووظائفها وتطورت المؤامرة الى ابعاد كل خادم أمين عن حضرة فالنتينيان ، أما الامبراطور الذى حرم من القوة ومن الذكاء ، فقد هبط بصورة غير محسوسة الى وضع مزعزع ، هو وضع أسير تابع لغيره . وقد عبر الامبراطور عن سخطه غير أن ذلك السخط ، الذى لا ينبعث الا من طباع الشباب المتهورة المتعجلة ، قد نستطيع أن ننسبه فى اخلاص الى روحه الكريمة ، والى شعوره بأنه لم يكن غير جدير بالحكم . ودعا الامبراطور كبير أساقفة ميلان سرا الى أن يتولى وساطة الصلح ، متعهدا

(١) عندما كان الامبراطور الشاب يقيم وليمة ، كان يمتنع عن الأكل ويرفض رؤية المثلثات الرشيقا . وبما أنه أمر بقتل الوحوش الكاسرة التى كان يقتنيها ، فليس كريما من جانب فيلوسوفوس أن يؤنبه على حبه لتلك التسلية .

باخلاصه ، وأمينا على سلامته . وتمكن من اعلام امبراطور الشرق بموقفه اليائس ، وصرح لثيودوسيوس بأنه ان لم يخف الى نجده ، فانه سوف يضطر الى الهرب من قصر فين ، أو بالأحرى من سجن فين Vienne في بلاد الغال ، الذى كان قد اتخذهم مقرا له ، دون فطنة أو تبصر ، وسط الحزب المعادى له . غير أن الأمل فى النجدة كان بعيدا ومشكوكا فيه . ولما كان كل يوم يجرى باثارة جديدة ، فقد قرر الامبراطور فى تسرع ، ودون قوة أو مشورة ، أن يغامر بصراع عاجل ضد القائد القوى . ومن ثم فقد استقبل أربوجاستس وهو جالس على عرشه ، وعندما اقترب الكونت فى شئ من الاحترام الظاهرى ، سلمه ورقة تقضى بطرده من كل وظائفه . فأجاب أربوجاستس فى برود مهين : « ان سلطتى لا تتوقف على ابتسامة ملك أو عبوسه » ، ثم قذف الورقة باحتقار الى الأرض ، فمد الملك الغاضب يده الى سيف أحد حراسه وجاهد فى سحبه من غمده ، ولم يمنعه من استخدام السلاح المميت ضد عدوه أو ضد نفسه الا شئ من العنف . وبعد أيام قلائل من هذا الشجار العجيب غير العادى الذى أظهر فيه فالنتينيان التسلسل وسخطه وضعفه ، وجد الامبراطور مخنوقا فى غرفته ، وبذلت الجهود لاختفاء الجرم الواضح الذى ارتكبه أربوجاستس ، لاقناع العالم بأن موت الامبراطور الشاب كان باختياره ونتيجة لياسه . ونقل جثمانه فى عظمة لائقة الى ضريح ميلان ، وألقى رئيس الأساقفة خطاب رثاء أحياء فيه ذكرى فضيلة الامبراطور وما تعرض له من سوء الحظ . وفى هذه المناسبة اندفع امبروز ، بوحي من انسانيته الى الشذوذ عن نظامه اللاهوتى ، فواسى شقيقتى فالنتينيان الباكتين بأن أكد لهما أن أخاهما التقى ، رغم أنه لم يتلق سر المعمودية المقدس ، الا أنه دخل ، دون صعوبة ، رحاب النعمة الأبدية .

وكان حرص أربوجاستس قد مهد لنجاح خطته الطموحة ، وأصبح سكان الأقاليم ، الذين انطلقوا من صدورهم كل احساس بالوطنية أو الولاء ينتظرون فى استسلام خاشع ذلك السيد المجهول الذى سوف يختاره ابن الفرنجة ليجلسه فوق العرش الامبراطورى . غير أن بقية من الكبراء والتحيز كانت لا تزال تعترض ارتقاء أربوجاستس نفسه ذلك العرش ، ورأى البربرى الحكيم أنه من الأصوب له أن يحكم البلاد مستترا وراء اسم أحد الرومان التابعين . فمنح رداء الملك الى الخطيب البليغ يوجينيوس Eugenius ، الذى كان قد رفعه من مركز أمين سره الخاص الى مركز رئيس الديوان . وكان الكونت أربوجاستس يتمسح محبة يوجينيوس وقدراته ، كما أن عامه وفصاحته ، تعززهما رزانه مسلكه ،

كل أولئك جعله موضع تقدير الشعب ، ثم ان الاحجام الذى أبداه عند ارتقائه العرش ربما يوحى بفكرة حسنة عن فضيلته واعتداله . وانطلق سفراء الامبراطور الجديد على الفور الى بلاط ثيودوسيوس وأبلغوه فى حزن مصطنع نبأ الحادث التعس ، وهو موت فالنتينيان والتمسوا من ملك الشرق ، دون ذكر اسم أربوجاستس ، أن يقبل كزميل شرعى له ، ذلك المواطن المبجل يوجينيوس الذى استحوذ على أصوات الجيوش وولايات الغرب . وأثار حفيظة ثيودوسيوس بحق أن تدمر خيانة رجل من البرابرة فى لحظة واحدة كل المجهودات التى بذلها فى سبيل انتصاره السابق ، وتقضى على ثمرة ذلك النصر . وأثارت دموع زوجته الحبيبة رغبته فى الانتقام لموت شقيقها التعس ، وفى أن يؤكد بقوة السلاح جلال العرش الذى انتهك . غير أن غزو بلاد الغرب مرة ثانية كان مهمة عسيرة خطيرة ، ولهذا فانه صرف سفراء يوجينيوس بالهدايا الفخمة ، وحملهم اجابة مبهمة . ثم انصرف بعد ذلك عامان تقريبا فى الاستعداد لحرب أهلية . وقبل أن يكون الامبراطور التقى قرارا حاسما ، كان تواقا الى استطلاع مشيئة السماء ، وكان انتشار المسيحية قد أسكت أصوات الوحي فى « دلفى » وفى « دودونا » ، فقد لجأ الى استشارة راهب مصرى كان يملك ، فى رأى ذلك العصر ، موهبة صنع المعجزات ومعرفة الغيب . فأبحر الى الاسكندرية يوتوبيوس ، وهو أحد الخصيان ذوى الحظوة فى قصر القسطنطينية ، ومن هناك أقلع فى نهر النيل الى مدينة ليكوبوليس Lycopolis ، أو مدينة الذئاب ، فى مديرية طيبة النائية . والى جوار تلك المدينة ، وعلى قمة جبل مرتفع ، كان يوحنا المقدس قد بنى بيديه صومعة متواضعة أقام فيها أكثر من خمسين عاما ، دون أن يفتح بابه لأحد ، ودون أن يرى وجه امرأة ، ودون أن يذوق طعاما طهته النار أو جهزه فن انسان . وكان يقضى خمسة أيام من الأسبوع فى الصلاة والتأمل ، ولكنه فى أيام السبت والأحد كان يفتح بصورة منتظمة نافذة صغيرة يستقبل من خلالها جمهور المتوسلين الذين يفدون تباعا من كل أجزاء العالم المسيحى . واقترب خصى ثيودوسيوس من النافذة بخطوات الوقار والاحترام . وسأل ما أراد من أسئلة تتعلق بحدث الحرب الأهلية ، ثم عاد مسرعا الى ثيودوسيوس يحمل جوابا مشجعا أحيا شجاعة الامبراطور ، حيث أكد له أنه سوف ينال نصرا بالدماء ، ولكنه نصر أكيد لا ريب فيه . وعمل ثيودوسيوس على تحقيق النبوءة بكل الوسائل التى يمكن أن تأتى بها الفطنة البشرية ، وجد القائدان العامان ، ستليكو و تيماسيوس فى تعبئة الفيالق الرومانية وفى اعادة تنظيمها . وسارت فرق البرابرة العاتية تحت أعلام رؤسائها الوطنيين ، وانضم الى

خدمة ملك واحد جنود من الأيبيريين والعرب والقوط كانوا ينظرون الى بعضهم البعض في عجب ودهشة ، وحصل الاريك Alaric الشهير في مدرسة ثيودوسيوس على تلك المعرفة بفن الحرب التي استخدمها فيما بعد بصورة قاتلة في القضاء على روما .

وقد تعلم امبراطور الغرب ، أو بعبارة أصح ، قائد أربوجاستس ، من سوء تصرف وسوء حظ مكسيموس ، أنه من الخطورة بمكان أن يطيل خط الدفاع ضد خصم يارع يستطيع أن يضغط بمختلف وسائله الهجومية أو يوقفها ، ويستطيع أن ينقصها أو يزيدها . ومن ثم فقد حدد أربوجاستس مواقعه على حدود إيطاليا ، وسمح لقوات ثيودوسيوس أن تحتل دون مقاومة ولايات بانونيا Pannonia حتى سفوح جبال الألب الجوليانية Julian Alps ، بل انه تخلى للفتاح الجريء عن ممرات الجبال ، اما اهمالا منه ، أو أنه ربما تعمد ذلك مكرًا ودهاء . ونزل ثيودوسيوس من فوق التلال ، وشاهد في شيء من الدهشة ، معسكر قوات الغال والجرمان الهائل الذي كان يغطي الأرض العراء بالعتاد والخيام ، ويمتد الى أسوار أكويليا وضفاف نهر فريجيديوس أو النهر البارد . وكان ميدان الحرب هذا ضيقا ومحصورا بين جبال الألب والبحر الأدرياتي ، ومن ثم فانه لم يكن مجالا فسيحا لعمليات البراعة العسكرية . وكانت روح أربوجاستس من النوع الذي يحتقر أن يقبل من عدوه عفوا ، كما أن جرمه قضى على كل أمل في المفاوضة ، وكان ثيودوسيوس متلهفا على ارضاء كبريائه وانتقامه بمعاينة قتلة فالنتينيان . ودون أن يقدر امبراطور الشرق تلك العوائق الطبيعية والمفتعلة التي تعترض طريق جهوده ، هاجم على الفور حصون خصمه ، ووضع القوات القوطية في جبهة الخطر والشرف على أمل كان يراوده سرا في أن الصراع الدموي قد يذل كبرياء الغزاة ويقلل من أعدادهم . ومات في ساحة هذه المعركة موت الشجعان عشرة آلاف جندي من تلك القوات الاحتياطية ومعهم قائد قوات أيبيريا ، باكوريوس . غير أن دماءهم لم تحقق النصر ، واحتفظت قوات الغال بميزتها ، وفرت قوات ثيودوسيوس ، أو تقهقرت في غير نظام تحت حماية الظلام المقترّب . وانسحب الامبراطور الى التلال المجاورة حيث قضى ليلة كئيبة ، دون نوم ، ودون مؤن ، ودون أمل ، اللهم إلا ذلك الاطمئنان القوي الذي يستمدّه العقل الحر ، في أشد الظروف ياسا ، من احتقاره للحظ وللحياة . واحتفل معسكر يوجينيوس بذلك الانتصار بصورة وقحة ماجنة ، بينما أرسل أربوجاستس النشيط اليقظ ، سرا ، قوة ضخمة من جيشه لاحتلال الممرات الجبلية والاحداق بمؤخرة الجيش الشرقي . وعندما لاح الفجر تبين ثيودوسيوس مدى

الخطر المحدق به وشدته ، غير أن مخاوفه سرعان ما زالت عندما تلقى رسالة ودية من قواد تلك القوات يعبرون فيها عن رغبتهم فى التخلّى عن علم الطاغية • ومنحهم ثيودوسيوس دون تردد مكافآت الشرف والمال التى اشترطوا الحصول عليها ثمنا لخيانتهم • ولما لم يكن من السهل الحصول على خبر وورق فقد وقع الامبراطور على لوحاته الخاصة بالتصديق على المعاهدة ، فانتعشت روح جنوده بهذه الامدادات التى جاءت فى اوانها ، وساروا فى ثقة مرة ثانية لمهاجمة معسكر الطاغية الذى كان يبدو أن كبار ضباطه لا يثقون فى عدالته أو فى نجاح جيوشه • وعندما كانت المعركة فى ذروة حدتها هبت من الشرق بصورة فجائية عاصفة عاتية من تلك العواصف التى كثيرا ما تهب على جبال الالب ، وكان جيش ثيودوسيوس بحكم موقعه فى حصى من قسوة الرياح التى اثارَت صحابة من التراب على وجوه الأعداء ، فأحدثت الفوضى فى صفوفهم وأطاحت أسلحتهم من أيديهم ، وطوحت بنبالهم أو ردتها فأصبحت عديمة الجدوى ، واستغلت جيوش ثيودوسيوس هذه الميزة التى جاءت وليدة الصدف ، كما أن الفزع الخرافى الذى تملك جنود الغال زاد من اثر العاصفة العاتية ، فاستسلموا دون خجل الى قوى السماء الخفية التى بدا لهم أنها تناضل الى جانب الامبراطور الورد • وكان انتصار الامبراطور حاسما ، ومات منافسوه ، كل بطريقة مختلفة تتفق مع شخصيته • ذلك أن الخطيب يوجينيوس ، الذى كاد يملك السيطرة على العالم ، تدلى الى التماس رحمة الفاتح المنتصر ، غير أن الجنود لم تأخذهم به شفقة ففصلوا رأسه عن جسده بينما كان طريقا تحت أقدام ثيودوسيوس • أما أربوجاستنس ، فانه بعد أن خسر معركة أدى فيها واجبات القائد والجندي ، سار هائما على وجهه بضعة أيام بين الجبال • غير أنه ايقن أن قضيته أصبحت قضية خاسرة يائسة ، وأن نجاته لا يمكن تحقيقها ، ومن ثم فان البربرى الجرى هذا حذو قدماء الرومان وأغمد سيفه فى صدره • وهكذا تقرر مصير الامبراطورية فى ركن ضيق من ايطاليا ، وعانق خليفة امرة فالنتينيان الشرعى رئيس أساقفة ميلان ، وتكرم بقبول خضوع ولايات الغرب • ولقد كانت تلك الولايات شريكة فى جريمة التمرد ، كما أن شجاعة أمبروز التى لا تنتنى ولا تلين ، هى وحدها التى قاومت مطالب اغتصاب ناجح • فلقد رفض رئيس الأساقفة هدايا يوجينيوس فى حرية وشهامة كان يمكن أن تهلك أى فرد آخر من أفراد الرعية ، وانسحب من ميلان ليتجنب لقاء كريها مع طاغية تنبأ أمبروز بسقوطه فى لغة حريصة مبهمة • وقوبل فضل أمبروز باستحسان الامبراطور المنتصر الذى ضمن حب الشعب بتحالفه مع الكنيسة ، ويعود

الفضل فى صفح ثيودوسيوس ورافته الى الشفاعة الانسانية التى قام بها
وثيس أساقفة ميلان .

موت ثيودوسيوس

بعد هزيمة يوجينيوس اعترف كل سكان العالم الرومانى فى غبطة
وسرور بسنطان ثيودوسيوس وبما كان له من فضل . وكان سلوكه
السابق تجربة شجعت الناس على أن يعقدوا أجمل الآمال على عهده
المقبل ، كما أن عمر الامبراطور ، الذى لم يتجاوز الخمسين عاما ، بدا
أنه يفسح الأمل فى الرخاء العام . غير أنه مات بعد أربعة شهور فقط
من انتصاره ، واعتبر الناس موته هذا حدثا مشؤوما لم يكن فى
الحسبان ، هدم فى لحظة واحدة آمال الجيل الصاعد . غير أن انغماسه
فى حياة الميسرة والترف كان قد غذى فيه مبادئ المرض دون أن
يدرى ، ولم تستطع قوته أن تتحمل الانتقال الفجائى العنيف من
القصر الى المعسكر ، وظهرت عليه بصورة مضطربة أعراض مرض
الاستسقاء الذى أندر بسرعة هلاك الامبراطور . وكان رأى الشعب ،
وربما مصلحته أيضا ، من العوامل التى تؤكد ضرورة تقسيم
الامبراطوريتين : الشرقية والغربية . وأصبح مقدرًا أن يجلس على عرش
القسطنطينية وعرش روما الأميران الشابان أركاديوس وأونوريوس
اللذان أنعم عليهما حنان والدهما بلقب أغسطس Augustus . ولم
يسمح لهذين الأميرين بأن يشتركا فى أخطار الحرب الأهلية وأمجادها ،
غير أن ثيودوسيوس بمجرد أن انتصر على خصميه الحقيرين ، دعا ابنه
الأصغر أونوريوس ، للتمتع بثمار النصر ، ولتسلم صولجان الغرب
من يد والده وهو على فراش الموت . ورحب الشعب بوصول أونوريوس
الى ميلان باقامة عرض رائع لألعاب السيرك . ورغم أن الامبراطور كان
ينوء تحت ثقل المرض ، الا أنه حضر العرض مشاركا فى الفرحة العامة .
غير أنه أجهد البقية الباقية من قوته بالمجهود المضنى الذى بذله
لحضور عروض الصباح ، وجلس أونوريوس مكان والده بقية اليوم ،
ثم مات ثيودوسيوس فى الليلة التالية ، ورغم العداوات الحديثة التى
ترتبت على الحرب الأهلية ، فقد قوبل موته بالأسف العام الشامل ،
فالبرابرة الذين غلبهم على أمرهم ، ورجال الدين الذين أخضعوه
لسلطانهم ، كل هؤلاء أحيوا بأصوات الاستحسان العالية المخلصة ما كان
يتحلى به الامبراطور الراحل من صفات بدت فى أعينهم أجل الصفات
وأحسنها . وفزع الرومان من الأخطار المحدقة بهم من جراء حكم ضعيف

منقسم ، وكانت كل لحظة مخزية من حكم أركاديوس وأونوريوس تعيد الى ذاكرتهم خسارتهم الفادحة التى لا تعوض .

وفى الصورة الصادقة التى رسمناها لفضائل ثيودوسيوس ، لم نحاول اخفاء نواحي قصوره ، مثل أعمال القسوة وعادات التراخي التى لوئت مجد واحد من أعظم ملوك الرومان . ولقد بالغ مؤرخ كان يعترض دائما على شهرة ثيودوسيوس ، فى ردائل ذلك الرجل وما كان لها من نتائج وبيلة ، فأكد فى جراءة أن كل أفراد طبقات شعبه قلدوا أساليب مليكهم المخنثة ، وأن كل أنواع الفساد لوئت مجرى الحياة العامة والخاصة وأن ضوابط النظام واللياقة كانت من الضعف بحيث لم تكف لمقاومة نمو روح الانحلال التى تضحي ، دون خجل ، باعتبارات الواجب والمصلحة فى سبيل الانغماس الدنيء فى الكسل والشهوات . وأن شكاوى الكتاب المعاصرين الذين يرثون لزيادة الترف وفساد الأخلاق ، إنما تعبر عادة عن خلقهم ووضعهم الخاص ، وقلة من المراقبين هى التى تملك نظرة جليلة شاملة عن ثورات المجتمع ، وفى مقدورها أن تستشف دوافع العمل الجليلة الخفية التى تحرك الأهواء العمياء المتقلبة لجمهور من الأفراد فى اتجاه واحد بعينه . فإذا أكد البعض ، بأى قدر من الصحة والصواب ، أن ترف الرومان كان أكثر فجرا وانحلالا فى عهد ثيودوسيوس منه فى عهد قسطنطين ، أو فى عهد أغسطس ، فإن التغيير لا يمكن أن ينسب الى أية تحسينات مفيدة نشأت عنها بالتدريج زيادة الثروة القومية . ذلك أن فترة طويلة من المحنة أو الاضمحلال كان يمكن أن تعوق الناس عن عملهم وتوقف ثراءهم ، وتكون مغالاتهم فى الترف عندئذ نتيجة لذلك اليأس الكسول الذى يدفع صاحبه الى الاستمتاع باللحظة الراهنة ، والاعراض عن التفكير فى المستقبل . ومن ثم يمكن القول بأن رعايا ثيودوسيوس لم يطمئنوا الى سلامة ملاكهم ، الأمر الذى ثبط همتهم عن الاضطلاع بتلك الأعمال المجيدة التى تتطلب نفقات عاجلة ، وتبشر بمنفعة بطيئة بعيدة . فكثيرا ما شاهدوا أمثلة من الخراب والدمار أغرتهم على اتفاق أية بقايا من ميراث يمكن فى أية لحظة أن تقع فريسة لنهب القوط وسلبهم . وأن الاسراف الجنونى الذى يسود فى حالة الارتباك الناشئة عن تحطيم سفينة أو وجود حالة حصار يمكن أن يفسر لنا تزايد الترف وسط الكوارث والأحوال التى تعتور أمة غارقة .

وكان الترف المخنث ، الذى أصابت عدوه أخلاق الناس فى المدن وفى بلاط الملوك ، قد نفث سما خفيا قاتلا فى معسكرات الجيوش .

وصور أحد الكتاب المسيكرين انحلالهم هذا بعد أن درس دراسة
 حقيقة المبادئ الأصلية القديمة للنظام الروماني . ومن الملاحظات الهامة
 التي أبداه فيجيتيوس Vegitius أن الجنود المشاة كانوا يلبسون
 دائما دروعا كاملة واقية ، منذ تأسيس المدينة حتى عهد الامبراطور
 جراسيان ، وبترأخي النظام ، وانعدام التمرين أصبح الجنود أقل قدرة
 على تحمل متاعب الخدمة ، وأقل رغبة فيها وأصبحوا يجازون بالشكوى
 من ثقل الدروع التي قلما كانوا يرتدونها ، ونجحوا بصورة متوالية
 في الحصول على اذن بخلع خوداتهم ودروع صدورهم ، وكانت الأسلحة
 الثقيلة التي استخدمها اجدادهم وأخضعوا بها العالم ، وهي السيوف
 القصيرة والحراب القوية ، تسقط من أيديهم الخائرة دون أن يحسوا .
 ولما كان استخدام الدرع لا يتلاءم مع استخدام القوس ، فقد كانوا
 يسيرون إلى المعركة كارهين ، إذ كان مقضيا عليهم اما بالإصابة
 بالجروح ، أو بتحمل غار الفرار ، وكانوا ينزعون دائما إلى تفضيل
 هذا البديل الأكثر خزيا . ولقد أحس فرسان القوط والهون والألاني
 The Alani بمزايا الدروع الواقية ، واستخدموها . وبما أنهم تفوقوا
 في استخدام أسلحة القذائف ، فقد سهل عليهم غلبة الفرق المتجردة
 المرتجفة التي تعرضت صدور ورؤوس رجالها إلى سهام البرابرة دون أن
 يقيها شيء . وأخفقت خسارة الجيوش ، ودمار المدن ، والعار الذي
 لصق بالاسم الروماني ، في حث خلفاء جراسيان على إعادة الخوذات
 ودروع الصدور الخاصة بالجنود المشاة ، فتخلى الجنود الذين أعوزتهم
 القوة والشجاعة ، عن الدفاع عن أنفسهم وعن بلادهم . وفي مقدورنا أن
 نعتبر هذا التقاعس الرعيد من جانبهم سببا مباشرا في سقوط
 الامبراطورية .

الفصل الثامن والعشرون

(٣٧٨ - ٤٢٠)

نهاية الوثنية • تدمير معبد سرايس •
حظر الشعائر الوثنية • عبادة الشهداء
المسيحيين • انتعاش عادات الشرك •

ربما كان في مقدورنا أن نعتبر دمار الوثنية في عهد ثيودوسيوس
المثل الوحيد للقضاء التام على أية خرافة قديمة شائعة ، ومن ثم فانه
يستحق أن نتناوله كحدث مفرد في تاريخ العقل البشرى • فالمسيحيون •
ورجال الدين بوجه خاص ، كانوا قد تحملوا بنافذ الصبر تلك الماطلة
الحريصة التي أبداها قسطنطين ، وما في حكم ذلك من تسامح فالتينيات
الأكبر • ولم يكن في مقدورهم أن يعتبروا انتصارهم على خصومهم
كاملا أو مضمونا طالما كان مسموحا لهؤلاء الخصوم بالبقاء • ولقد
استخدموا النفوذ الذي اكتسبه أمبروز وأخوانه على جراشيان الشاي
وثيودوسيوس التقى ، في بث مبادئ الاضطهاد في صدور أباطرتهم
المهتدين • ولقد أقرت في الفقه الديني قاعدتان منمقتان اشتقا منهما
نتيجة صارمة مباشرة ضد رعايا الامبراطورية الذين مازالوا متمسكين
بطقوس أجدادهم ، أولاها أن الحاكم يعتبر ، الى درجة ما ، مدينة
بالجرائم التي يهمل في حظرها أو في عقابها ، وثانيتهما أن العبادة
الوثنية التي تؤدي لآلهة خيالية لا تعدو أن تكون في واقع الأمر
شياطين ، هي أبغض جريمة ترتكب ضد الجلال الاسمي للخالق • وطبق
رجال الدين في عجلة ، وربما خطأ ، شرائع موسى وأمثلة من التاريخ
اليهودي ، على عهد المسيحية المعتدل بعد ستين سنة من تحول قسطنطين
الى المسيحية •

واحتفظ الرومان ، من عهد الامبراطور نوما Numa الى عهد جراشيان بتوارث عدة هيئات للنظام الكهنوتي . فكان هناك خمسة عشر حبرا يمارسون سلطتهم القضائية على كل ما يخص لخدمة الآلهة من أشياء وأشخاص ، وتختص محكمتهم المقدسة بالفصل فى مختلف المسائل التى كانت تنشأ على الدوام ، فى نظام تقليدى مفكك . وكان هناك خمسة عشر عرافا من العلماء الوقورين يرقبون وجه السماء ويقررون أعمال الأبطال وفق تحليق الطيور . وكان هناك خمسة عشر أمينا على كتب العرافة يتشاورون من حين الى حين فى مجريات الأحداث المقبلة أو قل الأحداث الطارئة (كان اسمهم Quindecemvirs مشتقا من عددهم (١)) وكان هناك سبع عذارى (كاهنات الهة النار فستا) نذرن عذرتهن لحراسة النار المقدسة والرهائن المجهولة الخاصة بدوام روما وبقائها ، وهن اللاتى لم يرهن انسان دون أن يحل به القصاص . وكان هناك سبعة كهان يعدون مائدة الآلهة ، ويقودون الموكب المهيّب ، وينظمون طقوس الاحتفال السنوى . وكان هناك ثلاثة كهان للآلهة جوبيتر ، ومارس ، وكويرينوس يعتبرون وزراء خاصين لأقوى ثلاثة آلهة يسهرون على مصير روما ومصير الكون . وكان « ملك القرايين » ينوب عن شخص الامبراطور نوما Numa وخلفائه الأباطرة فى المهام الدينية التى لا يمكن أداؤها الا بأيد ملكية . أما رابطة كهنة الاله مارس ، وكهنة الاله لوبركس (اله الخصوبة) وغيرهم فقد كانوا يمارسون شعائر دينية تنتزع ابتسامة الاحتقار من أى رجل عاقل ، وهم على ثقة قوية من أنهم بهذا العمل ينالون حظوة لدى الآلهة الخالدة . غير أن السلطة التى كان كهنة الرومان قد حصلوا عليها من قبل فى سياسة الجمهورية ، ألغيت شيئا فشيئا بقيام الملكية ونقل مقر الامبراطورية . ومع ذلك فان قوانين وعادات البلاد ظلت تحمى جلال طابعهم المقدس ، واستمروا يمارسون ، وخاصة هيئة الاحبار ، فى العاصمة وفى الولايات أحيانا ، حقوق سلطتهم القضائية ، الكنسية والمدنية . وكانت أرديتهم الأرجوانية وعرباتهم الرائعة وولائهم الفخمة ، تستحوذ على اعجاب الناس ، وكانوا يتلقون من الأراضى الموقوفة ومن الأيراد العام رواتب وفيرة تكفى للانفاق بسخاء على فخامة مراكزهم الكهنوتية ، ودفع نفقات العبادة الدينية فى الدولة . ولما كانت خدمة المذبح لا تتنافى مع قيادة الجيوش ، فان الرومان ، بعد أن كانوا يصلون الى منصب القنصل ويحققون انتصاراتهم

(١) Quindecemvirs = ١٥ Vers = رجال (باللاتينية) - (الترجمة) .

الحربية ، كانوا يتطلعون الى مناصب الاحبار والعرفان ، ومن ثم فان المقعد الذى كان يشغله بومبى Pompey وذلك الذى كان يشغله شيشرون Cicero شغله فى القرن الرابع أُنْع أعضاء السناتو ، وأُضفى سمو ارومتهم روعة اضافية على شخصيتهم الكهنوتية . وتمتع الكهنة الخمسة عشر ، الذين كانوا يشكلون هيئة الاحبار ، بمركز أعظم رفعة ، بوصفهم رفاق ملكهم ، وتفضل الأباطرة المسيحيون بقبول الرداء والشعارات التى كانت مخصصة لمنصب الحبر الأعظم . ولكن عندما ارتقى جراشيان العرش ، وكان أكثر حزما أو أكثر استنارة ، نبذ فى جفاء تلك الرموز الدنسة ، ووجه دخل الكهنة والكاهنات الى خدمة الدولة أو الكنيسة ، وألغى مناصبهم وحصاناتهم ، وهدم الكيان القديم للخرافات الرومانية ، وهو الذى كانت تؤيده عادات وآراء نمت خلال ألف ومائة عام . وكانت الوثنية لاتزال الديانة الدستورية للسناتو ، فكانت القاعة أو المعبد الذى يجتمعون فيه مزينا بتمثال ومذبح الهة النصر « فيكتورى » ، وهو تمثال امرأة مهيبة واقفة على كرة ، ذات أردية فضفاضة ، وجناحين مبسوطين واكليل من الغار فى يدها المبسوطة . وكان أعضاء السناتو يقسمون على مذبح الآلهة أن يطيعوا قوانين الامبراطور وقوانين الامبراطورية . كما أنهم درجوا على تقديم التبيذ وحرق البخور فى وقار وخشوع كمقدمة لمناقشاتهم العامة . وكانت ازالة هذا الأثر القديم هى الاساءة الوحيدة التى ألحقها قسطنطيوس بخرافات الرومان . ثم أعاد جوليان مذبح الهة النصر ، وتسامح فالنتينيان فى وجوده ، ثم أزاله جراشيان من السناتو مرة ثانية بدافع من غيرته . ومع ذلك فان الامبراطور لم يمس تماثيل الآلهة المعروضة للعبادة العامة ، فبقى أربعمائة وأربعة وعشرون معبدا أو مصلى ليقيم الناس فيها صلاتهم ، وفى كل حى من أحياء روما كان دخان الذبائح الوثنية يجرح شعور المسيحيين

غير أن أن المسيحيين كانوا يشكلون أقل الأحزاب عددا فى سناتو روما ، ولم يكن أمامهم سوى التغيب عن المجلس كى يستطيعوا التعبير عن رفضهم للقرارات المدنسة التى تصدرها الاكثرية الوثنية ، وان تكن قرارات قانونية . وفى ذلك المحفل أذكت أنفاس التعصب حينما من الزمن جذوات الحرية التى كادت تخبو ، وزادتها اشتعالا . فأوفد الى البلاط الامبراطورى مفوضين محترمين ، واحدا بعد الآخر لعرض شكاوى الكهنة والسناتو ولالتماس اعادة مذبح الهة النصر . وعهد بالقيام بهذه المهمة الخطيرة الى رجل الفصاحة سيماخوس ، وهو رجل ثرى نبيل من أعضاء السناتو ، جمع بين شخصيتى الحبر والعرفان المقدستين وبين المنصبين

المدنيين ، بروقنصل أفريقيا وحاكم المدينة . وكان صدر سيماخوس يلتهب بأحر الحماس لقضية الوثنية المحترقة ، وكان خصومه الدينيون يأسفون لسوء استخدامه عبقرته وعدم جدوى فضائله الخلقية . وادرك الخطيب الذي رفع التماسه الى الامبراطور فالتفتينيان أن المهمة التي اضطلع بها عسيرة خطيرة . ومن ثم نراه يتجنب في فطنة وحرص أى موضوع قد ينعكس على دين مليكه ، ويعلن في خشوع أن الصلوات والتوسلات هي أسلحته الوحيدة ، ويستمد حججه في دهاء من مدارس البلاغة لا من مدارس الفلسفة ، ويحاول أن يفرى خيال الملك الشاب بعرض صفات آلهة النصر وسجايها ، ويلمح الى أن مصادرة الإيرادات التي كانت مخصصة للآلهة هي اجراء لا يناسب خلقه السخى المنزه عن الأغراض . ثم يقرر أن القرابين الرومانية سوف تفقد قوتها وفعاليتها اذا لم تقدم ويحتفل بها على نفقة الجمهورية وبأسمها . بل انه يستمد من التشكك ما يبرر به الخرافة ، فيقول ان سر الكون العظيم ، الذي يدق عن الفهم ، يستعصى على بحث الانسان واستقصائه ، وحيشا يعجز العقل عن الارشاد ينبغى أن يتاح للعرف مجال الهداية ، وان كل أمة يبدو أنها تتوخى ما يمليه عليها الحرص بالتعلق الأمين بتلك الشعائر والآراء التي أقرتها العصور والأجيال . فاذا كانت تلك العصور قد كللت بالمدح والازدهار ، واذا كان الشعب الورع كثيرا ما حصل على النعم التي التمسها أمام مذبح الآلهة - فانه يبدو من الأصوب أن يستمر الناس على نفس عاداتهم النافعة ، وألا يغامروا بالتعرض الى الأخطار المجهولة التي قد تترتب على أية بدع متهورة ، ولقد جاوزت ديانة الامبراطور نوما اختبار العصور وظفرت بمزية فريدة . ثم يستعين الخطيب سيماخوس بربة « روما » نفسها ، وهي الربة السماوية الساهرة على مصائر المدينة ، ويجعلها تدافع عن قضيتها أمام محكمة الأباطرة ، فتقول الربة الوقور « أيها الحكام العظام الأمجاد ، يا آباء البلاد ! رفقا بشيخوختي واحتراما لعمرى الذي قضيته في طريق الورع دون توقف ، وبما أنى غير نادمة على ما فعلت ، فاسمحوا لى بأن أستمز في ممارسة شعائرى القديمة . وبما أنى ولدت حرة فاسمحوا لى بأن أتمتع بأنظمتى الداخلية . لقد أخضع هذا الدين العالم بأسره لقوانينى ، وصلت هذه الشعائر هانيبال عن المدينة ، وردت الغالين عن الكابيتول . فهل بقيت شعرات رأسى التي وخطها الشيب لتلقى مثل هذا الهوان الذى لا يطاق ؟ انى لأجهل هذا النظام الجديد الذى يطلب الى أن أعنتقه ، غير أنى واثقة تماما من أن معاقبة الشيوخ أمر شائن يتسم بالجنون » . وأفصحت مخاوف الناس عما لم يفصح عنه الخطيب الحصيف ، فاجتمعت كلمة الوثنيين على أن

الكوارث التي ألمت بالامبراطورية المتدهورة ، أو التي كانت تهددها ،
انما تعود الى ديانة المسيح الجديد ، ديانة قسطنطين .

غير أن المقاومة الحازمة الباردة التي أبدتها رئيس أساقفة ميلان
كانت تقف في طريق آمال سيماخوس مرة تلو الأخرى ، واستطاع
الأسقف أن يحصن الأباطرة ضد البلاغة الخادعة المغرورة التي كان
يستخدمها محامي روما . وتنازل أمبروز في هذه الخصومة باستخدام
لغة الفيلسوف ، فتراه يتساءل في شيء من الازدراء ، لماذا يكون من
الضروري أن يسند الى قوة خيالية خفية أنها السبب في تلك الانتصارات
التي يكفي في تفسيرها أنها تحققت بفضل شجاعة الجيوش ونظامها .
ثم يسخر عن حق من ذلك الاحترام السخيف للتقديم الذي يمارس
بصورة تدعو الى تثبيط الجهود التي تبذل في تحسين الفن ، وتلقى
بالجنس البشرى مرة أخرى في همجيته الأولى . ثم يرتفع الأسقف من
هذا الى نغمة أكثر سيموا وأقرب الى اللاهوت ، فيقول ان المسيحية وحدها
هي مذهب الحق والخلاص ، وان كل نوع من أنواع الشرك انما يقود
أنصاره المخذوعين الى سبيل الضلال التي تؤدي الى هاوية الهلاك . ومثل
هذه الحجج التي قدمها أسقف ذو حظوة لدى الامبراطور ، كان لها من
القوة ما جعلها تحول دون اعادة مذبح الهة النصر ، غير أن هذه الحجج
نفسها ، عندما فاه بها الامبراطور المنتصر ، كان لها وقع وتأثير أشد ،
فسيقت آلهة العصور القديمة بصورة يتجلى فيها الظفر وراء عجلات عربة
ثيودوسيوس . وفي انعقاد كامل للسناتو طرح الامبراطور ، بمقتضى
رسميات الدولة سؤالاً هاماً عما اذا كانت عبادة جوبيتر أو عبادة المسيح
هي التي ينبغي أن تكون دين الرومان ؟ وتحطمت حرية التصويت التي
تظهر بالسماح بها ، بفعل الآمال والمخاوف التي أوحى بها وجوده في
الاجتماع ، كما أن نفى سيماخوس بصورة تعسفية كان بمثابة نذير
قريب العهد بأن معارضة رغبات الملك تنطوي على الخطر . وعندما
أخذت الأصوات بالطريقة المعتادة انحازت أغلبية كبيرة جداً ضد جوبيتر
فأدانتته وحقرته . وقد يكون مدعاة للدهشة أن بعض الأعضاء ، مهما قل
عددهم ، كان لديهم من الجرأة ما جعلهم يعلنون ، بكلماتهم وبأصواتهم ،
أنهم مازالوا يؤيدون جانب الاله المتبوذ . وهذا التحول السريع من جانب
السناتو لابد أنه يرجع اما الى عوامل خارقة للطبيعة أو الى دوافع حقيرة ،
وقد أفصح كثير من هؤلاء الذين اهتمدوا كرها لا اختياراً ، في كل مناسبة
ملائمة ، عن رغبتهم الباطنة في خلع قناع المراءاة الكريهة . غير أنهم
تمسكوا شيئاً فشيئاً بالديانة الجديدة ، لأن قضية الديانة القديمة
أصبحت أكثر يأساً ، فاذعنوا الى سلطان الامبراطور ، وإلى أسلوب العصر

والى توسلات زوجاتهم وأبنائهم الذين كان رجال الدين فى روما ورهبان الشرق يحرضونهم ويسيطرون عليهم . وسرعان ما أصبح المثل الذى ضربته أسرة أنيكيا The Ancian Family درسا تعلمته بقية الأسرات النبيلة : كأسرة باسى وأسرة بوليني وأسرة جراتشى ، فاعتنقت جميعها الديانة المسيحية ، كما أن « أعضاء مجمع كاتو الموقرين ، وهم كواكب الدنيا (على حله التعبير المنق الذى استخدمه برودنتيوس) ، كانوا يتحرقون الى التجرد من أرديتهم الكهنوتية ، والى التخلص من جلد الثعبان القديم ، وارتداء الثياب البيضاء الناصعة ، ثياب المعمودية البريئة ، واذلال عزة شارات السلطة القنصلية أمام قبور الشهداء » أما المواطنون الذين كانوا يعيشون بعملهم وجدهم ، والدمماء الذين كانوا يعيشون على سخاء المجتمع ، فقد اكتظت بهم كنائس الفاتيكان وكنائس اللاتيران فى جموع لا تنقطع من المهتدين الأنقياء . وهكذا أقر الرومان برضايتهم العام تلك القرارات التى أصدرها السناتو بتحريم عبادة الأوثان ، واندثرت روعة الكابيتول ، وتركت المعابد المنعزلة للخراب والهوان وخضعت روما لسيطرة الانجيل ، ولم تكن الولايات المقهورة قد فقدت بعد احترامها لاسم روما وسلطانها .

وكان الاخلاص الذى يكنه الإباطرة لأهمهم روما مما جعلهم يسرون فى اصلاح المدينة الغالدة فى شىء من الحرص والبرقة ، ولم يكثرث هؤلاء الملوك أصحاب السلطة المطلقة اكترائا كبيرا بتحامل سكان الولايات واستأنفوا بهمة ذلك العمل الصالح الذى توقف قرابة عشرين سنة منذ وفاة قسطنطينوس ، ثم أتمه أخيرا الامبراطور الورع ثيودوسيوس . وبينما كان ذلك الملك الجرى لا يزال يصارع القوط ، لا من أجل مجد الدولة ، بل من أجل سلامتها ، غامر بالاساءة الى جزء كبير من رعاياه ببعض الأعمال التى قد تظللها السماء بحمايتها ، غير أنها تتسم فى نظر الحرص الانساني بالتهور والبعد عن التعقل . ذلك أن نجاح التجربة الأولى التى قام بها الامبراطور الورع ضد الوثنيين شجعتة على التمدادى فى اصدار مراسيم الحظر والحرمان وتنفيذها : وبعد هزيمة مكسيموس طبقت على امبراطورية الغرب كلها نفس القوانين التى كان قد أصدرها أصلا فى ولايات الشرق ، وكان كل ظفر يحققه ثيودوسيوس الأرثوذكسى (صاحب المعتقد الصحيح) ، يسهم فى انتصار العقيدة المسيحية الكاثوليكية . وهاجم ثيودوسيوس الخرافة فى أعظم جانب حيوى لها ، وذلك بحظر تقديم القرابين التى أعلن أنها عمل إجرامى بقدر ما هو عمل مشين ، واذا كانت الألفاظ التى صيغت بها مراسيمه قد أدانت بصفة أخص ذلك الفضول الذى يدفع الناس الى فحص أحشاء الضحايا ، فإن

كل تفسير تال لمراسيمه أدخل في الجزيرة نفسها عادة تقديم القرابين بوجه عام ، وهي التي تشكل أساسا ديانة الوثنيين . وبما أن المعابد كانت قد أقيمت لغرض تقديم الذبائح ، فقد أصبح واجب الملك الخير أن يبعد عن رعاياه ذلك الاغراء الخطير الذي يغريهم على الاساءة الى القوانين التي سننها ، فأصدر تكليفا خاصا الى كينييجيوس Cynegius الحاكم البريتوري للشرق ، ثم الى الكونت جوفوريوس والكونت جودنتيوس ، وهما ضابطان من رتبة رفيعة في الغرب ، يأمرهم فيه باغلاق المعابد ، والاستيلاء على أدوات العبادة الوثنية أو تدميرها والغاء امتيازات الكهنة ، ومصادرة الأملاك الموقوفة على الأماكن المقدسة ، لمنفعة الامبراطور أو الكنيسة ، أو الجيش . والى هنا كان يمكن للخراب أن يتوقف ، وكان يمكن للصروح العارية التي لم تعد تستعمل في خدمة العبادة الوثنية ، أن تبقى بعيدة عن ثورة التعصب المدمرة ، وكان الكثير من تلك المعابد أجمل وأروع آثار فن العمارة اليوناني ، وكان الامبراطور نفسه حريصا على عدم تشويه روعة مدائنه ، أو الاقلال من قيمة ممتلكاته . وكان يمكن لتلك المباني الفخمة أن تبقى نصبا كثيرة دائمة تخلد ذكرى انتصار المسيح . واذا انحطت القنون ، كان يمكن تحويلها بسهولة الى مستودعات ، أو مصانع ، أو أماكن اجتماعية عامة . ومن الجائز أن جدران المعبد ، بعد أن تطهرها الشعائر المقدسة تطهيرا كافيا ، يمكن أن تكفر عبادة الرب الحقيقي فيها عن ذنب العبادة الوثنية القديم ، ولكنها طالما بقيت قائمة ، ظل الوثنيون يداعبهم أمل خفي عزيز في قيام ثورة موفقة ، أو مجيء امبراطور آخر مثل جوليان يعيد لهم مذابح الآلهة ، كما أن الجدية ، التي قدموا بها توسلاتهم المجدية الى العرش ، ألهمت حماس المصلحين المسيحيين الى استئصال جذور الخرافة دون رحمة . ولم تتسم قوانين الأباطرة بمثل ذلك العنف ، بل كانت أميل الى الاعتدال ، غير أن جهودهم الفائرة الضعيفة لم تكن كافية لصد تيار الحماس والنهب ، الذي دبر له ، أو قل دفعه دفعا حكام الكنيسة الروحيون . ففي بلاد الغال سار الأب المقدس مارتن (١) ، أسقف تور ، على رأس رهبانه المخلصين ، لتدمير الأصنام ، والمعابد والأشجار المقدسة في أبرشيته الواسعة ، وفي مقدور القارئ الفطن أن يحكم اذا كان مارتن قد أيده في تلك المهمة الشاقة عون من قوة معجزة ، أو من أسلحة دنيوية . أما في سوريا ، فان ماركيللوس التقى الطيب ، على حد تعبير تيودور ، وهو أسقف يلتهب بالغيرة الرسولية .

(١) انظر « حياة مارتن » (The Life of Martin) تأليف Sulpicius Severus

وقد حدث مرة ان رأى الأب المقدس جنازة بريئة فظن خطأ انها موكب ونسب ، وهنا خافته الحكمة وارتكب معجزة .

عقد العزم على أن يسوى بالأرض كل المعابد الفخمة القائمة فى أبرشية أباميا Apamea . غير أن المهارة والصلابة اللتين شيد بهما معبد جوبيتر قاومتا هجوم الأسقف ورجاله . فقد كان البناء قائما فوق ربوة عالية ، وكان السقف المرتفع مستندا فى الجوانب الأربعة على خمسة عشر عمودا ضخما يبلغ محيط الواحد منها ستة عشر قدما ، كما أن الأحجار التى بنيت منها كانت ملصقة لصقا قويا بالحديد والرصاص ، بحيث أخفقت فى هدمها أقوى وأحد الأدوات ، وأصبح من الضرورى تقويض أساسات الأعمدة نفسها ، فانهارت بعد حرق الدعائم الخشبية التى شيدت بصفة مؤقتة ، وقد وصفت الصعاب التى اعترضت هذا المشروع بصورة مجازية على أنها من عمل شيطان أسود استطاع أن يؤخر عمليات المسيحيين ، ولكنه عجز عن منعها . وانتفخ ماركيللوس بهذا الانتصار فقاد الحملة بنفسه ضد قوى الظلام ، وسير قوة كبيرة من الجنود والمجالدin تحت العلم الأسقفى هاجم بها معابد القرى والريف فى أبرشية أباميا . وكان بطل الايمان ونصيره يعانى من عرج لا يمكنه من القتال أو الفرار ، ومن ثم فكلما كان يخشى مقاومة أو خطرا ، كان يقف على مسافة بعيدة عن مرمى النبال . غير أن هذا الحرص من جانبه هو الذى أودى بحياته ، فقد فاجأ بعض القرويين الثائرين وذبحوه ، وأعلن مجمع الولاية دون تردد أن ماركيللوس المقدس قد ضحى بحياته من أجل قضية الله . وتأيدا لهذه القضية اندفع الرهبان من الصحراء فى غضب صاخب ، وأظهروا ما يتميزون به من غيرة وهمة استحقوا بها عداوة الوثنيين ، وقد يستحق بعضهم أن يوصم بالطمع الذى أشبعه بنهب الأماكن المقدسة ، وبالأفراط الذى انغمسوا فيه على حساب الناس الذين أعجبوا فى غيابهم بملابسهم المهلهلة ، وترتيلهم الجهورى ، وشحوبهم المصطنع (١) . ونجا عدد قليل من المعابد بفضل مخاوف الحكام الدينيين والمدنيين ، أو بفضل رشوة أخذوها ، أو بدافع من الذوق أو الحكمة . أما معبد فينوس السماوية فى قرطاجة ، الذى كان محيطه المقدس يبلغ ميلين ، فقد رثى من الحكمة أن يحول الى كنيسة مسيحية ، وحدث ما يشبه ذلك لمعبد البانثيون المهيّب ، وبهذا بقيت قبته الفخمة سليمة . غير أن كل ولاية من ولايات العالم الرومانى تقريبا شهدت جيشا من المتعصبين يهاجم السكان الأمنين ، دون نظام ودون سلطان عليه ويهدم أجمل الصروح القديمة التى ما تزال آثارها

(١) وجه ليبانيوس تعنيفا الى أصحاب الأودية السوداء هؤلاء ، وهم الزهبان المسيحيون الذين ياكلون أكثر مما ياكل الفيلة . مساكين هؤلاء الفيلة . إنها حيوانات هليفة .

تشهد بعث هؤلاء البرابرة الذى توافر لهم من الوقت والرغبة ما جعلهم ينفذون ذلك التدمير العنيف الشاق .

تدمير معبد سراپيس

وفى هذا الخراب الذى اتسع مداه وتنوعت أشكاله يستطيع المشاهد ان يميز أطلال معبد سراپيس Serapis فى مدينة الاسكندرية . ويبدو أن سراپيس لم يكن أحد الآلهة أو الوحوش الوطنية ، ولم ينشأ فى مصر المؤمنة بالخرافات وذات التربة الخصبة . ذلك أن أول ملوك البطلمة قد تلقى فى أحد أحلامه أمرا باحضار تمثال ذلك الأجنبى الغريب من شاطئ بنطس Pontus ، حيث كان معبودا عبده أهل سينوب Sinope مدة طويلة ، غير أن أحدا هناك لم يكن يفهم شيئا عن صفاته وعهده الى درجة أن الجدل كان قائما حول ما يمثله التمثال ، وهل يمثل كوكب النهار الوضاء ، أو ملك العالم السفلى المظلم الكئيب ، ورفض المصريون المتشبهون بدين آبائهم فى صلابه وعناد قبول هذا الاله الأجنبى داخل أسوار مدائنهم . غير أن الكهنة الأذلاء ، الذين أغراهم سخاء البطلمة ، خضعوا دون مقاومة لسلطان اله بنطس ، ووضعوا له تاريخا شريفا وطنيا يتسلسل فيه نسب ذلك المغتصب السعيد الحظ الى عرش و فراش أوزيريس ، زوج ايزيس وملك مصر السماوى . وأصبحت الاسكندرية التى اختصها هذا الاله بحمايته ، تفخر باسم مدينة سراپيس . وأقيم له معبد ينافس الكابيتول عظمة وروعة ، على قمة فسيحة لتل صناعى يعلو عن الأجزاء المجاورة من المدينة بمائة درجة من درجات السلم ، ودعم تجويفه الداخلى تدعيمات قويا بالأقواس ، وقسم الى أبهاء وغرف تحت سطح الأرض . وأحيطت المباني المقدسة برواق مربع الزوايا ، وتجلت فى القاعات الفخمة والتمائيل الرائعة عظمة الفنون وتقدمها ، كما احتفظ بكنوز العلم القديم فى مكتبة الاسكندرية الشهيرة التى أعيد بناؤها بروعة جديدة بعد أن كانت تحولت الى رماد . وبعد أن أصدر ثيودوسيوس تلك المراسيم التى حرم فيها قرابين الوثنيين تحريما صارما ، ظل تقديمها مسموحا به فى مدينة سراپيس ومعبده ، ونسب هذا التسامح فى غير فطنة الى الفزع الخرافى الذى تملك المسيحيين ، كما لو أنهم كانوا يخشون الغاء الطقوس القديمة التى تستطيع وحدها أن تحقق فيضان النيل ، وتضمن المحاصيل المصرية ، وغذاء القسطنطينية .

وفى ذلك الوقت كان كرسى كبير أساقفة الاسكندرية يشغله ثوفيلوس Theophilus العدو الأبدى للسلم والفضيلة ، وهو رجل جريء سبىء الخلق تلوثت يده بالذهب تارة وتخضبت بالدماء تارة أخرى .

ولقد اثار سخطة الدينى ما أضفى على سراييس من ألوان التكريم وكانت
الاهانات التى وجهها الى معبد باكوس Pacchus القديم من الأمور التى
أقنعت الوثنيين بأنه كان يدبر مشروعا أكثر أهمية وأعظم خطورة . وفى
عاصمة مصر الصاخبة كانت أقل اثاره تكفى لاشعال نار حرب أهلية .
وكان المتعبدون لسراييس أقل بكثير من خصومهم عددا وأضعف قوة ،
ولكنهم ثاروا وحملوا السلاح بتحريض من الفيلسوف أوليمبيوس
Olimpius الذى حثهم على الموت دفاعا عن مذابح الآلهة . وتحصن
هؤلاء الوثنيون المتعصبون فى معبد سراييس ، أو قل حصن سراييس ،
وصدوا المحاصرين بهجمات فجائية جريئة ، وبدفاع عنيد ، والتمسوا
آخر عزاء يائس بما أوقعوه بأسراهم المسيحيين من أعمال القسوة
الوحشية ، وضاعت الجهود التى بذلها الحاكم الحصيف فى اقرار هدنة
بين الفريقين حتى تصل من ثيودوسيوس اجابة يقرر فيها مصير سراييس .
 واجتمع الفريقان ، وهم عزل من السلاح ، فى الميدان الرئيسى حيث قرىء
الرد الامبراطورى علنا . وعندما نطق الحاكم بحكم الامبراطور الذى
يقضى بتدمير أولئك الاسكندرية ارتفعت أصوات الفرح والسرور من جانب
المسيحيين ، أما الوثنيون التمساء الذين انقلب غضبهم الى فزع وحيرة ،
فقد انسحبوا فى خطوات سريعة صامتة ، وأفلتوا بفرارهم وانزوائهم من
سخط أعدائهم . وبدأ توفيلوس تقويض معبد سراييس ، دون أن يلقي
أية صعوبات اللهم الا تلك التى وجدها فى ثقل وصلابة المواد التى شيد
منها البناء . غير أن تلك العوائق كانت منيعة لا تقهر بحيث اضطر الى
ترك الأساسات والاكتفاء بتحويل البناء نفسه الى كومة من الأنقاض ،
وسرعان ما نظفوا جزءا منه لبناء كنيسة تقام تكريما للشهداء المسيحيين .
أما مكتبة الاسكندرية القيمة فقد نهبت ودمرت ، وبعد انقضاء قرابة
العشرين عاما بدت الرفوف خاوية خالية تثير الأسف والسخط فى نفس
كل مشاهد لم يطغ على عقله ظلام التعصب الدينى ، ولقد كان من المستطاع
أن يستثنى من تدمير الوثنية ما أنتجته العبقريّة القديمة من مؤلفات هلك
الكثير منها دون ما أمل فى تعويضها ، بحيث تبقى لتسلية الأجيال التالية
وتعليمها ، وكان من الممكن أن يشبع الأسقف غيرته أو طمعه بما حصل
عليه من أسلاب ثمينة جزءا انتصاره . وقد حرص الأسقف على صهر
التمائيل والأواني الذهبية ، أما تلك المصنوعة من معدن أقل قيمة فقد
حطمها فى ازدراء وألقى بها فى الطرقات ، وفى الوقت عينه عمل على اظهار
رذائل كهنة الأوثان وأساليب تدليسهم ، وبراعتهم فى استخدام حجر
المغنطيس ، ووسائلهم الخفية فى ادخال أحد الممثلين فى تمثال أجوف .

وفي استغلال الشائن لثقة الأزواج الأتقياء وزوجاتهم الساذجات (١) .
ويبدو أن مثل هذه الاتهامات قد تستحق قدرا من التصديق ، لأنها لا تجافي
الروح الخبيثة المفرضة التي يتسم بها أهل الخرافات . غير أن هذه الروح
نفسها هي التي اتجهت بالصورة عينها الى ذلك الاجراء الخسيس وهو
التعريض بعلو مهزوم والافتراء عليه ، ومن الطبيعي أن تعترض تصديقنا
فكرة أن ابتكار قصة وهمية أقل صعوبة بكثير من اثبات تدليس فعلى .
ولقد أصاب تمثال سرايبس الضخم ما أصاب معبده وديانته من دمار .
وكان التمثال الهائل لهذا الاله مكونا من عدد كبير من ألواح من مختلف
المعادن ملتحمة بعضها ببعض ، ويلمس من جانبيه جدران المحراب ، وكان
شكل سرايبس ، ووضعه الجالس ، وانصولجان الذي كان يحمله في يده
اليسرى ، كل أولئك كان شديد الشبه بالتماثيل العادية للاله جوبيتر ،
ولكنه كان يفترق عن جوبيتر بالسلسلة أو المكيال الذي وضع فوق رأسه ،
وبالوحش الرمزي الذي أمسك به في يده اليمنى ، وهو رأس وجسم
ثعبان يتفرع الى ثلاثة ذيول ، وهذه بدورها تنتهى بثلاثة رؤوس هي رأس
كلب ورأس أسد ورأس ذئب ، وكان المقول في ثقة وتأكيده انه اذا تجرأت
يد دنسة على المساس بجلال الاله ، فان السموات والأرض سوف تعود
على الفور الى حالة فوضاها الأصلية . غير أن جنديا جريئا ألهمه الحماس
وكان مسلحا ببلمة القتال ، فارتقى السلم صاعدا الى التمثال ، وحتى
الجمهور المسيحي نفسه توقع في شيء من القلق ما سوف يحدث نتيجة
للصراع . وصوب الجندي ضربة قوية الى خد سرايبس ، فوقع الخد الى
الأرض ، غير أن الرعد ظل صامتا ، وظلت السموات والأرض تسير في
نظامها وهدوئها المعتاد . وعاد الجندي الظافر ضرباته وأطاح بالصنم
الضخم الذي تحطم قطعا ، وجر الجمهور أطراف سرايبس في طرقات
الاسكندرية بصورة شائنة . ثم أحرقوا تمثاله في مدرج المدينة وسط
صيححات الجماهير ، ونسب كثير من الناس ارتدادهم عن الوثنية الى
اكتشافهم عجز الاله الذي كان يرعاهم ويحرسهم . ولا شك في أن أساليب
الدين الشعبية المألوفة التي تقدم للناس أية معبودات مادية مرئية انما
تتمتع بميزة أنها تستطيع أن تشكل نفسها وفق حواس الانسان ، وتجعل
الناس يألونها ، غير أن هذه الميزة يقابلها ما يتعرض له ايمان العابد من

(١) يذكر « روفينوس » اسم كاهن زحل الذي كان يلبس شخصية الاله ويتحدث
في اللغة الى كثيرات من السيدات النقيات رفيعات الشأن ، حتى فضح نفسه
في لحظات من لحظات النشوة حين لم يستطع اخفاء نبرات صوته . وقد تثبت القصة
الصادقة غير المتحيزة التي أوردها اسكينيز Aschines ، ومغامرة مندوس Mandus
أن مثل هذه التدليسات الغرامية كانت تمارس في نجاح .

تأثر بما يعتور الصنم من مختلف الحوادث التى لابد من وقوعها • ولا يكاد يكون ممكنا أن مثل هذا العابد يستطيع فى كل اتجاه من اتجاهات عقله ، أن يحتفظ بأجلانه الثابت الوطيد للأصنام أو المخلفات التى لا تستطيع العين المجردة واليد المدنسة أن تفرقا بينها وبين الأشياء العادية الى أبعد حد ، تلك التى ينتجها الفن أو تأتى بها الطبيعة • وإذا عجزت قدرتها الخفية المعجزة ، فى ساعة الخطر ، عن اثبات وجودها ، فإنه يسخر من دفاع كهنته ، ويهزأ من الشيء الذى كان يعبده ومن حماقة تعلقه به • وبعد أن سقط سرايبس ظل الوثنيون يعلقون بعض الآمال على أن نهر النيل سوف يضمن بفيضه السنوى الذى يزود به سادة مصر الكافرين ، وبدأ تأخر الفيضان غير العادى فى تلك المناسبة كأنه نذير بغضب النهر الإله • غير أن هذا التأخير سرعان ما عوضته سرعة ارتفاع المياه التى وصلت الى مستوى غير عادى ارتاح له الفريق المتذمر ، وتوقع فى سرور أن الفيضان سوف يكون طوفانا ، غير أن النهر الهادئ هبط ثانية الى مستواه المعروف الذى يحمل الخصوبة الى الأرض ، وهو ستة عشر قدما أو ثلاثون قدما انجليزيا •

حظر الشعائر الوثنية

رغم أن معابد الامبراطورية الرومانية هجرت أو هدمت ، الا أن براعة الوثنيين المؤمنين بالخرافات ظلت تحاول التهرب من قوانين ثيودوسيوس التى حرم بمقتضاها كل الذبائح والقربان • فسكان الريف الذين كن مسلكهم أقل تعرضا للعيون الخبيثة المستطلعة ، كانوا يخفون اجتماعاتهم الدينية تحت قناع من اللهو والمرح • وفى أيام الاحتفالات الدينية كانوا يجتمعون فى أعداد كبيرة تحت ظل شجرة وارفة مقدسة ، ويذبحون الخراف والثيران ويشوونها ويقدسون هذه المأدبة الريفية بحرق البخور بانشاد التراتيل تكريما للآلهة • وكانوا يدعون أن تلك اللقاءات الاحتفالية لا تعتبر من جانب المدعين ارتكابا لجريرة التقسمة غير المشروعة ولا تعرضهم للقصاص المترتب عليها ، لأنهم فى حرص وحذر ، لا يقدمون أى جزء من الحيوان قربانا محروقا ، ولا يقيمون مذبحا لتلقى 'الدماء' ، ولا يبيدئون بتقديم قربان الكعك المملح ، ولا ينهون الاحتفال بسكب الخمر • • ومهما كان صدق هذا التفريق أو قيمته ، فإن المرسوم الأخير الذى أصدره ثيودوسيوس قضى على كل هذه الادعاءات الباطلة وأصاب خرافة الوثنيين بجرح مميت ، وقد صيغ هذا القانون التحريمى فى عبارات شاملة مطلقة أكثر ما يكون الشمول والاطلاق • يقول الامبراطور :

« تقتضى ارادتنا ومشيتنا ، أنه ينبغي على كل فرد من رعايانا ، حاكما أو مواطنا ، عظيم الشأن والمقام أو حقيرا ، ألا يعبد فى أية مدينة ، أو فى أى مكان ، صنما لا حياة فيه ، بذبح ضحية بريئة » . وأعلن هذا المرسوم أن تقديم الذبائح والتكهن بالغيب عن طريق أحشاء الضحية (دون أى اعتبار لموضوع البحث) يعتبر خيانة عظيمة ضد الدولة ولا تكفير عنها الا بموت المذنب .

أما طقوس الخرافة الوثنية التى قد تبدو أقل دموية واجراما ، فقد ألغيت على اعتبار أنها شديدة المساس بحقيقة الدين وشرفه ، وأدين منها بنوع خاص اشعال النيران وارتداء صفائر الزهور ، وحرق البخور العربية ، وتقديم قرابين النيبذ ، كما أن المطالب البريئة للأرواح العائلية والآلهة المنزلية شملها جميعا هذا التحريم الصارم . وأصبح أداء أى من هذه الشعائر المندسة غير المشروعة يعرض المذنب الى فقدان المنزل أو العقار الذى أقيمت فيه . وإذا كان قد تحايل على اختيار منزل شخص آخر لممارسة هذا الضلال ، فانه يرغم فوراً على دفع غرامة فادحة قدرها خمسة وعشرون رطلا من الذهب ، وهى أكثر من ألف جنيه استرليني . وفرضت غرامة لا تقل عن ذلك على تواطؤ أعداء الدين السريين الذين يهملون فى كشف جريمة العبادة الوثنية أو توقيع العقاب عليها . هكذا كانت روح الاضطهاد التى انطوت عليها قوانين ثيودوسيوس ، ونفذها أبناؤه وأحفاده مرارا وتكرارا وقوبل ذلك بالتهليل والاستحسان الاجماعي من جانب العالم المسيحي .

ولقد حرمت المسيحية فى عهد ديكْيوس ودقلديانوس ، وهما عهدان اتسما بالقوة ، على أنها ثورة على الديانة القديمة الموروثة فى الامبراطورية ، وحامت حول معتنقيها ريب ظالمة بأنهم حزب غامض خطير . غير أن هذه الريب قوبلت الى حد ما باتحاد لا ينقسم ومكاسب سريعة من جانب الكنيسة الكاثوليكية . غير أن هذا الخوف والجهل نفسه لا يمكن أن يعتبروا عذرا ينطبق على الأباطرة المسيحيين الذين خرقوا مبادئ الانسانية وتعاليم الانجيل ، فلقد كشف تجربة العصور عن ضعف الوثنية وحقاقتها ، كما أن نور العقل والايمان أظهر لأكبر جزء من الجنس الانسانى تفاهة الأصنام وبطلانها . وكان فى الامكان أن يسمح لأبناء هذه الطائفة المتدهورة التى ظلت متمسكة بعبادتها أن يتمتعوا بالعبادات الدينية التى ورثوها عن أجدادهم فى هدوء وانزواء ، ولو أن الوثنيين اشتعل فى صدورهم ذلك الحماس العنيد الذى تملك عقول المؤمنين القدامى ، لتلطف انتصار الكنيسة بالدماء ، ولرحب شهداء جويتر وأبوللو بالفرصة المحيطة التى تمكنهم من التضحية بأرواحهم وثرواتهم أمام مذابح الآلهة ، غير أن

هذا الحماس العنيد لم يكن من شيمة الطباع الوثنية المتسمة بالتفكك والاهمال فكانت الضربات العنيفة المتكررة التى يوجهها اليهم الحكام الارثوذكس تقع على مادة لينة مرنة فتتكسر حدتها ، ووقاهم خضوعهم السريع من الآلام والجزاءات التى تضمنها قانون ثيودوسيوس وبدلا من أن يصروا على أن سلطان الآلهة أسمى من سلطان الامبراطور ، فقد أقلعوا بسلامة حزيمة عن ممارسة تلك الشعائر المقدسة التى أدانها مليكهم .

واذا كانوا فى بعض الأوقات يمارسون خرافتهم المفضلة بدافع من نزوة الهوى ، أو بأمل فى عدم افتضاح أمرهم ، فان توبتهم الذليلة كانت تسلب الحاكم المسيحى قسوته ، وكلما كانوا يرفضون التكفير عن تهورهم بالخضوع الى سيطرة الانجيل ، على شىء من المضض . وامتلات الكنائس بأعداد متزايدة من هؤلاء المهتدين التافهين الذين اعتنقوا الديانة السائدة مدفوعين بدوافع دنيوية ، وبينما كانوا يقلدون فى خشوع جلسة المؤمنين ويرددون صلواتهم ، كانوا يرضون ضمايرهم بالتضرع الى آلهتهم القديمة فى دخيلة أنفسهم . واذا كان الوثنيون فى حاجة الى الصبر على الألم ، فقد كانت تعوزهم روح المقاومة ، ومن ثم فان أعدادهم الغفيرة المشتتة ممن كانوا يكون على خراب معابدهم ، استسلموا دون كفاح الى فوز خصومهم . أما المقاومة غير المنظمة التى أبداهم فلاحو سوريا وأهل الاسكندرية ضد التعصب المحلى ، فقد أسكتت باسم الامبراطور وبسلطانه . أما وثنيو الغرب فمع أنهم لم يسهموا فى وصول يوجينيوس الى العرش ، الا أنهم ألحقوا العار بقضية المعتصب وبشخصيته من جراء تعنتهم المغرض به فقد رماه رجال الدين فى عنف بأنه ضاعف جرم التمرد بذنب المروق عن الدين ، وبأنه أذن بإعادة مذبح آلهة النصر ، وبأن شارات جوبيتر وهرقول الوثنية كانت تظهر فى ميدان القتال قبالة علم الصليب الذى لا يقهر . غير أن آمال الوثنيين الباطلة سرعان ما تحطمت بهزيمة يوجينيوس ، فتركوا معرضين لسخط الفاتح المنتصر الذى عمل جاهدا على أن ينال حظوة السماء بإبادة الوثنية .

ان أمة من العبيد لا تتوانى عن اظهار استحسانها لشفقة سيدها عندما لا يستغل سلطانه المطلق ويذهب الى أبعد حدود الظلم والاضطهاد . ولا شك فى أن ثيودوسيوس كان فى مقدوره أن يخير رعاياه الوثنيين بين المعمودية أو الموت ، ولقد امتدح رجل البلاغة ليبانيوس اعتدال ذلك الملك الذى لم يسن قانونا قاطعا يفرض على كل رعاياه أن يعتنقوا ويمارسوا دين مليكهم . ولم يجعل ثيودوسيوس اعتناق المسيحية شرطا جوهريا للتمتع بحقوق المجتمع المدنية ، ولم يفرض منغصات خاصة على أبناء الطوائف التى صدقت تلك القصص الخرافية التى كتبها الشاعر

أوفيد Ovid ، ونبذت في عنناد تلك المعجزات التي ورد ذكرها في الانجيل . وكان الوثنيون الذين يجهرون بعقيدتهم ويتمسكون بها يملأون القصر والمدارس والجيش والسناتو ، وكانوا يحصلون دون تفرقة على المناصب المدنية والعسكرية في الامبراطورية ، وأظهر ثيودوسيوس اجلاله الكريم للجدارة والعبقرية بأن منح سيماخوس منصب القنصلية الرفيع ، وبما أظهره نحو ليبانيوس من صداقة شخصية ، ولم يطلب الى نصيرى الوثنية البليغين أن يغيرا آراءهما الدينية أو يماريا فيها ، ومارس الوثنيون أوسع حدود الحرية كلاما كتابة . واثك التجدد فيما خلفه يونايبوس وزوسيموس ، معلمو مدرسة أفلاطون المتعصبون ، من كتابات فلسفية وتاريخية ، ما ينم عن أشد العداوة ، وما يحتوى على أقذع الاتهامات الموجهة الى مشاعر وسلوك خصومهم المنتصرين . وبما أن هذه الاتهامات الجريئة كانت معروفة للناس جميعا فانه ينبغي علينا أن نظرى أريحية الملوك المسيحيين الذين نظروا في ابتسامة ازدراء الى آخر كفاح الخرافة واليأس . غير أن القوانين الامبراطورية التي حرمت قرابين واحتفالات الوثنية ، نفذت تنفيذا صارما ، وكانت كل ساعة تمضى من الوقت تسهم في القضاء على نفوذ ديانة تؤيدها العادات دون الحجة . وان الشاعر أو الفيلسوف ليستطيع خفية أن يشبع عبادته بالصلاة والتأمل والدراسة . غير أن ممارسة العبادة العلنية يبدو أنها الأسس المتين الوحيد لاشباع الأحاسيس الدينية التي يشعر بها الناس ، تلك الأحاسيس التي تستمد قوتها من التقاليد والعادة . ولا شك في أن اعاقه هذه الممارسة العلنية قد تكمل في مدى سنوات قليلة ذلك العمل الهام الذى تقوم به ثورة قومية . كما أن تذكر الناس للآراء الدينية لا يمكن أن يبقى طويلا دون معينات صناعية يستمدونها من رجال الدين ، ومن المعابد ، ومن الكتب . والدهماء الجهلاء ، الذين لا تزال عقولهم مضطربة بما فيها من الآمال والمخاوف العمياء التي تثيرها الخرافة ، سرعان ما يغريهم سادتهم على توجيه ولائهم الى آلهة العصر السائدة ، فيسرى فيهم ، دون أن يشعروا ، حماس متقد لتأييد ونشر العقيدة الجديدة التي أرغمهم جوعهم الروحي على قبولها في بادىء الأمر . ولقد اتجه الجيل الذى نشأ فى العالم بعد اصدار القوانين الامبراطورية نحو حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ودخل رحابها ، وكان سقوط الوثنية سريعا وهادئا الى درجة أنه لم تنقض ثمانية وعشرون عاما على موت ثيودوسيوس ، حتى اندثرت آثارها الضعيفة الزهيدة ، فلم تعد تراها عين المشرع .

عبادة الشهداء المسيحيين

وانتعاش عادات الشرك

يصف السفسطانيون سقوط الوثنية بأنه حدث معجز ونذير شؤم هذه رهيبة أسدل على الأرض ليلا وأعاد عهد الظلام والفوضى القديم . وهم يقصون في لهجة الجذ والحزن أن المعابد تحولت الى أضرحة ، وأن الأماكن المقدسة التي كانت تزينا تماثيل الآلهة ، دنستها بصورة دينية بقايا الشهداء المسيحيين . يقول يونايبوس : « ان الرهبان (وهم جنس من الحيوانات القذرة لا يستأهلون اسم الرجال) هم الذين ابتكروا العبادة الجديدة التي وضعت أحقر العبيد وأكثرهم مهانة مكان تلك الآلهة التي يدركها العقل والفهم . وأولئك الشهداء هم المذنبون الخاطئون الذين استحقوا الموت الشائن العادل جزاء جرائمهم الكثيرة ، أولئك هم المجرمون ، بجماعتهم المملحة المحنطة ، وبأجسادهم التي لا تزال تحمل آثار السياط وندوب التعذيب الذي حكم عليهم به الولاة ، أولئك هم الآلهة التي تخرجها الأرض لنا في هذه الأيام . أولئك هم الشهداء ، أصحاب المقامات السامية المتحكمون في صلواتنا وتضرعاتنا الى الاله ، أولئك هم الشهداء الذين قدست قبورهم وأصبحت موضع اجلال الناس واحترامهم . ولسنا نوافق على ما يحمله هذا الكلام من حقد ، غير أنه من الطبيعي أن نشارك السفسطائي يونايبوس دهشته ، فهو الذي شهد ثورة رفعت ضحايا قوانين روما المغمورين الى مصاف الحماة السماويين غير المرتين للامبراطورية الرومانية ، ذلك أنه بمرور الزمن وبحكم انتصار المسيحيين ، ارتفع اجلالهم لشهداء الدين المقربين بعرفانهم لفضيلهم ، الى مرتبة التقديس الديني ، واستحق أشهر القديسين والأنبياء أن يقرنوا بأعجاد الشهداء . وبعد مائة وخمسين سنة من الموت المجيد الذي انتهت به حياة القديس بطرس والقديس بولس ، كان طريق الفاتيكان وطريق أوستيا يتميزان بالأضرحة ، أو قل بالنصب المقامة لهذين البطلين الروحيين . وفي العهد الذي تلا تحول قسطنطين الى المسيحية ، كان الأباطرة والقناصل وقواد الجيوش يزورون في خشوع أضرحة صناعات الخيام وصائدي الأسماك الذين دفنت عظامهم المبجلة تحت هياكل المسيح ، تلك الهياكل التي يقدم عليها أساقفة المدينة الملكية قرايينهم غير الدموية بصورة مستمرة . أما العاصمة الجديدة للعالم الشرقي فقد عجزت عن إيجاد أية نصب قديمة محلية ، فتزودت بما غنمته من الولايات التابعة لها . وكانت أجساد القديس اندراوس ، والقديس لوقا والقديس تيموتاوس ، ترقد منذ ما يقرب من ثلاثمائة سنة في قبورها المظلمة ، ثم نقلت منها في موكب مهيب وقور

الى كنيسة الرسل التي شاءت عظمة قسطنطين أن تشيدها على ضفاف
البيسفور في تراقيا . وبعد ذلك بخمسين عاما تشرفت الضفاف نفسها
بمجيء جثمان صمويل ، نبي شعب اسرائيل وقاضيه . ووضعت بقاياها
في اناء ذهبي مغطى بنقاب حريري ، وتبادلتها أيدي الأساقفة . وقابل
الساس بقايا صمويل بالفرح والاجلال كما لو كان النبي حيا ، وامتلات
الطرق ، من فلسطين الى أبواب القسطنطينية ، بموكب متصل ، وخرج
الامبراطور أركاديوس بنفسه على رأس المبع أعضاء الكهنوت والسنانو
لمقابلة هذا الضيف غير العادي الذي كان جديرا دائما بولاء الملوك ،
ويتطلب منهم هذا الولاء ، وبفضل ذلك المثل الذي ضربته روما
والقسطنطينية توطد ايمان العالم الكاثوليكي ونظامه وبعد تدمير ضعيف
عديم الجدوى يعود الى سبب دينوي دنس ، توطدت أمجاد القديسين
والشهداء في كل مكان ، وفي عصر امبروز وجيروم كانت قدسية أية كنيسة
مسيحية تعتبر مفتقرة الى ما يكملها ، حتى تقدسها قطعة من رفات مقدسة
تدعم ولاء المؤمنين وتلهبه . وخلال فترة طويلة قدرها مائتان وألف سنة ،
بين عهد قسطنطين وبين حركة الاصلاح التي قادها لوتر ، أفسدت عبادة
القديسين وعظام الشهداء تلك البساطة النقية الكاملة التي اتسم بها
النموذج المسيحي ، وفي مقدورنا أن نلاحظ بعض أعراض الانحلال ،
حتى في الأجيال الأولى التي أخذت بهذه البدع الهدامة واحتضنتها .

١ - دلت التجربة على أن بقايا القديسين كانت أكثر قيمة من
الذهب أو الأحجار الكريمة وأغرت هذه التجربة رجال الدين على مضاعفة
أموال الكنيسة ، فلم يابهاوا بالحقيقية أو الاحتمال ، وابتكروا أسماء لهياكل
عظيمة ، وابتدعوا للأسماء أعمالا ، ولوثوا شهرة الرسل وأتقياء الرجال
الذين حذوا حذوهم في فضائلهم ، بالقصص الديني الزائف وأضافوا الى
انعصبة الصاعدة من الشهداء الأولين الأصليين عددا لا يحصى من الأبطال
الوهميين ، الذين لم يكن لهم وجود الا في خيال القصاصين الماكريين
أو السذج . وهناك ما يبرز الشك في أن أسقفية تور لم تكن الأسقفية
الوحيدة التي بجلت فيها عظام أحد القديسين (١) . وهكذا مارس الناس
الخرافة التي ضاعفت مغريات الغش والتصديق ، وأخذت دون أن يشعر
أحد نور التاريخ والعقل في العالم المسيحي .

٢ - غير أن سير الخرافة كان يمكن أن يكون أقل سرعة ونجاحا
لو أن ايمان الناس لم يتلق عونا جاء في أوانه من الرؤى والمعجزات التي

(١) انتزع مارتن أسقف تور هذا الاعتراف من فم الرجل الميت . والخطأ جائز على
أنه أمر طبيعي . أما اكتشاف الخطأ . فالمفروض أنه معجز . فأيهما كان أكثر حدوثا ؟

أن البقايا ، التي كانت موضعاً لكبر الشكوك ، هي بقايا صحيحة لأناس أتقياء . ففي عهد ثيودوسيوس الأصغر كان هناك كاهن في أورشليم اسمه لوكيان Lucian ، يشغل منصب شيخ الكنيسة في قرية كفارجمالا Cafargamala على بعد عشرين ميلاً من المدينة تقريباً . وقص هذا الرجل - فلما عجباً كل العجب عاوده في يوم السبت مدة ثلاثة أسابيع منوالية لكي يزيل شكوكه . ويقول القسيس انه رأى في الحلم شخصاً مبجلاً وقوراً يقف أمامه في سكون الليل ، وقد ارتدى ثوباً أبيض ، وتدلّت لحيته الطويلة ، وأمسك في يده عصاً من ذهب ، وقال ان اسمه جماليل Gamaliel ثم أوضح للقسيس الذي تولته الدهشة أن جثمانه وجثمان ابنه أبيباس وجثمان صديقه نيكوديّموس ، وجثمان اسطفان الشهيد ، أول شهداء العقيدة المسيحية ، كانت مدفونة سراً في الحقل المجاور . وأضاف في شيء من نفاذ الصبر ، أن الوقت قد حان للانفراج عن نفسه وعن رفاقه من سجنهم المظلم ، وأن ظهورهم سوف يخدم العالم المكروب ، وأنهم جميعاً قد وقع اختيارهم على لوكيان ليتولى أخبار أسقف أورشليم بمكانهم وبرغباتهم . وتتابع عليه رؤى جديدة أزال تلك الشكوك والصعاب التي كانت لا تزال تؤخر هذا الكشف الهام . وتولى الأسقف حفر الأرض بحضور جمهور كبير العدد ، وهناك وجدت توايبت جماليل وابنه وصديقه في نظام مرتب . ولكن عندما أخرجوا التابوت الرابع ، وهو التابوت الذي ضم رفات الشهيد اسطفان ، زلزلت الأرض ، وفاج عبير ذكي كبير الجنة ، شفى على الفور مختلف الأمراض التي كان يقاسى منها ثلاثة وسبعون من الحاضرين . وترك رفاق اسطفان في مثواهم انهادى ، أما رفات الشهيد الأول . فقد نقلت ، في موكب رهيب ، الى كنيسة أقيمت تكريماً لها على جبل صهيون ، وأصبح من المعترف به ، في كل ولاية من ولايات العالم الروماني ، أن جزئيات هذه الرفات ، أو أية نقطة من الدم (١) ، أو أية قطعة من العظم ، لها صفة سماوية معجزة ، وانك لترى العلامة الوقور أوجستين (٢) Augustin ، الذي كان على قدر من الإدراك لا يسمح بأن يعتذر لصاحبه بالسنداجة والتصديق ، يشهد

(١) كانت تذاب قارورة من دم القديس اسطفان في نابولي كل سنة حتى خلفه القديس جانويورايوس St. Januarius .

(٢) ألف أوجستين الأجزاء الاثنتين والعشرين من كتاب « مدينة الرب » في ثلاث عشرة سنة (٤١٣ - ٤٦٦ بعد الميلاد) . وكثير من المعلومات الواردة في هذا الكتاب منقولة ، أما حججه فهي في أكثر الأحيان من عمله ، غير أن الكتاب في مجموعه جدير بأن يعتبر عملاً رائعاً ، اتمه صاحبه في قوة ومهارة .

بالمعجزات التي لا حصر لها التي صنعتها بقايا القديس اسطفان في أفريقيا ، وهذه الرواية العجيبة يشتمل عليها المؤلف الرائع « مدينة الرب » الذي وضعه أوجستين أسقف هبو Hippo لكي يكون دليلا ثابتا خالدا على حقيقة المسيحية . ويعلن أوجستين في كثير من الجدية أنه لم ينتق إلا المعجزات التي اعترف بها علنا أولئك الذين كانوا موضوع قدرة الشهيد ، أو الذين كانوا شهود تلك القدرة . وقد نسي الكثير وحذف الكثير من الأعمال المعجزة ، كما أن مدينة هبو كان حظها من المعجزات أقل من حظ مدائن الولاية الأخرى ، ومع ذلك فإن الأسقف يعد أكثر من سبعين معجزة ، ثلاث منها بعث من الموت ، في غضون سنتين ، وفي حدود أسقفيته وحدها (١) فإذا اتسع مدى أبصارنا بحيث يشمل كل أسقفيات العالم المسيحي ، وكل القديسين ، فلن يكون من السهل علينا أن نحصى كل الخزعبلات وكل الأخطاء التي خرجت من هذا المصدر الذي لا ينضب معينه . غير أنه لا بد أن يسمح لنا بأن نلاحظ أن المعجزة ، في ذلك العصر الذي عرف بالخرافة والتصديق ، فقدت اسمها ومزيتها ، حيث لا يكاد يكون ممكنا أن تعتبر انحرافا عن قوانين الطبيعة العادية القائمة .

٣ - كانت قبور الشهداء هي المسرح الدائم للمعجزات التي تفوق الحصر . ولقد كشفت تلك المعجزات للمؤمن التقى عن الحالة الفعلية والتكوين الفعلي للعالم غير المنظور وبدا له أن تأملاته الدينية قائمة على أساس متين من الحقيقة والتجربة . فمهما كان من أمر الأرواح العادية في الفترة الطويلة التي تنقضي بين تحلل أجسادها وبين بعثها ، فقد كان من الواضح أن الأرواح الأكثر سموا ، أرواح القديسين والشهداء ، لا تستنفد تلك الفترة من جودها في نوم صامت خامل . وكان من الجلي (دون التجرؤ على تحديد مئواها أو طبيعة سعادتها) أنها تستمتع بما لديها من وعى نابض نشيط بسعادتها وبفضيلتها ، وبقدراتها ، وبأنها قد استحوذت على جزائها الأبدى . أما اتساع ملكاتها العقلية فانه يفوق مقاييس الخيال البشري ، حيث ثبت بالتجربة أنها تستطيع أن تسمع وتذكر تضمرات العديدين من أنصارها الذين يستعيذون باسم اسطفان أو مارتن ويلتمسون عونهما ، في نفس اللحظة من الزمن ، وفي أقصى أنحاء الدنيا . وكانت ثقة هؤلاء المنصرعين قائمة على اقتناعهم بأن القديسين ، الذين يحكمون مع

(١) انظر كتاب « مدينة الرب » تأليف أوجستين . الجزء الاول . الفصل ٢٢ . والملحق . وهو يحتوي على كتابين عن معجزات القديس اسطفان من وضع افوديوس أسقف يوزاليس . وقد احتفظ فريكلوفوس بمثل أسباني أو غالي ، يقول : « ان من يدعي أنه قرأ كل معجزات القديس اسطفان ، فهو كاذب » .

المسيح ، ينظرون بعين الشفقة الى الأرض ، وأنهم يهتمون اهتماما حارا بازدهار الكنيسة الكاثوليكية ، وأن الأفراد الذين يحذون حذوهم في ايمانهم وتقواهم هم في موضع الحظوة الخاصة من أرق ألوان حذبهم وعطفهم . وفي الحق أن صداقتهم كانت تتأثر أحيانا باعتبارات أقل سموا: فيخسون بالحب تلك الأماكن التي قدست بمولدهم فيها ، أو باقامتهم ، أو بموتهم ، أو تلك التي دفنت فيها أجسادهم ، أو باقتناء آثارهم . أما ما هو أدنى من ذلك من أهواء كالكبرياء ، والطمع ، والانتقام ، فكلها أهواء تعتبر غير جديرة بضمير وخلق سماوى ، ومع ذلك فإن القديسين أنفسهم تفضلوا بإثبات استحسانهم وامتنانهم لسخاء أنصارهم ومريديهم ، كما كانوا ينزلون أقصى ضربات العقاب بأولئك الأشقياء الضالين الذين يندسون أضرحتهم ، أو الذين لا يؤمنون بقدرتهم الخارقة . وفي الحق أن جرم هؤلاء الناس لا بد أن يكون شنيعا ، وأن شكلهم لا بد أن يكون غريبا عجيبا ، إذا هم قاوموا في عناد أدلة الأداة السماوية التي كان يتحتم طاعتها على عناصر الطبيعة ، وعلى الخليقة الحيوانية بأكملها ، بل وعلى العمليات الغامضة الخفية التي تدور في العقل البشرى . ان النتائج المباشرة ، التي تكاد تكون تلقائية ، والتي كان مفروضا أنها تعقب الصلاة ، أو الاساءة أقنعت المسيحيين بما كان يتمتع به القديسون من حظوة وسلطان لدى إله الأسمى ، وكان يبدو أنه ليس هناك ما يدعو الى التساؤل عما إذا كان على القديسين بصورة مستمرة أن يتوسطوا لدى العرش الإلهي ، أو أنه كان مسموحا لهم بأن يمارسوا السلطات المخولة من الله لوزرائه الخاضعين له . ومن ثم فإن الخيال الذي ارتفع بجهد جهيد الى تأمل وعبادة خالق الكون ، اتخذ من دون الله أشخاصا يقدسهم ، واختار أولئك الذين هم أكثر تناسبا مع آرائه الفجة وملكاته الناقصة . وهكذا اعتور الفساد بالتدريج تلك الأفكار اللاهوتية السامية البسيطة التي كان يعتنقها المسيحيون الاولون . أما مملكة السماء ، التي أظلمتها الغوامض الميتافيزيقية من قبل ، فقد نال منها الآن ما استحدثت من أساطير شعبية رخيصة أصبحت تتجه الى إعادة عهد الشرك .

٤ - وعندما انحدرت أهداف الدين شيئا فشيئا الى مستوى تصور الناس وخيالهم أدخلت في العبادة تلك الشعائر والطقوس التي رثي أنها تؤثر أعظم التأثير في حواس الدهماء والعامه . ولو أتيح لراعى الكنيسة تزوتوليانوس أو لاكتانتىوس أن يبعث من الموت فجأة في أوائل القرن الخامس ، ليحضر احتفالا أقيم لقديس أو شهيد شعبي ، لنظر بعين الدهشة والسخط الى ذلك المشهد الدنس الذى حل مكان العبادة الظاهرة الروحية التي يقيمها جمهور المصلين المسيحيين ، ولا بد أن كان يزعجها ، بمجرد

فتح أبواب الكنيسة ، دخان البخور ، وعبير الزهور ، ولحان المصاييح والشموع التي ينبعث منها في منتصف النهار ضوء متلألئ لا لزوم له ، وينال ، في نظرهما ، من قدسية المكان . فإذا ما اقتربا من سور المذبح ، شقا طريقهما وسط جمهور منبطح على الأرض ، يتألف أكثره من غرباء وحجاج جاءوا الى المدينة في عشية العيد ، وبدءوا يحسون بنشوة الحماس الديني ، وربما نشوة الخمر . وكانوا يطبعون قبلاتهم الورعة على أسوار الهيكل المقدس وأرضيته ، ويتجهون بصلواتهم ، مهما كانت لغة كنيستهم الى عظام القديس ، أو الى دمه ، أو الى بقاياها التي جرت العادة على اخفائها عن عيون الدهماء وراء نقاب من الحرير أو التيسل . وكان المسيحيون يترددون على مقابر الشهداء ، بأمل الحصول ، عن طريق شفاعتهم القوية ، على كل نوع من أنواع النعم الروحية ، والنعم الدنيوية على الأخص . فكانوا يلتمسون دوام صحتهم ، أو شفاء عائلهم ، أو زوال عقم زوجاتهم ، أو سلامة أبنائهم وسعادتهم . وعندما كانوا يعتزمون القيام برحلة بعيدة أو خطيرة ، كانوا يلتمسون من الشهداء المقدسين أن يكونوا أدلاءهم وحماهم في الطريق . فإذا ما عادوا دون أن يمسه سوء ، سارعوا مرة ثانية الى قبور الشهداء للتعبير ، بصلوات الشكر والامتنان ، عما يدينون به من فضل لذكرى هؤلاء الأرياء السماويين وبقاياهم . وكانت الجدران مليئة بما يعلق عليها من رموز ترمز الى ما حصلوا عليه من أفضال ، فكنت ترى العيون ، والأيدي ، والأقدام ، المصنوعة من الذهب والفضة ، وكنت ترى صورا دينية لم تستطع الحفاظ على رونقها طويلا من جراء ما ناله منها التعبد الوثني الطائش ، وهي صور تمثل شخص القديس الولي ، وسجاياء ومعجزاته . ولا شك في أن هذه الروح نفسها ، روح الخرافة المتأصلة قد نوحث ، في أقدم العصور ، وفي أبعد البلاد ، بنفس الأساليب التي استخدمت الآن لخداع سذاجة الناس ، وللتأثير على حواسهم . غير أنه ينبغي علينا أن نعرف في صراحة بأن قساوسة الكنيسة الكاثوليكية تقلدوا الأنموذج المدنس الذي كانوا يتلهفون على تدميره . وبلغ الحال بأعظم الأساقفة احتراما الى أنهم أقتعوا أنفسهم بأن الدهماء الجهلاء سوف ينبذون في سرور خرافات الوثنية اذا ما وجدوا في قلب المسيحية ما يشبه تلك الخرافات ، أو ما يعوض عنها . وهكذا ترى أن ديانة قسطنطين قد حققت ، في أقل من قرن واحد ، انتصارا كاملا نهائيا عن الامبراطورية الرومانية ، غير أن الغزاة أنفسهم خضعوا دون أن يحسوا الى فنون منافسيهم المقهورين .

بعد وفاة ثيودوسيوس انفصل نصف الامبراطورية الشرقى نهائيا
عن نصفها الغربى واستقل ابنه اركاديوس بحكم الشرق ، كما استقل
اونوريوس بحكم الغرب . وكان اونوريوس شخصية ضعيفة ، فكانت
السيطرة فى الغرب لوزيره روفينوس ، ولشخص آخر اسمه ستيلكو
Stilicho وهو وندالى يجمع بين كفاية القائد وقدرة المفاوض . وكان
دوره كمفاوض دورا غامضا ، اما حملاته العسكرية فقد اعترضها الثغور
المتزايد بين الشرق والغرب .

وفى الفترة التى انقضت بين سنة ٣٩٥ وسنة ٣٩٨ ، غزا القوط
بقيادة الاريك بلاد اليونان ، وكادوا يعزلون فى شبه جزيرة البلوبونيز .
غير ان الاريك انتشل نفسه بفضل تواطؤ ستيلكو ، وعقد اتفاقا سريا مع
الحكومة الشرقية ، وعين قائدا اعلى لجيوش الليريا الشرقية ، ونصب ملكا
للقوط الغربيين . ثم هاجم الاريك ايطاليا ، ولكنه رد عنها ، واحتفل
اونوريوس بالنصر فى روما ، ثم اقام فى رافنا . وفى سنة ٤٠٦ غزا
راداجيسوس Radagaisus ايطاليا ، وتحطم جيشه على يد ستيلكو
الذى بدأ مفاوضات مع الاريك ، غير انه قتل نتيجة دسيسة دبرت ضده
فى القصر .

(كل هذه الاحداث يصفها جيبون فى الفصل
التاسع والعشرين وفى الفصل الثلاثين) .

الغزوات الكبرى

الفصل الحادى والثلاثون

(٤٠٨ - ٤١٠)

الاريك يغزو ايطاليا • اخلاق نبلاء روما وشعبها • حصار
حصار روما ثلاث مرات ونهبها • تقهقر القوط وموت
الاريك •

ان عجز الحكومة الضعيفة اللاهية كثيرا ما يبدو كأنه اتصال غادر
بعده البلاد ، كما أنه يؤدى الى النتائج نفسها • ولو أن الاريك نفسه
اشترك فى مجلس رافنا ، لكان من المحتمل أن ينصح باتخاذ نفس
الاجراءات التى اتخذها فعلا وزراء أونوريوس ، ولكان من الجائز أيضا أن
يتأمر ، على غير رغبة منه ، على تدمير خصمه القوى الذى هزمته جيوشه
مرتين ، مرة فى ايطاليا ، وأخرى فى اليونان • فلقد عمل هؤلاء الوزراء
جاهدين بدافع من الكراهية العنيفة التى كانوا يضمرونها لشخص
ستيلكو العظيم ، وبخاف من مصلحتهم ، على الحاق العار والدمار بذلك
الرجل • ولم يستطع ساروس Sarus وقدرته الحربية ، ونفوذه
الشخصى أو الوراثى على البرابرة المتحالفين ، لم تستطع هذه كلها أن
تجعل له قيمة الا فى نظر المخلصين لبلدهم الذين كانوا يحتقرون ،
أو يكرهون شخصيات توربيليو Turpilio وفارانيس Varanes
وفيجيلانتىوس Vigilantius وكلهم شخصيات تافهة لا قيمة لها •
رقد ترتب على الحاح هؤلاء المحظوظين الجدد ، وهم قواد أثبتوا أنهم غير
جديرين باسم الجنود ، أن ارتقوا الى قيادة الفرسان ، والمشاة والقوات
الوطنية • وكان يمكن أيضا أن يوقع الأمير القوطى فى سرور على الرسوم
الذى أملاه تعصب أوليمبيوس على الامبراطور الساذج الورع • فقد أبعد
أونوريوس كل معارضى الكنيسة الكاثوليكية عن تقلد أى منصب فى

الدولة ، ورفض في عناد خدمات كل من انشقوا عن دينه ، وجرد في تهور كثيرا من أشجع وأمر الضباط الذين تمسكوا بالعبادة الوثنية أو الذين اعتنقوا الآراء الآريوسية . كل هذه الاجراءات ، وما أعظم نفعها للعدو ، كان من الجائز أن يوافق عليها الأريك ، بل كان من المحتمل أن يقترحها غير أنه يبدو من الأمور المشكوك فيها أن البربري الأريك كان يقبل أن يحقق مصلحته بأعمال القسوة الوحشية الحماة التي اقترفت بتوجيه وزراء الامبراطور ، أو على الأقل بفضل تفاضليهم . ولقد حزن لموت ستيلاكو أفراد القوات الأجنبية الذين كانوا تابعين له ، غير أن رغبتهم في الانتقام كبتهما في صدورهم خوفهم الطبيعي على سلامة زوجاتهم وأطفالهم ، الذين احتجزوا كرهائن في مدائن ايطاليا القوية حيث احتفظوا أيضا بأثنين مقتنياتهم . ولقد حدث في وقت واحد وكما لو كان ذلك بإشارة مشتركة ، أن تلوئت مدن ايطاليا بنفس المشاهد التي راح ضحيتها دون تمييز أسرات البرابرة ، ومشاهد النهب العام الذي تناول ثرواتهم وممتلكاتهم . وازداد حنقهم لهذه الاساءة البالغة ، التي كانت كفيلة بإثارة أسلس النفوس قيادا وأشدّها خضوعا وذلة ، فنظروا نظرة غضب وأمل الى معسكر الأريك ، وأقسموا قسما اجماعيا على أن يشنوا حربا عادلة لا هوانة فيها على الأمة الفادرة التي حطمت مبادئ الضيافة بمثل هذه الحقارة . وبهذا المسلك الطائش الذي سلكه وزراء أونوريوس فقدت البلاد مساعنة ثلاثين ألفا من أشجع جنودها ، واستنحقت عداوتهم وتحول ثقل هذا الجيش الهائل من جانب الرومان الى جانب القوط ، رغم أنه كان هو وحده الكفيل بتقرير مصير الحرب .

وقد احتفظ الملك القوطي ، في فنون المفاوضة ، وفي فنون الحرب سواء بسواء ، بتفوقه الكبير على عدو كانت تقلباته البادية للبيان تعود الى افتقاره الكامل الى المشورة والتخطيط ، وكان الأريك يرقب في انتباه ، عن مصكره على حدود ايطاليا ، ثورات القصر ، ويلاحظ سير الحزبية والتدمير ، ويخفي المظهر العدواني ، مظهر الفاتح البربري ، ويبدو في مظهر شعبي ، مظهر الصديق والحليف للقائد ستيلاكو العظيم ، الذي يستطيع الآن أن يوفيه ما تستحقه صفاته من مديح صادق ، بعد أن زالت خطورتها ، وأن يأسف على ضياعها ، وتلقي ملك القوط من المتذمرين دعوة ملحّة نحضه على غزو ايطاليا ، وعزز هذه الدعوة احساسه الحاد المرهف بالاساءات التي لحقت بشخصه ، وهو يستطيع أيضا أن يصطنع الشكوى من أن وزراء الامبراطور ما زالوا يماطلون ويسوفون في دفع أربعة آلاف من الأبطال الذهبية التي وافق على منحها له السناتو الروماني مكافأة على خدماته ، أو تهديّة لثورته . ولقد أبدى اعتدالا ماكرًا عزز موقفه الحازم

المهذب ، وأسهم فى نجاح خططه . ذلك أنه طلب ترضية عادلة معقولة ، ولكنه قدم أقوى التأكيدات بأنه سوف ينسحب على الفور بمجرد الحصول عليها ، ورفض أن يثق فى كلمة الرومان الا اذا أرسلوا الى معسكره ايتيوس وجاسون وهما ابنان لاثنين من كبار موظفى الدولة ، كرهائن حرب ، وأبدى استعداداه لتسليم عدد من أنبل شبان القوط فى مقابل ذلك . وفسر وزراء رافنا هذا التواضع من جانب الأريك بأنه دليل أكيد على ضعفه وخوفه . ورفضوا فى أنفة أن يتفاوضوا على عقد معاهدة ، أو أن يجمعوا جيشا ، وترتب على هذه الثقة الطائشة ، التى كانت وليدة جهلهم بالخاطر الهائل ، أنهم ضيعوا اللحظات الحاسمة فى مصير السلم والحرب . بينما كانوا يتوقعون فى صحت كتيب أن يجلو البرابرة عن حدود ايطاليا ، عبر الأريك جبال الألب ونهر البو فى مسيرة جريئة سريعة ، واستولى بصورة عاجلة على مدائن أكويليا والتينوم وكونكورديا وكويمونا ، التى استسلمت جميعها الى جيوشه ، وتضاعفت قواته بدخول ثلاثين ألف جندي من القوات الأجنبية . ودون أن يلقي عدوا واحدا فى الميدان ، تقدم الى حافة المستنقع الذى كان يحى المقر المنيح لامبراطور الغرب . وبدلا من أن يحاول قائد القوط الحصيف محاصرة مدينة رافنا دون جدوى ، سار نحو مدينة ريمنى ، مجتاحا شاطئ البحر الأدرياتي ، وأخذ يدبر لغزو سيدة العالم القديمة ، وقابل الملك المنتصر فى طريقه ناسسكا ايطاليا كانت غيrote وقدسيته موضع احترام البرابرة أنفسهم ، وأقصح الناسك فى جراءة عن سحق النساء على الظالمين فى الأرض . غير أن القديس نفسه أرتج عليه الأمر عندما أكد له الأريك أنه يشعر بقوة غامضة خارقة تدفعه ، وتوجهه ، بل وترغمه على السير نحو أبواب روما . وأحس الأريك أن عبقريته وحظه يؤهلانه لأشق المشاريع ، كما أن الجساس الذى بثه فى القوط أزال عن صدورهم ، دون أن يحسوا ، ما كانت تشعر به الأمم من احترام شائع يكاد يصل الى درجة الخرافة ، نحو جلال الاسم الرومانى : وسارت قواته فى طريق فلامينا ، تلهب حماسها أعمال الغنائم ، واحتلت ممرات الابنين (١) التى تركت دون حراسة ، ثم نزلت الى سهول أمبريا Umbria الغنية ، وعسكرت على شواطئ نهر كليتومنوس Clitumnus واخذت تذيب وتلتهم بلا حساب تلك الشراى الناصعة البياض التى ظلت مدخرة تلك الفترة الطويلة لانتصارات الرومان . ولم تسقط مدينة نارنى الصغيرة بفضل ارتفاع موقعها ، وبفضل غاصفة رعد وبرق هبت فى

(١) أورد اديسون وصفا رائعا للطريق الذى يخترق جبال الابنين . ولم يكن لدى القوط وقت لمشاهدة جمال المنظر ، غير أنه سرهم أن يجدوا أن ممر ماسكيا انترسيسا ، وهو ممر ضيق نحتة فسبازيان فى الصخر ، كان مهما كل الاعمال .

الوقت المناسب ، غير أن ملك القوط لم يأبه بتلك الفريسة الحقيرة ، وواصل تقدمه دون هوادة ، وبعد أن اخترق الاقواس الفخمة المزينة بأسلاب الانصارات الهمجية ضرب خيام معسكره تحت أسوار روما .

ولم يحدث من قبل خلال فترة ستمائة وتسعة عشر عاما أن طرق عدو أجنبي أبواب عاصمة الامبراطورية . فالحملة الفاشلة التي شنّها هانيبال لم يترتب عليها سوى أنها أظهرت طابع السناتو وطابع الشعب ، السناتو الذي يسيء اليه أكثر مما يشرفه أن يقارن بجمعية من الملوك ، والشعب الذي نسب اليه سفير الملك بيروس Pyrrhus (ملك ابيروس ٣١٨ - ٢٧٢ ق.م) أنه يملك موارد لا ينضب معينها كوحش الهيدرا المائي (وحش ذو رؤوس كثيرة ينمو غيرها إذا قطعت) . وكان كل عضو في السناتو في وقت الحرب البونية قد أتم مدة خدمته العسكرية ، سواء في منصب صغير أو كبير ، ثم صدر مرسوم بمنح قيادة مؤقتة لكل من كانوا يشغلون منصب قنصل أو مراقب Censor أو حاكم فوق العادة ، وبهذا كسبت الدولة على الفور مساعدة الكثيرين من القواد الشجعان المحنكين . وفي بدء الحرب كان الشعب الروماني يتألف من ربع مليون من المواطنين تسمح لهم أعمالهم بحمل السلاح . وكان قد مات خمسون ألف رجل منهم في الدفاع عن البلاد ، وكانت الفيالق الثلاثة والعشرون المستخدمة في مختلف معسكرات إيطاليا ، واليونان ، وسردينيا ، وصقلية ، وأسبانيا في حاجة الى ما يقرب من مائة ألف رجل . وكان لا يزال في روما والاقليم المجاور عدد مماثل يلتهب بالشجاعة الجريئة نفسها ، وكان كل مواطن يتدرب من باكورة شبابه على نظام الجندية وتماريناتها . ولقد دهش هانيبال لثبات السناتو الذي انتظر مجيئه دون أن يحاول رفع الحصار عن كابوا Capua ، أو استدعاء القوات المبعثرة . فعسكر على شواطئ نهر انيو Onio ، على بعد ثلاثة أميال من المدينة ، وسرعان ما بلغه أن الأرض التي ضرب عليها خيمته قد بيعت لقاء ثمن مناسب في مزاد علني ، وأن فرقة من الجنود قد أرسلت في طريق عكسي لتعزيز فيالق أسبانيا . ففقد قواته الأفريقية الى أبواب روما ، حيث وجد ثلاثة جيوش في حالة استعداد للمعركة تتأهب للقائه . غير أن هانيبال تهيّب قتالا لا يأمل في الافلات منه الا اذا قضى على آخر جندي من أعدائه وكان تقهقره السريع دليلا على شجاعة الرومان التي لا تقهر .

اخلاق نبلاء الرومان

منذ وقت الحرب البونية حافظت الأجيال المتصلة من أعضاء السناتو على اسم الدولة الرومانية وطابعها ، وكان رعايا أونوريوس الذين أصابهم

الفساد والانحلال يفخرون بأن أصولهم ترجع الى الابطال الذين ردوا جيوش هانيبال على أعقابها وأخضعوا أمم الأرض . ويجمل لنا شيخ الكنيسة جيروم في كثير من العناية تلك الأمجاد الدنيوية التي ورثتها وازدرتها الامبراطورة الورعة بولا Paula ، وكان جيروم مرشدا لضميرها ومؤرخا لحياتها . وكان نسب أبيها ، روجاتوس ، يرتفع الى الملك أجاممنون . الأمر الذي يبدو أنه ينم عن أصل يوناني ، غير أن أمها بلاسيللا Blaesilla كانت تعد في قائمة أجدادها أسرات سكيبيو ، امبليوس بولوس ، وجراتشي ، أما توكسوتيوس ، زوج بولا ، فقد انحدر عرقه الملكي من اينياس Aeneas جد الفرع الجولياني . كل هذه الدعاوى الشامخة كانت تشبع غرور الأغنياء الراغبين في أن يكونوا من طبقة النبلاء . وسهل على هؤلاء أن يخدعوا سذاجة الدهماء من الناس ، يشجعهم على ذلك نرحيب من كانوا يعيشون عائلة عليهم ، ويؤيدهم الى حد ما ما درجوا عليه من انتحالهم أسماء أولياء نعمتهم ، وهي عادة كانت سائدة دائما بين العتقاء وأتباع الأسر الشهيرة . الا أن أغلب تلك الأسرات اندثرت شيئا فشيئا بفعل الكثير من عوامل العنف الخارجي أو الاضمحلال الداخلي . وأصبح من الأيسر أن تبحث عن تسلسل نسب عشرين جيلا من جبال الألب أو في اقليم أبوليا Apulia الهادئ المنعزل عن أن تبحث عنه في صعيد روما ، مركز الثراء ، والخطر ، والثورات الدائمة . ففي كل عهود الحكم المتعاقبة ، ومن كل ولاية من ولايات الامبراطورية ، كانت تجيء جماعات من المغامرين الأشداء الذين ارتفعوا الى المجد بفضل مواهبهم أو نقائصهم ، وتغتصب ثروة روما ، ومناصبها وقصورها ، وتضطهد أو ترعى البقايا الفقيرة الذليلة من أسرات القناصل ، وربما كانت هذه البقايا لا تدري شيئا عن مجد أجدادها .

وفي عصر جيروم وكلوديان كان جميع أعضاء السناتو يسلمون بسمو أسرة أنيكيوس ، وان نظرة بسيطة الى تاريخهم لكفيلة بتقدير مقام وعراقة الأسرات النبيلة التي كانت تتنازع على المكان الثاني بعد هذه الأسرة ولا تتناول إليها . وخلال العصور الخمسة الأولى لمدينة روما لم يكن اسم أسرة أنيكيوس معروفا . ويبدو أنها استمدت أصولها من برانست Praeneste ، وأشبع هؤلاء المواطنون الجدد طموحهم فترة طويلة بمناصب صغيرة هي مناصب التربيون (المدافعون عن حقوق الشعب) وقبل العهد المسيحي بمائة وثمان وستين سنة تشرفت الأسرة باختيار أنيكيوس لمنصب البريتور ، واستطاع هذا الرجل إنهاء الحرب الليرية بصورة مجيدة وذلك بقهر أمة الليريا وأسر ملكها . ومنذ أن انتصر ذلك القائله تولى ثلاثة ممن يحملون اسم هذه الأسرة منصب القنصلية في عهود بعيدة . ومنذ عهد دقلديانوس الى زوال الامبراطورية

الغربية كان اسم هذه الأسرة يلمع لمعانا لم يحجب في تقدير الشعب جلال الرداء الامبراطورى ، وجمعت الفروع العديدة التى كانت متصلة بها ، عن طريق الزواج أو الميراث ، بين ثروة وألقاب أسرات أنيوس وبترونيوس وأنيوس وأوليبيريوس . وفى كل جيل من الأجيال كان عدد الشياغلين لمنصب القنصلية يتضاعف بحق الارث ، وسمت أسرة أنيكيوس فى ايمانها ، وازداد ثراؤها ، وكانت أول أسرة فى السناتو الرومانى تعتنق المسيحية ، ومن المحتمل أن أنيكيوس جوليان الذى أصبح بعد ذلك قنصلا وحاكما للمدينة ، كفر عن اتصاله بحزب مكسينتيوس بسرعة تقبله للديانة المسيحية . وازداد ثراؤهم الوفير بفضل مجهود بروبوس *Probus* عميد الأسرة ، الذى شارك جراثييان شرف القنصلية ، وتولى أربع مرات منصبا رفيعا هو منصب الحاكم البريتورى . وكانت أملاكه التاسعة مبعثرة فى كل العالم الرومانى ، ورغم أن الشعب قد يشك فى الأساليب التى حصل بها على هذه الأملاك ، أو لا يحبذها ، إلا أن عظمة ذلك السياسى المحظوظ ، وما كان يظهره من كرم ، أكسباه امتنان أتباعه وإعجاب الغرباء عنه ، وبلغ من احترام ذكرى ذلك الرجل أن ولديه ، وهما فى باكورة الشباب ، وبناء على طلب السناتو ، ألحقا بالسلك القنصل ، وهذا تشريف مشهود لا مثيل له فى سجلات تاريخ روما .

وكانت عبارة « رخام قصر أسرة أنيكيوس » تضرب مثلا للبخ والفاخرة ، غير أن نبلاء روما وأعضاء السناتو تطلعون ، درجة بعد درجة ، الى تقليد تلك الأسرة اللامعة . وفى الوصف الدقيق للمدينة الذى وضعه فى عهد ثيودوسيوس ، يوجد ألف وسبعمائة وثمانون من المنازل المعدة لاقامة المواطنين الاغنياء ذوى المكانة . وكثير من هذه القصور الفخمة قد يبرر مبالغة الشاعر الذى قال - ان روما تحتوى على عدد كبير من القصور ، وان كل قصر يعتبر مدينة بأكملها ، لأنه يضم داخل نطاقه كل شئ يمكن الانتفاع به أو استخدامه وسيلة من وسائل الترف ، كالأسواق وحلبات سباق الخيول والعربات ، والمعابد ، والنافورات ، والحمامات والأروقة ، والغسابات الظليلة ، وحظائر الطيور . ويكمل المؤرخ اليمبيودوروس *Olympiodorus* هذا الوصف ، فى تصويره لحالة روما عندما حاصرها القوط ، فيذكر أن كثيرا من أغنى أعضاء السناتو كانوا يحصلون من أملاكهم على دخل سنوى قدره أربعة آلاف رطل من الذهب أى أكثر من ستين ومائة ألف من الجنيئات الاسترلينية ، دون أن تدخل فى ذلك مؤن القمح والنبذ التى ، اذا بيعت ، لساوت قيمتها ثلث هذا المبلغ . وبالمقارنة الى هذه الثروة الزائدة عن الحدود ، فان دخلا عاديا قدره ألف رطل أو ألف وخمسمائة رطل من الذهب لا يعتبر أكثر مما يكفى لمقام منصب

السنااتو ، الذى كان يتطلب الكثير من النفقات المظهرية العامة . وهناك أمثلة كثيرة مسجلة فى عصر أونوريوس ، لنبلأ مغرورين معروفين كانوا يحتفلون بذكرى السنة التى تولوا فيها منصب البريتور باقامة حفل يدوم سبعة أيام ويكلفهم أكثر من مائة ألف من الجنيهات الاسترلينية . وكانت أملاك أعضاء السنااتو ، التى زادت الى هذا الحد عن الشراء فى العصور الحديثة ، غير محصورة داخل حدود ايطاليا ، بل امتدت فيما وراء بحر ايونيان وبحر ايجة الى أبعد الولايات . فكانت مدينة نيكوبوليس التى أسسها أغسطس لتكون أثرا خالدا لانتصاره فى اكتيوم ، ملكا للامبراطورة الورة بولا ويلاحظ سينيكا Seneca أن الأتهار التى كانت من قبل تفصل بين أمم متخاصمة متنازعة أصبحت الآن تجرى وسط أرض يملكها أفراد مواطنون . وكان الرومان ، وفق مزاجهم وظروفهم ، يكلفون أرقاءهم بزراعة أراضيهم ، أو يؤجرونها مقابل ايجار متفق عليه للفلاحين المجدين . ولقد حذ قدامى الكتاب الاقتصاديين اتباع الطريقة الأولى حيثما كانت طريقة عملية ، أما اذا كانت الأرض أبعد أو أكبر من أن تراها عين صاحبها ويشرف عليها اشرافا مباشرا ، فانهم يفضلون أن يعهد بالأرض لعناية مستأجر حريص يتوارث ايجارها ، ويرتبط بها ، ويهتم بانتاجها ، على أن يوكل أمر ادارتها الى وكيل مرتزق مهمل ، وقد يكون وكيلا خائنا .

وكان النبلاء المترفون الأثرياء فى تلك العاصمة الضخمة لا يشترهم مطلقا السعى الى المجد العسكرى ، وقلما كانوا يعملون فى وظائف الحكومة المدنية . فمن الطبيعى والحالة هذه أن يوجهوا فراغهم الى مشاغل الحياة الخاصة ومسررتها . وكانت التجارة فى روما تعتبر دائما من الأعمال المحترقة ، غير أن أعضاء السنااتو ، منذ أول عصور الدولة ، كانوا يزيدون أملاكهم الموروثة ويضاعفون مواليتهم بممارسة الربا المربح ، ويتهربون من القوانين العتيقة أو ينقضونها لأن أطراف العملية كانوا يميلون الى ذلك ويجدون فيه مصلحة متبادلة . ولابد أن روما كان بها قدر ضخم من المدخرات ، سواء من عملة الامبراطورية المتداولة أو فى صورة أوان ذهبية وفضية . وفى عصر بليني Pliny (عالم روماني) كان مخزون الفضة فى المنازل أكثر مما نقله القائد سكيبيو Scipio من قرطاجة المقهورة . ولقد بدد أكثر النبلاء ثرواتهم فى الترف المفرط ، ووجدوا أنفسهم فقراء وسط الثراء ، وتفهاء مهملين وسط حلقة دائمة من التهلك . وكان هؤلاء النبلاء يعتمدون فى اشباع رغباتهم على العمل الذى تقوم به آلاف الأيدي ، فهناك عدد كبير من الخدم الأرقاء الذين يعملون بدافع من خشية العقاب ، وهناك مختلف الصناع والتجار الذين يعملون بدافع أقوى ، هو الأمل فى الربح . ولا شك فى أن هؤلاء القدامى كانوا يفتقرون فى حياتهم الى الكثير

من وسائل الراحة التي أوجدها أو حسننها تقدم الصناعة ، فوفرة الزجاج والمنسوجات زودت أمم أوروبا الحديثة بوسائل الراحة الحقيقية أكثر مما كان أعضاء السناتو في روما يستمدونه من كل أنواع الترف المحسى أو أبهة المظهر (١) . ولقد كان ترفهم وعاداتهم موضوع بحث دقيق جهيد ، غير أن الخوض في هذه البحوث من شأنه أن يبعدني كثيرا عن الغرض من هذا المؤلف ، ومن ثم فاني سوف أورد وصفا صادقا صحيحا من وسائل الراحة التي أوجدها أو حسننها تقدم الصناعة ، فوفرة الزجاج القوطي ، كتبه اميانوس ماركلينوس Amianus Marcellinus الذي حرص على اختيار عاصمة الامبراطورية مقاما أكثر ما يكون ملائمة لمؤرخ يكتب عن العصر الذي عاش فيه . ولقد مزج هذا المؤرخ رواية الأحداث العامة بتصوير حي للمشاهد التي كانت مألوفة لديه . ولا شك في أن القارئ الحصيف سوف لا يرضى دائما عن حدة المؤرخ في النقد واللوم ، أو عن اختياره للملابسات والظروف ، أو عن أسلوب تعبيره . وربما استشف تحيزاته الكامنة ، وحنقه الشفهي ، وكلها أمور نفتت المرارة في صدر اميانوس نفسه . غير أنه من المؤكد أن القارئ سوف يلاحظ في رغبة استطلاع فلسفية ، صورة شائقة أصيلة لما كانت عليه أساليب الحياة في روما (٢) .

د لقد قامت عظمة روما (هذه هي لغة المؤرخ) على ارتباط نادر لا يكاد يصدق بين الفضيلة والثراء . وكانت الفترة الطويلة من طفولتها كفاحا جهيدا شاقا ضد قبائل ايطاليا ، وجيران المدينة الناشئة وأعدائها . وفي قوة وخماسة الشباب قاومت عواصف الحرب ، وسيرت جيوشها الظافرة الى ما وراء البحار والجبال ، وجاءت الى الوطن بأكاليل النصر من كل بلد من بلدان الأرض ، وفي نهاية المطاف ، عندما بلغت من العمر عتيا ، وأصبحت في بعض الأحيان لا تقوى على الغزو الا بفضل رهبة سمعتها ، حينذاك سعت الى نعيم الراحة والهدوء . وكنت ترى المدينة الوقور ، التي روضت أعناق أشد الأمم ضراوة ، وسنت القوانين لحماية العدالة والحرية حماية دائمة ، كنت تراها وقد قنعت ، كالوالد الثرى العاقل بأن تعهد الى أبنائها المفضلين من القياصرة بحكم ميراثها الكبير .

(١) يلاحظ العلامة Arbuthnot في شيء من الدعابة ، واعتقد انه كان صادقا ان أغسطس كانت نوافذ قصره خلوا من الزجاج ، وأن ظهره كان دون قميص . وفي عهد الامبراطورية الجنوبية أصبح الزجاج والقماش أكثر شيوعا .

(٢) لا بد لي من أن أفسر التصرف الذي تصرفته ليما يختص بالفصل الذي كتبه اميانوس : (انظر هامش الصحيفة التالية) .

وجاءت فترة هدوء وطيد عميق ، كذلك التي استمتعت بها مرة في عهد الامبراطور نوما Numa وفي أعقاب اضطرابات عهد الجمهورية ، بينما ظلت روما موضع الإعجاب والجلال كملكة الدنيا ، كما ظلت الأمم الخاضعة لها تقديس اسم شعبها وجلال السناتو . غير أن هذه العظمة الوطنية (يستطرد أميانوس) انما يلوئها ويحط من شأنها منسلك بعض النبلاء الذين لا يراعون كرامتهم وكرامة بلادهم ، وينغمسون في الرذيلة والحماسة دون حدود أو قيود ، ويتنازعون على الرتب والألقاب أرضاء لغرورهم الأجوف . ومن عجب أنهم ينتقون أو يبتكرون أرفع الأسماء وأعلاما رئيسا - ريبوروس أو فايونيوس ، ياجونيوس أو تاراسيوس - وكلها أسماء تؤثر في آذان الدهماء وتنزع دهشتهم واحترامهم . واستبد بهم الطمع المغرور في تخليد ذكراهم ، فتراهم يعمدون إلى الاكثار من صورهم مجسمة في تماثيل من البرونز والرخام ولا يشعرون بالرضا حتى تغطي تلك التماثيل بالذهب ، وهو امتياز كريم منح أول ما منح إلى القنصل اكيلوس Acilius بعد أن قهر بجيوشه ونصائحه سلطان ملك أنطاكيا . وإن مباهااتهم المظهرية بالأموال التي تفيض عليهم من إيجار الأراضي التي يملكونها في كل الولايات ، أو قل مباغتتهم في التفاخر بهذا الثراء ، من شروق الشمس إلى غروبها ، انما تثير سخط كل إنسان يذكر أن أجدادهم الفقراء الذين لم يقهرهم أحد ، لم يتميزوا عن أحقر الجنود بطعامهم الشهى أو فخامة ملابسهم . غير أن النبلاء الحديثين يقيسون قدرهم وأهميتهم بفخامة عرباتهم (١) . وروعة ملابسهم . فأرديتهم الطويلة الحريرية الحمراء تهتف في الهواء وعندما تتطاير بمحض

= (١) أدمجت في قطعة واحدة الفصل السادس من الكتاب الرابع عشر ، والفصل الرابع من الكتاب الثامن والعشرين .

(٢) نظمت المادة الموهشة وأوجدت ارتباطا بين أجزائها .

(٣) خففت بعض المغالة المبالغ فيها وحذفت بعض ما لا لزوم له في الأصل .

(٤) أبرزت بعض الملاحظات التي ذكرت ضمنا لا صراحة .

وبهذا التصرف تكون الترجمة بعيدة عن الحرفية ، ولكنها آمنة دقيقة .

(١) كانت عربات الرومان تصنع في العادة من الفضة الخالصة ، وتنقش وتحفر بصورة عجيبة واستمر هذا البذخ من عهد نيرون إلى عهد أونوريوس وكان طريق أبيبا مليئا بالعربات الفخمة بالنبلاء الذين جاءوا لمقابلة القديسة ملانيا St. Melania عندما عادت إلى روما بعد حصار القوط بست سنوات .

غير أن الراحة قد أخذت الآن مكان الفخامة ، والعربة البسيطة الحديثة القائمة على (الست) أحسن بكثير من العربات القديمة التي كانت تسير على عجلات خشبية ، وكانت معرضة في أكثر الأحيان لقسوة الطقس .

الصدفة أو يفعلون تطايرها ، تبدو من تحتها بين الحين والحين ملابسهم الداخلية ، وهي قصان فاخرة مزركشة برسوم مختلف حيوانات (١) . وهم يركبون عرباتهم وخلفهم حاشية من خمسين خادما يدفون الأرض ويسفرون في الطرقات بسرعة عنيفة كما لو كانوا يركبون خيول البريد . وتحدو السيدات حذو أعضاء السيناتو ، فعربانهن المعلقة تجوب الرفعة الفسيحة التي تضم المدينة وضواحيها ، بصورة مستمرة . وكلما تنازل هؤلاء الأشخاص المرموقون بزيارة الحمامات العامة ، فانهم يتخذون لأنفسهم مظهر الأمرين السليصين ، ويخصون أنفسهم بوسائل الراحة المخصصة للشعب الروماني . وإذا قابلوا في هذه الأماكن العامة التي يختلط فيها الجميع أيا من خدام ملذاتهم ذوى السمعة السيئة ، فانهم يعبرون عن مودتهم بعناق رقيق ، بينما يعرضون في أنفة وكبرياء عن نحيات رفاقهم المواطنين الذين لا يسمح لهم بالتطلع الى أكثر من التشرف بتقبيل أياديهم أو أرجلهم ، وما أن ينتهوا من استمتاعهم بالحمام المنعش حتى يعاودوا التحلى بخواتمهم ويكل مظاهر عظمتهم وينتقون من خزانة ثيابهم الخاصة المليئة بأجمل الملابس التي تكفي اثني عشر شخصا ما يلائم مزاجهم من أردية ، ويحتفظون حتى رحيلهم بذلك المسلك المتعالي الذي ربما كان يمكن أن يعذر عليه ماركيللوس العظيم بعد غزو سيراكيوز . وفي الحق أن هؤلاء الأبطال يقومون بمنجزات أكثر مشقة ، فيزورون أملاكهم في إيطاليا ، ويوفرون لأنفسهم ملذات الصيد بفضل جهد اتباعهم الأذلاء . وإذا حدث في أي وقت من الأوقات ، وخاصة إذا كان اليوم حارا ، أن وجدوا في أنفسهم شجاعة على التنزه في زوارقهم المزركشة من بحيرة لوكرين Lucrine الى (دورهم) الأنيقة على شاطئ بوتيوولي وشاطئ كايثا ، فانهم يقارنون رحلاتهم هذه بمسيرة قيصر أو مسيرة الاسكندر . ولكن إذا تجاسرت ذبابة على الوقوف على طيات مظللتهم الحريرية المذهبة ، أو إذا نفذ اليهم شعاع خلال فتحة في المظلة لا تكاد تدرك ، تركت دون حراسة ، فانهم يندبون محنتهم التي لا تحتمل ، ويقولون في عبارات حزينة مصطنعة أنهم لم يولموا في بلاد الكميرياي (٢) ، بلاد الظلام الأبدي . وفي هذه الرحلات الى الريف يسير حشم البيت

(١) من عظة من عظات إستيريوين ، أسقف أياسيا ، اكتشف M. de Valois أن ذلك كان طرازا جنيدا ، وأن البنية ، والذئب ، والأسود والنمور ، والغايات ، ومباريات الصيد وغيرها كانت تصور بالطريز ، أما المختالون الأكثر ورعا فانهم كانوا يرسفون على ثيابهم صورة قبيح مفضل لديهم ، أو قصته .

(٢) باللاتينية Cimmerici سمى أسطوري قال عنه الشاعر هوميروس انه يقطن مملكة نائية يحيط بها الظلام والضباب - (الترجمة) .

جميعهم مع سيدهم . وكما أن الفرسان والمشاة ، والقوات المسلحة الخفيفة والثقيلة ، وحرس الطليعة والمؤخرة ، تنظمهم مهارة قوادهم العسكرية ، فإن موظفى القصر الذين يحملون عصيا تظهر سلطانهم ، يوزعون ويرتبون العدد الكبير من العبيد والأتباع . وتحمل الأمتعة وخزانة الثياب فى المقدمة ، ثم يجرى بعد ذلك عدد كبير من الطهاة والخدم الأدنى مرتبة الذين يعملون فى خدمة المطابخ والمائدة . أما الجزء الرئيسى من الموكب فانه يتألف من جمهور خليط من العبيد ، يزداد عدده بمن يحتشد معهم مصادفة من الدهماء المتسكعين أو الأتباع . وتسير فى المؤخرة زمرة من الخصيان ، كبار السن أولا ، ثم الشباب ، وفق نظام الأقدمية . وتثير أعدادهم وأشكالهم المشوهة فزع المتفرجين الساخطين الذين يلعنون ذكرى سميراميس التى ابتكرت ذلك الفن القاسى لهدم أغراض الطبيعة والقضاء على آمال الأجيال المستخدمة وهى لا تزال فى شبابها . وفى ممارسة سلطتهم القضائية على خدم الدار وعمالها فإن نبلاء روما يعبرون عن حساسيتهم الشديدة لكل اساءة تلحق بأشخاصهم ، وعن احتقارهم لبقية النوع الانسانى وعدم اكتراثهم به . فاذا طلبوا ماء دافئا ، وتأخر العبد فى تلبية الأمر ، فانه يعاقب بالجلد على الفور ثلاثمائة سوط .

غير أن العبد نفسه ، اذا ارتكب جريمة قتل متعمدة فان سيده يقول فى رقة انه عبد حقير ، وانه اذا ارتكب الجرم مرة ثانية فلن ينجو من العقاب . ولقد كان كرم الضيافة فيما مضى فضيلة الرومان ، وكان كرمهم يمتد الى كل غريب يظهر مزية فيكافئونه عليها ، أو يشكو من محنة ، فينقذونه منها . أما الآن ، فان الأجنبى ، الذى ربما كانت له مكانته ، اذا قدم الى أحد الأثرياء المتشامخين من أعضاء السناتو ، فانهم يرحبون به فى أول مقابلة بالعبارات الحارة والاستفسارات الرقيقة التى تجعله يغادر المكان وقد سحرته بشاشة صديقه العظيم ، فياسف لأنه أخر طول ذلك الوقت رحلته الى روما موطن الأخلاق كما هى مقر الامبراطورية . فاذا ما اطمأن الى ما لقيه من استقبال مشجع لطيف ، عاود الزيارة فى اليوم التالى ، وعندئذ يخيب أمله اذا ما اكتشف أن اسمه وشخصه وبلده قد أصبحت فى زوايا النسيان ، واذا ظلّ مثابرا على الزيارة ، اعتبر على مر الأيام واحدا من الأتباع ، وأذن له بأن يمضى فى تودده العقيم لسيد شامخ الأنف لا يرعى جيلا ولا يمنح أحدا صداقته ، وقلما يتنازل بملاحظة وجوده . وعندما يقيم الأغنياء مأدبة رسمية شعبية ، وعندما يولون لائمتهم الخاصة فى بذخ مفرط ضار ، فان اختيار ضيوفهم يصبح موضع تشاور واهتمام . فهم قلما يفضلون من يتسمون بالتواضع والوراقة والعلم ، ومن ثم فان واضعى الأسماء ، وهم عادة من أولئك الذين تحركهم دوافع المصلحة ،

يتوافر لديهم من الحق ما يمكنهم من تزويد قائمة الدعوات بأسماء مغمورة لأحقر بنى الانسان . أما الرفاق المقربون العظماء والمترددون عليهم ، فهم الطفيلون الذين يمارسون فن الملئق ، أنفع الفنون وأجداها ، ويهللون لكل كلمة يقولها ولي نعمتهم الخالد ، ولكل عمل يقوم به . وينظرون في طرب زائده الى أعمدته الرخامية وأرضيات غرفه المزركشة ، ويمتدحون في حماس تلك الفخامة والرشاقة التي تعلم أن يعتبرها جزءا من فضله الشخصي . وإذا قدم على المائدة طير أو سنجاب (١) أو سمك يتميز بحجم غير عادي ، نظر اليها الضيوف في اهتمام عجيب ، وجيء بميزان يتحققون به من وزنها الحقيقي ، وبينما يشمئز عقلاء الضيوف من تكرار هذا العمل الباطل الممل ، كان صاحب الوليمة يستدعي المسجلين لكي يثبتوا من واقع السجلات الصادقة صحة هذه الواقعة العجيبة . وثمة وسيلة أخرى لدخول بيوت العظماء ومجتمعاتهم ، وهي وسيلة مستمدة من الميسر ، وهو الذي يطلق عليه تأديبا اسم اللعب . والمشترون في هذه اللعبة تجمع بينهم رابطة صداقة ، أو قل رابطة تأمر ، قوية لا تنفصم . وامتلاك درجة عالية من المهارة في فن الترد (٢) Tesserarian art وهو طريق مؤكد للثروة والشهرة ، وإذا حدث في حفل عشاء أن وضع أستاذ من أساتذة هذا العلم الرفيع في مكان دون مكان حاكم ولاية ، ظهر على سحنه العجب والحنق اللذان يظن أن كاتو Cato شعر بهما عندما أبى الجمهور الانقلاب أن ينتخبه بريثورا ، أما تحصيل

(١) يضطرنى عدم وجود اسم انجليزى الى الاشياء ، الى النوع المألوف المشترك من السنجاب وهو المسمى باللاتينية Glis وبالفرنسية Loir وهو حيوان صغير يسكن الغابات ، ويظل نائما في الطقوس الباردة . وكان فن تربية وتسمين أعداد كبيرة من السنجاب يمارس في (دور) الرومان كنوع من الاقتصاد الريفي المريح . وقد ازداد الطلب عليها كثيرا لتقديمها على موائد الترف ، لأن الشاغلين لمناصب المراقبين كانوا يحرمونها ، ولقد قيل انها لا تزال موضع تقدير في روما الحديثة ، وإن حكام كولونا مازالوا يرسلونها هدايا .

(٢) هذه اللعبة يمكن ترجمة اسمها الى الاسم المألوف « الطاولة » أو « الترد » ، وكانت تسلية محببة لدى أكثر الرومان رزانة . وقد اشتهر (موكيوس سكافولا) Mucius Scavola الأكبر ، وكان محاميا ، بمهارته الزائدة في هذه اللعبة . وكان اسمها باللاتينية Ludius duodecim Scriptorum وهو اسم مشتق من الاثنى عشر خطا Scripta التي كانت تقسم للوحة Alveolus الى اجزاء متساوية . وعلى هذه الاجزاء كان يقف الجيش الابيض والجيش الاسود ، يتألف من خمسة عشر رجلا ، ويحركون بالتبادل وفق قوانين اللعبة وفرص « الزهر » وقد تتبع الدكتور هايد Dr. Hyde تاريخ وأنواع لعبة الترد (لفظ فارسي) من ايرلندا الى اليابان ، وأظهر في هذا الموضوع للتائه علما كلاسيكيا وشرقا غزيرا .

المعرفة فانه قلما يستهوى رغبة النبلاء الذين يمحنون متاعب الدراسة ويحتفرون منافعها ومزاياها . والكتب الوحيدة التى يتصفحونها ، هى « سخريات جوفنال » Satires of Juvenal والتواريخ الخرافية المملة التى كتبها ماريوس ماكسيموس . أما المكتبات التى ورثوها عن آبائهم ، فهى معزولة لا ترى نور النهار كالقبور الكثيرة الموحشة . غير أن أدوات المسرح الثمينه ، كالنأى ، والقيثارة الضخمة ، والأرغون ، فهى تصنع من أجلهم ، ولا تنقطع من قصور روما أنغام الموسيقى الصوتية وموسيقى الآلات . والصوت فى تلك القصور مفضل على الإدراك والفهم ، والتمتاع بالجسم مفضل على العناية بالعقل . ومن المبادئ السليمة المعترف بها أن أى شك تافه طفيف فى وجود مرض معد هو عذر قوى كاف يبرر الامتناع عن زيارة أحب الأصدقاء ، وحتى الخدم الذين يوفدون للاستفسار اللائق عن صحة المرضى لا يسمح لهم بالعودة الى المنزل - حتى يؤدوا شعائر التطهير . ورغم ذلك فإن هذه الرقة المتسمة بالأنانية والبعيدة عن الرجولة ، تنهاوى أحيانا أمام ما هو أقوى منها ، من عواطف الطمع والهوى ، فالأمل فى الكسب يدفع السناثور الغنى المصاب بداء النقرس الى الذهاب الى مكان بعيد كقرية سبولتو Spoleto وكل احساس بالكبرياء والكرامة تكبته آمال الحصول على ميراث أو حتى وصية بمرث ، والمواطن الغنى الذى لم يعقب أطفالا ، هو أقوى رجل بين الرومان . أما فن الحصول على توقيع وصية ، والتعجيل بلحظة تنفيذها ، أحيانا ، فهو فن معروف كل المعرفة . وقد حدث فى المنزل الواحد ، ولكن فى غرف مختلفة ، أن رجلا وزوجته يسعى كل منهما سعيا حميدا الى الاحتيال على الآخر ، فيستدعى كل منهما محاميه ، ويعلنان فى وقت واحد عن نواياهما المتبادلة ، وإن كانت نوايا متناقضة . ولا شك فى أن المحنة التى تنشأ عن الترف المسرف ، وتعتبر عقابا له ، كثيرا ما تلجئ العظماء الى استخدام أحط الوسائل وأشدّها اذلالا . فاذا أرادوا الاقتراض ، لجأوا الى أسلوب التوسل الوضع الذى يستخدمه العبيد فى المسرحيات الكوميديّة ، أما اذا أريد منهم السداد فانهم يتخذون لأنفسهم مظهر الحماس التراجيدى الملكى الذى يلائم أحفاد هرقول . واذا تكررت المطالبة استعانوا على الفور بأحد الأذئاب المتملقين ، فيوجه الى الدائن الوقح تهمة استخدام السم أو السحر ، ويندر فى هذه الحالة أن يخرج من السجن حتى يوقع ابراء بسداد الدين بأكمله . هذه الرذائل التى تحط من أخلاق الرومان ، تمتزج بخرافات صيبانية تصمم ادراكهم بالخزى والعار ، فهم يستمعون فى ثقة الى تنبؤات السحرة الذين يدعون أن فى مقدورهم معرفة دلائل العظمة والرفاهية المقبلة داخل أحشاء الضحايا . وكثير منهم لا يجروون على الاستحمام أو تناول الطعام ، أو الظهور فى المجتمعات العامة حتى يرجعوا الى قواعد

التنجيم ، ويعرفوا موقع كوكب المشتري أو أوجه القمر • ومن العجيب بصورة خاصة أن هذه السذاجة الرخيصة • قد توجد أحيانا بين المتشككين الكافرين الذين ينكرون في الحاد وجود القوة السماوية ، أو يشكون في وجودها ، •

شعب روما

المشاهد في المدن الآهلة التي تكون مركزا للتجارة والصناعة ، ان الطبقات الوسطى ، التي تكسب قوتها من مهارة أو عمل أيديها ، هي في المعتاد أكثر الطبقات انتاجا ، وأعظمها نفعا ، وبهذا المعنى تكون أكثر أجزاء المجتمع احتراماً • أما أبناء طبقة البلييان (العامة) في روما ، الذين كانوا يحتقرون مثل تلك الحرف المعقدة الحقيمة ، فقد وقعوا منذ أقدم العصور تحت وطأة الديون والربا ، وكان الفلاح يضطر في فترة أدائه للخدمة العسكرية ، أن يتخلى عن فلاحه مزرعته • اما أراضي إيطاليا التي كانت في الأصل مقسمة بين أسرات الملوك الأحرار المعوزين ، فقد اشتراها أو اغتصبها منهم النبلاء الجشعون تدريجيا ودون أن يحسوا • وفي العصر الذي سبق سقوط الجمهورية قدر أن ألفين فقط من المواطنين لهم أملاك خاصة يستقلون بها • ومع ذلك فطالما كان أفراد الشعب ينتخبون المرشحين لمناصب الدولة ، وقيادة الجيوش ، وحكم الولايات الغنية ، فان شعورهم بالعزة والكرامة كان يخفف من محن فقرهم الى حد ما • وكانوا يحصلون على حاجاتهم في المواسم بفضل سخاء المرشحين الطموحين ، الذين كانوا يتطلعون الى شراء أكثرية في قبائل روما الخمس والثلاثين ، أو في كتائبها المائة والثلاث والتسعين • غير أن هؤلاء العامة المسرفين ، عندما فرطوا دون حرص ، لا في استخدام قوتهم فحسب بل في توارثها أيضا ، تدهوروا ، تحت حكم القياصرة ، وأصبحوا شعبا حقيرا منكودا كان لابد أن ينقرض تماما في أجيال قليلة لو لم تضاف اليه بصورة مستمرة أعداد من الأرقاء العتقاء ، والغرباء الوافدين • ومنذ هادريان كان السكان الوطنيون الصرحاء يشكون بحق من أن العاصمة قد اجتذبت كل نقائص العالم وعادات أكثر الأمم تناقضا فهناك افراط الغاليين ، ودهاء الاغريق وطيشهم ، وعناد المصريين واليهود ، وذلة الآسيويين ، ودعارة السوريين المخنثة المنحلة ، كل هذه النقائص امتزجت في مختلف طبقات الجماهير التي اتخذت من اسم « الرومان » الشامخ الزائف ما أكسبها الجرأة على احتقار رفاقهم من الرعايا ، بل واحتقار ملوكهم الذين كانوا يعيشون بعيدا عن نطاق المدينة الخالدة •

ومع ذلك فان اسم تلك المدينة ظل يذكر باحترام ، وكانت الاضطرابات الشاذة المتكررة التي يقوم بها سكانها لا تلقى عقاب ، وبدلا من أن يسحق خلفاء قسطنطين آخر آثار ذلك التحرر الجماهيرى بالقوة العسكرية وقبضتها المتينة ، ساروا على سياسة أغسطس اللينة وعملوا على التخفيف من فقر شعب كبير العدد ، وشغل ركوده ركسله .

١ - فمن أجل راحة الدهماء الكسالى تحول التوزيع الشهري للمحبوب الى راتب يومية من الخبز ، وبني عدد كبير من الأفران كان ينفق عليها من المصروفات العامة ، وفى الساعة المحددة كان كل مواطن بيده بطاقة ، يرتقى السلم المخصص للحى أو القسم الذى يعيش فيه ، ويأخذ نصيب أسرته من الخبز ، رغيفا يزن ثلاثة أرطال ، اما منحة أو بئمن زهيد جدا .

٢ - كانت غابات أقليم لوكانيا تسمن قطعانا كبيرة من الخنازير التى تقتات على ثمار أشجار البلوط ، وأصبحت هذه الغابات موردا وفيرا للحوم الرخيصة الصحية يقدمها الاقليم على سبيل الجزية . وخلال خمسة شهور من السنة كانت توزع على المواطنين الفقراء رواتب منتظمة من لحم الخنزير . وقدر الاستهلاك السنوى للعاصمة ، بعد أن انخفض كثيرا عما كان عليه من قبل ، بثلاثة ملايين وستمائة وثمانية وعشرين ألف رطل وفق ما يؤكده مرسوم فالنتينيان الثالث .

٣ - كان استخدام الزيت ، وفق العادات القديمة ، شيئا لا غنى عنه فى الاضاءة ، وفى الحمام ، وبلغ القدر الذى كان لازما على أفريقيا أن تبعت به الى روما كضريبة سنوية ثلاثة ملايين رطل ، وهو ما يقابل ثلاثمائة ألف من « الجالونات » الانجليزية .

٤ - كان اهتمام أغسطس بامداد العاصمة بوفرة كافية من الحبوب لا يتعدى تلك المادة الضرورية لحياة الانسان . وعندما جاز الناس بالشكوى من غلاء النبيذ وندرته أصدر المصلح الخطير بيانا يذكر فيه رعاياه بأنه لا يحق لأى انسان أن يشكو من العطش لأن قنوات أجريبا Agrippa قد حملت الى المدينة فيضا من الماء الصحى الوفير ، غير أن هذا التعسف خفف بطريقة لا شعورية ، ومع أن خطة الامبراطور أورليانوس لم تنفذ على أوسع مداها ، الا أن النبيذ أصبح ميسورا موفورا ، وعهد بمخازن النبيذ العامة لموظف رفيع المقام ، وخصص جزء كبير من خمر اقليم كمبرانيا لسكان روما المحظوظين .

وكانت قنوات المياه الفخمة التي حق لأغسطس نفسه أن يشيد بذكرها ، توصل الماء الى الحمامات التي أقيمت في كل جزء من أجزاء المدينة بفخامة تتفق مع عظمة الامبراطورية . وكانت حمامات أنطونينوس كاراكالا تفتح في أوقات محددة لأعضاء السناتو وعامة الناس دون تمييز ، وتحتوى على ألف وستمائة مقعد من الرخام ، أما حمامات دقلديانوس فقد قدرت مقاعدها بأكثر من ثلاثة آلاف . وكانت جدران الغرف المرتفعة مغطاة بالفسيفساء العجيبة التي تحاكي ريشة الرسام في روعة التصميم وتنوع الألوان . فكان الجرائيت المصرى يطعم تلميحه جميلا برخام نوميديا الأخضر النفيس ، وكان الماء الساخن يتدفق بصورة مستمرة في الأحواض الواسعة من خلال فتحات كثيرة واسعة مصنوعة من الفضة السميكة ، وكان في مقدور أحقر فرد من أفراد الرومان أن يشتري بعلة نحاسية صغيرة متعة يومية يستمتع فيها بمشاهد من مشاهد العظمة والترف قد يثير غيرة ملوك آسيا . ومن هذه القصور الفخمة كانت تخرج جماعات من الدهماء القذرين في ثياب مهلهلة ، دون نعال ودون عباءات ، ثم يتسكعون أياما بأكملها في الشوارع أو في ساحة السوق « الفورم » للتناقش وسماع الأخبار ، ويبددون في المقامرة المسقة أقوات زوجاتهم وأبنائهم الزهيدة ، ويقضون ساعات الليل في الحانات والمواخير المعتمدة منغمسين في الملذات الحسية الفظة الداعرة .

غير أن أروع متعة للجمهور العاطل الكسول ، وأكثرها اثارة ، كانت تعتمد على عروض الألعاب والمشاهد العامة . وكان الملوك المسيحيون الاتقياء قد أوقفوا المبارزات الوحشية بين المجالدين ، غير أن الشعب الرومانى ظل يعتبر (السيرك) مأواه ومعبد ومقر الجمهورية . وكان الجمهور المتحرق يندفع في ساعة الفجر لحجز أماكنه ، وكان الكثيرون يقضون الليل ساهرين مترقبين . وكان المتفرجين ، الذين يبلغ عددهم أحيانا أربعمائة ألف ، يقضون اليوم من صباحه الى مساءه غير عابئين بالشمس أو المطر ، في حالة اهتمام شديد ، وقد تعلقت أبصارهم بالخيول وقائدى العربات ، واضطربت في عقولهم الآمال والمخاوف وهم يتوقعون فوز الألوان (الفرق) التي يؤيدونها ، ويبسود أن سعادة روما كانت تنوقف على نتيجة سباق . وكان هذا الحماس الطائش يدفعهم الى الصياح والتهليل كلما شاهدوا صيد الوحوش وشتى نماذج التمثيل المسرحى . ولا شك في أن هذه التمثيليات في العواصم الحديثة جديدة بأن تعتبر مدرسة طاهرة رفيعة لتربية الذوق ، بل ولغرس الفضيلة . غير أن آلهة التراجيديا والكوميديا لدى الرومان الذين قلما تطلعوا الى ما هو أكثر من تقليد عبقرية أتيكا ، هذه الآلهة لأذت بالصمت الكامل منذ سقوط الجمهورية ، حلت مكانها ، دون جدارة ، الهزليات الداعرة ، والموسيقى

المخنثة ، والمهرجانات الرائعة . وكان الممثلون الصامتون ، الذين احتفظوا بشهرتهم منذ عهد أغسطس الى القرن السادس ، يصورون ، دون استخدام الألفاظ ، مختلف أساطير الآلهة والأبطال القدامى ، وكانت إجادتهم لفهم تسلب الفلاسفة وقارهم فى بعض الأحيان ، وتثير على الدوام استحسان الناس وعجبهم . واحتشد فى مسارح روما الفسيحة الفخمة ثلاثة آلاف راقصة وثلاثة آلاف من المنشدين مع رؤساء فرق التريديد (الكورس) ، كل فرقة مع رئيسها . ولقد بلغ من حظوتهم لدى الشعب أنه فى وقت من أوقات العود التى استلزمت إبعاد كل الغرباء عن المدينة ، أعفنتهم مزية الاستهام فى متع الشعب من الالتزام بقانون نفذ بصرامة ضد أساتذة الفنون الحرة .

ويقال ان الاجابالوس دفعه حب الاستطلاع الأحمق الى محاولة معرفة عدد سكان روما من كمية أنسجة العناكب . وكان جديرا بالحكام العقلاء أن يتبعوا أسلوب بحث آخر تمشيا مع التفكير السليم ، وكان فى مقدورهم فى سهولة أن يجدوا حلا لمسألة كهذه على جانب كبير من الأهمية للحكومة الرومانية ، بقدر ما تثير اهتمام الأجيال التالية . فالمواليد والوفيات بين المواطنين كانت تسجل كما ينبغى ، ولو أن أحد الكتاب القدامى عنى بذكر مقدارها السنوى ، أو متوسطتها العام ، لكان فى مقدورنا الآن أن نستخرج احصاء مرضيا يهدم تأكيدات النقاد المبالغ فيها ، وقد يؤكد التخمينات المتواضعة المحتملة التى ذهب اليها الفلاسفة . وثمة بحوث توافر عليها أصحابها وجمعوا منها الحالات التالية ، وهى على قلتها ونقصها ، يمكن أن تلقى ضوءا على عدد سكان روما القديمة :

١ - عندما حاصر القوط عاصمة الامبراطورية أجرى الرياضى أمونيوس قياسا دقيقا لأسوار المدينة ، فوجدها تبلغ واحدا وعشرين ميلا . ويجب ألا ننسى أن شكل المدينة كان يشبه الدائرة تقريبا ، وهو الشكل الهندسى الذى يشتمل على أوسع مساحة داخل أى محيط معين .

٢ - أما المهندس المعمارى فييتروفيوس Vitruvius الذى ذاعت شهرته فى عصر أغسطس ، والذى يعتبر شهادته فى هذه المسألة مرجعا له وزنه الخاص ، فإنه يلاحظ أن مساكن الشعب الرومانى الكثيرة العدد يمكن أن تمتد الى ما وراء حدود المدينة الضيقة ، وأن ضيق الأرض ، الذى يحتمل أنه كان راجعا الى طغيان الحدائق (والفيلات) على المدينة من كل جانب ، أوحى بذلك الاجراء الشائع وان كان اجراء متعبا ، وهو رفع المبنى الى أعلى بقدر كبير . غير أن تلك المباني كانت تشاد بطريقة عاجلة ولا تستخدم فيها مواد

كافية ، ومن ثم فإن ارتفاعها كثيرا ما سبب حوادث مميتة ، الأمر الذى جعل أغسطينس ونيرون يقرران مرة بعد الأخرى أن ارتفاع المباني الخاصة داخل أسوار روما ينبغي ألا يجاوز سبعين قدما من سطح الأرض .

٣ - أما جوفنال Juvenal ، فإنه يرثى لمحن المواطنين الفقراء ، ويبدو أنه مر بهذه المحنة نفسها ، ويقدم لهم النصيح المفيد بأن يتعدوا دون إبطاء عن دحان روما ، لأنه فى مقنورهم أن يشتروا فى مدن إيطاليا الصغيرة مسكنا بهيجا مريحا بنفس الثمن الذى يدفعونه سنويا مقابل مسكن مظلم وضيق . ويتضح من هذا أن إيجار المساكن كان مرتفعا الى حد المغالة ، وأن الأغنياء كانوا يشترون الأرض بثمان فاحش ، ويقيمون عليها القصور والحدائق ، غير أن جمهرة سكان روما كانوا يزدحمون فى مساحة ضيقة ، وأن مختلف الطوابق والغرف فى المنزل الواحد كانت مقسمة ، كما هى العادة الآن فى باريس والمدن الأخرى ، بين عدة أسر من العاصمة .

٤ - ذكر المجموع الكلى للمنازل القائمة فى مناطق المدينة الأربع عشرة بشكل دقيق فى الوصف الذى كتب عن روما فى عهد ثيودوسيوس ، وقد بلغ عددها ٤٨٣٨٢ . وقسمت الى نوعين (الدوماس Domus والانسويلا Insulae) يشملان كل بيوت العاصمة ، أيا كان قدرها وحالتها ، من القصر الرخامى الذى تخصص فيه أمكنة كثيرة للمعتاق والعبيد ، الى المسكن المرتفع الضيق الذى سمح للشاعر كودروس وزوجته أن يستأجرا فيه غرفة وضيقة تحت قرميد السطح مباشرة . فاذا أخذنا بنفس المتوسط الذى وجد أنه ينطبق على باريس فى ظروف مماثلة ، وقدرنا تقديرا جرافيا أن المنزل ، أيا كان قدره ، يسكنه خمسة وعشرون شخصا ، فإننا نقدر عدد سكان روما على وجه التقريب بمليون ومائتى ألف ، وهو عدد لا يعتبر مبالغا فيه بالنسبة الى عاصمة الامبراطورية الضخمة ، وأن كان يربو على عدد سكان أعظم مدن أوروبا الحديثة .

حصار روما الأول

هكذا كانت حال روما تحت حكم أونوريوس ، عندما كان القوط يحاصرون المدينة أو قل يسدون عليها المنافذ . وبفضل براعة أليك فى تنظيم قواته الهائلة ، التى كانت تتلطف على حلول لحظة الهجوم ، استطاع أن يحيط بالأسوار ، ويسيطر على البوابات الاثنى عشرة ، ويقطع كل اتصال بالريف المجاور ، ويحرس فى يقظة كل الملاحه فى نهر التيبر الذى

أن يحصل الرومان عن طريقه على أوفر المؤن وأكثرها ضماناً . وكانت
 أول الانفعالات التي أحس بها النبلاء والشعب ، هي انفعالات الدهشة
 والحنق لأن بربريا حقيرا تجرأ على اهانة عاصمة الدنيا ، غير أن كبرياءهم
 هذه سرعان ما أذلتها المحنة ، وبدلاً من أن يوجهوا غيظهم البعيد عن الرجل
 والشهامة إلى العدو المتأهب للقتال وجهوه في حقارة إلى ضحية بريئة
 عزلاء لا حول لها ولا قوة . ولقد كان جديراً بالرومان أن يحترموا في
 شخص سيرينا Serena ، ابنة شقيق ثيودوسيوس ، وعمة الامبراطور
 الحاكم ، أو قل أمه بالتبني ، غير أنهم كانوا يمقتون أرملة ستيلكو ،
 فصدقوا في هوى وتحيز قصة التشنيع التي اتهمتها بالتآمر السرى
 الاجرامى مع الفاتح القوطى . وكان أعضاء السناتو متأثرين بهذا الجنون
 العام نفسه ، أو أنهم كانوا يرهبونه ، فأصدروا عليها حكماً بالموت ، دون
 أن يطلبوا دليلاً على جرمها . وهكذا شنت سيرينا بصورة مشينة مزرية ،
 ودهش الجمهور المفتتن من أن هذا العمل المظالم القاسى لم يقرب عليه
 مباشرة تقهقر البرابرة وانقضاء المدينة . ولقد عانت تلك المدينة البائسة
 شيئاً فشيئاً محنة الفاقة والعوز ، وحلت بها في النهاية كوارث المجاعة
 الفظيعة . فانخفض المسموح به من الحبز من ثلاثة أربال يومياً إلى نصف
 رطل ، ثم إلى ثلث ، ثم انقطع ، وارتفع ثمن الحبوب بنسبة سريعة مفرطة .
 وأخذ المواطنون المعوزون ، الذين عجزوا عن شراء ضرورات الحياة ،
 يلتمسون صدقة الأغنياء المقللة واحسانهم المزعزع ، ووجد بؤس الشعب
 ما يخففه فترة من الوقت بفضل الشفقة التي أظهرتها لايثا أرملة
 الامبراطور جراسيان . وكانت لايثا تقيم اذ ذاك في روما ، فخصصت
 للفقراء والمعوزين ذلك الدخل الكبير الذى كانت تتسلمه سنوياً من خلفاء
 زوجها المعترفين بفضله . غير أن هذه الهبات الشخصية المؤقتة لم تكن
 كافية لتسكين جوع شعب كبير العدد ، واقتحمت المجاعة المتزايدة القصور
 الرخامية التي كان يسكنها أعضاء السناتو أنفسهم . وتبين أولئك الذين
 كانوا يعيشون في نعماء اليسر والترف ، رجالاً كانوا أو نساء ، أن مطالب
 الطبيعة يكفيها القليل ، وأخذوا ينفقون ما لديهم من خزائن الذهب والفضة
 للحصول على القوت الضئيل الخشن الذى لو عرض عليهم من قبل ،
 لنبتوه في ازدراء واحتقار . فالطعام الذى تنفر منه الحواس أو يشمئز
 منه الخيال ، أكثر ما يكون النفور والاشمئزاز ، والأغذية الضاربة بالجسم
 والمؤذية للصحة أكثر ما يكون الضرر والايذاء ، كل هذه الأشياء كانوا
 يلتمسونها بشغف ويتنازعونها بشراسة بفعل ثورة الجوع الذى استبد
 بهم . وسرى الشك المبهم فى أن بعض المنكودين اليائسين كانوا يقتلون
 رفاقهم سرا ويأكلون جثثهم ، بل قيل ان الأمهات (وهذا هو الصراع
 الرهيب بين أقوى غريزتين غرستهما الطبيعة فى صدر الانسان) أكلن

سُم أطفالهن بعد ذبحهن . وهلك آلاف من سكان روما فى البيوت والشوارع بفعل نقص الغذاء ، ولما كانت المدافن العامة خارج الأسوار فى قبضة العدو فان الرائحة الكريهة المنبعثة من الجيف المتعفنة التى لم توار التراب ، لوثت الهواء ، وانتشرت الأمراض الوبائية فى أعقاب المجاعة فضاعت من خطورتها . وبعث بلاط رافنا Ravenna المرة بعد الأخرى تأكيدات بأنه سوف يرسل غوثا سريعا فعلا ، وبهذا بعث القوة فى عزائم الرومان الخائرة فترة من الوقت ، وعندما تملكهم اليأس فى نهاية الأمر من أى عون بشرى ، وجدوا فى ذلك ما أغراهم على قبول ما عرض عليهم من خلاص تأتى به قوة خارقة للطبيعة . وتمكن بعض عرافى تسكانيا ، دهاء أو تعصبا ، من اغراء يوميانوس حاكم المدينة ، وأوهموه أن فى مقدورهم بقوة التعاويذ وتقديم الذبائح أن يستخلصوا البرق من السحاب ، ويوجهوا تلك النيران السماوية ضد معسكر البرابرة . ووصل هذا السر الخطير الى انوسنت Innocent ، أسقف روما ، وقد اتهم خليفة القديس بطرس ، وربما كان ذلك على غير أساس ، بأنه فضل سلامة الدولة على صرامة العبادة المسيحية وجودها . ولكن عندما أثيرت المسألة فى مجلس السناتو ، وعندما قيل ان الشرط الأساسى هو أن تقدم تلك الذبائح فى الكابيتول بأمر من الحكام وفى حضورهم ، رفضت أكثرية ذلك المجلس الموقر أن تشترك فى عمل يساوى إعادة الوثنية علنا ، اما خوفا من غضب الله أو من غضب الامبراطور .

وكان آخر ملاذ للرومان هو أن يكون ملك القوط رحيمًا بهم أو على الأقل معتدلا فى مطالبه ، وعين السناتو سفيرين للتفاوض مع العدو على أساس أن هذا المجلس يتولى سلطات الحكم العليا اذا حلت أزمة طارئة . وعهد بهذه المهمة الخطيرة الى باسيلئوس ، وهو سناتور من أصل أسباني ، وله مقام بارز فى حكم الولايات ، والى جون John ، التربيون الأول لتوثيق العقود ، الذى كان أهلا للمهمة بحكم براعته فى العمل وصداقته السابقة لملك القوط . وعندما مثلا بين يديه ، أعلنوا ، فى أسلوب ربما كان أكثر تعاليا مما يتفق مع حالتهم الحقيرة ، أن الرومان مصممون على الحفاظ على كرامتهم ، سواء فى السلم أو فى الحرب ، وأنه اذا أبى عليهم الأريك استسلاما عادلا مشرفا ، ففي مقدوره أن ينفخ فى أبواقه ، ويستعد لخوض معركة ضد شعب كبير العدد ، متمرس على القتال مندفع بقوة اليأس . فرد عليهما البربرى ردا مقتضيا قائلا : « كلما كان التبن سميكا سهل حشه » . وكانت هذه الاستعارة الجافة مصحوبة بضحكة عالية مهينة تعبر عن احتقاره لتهديدات شعب لا يجيد القتال ، أفسده الترف قبل أن تضنيه المجاعة ثم تنازل بتجديد الفدية

التي يمكن أن يقبلها ثمنا لتفقهه عن أسوار روما . وكانت الفدية كل ذهب المدينة وفضتها ، سواء أكانت ملكا للسنااتو أم للأفراد ، وكل المنقولات الغالية الثمينة ، وكل الأرقاء الذين يستطيعون إثبات انسابهم الى اسم « البرابرة » وتجراً وزيراً السنااتو على سؤاله في لهجة التواضع والتوسل : « أيها الملك ! إذا كانت هذه هي مطالبك ، فما الذي تعتزم أن تتركه لنا ؟ » فأجاب الفاتح المتشامخ : « حياتكم » فاهتز كيانهما وانسحبا . ولكن قبل أن ينسحبا منحهما ملك القوط فترة قصيرة يتوقف فيها القتال ، وبذلك أفسح الوقت لمفاوضة أكثر اعتدالا . وزال العيوس الصارم من ملامح ألاريك دون أن يدري ، وخفف كثيرا من قسوة شروطه ، ووافق في نهاية الأمر على رفع الحصار عن المدينة ، إذا ما دفعت على الفور خمسة آلاف رطل من الذهب ، وثلاثين ألف رطل من الفضة ، وأربعة آلاف رداء من الحرير ، وثلاثة آلاف قطعة من القماش الأحمر الجيد وثلاثة آلاف رطل من الفلفل (١) . غير أن الخزانة العامة كانت خاوية ، والاياجارات السنوية من الممتلكات الكبيرة في ايطاليا والولايات مقطوعة بسبب كوارث الحرب ، والذهب والجواهر كان الناس قد بادلوها ابان المجاعة بأحط أنواع الغذاء ، وكميات الثروة السرية كانت لا تزال مخبأة لدى أصحابها البخلاء الجشعين ، ولم يبق الا بقايا بعض الأسلاب المقدسة يمكن أن تحول دون ذلك الخراب الذي يوشك أن يحل بالمدينة .

وبمجرد أن أشبع الرومان مطالب ألاريك الجشعة ، سمح لهم الى حد ما بالتمتع بالسلم والرخاء ، ففتحت عدة أبواب في حذر ، ولم يقف القوط في طريق استيراد المؤن من الريف المجاور وعن طريق النهر ، ولجأت جماهير المواطنين الى السوق الحرة التي كانت تقام ثلاثة أيام في الضواحي . ومع أن التجار الذين تولوا هذه التجارة الرابعة حصلوا على ربح كبير ، الا أن الحوانيت الكثيرة التي أقيمت في مخازن الحبوب العامة والخاصة جعلت تموين المدينة في المستقبل أمرا مضمونا . وفي معسكر ألاريك كان النظام مستقرا أكثر مما كان منتظرا ، وأثبت البربري العاقل احترامه لشرف المعاهدات حين أوقع العقاب في صرامة عادلة بفريق من القوط المتهورين أهان بعض مواطني الرومان في طريق أوسنيا

(١) كان الفلفل من أغلى العناصر التي تدخل في الطهي الروماني . وكان أحسن الأنواع يباع بخمسة عشر دينارا ، أو عشرة شلنات للرطل . وكان يشتري من الهند وما يزال شاطئ مالابار بالهند أكبر موطن له ، غير أن تقدم التجارة والملحة كان من اثرهما أن تضاعفت الكمية ونقص الثمن .

Ostia . وبعد أن شجع الجيش بما أخذه من العاصمة ، تقدم في بطة داخل ولاية تسكانيا الجميلة الخضبة حيث قرر أأريك أن يقيم معسكره أثناء الشتاء ، وأصبح العلم القوطى ملاذا لأربعين ألف رجل من الأرقاء البرابرة تحللوا من قيودهم وتطلعوا تحت امرة منقذهم العظيم ، الى الانتقام للاساءات التى لحقتهم والعار الذى أصابهم من جراء عبوديتهم القاسية . وفى نفس ذلك الوقت تقريبا تلقى أأريك مددا أكثر تشريفا ، القوط والهون ، الذين قادهم أدولفوس (١) شقيق زوجته ، بعد دعوة ملحة منه ، من ضفاف الدانوب الى ضفاف التيبر . وشق هؤلاء طريقهم فى شىء من الصعوبة وبعد تحمل شىء من الخسارة ، مخترقين القوات الامبراطورية التى تفوقهم عددا . وهكذا نرى قائدا مظفرا يجمع بين جرأة البربرى ودهاء ونظام قائد روماني على رأس مائة ألف من المقاتلين ، وأصبحت ايطاليا تنطق باسم أأريك القوى العظيم فى هلع واجلال .

ويكفينا الآن بعد مرور أربعة عشر قرنا أن نقص المغامرات العسكـرية التى قام بها غزاة روما ، دون أن نتقصى بواعث مسلكهم السياسى . وربما أحس أأريك . وسط ظفـره الواضح ، بشىء من الضعف الخفى ، وبشىء من القصور الداخلى . ومن الجائز أيضا أن ما أظهره من اعتدال كان يقصد به أن يخدع سذاجة وزراء أونوريوس ويزيل عنهم الشك . وأعلن ملك القوط مرارا وتكرارا أنه راغب فى أن يعتبره الرومان صديقهم المحب للسلم ، وبناء على طلبه الملح ، أوفد الرومان ثلاثة سفراء من السناتو الى بلاط رافنا لالتماس تبادل الرهائن وعقد المعاهدة ، غير أن المقترحات التى عبر عنها أأريك فى وضوح أثناء المفاوضات كانت كفيفة باثارة الشك فى اخلاصه ، اذ يبدو أنها لم تكن متفقة مع حالة الشراء والتوفيق التى كان فيها . فقد كان البربرى لا يزال يتطلع الى منصب القائد الأعلى لجيوش الغرب ، واشترط اعانة سنوية من الحبوب والمال ، واختار ولايات دلماشيا ونوريكوم وفنيسيا لتكون مقر مملكته الجديدة . وهى ولايات تتحكم فى المواصلات الهامة بين ايطاليا والدانوب . وأظهر أأريك ميلا الى أنه مستعد فى حالة رفض هذه الشروط ، الى التخلي عن مطالبه المالية ، بل والاكتفاء بامتلاك ولاية نوريكوم ، وهى بلاد منهكة فقيرة معرضة دائما لغارات برابرة الألمان . غير أن الوزير أوليمبيوس بدد الأمل فى السلام بعناده الضعيف ، أو بأرائه المغرضة ، ولم يستمع

(١) هذا الزعيم القوطى يسميه جورناندس وازيدور (أثولفوس) . ويسميه زوسيموس وأوروسيوس (اتولفوس) ، ويسميه أوليمبيودوروس (أدولفوس) . وقد استخدمت الاسم المشهور (أدولفوس) ، وهو الاسم الدارج بين أهل السويد ، وهم أبناء أو أشقاء القوط القدامى .

الى احتجاجات السناتو السلمية ، بل صرف سفراءهم تحت حراسة عسكرية ، أكثر عددا من أن تكون حاشية شرف ، وأضعف من أن تكون جيشا للدفاع . فصدرت الأوامر الى ستة آلاف من رجال دلماشيا ، وهم زهرة الجيوش الامبراطورية ، للسير من رافنا الى روما ، عبر أرض مكشوفة يحتلها عشرات الآلاف من البرابرة الأقوياء . ونعرضت تلك الفرق الجريئة للخيانة ، وأحرق الأعداء بها ، فسقطت ضحية لحماقة وزير ، وهرب قائدها فالنز Valens مع مائة جندي من ساحة المعركة ، واضطر أحد السفراء الى شراء حريته بفضية قدرها ثلاثون ألف قطعة من الذهب بعد أن سقطت عنه حماية القانون الدولي . ورغم ذلك فان الأريك لم يستنكر هذا العمل العدواني الضعيف ، بل جدد على الفور مقترحاته للسلام ، فأوفده السناتو الروماني وفدا ثانيا أكسبه وجود انوسنت أسقف المدينة وزنا ومكانة ، وسار الى بلاط رافنا تحرسه من أخطار الطريق فصيلة من جنود القوط .

وكان في استطاعة أوليمبيوس أن يستمر في تحديه لما أظهره الشعب من استياء صادق ، ذلك الشعب الذي اتهم أوليمبيوس جهارا بأنه خالق الكوارث العامة ، غير أن دسائس القصر السرية قوضت سلطته . ذلك أن الخصيان المقربين نقلوا مقاليد الأمور في حكومة أونوريوس وفي الامبراطورية الى الوالى البريتوري جوفينوس Jovius ، وهو موظف تافه الشأن لم يكفر بمزية الحب والود الشخصى عن أخطاء ادارته ونكباتها . أما المذنب أوليمبيوس ، فان نفيه ، أو فراره ، أبقاه ليشهد من تقلبات الحظ قدرا أكبر فذاق مغامرات حياة مغفورة لا يستقر لها حال ، ثم استولى على السلطة مرة أخرى ، ثم انحدر الى وهدة العار ، ثم قطعت أذناه ، ومات في نهاية الأمر مضروبا بالسياط ، وكان موته الشائن مشهدا أرضى أصدقاء ستيلكو . وبعده زوال أوليمبيوس ، الذى كانت أخلاقه ملوثة بالتعصب الدينى ، تخلص الوثنيون والهرطقة من ذلك الحرمان الجائر الذى أقصاهم عن وظائف الدولة . ذلك أن جنريد Gennerid الشجاع ، وهو جندي من أصل بربرى ظل متمسكا بعبادة أجداده واضطر الى التخلي عن حزامه العسكرى ، هذا الجندي كثيرا ما أكد له الامبراطور نفسه أن القوانين لا تسرى على رجال من مركزه وقدره ، ورغم ذلك فقد رفض أى حل جزئى وثبت على موقفه المهيمن ، المشرف له ، حتى انتزع من الحكومة الرومانية وهى في مجنتها قرارا عاما يتمشى مع العدالة والانصاف وكان مسلكه في المنصب الهام الذي رقي أو أعيد اليه ، وهو منصب القائد العام لدلماشيا وبانونيا ونوريكوم وراشيا ، هذا المسلك بدأ يعيد الى الدولة نظامها وروحها . وسرعان ما انتشل قواته من حياة الكسل والفاقة ، وعودهم على المران العنيف ووفر لهم

الكثير من الغداء ، وكثيرا ما كان سخاؤه الشخصى يدفعه الى منح جنوده المكافآت التى يابساها عليهم بلاط رافنا ، بدافع من البخل أو الفقر .

وخشى البرابرة المجاورون شجاعة جنريد وقوة شكيمته ، ومن ثم فقد أصبحت تلك الشجاعة أقوى حصن يحمى حدد الليريا ، كما أنه استطاع بحرصه واهتمامه أن يهده الامبراطورية بعشرة آلاف من جنود الهون الذين وصلوا الى حدود ايطاليا ومعهم قافلة من المؤن ، وقطعان كبيرة من الخراف والثيران ، لا تكفى مسيرة جيش فحسب ، بل تكفى اقامة مستعمرة بأكملها . غير أن بلاط أونوريوس ومجالسه ظلت مشهدة للضعف واللهو ، ومرتعا للفساد والفوضى . وبتحريض من الوالى جوفوريوس ، قام الحرس بتمرد عنيف وطالبوا برؤوس قائدين واثنيين من رؤساء الخصيان . وتلقى القائدان وعدا غادرا بالأمان ، ثم قتلوا سرا على ظهر سفينة ، أما الخصيان ، فقد أرسلوا الى منفى هادى مأمون فى ميلان والقسطنطينية ، بفضل ما كان لهما من حظوة ، وتولى الخصى يوسيبوس منصب حاجب المخدع ، كما تولى البربرى ألوبيخ Allobich منصب رئيس الحرس . غير أن الغيرة المتبادلة بين هذين التابعين كانت سببا فى هلاك الاثنين . ذلك أن رئيس الحرس أصدر أمرا وقحا بضرب حاجب المخدع بالعصى حتى مات على مرأى من الامبراطور المذهول ، وأعقب ذلك قتل رئيس الحرس وسط موكب عام ، وكان ذلك هو الظرف الوحيد فى حياة أونوريوس الذى أظهر فيه أضعف دلائل الشجاعة أو السخط . ولكن قبل أن يسقط يوسيبوس وألوبيخ كانا قد قاما بدورهما فى دمار الامبراطورية بمعارضتهما لعقد معاهدة كان جوفوريوس بدافع أنانى ، أو ربما بدافع اجرامى ، قد تفاوض بشأنها مع ألاريك ، فى مقابلة شخصية تحت أسوار مدينة ريمنى ، فائناء غياب جوفوريوس أثر هذان الرجلان على الامبراطور بأن يظهر بمظهر التعالى اللائق بكرامته التى لا تنتهى ، وهو مظهر لم يكن فى مقدوره أن يثبت عليه بحكم وضعه وبحكم أخلاقه . وفور هذا أرسل خطاب بتوقيع أونوريوس الى الحاكم البريتورى ، يمنحه اذنا دون قيد بالتصرف فى الأموال العامة ، ولكنه يرفض رفضا باتا أن يذل شرف روما العسكرية باجابة البربرى الى مطالبته المتشامخة . ونقل الخطاب فى غير فطنة الى ألاريك نفسه . ولما كان القوطى ، خلال العملية كلها ، قد تصرف تصرفا لاثقا معتدلا ، فقد عبر فى أعنف لغة وأشدّها غضبا عن احساسه الشديد بالاهانة التى وجهت الى شخصه وأمه بمثل تلك الوقاحة والقسوة . وسرعان ما توقف مؤتمر ريمنى ، وعندما عاد الحاكم جوفوريوس الى رافنا اضطر الى

الأخذ بالآراء الحديثة السائدة فى البلاط ، بل وتشجيعها . وبناء على نصيحته والمثل الذى ضربه ، اضطر كبار موظفى الدولة والجيش الى أن يقسموا أنهم لن يستمعوا الى أية شروط للصالح تحت أية ظروف ، وأنهم سوف يواصلون حربا دائمة لا هوادة فيها ضد عدو الدولة . وكان من شأن هذا الارتباط المتهور أنه أقام حاجزا لا يمكن تخطيه أمام أية مفاوضات مقبلة . ولقد سمع وزراء أونوريوس وهم يعلنون أنه لو كان الأمر قاصرا على أنهم أقسموا باسم الله فحسب ، لتوخوا السلامة العامة ، ووضعوا أرواحهم تحت رحمة السماء ، ولكنهم أقسموا برأس الامبراطور المقدس نفسه ، ووضعوا أيديهم فى اجلال وخشوع على ذلك المستقر العظيم للجلالة والحكمة ، ومن ثم فان حنثهم بالقسم سوف يعرضهم للقصاص الدنيوى ، قصاص التدنيس والتمرد .

حصار روما الثانى

كان الامبراطور وبلاطه يستمتعون فى كبرياء غاضبة بمناعة مستنقعات رافنا وحصونها ، وتركوا روما ، دون دفاع تقريبا ، لغضب الأريك وسخطه . ومع ذلك فقد توخى الأريك ، أو اصطنع ، قدرا كبيرا من الاعتدال . فعندما تقدم بجيشه على طريق فلامينا ، كان يرسل تباعا أساقفة المدن الايطالية ليكرروا عروض الصلح ، وليستحلفوا الامبراطور أن ينقذ المدينة وسكانها من نار الأعداء وسيوف المتبربرين . ومع ذلك فقد أمكن تجنب هذه الكوارث الوشيكة الوقوع ، لا بفضل حكمة أونوريوس ، بل بفضل فطنة الملك القوطى أو انسانيته التى أوحى اليه أن يستخدم أسلوبا للغزو أخف وطأة ، وان لم يكن أقل فعالية . فبدلا من مهاجمة العاصمة ، وجه جهوده بصورة ناجحة ضد مينائها أوستيا ، وهى عمل من أضخم وأروع الأعمال الرومانية . فلقد كان غذاء روما مقلقا ويتعرض بصورة دائمة لكثير من الحوادث أثناء الملاحة الشتوية ، وفى طريق مكشوف ، فأوحى هذا الى عبقرية القيصر الأول بفكرة نافعة نفذت فى عهد كلوديوس ، وهى فكرة بناء ميناء أوستيا ، فحاجز الأمواج الصناعية التى يتكون منها المدخل الضيق ، كانت تمتد الى مسافة كبيرة داخل البحر ، وتصد ثورة الأمواج تماما ، بينما تستطيع السفن أن ترسو داخل ثلاثة أحواض عميقة واسعة تستقبل مياه الفرع الشمالى من نهر التيبر . على بعد ميلين تقريبا من مستعمرة أوستيا

القديمية (١) . ونمت الميناء الرومانية شيئا فشيئا حتى أصبحت فى حجم مدينة أسقفية ، وكان يخزن فيها القمح الوارد من أفريقيا فى مخازن فسيحة للحبوب لكى يستخدم فى تموين العاصمة . وما أن استولى الأريك على ذلك المكان الهام حتى طلب الى المدينة أن تستسلم بمحض اختيارها ، وعزز طلبه هذا بأن أعلن اعلانا قاطعا أن الرفض ، أو حتى التأخير ، سوف يتبعه على الفور تدمير المستودعات التى تتوقف عليها حياة الشعب الرومانى . فاضطر السناتو الى أن يذل كبريائه خوفا من المجاعة ومن صخب ذلك الشعب ، واستجاب على غير مضض الى اقتراح يتضمن تنصيب امبراطور جديد على عرش الامبراطور الهزيل أونوريوس . ووقع اختيار الفاتح القوطى على حاكم المدينة أتالوس Attalus ليكون صاحب الرداء الأرجوانى . وتلا ذلك مباشرة أن أقر الملك الجديد ، عرفانا بالفضل ، تعيين حاميه القوطى قائدا عاما لجيوش الغرب . ثم عين أدونفوس (شقيق زوجة الأريك) رئيسا للحجاب ، على أن يتولى حراسة شخص أتالوس ، وبدت الأمتان المتخاصمتان متحدتين ، تربطهما أوثق أواصر الصداقة والتحالف .

وفتحت أبواب المدينة على مصاريحها ، واتجه امبراطور الرومان الجديد فى موكب صاحبه الى قصر أغسطس وتراجان ، تخف به القوات القوطية من كل جانب ، وبعد أن وزع أتالوس المناصب المدنية والعسكرية على أتباعه والمقربين اليه ، عقد اجتماعا لمجلس السناتو ألقى فيه حديثا رسميا منمقا أكد فيه عزمه على إعادة عظمة الدولة ، وتصميمه على أن يضم الى الامبراطورية ولايات مصر والشرق ، وهى الولايات التى كانت تعترف فيما مضى بسيادة روما . وكان من شأن تلك الوعود المبالغ فيها أنها نفثت فى صدر كل مواطن عاقل حفيف احتقارا لشخصية مغتصب هزيل كان ارتقاؤه العرش أعمق جرح شائن أصاب الدولة من وقاحة البرابرة . غير أن الجباهير ، فى طيشها المعتاد ، هملت لتغير السادة ، وكان التذمر العام السائد اذ ذاك ملائما لمنافس أونوريوس . وتوقع

(١) كان مصبا نهر التيبر - The Ostia Tiberina - بصيغة المثنى ، تفصلها الجزيرة المقدسة ، وهى مثلث متساوى الاضلاع ، يقدر طول كل ضلع بميلين وقد أقيمت مستعمرة أوستيا وراء فرع النهر الأيسر ، أو الجنوبي ، وأقيمت الميناء وراء فرع النهر الايمن أو الشمالى والمسافة بين بقاياهما أكثر من ميلين ، على خريطة سنجولانى Cingolani وفى عهد سترابون كانت رواسب نهر التيبر قد سدت مرفأ أوستيا ، ووسعت حجم الجزيرة المقدسة ، وازدادت المسافة كثيرا بين أوستيا والميناء . وتبين القنوات الجافة والمصببات الواسعة تغيرات النهر ومجبهودات البحر .

أبناء الطوائف الذين ظلمتهم مراسيم الاضطهاد التي أصدرها أونوريوس ،
شيئا من العطف ، أو من التسامح على الأقل ، من حاكم تعلم فى وطنه ،
أيونيا ، معتقدات الوثنية وتلقى بعد ذلك شعار المعمودية المقدس على يد
أسقف آريوسى . وكانت الفترة الاولى من عهد أتالوس جميلة مزدهرة ،
فأرسل ضابطا موثوقا به على رأس قوة ليست بالكبيرة لتحقيق خضوع
أفريقيا ، ودان الجزء الأكبر من إيطاليا لأرهاب القوات القوطية ، ورغم
أن مدينة بولونيا أظهرت مقاومة عنيدة فعالة إلا أن أهل ميلان ، الذين
ربما ضايقهم تغيب أونوريوس ، وافقوا على من وقع عليه اختيار السناتو
الرومانى بأصوات الاستحسان . وقاد أليك أسير الملكى ، على رأس
جيش ضخم ، حتى أوصله الى أبواب رافنا ، وهنا دخل المعسكر القوطى
وفد رسمى يتألف من كبار وزراء أونوريوس وهم - جوفياس ، الحاكم
البريتورى - فالنز ، قائد الفرسان والمشاة - يوتامبوس وزير الخزانة
(الكوستور) - جونيان ، كبير موثقى العقود . وصرح أعضاء هذا الوفد
باسم مليكهم أنهم يوافقون على الاعتراف بالانتخاب الشرعى لمنافسه ،
وعلى تقسيم ولايات إيطاليا والغرب بين الامبراطورين . غير أن مقترحاتهم
رفضت بازدرار واحتقار ، واشتدت وطأة الرفض بما أظهره أتالوس من
شفقة مهينة ، إذ تنازل ووعد بأن أونوريوس ، إذا تنحى عن العرش
فورا ، فسوف يسمح له بأن يقضى بقية حياته فى منفى هادى فى إحدى
الجزر النائية . وفى الحق أن موقف ابن ثيودوسيوس بدا يائسا فى نظر
أولئك الذين كانوا أعرف الناس بقوته وموارده ، حتى أن وزيره
جوفوسر ، وقائده فالنز ، تخليا بصورة مهينة عن قضية ولى نعمتهما
الخاسرة ، وقدا الولاء الغادر لغريمه الأوفر حظا . وأصبح أونوريوس
يرهب الأعداء الخفيين الذين قد يترصدون له فى العاصمة ، ويكمنون له
فى القصر ، وفى مخدعه . وكان هناك بعض السفن فى مرفأ رافنا تستعد
لنقل الملك المعتزل الى بلاد ابن أخيه الطفل ، امبراطور الشرق .

غير أن هناك عناية الهية (هذا ، على الأقل ، هو رأى المؤرخ
بروكوبيوس) ترقب الرعونة وترقب البراءة ، وليس ثمة جدال فى أن
أونوريوس قد أسلم أمره لتلك العناية الالهية ، وفى اللحظة التى بلغ
فيها من اليأس درجة أمجزته عن اتخاذ أى قرار حكيم أو جرى ، وجعلته
يتدبر فرارا شائنا مزريا ، فى تلك اللحظة نزلت الى البر فى ميناء رافنا ،
على غير انتظار وفى الوقت المناسب ، امدادات قوامها أربعة آلاف من
قدامى الجنود المحنكين . وعهد أونوريوس الى هؤلاء الغرباء الشجعان ،
الذين لم تفسد ولاءهم أحزاب البلاط الامبراطورى ، بحراسة أسوار
المدينة وأبوابها ، ولم يعد يقلق مضجع الامبراطور أى خوف من خطر
قريب داخلى . ويضاف الى ذلك أن الأنباء المواتية التى تلقاها أونوريوس

من افريقيا غيرت بصورة فجائية آراء الرجال ووضع الشئون العامة . ذلك أن القوات والضباط الذين كان أتالوس قد أوفدهم الى تلك الولاية لم يكن نصيبهم غير الهزيمة والقتل ، وكان الحماس المتقد في صدر هرقليان ، حاكم افريقيا ، كفيلا بالبقاء على ولائه ولاء شعبه . وأرسل هذا الحاكم الأمين الى أونوريوس مبلغا ضخما من المال دعم به ولاء الحرس الامبراطوري ، كما أن يقظته في الحيلولة دون تصدير القمح والزيت الى روما ، أثارت في تلك المدينة صخباً وتنفراً ، وظهر بين أسوارها شبح المجاعة . وترتب على فشل الحملة الأفريقية أن أفراد فريق أتالوس بدعوا يتبادلون الاتهامات والسباب ، كما أن عقل حامية ألاريك بدأ ينصرف رويدا رويدا عن الاهتمام بأمير يفتقر الى روح الزعامة والقيادة ، وتعوزه سلاسة الخضوع والطاعة . فكانت أكثر الاجراءات رعونة وحمقا تتخذ دون علم ألاريك أو على العكس مما كان ينصح به ، ثم ان اصرار السناتو على عدم السماح بأن تضم الحملة الأفريقية عددا من القوط لا يزيد على خمسمائة جندي ، هذا الرفض من جانب أعضاء السناتو أظهر أنهم يرتابون في القوط ولا يآتمنونهم ، وكان هذا المسلك من جانبهم بعيدا عن الشهامة والقفظة . وثار سخط الملك القوطي من جراء الحيل الخبيثة التي اتصف بها جوفيروس ، وهو الرجل الذي ارتفع الى مرتبة النبلاء ، ثم التمس بعد ذلك عذرا لغدره المزدوج ، فأعلن دون أن يستشعر خجلا أنه كان يتظاهر بالتخلي عن خدمة أونوريوس حتى يكون أكثر فعالية في القضاء على قضية المغتصب . وفي سهل فسيح بالقرب من مدينة ريمني . وعلى مشهد من جمهور لا يحصى من الرومان والبرابرة ، جرد ألاريك الملك المنكود ، أتالوس ، من التاج والرداء الأرجواني ، وأرسل شارات الملك هذه الى ابن ثيودوسيوس ، بمثابة عهد على الصلح والصدقة . أما الضباط الذين رجعوا الى أداء واجبهم ، فقد أعيدوا الى مناصبهم ، بل ان عفو الملك القوطي امتد الى من يتأخرون في التوبة . غير أن امبراطور الرومان الذليل أتالوس الذي كان راغبا في الحياة ، ولم يستشعر الخزي والعار ، فانه توسل الى ألاريك أن يأذن له بالانضمام الى المعسكر القوطي ، والسير في ركاب بربري متشامخ متقلب المزاج .

حصار روما الثالث ونهبها

أزال اقضاء أتالوس عن منصبه العقبة الوحيدة الحقيقية في طريق تحقيق الصلح ، وانتهى ألاريك حتى أصبح على بعد ثلاثة أميال من مدينة رافنا لكي يمارس الضغط على وزراء الامبراطور المترددين ، الذين سرعان

ما عادوا الى وقاحتهم برجوع الحظ اليهم . وثار سخطه وغضبه عندما علم أن زعيما منافسا ، وهو ساروس ، عدو ادولفوس الشخصى ، والخصم الوراثى لأسرة بالتى Balti قد استقبل فى القصر . وعلى الفور خرج ذلك البربرى المقدم ، ساروس من أبواب رافنا على رأس ثلاثمائة من أتباعه ، وفاجأ عددا كبيرا من القوط وقتلهم ، ثم رجع الى المدينة ظافرا ، وسمح له باهانة خصمه حيث استخدم مناديا يعلن على الملأ أن الجرم الذى ارتكبه الأريك قد أقصاه الى الأبد عن صداقة الامبراطور والتحالف معه . ودفعت روما بما حل بها من كوارث ثمن حماقة بلاط رافنا وجرمه . ذلك أن ملك القوط ، الذى لم يعد يخفى شهوته للنهب والانتقام ، ظهر تحت أسوار روما بعدة الحرب ، وتأهب السناتو للمقاومة المستميتة حتى يؤخر خراب البلاد ، حيث لم يكن هناك أى أمل فى النجدة . غير أنه لم يستطع أن يتقى المؤامرة الخفية التى قام بها الأرقاء والخدم الذين كانوا يؤيدون قضية العدو ، اما بسبب نشأتهم أو بدافع من مصلحتهم . ففى منتصف الليل فتحت بوابة سلاريا فى تكتم وصمت ، واستيقظ السكان على صوت هائل صادر من أبواب القوط . وهكذا نرى مدينة روما الامبراطورية ، التى أخضعت ذلك الجزء الكبير من بنى الانسان ورفعته الى المستوى الحضارى ، هكذا نراها بعد ألف ومائة وثلاث وستين سنة ، تستسلم الى قبائل الجرمان والسكوديين الغاضبة الداعرة .

وعندما اقتحم الأريك تلك المدينة المهورة ، أذاع تصريرا أظهر فيه أنه يحترم بعض الاحترام قوانين الانسانية والدين . فقد شجع قواته فى جرأة على أن يأخذوا ما يكافى شجاعتهم وأن يزيدوا ثراءهم بأسلاب شعب غنى مخنث ، ولكنه نصحهم فى الوقت عينه ألا يمسوا المواطنين الذين لا يبدون مقاومة ، وأن يحترموا كنيسة القديس بطرس والقديس بولس على اعتبار أنها معابد مقدسة لا تمس . فى وسط فظائع تلك الثورة الليلية أظهر كثير من القوط المسيحيين حماس ارتدادهم الحديث الى هذا الدين . وقد ذكر بعض الكتاب الدينيين فى حماس أمثلة لورعهم غير العادى واعتداهم غير المألوف ، وربما أضفوا على ما ذكره شيئا من التتميق والتزويق (١) فبينما كان البرابرة يجوبون المدينة بحثا عن

(١) يشيد أوروينيوس بورع القوط المسيحيين ، دون أن يبدو عليه أنه يدرك أن الجزء الأكبر منهم كانوا هراطقة أريوسيين . أما جورثاندس وأزيدون ، وكنا من أنصار القضية القوطية فاذنهما يكرران وينمقان هذه القصص . وقال أزيدون أن الأريك نفسه قد سمع وهو يقول انه شن الحرب على الرومان ، لا على الرسل . ذلك أسلوب القرن السابع . وقبل ذلك بمائتى سنة نسب الفضل والشهرة الى المسيح ، لا الى الرسل .

الغنائم ، اقتحم أحد القوط الأقوياء منزلا متواضعا تقطنه عجوز عذراء كرسيت حياتها لخدمة المذبح . وطلب منها فورا ، ولكن فى لغة مهذبة أن تسلمه كل ما فى حوزتها من ذهب وفضة ، وقد أدهشته مبادرتها الى اطلاعه على كنز رائع من الأطباق السميكة المصنوعة من أثمن المواد ، وبمهارة فائقة . ونظر البربرى فى عجب وابتهاج الى ذلك الكنز الثمين الذى أصبح فى متناول يده ، حتى قطع عليه تفكيره تحذير جاد وجهته اليه العذراء قائلة : « هذه الاواني المقدسة تخص القديس بطرس ، واذا تجرأت على مسها فسوف يتحمل ضميرك هذا الرجس » . فامتلا الضابط القوطى رهبة واجلالا ، وأوفد رسولا لاختار الملك نبأ الكنز الذى اكتشفه ، وتلقى أمرا قاطعا من الأريك بأن ينقل كل الأطباق المقدسة والزخارف ، دون ابطاء ودون أن يصيبها تلف ، الى كنيسة الرسول . وسارت فصيلة كبيرة من القوط فى نظام حربى ، مخترقة الشوارع الرئيسية ، من نهاية تل كويرينال الى حى الفاتيكان البعيد ، لتحرس بأسلحتها اللامعة صفا طويلا من زملائهم الأتقياء وهم يحملون فوق رؤوسهم الأواني الذهبية والفضية المقدسة ، واختلطت صيحات البرابرة الحربية بصوت الترانيم الدينية . وسارع جمهور من المسيحيين من كل المنازل المجاورة للانضمام الى هذا المركب الملى بالعظمت ، وأتاح حسن الحظ لعدد كبير من اللاجئين الهاربين ، دون تمييز لسن أو مكانة أو طائفة ، أن يهربوا الى قدس الفاتيكان الآمن الكريم . وقلة اعترف القديس أوغسطين أنه ألف كتابه القيم « مدينة الرب » لاثبتات أساليب العناية الالهية فى تدمير العظمة الرومانية . وهو يشيد فى سرود خاص بهذا الانتصار المشهود الذى حققه المسيح ، ويقلل من شأن خصومه بتحديثه لهم أن يذكروا أمثلة مشابهة لمدينة اقتحمها أعداؤها ، واستطاعت آلهتها الخرافية القديمة أن تحمي نفسها فيها ، أو تذود عن أنصارها المخدوعين .

وفى حالة السلب والنهب التى تعرضت لها روما ، كانت هناك أمثلة نادرة غير عادية لما أظهره البرابرة من فضيلة تستحق الاشادة بها . غير أن النطاق المقدس للفاتيكان وكنائس الرسل كان لا يستطيع أن يستقبل الا نسبة صغيرة جدا من الشعب الرومانى : وثمة آلاف كثيرة من المحاربين ، وعلى الأخص أولئك الهون الذين خدموا تحت راية الأريك ، كانوا غرباء على اسم المسيح ، أو على الأقل غرباء على العقيدة المسيحية ، ولنا أن نقول، دون أى مساس بالمحبة أو الصدق ، ان تعاليم الانجيل قلما كان لها تأثير على القوط المسيحيين ، فى ساعة الانطلاق الوحشى . بل ان أكثر الكتاب ميلا الى المبالغة فى رحمة القوط وشفقتهم ، قد اعترفوا فى صراحة بأن الرومان تعرضوا لمذبحة قاسية ، وأن شوارع المدينة امتلأت بجثث الموتى التى بقيت دون أن تدفن خلال حالة الفزع العامة وفى بعض

الأحياء كان يأس المواطنين يتحول الى ثورة ، وكلما كانت مقاومتهم تشير البرابرة ، كانت مذابح هؤلاء تمتد دون تمييز الى الضعفاء والأبرياء والعاجزين . ومارس أربعون ألفا من العبيد أعمال الانتقام الشخصى دون رحمة أو ندم وغسلوا سياط العار التى ذاقوها من قبل فى دماء الأسرات المذنبه الممقوتة . وتعرضت عفة سيدات روما وعذاراها لاساءات أفظع من الموت نفسه ، وقد اختار المؤرخ الدينى أوغسطين مثلا لعفة النساء ينال اعجاب الأجيال القادمة (١) . فقد حدث أن سيدة رومانية ذات جمال فريد وإيمان ارتوذكى صحيح أثارت شهوات ملحة فى صدر شاب قوطى يعتنق الهرطقة الآريوسية ، على حد ملاحظة فطنة أبدتها سوزومن Sozomen وعندما أثارت تأثيره بمقاومتها العنيدة ، استل سيفه وأصاب به عنقها إصابة طفيفة ، مدفوعا بغضب المحب الولهان . وظلت البطلة المجروحة تتحدى سخطه وتصده غرامه ، حتى كف القاصب عن مجهوداته العديمة الجدوى ، وقادها فى اجلال الى قدس الفاتيكان ، وأعطى حراس الكنيسة ست قطع من الذهب على شرط اعادتها الى زوجها مصنونة طاهرة . غير أن مثل هذه الأمثلة الدالة على الشجاعة والشهامة لم تكن كثيرة الحدوث ، والمعروف أن الجنود البهيميين أشبعوا شهواتهم الحسية دون أن يقيموا وزنا لرغبة أسيراتهم أو لواجباتهم ، وأثار جدل شكلى حول مسألة دقيقة تتعلق بهؤلاء الضحايا الرقيقات اللاتي رفضن فى اصرار أن يمس أحد طهرهن ، وهل فقدان لسوء حظهن تاج العفة المجيد . وثمة خسارات أخرى من نوع مادم أكثر اذلالا يمكن أن يذهب بنا الظن الى أن كل البرابرة استطاعوا فى كل الأوقات أن يقترفوا هذه الاعتداءات الغرامية ، لأن افتقار العدد الأكبر من نساء الرومان الى الشباب ، أو الجمال ، أو العفة ، قد حال دون تعرضهن لخطر الاعتداء . غير أن حب المال من الأهواء التى تثور فى كل الصدور ، ولا يستطيع اشباعها ، لأن امتلاك الثروة كفى بأن يمكن الناس من الاستمتاع بكل شئ يبعث السرور فى نفوسهم ، كل حسب ذوقه وطباعه . ومن ثم فإن أولئك الذين تولوا نهب روما وسلبها ، كانوا يفضلون الذهب والمجوهرات ، وهى الأشياء التى لها أكبر القيمة على صغر حجمها ووزنها ، ولكن بعد أن تمكن اللصوص الأكثر مهارة من أخذ هذه النفائس سهلة الحمل ، وجدت

(١) يشير أوغسطين الى أن بعض العذارى قتلن أنفسهن فعلا للافلات من الاغتصاب . ومع أنه يبدى اعجابه بروحهن ، إلا أنه يدين فيهن تلك الجراة المتهوره ، بدافع من دراسته اللاهوتية ، وربما كان الاسقف الطيب هيبو سهل التصديق لهذا العمل البطولى الانتقوى أكثر مما ينبغى وضارما فى لومه أكثر مما يجب . والعذارى الاثنتا عشرة (لو كان لهن وجود بالمرة) اللاتي القين بانفسهن فى نهر الالب عندما اقتحمت مدينة مجديبرج تضاعف عددهن حتى بلغ ألفا ومائتين .

قصور روما فى قسوة وشراسة من أثائها الثمين الفخم . وكانت (دواليب) الأواني الضخمة ، وخزائن الملابس الحريرية والأرجوانية ، تكدس دون نظام فى العربات التى تسير وراء أى جيش قوطى . أما روائع الفن فقد عوملت معاملة خسنة ، أو دمرت تدميرا عابثا ، وصهرت تماثيل كثيرة للحصول على المواد الثمينة المصنوعة منها . وكثيرا ما حطمت أواني الزينة بضررها ببساطة فى عملية تقسيم الغنائم والأسلاب . وأدى الحصول على النقائس والثروات الى تحريك نهم البرابرة وتكالبهم ، فاستخدموا التهديد ، والضرب ، والتعذيب لارغام سجنائهم على الاعتراف بالكنوز المخبأة . وكانوا يعتبرون ما يرونه من علائم الفخامة والغنى دليلا على امتلاك ثروة طائلة ، ويعزون مظهر الفقر الى البخل والتقتير . وكثيرا ما تحمل بعض البخلاء فى عناد واصرار أقسى أنواع العذاب قبل أن يبوحوا بإمكان المقتنيات المحببة اليهم ، وكثيرا ما مات كثير من المنكوبين التعساء ضربا بالسياط لأنهم رفضوا اظهار كنوزهم الموهومة . أما مباني روما وبيوتها فقد نالها بعض الضرر من عنف القوط وشراستهم ، وان كانت الأضرار قد بولغ فيها . فعند دخولهم من بوابة سالاريا اشعلوا النار فى المنازل المجاورة لتتير لهم الطريق ولتحويل انتباه المواطنين . والتهمت النار التى اندلعت دون عائق وسط الارتباك الذى اعتور المدينة ليلا ، كثيرا من المباني الخاصة والعامة . وظلت أطلال قصر سالوست Sallust الى عهد جستنيان أثرا ضخما من آثار حريق القوط . غير أن مؤرخا معاصرا لاحظ أن النار قلما استطاعت أن تلتهم العروق الضخمة المصنوعة من النحاس السميك ، وأن قوة الانسان لم تكن كافية لتقويض أسس الصروح القديمة . وربما انطوى هذا التأكيد الورع على بعض الصدق ، وهو أن غضب السماء فعّل بالمدينة ما لم يفعله غضب الأعداء ، وأن ساحة روما المتشامخة المليئة بتماثيل كثير من الآلهة والأبطال ، قد أصابها البروق فسوتها بالتراب .

ومهما كان عدد طبقة الفرسان أو عامة الناس ، الذين هلكوا فى مذبحه روما ، فمن المؤكد الموثوق به أن (سناثورا) واحدا فقط هو الذى هلك بيد الأعداء . غير أنه لم يكن من السهل حصر الأعداد الكبيرة من الناس الذين ذاقوا مرارة الأسر والنفي فجأة ، بعد أن كانوا يشغلون مناصب رفيعة ويعيشون فى بحبوحة من العيش . ولما كانت حاجة البرابرة الى المال أكثر منها الى الأرقاء فقد قرروا فدية معتدلة لأسراهم المعوزين ، وكثيرا ما كانت الفدية تدفع من احسان الأصدقاء أو صدقة الغرباء . وكان الأسرى الذين يباعون بصورة منتظمة فى السوق المفتوحة أو بعقود خاصة يستعيدون من الوجهة القانونية حريتهم الوطنية التى كان من

المستحيل على المواطن أن يفقدها أو يتنازل عنها . غير أن الأمر تكشف سريعا عن أن اقرار حريتهم سوف يعرض أرواحهم للخطر وأن القوط ، ما لم يجدوا ما يغريهم على البيع ، قد يتجهون الى قتل أسراهم الذين لا نفع لهم . ومن ثم فقد أدخل على التشريع المدني قرار حكيم يقضى بارغام الأسرى على خدمة أسيادهم فترة خمس سنوات حتى يوفوا بعملهم ثمن فدائهم . وكانت الأمم التي غزت الامبراطورية الرومانية قد دفعت أمامها الى داخل ايطاليا جماعات كبيرة من سكان الولايات فى حالة جوع وهلع ، لا يخشون العبودية بقدر ما يخشون المجاعة ، وترتب على الكوارث التي حلت بايطاليا وروما أن تشتت السكان ولجأوا الى أبعد الأماكن وأكثرها عزلة وأمانا . بينما كان فرسان القوط ينشرون الفرع والخراب على طول ساحل كيبانيا وتسكانيا ، كانت جزيرة اجيليوم الصغيرة ، التي يفصلها عن مرتفع أرجنتاريا قنال ضيق ، تصد محاولاتهم العدوانية أو تفلت منها ، وفى هذا المكان الذى يبعد عن روما بمثل هذه المسافة الصغيرة ، كانت هناك أعداد كبيرة من المواطنين تختفى آمنة فى الغابات الكثيفة المنتشرة فى هذه البقعة المنعزلة . وكان كثير من أبناء أسر السنانو يملكون الكثير من الأملاك الموروثة فى أفريقيا تشجعهم على اللجوء الى تلك الولاية المضيافة ، اذا كان لديهم من الوقت والقطنة ما يمكنهم من الهرب من الخراب الذى حل بديارهم ووطنهم . وكانت بروبا (١) Proba النبيلة الوردية ، أرملة الوالى بترونيوس ، أبرز هؤلاء اللاجئين والمعهم . وكانت قد بقيت بعد وفاة زوجها ، وهو أقوى رعايا روما ، على رأس أسرتها ، أسرة أنيكىوس ، وظلت تمد أبناءها الثلاثة تباعا بالنفقات التي تتطلبها مناصب القنصل التي تولوها . وعندما حاصر القوط المدينة واستولوا عليها ، تحملت بروبا باستسلام مسيحي خسارة ثروتها الطائلة ، واستقلت سفينة صغيرة شاهدت منها السنة النيران تلتهم قصرها ، وهربت الى شاطئ أفريقيا بصحبة ابنتها لايتا ، وحفيدتها العذراء الشهيرة ديمتريا . وكان سخاؤها الوفير فى توزيع غلات أملاكها أو ثمنها من الأمور التي أسهمت فى تخفيف محن الأسر والنفي . غير أنه حتى أسرة بروبا نفسها لم تنج من ضراوة ظلم الكونت هرقليانوس ، الذى باع بصورة حقيرة دايرة أنبل عذارى روما ليصبحن زوجات عاهرات

(١) لما كانت مغامرات السيدة بروبا وأسرتها متصلة بحياة سانت أوغسطين . فقد اهتم المؤرخ تلمونت بتصويرها . فبعد وصولهم الى أفريقيا بوقت قصير ، دخلت ديمتريا الدير ونذرت العفة ، واعتبر هذا الحدث ذا أهمية كبرى بالنسبة لروما وبالنسبة للعالم . وكتب لها كل كبار رجال الدين القديسين خطابات تهنئة . وما يزال الخطاب الذى أرسله لها جيروما باقيا ، وهو يشتمل على خليط من التعليقات غير المعقولة ، والتصريحات الجريئة ، والحقائق العجيبة ، يتعلق بعضها بحصار روما ونهبها .

اتجار سوريا المملوئين شهوة وجشعا . وتششت اللاجئين الايطاليون في
الولايات ، وعلى طول الشواطئ المصرية والآسيوية ، حتى القسطنطينية
وارشليم وازدحمت قرية بيت لحم ، وهى المكان المنعزل الذى أقام فيه
سائت جيروم ومن ارتد من النساء ، بالمتسولين من الأسر اللامعة ، رجالا
ونساء ، كبارا وصغارا ، وكان هؤلاء يشيرون شفقة الناس الذين يذكرون
ما كانوا فيه من نعماء وثراء . وقد أصاب الذهول كل الامبراطورية ،
وملأتها الكارثة الرهيبة التى حلت بمدينة روما جزئا وفزعا . وكان من
شأن هذا التبليين الواضح بين العظمة والخراب أنه جعل السذج من
الناس يرون لمصائب روما ، ملكة المدائن ، بل ويبالغون فيها . أما رجال
الدين ، الذين طبقوا على الأحداث القرية ما كان فى النبوءة الشرقية من
استعارات سامية ، فقد كان يفريهم أحيانا أن يخلطوا بين خراب العاصمة
الرومانية ، وفناء العالم .

وتتسم الطبيعة البشرية بأنها تميل ميلا قويا الى الحط من قيمة
ما للعصور الحاضرة من مزايا والى تضخيم مساوئها . ولكن عندما خفت
الانفعالات الأولى ، ووزنت الأضرار الفعلية بميزان الانصاف ، فان
المعاصرين الأكثر دراية وفطنة اضطروا الى الاعتراف بأن روما ، فى أول
عهدا ، أصيبت من الغالبيين بأضرار جوهرية أكثر من تلك التى ألحقها
بها القوط فى عصر تدهورها ، ومن المؤكد فى ثقة أن الهمار الذى أحدثه
البرابرة الذين قادهم الأريك من ضفاف الدانوب كان أقل هولا من الأعمال
العدوانية التى قامت بها قوات شارل الخامس ، (١٥٠٠ - ١٥٥٨) وهو
الملك الكاثوليكي الذى لقب نفسه باسم امبراطور الرومان . فلقد جلا
القوط عن المدينة بعد ستة أيام ، غير أن روما ظلت أكثر من تسعة شهور
فى حوزة أنصار الامبراطور شارل ، وتلوثت كل ساعة من الزمن بأعمال
اجرامية تتسم بالقسوة ، والشهوة والنهب . وكان سلطان الأريك كفيلا
باقرار بعض النظام والاعتدال بين قواته الشرسة التى اعترفت به قائدا
وملكا ، ولكن قائد جيوش شارل الخامس ، وهو من البوربون ، عندما
مات موتا مجيدا فى مهاجمة أسوار مدينة روما ، زال كل ضابط للنظام
من جيشه الذى كان يتألف من ثلاث أمم مستقلة ، فكان فيه الايطاليون
والأسبان والجرمان ، فقد جمعت بين الجرائم البهيمية التى تسود فى
مجتمع مقلقل غير مستقر ، وبين الرذائل المصقولة التى تنشأ من سوء
استغلال الفن والترف . أما المغامرون المنحلون الذين حطموا كل شعور
بالوطنية والمعتقدات وهاجموا قصر الحبر الأعظم الرومانى ، فهم
يستحقون أن نعتبرهم أكثر الايطاليين خلاعة واستهتارا . وفى العصر
نفسه كان الأسبان مصدر فزع للعالم القديم وللعالم الجديد . غير أن

شجاعتهم العالية كانت تلوثها الفطرسة الكثيبة ، والجشع المتكالب ، والقسوة التى لا تعرف الرحمة . وكانوا لا يملون السعى الى الشهرة والثراء ، وأجادوا بالمران المتكرر أغرب وأشد أساليب تعذيب أسراهم . وكثير من أهل قشتالة (الأسبان) الذين نهبوا روما كانوا على دراية بمحاكم التفتيش الدينية ، كما أن بعض المتطوعين ربما كانوا حديثى العودة من غزو المكسيك . أما الجرمان فكانوا أقل فسادا من الايطاليين ، وأقل قسوة من الأسبان ، وكان المظهر الخشن ، بل والوحشى ، لهؤلاء المقاتلين الغرباء القادمين من وراء الجبال ، يخفى وراءه فى كثير من الأحوال خلقا بسيطا رحيمًا . ولكنهم كانوا قد تشربوا ، فى أول حماس ضد حركة الإصلاح الدينى ، روح مارتن لوثر ومبادئه ، وكانت تسليتهم المفضلة أن يهاجموا أو يدمروا الأشياء التى كانت لها قدسيتها فى عقيدة الكاثوليك وكانوا يضمررون ، دون شفقة أو رحمة ، كراهية دينية لرجال الدين من كل مقام وكل مرتبة وهم الذين يشكلون جزءا كبيرا من سكان روما الحديثة وكانوا يتطلعون فى حماسهم المتعصب الى تقويض عرش عدو المسيح فيطهرون بالدماء والنار أرجاس المدينة البابلية الروحية (١) .

تراجع القوط وموت الاريك

جلا القوط عن روما فى اليوم السادس . وقد تكون الحكمة هى الباعث على تراجعهم غير أنه من المؤكد أن تراجعهم لم يكن نتيجة الخوف (٢) . وتقدم قائدهم الجرىء على رأس جيش محمل بالأسلاب الثمينة والثقيلة على طول طريق أيبيا The Appian way ، صوب ولايات ايطاليا الجنوبية ، مدمرا كل ما تجرأ على اعتراض طريقه ، ومكتفيا ينهب الأقاليم التى لا تبدى مقاومة . وكانت مدينة كابوا عاصمة كمبانيا مدينة شامخة مترفة ، لها مقامها حتى فى أيام تدهورها كثامن مدينة فى الامبراطورية ، وقد توارى مصير تلك المدينة فى زوايا النسيان ، بينما اشتهرت مدينة نولا Nola المجاورة فى تلك المناسبة بقدسية بولينوس الذى كان قنصلا ، ثم راهبا ، ثم أسقفا على التوالى . وعندما كان فى الأربعين من عمره نبذ متعة الثروة والمجد ، والمجتمع والأدب ، ليعيش عيشة العزلة والتفكير . وشجعه تهليل رجال الدين له على ازدراء تقريع أصدقائه الدنيويين ، الذين نسبوا هذا العمل اليائس من جانبه

(١) الشبيهة فى ترفها وفسادها بمدينة بابل القديمة - (الترجمة) .

(٢) يدعى سقراط ، دون أى لون من الصدق أو التعقل ، أن الاريك هرب عندما علم بأن جيوش الامبراطورية الشرقية تجد فى السير لهاجمته .

الى خلل عقلى أو جسمى . وقد حدد اقامته المتواضعة فى احدى ضواحي نولا ، بدافع من تعلق قديم عاطفى بهذا المكان القريب من ضريح القديس فيلكس St. Felix الذى أحاطه ولاء الناس بخمس كنائس كبيرة عامرة . وقد خصص ما تبقى له من ثروة وادراك لخدمة ذلك الشهيد المجيد ، ولم ينقطع فى أى يوم من أيام الاحتفال بعيده عن انشاد الترانيم الدينية التى تشيد بذكره ، وأقام باسمه كنيسة سادسة تفوق الكنائس الخمس الأخرى جمالا ورونقا ، زينها بصورة كثيرة عجيبة من تاريخ العهد القديم والعهد الجديد . وبهذا الحماس المتواصل أصبح ذا حظوة لدى القديس (١) . أو على الأقل لدى الناس ، وبعد عزلة دامت خمسة عشر عاما اضطر القنصل الرومانى الى قبول منصب أسقف نولا ، قبل أن يحدق بها القوط بشهور قلائل . وأثناء الحصار كان من دواعى رضاء بعض رجال الدين أنهم شاهدوا فى أحلامهم أو فى رؤاهم صورة سماوية لراعيهم المقدس ، ولكن سرعان ما ثبت لهم من الأحداث أن القديس فيلكس كان مفتقرا الى القوة أو الى الرغبة ، لكى يحافظ على القطيع الذى كان راعيه فيما مضى . ذلك أن مدينة نولا لم تفلت من الدمار العام . ولم يكن هناك ما يحمى الأسقف الأسير الا ما عرف عنه من براءة وفقر . وانقضى أكثر من أربع سنوات بين نجاح جيوش الأريك فى غزو ايطاليا ، وبين تراجع القوط الاختيارى تحت قيادة خلفه أدولفوس . وخلال هذه الفترة كلها كان لهم مطلق التصرف فى حكم بلاد كانت فى رأى الأقدمين تجمع بين مختلف روائع الطبيعة وروائع الفن . وفى الحق أن الرخاء الذى حققته ايطاليا فى عهد الأنطونينيين The Antonines بدأ يزول شيئا فشيئا بتدهور الامبراطورية . وضاعت ثمار فترة طويلة من السلم تحت قبضة البرابرة القاسية الهمجية ، ولم يستطع هؤلاء البرابرة أنفسهم أن يتذوقوا وسائلك الثرف ورفاهة الحياة التى أعدت للمتعة الايطاليين المتسمين بالركة والثقافة . ومع ذلك فإن كل جندى قوطى كان له الحق فى نصيب كبير من السلع الموفورة ، كالقمح والماشية ، والزيت والنبيد ، وكلها أشياء كانت تجمع يوميا وتستهلك فى المعسكر القوطى ، كما أن كبار المحاربين كانوا يهاجمون (الفيلات) والحدائق التى كان يسكنها فيما مضى لوكوللوس وشيشرون على شاطئ كمبانيا الجميل . وكان أسراهم الواجبون من أبناء وبنات أعضاء السناتو الرومانى يقدمون فى كؤوس كبيرة من الذهب مرصعة بالأحجار النفيسة جرعات كبيرة من نبيذ فالرنيا الى الظافرين المتشامخين ، بينما يمد هؤلاء أطرافهم الضخمة فى ظلال أشجار

(١) قال بولينوس ذات مرة انه يعتقد بأن سانت فيلكس كان يحبه فعلا كما يجب السيد كلبه الصغير .

الدلب التى روعى فى تنسيقها أن تحجب أشعة الشمس المحرقة وتسمح بدفئها المنعش . وزاد من هذه البهجة فى نفوسهم تذكرهم لما لاقوه من محن سابقة ، وكانت المقارنة بين هذه البلاد وبين بلادهم ، وهى تلال سكوديا الكثيبة الجرداء ، وضفاف الدانوب والألب المتجمدة ، تضيف سحرا جديدا الى السعادة التى يستمدونها من المناخ الايطالى .

وسواء أكان هدف ألاريك هو الشهرة أم الغزو أم الثراء ، فانه سعى الى ذلك الهدف بحماس لا يكل ، ولا تخمد شدة أو يشبعه نجاح . وما أن بلغ الطرف الأخير من ايطاليا حتى جذبه منظر مجاور هو منظر جزيرة صقلية الخصبة الهادئة . ولكن حتى امتلاك هذه الجزيرة لم يكن فى نظره سوى خطوة متوسطة نحو الحملة الهامة التى كان يدبر لها فعلا ضد القارة الأفريقية . ولم يكن طول مضيق ريجيوم Rhegium ومضيق مسينا أكثر من اثنى عشر ميلا ، وكان اتساعها فى أضيق نقط العبور ميلا ونصف الميل تقريبا . أما وحوش البحر الخرافية ، وصخور سكيلا ، ودوامة كاربيديس ، فانها لا تخيف الا البحارة الجبناء الذين تعوزهم المهارة ، ولكن بمجرد أن ركبت البحر أول فرقة من القوط ، هبت عاصفة فجائية وأغرقت أو شتتت كثيرا من السفن ، وهنا نالت من شجاعتهم مخاوف عنصر جديد ، وفشلت الخطة كلها بموت ألاريك السابق لأوانه ، بعد مرض لم يدم طويلا ، وحدد موته تلك الفترة المشئومة من فتوحاته . وكشف البرابرة عن طابعهم الوحشى فى جنازة البطل الذى احتفلوا بشجاعته وتوفيقه بأصوات الأسى والحزن . ذلك أنهم سخروا جمهورا من الأسرى فى تحويل مجرى نهر بيوسنتينوس ، وهو نهر صغير ترتطم مياهه بأسوار كنسنتيا Consentia ، وأقاموا الضريح الملكى فى مجرى النهر الذى خلا من المياه ، وزينوه بأسلاب روما الرائعة وعلائم الانتصار عليها ، ثم أعادوا المياه الى مجراها الطبيعى . ولكى تظل البقعة التى دفن فيها جثمان ألاريك سرا لا يعرفه أحد مدى الدهر ، فقد ذبحوا بصورة وحشية جميع الأسرى الذين استخدموا فى تنفيذ ذلك العمل .

بعد موت ألاريك أصبح أدولفوس ملكا للقوط ، وعقد صلحا مع الرومان ، ثم تزوج بلاكيديا Placidia ، أخت أونوريوس غير الشقيقة . وتوغل فى أسبانيا لطرد الغزاة من قبائل الوندال والسويفى والألانى ، ولكنه وقع فريسة الخيانة وقتل . وخلفه واليا Wallia الذى استرد أسبانيا لأونوريوس ، وحصر الوندال فى الجزء الشمالى الغربى من شبه الجزيرة . ثم وطد مركز القوط فى اكويتين .

الفصل الثانى والثلاثون (٣٩٥ - ٤٦٠)

حكم أركادىوس • سانت جون كريسوستم « يوحنا الفم الذهبى » • موت أركادىوس وتولية ثيودوسيوس الأصغر •
ادارة بولكيريا • مغامرات يودوكيا •

حدد تقسيم العالم الرومانى بين ابنى ثيودوسيوس قيام الامبراطورية الشرقية بصورة نهائية ، وهى الامبراطورية التى عاشت ألف سنة وثمانى وخمسين ، منذ أن حكمها أركادىوس الى أن استولى الترك على القسطنطينية ، وهى فى حالة اضمحلال مستمر جاء قبل أوانه • واتخذ حاكم هذه الامبراطورية لنفسه لقب امبراطور الرومان ، واحتفظ به فى اصرار وعناد ، وهو لقب أجوف أصبح فى النهاية شيئا وهميا • وظلت التسمية الوراثية للامبراطور باسم قيصر وأغسطس تعلن أنه الخليفة الشرعى لأول رجل حكم أول أمة • ونافس قصر القسطنطينية فخامة القصر الفارسى ، وربما فاقه روعة ، وتشيد عظات سانت كريسوستم بما اتسم به عهد أركادىوس من ترف وعظمة ، ولكنها تدينه فى الوقت عينه • يقول الرجل : « يلبس الامبراطور على رأسه اكليلا أو تاجا من الذهب مرصعا بالأحجار النفيسة التى لا تقدر قيمتها • وهذه الحلى والأردية الأرجوانية مخصصة لشخصه المقدس دون غيره ، وملابسه الحريرية موشاة بصورة مذهبة تمثل التنين • أما عرشه فمن الذهب السميك • وعندما يخرج على الملأ ، تحف به بطانته وحرسه وحاشيته • وحراهم ، ودروعهم والأجمة خيولهم وزخارفها فهى من الذهب أو لها مظهر الذهب ، ويتوسط دروعهم نقش بارز كبير رائع تحيط به نقوش أصغر حجما تمثل شكل عين الانسان • ويجر العربدة الملكية بغلان لونهما أبيض خالص ، ويتألق عليهما الذهب • أما العربدة نفسها فمن الذهب النقى السميك وهى تستحوذ على اعجاب النظارة وهم يشاهدون الستائر

الأرجوانية ، والبساط الأبيض كالثلج ، وحجم الأحجار النفيسة ، وصفائح الذهب اللامعة التى يشع منها بريق مع حركة العربة • أما الصور الامبراطورية فهى بيضاء على أرضية زرقاء • ويبدو فيها الامبراطور جالسا على عرشه وإلى جانبه أسلحته وخيوله وحراسه ، وتحت قدميه أعداؤه المقهورون فى أغلالهم •

وأقام خلفاء قسطنطين بصورة دائمة فى المدينة الملكية التى شادها على الحدود بين أوروبا وآسيا • وكانوا فى ذلك المكان لا تصل اليهم تهديدات أعدائهم ، وربما لا تتناهى إلى أسماعهم شكاوى شعبهم ، وكانوا مع هبوب كل ريح يتلقون منتجات كل مناخ ، يدفعها أصحابها جزية وأتاوة ، بينما ظلت قوة عاصمتهم المنيعه تتحدى محاولات البرابرة العدوانية عصرا بعد عصر • وامتدت أملاكهم من بحر الادرياتيك إلى نهر السجلة • واحتوت حدود الامبراطورية مساحة تقطعها السفينة فى خمسة وعشرين يوما ، من اقليم سكوذيا المتطرف البرودة إلى اقليم أثيوبيا الشديد الحرارة • وكانت البلدان الآهلة فى تلك الامبراطورية موطننا للفن والعلم ، والترف والثراء ، أما سكانها فقد أخذوا عن الاغريق لغتهم وعاداتهم ، ووصفوا أنفسهم ، فى شيء من مظهر الحقيقة ، بأنهم أكثر بنى الانسان استنارة وحضارة • وكانت الحكومة ملكية غير مقيدة ، أما اسم « الجمهورية الرومانية » الذى احتفظ زمنا طويلا بتراث ضعيف من الحرية ، فقد كان قاصرا على الولايات اللاتينية ، وكان حكام القسطنطينية يقيسون عظمتهم بالطاعة الذليلة التى فرضوها على شعبهم ، ولم يدركوا أن هذا الخلق السلبى يضعف كل ملكة عقلية ويورثها الانحطاط • فالرعايا الذين استسلموا للأوامر المطلقة المستتبدة التى يصدرها مولاهم أصبحوا بنفس القدر عاجزين عن حماية أرواحهم وثرواتهم من هجمات البرابرة ، أو وقاية عقولهم من فظائع الخرافة •

فى السنوات الخمس الأولى من حكم أركاديوس كانت الإدارة تحت سيطرة رئيس حجابيه ، الخصى يوتروبيوس المتسم بالقوة والجشع • ثم سقط يوتروبيوس بعد ثورة من القوط الشرقيين بزعامة تريجيلد Tribigild وجايناس ، وبتحريض من الامبراطورة يودوكسيا • ثم أخمدت الثورة بعد ذلك •

القديس يوحنا كريسوستم

بعد أن مات نكتاريوس الكسول ، خليفة جريجورى نازيانزن ، حارت كنيسة القسطنطينية بين أطماع المتنافسين على المنصب ، الذين لم يتورعوا عن التماس أصوات الشعب أو أصوات صاحب الحظوة ، يوتربيوس ، بالذهب أو الملق . وفى هذه المناسبة يبدو أن يوتربيوس شذ عن مبادئه العادية ، ولم يتأثر حكمه السليم الا بالمزايا السامية التى كان يتمتع بها رجل غريب عن البلاد . ذلك أنه فى رحلة قام بها حديثا الى الشرق أعجبه عظام رجل اسمه يوحنا قسيس أنطاكيا وأحد مواطنيها ، وكان اسمه يتميز بوصف « الفم الذهبى » - كريسوستم - فأرسل أمرا خاصا الى حاكم سوريا يستدعى هذا الرجل ، وبما أن شعب أنطاكيا قد لا يرضيه التخلي عن واعظه المحبوب ، فقد نقل القسيس سرا وخفية فى عربة بريد من أنطاكيا الى القسطنطينية ، وأقر البلاط ، ورجال الدين ، والشعب ، تلقائيا وبالإجماع ، اختيار الوزير يوتربيوس ، وفاق الأسقف الجديد ، كقديس وكخطيب ، كل ما كان ينتظره منه الشعب المتحمس . وقد ولد الفم الذهبى لأسرة نبيلة غنية فى عاصمة سوريا ، وبفضل رعاية أمه الحنون تلقى تعليمه على أيدي أبرع الأساتذة . ودرس فن البلاغة والفصاحة فى مدرسة ليبيانيوس ، وسرعان ما اكتشف هذا السفسطائى الشهير مواهب تلميذه وأعترف فى صراحة وصدق بأن يوحنا كان جديرا بأن يخلفه لو أن المسيحيين لم يستولوا عليه . ودفعته تقواه سريعا الى تلقى سر المعمودية المقدس ، ونبذ مهنة القانون التى أكسبته شرفا وثراء ، ثم الى الانزال فى الصحراء المجاورة حيث قضى ست سنوات فى اخضاع شهوات الجسد بالتكفير الصارم . ثم اضطره ضعفه الى العودة الى مجتمع الناس . وتحت تأثير مليتيوس خصص مواهبه لخدمة الكنيسة . غير أن يوحنا ، وسط أسرته ، وعلى العرش الأسقفى بعد ذلك ، ظل مثابرا على ممارسة فضائل حياة النسك والرهبة . وبعد أن كان سلفه ينفقون الدخول الوافرة على مظاهر العظمة والترف ، حرص هو على توجيهها الى تأسيس المستشفيات ، وأصبحت الجماهير التى يعولها بصدقاته تفضل الاستماع الى أحاديثه البليغة المفيدة على متع المسرح والسيرك . وظلت بلاغته موضع الإعجاب فى أنطاكيا والقسطنطينية قرابة العشرين عاما ، ودون الناس عظامه البليغة واحتفظوا بها فى حرص وعناية حتى بلغ عددها قرابة

ألف من العظات والخطب ، الأمر الذى يمكن نقاد (١) العصور التالية من تقدير ما تمتع به الفم الذهبى من مزية صادقة أصيلة ، وهم ينسبون بالاجماع الى الخطيب المسيحى تمكنه المطلق من اللغة الجزلة المناسبة ، والقدرة على إخفاء ما يريد إخفاءه من مزايا الأشياء ، وهى قدرة استمدتها من معرفته بالبلاغة والفلسفة ، ونسبوا اليه أيضا أن لديه معينة لا ينضب من الاستعارات والتشبيهات ، ومن الأفكار والتصويرات التى تمكنه من تنويع وتوضيح الموضوعات المألوفة ، وأنه يحذق فن إثارة العواطف لخدمة الفضيلة ، وكشف حماقة الرذيلة وخستها فى صدق وحماس كما لو كان يصورها تصويرا مسرحيا .

وترتب على الجهود التى بذلها أسقف القسطنطينية فى محيط رعيته أنها أثارت عليه نوعين من الأعداء ، ووحدت كلمتهما ضده شيئا فشيئا ، وهما رجال الدين الطموحون المتطلعون الذين حسدوه على نجاحه ، والمذنبون العنيدون الذين ساءهم تقيعه وتأنيبه . وعندما كان صوت كريسوستم يجلجل من منبر كنيسة أيا صوفيا ضد انحلال المسيحيين ، كانت سهامه تطيش بين الجماهير دون أن تجرح أخلاق أى فرد أو حتى تترك أثرا عليها . عندما كان يوجه القول ضد ما اتصف به الأغنياء من رذائل خاصة ، كان الفقراء يجدون فى اتهاماته غزاء عابرا ، غير أن الأغنياء المذنبين ظلوا متوارين وراء كثرة عددهم ، كما أنهم كانوا يجدون فى التأنيب نوعا من التفخيم لأنه يتضمن الإشارة الى متعتهم وسمو قدرهم . ولكن عندما ارفع انهرم صوب القمة ضاق حيزه حتى صار نقطة واحدة ، وأصبح للحكام ، والوزراء ، والنخعيان المقربين ، وسيدات البلاط (٢) والامبراطورة يودوكسيا نفسها ، نصيب أكبر من الجرم يقسمونه بين نسبة أقل من المجرمين . وكانت ضماثر هؤلاء المستمعين الى الأسقف تتوقع أن يكون تأنيبه موجها اليهم ، وتشهد بأنه ينطبق

(١) بما أنى أكاد أكون غريبا على العظات الكثيرة التى ألقاها فم الذهب ، فقد وضعت ثقتى فى ناقدين دينيين يعتبران أكثر النقاد حكمة واعتدالا وهما أرازموس ودوبان Dupin غير أن تطرف الأول فى حبه للتقديم يفسد ذوقه الرفيع فى بعض الأحيان ، كما أن اعتبارات الحرص لدى الثانى تقيد ادراكه السليم دائما .

(٢) كانت سيدات القسطنطينية يميزن أنفسهن بعداوتهن أو صداقتهن للفم الذهبى . فكان هناك ثلاث أرامل نبيلات مسرفات - مارسا ، كاستريكا ، يوجرافيا ، يتزعمن اضطهاد الأسقف . وكان من المستحيل عليهن أن يصفحن عن واعظ يتهمن بإخفاء عمرهن وقبحهن بالملايس المزركشة . أما أوليمبيا ، فلم تقل عنهن حماسا ، ولكنها تحمست لقضية أكثر اتساما بالورع والتقوى ، ومن ثم فقد نالت لقب القديسة .

عليهم ، واكسب الواعظ الجريء نفسه حقا خطيرا هو التشهير بالدين
وبالمذنب وتعريضهما لمقت الجمهور وكراهيته . ومن ثم فان السخط
الخفى الذى أحس به البلاط دفعه الى تشجيع التدمير السائد بين رجال
الدين والرهبان فى القسطنطينية ضد الأسقف الذى تعجل اصلاحهم
بحماسة المتقد . فلقد أدان الأسقف من فوق المنبر خادمت رجال الدين
اللاتى تسترن وراء اسم الخادمت أو الشقيقات وهيأت ظروفًا دائمة
للخطيئة أو الفضيحة . واستحسن الأسقف أحر الاستحسان أولئك
النساك الصامتين المنعزلين الذين اعتزلوا العالم ، ولكنه احتقر ، ووصم
بالعار ، الجمهور من الرهبان المنحلين الذين كثيرا ما يزجون شوارع
العاصمة مدفوعين بدوافع اللذة أو المنفعة غير اللاتقة ، ونعتهم بأنهم عار
على مهنتهم المقدسة . واضطر الأسقف الى أن يضيف الى صوت الاقناع
اجراءات العنف التى تخولها له سلطته ، ولم يكن حماسه فى ممارسة
سلطته القضائية الدينية خلوا دائما من الأهواء ، أو مسترشداً بالفطنة
والحكمة على طول الخط . وكان الفم الذهبى بطبيعته حاد (١) الطباع ،
ورغم أنه كان يعمل جاهدا ، بمقتضى تعاليم الانجيل ، على أن يحب
أعداءه ، الا أنه انغمس وتمادى فى كراهية أعداء الله والكنيسة ، وكانت
تعبيراته القارصة وقسمات وجهه المتجهمة تعبر بأكثر مما ينبغى عن
مشاعره وأحاسيسه . وظل متمسكا بعادته السابقة فى تناول طعامه
منفردا مراعاة لبعض اعتبارات الصحة والتشفي ، وهذه العادة البعيدة
عن كرم الضيافة (٢) ، والتى نسبها أعداؤه الى الصلف والكبرياء ، كان
من شأنها على الأقل أن تغذى فيه مزاجه المكتئب غير الاجتماعى . وعلى
هذا النحو انقطع عن ذلك الاختلاط العادى الذى يسهل على المرء
تصريف الأمور والامام بها ، ولهذا وضع فى شماسه سراييون Serapion
ثقة لا يرقى اليها الشك ، وقلما طبق معرفته النظرية بالطبيعة البشرية على

(١) وصف سوزومن Sozomen ، وسقراط بصورة أخص ، أخلاق الفم الذهبى
بطريقة معتدلة غير متحيزة أغضبت من كانوا يعجبون بها دون تبصر . وقد عاش
هذان المؤرخان فى العصر التالى عندما خفت حدة الحزبية ، وتحدا الى الكثيرين
من كانوا على اتصال وثيق بفضائل هذا القديس ونقائصه .

(٢) يدافع بالاديبوس عن الأسقف دفاعا جديا :

- ١ - فهو لم يذق الخمر . ٢ - وكان ضعف معدته يستلزم طعاما خاصا
- ٣ - كثيرا ما كان ينشغل فى العمل أو الدراسة أو العبادة صائما حتى مغيب الشمس .
- ٤ - كان يكره الولائم الكبيرة بضمائرها وطيشها . ٥ - كان يوفر النفقات ويخصصها
للفقراء . ٦ - كان يخشى ، فى عاصمة القسطنطينية ، الدعوات الحزبية وما يترتب
عليها من حسد ولوم .

أخلاق أتباعه أو أنداده وكان أسقف القسطنطينية يدرك نقاء مقاصده ، وربما كان يشعر أيضا بسمو عبقريته ، ومن ثم فقد وسع النطاق الذي تمتد اليه سلطة القضاء الديني للمدينة الامبراطورية ، حتى يتسع مجال جهوده الدينية في خدمة رعاياه ، وذلك المسلك الذي عزاه الدنيويون الى دافع الطمع ، كان يبدو في نظره واجبا مقدسا لا غنى عنه . وفي رحلته الى الولايات الآسيوية عزل ثلاثة عشر أسقفا من أساقفة ليديا وفريجيا ، وأعلن دون تبصر أن هناك فسادا عميقا متمثلا في التهلك ، والمتاجرة بالدين ، أصاب بعدواة الطائفة الأسقفية كلها (١) . فاذا كان هؤلاء الأساقفة أبرياء ، فان تلك الادانة المتهورة الظالمة لابد أن تثير تذمرا يستند الى أساس مكين ، واذا كانوا مذنبين فان شركاءهم العديدين في الذنب سوف يكتشفون سريعا أن سلامتهم الخاصة تتوقف على سقوط رئيس الأساقفة الذي دبروا أمرهم لتصويره في صورة طاغية الكنيسة الشرقية .

ودبر لهذه المؤامرة الدينية توفيلوس Theophilus ، أسقف الاسكندرية ، الذي تجلت ثمار نهبه وسلبه في أعماله المظهيرية . وكان بينه وبين الفم الذهبي بعض خلافات شخصية أذكت فيه نار الكراهية القومية ضد مدينة تتزايد عظمتها الى درجة أنزلته من المرتبة الثانية الى المرتبة الثالثة في العالم المسيحي . وتلبية لدعوة خاصة من الامبراطورة ذهب توفيلوس الى القسطنطينية ومعه عدد ضخم من البحارة المصريين لمواجهة أهل المدينة ، وحاشية من أتباعه الأساقفة لكي يحصل بأصواتهم على أغلبية في المجمع . وعقد المجمع في ضاحية خلقدونية Chalcedon الملقبة باسم « البلوط » حيث كان روفينوس قد أقام كنيسة فخمة وديرا ضخما ، ودامت اجراءات المجلس أربعة عشر يوما واستغرقت أربع عشرة جلسة . واتهم أسقف وشماس رئيس أساقفة القسطنطينية ، غير أن المواد السبع والأربعين التي قدمها ضده كانت من التفاهة وبعد الاحتمال بحيث يمكن اعتبارها اطراء منصفا كاملا له . وقد استدعى الفم الذهبي أربع مرات متوالية ، ولكنه أبى أن يأتين أعداءه اللوذين على شخصه أو سمعته . وكان هؤلاء الأعداء من الحرص بحيث رفضوا بحث أية اتهامات معينة وأدانوا عصيانهم وتمرده ، وأصدروا في عجلة قرارا بعزله . وفور ذلك طلب مجمع « البلوط » من الامبراطور أن يصادق على

(١) أعلن الفم الذهبي عن رأيه الحر في أن نسبة الأساقفة الذين يمكن أن ينالوا خلاصهم صغيرة جدا اذا قيست بمن سوف يهلكون .

حكمهم ويأمر بتنفيذه ، وأوعزوا اليه في تساهل أن يوقع قصاص الخيانة على الواعظ الجريء الذى سب الامبراطورة يودوكسيا نفسها ونعتها باسم ايزابل Jezebel (١) . وقبض على رئيس الأساقفة فى خشونة ، واقتاده أحد رسل الامبراطور خلال المدينة ، ثم أنزله الى البر بعد رحلة بحرية قصيرة الى القرب من مدخل البحر الأسود Euxine ، غير أنه استدعى من هناك بصورة مجيدة قبل انقضاء يومين .

وكانت الدهشة الأولى قد ألجمت أفواه أفراد شعبه الأمين فوقوا من ذلك الحدث موقفا سلبيا . غير أنهم هبوا بعد ذلك فى غضبة اجتماعية لا تقاوم . وتمكن توفيلوس من الهرب ، غير أن الجمع المختلط من الرهبان والبحارة المصريين ذبح دون رحمة فى شوارع القسطنطينية . وحدث فى ذلك الوقت زلزال جاء فى أوانه دليلا على تدخل السماء ، واندفعت الجماهير المتمردة نحو أبواب القصر كالسيل الجارف ، وطفى الخوف أو تأنيب الضمير على الامبراطورة ، فألقت بنفسها تحت أقدام أركادايوس ، واعترفت بأن السلام لا يمكن شراؤه الا باعادة الفم الذهبى . وكان البسفور مغطى بعدد لا يحصى من السفن ، وشواطئ أوروبا وآسيا مغمورة بالأضواء ، وسار موكب رئيس الأساقفة من الميناء الى الكاتدرائية وسط تهليل الجمهور المنتصر الظافر ، ووافق الأسقف فى سهولة أكثر مما ينبغى على أن يعود الى ممارسة مهامه قبل أن يلغى الحكم الذى صدر ضده بسلطة مجمع كنسى آخر . وكان الفم الذهبى يجهل الخطر المحدق به ، أو لا يأبه به ، ومن ثم فقد اندفع فى حماسه ، وربما فى سخطه ، وهاجم فى خشونة وغلظة رذائل النساء ، وأدان ألوان التمجيد الدنيوية المدنسة التى توجه الى تمثال الامبراطورة على مقربة من النطاق الذى توجد فيه كنيسة آيا صوفيا . وأغرى تهوره أعداءه على الهاب روح الكبرياء فى صدر يودوكسيا بأن أبلغوها ، أو اختلقوا لها الديباجة الشهيرة التى قالها الأسقف كمقدمة لاحدى عظاته ، « وثارت هيروديا مرة أخرى ، وعاددت الرقص ، وطالبت ثانية برأس يوحنا » . وهى اشارة نابية كان من المستحيل عليها ، كملكة وكامرأة ، أن تصفح عنها . واستخدمت فترة هدنة غادرة قصيرة لتدبير اجراءات أكثر فعالية فى تشويه سمعة الأسقف واهلاكه . فاجتمع مجلس كبير من أعيان الشرق ، وأوحى اليهم توفيلوس من بعيد بما يريد ، فأيّدوا صحة الحكم

(١) زوجة الملك الاسرائيلى آخاب . التى اشتهرت بخبثها وقسوتها (العهد القديم - سفر الملوك الاول - اصحاح ٢١) - (الترجمة) .

السابق دون أن يبحثوا نصيبه من العدالة ، واستقدمت الى العاصمة
فصيلة من القوات البربرية لقمع مشاعر الناس . وفي ليلة عيد الفصح
قطع الجنود في غلظة سير الاحتفال الرسمي بالمعمودية ، وأزعجوا طلاب
المعمودية العراة الوادعين ، وانتهكوا بوجودهم الأسرار المهيبة للعبادة
المسيحية . واحتل أرساكيوس كنيسة أيا صوفيا والعرش الأسقفى ،
وانسحب الكاثوليك الى حمامات القسطنطينية ثم الى الحقول حيث ظل
الحراس والأساقفة والحكام يطاردونهم . ثم جاء اليوم المشنوم الذى
نفى فيه الغم الذهبى للمرة الثانية والأخيرة . وتميز ذلك اليوم بحرق
الكاتدرائية ، ومجلس السناتو والمباني المجاورة ، ونسبت هذه الكارثة ،
دون دليل ولكن فى شئ من الاحتمال ، الى اليأس الذى تملك الفريق
المضطهد .

ولقد كان للشاعر والخطيب الرومانى شيشرون بعض الفضل لأن
نفية الاختيارى قد حفظ للدولة سلامها ، غير أن خضوع الغم الذهبى
كان واجبا محتما على رجل مسيحي وفرد من الرعية . ولم تستمع
الامبراطورة العنيدة الى توسلاته الذليلة بأن يسمح له بالاقامة فى
كيزيكوس Cyzicus أو نيقيوميديا ، وقررت أن يكون منفاه فى
مدينة كوكوسوس Cucusus بين سلاسل جبال طوروس فى أرمينيا
الصغرى . وكان هناك أهل خفى فى أن الأصقف سوف يهلك فى تلك
المسيرة التى تكتنفها الصعاب والأخطار طوال سبعين يوما فى حرارة
الصيف ، مخترقا ولايات آسيا الصغرى ، حيث يكون بصورة مستمرة
تحت رحمة الهجمات العدوانية التى يقوم بها الايسوريون Isaurians
وعرضة لخطر أكبر هو غضب الرهبان وحقدهم . ورغم ذلك وصل الغم
الذهبي سالما الى منفاه ، وكانت السنوات الثلاث التى قضها فى
كوكوسوس وفى مدينة أرابيسوس المجاورة آخر سنوات عمره وأعظمها
مجدا . فقد أضفى غيابه واضطهاده قدسية على شخصه ، ولم يعد
الناس يذكرون له أخطاء ادارته ، بل أصبح كل لسان يلهج بعبقريته
وفضيلته ، وتركزت أنظار العالم المسيحي فى اهتمام واحترام على تلك
البقعة الصحراوية بين جبال طوروس . وفى تلك العزلة اكتسب عقله
المتقد قوة ونشاطا بفضل المحن التى تعرض لها ، وظل على اتصال قوى
متكرر بأبعد الولايات ، يحض الطوائف المنفصلة المكونة من أنصاره
المخلصين على التمسك بولائهم ، ويشجعهم على تدمير معابد فينيقيا ،
واستئصال الهرطقة من جزيرة قبرص ، وامتدت رعايته الدينية الى بعثات
التبشير فى فارس وسكوديا ، وأرسل مندوبيه لمفاوضة الحبر الرومانى
والامبراطور أونوريوس . وطالب فى جراءة أن تحال قضيته من المجمع

الجزئى الى المحكمة العليا التى تتألف من مجلس حر عام • وظل عمل هذا الرجل فى منفاه حرا طليقا ، غير أن جسده الأسير تعرض لانتقام ظالميه الذين ظلوا يسيئون استغلال اسم أركاديوس وسلطانه • فأرسلوا أمرا يقضى بأبعاد الفم الذهبى على الفور الى أقصى صحراء بيتيوس ، ونفذ حراسه تلك التعليمات القاسية بكل أمانة ، وقبل أن يصل الأسقف الى شاطئ البحر الأسود وافاه القدر فى كومانا باقليم بنطس Pontus وهو فى الستين من عمره • واعترف الجيل التالى ببراءته وفضله ، وربما أصبح رؤساء أساقفة الشرق يحمرون خجلا لأن أجدادهم كانوا أعداء الفم الذهبى ، واتجهوا شيئا فشيئا ، بفضل ما أبداه الحبر الرومانى من حزم ، نحو رد التشريف والتكريم الى ذلك الاسم المبجل • وبناء على الالتماس التقى الذى قدمه الناس ورجال الدين فى القسطنطينية نقلت رفاتة ، بعد ثلاثين سنة من موته ، من قبرها المغمور الى المدينة الملكية • وتقدم الامبراطور ثيودوسيوس الأصغر لاستقبالها فى مدينة خلقدونية ، وارتمى على نعش الأسقف متوسلا الى القديس الذى أهين وأسىء اليه ، باسم أبيه وأمه المذنبين أركاديوس ويودوكسيا - أن يمنحه العصفح والغفران •

موت أركاديوس وارتقاء ثيودوسيوس الأصغر للعرش

ومع ذلك فان شكنا معقولا يساورنا فى أن أية وصمة من ذنب وراثى يمكن أن تنتقل من أركاديوس الى خليفته • ذلك أن يودوكسيا كانت امرأة جميلة صغيرة السن ، منغمسة فى أهوائها وتحقر زوجها : وكان الكونت جون ، على أقل تقدير ، يحظى بثقة الامبراطورة ويتمتع بحظوة لديها ، حتى ان الناس كانوا يقولون انه الأب الحقيقى لثيودوسيوس الأصغر • ومع ذلك فان الزوج التقى اعتبر مولد ابنه حادثا موفقا ومشرفا أكثر ما يكون التوفيق والتشريف بالنسبة لشخصه ، وبالنسبة لأسرته ، وللعالم الشرقى ، ومنح الطفل الملكى لقب قيصر ولقب أغسطس ، وكان هذا تكريما لم يسبق له مثيل • ولم تمر على ذلك أربع سنوات حتى ماتت يودوكسيا نتيجة اجهاض ، وهذا الموت السابق لأوانه خيب نبوءة أسقف مقدس حين تنبأ ، وسقط السرور الشامل بمولد الطفل ، أن الامبراطورة سوف تعيش لترى ابنها يحكم حكما طويلا موفقا • وهلل الكاثوليك لعدالة السماء التى انتقمت لاضطهاد القديس يوحنا الفم الذهبى ، وربما كان لامبراطور هو الشخص الوحيد الذى انتحب فى

اخلاص لخسارة يودوكسيا المتعالية الطموحة . وأحزنته هذه المحنة العائلية أكثر مما أحزنته الكوارث العامة التي أصابت الشرق - الفارات الداعرة التي كان يقوم بها لصوصى ايسسوريا من بنطس الى فلسطين دون أن ينالوا قصاصا من الحكومة التي رميت من أجل ذلك بالضعف ، والزلازل والجرائق ، والمجاعات وأسراب الجراد - وكلها كوارث نسبها الشعب المتذمر أيضا الى عجز ملك البلاد . وأخيرا ، وفى السنة الحادية والثلاثين من عمره ، وبعد حكم دام ثلاثة عشر عاما (اذا أسأنا الى كلمة الحكم) وثلاثة أشهر وخمسة عشر يوما ، مات أركاديوس فى قصر القسطنطينية . وليس فى مقدورنا أن نصور شخصيته ، حيث ان تلك الفترة الحافلة بالمواد التاريخية ، لا نستطيع أن نلاحظ فيها عملا واحدا يمكن أن ينسب بحق الى ابن ثيودوسيوس العظيم .

وفى الحق أن المؤرخ بروكوبيوس (١) ذكر أن عقل الامبراطور المحتضر قد أضاعه شعاع من الفطنة الانسانية ، أو الحكمة السماوية ، واستعرض أركاديوس فى تبصر وقلق حالة العجز التي كان فيها ابنه ثيودوسيوس الذى لم يتجاوز السابعة من عمره ، والفتن الخطيرة التي قد تقوم بها الأقلية ، وروح التطلع والطموح التي كان يتصف بها يزديجرد Jezdegerd ، الملك الفارسى . وبدلا من أن يستميل ولاء أحد أفراد رعيته الطموحين باشتراكه فى السيادة العليا ، فقد ناشد شهامة ملك ومروءته ، ووضع صولجان الشرق ، بمقتضى وصية رسمية ، فى يد يزديجرد نفسه . وقبل الوصى الملكى هذه الأمانة الكريمة وأداها باخلاص لا نظير له ، وأصبحت طفولة ثيودوسيوس تحت حماية جيوش فارس ومجالسها . هذه هى الرواية العجيبة التي رواها بروكوبيوس ، والتي لا ينكرها المؤرخ أجاثياس ، رغم أنه يخالفه فى حكمه ويتهم حكمة امبراطور مسيحي يبلغ به التهور درجة تجعله يسلم ابنه وممتلكاته الى منافس وثنى أجنبي لا يعلم مدى اخلاصه ، رغم أنه كان فى عمله هذا موقفا . ومن الجائز أن هذا الموضوع السياسى قد طرح للمناقشة أمام بلاط الامبراطور جستنيان بعد مائة وخمسين سنة من هذا التاريخ ، غير أن المؤرخ الحصيف لابد أن يأبى مناقشة حكمة الوصية التي كتبها أركاديوس حتى يتأكد من صحة هذه الرواية . ومادامت هذه المسألة لا نظير لها فى تاريخ العالم ، فانه يحق لنا أن نتطلب اثباتها بدليل اجماعى

(١) مؤرخ بيزنطى فى القرن السادس بعد الميلاد - (الترجمة) .

قاطع من أشخاص كانوا معاصرين لما حدث • ولا بد أن ما فى هذا الحادث من بدعه غريبة تثير شكوكنا ، قد لفتت انظار هؤلاء المعاصرين ، ومن ثم فان صحتهم جميعا انما يهدم الرواية الباطلة التى ذاعت فى العصر التالى •

وبمقتضى قواعد الفقه الرومانى ، اذا جاز أن تطبق على الاملاك العامة مثلما تطبق على الملكية الخاصة ، كان من حق الامبراطور أونوريوس أن يصبح وصيا على ابن أخيه حتى يبلغ الرابعة عشرة من عمره على الأقل • غير أن ضعف أونوريوس ، والكواثر التى أصابت البلاد فى عهده ، لم تجعله أهلا للمطالبة بهذا الحق الطبيعى • وكان هناك انفصال مطلق بين الملكتين من حيث المصلحة ، وقطعية كاملة من حيث المودة ، الى درجة أن القسطنطينية كان يمكن أن تقبل الانصياع لأوامر البلاط الفارسى أكثر من قبولها الانصياع لأوامر البلاط الايطالى • وعندما يكون ضعف الحاكم مستترا وراء مظاهر الرجولة والحكمة ، فان أتفه المقربين اليه قد ينازعونه سيادة القصر سرا ، ويصدرون الى الولايات الخاضعة له أوامر مولاهم الذى يوجهونه ويحتقرونه • غير أن وزراء الملك الطفل الذى لا يستطيع أن يشد أزرهم بتأييد من اسمه الملكى ، لابد أن يحصلوا على سلطة مستقلة ، ويمارسونها • ومن ثم فان كبار رجال الدولة والجيش الذين تولوا مناصبهم قبل موت أركادىوس كونوا أرسنقراطية كان يمكن أن توحى اليهم بفكرة جمهورية حرة • ومن حسن الحظ أن حكم الامبراطورية الشرقية اضطلع به الوالى أنثيميوس الذى مكنته قدراته الممتازة من السيطرة الدائمة على عقول أئداده • وكانت سلامة الامبراطور الصغير دليلا على ما تحلى به أنثيميوس من جدارة ونزاهة ، كما أن حزمه الحصيف دعم قوة حكم الملك الطفل وأبقى على حسن سمعته • وفى ذلك الوقت كان هناك جيش ضخم من البرابرة تحت قيادة ألدن Uldin معسكرا فى قلب اقليم تراقيا • ورفض ألدن فى كبرياء كل شروط التسوية ، وأعلن الى السفراء الرومان ، مشيرا الى الشمس المشرقة ، أن مدار ذلك الكوكب وحده هو الذى ينهى فتوحات الهون ، غير أن حلفاءه اقتنعوا فيما بينهم وبين أنفسهم بعدالة وزراء الامبراطور وسخائهم ، فدخلوا عنه • ومن ثم اضطر ألدن الى اجتياز الدانوب مرة أخرى ، وأبديت تقريبا قبيلة سكبرى Scyrrى التى كانت تشكل مؤخرة الجيش ، وتشنت عدة آلاف من الأسرى الذين سخروا فى زراعة حقول آسيا • وفى وسط هذا الظفر العام أحيطت القسطنطينية بأسوار جديدة أكثر امتدادا ، وأعيدت

حصون مدن الليريا بنفس الاهتمام واليقظة ، وأعدت خطة حكيمة تهدف الى تأمين السيطرة على الدانوب في مدى سبع سنوات ، ببناء أسطول دائم قوامه مائتان وخمسون سفينة مسلحة تتحكم في ذلك النهر .

حكم بولكيريا

غير أن الرومان كانوا قد اعتادوا فترة طويلة على وجود سلطة ملكية ، بحيث أنهم سمحوا لأول فرد من أفراد الأسرة الامبراطورية أظهر شجاعه وحمه ، رغم أنه كان من الاناث ، بأن يرتقى عرش ثيودوسيوس الشاغر . وهكذا تولت الملك أخته بولكيريا التي لم تكن تكبره بأكثر من عامين ، وأطلق عليها وهي في السادسة لقب أوغسطا Augusta . ورغم أن الأهواء أو الدسائس كانت تمكر شعبيتها أحيانا ، فقد ظلت تحكم الامبراطورية الشرقية قرابة الأربعين عاما ، طوال الفترة التي كان فيها أخوها قاصرا ، وبعد وفاته ، وذلك باسمها وباسم ماركيانوس الذي كان زوجها بالاسم فقط . وقد فضلت بولكيريا حياة العزوبة بدافع من الحكمة أو الدين ، ورغم بعض الاتهامات التي مست عفتها وطهرها ، فإن ذلك القرار الذي اتخذته وشاركتها فيه شقيقتها أركاديا ومارينا أشاد به العالم المسيحي كمجهود جليل للتقوى البطولية . وفي حضور رجال الدين والشعب نذر بنات أركاديوس الثلاث عفتن لله ، وكتب هذا الالتزام بالعهد المهيب على لوحة من الذهب والجواهر ، ثم قرأه العذارى الثلاث على الملأ في كنيسة القسطنطينية الكبرى . وتحول قصرهن الى دير ، وأصبح محظورا كل الحظر على كل الذكور اجتياز الأعتاب المقدسة - فيما عدا القساوسة الذين يهدون ضماثرهن ، وهم القديسون الذين نسوا الفرق بين الجنسين . وكونت بولكيريا ، وشقيقتها ، وحاشية منتقاة من العذارى المقربات مجتمعا دينيا : ونبد الجميع زهو الملابس وخيلاه ، وكثيرا ما كن يلجأن الى الصوم حتى عن طعامهن البسيط المعتدل ، وخصصن جزءا من الوقت للتطريز وأشغال الابرّة ، وكرسن عدة ساعات من الليل والنهار للصلوات والترانيم . وجملت العذراء المسيحية تقواها وورعها بحماس الامبراطورة وسخائها . ويصف التاريخ الكنسى تلك الكنائس الفخمة التي شادتها بولكيريا من مالها في كل ولايات الشرق ، ومؤسسات البر التي أقامتها لمنفعة الغرباء والفقراء ، والمنح الوفيرة التي خصصتها بصورة دائمة لجمعيات الرهبنة ، والصراصة والنشاط اللذين اتسمت بهما جهودها في قمع بدع نسطوريوس ويوتيكيوس . وكان المفروض أن مثل هذه الفضائل تنال حظوة خاصة

لدى الله ، ومن ثم فإن هذه الامبراطورة القديسة كان يتجلى لها فى الرؤيا أو عن طريق الوحي والالهام (١) ما يمكنها من معرفة الأماكن التى دفنت فيها جثث الشهداء ، والتنبؤ بأحداث المستقبل . ومع ذلك فإن تعبد بولكيريا لم يصرف اهتمامها الذى لا يكل ولا يتعب عن متابعة الأمور الدينيوية . ويبدو أنها كانت الوحيدة بين كل ذرية ثيودوسيوس ، التى ورثت عنهم قسما من قدراته وروحه الشهمة . وقد استغلت تمكنها من معرفة واستخدام اللغتين اليونانية واللاتينية فى مناسبات التحدث والكتابة فى الشئون العامة . وكانت تزن مناقشاتها وزنا ناضجا ، وتتوخى الحسم والسرعة فى أعمالها . وبينما كانت تدير عجلة الحكم دون زهو أو جلبة ، كانت تنسب فى فطنة وحكمة الى عبقرية الامبراطور كل ما اتسم به عهده من هدوء طويل . ومع أن السنوات الأخيرة من حياته الهادئة شاهدت جيوش أتيلاء تدهم أوروبا ، إلا أن الولايات الآسيوية الأكثر اتساعا ظلت تستمتع براحة عميقة دائمة . ولم يصل ثيودوسيوس الأصغر مطلقا الى حالة الضرورة الشائنة التى ترغمه على مجابهة وعقاب فرد من أفراد رعيته يثور عليه . وبما أننا لا نستطيع أن نشيد فى هذا الشأن بقوة حكم بولكيريا ، فلا بد لنا من بعض الاشارة بما اتسم به هذا الحكم من الاعتدال والازدهار .

واهتم العالم الرومانى اهتماما عميقا بتعليم مليكه ، فأعدت له فى حكمة دراسة منظمة وتدريب رتيب ، يشتملان على تدريبات التروكوب العسكرية ، والرماية بالقوس ، ودراسات حرة فى القواعد والبلاغة والفلسفة . والتمس أبرع أساتذة الشرق فى تطلع وطموح أن يعهد اليهم برعاية تلميذهم الملكى ، وسمح لعدد من الشبان النبلاء بدخول القصر ليث روح الجدة والمثابرة فيه عن طريق المناقشة بين الأصدقاء . واضطلعت بولكيريا وحدها بالمهمة الكبيرة ، مهمة تعليم أخيها فنون الحكم . غير أن تعاليمها قد تشجع على بعض الشك فى مدى كفايتها أو فى نقاء مقاصدها . فقد علمته أن يحتفظ بمسلك الجدة والجلالة ، وأن يسير

(١) رأت بولكيريا فى أحلام متكررة ما يدلها على المكان الذى دفنت فيه جثث الأربعين شهيدا . وكان المكان فى أول الأمر فى منطقة يقع فيها منزل وحديقة امرأة من القسطنطينية ، ثم أصبح ديرا لزمبان مقدونيين ، ثم كنيسة القديس طيرسوس التى بناها سيزاريوس ، الذى كان قنصلا فى سنة ٣٩٧ م . واندثرت تقريبا ذكرى تلك الجثث . ورغم الرغبات الصالحة التى يبدؤها دكتور جودتن Dr. Jortin فليس من السهل تبرئة بولكيريا من أنها كان لها نصيب هذا التدليس الدينى ، الذى لابد أنه حدث عندما كان عمرها أكثر من خمسة وثلاثين عاما .

ويمسك أرديته ، ويجلس على العرش ، بطريقة تتناسب مع ملك عظيم ، وأن يتورع عن الضحك ، وأن يصغى إلى المتحدث إليه في تنازل وتفضل ، وبعبارة موجزة ، علمته أن يمثل الطابع الخارجى لامبراطور روماني في رشاقة ووقار . غير أن ثيودوسيوس لم يتحرك أبدا لتحمل ثقل اسمه المتألق المرموق وعظمته ، وبدلا من أن يرتفع إلى محاكاة أجداده ، انحدر (إذا جاز لنا أن نجرؤ على قياس درجات العجز) إلى مستوى أدنى من مستوى ضعف والده وعنه . فقد ساعدت أركاديوس وأونوريوس تلك الرعاية الأبوية التي يوجهها نحو بنيه والد ينفذ دروسه بسلطانه وقدرته . غير أن الأمير التمس ، الذي يرتدى الحلة الملكية وهو في المهد صبيا لا بد أن يظل غريبا على صوت الحق . ومن ثم فإن ابن أركاديوس حكم عليه بأن يقضى طفولته الدائمة محاطا بحاشية ذليلة من النساء والخصيان ، ولا شيء غير ذلك . وشغل فراغه الطويل الذي توفر له نتيجة إهماله للواجبات الأساسية التي تتصل بمنصبه الرفيع ، بالوان التسلية التافهة والدراسات غير المجدية . وكان الصيد هو النشاط الوحيد الذي يفره على تجاوز حدود القصر ، ولكنه ثابر أشد المثابرة على أعمال التصوير والنحت الآلية التي كان يمارسها أحيانا على ضوء مصباح في منتصف الليل . ونسخ الكتب الدينية بخط ورشيقي جميل جعل الامبراطور الروماني جديرا بالصفة الفريدة التي أطلقت عليه ، وهي « الخطاط البارع » ، ولما كان ثيودوسيوس محجوبا عن العالم بستار لا نفاذ منه ، فقد وضع ثقته في الأشخاص الذين أحبهم ، وأحب أولئك الذين درجوا على تسليته وتملقه ، وهو الكسول قاعد الهمة . ولما كان من عادته ألا يمحس الأوراق التي تقدم إليه لتوقيعها باسمه الملكي ، فكثيرا ما نفذت باسمه أعمال طائلة تتنافى مع خلقه وبمقتها أشد المقت . وكان الامبراطور نفسه عفيفا ، معتدلا سخيا ، رحيما ، غير أن هذه الصفات - التي لا تستحق أن تسمى فضائل الا اذا دعمتها الشجاعة ونظمتهما الحكمة - قلما كان لها نفع أو فائدة ، بل لقد ثبت أنها أضرت بالناس في بعض الأحيان وكان عقله الذي أضاعه التعليم الملكي واقما تحت ضغط الخرافات التافهة الوضيعة ، فانحط وتدهور . وكان يصوم وينشد المزامير ، ويصدق المعجزات والمبادئ التي غذى بها إيمانه بصورة مستمرة . وعبد ثيودوسيوس في ورع وخشوع من مات ومن كان حيا من قديسي الكنيسة الكاثوليكية . وحدث مرة أن راهبا وقحا أصدر ضد مليكه جرما كنسيا ، فرفض أن يتناول الطعام حتى يتنازل الراهب بشيفاء الجرح الروحي الذي أصابه به .

مغامرات يودوكيا

ان قصة عذراء جميلة فاضلة ترتفع من حالتها المغمورة الى العرش الامبراطورى ، يمكن أن تعتبر رواية لا تصدق ، لو لم تكن هذه القصة قد ثبت صدقها فى زواج ثيودوسيوس . والقصة أن أثينيس Athenais الشهيرة علمها والدها الفيلسوف ليونتيوس ديانة اليونان وعلومهم . وكان للفيلسوف الأثينى رأى صائب فى معاصريه جعله يقسم ميراثه بين ابنه تاركا لابنتيه اثنا صغيرا قدره مائة قطعة من الذهب ، وكله ثقة قوية فى أن جمالها وسجاياها سوف تكون نصيبا يكفيها . وسرعان ما اضطرت الفتاة الى اللجوء الى القسطنطينية هربا من غيرة شقيقها وجشعها ، لتلقى بنفسها تحت أقدام بولكيريا . أملا فى عدالتها أو فى نوال حظوة لديها ، واستمعت الأميرة الحليفة الى شكواها التى عبرت عنها فى لغة فصيحة بليغة ، وأسرت فى نفسها أن تصبح ابنة الفيلسوف ليونتيوس الزوجة المقبلة لامبراطور الشرق الذى بلغ اذ ذاك العشرين من عمره . وكان من السهل عليها أن تثير فضول شقيقها بالصورة الشائقة التى رسمتها لمفاتن أثينيس : فعيناهما نجلاوان واسعتان ، وأنفها دقيق متناسب ، وبشرتها شقراء ناصعة ، وخصائل شعرها فى لون الذهب ، وقوامها نحيل ممشوق ومسلكها رشيق رقيق ، كما أنها تتمتع بادراك هذبته الدراسة وبفضيلة عركتها المحنة . واختبأ ثيودوسيوس وراء ستر فى غرفة شقيقته التى سمحت له بمشاهدة العذراء الأثينية ، وسرعان ما أعلن الشاب الوديع عن حبه النقى الشريف واحتفل بالزواج الملكى وسط تهليل العاصمة والولايات . وكان من السهل اغراء أثينيس على التبرؤ من أخطاء الوثنية ، وأطلق عليها فى المعمودية الاسم المسيحى ، يودوكيا ، غير أن بولكيريا حرصت على عدم منحها لقب أوغسطا حتى أثبتت أنها غير عقيم ، وأنجبت بنتا تزوجت بعد خمسة عشر عاما من امبراطور الغرب . ثم استدعت يودوكيا شقيقها ، وأطاع الشقيقان فى شئ من القلق أمرها الامبراطورى . ولما كان من السهل عليها أن تصفح عن قسوتها التى عادت عليها بالحظ والتوفيق ، فقد أشبعت فى نفسها حذب الشقيقة ، أو غرورها ، بترقيتهما الى منصب القنصل والوالى . وفى وسط ترف القصر وأبهته ظلت تنمى تلك الفنون الذكية الأصيلة التى أسهمت فى عظمتها ، وكانت من الحكمة بحيث كرسست مواهبها لتكريم الدين وتكريم زوجها . فآلفت شرحا شعريا للكتب الثمانية الأولى من العهد القديم « (التوراه) . ولنبوءات دانيال وزكريا ، وجمعت

مقتبسات من أشعار هوميروس ، وطبقت قصة سانت سيبريانوس على حياة المسيح ومعجزاته ، وكتبت هديجا تشيد فيه بانتصارات ثيودوسيوس الفارسية . وقوبلت كتاباتها باستحسان أبناء عصرها الأذلاء المؤمنين بالخرافات ، ولم يوجه اليها النقد المتسلسل بالصراحة وعدم التحيز ما يقلل من شأنها . ولم يفتر حب الامبراطور لزوجته بمرور الزمن وباستحواذه عليها ، وبعد أن زوجت يودوكيا ابنتها سمح لها بأن تفي بنذور الشكر ، وتقوم برحلة حج مقدسة الى اورشليم . وقد تبدو مسيرتها الى الشرق غير متفقة مع روح التواضع المسيحي لأنها أحيطت بمظاهر الأبهة والعظمة . فقد جلست على عرش من الذهب والجواهر ، وألقت على السناتو فى مدينة أنطاكيا خطابا بليغا ، أعلنت فيه عن عزمها الملكي على توسيع أسوار المدينة ، وتبرعت بمنحة قدرها مائتان من الجنيهات الذهبية لاعادة الحمامات العامة ، وقبلت التماثيل التى قررت أنطاكيا اهداءها لها عرفانا بجميلها . وفى الأرض المقدسة فاقت صدقاتها ، والمؤسسات الدينية التى أمرت بها ، سخاء هيلانة العظيمة وأريحيثها ، ومع أن هذا السخاء الزائد كان على حساب فقر الخزانة العامة ، الا أنها وجدت متعة فى شعورها بأنها سوف تعود الى القسطنطينية ومعها السلاسل التى قيد بها القديس بطرس ، وذراع القديس اسطفان اليمنى ، وصورة أصيلة للعدراء مريم رسمها القديس لوقا . غير أن هذا الحج المقدس كان النهاية المشئومة لأمجاد يودوكيا . فقد أغرتها العظمة الجوفاء التى تشبعت بها على التطلع فى طموح الى حكم الامبراطورية الشرقية دون أن تهتم كثيرا بفضل بولكيريا عليها والتزاماتها نحوها ، فساد القصر الملكي نزاع بين المرأتين ، غير أن سمو مكانة شقيقة ثيودوسيوس كفل لها الغلبة فى نهاية الأمر . وجاء اعدام بولينوس ، رئيس الديوان ، والعار الذى لحق بكيروز Cyrus حاكم الشرق البريتورى ، دليلا أقنع الناس بأن خطوة يودوكيا لا تكفى لحماية أخلص أصدقائها ، كما أن الجمال الخارق الذى اتصف به بولينوس شجع على انتشار اشاعة خفية بأن الذنب الذى اقترفه كان ذنب عاشق وصل الى قلب يودوكيا . وبمجرد أن أدركت الامبراطورة أنها خسرت محبة زوجها ثيودوسيوس الى غير رجعة ، التمسّت أن يأذن لها بالانسحاب الى اورشليم حيث تعيش فى عزلة بعيدة . وأجيبّت الى طلبها غير أن غيرة ثيودوسيوس ، أو روح الانتقام التى تملكّت بولكيريا تعقبتها فى هذا الانسحاب الأخير ، وكلف ساترئينوس رئيس الحاشية أن يقتل اثنين من رجال الدين كانا أقرب الأتباع اليها . وانتقمّت لهما يودوكيا على الفور بقتل رئيس الحاشية . ويبدو أن الانفعالات النائرة الجامحة التى أظهرتها فى هذه المناسبة المريبة بررت قسوة ثيودوسيوس عليها ، فجردت

الامبراطورة بصورة شائنة من أمجاد منصبها ، ولحقها العار في نظر العالم ، وربما كان ذلك ظلما . وقضيت يودوكيا بقية حياتها ، وقدرها ستة عشر عاما تقريبا ، في المنفى والتعب . وتقدم بها العمر ، ومات زوجها ثيودوسيوس ، وحلت المحن بابنتها الوحيدة التي سيقنت أسيرة من روما الى قرطاجة ، واندمجت بولكيريا في مجتمع الرهبان المقدسين في فلسطين ، كل أولئك دعم في عقلها النزعة الدينية . وبعد تجربة كاملة لتقلبات الحياة البشرية ماتت ابنة الفيلسوف ليونتيوس في اورشليم في السابعة والستين من عمرها ، وكانت تعترض وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة أنها لم تتجاوز مطلقا حدود الطهر والصدقة .

قامت بعد ذلك حرب غير حاسمة ضد فارس ، وأدت هذه الحرب الى سلام دام ثمانين عاما . وقسمت أرمينيا بين الفرس والرومان .

الفصل الثالث والثلاثون

(٤٣٩ - ٤٣١)

الوندال يغزون أفريقيا • القديس أوغسطين وحصار
مدينة هيبو • نهب مدينة قرطاجة • قصة النيام السبعة •

مات أونوريوس بمرض الاستسقاء في سنة ٤٢٣ • وخلفه في النهاية
فالتينيان الثالث الذى كان فى السادسة من عمره • وهو ابن جالا
بلاكيديا من القائد قسطنطيوس (الذى تزوجته بعد وفاة أدولفوس) ،
وابن عم ثيودوسيوس الأصغر • وحكمت بلاكيديا خمسة وعشرين عاما
باسم ابنها • وكانت جيوشها تحت قيادة ايتيوس وبونيفاس Boniface
اللذين يصفهما جيبون Gibbon بأنهما « آخر الرومان » • وبعد أن
تآمر ايتيوس على الحط من شان بونيفاس فى عين بلاكيديا ، اقترح
بونيفاس فى تهور عقد محالفة مع الوندال فى اسبانيا ، ودعاهم الى
استيطان افريقيا ، وقبل الملك الوندالى جنسريك Genseric هذه
السعوى التى ندم عليها بونيفاس بعد أن فات اوان الندم •

الوندال يغزون افريقيا

كان الاقليم الضيق الممتد على طول الساحل الأفريقى مليئا بالآثار
الكثيرة التى تبرز الفن الرومانى والعظمة الرومانية ، وكان من الممكن
أن تقاس درجات التقدم والتحسين فى هذه الآثار بمقدار بعدها عن مدينة
قرطاجة والبحر المتوسط • وان أى عقل مفكر يستطيع شىء من التأمل
البسيط أن يكون فكرة واضحة عن خصب ذلك الاقليم وحالة الزراعة
فيه : فلقد كانت المنطقة أهلة بالسكان ، وكان هؤلاء السكان يحتفظون
بقدر وفير من المواد الغذائية لاستعمالهم الخاص ، ويصدرون سنويا ،
وخاصة من القمح ، كميات كبيرة وبصورة منتظمة حتى استحوطت افريقيا

اسم المخزن العام للحبوب بالنسبة لروما وللجنس الانساني . وفجأة وقعت الولايات اليانة السبع ، من طنجة الى طربلس ، فريسة لغزو الوندال . وكان هؤلاء الوندال يتسمون بروح ناثرة مدمرة ربما كانت موضع مبالغة بتأثير البغضاء العامة والغيرة الدينية والمغالاة في التحمس . والحرب في أهون أشكالها انما تعنى انتهاكا دائما للانسانية والعدالة ، أما حروب البرابرة الهمج فانما تلهبها روح القسوة وتجاهل القانون ، وهى الروح التى تقلق مجتمعهم الهادى المنصرف الى شئونه ومسراته . وحيشما وجد الوندال مقاومة فانهم قلما كانوا يرحمون ، بل كانوا ينتقمون لموت رفاقهم الشجعان بتدمير المدن التى قتلوا تحت أسوارها . وكانوا لا يقيمون وزنا للسن أو للجنس أو المقام ، بل يستخدمون كل أنواع الاهانة والتعذيب لينتزعوا من أسراهم ما يمكنهم من الوصول الى ثروتهم المخبأة . وكانت صرامة سياسة ملكهم جنسريك تبرر له ما ارتكبه مرارا وتكرارا من أعمال القتل والاعدام ، فلم يكن فى مقدوره دائما أن يسيطر على شهواته أو شهوات أتباعه ، كما ازدادت كوارث الحرب بسبب تهور عرب شمال أفريقيا والتعصب الدينى الذى اتسم به أتباع دوناتوس (١) . ولكنى لا أستطيع أن أقتنع بأنه كان من عادة الوندال أن يقتلوا أشجار الزيتون وغيرها من أشجار الفواكه الأخرى من بلد عقدوا النية على استيلائه كما أنى لا أستطيع أن أصدق أنه كان من خططهم الحربية العادية أن يذبحوا أعدادا كبيرة من أسراهم أمام أسوار المدينة التى يحاصرونها ، بهدف واحد هو تلويث الهواء وخلق الوباء ، لأنهم لو فعلوا ذلك لكانوا أول الضحايا (٢) .

سائت أوغسطين

وحصار مدينة هيبو

كان الكونت بونيفاس يرى بعينه ذلك الخراب الذى سببه ، والذى لم يعد فى مقدوره إيقاف تطوره السريع ، فيتمزق عقله الكريم ألما وعذابا . وبعد أن خسر معركة ضد الوندال انسحب الى مدينة هيبو الملكية Hippo Regius (أكبر مدن نوميديا) حيث حاصره على الفور عدو كان يعتبره حصن أفريقيا الحقيقى وحاميها . وكانت هذه المستعمرة البحرية تقع على بعد مائتى ميل تقريبا الى الغرب من قرطاجة ، وأطلق

(١) كان أسقفا لقرطاجة في القرن الرابع . وكون أتباعه طائفة مسيحية فى شمال افريقية سنة ٣١١ م ، اتسمت بالزمت والتعصب - (الترجمة) .

(٢) توجد الشكاوى الأصلية من الدمار الذى حل بأفريقيا . =

عليها من قبل اسم Regius لأنها كانت مقاما للملك نوميديا . وما تزال بعض بقايا التجارة والازدهار بالسكان من سمات المدينة الحديثة المعروفة في أوروبا بالاسم المحرف بونا Bona . ومما خفف من الجهود العسكرية المضنية التي كان يبذلها الكونت بونيفاس ، ومن تفكيره المشوب بالقلق ، تلك الأحاديث التي كان يتبادلها مع صديقه سانت أوغسطين ويجهدها فيها راحة وعزاء ، الى أن مات ذلك الأسقف ، نور الكنيسة الكاثوليكية ودعامتها ، في الشهر الثالث من الحصاد ، وكان اذ ذاك في السادسة والسبعين من عمره . وقد رحمه الموت اذ أنقذه في رفق من الكوارث التي حلت ببلده فعلا ومن تلك التي كانت وشيكة الوقوع . ولقد تلوث شباب أوغسطين بالردائل والأخطاء التي يعترف بها في صراحة ودون موارد . غير أنه منذ أن اعتنق الديانة المسيحية الى أن وافته منيته كان يتسم بأخلاق وعبادات نقية بسيطة خالية من الترف والمظاهر ، وكان أبرز فضائله حماسه المتقد ضد الهرطقة أيا كان لونها أتباع (١) « مانا » وأتباع « دوناتوس » وأتباع « بيلاجيوس » (٢) ، وقد شن على هؤلاء جميعا حربا مستمرة لا هوادة فيها . وعندما أحرق الوندال المدينة بعد بضعة شهور من موته ، كان من حسن الحظ أن النار لم تمتد الى المكتبة ، فنجت من الحريق وكانت فيها كل كتاباته الضخمة التي تتألف من كتب أو بحوث مستقلة في مواضيع لاهوتية عددها مائتان واثنتان وثلاثون ، الى جانب عرض كامل لكتاب الزمير والانجيل ، ومجلة غزيرة شاملة للرسائل والصلوات . ويقرر أكثر النقاد بعدا عن التحيز أن علمه السطحي كان قاصرا على اللغة اللاتينية (٣) ، وأن أسلوبه تشوبه

= (١) في خطاب من كابريريولوس ، أسقف قرطاجنة يعتذر عن حضور مجلس أقيسوس .

(ب) في كتاب « حياة سانت أوغسطين » من تأليف صديقه وزميله بوسيديوس .

(ج) في كتاب « تاريخ الاضطهاد الوندالي » تأليف فيتنس Victor Vitensis والصورة الأخيرة ، التي رسمت بعد ستين سنة من الحادث ، انما تعبر عن أهواء المؤلف وعواطفه أكثر من تعبيرها عن صدق الحقائق .

(١) أتباع « مانا » (٢٧٦م) الذي كان ينادى بأن كل شيء نشأ من الضوء والظلام . أو الخير والشر - (مذهب المانوية) .

(٢) بيلاجوس Pelagius كان راهبا بريطانيا عاش في القرن الرابع الميلادي وهذه الطائفة تذكر الخطيئة الأصلية (الترجمة) .

(٣) كره سانت أوغسطين في باكورة شبابه دراسة اليونانية وأهمها ، ويعترف صراحة بأنه قرأ الافلاطونيات في الترجمة اللاتينية ، ويظن بعض النقاد الحديثين أن جهله باليونانية أعجزه عن شرح الكتاب المقدس ، وكان شيشيرون وكوينتيليان يتطلبان من أستاذ البلاغة أن يكون ملما بتلك اللغة .

عادة البلاغة المفتعلة الزائفة ، رغم أن الانفعال كان يكسبه في بعض الأحيان قدرة على التعبير في أسلوب قوى منطلق . غير أنه كان ذا عقل قوى يتسع للكثير ، ويقرع الحجة بالحجة ، وكان له من الجرأة ما مكّنه من الغوص إلى أعماق الموضوعات الغامضة المبهمة ، كموضوع النعمة الالهية ، وهل الانسان مسير أو مخير وموضوع الخطيئة الأصلية . أما النظام المسيحي الصارم الذي رسم اطاره أو أعاد كيانه فقد قابلته الكنيسة اللاتينية بالأعراض سرا والاستحسان علانية (١) .

وطال حصار مدينة هيبو الى أكثر من أربعة عشر شهرا بفضل براعة بونيفاس ، أو ربما كان ذلك نتيجة لجهل الوندال ، وظل البحر مفتوحا أمام المدينة ، وعندما نضبت موارد الاقليم المجاور بتأثير عملية النهب الهمجية ، جاع المحاصرون أنفسهم واضطروا الى التخلي عن مغاراتهم . وكانت الوصاية على عرش الغرب تدرك ادراكا عميقا أهمية أفريقيا والخطر المحدق بها ، وألتمست بلاكيديا عون حليفها الشرقي ، فأبحر القائد أسبار من القسطنطينية على رأس جيش قوى عزز به جيش إيطاليا وأسطولها . وما أن توحدت قوات الامبراطوريتين تحت قيادة بونيفاس حتى تقدم في جرأة لمقابلة الوندال ، ولكنه خسر معركته الثانية ضدهم ، وحددت هذه الخسارة مصير أفريقيا نهائيا . ثم دفعه اليأس الى تمجّل ركوب البحر ، وسمح لأهل المدينة وأسراتهم ومتاعهم أن يشغلوا على السفن مكان البحارة الذين قتل الوندال أكثرهم أو أخذوهم أسرى . أما الكونت بونيفاس الذي كانت سذاجته القتالة سببا في الاضرار بحيويات الدولة ضررا بليغا ، فقد دخل قصر رافنا في شيء من القلق الذي سرعان ما أزالته ابتسامات بلاكيديا ، وقبل بامتنان رتبة نبيل روماني ومنصب القائد العام للجيش الروماني . ولكن لابد أنه كان يحمر

(١) قدست كنيسة روما سانت أوغسطين وتبرأت من كالفن . ومع ذلك فإن الفرق الحقيقي بين الرجلين لا يمكن رؤيته حتى تحت مجهر ديني ، ومن ثم فإن أتباع مولينا (Louis Molina) (١٥٣٥ - ١٦٠٠) يضطهدون بحكم ما للقدس من سلطة ، ويلحق العار أتباع جانسن Conelius Jansen (١٥٨٥ - ١٦٢٨) لأنهم يشبهون الهرطوقي . وفي الوقت عينه وقف أرمانيانوس البروتستانتي بمنأى عن النزاع وسخر من حيرة المتنازعين . ومن الجائز أن مفكرا أكثر استقلالا في الرأي يتسم بدرج عندما يطالع تعليقا كتبه أرمينيانوس على الرسالة الى الرومان .

لويس مولينا : أسباني يسوعي يقرر : أن الانسان مسير بمعنى أن الله يعرف مقدما أنه حر الإرادة والتصرف .

كورنيلوس جانسن : أسقف كاثوليكي : ويعارض العقيدة الكاثوليكية التي تقول بحرية الإرادة . (الترجمة) .

خجلا عند رؤيته تلك الأوسمة التي ظهرت فيها صورته مقرونة بعلام النصر . وتملك الحق والغضب نفس ايتيوس الفادرة المتعالية عندما افتضح خداعه وعلم بغضب الامبراطورة علي شخصه والحظوة الكبيرة التي نالها غريمه لديها ، فعاد سريعا من بلاد الغال الي ايطاليا ومعه حاشية ، أو جيش ، من أتباعه البرابرة . وبلغ من ضعف الحكومة أن القائدين حسما خصامهما الشخصي في معركة دموية . وانتصر بونيفاس . ولكنه أصيب في ذلك الصدام بجرح مميت من رمح خصمه ، ومات متأثرا به في مدى أيام قلائل ، ودفعته عواطفه المسيحية الكريمة وهو علي فراش الموت الي أن يلج علي زوجته ، وهي سيدة أسبانية ثرية ذات ميراث ، أن تقبل ايتيوس زوجا ثانيا لها ، غير أن ايتيوس لم يستطع أن يستمد أى نفع مباشر من ذلك الكرم الذي أظهره عدوه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فقد شاءت عدالة بلاكيديا أن تصمه بالتمرد والعصيان ، ورغم أنه حاول الدفاع عن بعض الحصون القائمة في أملاكه الموروثة ، الا أن القوة الامبراطورية سرعان ما أرغمته علي الانسحاب الي بانونيا ، حيث لجأ الي خيام أتباعه المخلصين من الهون . وترتب علي هذا الخصام المتبادل بين الرجلين أن حرمت الدولة من خدمات ألمع أبطالها وأكثرهم شهرة .

نهب قرطاجة

ومن الطبيعي أن يكون متوقعا ، بعد تقهقر بونيفاس ، أن يحقق الوندال غزو أفريقيا دون مقاومة ، ودون ابطاء . ومع ذلك فقد انقضت ثمانية أعوام بين الجلاء عن مدينة هيبو وبين أخضاع مدينة قرطاجة . وفي منتصف تلك المدة عقد جنسريك ، وهو في أوج رفاحيته الواضحة ، معاهدة مع الامبراطور الغربي ، وافق بمقتضاها علي أن يظل الامبراطور محتفظا بولايات موريتانيا الثلاث دون أن يتعرض لأي ازعاج ، وسلم ابنه هنريك رهينة لضمان تنفيذ المعاهدة . وهذا الاعتدال الذي لا يمكن أن يعزى الي عدالة الفاتح لابد أن ينسب الي سياسته ، ذلك أن عرشه كان محاطا بأعداء في داخل البلاد يرمونه بوضاعة المنبت ، ويؤكدون أن أبناء أخيه جوندريك هم أصحاب الحق الشرعي . وقد قتلهم جنسريك مضحيا بهم في سبيل سلامته ، كما أمر بالقاء أمهم ، أرملة الملك الراحل ، في نهر أمبساجا Ampsaga . غير أن التدمير العام انفجر في صورة مؤامرات كثيرة خطيرة ، ولابد أن الطاغية العسكرية قد أراق من دماء الوندال علي يد الجلاد أكثر مما أراق في ساحة القتال . أما الاضطرابات الأفريقية

العنيفة التي كانت تؤيد هجومه ، فقد عارضت توطيد سلطته ، وظلت تورات عرب شمال أفريقيا والجرمان ، والكاثوليك وأتباع دوناتوس ، تزعج أو تهدد حكم الفاتح المقلقل بصورة مستمرة . وعندما تقدم نحو قرطاجة اضطروا الى سحب قواته من الولايات الغربية ، وتعرض الشاطئ للهجمات البحرية التي قام بها رومان أسبانيا وإيطاليا . وفي قلب اقليم نوميديا ظلت مدينة سرتة Cirta الداخلية محافظة على استقلالها في اصرار وعناد . وتغلب جنسريك على هذه الصعاب شيئا فشيئا بشجاعته ومثابرته وقسوته ، واستخدم فنون السلم مرة وفنون الحرب مرة أخرى لاقامة مملكته الأفريقية ، ووقع مع قرطاجة معاهدة رسمية بأمل الحصول على بعض النفع من شروط استمرارها ومما يترتب على خرقها . وتراخت يقطعة أعدائه بفضل ما أظهره من صداقة كان يخفي وراءها مصلكه العدوانى وأخيرا فاجأ الوندال قرطاجة بعد خمسمائة سنة وخمس وثمانين من تدمير المدينة والدولة على يد سكيبيو الأصغر .

كانت مدينة جديدة قد قامت على أنقاض قرطاجة القديمة وأطلق عليها اسم المستعمرة ، ومع أن قرطاجة كانت لا تدانى القسطنطينية في امتيازاتها الملكية ، أو الاسكندرية في تجارتها أو أنطاكية في روعتها وفخامتها ، الا أنها كانت تحتل المرتبة الثانية في الغرب كروما العالم الأفريقى (اذا استخدمنا أسلوب المعاصرين لها) . وبدت تلك العاصمة الغنية المترفة في صورة دولة مزدهرة وإن كانت تابعة ، فكان ينصب فيها ما تمتلكه الولايات الست من مصنوعات وأسلحة وأموال . وكان بها تنظيم لتسلسل المناصب المدنية تبدأ من المشرفين الماليين على شوارع المدينة وأحيائها ، وتندرج صعودا الى منصب الحاكم الأعلى الذى يلقب بلقب البروقنصل ويمثل بمقتضى ذلك اللقب مكانة القنصل فى روما القديمة ، وما كان له من تبجيل واحترام . وأنشئت المدارس وساحات الرياضة لتعليم شباب أفريقيا ، وكانت الفنون الحرة وآداب السلوك والنحو ، والبلاغة ، والفلسفة تعلم للشعب باللغتين اليونانية واللاتينية . وكانت مباني قرطاجة فخمة ومتناسقة ، وزرعت فى وسط العاصمة غابة ظليلة ، وكانت الميناء الجديدة ، وهى مرفأ فسيح أمين ، تستغل لخدمة المواطنين والغرباء ، كما كانت ألعاب السيرك والمسرح الرائعة تقدم للناس حتى فى حضور البرابرة . ولم تكن سمعة أهل قرطاجة على مستوى سمعة بلدهم بل ظلت سبة الولاء البونيقي أى (الخيانة) Punic faith لاصقة بأخلاقهم الماكرة الغادرة ، وفساد سلوكهم بتأثير عادات التجارة وسوء استغلال الثراء والترف ، غير أن احتقارهم المييب للهربان وممارستهم الشائنة للشهوات غير الطبيعية هما الرجسان اللذان أثارا غضب سالفان

Salvian واعظ العصر (١) التقي . وأصلح ملك الوندال في قسوة من رذائل ذلك الشعب الشهواني الداعر ، وحول جنسريك تلك الحرية القديمة النبيلة الصادقة التي كانت تتسم بها قرطاجة (هذه التعبيرات التي قالها فيكتور لا تخلو من القوة) انى مذلة شائنة . وبصد أن سمح لقواته الفاجرة بأن تشبع غضبها وجشعها ، وضع أسلويا أكثر نظاما للنهب والظلم . فأصدر قاتونا يحتم على الناس جميعا أن يسلموا الى ضباط الملك ، دون خداع ودون إبطاء ، كل ما لديهم من ذهب وفضة وجواهر وأثاث ثمين وكساء نفيس ، ويعاقب بالموت أو التعذيب دون رحمة أية محاولة لاختفاء أى جزء مما يمتلكون ، على أساس أن هذا العمل خيانة ضد الدولة . أما أراضى الولاية التابعة للبروقنصل وهى التي يتكون منها اقليم قرطاجة نفسه ، فقد قيسمت بدقة وقسمت على البرابرة ، واحتفظ الفاتح لنفسه بالملكية الخاصة لاقليم بيزاكيوم الخصب والأجزاء المجاورة له من نوميديا وجيتوليا .

ومن الطبيعى أن جنسريك كان يمقت أولئك الذين ألحق بهم الضرر والأذى : وأصبح نبلاء قرطاجة وأعضاء السناتو عرضة لحقده وسخطه ، وكل من رفضوا الشروط الشائنة التي أبى عليهم شرفهم ودينهم قبولها ، أرغمهم ذلك الطاغية الآرى على الامتثال للنفى الدائم من البلاد . فامتلات روما وايطاليا وولايات الشرق بجمهور المنفيين واللاجئين والأسرى الشرفاء الذين كانوا يشيرون شفقة الناس وعطفهم . وما تزال رسائل ثيودورت Theodoret الكريمة تذكر اسمى كالستيان وماريا ، وتقص ما أصابهما من مصائب ومحن . وفى هذه الرسائل يرثى الأسقف السورى للكوارث التي حلت بكالستيان الذي كان أحد نبلاء قرطاجة وعضوا ثريا من أعضاء السناتو ، ثم ألبأته الحاجة الى التسول فى بلد أجنبى هو وزوجه وأسرته وخدمه . غير أن الأسقف ثيودورت يشيد باستسلام اللاجئ المسيحى ، وبخلقه الفيلسفى الذى مكنه ، تحت ضغط تلك الكوارث ، من الاستمتاع بسعادة حقيقية أكثر من تلك التي تجلبها الثروة والرفاية فى الظروف العادية . أما قصة ماريا ، ابنة يوديمون العظيم ، فهي قصة عجيبة شائعة . فعندما نهبت قرطاجة اشتراها

(١) وهو يصرح بأن الرذائل التي يتسم بها كل بلد قد تجمعت فى بالوعة قرطاجة . وفى انغماس الأفريقيين فى الرذيلة كانوا يشيدون بما لديهم من فضيلة الرجولة . ويان الشهامة تقضى عليهم بقطع صلاتهم القذرة مع النساء . وتلوثت شوارع قرطاجة بالمختلئين الذين كانوا يظهرون علانية فى مظهر النساء وملبسهن وأخلاقهن . وإذا ظهر أحد الرهبان فى المدينة كانوا يشيعونه بالازدراء والسخرية .

من الوندال بعض تجار سوريا ، وباعوها بعد ذلك رقيقا فى بلادهم . وكانت لها وصيفة نقلت على السفينة نفسها وبيعت الى الأسرة نفسها ، وظلت تحترم سيدها التى أخنى عليها الدهر وأنزلها الى مستوى العبودية الذى شاركت فيه خادمتهما . وتلقت ابنة يوديمون من وصيفتها بدافع المودة وعرفان الجميل تلك الخدمات العائلية التى كانت فيما مضى تتطلبها منها بحكم الخضوع والطاعة . وكشف هذا المسلك العجيب عن حقيقة ماريا . وفى غيبة أسقف كيروس Cyrillus أعتقت من العبودية بفضل كرم بعض جنود الحامية ، ووفر لها سقاء ثيودورت معيشة كريمة ، فقضت عشرة شهور بين شماسات الكنيسة حتى وصل الى علمها على غير انتظار أن أباه ، الذى نجا من الخراب الذى حل بقرطاجة ، يشغل منصبا رفيعا فى إحدى الولايات الغربية . وعصدها الأسقف الورع ثيودورت فى لهفتها على أبيها ، فأرسل خطابا ما يزال موجودا الى أسقف ابيجة ، وهى مدينة بحرية فى إقليم قيليقيا ، تزورها سفن الغرب كثيرا فى فترة سوقها السنوى ، وطلب الى زميله فى غيرة وجدية أن يعامل الفتاة فى رقة تليق بكرم محتدها ، وأن يعهد بها الى رعاية تجار مخلصين أمناء يعتبرون أنه يكفيهم كسبا أن يعيدوا ابنة الى ذراعى أبيها المنكوب بعد أن فقد كل أمل فى عودتها .

قصة النيام السبعة

ومن بين قصص التاريخ الدينى أرانى مسوقا الى انتقاء القصة الشهيرة ، قصة النيام السبعة الذين يتفق تاريخهم المزعوم مع عهد ثيودوسيوس الأصغر ، وغزو الوندال لأفريقيا . فعندما تعرض المسيحيون لاضطهاد الامبراطور ديكىوس اختبأ سبعة من النبلاء الشبان بمدينة افسوس داخل كهف فسيح غائر فى سفح جبل مجاور للمدينة . وهناك قضى عليهم الطاغية بالهلاك بأن أصدر أوامره بأن يفلق عليهم مدخل الكهف اغلاقا محكما بكومة من الأحجار الضخمة . وللحال راح الشبان فى سبات عميق طال مدته بصورة معجزة الى مائة وسبع وثمانين سنة . دون أن تتأثر قوى الحياة فيهم . وفى نهاية تلك الفترة أراح عبيد أدوليوس ، الذى آل اليه ميراث الجبل ، تلك الأحجار الضخمة ليشيدوا بها بناء ريفيا ، ونفذ ضوء الشمس الى داخل الكهف ، فكان هذا ايذانا باستيقاظ النيام السبعة . وشعر هؤلاء النيام بالجوع بعد نوم طنوه ساعات قليلة ، فقرروا أن يعود واحد منهم سرا الى المدينة لشراء ما يحتاجون اليه من خبز ، ووقع اختيارهم على جامبليكوس . ولم يستطع الشاب (اذا جاز لنا أن نطلق عليه هذه التسمية) أن يتعرف على منظر

بلده المؤلف لديه ، وزادت دهشته عندما رأى صليبا كبيرا قائما في ظفر على الباب الرئيسى لمدينة افسوس . وارتبك الخباز عندما شاهد ملبسه الغريب وسمع لفته القديمة ، ثم قدم له جامبليكوس عملة عتيقة من عهد ديكايوس على أنها العملة المتداولة فى الامبراطورية ، وهنا ارتاب الخباز فى أن الشاب قد عثر على كنز خفى ، فساقه أمام القاضى . وترتب على ما دار بين الرجلين من استفسارات أن وضحت القصة المذهلة ، وهى أن قرنين من الزمان تقريبا قد انصرما منذ أن فر الشاب وأصدقائه من غضب الطاغية الوثنى . وسارع الى زيارة كهف النيام السبعة أسقف افسوس ، والكهنة ، والحكام ، والشعب ، بل والامبراطور نيودوسيوس نفسه ، كما يقال . وما أن منح هؤلاء السبعة بركتهم للحاضرين وقصوا عليهم قصتهم حتى وافتهم المنية فى سكون وهدوء . ولا يمكن أن يكون اليونان الحديثون هم الذين لفقوا هذه الأسطورة العجيبة بدافع من السذاجة والتقوى ، لأن القصة المتواترة الصحيحة يمكن تتبعها الى تاريخ انقضاء خمسين سنة على حدوث المعجزة المزعومة . فالأسقف السورى جيمس من أهل ساروج ، الذى ولد بعد سنتين من موت نيودوسيوس الأصغر ، خصص احدى عظاته المائتين والثلاثين للاشادة بشبان افسوس . وقبل أن تنتهى القرن السادس كانت أسطورتهم قد ترجمت من اللغة السريانية الى اللاتينية بفضل عناية جريجورى ، أسقف مدينة تور . كما أن الطوائف الشرقية المعادية تحتفظ بذكرهم بالاحترام نفسه ، وكذلك دونت أسماؤهم بصورة مشرفة فى التقويم الرومانى والحبشى والروسى . ولم تقتصر شهرتهم على العالم المسيحى وحده ، بل ان هذه القصة الشائعة ، التى لابد أن النبى محمدا قد سمعها عندما ذهب بقوافله الى أسواق سوريا ، قد نزلت فى القرآن كوحى الهى (١) . وأخذت الأمم التى تدين بالاسلام ، من البنغال الى أفريقيا ، قصة النيام السبعة ونمقتها ، كما اكتشفت بعض آثار قصة مماثلة فى الأطراف النائية من اسكنديناو (٢) . وهذا الايمان السهل الذى عم العالم كله ، والذى يعبر مثل هذا التعبير عن احساس الانسان ، يمكن أن يعزى الى ما تتسم

(١) وهنا يذكر جيبون ملخصا قصيرا لبعض ما جاء فى قصة اهل الكهف كما وردت فى القرآن الكريم .

(٢) يذكر بولس ، شماس اكويليا ، الذى عاش فى نهاية القرن الثامن أن النيام "سبعة الشماليين رقدوا تحت صخرة على شاطئ المحيط ، واحترم البرابرة رقادهم الخليل . ثم عرفهم الرومان من ملابسهم ، ويظن الشماس أن العناية الالهية احتفظت بهم ليكونوا رسلا فى المستقبل لتلك البلاد غير المؤمنة .

به الأسطورة نفسها من ميزة أصيلة ، فنحن نتقدم من الشباب الى الشيخوخة دون أن نشعر ودون أن نلاحظ التغير التدريجي المستمر في أحوال البشر وشئونهم . وحتى في تجربتنا التاريخية الأكثر اتساعا درج خيالنا على ربط الثورات والتغيرات المتباعدة كل البعد عن بعضها بعضا بسلسلة متصلة من الأسباب والنتائج . غير أنه اذا كان ممكنا أن نتلاشى في لحظة واحدة الفترة التي تقع بين عصرين مشهورين ، واذا كان مستطاعا أن نعرض العالم الجديد أمام عيني مشاهد صحا من نومه بعد فترة سبات مؤقت قدرها مائتان من السنين ولايزال محتفظا في ذهنه بصورة حية حديثة للعالم القديم ، فان دهشته وأفكاره يمكن أن تصبح موضوعا شائقا لقصة خيالية فلسفية . وكانت فترة القرنين من الزمان التي انصرمت بين عهد الامبراطور ديكوس وعهد ثيودوسيوس الأصغر هي أصلح حقبة لمثل هذا المشهد . ففي هذه الفترة انتقل مقر الحكم من روما الى مدينة جديدة على ضفاف البسفور في تراقيا ، ونشأ نظام من العبودية الطيبة القائمة على الرسميات والشكليات وضع حدا لسوء استغلال الروح العسكرية . وتعاقب على العرش الذي كان يجلس عليه ديكوس الظالم المتعسف ملوك من المسيحيين أصحاب المذهب الصحيح أطاحوا بالآلهة الخرافية القديمة وأصبح المتعبدون من أهل ذلك العصر يتلهفون على تمجيد قديسى الكنيسة الكاثوليكية وشهادتها على مذابح ديانا وهرقول ، وانفصمت وحدة الامبراطورية الرومانية ، وضاعت هيبتها وعظمتها في التراب ، وتدفقت جيوش من البرابرة المجهولين من المناطق الشمالية المتجمدة ، وفرضوا حكمهم الظافر على أجمل أقاليم أوروبا وأفريقيا .

نهایة الإمبراطورية في الغرب

الفصل الخامس والثلاثون

(٤٥١ - ٤٥٣)

أتيليا يغزو بلاد الغال وإيطاليا • تأسيس البندقية • موت
أتيليا ودمار امبراطوريته • مقتل ايتيوس وموت فالنتينيان
الثالث • أعراض الاضمحلال في الامبراطورية الرومانية
الغربية •

تلاحقت غزوات القوط والشعوب الممائلة لهم ، وازدادت سرعتها
من جراء الضغط الذي مارسه قبائل الهون على مؤخرتهم وفي الفصل ٣٤
يصف جيبون أول ظهور أتيليا واستقرار القوط في بلاط المجر الحديثة •
وبين سنتي ٤٣٠ - ٤٤٠ غزا أتيليا بلاد الفرس ، وفي سنة ٤٤٦ ، بعد
أن اجتاح أوروبا حتى مدينة القسطنطينية ، عقد معاهدة مع الامبراطورية
الشرقية ، ومات ثيودوسيوس الأصغر في سنة ٤٥٠ وارتقت بعده اخته
بلكيريا عرش الامبراطورية الشرقية ، وبذلك أصبحت أول امرأة تحكم
الرومان • وسرعان ما تزوجت عضو السناتو ، ماركيان ، الذي أصبح هو
نفسه امبراطورا •

وفي الوقت عينه تاهب أتيليا ، ملك الهون ، لغزو بلاد الغال • وهناك
كان ثيودوريك ابن الاريك ، قد أصبح ملكا للقوط الغربيين بعد موت واليا
Wallia • أما ايتيوس الذي سبق له أن تحالف مع الهون ، فقد حقق
الآن تحالفا بين الرومان والقوط • وفي سنة ٤٥١ غزا أتيليا الغال وحاصر
مدينة أورليان وخف ايتيوس وثيودوريك لانقاذها •

أتيللا يغزو بلاد الغال

يمكن أن تعزى السهولة التي توغل بها أتيللا في قلب بلاد الغال الى سياسته الماكرة ، والى اللدغ الذي سببته جيوشه ، فقد برع في التخفيف من تصريحاته العلنية بما يعطيه من تأكيدات و ضمانات خاصة ، وكان يهدى الرومان والقوط تارة ويهددهم تارة أخرى . ولما كان بلاط رافنا وبلاط تولوز يرتاب كل منهما في نوايا الآخر ، فقد كانا يرقبان اقتراب عدوهما المشترك في خمول ودون اكتراث . وكان ايتيوس هو الحارس الوحيد لسلامة البلاد ، غير أن القصر الامبراطوري ابتلى منذ وفاة بلاكيديا بحزب عرقل أحكم الاجراءات التي اتخذها ، وكان شباب ايطاليا يرتعدون اذا سمعوا أبواق الحرب ، أما البرابرة الذين كانوا يميلون الى مناصرة أهداف أتيللا بدافع من الخوف أو الحب ، فقد انتظروا وقوع الحرب في ايمان مذبذب مزعزع . وعبر النبيل الروماني جبال الألب على رأس بعض الفرق التي لا تكاد قوتها وعددها تجعلها جديرة باسم جيش ولكن عند وصوله الى مدينة آرل أو ليون أزعجته الأخبار التي بلغته من أن القوط الغربيين رفضوا الدفاع عن بلاد الغال وقرروا لقاء الفاتح القوى ، الذي يصرحون بازدرائه ، في أراضيهم الخاصة . فأوفد اليهم عضو السناتو أفيتوس ، الذي كان اذا ذاك معتزلا في ضيعته بمدينة أوفرن بعد أن مارس في شرف منصبها رفيعا كحاكم بريتوري . وقبل أفيتوس القيام بهذه المهمة الخطيرة ، وأداها بكفاية ونجاح . فصور لثيودوريك أن الفاتح الطموح الذي تطلع الى السيطرة على العالم لا يمكن أن يقاومه الا تحالف اجماعي قوى بين الدول التي يسعى الى اضطهادها وتضييق الخناق عليها . وقد ألهمت فصاحة أفيتوس المتقدمة صدور محاربي القوط عندما وصف لهم الأضرار التي ألحقها الهون بأجدادهم ، وذكرهم بأن ثورة الهون المحققة لا تزال تلاحقهم من الدانوب الى سفوح جبال البرانس . واستحثهم بشدة قائلا انه من واجب كل مسيحي أن ينقذ كنائس الله وعظام القديسين من أن تدنسها أقدام الهون ، وانه من مصلحة كل فرد من المتبربرين استوطن بلاد الغال أن يذود عن الحقول ومزارع الكروم التي زرعها لنفسه ضد الخراب المنتظر على يد الرعاة السكوديين . وخضع ثيودوريك لدليل الحق . واتخذ على الفور أشرف الاجراءات وأكثرها حكمة وفطنة ، وأعلن أنه حليف أمين للرومان ولايتيوس ، وأنه على استعداد لبذل حياته ومملكته في سبيل سلامة بلاد الغال التي يشتركون فيها جميعا . وكان القوط الغربيون اذ ذاك في عنفوان قوتهم وذروة شهرتهم ، ولبنوا في نشاط وسرور دعوة القتال ،

فأعدوا أسلحتهم وخيولهم ، وتجمعوا تحت لواء مليكهم العجوز الذى عقد العزم مع أكبر أولاده ، توريسموند وثيودوريك ، أن يتولى بنفسه قيادة شعبه الشجاع كبير العدد . وحدد المثل الذى ضربه القوط موقف كثير من القبائل أو الأمم التى كان يبدو أنها تتأرجح بين الهون والرومان . واستطاع النبيل ايتيوس بمثابرته التى لا تكل أن يجمع بالتدريج قوات الغال والجرمان . وكانت تلك القوات من قبل تسلم بأنها رعايا الدولة أو جنودها ، ولكنها الآن تطالب بالمكافأة على التطوع بالخدمة ، وبوضع الحلفاء المستقلين . وهى قوات اللاتى ، والأموريكان ، والبريون ، والسكسون ، وقبائل برجانيا وسرماشيا أو الألاى ، وقبائل ريبواريا ، والفرنجة الذين يتبعون ميروفيوس كملكهم الشرعى . وكان ذلك هو الجيش الخليط الذى قاده ايتيوس وثيودوريك ، وتقدم فى مسيرة سريعة لانقاذ مدينة أورليان ولخوض معركة ضد جحافل أتिला .

وعند اقتراب الجيوش من مدينة أورليان رفع ملك الهون عنها الحصار فوراً ، وأصدر أمره بالتقهقر لكى يستدعى مقدمة قواته التى كانت قد اقتحمت المدينة وأخذت تعمل فيها نهبا وسلبا . وكانت شجاعة أتिला تسترشد بالحكمة والرؤية ، ولما امتد بصره الى النتائج المميتة التى قد تترتب على هزيمة فى قلب بلاد الغال ، اجتاز نهر السين ، وانتظر العدو فى سهول شالون التى يناسب سطحها اللين المنبسط حركات فرسانه السكوديين . غير أن طلائع الرومان وحلفاءهم استغلت هذا التقهقر الصاحب المضطرب ، وواصلت الضغط على القوات التى وضعها أتिला فى المؤخرة ، واشتبكت معها أحيانا . وفى ظلام الليل وتشعب الطرق كانت الفرق المعادية تتصادم عن غير قصد ، كما حدث بين الفرنجة وقوات الجيبداى Gipedae حيث قتل خمسة عشر ألفا من البرابرة ، وكان ذلك كله مقدمة لعمل حاسم عام . وتحيط حقول قطالونيا بمدينة شالون وتمتد حسب تقدير جورناندس التقريبى ، الى مسافة مائة وخمسين ميلا فى طولها ، ومائة ميل فى عرضها ، فتغطى كل أنحاء الاقليم المسمى باقليم شمبانيا . وكان هذا السهل الفسيح يتميز بعدم استواء الأرض فى بعض الجهات ، وكان هناك مرتفع من المرتفعات يتحكم فى معسكر أتिला ، وومن ثم فقد أدرك القائدان أهميته وتنازعا السيطرة عليه . وتمكن القائد الشاب الشجاع توريسموند من احتلال قمته أولا ، واندفع القوط نحو الهون بثقلهم الذى لا يقاوم ، وجاهد الهون فى صعود السفح المضاد ، وكان احتلال هذا الموقع الملائم يثبت فى كل من الجيشين وقوادهما اطمئنانا كبيرا الى النصر . ودفع القلق أتिला الى استشارة كهنته وعرافيه . وقيل انهم بعد فحص أحشاء الذبائح وكشط عظامها ، أعلنوا فى لغة مبهمه أنه

سوف يهزم ، وأن خصمه الرئيسى سوف يلقي حتفه ، وقيل أيضا ان أتيتلا ، بقبوله هذا المصير المتكافئ ، عبر كارها عن تقديره لتفوق وكفاية ايتيوس . غير أن اليأس غير العادى الذى كان يبلدو أنه سيطر على الهون دفع أتيتلا الى استخدام الوسيلة المألوفة لدى القادة القدماى ، وهى القاء خطاب عسكرى يبعث العزيمة والقوة فى نفوس قواته ، وكانت لغته لغة ملك طالما حارب وانتصر على رأس قواته . فحضهم على تذكر أمجادهم السابقة ، والخطر المحدق بهم ، وآمال المستقبل التى تنتظرهم . وقال لهم ان الحظ نفسه الذى فتح صحراوات سكوديا ومستنقعاتها أمام شجاعتهم المجردة من السلاح ، والذى ألقى كثيرا من الأمم المحاربة تحت أقدامهم ، هذا الحظ نفسه قد احتفظ لهم بأفراح ذلك الميدان المشهود ليتوج بها انتصاراتهم . وصور لهم فى دهاء أن حذر أعدائهم ، وتحالفهم الوطيد ، ومزية المراكز التى يحتلونها ، ما هى الا نتيجة الخوف دون الحكمة . واستطرد يقول ان القوط الغربيين هم وحدهم الذين يشكلون قوة جيش العدو وعصبه ، وأكد لهم أن الهون فى مقدورهم أن يقهروا الرومان المنحليين الذين يدل تلاصق قواتهم على ما يساورهم من مخاوف ، والذين تعوزهم القدرة على تحمل أخطار ومتاعب معركة تدوم يوما واحدا . ثم حرص ملك الهون على أن يثبت فيهم عقيدة القضاء والقدر التى تقوى فضيلة الحرب والقتال ، وأكد لهم أن المحاربين الذين ترعاهم السماء وتحميهم ، سوف يكونون فى مأمن ومناعة وسط سهام العدو ، غير أن الالهات الثلاث المعصومات من الخطأ واللاتى يتحكمن فى حياة البشر ومصائرهم سوف يصبن ضحاياهن وان استكانوا الى سلام شائن .

وأضاف أتيتلا قائلا :

« ولسوف أرمى بنفسى الرمح الاول ، أما ذلك المنكود الذى يأبى أن يخذو حذو مليكه فسوف يكون مصيره الى الموت المحقق » ، واشتملت روح البرابرة بوجود قائدهم الجرى ، وبسماع صوته ، وبالمثل الذى ضربه لهم ، واستجاب أتيتلا للهفتهم على القتال ، وتأهب على الفور لخوض المعركة واحتل بنفسه المركز الوسط من خط القتال على رأس رجاله البواسل المخلصين . وفوق المنطقة الواسعة التى تشغلها حقول قطالونيا ، وقفت القوات التابعة لامبراطوريته على امتداد الجناحين ، فكانت هناك قوات الروجيان والهريولى والثورينجيان والفرنجة وبرجانديا ، وتولى أرداريك ملك الجيداي قيادة الجناح الأيمن ، أما الأشقاء الثلاثة الشجعان الذين كانوا يحكمون القوط الشرقيين فقد تولوا قيادة الجناح الأيسر لمجابهة أقربائهم قبائل القوط الغربيين . أما تنظيم الحلفاء فقد سار وفق مبدأ مختلف . فوضع سانجيبان Sangiban ملك الألانى الخائن فى مركز

الوسط حيث يمكن مراقبة حركاته مراقبة دقيقة وحيث يمكن معاقبته على الفور اذا بدرت منه خيانة . وتولى ايتيوس قيادة الجناح الأيسر ، وتولى ثيودوريك قيادة الجناح الأيمن ، بينما ظل توريسموند مسيطرا على المرتفعات التي يبدو أنها كانت تمتد الى جناح الجيش السكودى ، وربما الى مؤخرته . وهكذا اجتمعت كل الأمم من نهر الفولجا الى المحيط الأطلنطى فوق سهل شالون . غير أن كثيرا من هذه الأمم كانت تمزقها الحزبية ، والهجرات ، والغزو ، وكان وجود جيوش وأعلام متشابهة يهدد بعضها بعضا ، من الأشياء التي تعطى صورة لحرب أهلية .

إن النظام والتكتيك الحربى الذى كان يتبعه اليونان والرومان هو جزء ممتع من عاداتهم القومية . والدراسة الواعية للعمليات الحربية التي قام بها زينوفون ، أو قيصر ، أو فردريك ، كما يصفها هؤلاء العباقرة أنفسهم ، وهم الذين وضعوا خططها ونفذوها ، هذه الدراسة قد ترقى بفن إبادة الجنس البشرى (إذا كان هذا الترقى أمرا مرغوبا فيه) . غير أن معركة شالون (١) لا تثير العجب فينا الا بجسامتها ما حدث فيها . فقد كان التهور الأعمى الذى اتسم به البرابرة هو الذى حددها ، كما أن قصتها إنما وردت على لسان كتاب متحيزين حجبته مهنتهم المدنية أو الدينية عن الامام بالشئون الحربية . ومع ذلك ، فإن كاسيودورس قد تحدث فى ألفة مع كثير من محاربى القوط الذين اشتركوا فى تلك المعركة المشهودة ، وقلة أخبروه « أنها كانت صداما وحشيا ، عنيدا ، دمويا ، متعدد الأشكال ، لا نظير له فى العصور الحاضرة أو الماضية » . وقد بلغ عدد القتلى مائة ألف وستة وستين ألفا ، وفى رواية أخرى ثلاثمائة ألف . وهذه المبالغات التي لا تصدق تدل على أن الخسارة كانت جسيمة فعلا ، وأنها تكفى لتبرير الملاحظة التي أبدتها أحد المؤرخين أن أجيالا بأكملها يمكن أن تفنى وتزول فى غضون ساعة واحدة نتيجة لجنون بعض الملوك . وبعد أن تبادل العدوان مرارا اطلاق القذائف ، وأظهر رماة السهام من السكوديين مهارة تفوق مهارة أعدائهم ، التحم فرسان الجيشين ومشاتهم التحاما عنيفا فى قتال مرير متلاصق . وكان الهون يقاتلون تحت نظر مليكهم فاخترقوا مركز الحلفاء الضعيف المزعزع، وفصلوا ما بين جناحيهم، ثم استداروا الى اليسار بحركة سريعة ووجهوا كل قوتهم ضد القوط الغربيين . وبينما كان ثيودوريك يسلك طريقه على جواده وسط الصفوف

(١) اخطأ جيبون وآخرون من بعده فى تسمية المكان الذى هزم فيه اثيلا باسم شالون . وقد استقر الراى الآن على أن هذه المعركة حدثت فى سهل مورिका .

لتقوية عزيمة قواته ، أصيب إصابة قاتلة بسهم رماه به نبيل من القوط الشرقيين اسمه انداجيس ، وسقط على الفور من فوق ظهر جواده . وفي هذا الارتباك والاختلال الشامل وقع الملك الجريج تحت أقدام فرسانه وزهقت روحه تحت سنانك الخيول . وكان هذا الموت الخطير تفسيراً للنبوءة المبهمة التي تنبأ بها العرافون . وابتهج أتيلاً لوثوقه من النصر ، غير أن توريسموند الشجاع اندفع نازلاً من فوق التلال ، وحقق ببقية النبوءة . ذلك أن القوط الغربيين ، الذين ارتبكت صفوفهم نتيجة لفرار قوات الألمان أو عجزها ، أعادوا بالتدرج تنسيق أنفسهم لخوض المعركة ، وهزموا الهون هزيمة حاسمة ، مما اضطر أتيلاً إلى التقهقر . وكان أتيلاً قد عرض شخصه في تهور الجندي العادي ، غير أن قوات الوسط الباسلة اندفعت إلى الأمام أكثر من بقية الصفوف ، ولم يلق هجوماً إلا سندا ضعيفا ، كما أن الجناحين كانا بغير حماية ، ولم ينقذ غزاة الألمان والسكوديين من الهزيمة الساحقة إلا اقتراب الليل . وانسحبت هذه القوات إلى داخل دائرة العربات التي كانت تحصن معسكرهم وتأهبت الفصائل التي نزلت عن خيولها للدفاع عن أنفسها دفاعاً لم تكن أسلحتها ولا طباعها مهيأة له . وأصبحت النتيجة موضع الشك ، غير أن أتيلاً لجأ إلى وسيلة أخيرة شريفة ، فأمر بجمع سروج الخيل ورياشها الثمينة في كومة جنائزية ، وقرر المتبربر عزيز النفس ، إذا اخترق العدو متاريسه ، أن يحرق تلك الكومة ويلقى بنفسه في اللهب ، وبذلك يحرم أعداءه من المجد الذي كان يمكن أن يحصلوا عليه بقتله أو أسرهِ .

غير أن أعداءه قضوا الليل في مثل ذلك الارتباك والقلق ، وأغرث توريسموند شجاعته المتهورة على المضي في المطاردة حتى وجد نفسه فجأة ، مع قلة من أصحابه ، وسط عربات السكوديين . وحدث قتال ليلي مضطرب وقع في أثنائه من فوق ظهر جواده ، وكان لابد أن يهلك الأمير القوطي كما هلك والده لولا أن قوة شبابه وجسارة رفاقه وحماستهم أنقذته من ذلك المركز الخطير . وعلى النحو نفسه ، ولكن على خط القتال الأيسر ، كان ايتيوس معزولاً عن حلفائه ، ولا يعلم شيئاً عن انتصارهم ، ويساوره القلق على مصيرهم ، فتقابل مع القوات المعادية المنتشرة فوق سهول شالون ، ولكنه أفلت منها ، وبلغ أخيراً معسكر القوط الذي لم يستطع تحصينه إلا بحاجز ضعيف من المتاريس حتى مطلع النهار . وسرعان ما أيقن القائد الامبراطوري بهزيمة أتيلاً ، الذي كان لا يزال عديم الحركة داخل استحكاماته . وعندما استعرض المشهد الدموي ، لاحظ في سرور خفي أن البرابرة هم الذين لحقت بهم الخسارة الرئيسية . ثم اكتشفت جثة ثيودوريك ، وهي مشخنة بالجروح الكريمة ، تحت كومة من القتلى ،

فناح الرجال على موت ملكهم ووالدهم ، غير أن عبراتهم اختلطت بالأناشيد والتهايل ، وأدوا شعائر الدفن أمام عدوهم المقهور ، ووسط صليل الأسلحة رفعوا ابنه الأكبر توريسموند فوق ترس من تروسهم ، ونسبوا إليه الفضل الذى يستحقه فيما نالوه من مجد الظفر والنجاح . وقبل الملك الجديد أن يلتزم بالانتقام لموت والده كجزء مقدس من الميراث الذى ورثه عنه . غير أن القوط أنفسهم أدهشهم ما كان يبدو على عدوهم القوى من شراسة وعناد وقال مؤرخهم ان أتिला كان أشبه بأسد رابض فى عرينه يهدد صياديه بهياج مضاعف . أما الأمم والملوك الذين كان يمكن أن يتخلوا عنه فى ساعة المحنة ، فقد شعروا بأن غضب ملكهم هو أكثر الأخطار قربا وحتمية . وظلت كل آلات موسيقاه العسكرية تدوى بأنغام صاخبة حماسية يتمثل فيها العزم والتحدى ، وعندما تقدمت القوات الامامية لمهاجمتها أمطرتها قواته من كل جانب من جوانب استحكاماتها بوابل من السهام أهلكتها أو أوقفتها . ولهذا تقرر فى مجلس حربى عام أن يحاصر ملك الهون فى معسكره ، وأن تقطع عنه المؤن ، حتى يضطر الى قبول معاهدة مذلة أو قتال غير متكافئ . غير أن تلف البرابرة سرعان ما ازدرى هذه الاجراءات البطيئة الحريصة ، كما أن نضج سياسة ايتيوس جعلته يخشى أن تخضع الدولة لصلف الأمة القوطية وقوتها ، بعد القضاء على الهون . واستخدم النبيل الرومانى سلطنته العليا وفكره الثاقب فى تهدئة انفجالات الغضب التى كان ثيودوريك يعتبرها واجبا ، وصور له فى ود مفتعل وصدق حقيقى ما يترتب على غيابه وتأخره من أخطار ، وأغرى توريسموند على أن يحبط ، بعودته السريعة ، خطط أشقائه الطموحة التى قد تهدف الى الاستيلاء على عرش تولوز وخزائنه . وبعد رحيل القوط وانفصال الجيش المتحالف أذهل أتिला ذلك السكون الكهائل الذى ساد سهول شالون ، وساوره الشك فى أن العدو يعد له خطة عدوانية ، وترتب على ذلك أنه قبح عدة أيام داخل نطاق عرباته ، ثم تقهقر الى ما وراء الراين ، وكان ذلك اعترافا بأن الامبراطورية الغربية قد تحقّق لها النصر الأخير . وسار ميروفيوس وقواته من الفرنجة ، فى أثر العدو مع حرصهم على التخلف عنه مسافة معقولة ، واعطائه فكرة ضخمة عن قوتهم بما كانوا يشعلون من نيران كثيرة أثناء الليل ، وظلّوا يتبعونه حتى وصلوا الى حدود ثورينجيا . وكانت قوات ثورينجيا تعمل فى جيش أتिला ، وعبرت فى تقدمها وعودتها اراضى الفرنجة ، وربما أنها فى هذه الحرب بالذات مارست أعمال القسوة التى انتقم لها ابن كلوفيس Clovis بعد انقضاء ثمانين سنة . فقد ذبح رجالها رهائهم وأسراهم ، وعذبوا مائتين من العذارى الصغيرات فى ثورة عارمة لا ترحم ولا تلين ، ومزقت أجسادهن الخيول الجامحة ، أو سحقتهن عظامهن تحت عجلات العربات

الثقيلة ، وتركت أطرافهن على الطرقات العامة قريسة للكلاب والنسور .
هكذا كان أجدادنا الهمج المتوحشون الذين تثير فضائلهم الخيالية في
بعض الأحيان أطراء الأجيال المتحضرة وحسدها !! .

غزو إيطاليا

لم يترتب على فشل حملة أتيتلا على بلاد الغال اضعاف روحه أو قواته
أو سمعته . ففي الربيع التالي عاود طلب يد الأميرة أونوريا وما ورثته من
أموال ، وللمرة الثانية قوبل طلبه بالرفض أو المراوغة ، فما كان من ذلك
العاشق الساخط الا أن يبادر على الفور الى القتال ، فعبر جبال الألب ،
وغزا إيطاليا ، وحاصر أكوييا . بجيش ضخم من البرابرة . وكان هؤلاء
البرابرة يفتقرون الى المهارة في أساليب تنفيذ حصار منظم ، لأن الحصار ،
حتى بين القدامى ، كان يتطلب بعض الامام بالفنون الميكانيكية ، أو على
الأقل بعض التمرين عليها . غير أن أتيتلا استطاع أن يستخدم في تنفيذ
أشق الأعمال وأخطرها آلافا كثيرة من الأسرى وسكان الأقاليم الذين كان
يضحى بأرواحهم دون شفقة أو رحمة ، ومن ثم فقد استغل مهارة الصنّاع
الرومان في تدمير بلادهم ، واستخدم في مهاجمة أسوار أكويليا عددا
كبيرا من معدات الهدم ، والأبراج المتحركة ، وآلات قذف الأحجار والسهم
والنار (١) ، ولجأ ملك الهون أيضا الى استخدام الدوافع القوية ، دوافع
الامل والخوف والمنافسة والمصلحة ، لتحطيم الحاجز الوحيد الذي كان
يعترض سبيل غزو إيطاليا . وكانت مدينة أكويليا في ذلك الوقت من
أغنى المدن البحرية على شاطئ الأدرياتيک ، ومن أكثرها سكانا وأعظمها
قوة . وكانت فيها قوات مساعدة من القوط الذين يبدو أنهم عملوا من
قبل تحت قيادة ملكين من أبناء جلدتهم ، وهما الأريك وأنتالا ، وبعثت
هذه القوات في المدينة روحها الجريئة الباسلة ، وكان مواطنو المدينة
لا يزالون يذكرون المقاومة المجيدة الظافرة التي أبدتها أجدادهم في وجه
بربري وحشي عنيد ألحق العار بجلال العرش الروماني . وانقضى على
حصار أكويليا ثلاثة شهور دون أن يحقق هدفا ، حتى اضطر أتيتلا بعد
نضوب مؤنه وتذمر قواته الى التخلي عن مغامرته ، فأصدر أوامره الى

(١) في القرن الثالث عشر هاجم المغول أسوار مدن الصين بالآلات كبيرة من صنع
المسلمين والمسيحيين الذين كانوا في خدمتهم . وكانت تلك الآلات تهدف أحجارا تزن
ما بين ١٥٠ ، ٣٠٠ رطل . واستخدم الصينيون في الدفاع عن بلادهم البارود ، والقنابل
قبل أن تعرفها أوروبا بأكثر من مائة سنة . غير أنه حتى تلك الأسلحة السماوية أو
الجهنمية لم تكف لحماية أمة هياية .

قوانه كارها بأن تحل خيامها فى صباح اليوم التالى وتبدأ تقهقرها . ولكنه بينما كان يسير حول الأسوار على ظهر جواده ، وقد تملكه الغضب واليأس وانهمك فى التفكير ، شاهد طيرا من طيور اللقلق يتأهب لمغادرة عشه فى أحد الأبراج وللطيران مع صغاره الى الريف . فأمسك ، فى نفاذ بصيرة الرجل السياسى ، بتلك الواقعة التافهة التى قدمتها الصدفة لرجل يؤمن بالخرافات ، وقال فى صوت مرتفع طروب ان مثل ذلك الطير الأليف لا يمكن أن يتخلى عن مستقره القديم الا اذا كانت تلك الأبراج صائرة فى وقت قريب الى الخراب والعزلة . وبعث فيه هذا الفأل الحسن ثقة بالنصر ، فعاود حصار المدينة بهمة جديدة ، واستطاع أن يفتح ثغرة كبيرة فى ذلك الجزء من السور الذى طار منه اللقلق . واندفع الهون الى الهجوم فى ثورة عارمة لا تقاوم ، وحطموا المدينة تحطيمًا جعل من المتعذر على الجبل التالى أن يكشف أطلال أكويليا وخرائبها . وبعد ذلك العقاب الرهيب مضى أتيلًا فى تقدمه ، مارا بمدائن التينوم وكونكورديا وبادوا ، وحولها جميعا الى كومات من الأحجار والرماد . وكذلك تعرضت المدن الداخلية ، فيشنزا ، وفيرونا وبرجامو لأعمال القسوة والنهب التى قام بها الهون . أما ميلان وبافيا ، فقد خضعتا دون مقاومة لخسارة ثروتهما ، وهللتا للشفقة غير العادية التى عاملهما بها العدو ، والتى أنقذت المباني العامة والخاصة فى المدينة من الحريق ، وأبقت على حياة جماهير الأسرى . ولسنا شق كثيرا فيما تناقلته الألسن عما جرى لمدينة كوموم أو تروين أو مودينا ، غير أن تلك الشائعات تتفق مع أدلة أكثر دقة ، وتثبت جميعها أن أتيلًا اجتاح سهول لمبارديا الحديثة الغنية التى يشطرها نهر البو ، وتحدها جبال الألب والأبنين . وعندما استولى على القصر الملكى فى ميلان استشعر الدهشة والاساءة عندما رأى صورة تمثل القياصرة جلوسا على عروشهم ، والملوك السكوديين منبطحين تحت أقدامهم . وقد صب أتيلًا على ذلك الأثر الذى يمثل الفرور الرومانى انتقاما بريثا بارعا . ذلك أنه أمر أحد الرسامين أن يعكس الأشكال والأوضاع ، فرسم الأباطرة على جسم الصورة نفسها وهم يتقدمون فى وضع التوسل والتضرع لافراغ أكياس ذهب الجزية المفروضة عليهم أمام عرش العاهل السكودى . ولابد أن من شاهدوا تلك الصورة قد اعترفوا بصدق ذلك التغير ومناسبته للواقع ، وبما أغرتهم أن يطبقوا عليها فى تلك المناسبة الفريدة القصة الخرافية المعروفة ، قصة النزاع بين الأسد والانسان .

تأسيس فينسيا (البندقية)

هناك قول مأثور يتناسب مع ما اتصف به أتيلًا من صلف وحشى ، وهو أن الأرض التى وطئها جواده ، لم ينبت فيها بعد ذلك عشب . غير

أن المدمر الهمجى وضع دون أن يقصد ، أساس جمهورية أحيث فى عصر
الاقطاع الأوروبي فن الصناعة التجارية وروحها . وكان الاسم الشهير ،
فينيسيا يطلق فيما مضى ، على ولاية كبيرة خصبة من ولايات إيطاليا ،
تمتد من حدود بونونيا الى نهر أدوا ، ومن نهر البو الى جبال الألب
الريشيانية والجوليانية . وقبل غارات البرابرة ازدهرت خمسون مدينة
فينيسية ، وكان يسودها السلام والرخاء ، واحتلت أكويليا أبرز مكان
بينها ، غير أن المجد القديم الذى كان لمدينة بادوا كان قائما على الزراعة
والصناعة ، وامتلك خمسمائة مواطن فيها ، من طبقة الفرسان ، أملاكها
تبلغ قيمتها فى أدق التقديرات مليوناً وسبعمائة ألف من الجنيهات .
وكثير من أسرات أكويليا ، وبادوا ، والمدن المجاورة ، وهى الأسرات التى
فرت من سيوف الهون ، وجدت ملاذاً آمناً ، وإن كان مغموراً ، فى الجزر
المجاورة (١) . وفى طرف الخليج ، حيث تبدو أمواج المد والجزر فى بحر
الأدرياتيک صورة ضعيفة للمد والجزر المحيطى ، ويوجد ما يقرب من
مائة جزيرة صغيرة تفصلها عن القارة مياه ضحلة ، وتحميها من الأمواج
عدة ألسنه من الأرض تسمح بدخول السفن فى بعض القنوات الضيقة غير
المعروفة . وحتى منتصف القرن الخامس ظلت هذه البقاع النائية المنعزلة
دون زراعة ، وقليلة السكان ، ويكاد لا يكون لها اسم . غير أن اللاجئين
البنادقة كونوا لأنفسهم شيئاً فشيئاً عادات وفنوناً وحكومة بفضل وضعهم
الجديد . وقبله وصف كاسيودوروس حالة هؤلاء القوم بعد ذلك بسبعين
سنة فى رسالة يمكن اعتبارها أول وثيقة عن الجمهورية ويشبههم وزير
ثيودوريك فى هذه الرسالة ، وبأسلوبه الحماسى الطريف ، بطيور الماء
التي بنت أعشاشها على صدر الأمواج . ومع أنه يسلم بأن ولايات البندقية
كانت فيما مضى تشتمل على كثير من الأسر النبيلة ، إلا أنه يلمح الى أنهم
الآن قد انحدروا بفعل المحن والكوارث الى مستوى الفاقة الرضيعة . وكان
السماك هو الغذاء المشترك لكل طبقة ، ويكاد يكون غذاء عاماً : وكان الملح
الوفير الذى يستخرجونه من البحر هو مورد ثرائهم الوحيد ، اذ كانوا
يبادلون تلك السلعة الجوهريه للحياة البشرية بعملة الذهب والفضة .
ونظراً لأن ذلك الشعب كان يقطن الأرض أو الماء سواء بسواء ، فسرعان
ما ألف هذا العنصر وذاك ، وبدأ يستجيب لمطالب الجشع بعد أن كان
قانعاً بأشباع مطالب الحاجة . وكان سكان الجزر هؤلاء ، من جزيرة

(١) الثابت الآن أن البندقية نشأت خلال الغزوات المتأخرة التى قام بها اللمبارد .
ومع ذلك فإنه مما لا شك فيه أن بعض الناس هربوا من أتيلا ولجأوا الى أقليم المستنقعات
ومن ثم فإن وصف جييون يمكن أن يكون مقبولا ، بهذا التحفظ .

جرادو Grado الى جزيرة كيوزا ، على صلة وثيقة بعضهم ببعض ، وتوغلوا في قلب ايطاليا ، عن طريق الملاحة النهرية وفي القنوات الداخلية وهو طريق مأمون وان كان شاقا ، وازدادت سفنهم عددا وحجما ، وزارت كل موانئ الخليج ، وتكونت لديهم منذ عهدهم الأول عادة التزاوج بين البندقية والبحر ، وهى العادة التى تحتفل بها المدينة سنويا . أما رسالة كاسيودوروس ، الوالى البريتورى ، سابقة الذكر ، فهى موجهة الى المدافعين عن حقوق الشعب Tribunes فى الأقاليم الساحلية يحضهم فيها بلهجة السلطة الرقيقة على تقوية حماس مواطنيهم للخدمة العامة التى كانت فى حاجة الى معونتهم فى نقل كميات النبيذ والزيت من ولاية أستريا الى مدينة رافنا الملكية . وكان المنصب الميهم الذى يشغله هؤلاء الحكام منصبا جرت عليه التقاليد ، ففي الجزر الاثنتى عشرة الرئيسية كان التربيونات أو القضاة ، اثنا عشر ، ينتخبون سنويا انتخابا شعبيا . ووجود جمهورية البندقية تحت حكم مملكة القوط الايطالية انما يثبت نفس السجل الصادق الذى يدحض ادعاءها المتشامخ من أنها كانت تحظى باستقلال أصيل دائم .

وبعد أربعين سنة من السلم فوجئ الايطاليون الذين انقضى عليهم زمن طويل تخلوا فيه عن ممارسة القتال ، باقتراب بربرى قوى مخيف كانوا يمتقون كعدو لدينهم ولجمهوريتهم . وفى وسط هذا الفرع الشامل كان ايتيوس وحده هو الذى لم يمتلكه الخوف ، غير أنه كان من المستحيل عليه أن يحقق بمفرده ودون مساعدة أية مآثر عسكرية جديدة بشهرته السابقة . فقد رفض البرابرة ، الذين سبق لهم الدفاع عن بلاد الغال ، أن يبادروا الى انقاذ ايطاليا ، كما أن النجذات التى وعد بها الامبراطور الشرقى كانت بعيلة ومشكوكا فيها . وبما أن ايتيوس ، على رأس قواته الوطنية ، كان لا يزال صامدا فى الميدان ، يناوش أتيلا ويؤخر تقدمه ، فإنه لم يظهر بمظهر العظمة الحقيقية فى أى وقت مضى أكثر من هذا الوقت الذى كان مسلكه فيه موضع التأنيب من شعب جاهل جاحد للجميل . ولو أن عقل فالنتينيان كان قابلا للتأثر بأية أحاسيس كريمة ، لاختار مثل هذا القائد مثلا يحذو حذوه ومرشدا يسترشد به ، غير أن حفيد ثيودوسيوس الوجل الهيب ، بدلا من المشاركة فى الأخطار ، فر من صوت الحرب ، وكشف انسحابه السريع من رافنا الى روما ، من حصن منيع الى عاصمة مكشوفة ، عن أنه قلب بيت النية على مغادرة ايطاليا بمجرد اقتراب الخطر من شخصه الامبراطورى ، غير أن هذا الاعتزال الشائئ توقف بفضل روح الشك والتوانى التى تلازم عادة الآراء المتسمة بالجبن والتردد ، بل وتصحح اتجاهاتها الضلالة فى بعض الأحيان . واتخذ

امبراطور الغرب مع مجلس السناتو وشعب روما قرارا أكثر نفعا وأعظم جدوى ، وهو ارسال وفد رسمى يسترحم أتيليا ويهدى من غضبه . وقبل أفيتوس أن يقوم بهذه المهمة الخطيرة . وكان هذا الرجل يحتل أرفع مكانة فى مجلس السناتو الرومانى بفضل عراقة منبته وثرائه ، ووقار منصبه القنصلى وقدراته الشخصية ، وكثرة عدد أتباعه . وكان أفيتوس حسن الطلعة واسع الحيلة ، ومن ثم فقد كان جديرا بالتفاوض على مصلحة عامة أو خاصة . ورافقه فى هذه المهمة زميله تريجييتيوس **Trigetius** الذى مارس أعمال الوالى الأول البريتورى لايطاليا ، وقبل ليو ، أسقف روما ، أن يعرض حياته للخطر فى سبيل سلامة رعيته ، وقد ظهرت عبقرية هذا الأسقف فى أوقات المحن العامة ، واستحق أن يسمى باسم « العظيم » بفضل تلك الغيرة الناجحة التى جاهد بها فى اقرار آرائه وتوكيد سلطته باسم العقيدة الأرثوذكسية والنظام الكنسى . ومثل سفراء الرومان أمام أتيليا فى خيمته ، وكان اذ ذاك معسكرا فى المكان الذى يتصل فيه نهر منكىوس البطىء المتعرج بأمواج بحيرة بيناكوس المرغية المزبدة ، حيث داس فرسانه السكوديون مزارع كاتوللوس وفرجيل . واستمع العاهل المتبربر الى الوفد الرومانى بانتباه مشجع ، بل وفى شئ من الاحترام ، واستطاع الوفد أن يشتري انقاذ ايطاليا بفدية ضخمة هى أن يزوجه من الأميرة أونوريا . وسهلت حالة جيش أتيليا عقد المعاهدة والاسراع بالتقهقر . ذلك أن الثراء الذى حققه الجنود والكسل الذى بعثه فيهم مناخ ايطاليا الدفىء كانا سببا فى هبوط روحهم العسكرية . فرعاة الشمال ، الذى كان غذاؤهم العادى يتألف من اللبن واللحم النيىء انغمسوا دون حدود فى شرب النبيذ وأكل الخبز واللحوم المطهوه المتبلة ، فسرت بينهم الأمراض وانتقلت الى حد ما للأضرار التى ألحقوها بالايطاليين . وعندما أعلن أتيليا عن عزمه على توجيه جيوشه الظافرة الى أبواب روما ، حذره أصدقاؤه وأعداؤه سواء بسواء من مغبة هذا العمل قائلين ان الأريك من قبله لم يعمر طويلا بعد غزوه للمدينة الخالعة . ورغم أن عقله كان فوق مستوى الأخطار الحقيقية ولا يابه لها ، إلا أن المخاوف الخيالية هاجمته ، ولم يستطع التخلص من تأثير الخرافات التى كثيرا ما كانت فى خدمة خطئه وأعماله . وكان لفصاحة الأسقف المؤثرة ، وطلعته المهيبة ، وأرديته الكهنوتية ، أثرها فى بعث الاحترام والاجلال فى نفس أتيليا نحو الأب الروحى للمسيحيين . ومن الأساطير الدينية النبيلة التى تناقلتها الألسن أن شبهى القديس بطرس والقديس بولس ظهرا للقائد البربرى وهدداه بالموت السريع اذا رفض رجاء خليفتهما أسقف روما . ولا شك فى أن سلامة روما تستحق توسط المخلوقات السماوية ، ولابد لنا من بعض

التجاوز عن هذه الأسطورة التي صورها رفايل بريشته ونحتها الجاردي
بأزميله .

موت أتिला ودمار امبراطوريته

وقبل أن يجلو ملك الهون عن إيطاليا هدد بأن يعود إليها بصورة
أشد هولا وقسوة اذا لم تسلم الأميرة أونوريا الى سفرائه في حدود
الفترة المتفق عليها في المعاهدة . وخفف أتिला من قلقه العاطفي بأن أضاف
الى قائمة زوجاته فتاة جميلة اسمها الديكو ، واحتفل بزواجهما وسط
مظاهر العظمة والأفراح البربرية في قصره الخشبي فيما وراء الدانوب .
وتغلب الخمر والنوم على الملك فانسحب من الوليمة في وقت متأخر الى
فراش الزوجية . وظل أتباعه يحترمون ملذاته ، أو راحته ، طوال الجزء
الأكبر من اليوم التالي ، حتى أثار الصمت غير العادي مخاوفهم وشكوكهم .
وبعد أن حاولوا دون جدوى ايقاظ أتिला بالصيحات العالية المتكررة ،
اقتحموا المخدع الملكي ، هناك وجلسوا العروس الراجفة جالسة الى جوار
الفراش ، وقد أخفت وجهها بنقابها ، وهي ترثي للخطر المحيق بها وتندب
موت الملك الذي وافته المنية خلال الليل . ذلك أن أحد شرايينه قد انفجر
فجأة ، وبما أنه كان مستلقيا على ظهره ، فقد اختنق بفعل نزيف الدم
الذي لم يستطع النفاذ من خياشيمه واندفع الى رثتيه ومعدته . وقد عرض
جثمانه بصورة مهيبة وسط السهل تحت مظلة حريرية ، وأخذت الكتائب
المختارة من الهون تدور حوله دورات منتظمة وهي تنشد نشيدا جنائزيا
لذكرى البطل ، الذي كان عظيما في حياته منيعا في موته ، والدا لشعبه ،
نقمة على أعدائه ، ومصدر فزع للعالم كله . وتمشى البرابرة مع عاداتهم
الوطنية فقطعوا أجزاء من شعورهم وجرحوا وجوههم بجراح قبيحة المنظر ،
وانتحبوا على زعيمهم الشجاع نحيبا يستحقه ، لا بدموع النساء ، بل بدماء
المحاربين . ووضعت رفات أتिला داخل ثلاثة توابيت ، من الذهب ، ومن
الفضة ، ومن الحديد ، ثم دفنت أثناء الليل سرا ، وألقيت في قبره أسلاب
الشعوب التي قهرها . أما الأسرى الذين حفروا أرض القبر فقد ذبحوا
بصورة وحشية ، وبدأ رجال الهون أنفسهم ، الذين غرقوا في مثل ذلك
الحزن الشديد ، يأكلون ويشربون ويستمتعون بصورة منحلة مسفة حول
قبر مليكهم الذي مات لتوه . وقيل في القسطنطينية انه في الليلة السعيدة
التي مات فيها أتिला . شاهد الامبراطور مارشيان في حلمه قوس أتिला
محطما ، وقد تدل هذه الرواية على أن خيال ذلك البربري الرهيب قلما
كان يفارق عقل امبراطور الرومان .

وأكدت الثورة التي قوضت امبراطورية الهون بعد موت أتيليا شهرة ذلك الرجل ، لأن عبقريته وحدها هي التي كانت دعامة ذلك الكيان المفكك الضخم . وبعد موته تطلع أجراً زعماء القبائل الى منصب الملوك ، وأبى أقوى الملوك أن يعترفوا بشخص يفوقهم مركزاً ، أما الأبناء الكثيرون الذين أنجبهم الملك الراحل من مختلف الأمهات ، فقد انقسموا على أنفسهم وتنازعوا السيادة والسيطرة على شعوب ألمانيا وسكوديا كما لو كانوا يتنازعون ارثاً خاصاً . وأحس أراداريك الشجاع بعار ذلك الانقسام المزرى ، وتجلت له صورته ، ومن ثم فإن رعاياه من قبائل الجبيدي الحاربة ، والقوط الشرقيين ، تحت قيادة ثلاثة أشقاء شجعان ، استحثوا خلفاءهم على تأييد حقوق الحرية والملكية . وحدث صدام دموي حاسم على ضفاف نهر نيتاد Netad في اقليم بانونيا ، تقابلت فيه ، أو تكاثفت ، رماح الجبيدي ، وسيوف القوط ، وسهام الهون ، ومشاة قبائل السوفي ، والأسلحة الخفيفة التي استخدمتها قبائل الهريولى ، والأسلحة الثقيلة التي جاءت بها قبائل الألاني . واقترن انتصار أراداريك بمقتل ثلاثين ألفاً من أعدائه . وفقد الاك Ellac ، أكبر أبناء أتيليا ، حياته وتاجه في معركة نيتاد المشهودة . وكانت شجاعته البارعة قد رفعتة الى عرش قبيلة أكتزير Actazires ، وهي شعب سكودى كان قد أخضعه ، ولا شك في أن والده ، الذي أحب ما اتصف به ابنه من صفات سامية ، كان يغبطه على موته ، لو أنه كان حياً . أما أخوه دنجيزيش Dengizich ، مع جيش من الهون كان لا يزال قوياً في القتال والتدمير ، فقد احتفظ بمواقعه أكثر من خمسة عشر عاماً على ضفاف الدانوب . أما قصر أتيليا وبلاد داكيا القديمة ، من جبال الكربات الى البحر الأسود ، فقد أصبحت مركز دولة جديدة أقامها أراداريك ، ملك الجبيدي . واحتل القوط الشرقيون بلاد بانونيا المقهورة من فينا الى سرميوم ، ووزعت الأرض في غير نظام على القبائل التي حافظت على حريتها الوطنية بمثل تلك الشجاعة ، حسب قوة كل منها . أما مملكة دنجيزيش فقد أحاط بها وضيق عليها عدد كبير من عبيد والده ، ولهذا انحصرت في دائرة عرباته ، ودفعته شجاعته اليانسة الى غزو الامبراطورية الشرقية ، ولكنه قتل في المعركة وعرضت رأسه بصورة شائنة في حلبة السباق ، فكانت مشهداً مرضياً لشعب القسطنطينية . وكان أتيليا يعتقد عن رغبة أو عن ايمان بالحرافات ، أن ارناك ، أصغر أولاده ، هو الذى قدر له أن يديم أمجاد بنى جنسه . وكانت أخلاق ذلك الأمير ، الذى حاول التخفيف من تهوؤ أخيه دنجيزيش ، أكثر ملائمة لحالة التدهور التي بلغها الهون ، ولهذا انسحب ارناك مع القبائل التابعة له ، الى قلب اقليم سكوديا الصغرى . وسرعان ما طغى

عليهم هناك سبيل من البرابرة الجدد الذين سلبوا نفس الطريق الذي اكتشفه أجدادهم من قبل . هؤلاء هم قبائل الجيوجن ، أو الآفار ، التي تقطن شواطئ المحيط ، حسبما يقول كتاب الاغريق ، والتي تغلبت على القبائل المجاورة . وأخيرا جاءت قبائل الايجور الشمالية من أقاليم سيبيريا الباردة التي تنتج أجود أنواع الفراء وانتشرت فوق أرجاء الصحراء حتى مداخل بوريسثنيز وقزوين ، وقضت في نهاية الأمر على امبراطورية الهون .

قتل ايتيوس وموت

فالتينيان الثالث

كان يمكن لمثل هذا الحدث أن يسهم في سلامة الامبراطورية الشرقية تحت حكم ملك استطاع اكتساب صداقة البرابرة دون أن يفقد تقديرهم . غير أن الامبراطور فالتينيان امبراطور الغرب الضعيف المنحل ، الذي بلغ الخامسة والثلاثين دون أن يصل الى سن التعقل أو الشجاعة ، أساء استغلال هذا الأمان الواضح ، وقوض أسس عرشه بقتل النبيل ايتيوس . وكان الامبراطور ، بدافع غريزي من الحقد والحقد ، يكره ذلك الرجل الذي اشتهر بين الجميع كمصدر فزع للبرابرة وسند للدولة ، كما أن الخصى المقرب له ، هرقليوس ، أيقظ الامبراطور من حالة الخمول والعجز التي كان يمكن اخفاؤها عندما كانت أمه بلاكيسديا على قيد الحياة (١) ، والتي كان يبررها بمراعاة التزامه البنوي نحوها . ولم يكن ايتيوس مجرد فرد من الرعية ، بل ارتفع الى مرتبة أسمى من ذلك ، بفضل شهرته ، وثرائه ومكانته ، وبفضل ذلك العدد الكبير من أتباعه البرابرة العسكريين ، ومواليه الأقوياء الذين شغلوا المناصب المدنية في الدولة ، وبفضل آمال ابنه جودنتيوس الذي كان مخطوبا ليودوكسيا ، ابنة الامبراطور . وأثارت خططه الطموحة ، التي اتهم بها سرا ، مخاوف الامبراطور وسخطه . ويبدو أن ايتيوس نفسه كان يسلك سلوك التعالى والرعونة لشعوره بقدره ، وبخدماته ، وربما لشعوره بأنه برىء مما يقال عنه ، وقد أساء النبيل الى مليكه بتصريح عدائي ، ضخم الاساءة بأن أجبر

(١) ماتت بلاكيسديا في روما في ٢٧ نوفمبر سنة ٤٥٠ م . ودفنت في مدينة رافنا حيث ظل ضريحا قائما عصورا طويلة ، وفي داخله جثمانها جالسا على مقعد من خشب البسر . وقد كانت بلاكيسديا موضع الكثير من أطراء رجال الدين أصحاب المذهب الصحيح . وقد أكد لها القديس بطرس كريسولوجوس أن غيرتها على عقيدة التثليث قد كوفئت عليها بثلاثة أطفال عظام .

الامبراطور على اقرار معاهدة توفيق وتحالف بقسم رسمي . وكذلك كان يصرح بشكوكه ويهمل في الحفاظ على سلامته ، ودفعته ثقته الباطلة في أن العدو الذي يحتقره لا يستطيع حتى أن يرتكب جرما متسما بالرجولة ، الى المغامرة بدخول القصر الامبراطوري في روما ، وكان ذلك تهورا من جانبه . وبينما كان يتعجل زواج ابنه في حماس مشوب بشيء من التطرف ، استل الامبراطور سيفه - وكان أول سيف يستله في حياته - وطعن به صدر القائد الذي أنقذ امبراطوريته : وتدافع خصيانه ورجال حاشيته في طموح لتقليد مولاهم ، وخر ايتيوس على الأرض صريعا أمام الملك ، وهو مثخن بمئات الجروح . وفي اللحظة عينها قتل بوثيوس Boethius ، الوالي البريتوري ، وقبل أن يعرف شيء عما حدث استدعى أهم أصدقاء النبيل الى القصر ، وقتل كل واحد منهم على حدة . أما ذلك العمل الرهيب الفظيع فقد خففوا من وقعه بقولهم انه كان أمرا تحتمه العدالة والضرورة ، وأبلغه الامبراطور على الفور الى جنوده ، ورعيته ، وحلفائه . وأسفت الجماعات التي كانت عدوة لاييتيوس ، أو لا تعرفه أسفا شديدا لذلك المصير غير اللائق ببطل . أما البرابرة الذين كانوا في خدمته ، فقد اصطنعوا اخفاء حزنهم وسخطهم ، وانقلب الاحتقاد العام الذي كانوا يشعرون به نحو فالنتينيان الى كراهية شاملة . غير أن مثل هذه الأحاسيس قلما تنفذ من أسوار القصر وتصل الى أسماع الملوك . ورغم ذلك فقد ارتبك الامبراطور عندما سأل أحد الرومان عن رأيه فيما حدث دون أن يتورع عن استجداء استحسانه له ، فأجاب في صلق وإخلاص قائلا :

« انى أجهل يا مولاى ما كان لديك من دوافع واثارات ، غير أنى أعرف شيئا واحدا ، وهو أنك تصرفت كرجل يقطع يده اليمنى بيده اليسرى » .

ويبدو أن الترف الذي كان سائدا في روما جذب الامبراطور اليها وجعله يكرر زياراته لها ويطلق المكث فيها ، وترتب على ذلك أنه أصبح موضع الاحتقار هناك أكثر من أى جزء آخر من بلاده . وثمة روح جمهورية بدأت تسرى في السناتو دون أن يحس بها أحد ، لأن حكومته الضعيفة أصبحت فى حاجة الى سند من سلطة المجلس ، بل ومن موارده . وأساء الى كبرياء المجلس مسلك الجلالة الذى كان يسلكه ملك وراثى ، كما أن ملذات فالنتينيان كانت مصدر قلق للأسرات النبيلة ، وتسبب الى شرفها وسمعتها . ولم يكن منبث الامبراطورة يودوكسيا بأقل من منبث زوجها الامبراطور ، كما أن جمالها وحبها العطوف كانا يستحقان منه أن يبادلها حبا بحب ، غير أن ذلك الزوج المتقلب أطاح بهذا الحب فى غرامياته

الخفية غير الشرعية . وحدث أن بطرونيوس مكسيموس ، وهو عضو غنى
 من أعضاء السناتو من أسرة أنيكويس ، وشغل منصب القنصل مرتين ،
 كان له زوجة جميلة طاهرة . وقاومت هذه الزوجة غرام الامبراطور مقاومة
 عنيدة لم يكن لها من أثر سوى إثارة رغباته وشهواته ، فصمم على تحقيق
 تلك الرغبات بالحيلة أو القوة . وكان لعب القمار من رذائل البلاط .
 وحدث أن الامبراطور كسب من مكسيموس مبلغا كبيرا من المال ، اما بالخط
 أو الحيلة ، فأخذ منه خاتمه بصورة غير لائقة ضمنا للدين . ثم أرسله
 مع رسول أمين الى زوجته ، ومعه أمر باسم زوجها أن تبادر على الفور الى
 مقابلة الامبراطورة يودوكسيا . ولم ترتب زوجة مكسيموس فى الأمر .
 ونقلت فى محبتها الى القصر الامبراطورى ، وقادها رسل العاشق المتلطف
 الى مخدع بعيد منفرد ، وهناك حطم الامبراطور قواعد الضيافة دون شفقة
 أو رحمة . وعندما غادت الى المنزل انهمرت دموعها ، وقصت على زوجها
 بلواها ، وأخذت تؤنبه تأنيبا مرا . اذ اعتبرته شريكا فى ذلك العار الذى
 لحق بها . كل أولئك أثار فى مكسيموس رغبة الانتقام العادل ، وضاعف
 تلك الرغبة ما كان يجول فى نفسه من طمع فى العرش . وكان من المعقول
 أن يتطلع الى ذلك المنصب الذى يشغله منافس مكروه محقر ، وذلك عن
 طريق انتخاب حر يجره السناتو الرومانى . واعتقد الامبراطور أن كل
 صدر بشرى ، هو كصدره ، خلو من الصداقة وعرفان الجميل ، فقبل
 ضمن حراسه دون تبصر أو روية عددا من خدام ايتيوس وأتباعه ، وأمكن
 اغراء اثنين من هؤلاء ، وهما من الجنس البربرى ، على تنفيذ واجب مقدس
 شريف هو قتل قاتل مولاهم ، وسرعان ما حانت فرصة مواتية أظهرها فيها
 ما اتصفا به من شجاعة وجراة . فبينما كان الامبراطور يستمتع فى
 ساحة « مارس » ببعض مشاهد الألعاب العسكرية ، هجما عليه بسيوفهما
 المسلولة ، وقتلا هرقليوس المذنب ، وطعنا الامبراطور فى قلبه ، دون أقل
 مقاومة من حاشيته الكبيرة التى يبدو أنها فرحت لموت الطاغية . هكذا كان
 مصير فالنتينيان الثالث ، آخر امبراطور رومانى من أسرة ثيودوسيوس .
 ولقد قلده هذا الامبراطور فى صدق وأمانة ذلك الضعف الوراثى الذى
 اتسم به ابن عمه وعماه ، دون أن يرث صفات الرقة والنقاء والبراءة التى
 تخفف من افتقار شخصياتهم الى الجرأة والكفاية . ولم يكن مستطاعا أن
 يلتمس له العذر مثلما يلتمس لهم ، فقد كان كثير الأهواء خلوا من
 الفضائل ، بل ان ديانتة كانت موضع الشك ، ومع أنه لم ينحرف مطلقا
 الى سبل الهرطقة ، الا أنه جلب الفضيحة والعار الى أتقياء المسيحيين
 بتعلقه بفنون السحر والكهانة الدنسة .

أعراض الاضمحلال في الامبراطورية الرومانية الغربية

كان من رأى عرافى الرومان منذ وقت بعيد يعود الى أيام شيشرون وفارو أن النسور الاثنى عشر التى رآها روميلوس انما تمثل القرون الاثنى عشر التى قدر لمدينته أن تنهار بعدها . وهذه النبوءة ، التى لم يأبه لها الناس فى عصر الازدهار والرخاء ، بعثت فيهم المخاوف الكثيرة عندما أوشك آخر هذه القرون أن ينصرم وسط مظاهر العار والشقاء . ولا بد للأجيال التالية من أن تعترف فى شىء من الدهشة أن التفسير الجائر لحدث عابر أو خرافى قد تحقق بصوة خطيرة، وذلك بانهيار الامبراطورية الغربية . غير أن انهيارها هذا كانت تنبىء به نذر أكثر وضوحا من سرب النسور . ذلك أن الحكومة الرومانية كانت تبدو فى كل يوم أقل بأسا فى نظر أعدائها ، وأكثر ظلما وبعثا للكراهية فى نظر رعاياها . فالضرائب كانت تتضاعف مع تفاقم المحنة العامة ، وكلما زادت الضرورة الى الاقتصاد زاد الاسراف ، وطرح الأغنياء الظالمون كل العبء عن كواهلهم وألقوه على كواهل الناس ، بل وتحايلوا على حرمانهم من المتع البريئة التى قد تخفف من شقائهم فى بعض الأحيان . وعمدت الحكومة الى التحقيق والتفتيش ، ثم الى مصادرة بضائعهم وتعذيب أشخاصهم . كل أولئك أرغم رعايا فالنتينيان على تفضيل طغيان البرابرة الأكثر بساطة ، أو على الفرار الى الغابات والجبال، أو الى قبول وضع الخدم المرتزقة ، على خسته وحقارته . ووصل بهم الأمر الى جحود اسم « مواطن روماني » وكراهيته ، بعد أن كان فيما مضى محط أطماع العالم أجمع . وأصبحت ولايات أرموريكا فى بلاد الغال والجزء الأكبر من أسبانيا فى وضع مستقل مرتبك نتيجة تحالف شعوب الباجودى Bagaudae ، أما وزراء الامبراطور فلم يكن فى وسعهم الا ملاحقة الثوار ، الذين خلقوهم ، باصدار قوانين الحرمان وارسال قوات عديدة الفعالية ، ولو أن جميع الغزاة البرابرة هلكوا فى ساعة واحدة ، فإن هلاكهم الكامل هذا ما كان فى مقدوره أن يعيد الى الامبراطورية الغربية كيانها . واذا كانت روما قد ظلت قائمة ، الا أنها ظلت قائمة على أنقاض الحرية والفضيلة والشرف .

الفصل السادس والثلاثون

(٤٥٧ - ٤٩٠)

الامبراطور ماجوريان • « اواكر » ملك ايطاليا

رغم أن اقامة الهون في ايطاليا كانت مؤقتة ءابرة ، الا ان تلك المنظمة (الامبراطورية) الغربية قد أصبحت الآن مقلقة مزعجة تستعصى على الاصلاح • وفي غضون ثلاثة أشهر من موت فالنتينيان (٤٥٥) كان جنسريك (جيسريك) قد وصل بأسطوله الى مصب نهر التيبر واجتاح روما • وشاهدت العشرون سنة التالية انهيار الغرب النهائي تحت حكم سلسلة من الأباطرة لم يكونوا أباطرة الا بالاسم فقط • والتقطت الامبراطورية أنفاسها فترة من الوقت في العهد القصير الذي حكم فيه الامبراطور ماجوريان (٤٥٧ - ٤٦١) •

الامبراطور ماجوريان

يعتبر خليفة أفيتوس Avitus بمثابة اكتشاف سعيد لشخصية عظيمة بطولية تظهر ، كما يحدث أحيانا ، في عصر منحل لتدعيم شرف الجنس البشرى • ولقد كان الامبراطور ماجوريان جديرا باطراء معاصريه والأجيال التالية ، وهو اطراء عبر عنه تعبيرا قويا أحد المؤرخين المتسمين بالفطنة والانصاف حيث قال : « انه كان رقيقا نحو رعيته ، مخيفا لأعدائه ، وقد فاق في كل الفضائل جميع أجداده الذين حكموا الرومان » • مثل هذه الشهادة تبرر على أقل تقدير ذلك الاطراء الذي كاله له الخطيب سكيدونينوس Sidonius ، ولنا أن نقبل ما قيل في هذا الشأن من أن هذا الخطيب الدليل ، رغم أنه كان لا يتردد في تملق أئفه الملوك بالحماس نفسه ، الا أن ما كان يتحلى به الامبراطور من فضائل غير عادية ، جعله يحصر مديحه في تلك المناسبة داخل حدود الصدق • ولقد حصل ماجوريان على اسمه هذا من جده لأمه الذي كان في عهد ثيودوسيوس العظيم ، يتولى

قيادة قوات الحدود الليرية . وزوج ابنته الى والد ماجوريان الذى كان موظفا محترما يشرف على دخل بلاد الغال بمهارة ونزاهة ، ويفضل فى شهامة صداقة ايتيوس على العروض المغرية التى عرضها عليه بلاط ملكى غادر مخادع . أما ابنه ، وهو الامبراطور المقبل ، فقد تعلم الجندية ، وأظهر منذ أن كان شابا صغيرا ، شجاعة فائقة ، وحكمة سابقة لأوانها ، وسخاء غير محدود رغم ثروته الضئيلة . وقد انضم تحت لواء ايتيوس ، وأسهم فى نجاحه وشاركه مجده ، وفى بعض الأحيان كان يفوقه مجدا . وأخيرا أثار غيرة النبيل ، أو قل غيرة زوجته ، التى أرغمت على اعتزال الخدمة . وبعد موت ايتيوس ، أعيد ماجوريان الى الخدمة ، ومنح منصبا أعلى ، وكانت صلته الوثيقة بالكونت ركيمر Count Recimer هى الخطوة المباشرة التى مكنته من ارتقاء عرش الامبراطورية الغربية . ذلك أن أفيتوس تنازل عن العرش ، وأصبح المنصب شاغرا ، وحال أصل البربرى الطموح ، ركيمر ، بينه وبين المنصب الامبراطورى ، ولكنه حكم ايطاليا تحت لقب « النبيل » ، وترك لصديقه المنصب البارز الهام ، منصب القائد الأعلى للغرسان والمشاة . وبعد انقضاء بضعة شهور ، وافق على الرغبة الاجتماعية التى أبدتها الرومان الذين اكتسب ماجوريان حظوة لديهم بانتصار حديث على قبائل الألمان ، وتقلد المنصب الامبراطورى فى مدينة رافنا . وتشتمل الرسالة التى بعث بها السناتو على أحسن وصف لمركزه وأحاسيسه . قال ماجوريان :

« أيها الشيوخ ! لقد أصبحت امبراطورا باختياركم وبمشيئة الجيش الباسل . وانى لأدعو الله العطوف أن يكون رائدى ، وأن يكلل بالنجاح والتوفيق آرائى وأعمالى فى حكم البلاد ، حتى تعود بالنفع عليكم وعلى الصالح العام . ومن ناحيتى ، فانى لم أطلع الى الحكم ، بل خضعت له . ولو أنى رفضت تحمل عبء الأعمال التى فرضتها الدولة على شخصى بدافع من الجحود الأنانى الحقير ، لما وفيت بما على من التزامات المواطن ، ومن ثم فانى أسألكم أن تقدموا العون الى الحاكم الذى صنعتم ، وتشاركوا فى الواجبات التى ألقيتم عليه ، وانا لنرجو أن تحقق جهودنا المشتركة سعادة الامبراطورية التى قبلتها من أيديكم ، وثقوا بأن العدالة فى عهدنا سوف تسترد قوتها القديمة ، وبأن الفضيلة سوف لا تعتبر صفة بريئة فحسب ، بل سوف يكون لها جزاؤها . ويجب ألا يخشى الدسائس الا أصحابها ومخترقوها ، فلقد كنت كفر من أفراد الرعية أدينها دائما ، أما الآن ، وقد أصبحت حاكما ، فانى سوف أعاقب عليها أشد العقاب . ولسوف نحرس ، بمؤازرة والدنا ، النبيل ركيمر ، على تنظيم كل الشؤون الحربية ، ونعمل على سلامة العالم الرومانى الذى

أنقذناه من أعدائه فى خارج البلاد وداخلها • انكم الآن تعرفون مبادئ حكمى ، ولكم أن تثقوا فى المحبة الخالصة ، والتأكيدات الصادقة التى يعبر عنها ملك كان فيما مضى رفيق حياتكم ، وشريكا فى الأخطار التى تعرضتم لها ، ولا يزال يفخر باسم السناتور ، وبهمه ألا تندموا مطلقا على ذلك الحكم الذى أصدرتموه فى صالحه » • وفى وسط أنقاض العالم الرومانى ، أحيا ذلك الامبراطور لغة القانون والحرية القديمة ، التى ما كان الامبراطور تراجان لينبذها ، ولا بد أنه استمد هذه الأحاسيس الكريمة من قلبه هو ، لأن عادات عصره أو سيرة أجداده لم تكن من النوع الذى يوحى بمثل هذه الأحاسيس •

أما الأعمال الخاصة والعامة التى قام بها ماجوريان ، فإن ما نعرفه (اصلاح ممكنا وعمليا) • وكانت القواعد التى وضعها فيما يختص بمالية التفكير والتعبير ، فإنها تصور فى صدق شخصية عاهل أحب شعبه وعطف على محنته ، ودرس أسباب تدهور الامبراطورية ، واستطاع تطبيق العلاج الحكيم الناجع على ما كان هناك من ارتباك عام (الى الحد الذى كان فيه اصلاح ممكنا وعمليا) • وكانت القواعد التى وضعها فيما يختص بمالية البلاد تتجه فى وضوح الى القضاء على أشد المنغصات وطأة ، أو التخفيف منها على الأقل •

١ - فمنذ الساعة الأولى من حكمه كان حريصا (وانى هنا أترجم كلماته نفسها) على انقاذ ثروات الولايات من الضرائب والضرائب الإضافية المتراكمة التى أثقلت كاهلها • وتحقيقا لهذا الهدف منحها عفوا شاملا ، تجاوز بمقتضاه تجاوزا نهائيا مطلقا عن كل متأخرات الجزية وكل الديون التى قد يطلبها الموظفون المالىون من الناس ، فى أية صورة من الصور • وهذا التجاوز الحكيم عن الحقوق العقيمة المتعبة التى لا فائدة منها حسنت مصادر الدخل العام ونقته من الشوائب ، كما أن الفرد من الرعية أصبح فى مقدوره الآن أن ينظر الى الماضى دون يأس ويعمل من أجل نفسه ومن أجل بلاده فى أمل وامتنان •

٢ - وفى تقدير الضرائب وجمعها أعاد ماجوريان السلطة الشرعية العادية التى كانت لحكام الولايات ، وأبطل المجان فوق العادية التى كانت تعمل باسم الامبراطور نفسه أو باسم الولاية البريتورين ، وذلك لأن الموظفين المقربين الذين حصلوا على مثل تلك الصلاحيات الشاذة كانوا يتسمون بالحقبة فى مسلكهم وبالتعسف فى طلباتهم ، وكانوا يظهرون احتقارهم للمحاكم الصغيرة ، ويبدون سخطهم وتذمرهم اذا لم تزد أجورهم وأرباحهم عن ضعف المبلغ الذى يتنازلون بدفعه الى الخزانة • وئمة مثل واحد لا يترازمه يجاوز حد التصديق لو لم يؤكد المشرع نفسه،

ذلك أنهم كانوا يحتمون أن يكون الدفع كله بالذهب ، ولكنهم كانوا يرفضون عملة الامبراطورية المتداولة ، ولا يقبلون الا العملات القديمة المضروبة باسم فوستينا Faustina أو الأنطونيين The Antonines ومن لم يمتلك مثل هذه العملات العجيبة كان يلجأ الى مساومتهم والرضوخ لطلباتهم الجشعة ، أو أنه اذا نجح في البحث عن تلك العملات فان المبلغ المفروض عليه كان يتضاعف تبعا لوزن العملة القديمة وقيمتها .

٣ - يقول الامبراطور : « ان المجالس البلدية ، وهى مجالس السناتو الصغرى (كما كانت تسمى بحق فيما مضى) جديرة بأن تعتبر قلب المدن وعصب الدولة ، ومع ذلك فقد انحط الآن شأنها نتيجة ظلم الحكام وجشع الجباة ، الى درجة أن كثيرا من أعضائها نبذوا مناصبهم وبلادهم ولجأوا الى العزلة فى أماكن بعيدة مغمورة » . وهو يحضهم بل ويرغمهم على العودة الى مدنها ، ولكنه يقضى على المنقصات التى أرغمتهم على التخلي عن ممارسة مهامهم فى المجالس البلدية . فأصدر اليهم توجيهاته بالعودة الى مباشرة أعمالهم فى جباية الخراج تحت سلطة حكام الولايات ، ولكن ، بدلا من أن يكونوا مسئولين عن كل المبالغ المقررة على اقليمهم ، أصبحوا مطالبين فقط بتقديم كشف حساب منتظم يبين المدفوعات التى يتسلمونها فعلا ، والمتأخرين فى سداد ديونهم للخزانة العامة .

٤ - غير أن ماجوريان لم يرغب عنه أن هذه الهيئات كانت تميل أكثر مما ينبغى الى أن تقتصر لما لاقته من ظلم وعسف ، ومن ثم فقد أعاد منصب « حماة المدن » الذى كان منصبا له فائدته فيما مضى . وأخذ يحض الناس على أن ينتخبوا فى اجتماع كامل حر ، بعض ذوى الصحافة والنزاهة الذين تتوفر لديهم الجرأة على تأكيد حقوقهم والتعبير عن متاعبهم وشكاواهم ، وحماية الفقراء من طغيان الأغنياء ، وإبلاغ الامبراطور عن الانحرافات التى ترتكب باسمه وبضمنان من سلطته .

وان المشاهد الذى يلقي نظرة حزينة على أطلال روما القديمة انما يميل الى اتهام ذكرى القوط والوندال ، ويرميهم بارتكاب أضرار وآثام لم يكن لديهم من الوقت والقدرة ما يسمح لهم بارتكابها ، بل ربما لم تتوفر لديهم الرغبة فى اقترافها . فعاصفة الحرب قد تطيح ببعض الأبراج وتلقى بها الى الأرض ، غير أن الدمار الذى قوض أسس تلك الصروح الضخمة كان يسير فى ببطء وصمت خلال عشرة قرون . ومن ثم فان الامبراطور ماجوريان ، بما اتصف به من لباقة وهمة ، تصدى الى دوافع المصلحة التى كانت تعمل عملها دون خجل ودون ضابط أو قيد ، وأوقفها عند حدها فى صرامة وشدة . وكان تدهور المدينة قد أضعف بالتدريج من قيمة المنشآت العامة ، فالسيرك والملاهى كانت تثير رغبات الناس

ولكنها قلما كانت تشبعها : والمعابد التى نجت من حماس المسيحيين لم يعد بها آلهة أو متعبدون ، وجماهير الرومان القليلة العدد اختفت فى متسع الحمامات والأروقة ، أما المكتبات ودور القضاء الفخمة فقد أصبحت عديمة النفع لجيل كسول قلما كان يزعج راحته بالدرس أو العمل . والآثار التى كانت تمثل العظمة القنصلية أو الامبراطورية ، لم يعد لها احترامها كمظهر لمجد العاصمة الخالد ، بل أصبح الناس يقدرونها على أساس أنها مواد بناء لا تكلفهم من المال والجهد مثلما تكلفهم المواد التى يجلبونها من المحاجر البعيدة ، ومن ثم فإنهم كانوا يقدمون التماسات منمقة مصطنعة الى الحكام المتساهلين يذكرّون فيها حاجتهم الى الطوب والأحجار اللازمة لبعض الخدمات الضرورية ، وأدى ذلك الى أن شوهت بصورة خسنة أجمل المباني التى يتجلى فيها فن المعمار لاجراء اصلاحات تافهة أو مفتعلة ، وأصبح الرومان المنحلون يحولون تلك الأسلاب الى منفعتهم الخاصة ، ويهدمون بأيديهم المدنسة جهود أجدادهم . وكثيرا ما تألم ماجوريان للخراب الذى أصاب المدينة ، ولهذا استخدم علاجا صارما لمكافحة هذا الشر المستفحل ، فجعل من حق الملك والسناتو دون غيرهما النظر فى الحالات الاستثنائية التى قد تبرر هدم بناء قديم ، وفرض غرامة قدرها خمسون جنيها ذهبييا (ألفان من الجنيهات الاسترلينية) على كل حاكم يوافق على منح هذا الترخيص الفاضح غير القانونى ، وهدد بمعاينة موظفى الحكام بالجلد وقطع أيديهم اذا هم أذعنوا لأوامرهم الاجرامية . ويبدو أن الامبراطور المشرع فى هذه الحالة الأخيرة نسي التناسب بين الذنب والعقوبة ، غير أن هذه الغيرة من جانبه كان الباعث عليها مبدءا كريما ، لأنه كان مهتما بحماية آثار تلك العصور التى كان يود لو أنه عمّاش فيها ، ويستحق أن يكون كذلك . ورأى الامبراطور أنه من مصلحته أن يزيد عدد رعاياه ، وأن من واجبه أن يصون فراش الزوجية ، غير أن الوسائل التى اتخذها لتحقيق هذه الغايات النافعة انما تتسم بالغموض وربما بالشذوذ . فقد حرم على العذارى التقيات اللاتى نذرّن عذرتن للمسيح أن يترهّن قبل بلوغ الأربعين من العمر ، كما أرغم الأرامل اللاتى لم يبلغن هذا العمر أن يتزوجن مرة ثانية فى مدى خمس سنوات ، والا آلت نصف ثروتن الى أقرب أقربائهن أو الى الدولة . وكذلك أدان الزواج غير المتكافئ أو الغام ، ورأى أن عقوبة المصادرة والنفى لا تتناسب مع جريمة الزنى ، لهذا أعلن فى صراحة ووضوح أنه اذا عاد مرتكب هذه الجريمة الى ايطاليا أصبح قتله جائزا دون أن يعاقب القاتل .

وبينما كان الامبراطور ماجوريان يعمل دائبا على استرجاع سعادة الرومان وفضيلتهم جابه جيوش جنسريك ، وهو أقوى أعداء الرومان

بحكم شخصيته ومركزه . ذلك أن أسطولا من الوندال والمغاربة رسا عند مصب نهر لريس Liris أو جاريليانو ، غير أن القوات الامبراطورية فاجأت أشتات المتبربرين وهاجمتهم وهم مثقلون بأسلاب كمانيا ، ثم طاردتهم وأشبعتهم ذبحا وتقتيلا حتى ركبوا سفنهم ، وكان قائدهم ، وهو زوج شقيقة الملك ، من بين القتلى . ومثل هذه اليقظة انما تدل على طابع العهد الجديد ، غير أن أشد اليقظة وأكثر القوات عددا لم تكن كافية لحماية شواطئ إيطاليا الطويلة من كوارث حرب بحرية ، كما أن الرأي العام فرض على عبقرية ماجوريان مهمة أكثر نبلا ومشقة . ذلك أن روما توقعته منه وحده اعساده أفريقييا ، وكانت الخطة التي وضعها لمهاجمة الوندال في مواطنهم الجديدة نتيجة سياسة جريئة حكيمة . ولو أن الامبراطور الباسل استطاع أن ينفث روحه هو في شباب إيطاليا ، ولو أنه استطاع أن يعيد الى ساحة القتال مظاهر البطولة الجديرة بالرجال ، والتي كان يتفوق فيها على أئداده ، لو أنه فعل ذلك كله لكان في مقدوره أن يسير للملاقاة جنسريك على رأس جيش « روماني » ، وقد كان يمكن أن يتقبل الجيل الصاعد مثل هذا الاصلاح الذي يتناول الأخلاق الوطنية ، غير أنه من سوء حظ الحكام الذين يعملون جاهدين على تدعيم مملكة متدهورة أنهم ، في سبيل الحصول على ميزة عاجلة أو درء خطر محقق بهم ، يضطرون الى اتخاذ أشد الاجراءات ضررا ، بل والى مضاعفتها . ذلك أن ماجوريان ، شأنه شأن أضعف أسلافه ، اضطر الى الأخذ بوسيلة شائنة هي احلال قوات بربرية احتياطية مكان رعاياه الذين أعوزتهم صفات المحاربين ، وتجلت قدراته الفاتحة ، وما اتسم به من قوة ومهارة في استخدامه لأداة خطيرة يمكن أن تترد الى اليد التي تقبض عليها . والى جانب الحلفاء الذين كانوا في خدمة الامبراطورية فعلا ، فان ما اشتهر به الامبراطور من سخاء وشجاعة جذب اليه أمم الدانوب ، والبوريسثينز ، وربما أمم التانيز . فاجتمع في سهول ليجوريا آلاف كثيرة من أشجع رعايا أتينا - جماعات الجبيدي ، القوط الشرقيون ، الروجيان ، البرجنديون ، السوفي ، الألائي ، وكانت قوتهم الهائلة تتوازن مع ما بينهم من عداوات متبادلة . وعبروا الألب في شتاء شديد البرودة ، وكان الامبراطور يقود الطريق على قدميه وهو في كامل عدته الحربية ، يسبر عمق الجليد أو الثلج بعصاه الطويلة ، ويشجع السكوذيين الذين يشكون من شدة البرد ، ويبعث فيهم البشر بما يؤكد لهم من أنهم سوف يستمتعون بحرارة أفريقييا . وكان مواطنو مدينة ليون قد وجدوا لديهم من الجراءة ما جعلهم يفلقون أبواب المدينة ، ولكنهم سرعان ما اضطروا الى التماس رحمة ماجوريان وكان الامبراطور عند حسن ظنهم .

ثم قهر ثيودوريك فى ساحة القتال ، وقبل أن يكون صديقا وحليفا لملك
وجده جديرا بأن ينضم الى جيوشه ، وأعاد توحيد الجزء الأكبر من بلاد
الغال وأسبانيا . وقد تحقق هذا الاتحاد النافع ، وإن كان اتحادا مزعزا ،
بفضل الاقتناع وبحكم القوة ، أما قبائل الباجودى ، التى كانت قد نجت
من ظلم العهود السابقة ، أو قاومته ، فقد أظهرت استعدادها للوثوق فى
فضائل ماجوريان . وكان معسكره مليئا بحلفاء من البرابرة ، وعرشه
مستندا الى غيرة شعب يحبه . غير أنه أدرك استحالة غزو أفريقيا دون
قوة بحرية . ففى الحرب البونية الأولى بذلت الدولة جهدا جهيدا وذأبا
لا يصدق حتى استطاعت ، بعد ستين يوما من أول ضربة فأس فى أشجار
الغابات ، أن تبنى أسطولا قوامه مائة وستون سفينة تعلى ظهر الماء .
واستطاع ماجوريان فى ظروف أقل ملاءمة بكثير أن يضارع قسما الرومان
روحا ومثابرة . فقطعت أشجار جبال الأبنين ، وعادت الى العمل ترسانات
ومصانع رافنا وميسينوم ، وتنافست إيطاليا وبلاد الغال على التبرع
بسخاء من أجل هذه الخدمة العامة . وبهذا استطاع ماجوريان أن يبنى
أسطولا امبراطوريا قوامه ثلاثمائة سفينة كبيرة ، وعدد مناسب من
الناقلات والسفن الصغيرة ، تجمعت كلها فى ميناء قرطاجنة الأسباني
الواسع الأمين . وبمقت ماجوريان بطلته الجريئة الباسلة روح الثقة
بالنصر فى قواته ، وإذا كان لنا أن نصدق المؤرخ بروكوبيوس ، فإن
شجاعته دفعته فى بعض الأحيان الى تجاوز حدود الحرص والحكمة .
ذلك أن اهتمامه الكبير بأن يرى بعينه حالة الوندال جعله يغامر بزيارة
قرطاجنة ، منتحلا شخصية سفيره ، بعد أن صبح شعره . وقد اغتم
جنسريك بعد أن اكتشف أنه استقبل امبراطور الرومان وتركه ينصرف .
ولنا ألا نصدق هذه القصة غير المحتملة ، ولكنها قصة ما كان الناس
ليتصوروها الا لأنها قصة فى حياة بطل .

وكان جنسريك على علم كاف بعبقريه خصمه وخططه دون حاجة
الى مقابلة شخصية ومن ثم فقد مارس فنون الخداع والمماطلة التى درج
عليها ، ولكنه لم يصب نجاحا ، وأخذت طلبات الصلح التى تقدم بها
تزداد فى كل ساعة خضوعا ، وربما أصبحت أكثر صدقا ، غير أن
ماجوريان الذى لا يثنى ولا يلين ، كان قد أخذ بالمبدأ القديم القائل
بأن روما لا يمكن أن تنعم بالأمان طالما بقيت قرطاجنة فى حالة عداء لها .
وكان ملك الوندال لا يثق فى شجاعة أبناء وطنه الذين أضعف قوتهم
تurf البلاد الجنوبية ، ويشك فى اخلاص الشعب الذى قهره و الذى كان

يمقتته كطاغية آرى ، كما أن المجهود اليائس الذى قام به لتحويل موريثانيا الى صحراء لم يستطع به أن يعرقل عمليات الامبراطور الرومانى الذى كان فى مقدوره أن ينزل قواته فى أى جزء من أجزاء الشاطئ الأفريقى . غير أن جنسريك نجا من هلاك قريب محقق بفضل خيانة بعض الرجال الأقوياء من رعايا ماجوريان الذين ملأهم نجاح مولاهم خوفا وحسدا ، فأسروا اليه بأنباء خصمه ماجوريان وأرشدوه الى مواقع أسطوله ، وبذلك تمكن من مفاجأة الأسطول الذى كان رابضا فى خليج قرطاجنة دون حراسة ، وأغرق أو حرق كثيرا من السفن أو استولى عليها ، وبهذا تحطمت استعدادات ثلاث سنوات فى يوم واحد . وبعد هذا الحدث أظهر مسلك الخصمين أنهما فوق مستوى حظهما ، فالوندى لم تنتفخ أوداجه بفضل هذا النصر العاير الطارئ ، بل جدد على الفور التماسات الصلح ، كما أن امبراطور الغرب ، الذى كان فى مقدوره وضع الخطط العظيمة وتحمل أثقال الفشل ، وافق على عقد معاهدة ، أو قبل إيقاف القتال ، وكله ثقة فى أنه قبل أن يستطيع إعادة بناء أسطوله لابد أنه سوف يجد من الاثارات ما يبرر حربا ثانية . وعاد ماجوريان الى إيطاليا لتنفيذ جهوده فى سبيل رفاهية الشعب وسعادته . وبما أنه كان يشعر بنزاهته ، فقد ظل فترة طويلة لا يدرى شيئا عن المؤامرة الخفية التى هددت حياته وعرشه . ثم ان محنة قرطاجنة الحديثة لوئت ذلك المجهود الذى بهر عيون الجماهير ، وحنقت كل فئات الموظفين المدنيين والعسكريين تقريبا على الامبراطور المصلح لأنهم جميعا كانوا يحصلون على بعض النفع من المساوىء التى كان يحاول القضاء عليها ، كما أن النبيل ركيمر أثار عواطف البرابرة المتقلبة المزعزعة ضد ملك كان يقدره ويكن له الكراهية . ولم تستطع فضائل ماجوريان أن تحميه من الفتنة العارمة التى اندلعت فى المعسكر القريب من ترتونا عند سفح جبال الألب . فاضطر الى التخلي عن العرش ، وبعد خمسة أيام من ذلك ذاع أنه مات بمرض الدوسنتاريا ، ودفنت رفاته فى قبر متواضع أصبح موضع احترام الأجيال التالية واعترافها بالجميل . ولا شك فى أن أخلاق ماجوريان الخاصة كانت توحى بالحب والاحترام . فقد كان القدح والنميمة الخبيثة يثيران سخطه ، وإذا كان هو موضع القدح ، نظر اليه فى احتقار وازدراء . ولكنه كان يذود عن حرية النكتة والنقد الطريف ، وفى الساعات التى كان يقضيها دون كلفة فى مجتمع أصدقائه المقربين ، كان يشبع تذوقه للفكاهة دون أن يحط من جلال مقامه .

وبين سنتي ٤٦١ ، ٤٧١ حكم ركيمر إيطاليا فعلا إن لم يكن اسما .
وفي سنة ٤٧١ ، بعد أن اختلف مع الامبراطور انثيموسى نهب روما ،
ولكنه لم يعمر بعد ذلك طويلا . وفي سنة ٤٧٦ أصبح رومولوس
اوغستولوس آخر الأباطرة . ويرتبط التاريخ التقليدي لانتهاء الامبراطورية
الغربية بهذا الاسم الذى اشتهر بمحض الصدفة . وبين سنتي ٤٧٦ ،
٤٩٠ اقام ادواكر Odoacer مملكة قوطية في إيطاليا ، وكان من الناحية
الاسمية نائبا عن الامبراطور فى القسطنطينية .

ادواكر : ملك إيطاليا

كان ادواكر أول متبربر تولى الملك فى إيطاليا ، وحكم شعبا أتيح له
يوما أن يؤكد تفوقه بحق على بقية الجنس الانسانى . وما تزال المذلة التى
لحقت بالرومان تثير فينا الشفقة والاحترام ، فنرى فى قلوبنا لما أحست به
ذريتهم من حزن وسخط . غير أن كوارث إيطاليا قهرت بالتدريج احساسهم
الشامخ بالحرية والمجد . وفى عصر القوة الرومانية خضعت الولايات
لجيوش الدولة كما خضع المواطنون لقوانينها ، حتى اذا ما أطاحت النزاعات
الأهلية بتلك القوانين ، أصبحت المدينة والولايات ملكا ذليلا لطاغية .
كما زالت بفعل الزمن وبحكم القوة أشكال الدستور التى خفقت من
عبوديتهم الذليلة أو أخفتها . وأصبح الايطاليون يضيقون تارة بوجود الملوك
الذين يكرهونهم ويحتقرونهم ، ويأسفون تارة أخرى لعدم وجودهم .
وتوالت عليهم خمسة قرون انصبت عليهم فيها مختلف شرور الاباحية
العسكرية ، والاستبداد المتقلب والظلم المحكم ، وفى الفترة نفسها ظهر
المتبربرون بعد أن كانوا مغمورين محتقرين ، ودخل مقاتلو المانيا وسكوديا
ولايات الامبراطورية خداما للرومان فى أول الأمر ، ثم حلفاء ، ثم كانوا
فى نهاية المطاف سادة لأولئك الذين أصبحوا فى حماهم أو موضع اهانتهم .
وكبت الخوف كراهية الشعب الذى وصل به الأمر الى احترام شجاعة
وجلال الرؤساء العسكريين الذين أغدقت عليهم أمجاد الامبراطورية .
وظل مصير روما يعتمد فترة خلوية على سيوف أولئك الغرباء الأقوياء .
وجاء ركيمر القاسى العنيد الذى وطىء بقدميه أنقاض إيطاليا ، ومارس
سلطة الملك دون أن يتخذ لنفسه لقبه ، وأصبح الرومان الصابرون ،
بصورة غير محسوسة على استعداد للاعتراف بملكية ادواكر وخلفائه
المتبربرين .

وتم يكن ملك إيطاليا غير جدير بالمكانة السامية التى ارتفع اليها
بشجاعته وحظه ، فقد تهذبت أخلاقه الشرسة بعد أن اعتاد التحدث الى

الناس ، واحترام نظم زعاياه ، بل وآراءهم المبتسرة رغم أنه كان غازيا ومتهربرا . وبعد فترة سبع سنوات أعاد أدواكر منصب قنصل العرب . ومن ناحيته هو فقد رفض ، تواضعا أو كبرياء ، ذلك المنصب الذى كان أباطرة الشرق لا يزالون يقبلونه . غير أن هذا المنصب الرفيع شغله على التوالى أحد عشر عضوا من المبع أعضاء السناتو وازدانت القائمة بذلك الاسم المحترم ، اسم باسيلوس الذى أكسبته فضائله صداقة عميله سيدونيوس وثناه المعبر عن امتنانه وشكره . ونفذت قوانين الأباطرة بحزم وصرامة ، وظل الوالى البريتورى وصغار موظفيه يمارسون الإدارة المدنية فى إيطاليا . وكل أدواكر لحكام الرومان تلك المهمة الجائرة المحققة . مهمة جمع الإيراد العام ، ولكنه احتفظ لنفسه بميزة التساهل مع الشعب ومد آجال الدفع . ولقد نشأ أدواكر ، شأنه شأن بقية المتبربرين ، على الهرطقة الآريوسية ، غير أنه احترام الرهبان والشخصيات الكنسية ، ويدل صمت الكاثوليك على ما كانوا يتمتعون به من تسامح . وقد استلزم سلام المدينة أن يتوسط واليه باسيلوس فى اختيار حبر روماني . كما أن المرسوم الذى حظر به على رجال الدين تحويل أراضيهم الى غيرهم كان يهدف أساسا الى نفع الشعب . وأصبحت إيطاليا فى حنى الرجل الذى غزاها ، واحترم حدودها برابرة الغال والمانييا الذين ظلوا فترة طويلة يستهينون بسلالة ثيودوسيوس الضعيفة . وقد عبر أدواكر البحر الأدرياتي لمعاقبة قتلة الامبراطور نيبوس Nepos ، وللاستيلاء على ولاية دلاشيا البحرية ، كما عبر جبال الألب لانتقاذ آثار نوريكوم من الملك فافا Fava ، أو فيليثيوس ، ملك الروجيان ، الذى كان مقيما فيما وراء الدانوب . وهزم هذا الملك فى ساحة القتال وأخذ أسيرا ، ونقلت الى إيطاليا جالية كبيرة العدد من الأسرى والرعايا حيث استقرت هناك ، وهكذا نرى روما ، بعد فترة طويلة من الهزيمة والعار ، تدعى لنفسها النصر الذى حازه سيدها المتبربر .

ورغم حرص أدواكر ونجاحه فان مملكته كان يبدو عليها مظهر الشقاء والخراب . فمنذ عهد تيبيريوس بدأت الزراعة تتدهور ، وكانت هناك شكوى صادقة من أن حياة الشعب الروماني أصبحت تحت رحمة ما تأتى به الرياح والأمواج . وفى عصر انقسام الامبراطورية واضمحلالها امتنع ورود محاصيل مصر وأفريقيا التى كانت تدفع كجزية للامبراطورية ، وتناقص عدد السكان بصورة مستمرة مع تناقص سبل العيش ، ونضبت موارد البلاد بتأثير الخسائر الفادحة التى نجمت عن الحروب والمجاعات والأوبئة . ولقد رثى القديس أمبروز للخراب الذى حل بأقليم أهل بالسكان كان يزدان فيما مضى بحدن مزدهرة ، مدن بولونا ومودينا وريجيمو

وبلاكتنيا • كما أن البابا جيلاسيوس ، الذى كان أحد رعايا أدواكر ، يؤكد ، فى كثير من المبالغة ، أن الجنس الانسانى ثان ينقرض فى أميليا وتسكانا الولايات المجاورة • أما دهما روما ، الذين كانوا يعيشون على احسانات مولاهم • فقد هلكوا أو اختفوا بمجرد أن توقف سخاؤه ، ثم ان تدهور الفنون دفع بالصناع المجددين الى البطالة والعوز ، واصبح أعضاء السناتو ، الذين ربما تحملوا فى صبر ما حل ببلادهم من خراب ، يرثون لفقدان ثروتهم الخاصة وما كانوا فيه من ترف • فقد انتزع منهم ثلث أملاكهم الفنية لكى ينتفع بها الغزاة ، وكانت هذه الضياع الواسعة هى العامل الاصيل فى خراب ايطاليا • وضاعفت الاهانات من أثر الأضرار التى لحقت بهم ، وكان احساسهم بالآلام الفعلية يزداد حدة بفعل الخوف من شرور أدهى وأمر • وكلما اقتطعت منهم أراض جديدة لجماعات جديدة من المتبريرين ، كان كل عضو من السناتو يخشى أن تمتد أيدي مخططى الأرض المتعسفين الى داره التى يحبها ، أو الى مزرعته التى تعود عليه بأكبر النفع • وكان أقل الناس تعاسة هم أولئك الذين خضعوا صامتين للقوة التى استحالت عليهم مقاومتها • ولما كانوا راغبين فى الحياة ، فقد شعروا بالامتنان للطاغية الذى لم يمس أرواحهم ، وبما أنه المتحكم المطلق فى ثرواتهم ، فان الجزء الذى تركه لهم يجب عليهم أن يتقبلوه كمنحة خالصة منه جاد عليهم بها طوعية واختيارا • وقد خفت حكمة أدواكر وانسانيته من محنة ايطاليا لأنه ألزم نفسه ، كثرمن لما حصل عليه من رفعة ، أن يشبع مطالب جمهور داعر عابت • وكثيرا ما تعرض ملوك المتبريرين لمقاومة أبناء وطنهم ، وكثيرا ما عزلهم هؤلاء أو قتلوهم ، كما أن مختلف عصابات المرتزقة من الايطاليين ، التى انضم بعضها الى بعض تحت لواء قائد منتخب ، كانت تطالب بحق أكبر فى الحرية والسلب والنهب • ولا عجب أن ملكية تفتقر الى الوحدة الوطنية والحق الوراثى قد سارعت الى الهلاك ، وبعد حكم دام أربعة عشر عاما غلب أدواكر على أمره ، وقهرته عبقرية فيودوريك ملك القوط الشرقيين ، وهو ملك تفوق فى فنون الحرب والحكم ، وأعاد للبلاد عصرا من السلم والرخاء ، وما يزال اسمه يثير انتباه الجنس الانسانى ويستحق اهتمامه •

الفصل السابع والثلاثون

(٣٠٥ - ٤٥١)

نشأة الرهبان • أسباب نمو الرهبنة السريعية • القديسين
سيميون « العمود » (١) • تحول المتبربرين الى المسيحية •

ان العلاقة التي لا تنقسم بين الأمور المدنية والأمور الدينية قد
أرغمتني وشجعتني على شرح نمو المسيحية ، والاضطهادات التي تعرضت
لها ، وانقساماتها ، وانتصارها النهائي ، ثم الفساد التدريجي الذي
اعتورها • وقد عمدت أن أوّجّل تناول حدثين دينيين هما طلاوتهما في
دراسة الطبيعة الانسانية ، وأهميتهما في لضمحلل الامهرلطورية الرومانية
وسقوطها - ١ - نظام حيلة الرهبنة - ٢ - تحول المتبربرين الشماليين
الى المسيحية •

١ - أدى السلام والرخاء الى وجود نوعين مختلفين من المسيحيين ،
هم العاديون والمتقشفون ، وكانت ممارسة الديانة ممارسة طليقة مفتقرة
الى الكمال ترضى ضمائر الكثيرين ، فالأمير أو الحاكم ، والجندي أو التاجر ،
كانوا جميعا يوفقون بين حماسهم المتقد وعقيدتهم الثابتة وبين ممارسة
مهنهم ، والسعي وراء مصالحهم واشباع أهوائهم غير أن المتقشفين الذين
أطاعوا تعاليم الانجيل الصارمة وأساءوا تطبيقها ، امتلأت نفوسهم بالحماس
العنيف الذي يمثل الانسان في صورة المجرم ويمثل الله في صورة
الطاغية • فنبذوا في جدية شواغل العصر وملذاته ، وترفعوا عن شرب
الخمير وأكل اللحم والزواج ، وعذبوا أجسادهم ، وكبحوا مشاعر الحب في
نفوسهم ، وتقبلوا حياة الفاقة ، ثمنًا للسعادة الأبدية • وفي عهد قسطنطين
فر المتقشفون من العالم الفاسد المنحل الى العزلة الدائمة أو المجتمع الديني •

(١) (٢٩٠ - ٤٥٩ م) ويقال انه عاش ثلاثين سنة فوق عمود - (الترجمة) •

وعلى متوالي المسيحيين الأوائل في اورشليم ، تخلوا عن استخدام أو امتلاك متاع الدنيا وكونوا جماعات منظمة تتألف من أصحاب الميول الواحدة ، رجالا أو نساء ، واتخذوا لانفسهم أسماء التمسك والرهبان والزاهدين ، تعبيرا عن عزلتهم في صحراء طبيعية أو صحراء من صنعهم . وسرعان ما اكتسبوا احترام العالم الذي نبذوه واحتقروه . وأصبحت هذه الفلسفة السماوية الالهية موضع أعظم الاستحسان ، لأنها فاقته ، دون عون من العلم أو العقل ، تلك القضايا التي حققتها مدارس الفكر الاغريقية بالعمل المضني . وفي الحق أن الرهبان أصبحوا ينافسون الرواقيين في احتقار الثراء والألم والموت ، وأعادوا في نظامهم المتسم بالدالة صمت الفيثاغوريين وخضوعهم ، واحتقروا في ثبات الكلبيين Cynics وحزمهم كل صور المجتمع المدني وقواعده السلوكية . غير أن انصار هذه الفلسفة السماوية تطلعوا الى تقليد نموذج أنقى وأكثر كمالا ، فحنوا حذو الأنبياء الذين انسحبوا الى الصحراء ، واسترجعوا حياة التعب والتأمل التي وضع أساسها الاسينيون Essinians (١) في فلسطين ومصر :

وقد شاهد العالم الروماني پليني Pliny في دهشة قوما يعيشون في عزلة بين أشجار النخيل الى القرب من البحر الميت ، وكانوا لا يمتلكون مالا ، ويكثرزون دون زواج لأن كثيرون من الطالبيين والمساخطين على الحياة كانوا ينضمون اليهم طوعية بصورة مستمرة .

وكانت مصر ، الأم الولود للخرافة ، هي التي ضربت للعالم أول مثل لحياة الرهبنة . وانا لنسمع عن رجل اسمه أنطونيوس ، وهو غناب أمي من أنحاء طيبة الدنيا ، وزع أملاكه الموروثة وهجر أسرته ووطنه ، ونفذ كفارة الرهبنة في تعصب أصيل جرى . ذلك أنه بعد أن قضى فترة طويلة شاقة في إعداد نفسه للرهبنة بين القبور ، وفي بسرج خرب ههيجور ، تغافل في جراحة داخل الصحراء في رحلة ثلاثة أيام الى الشرق من نهر النيل ، حتى اكتشف بقعة منعزلة يتوفر فيها الظل والماء ، واستقر أخيرا فوق جبل قلزم الى القرب من البحر الأحمر ، حيث ما يزال هناك دير قديم يحمل اسم القديس وذكره . ولحقه المسيحيون الى الصحراء في تعبد عجيب وعندها كان يضطر الى الظهور أمام الناس في الاسكندرية ، كان يدعم شهرته في عصاف ووقار ، واكتسب صداقة اثناسيوس الذي رآته له عقيدته ، ومن عجب أن هذا الفلاح المصري اعتذر في احترام عن دعوة موقرة

(١) طائفة دينية صغيرة بين اليهود القدامى كان أفرادها يعيشون في تقشف وعزلة ، ويقسمون فيما بينهم كل شيء = (الفرجة) .

أرسلها اليه الامبراطور قسطنطين . وشاهد هذا البطريك الشيخ (لأن أنطونيوس بلغ الخامسة بعد المائة من عمره) سلالة كثيرة العدد من أولئك الذين نشأوا على هديه وساروا على المثل الذى ضربه لهم . وتضاعف عدد الصوامع الزاخرة بالرهبان بسرعة كبيرة فوق رمال ليبيا ، وعلى صحور طيبة ، وفى مدن وادى النيل . وإلى الجنوب من الاسكندرية استوطن خمسة آلاف من النساك جبل النطرون Nitria والصحراء المجاورة . وما يزال فى مقدور الجائل أن يطالع خرائب خمسين ديرا أقامها تلاميذ أنطونيوس فى تلك التربة الجرداء . وفى طيبة العليا استقر باخوميوس وألف وأربعمائة من الاخوة فى جزيرة تابن Tabenne المهجورة . وأسس هذا الراهب المقدس على التوالى تسعة أديرة للرجال وديرا للنساء ، وفى بعض الأحيان كان يجتمع فى عيد الفصح خمسون ألفا من رجال الدين الذين يتبعون قواعد نظامه الملائكى ، كما أن مدينة أكسيريوخوس Oxyrhynchus الضخمة الأهلة بالسكان ، وهى مركز الأرثوذكسية المسيحية ، خصصت معابدها ، ومبانيها العامة ، بل واستحكاماتها ، لأغراض البر والتعبه ، وقد قلد الأسقف ، الذى كان يعظ فى اثنتى عشرة كنيسة ، عدد الراهبات والرهبان بعشرة آلاف من النساء وعشرين ألفا من الرجال . وكان المصريون يخفرون بهذه الثورة العجيبة ، ويخدوهم الأمل ، بل ويعتقدون أن عدد الرهبان كان مساويا لبقية السكان ، وقد تردد الأعقاب ذلك القول الذى كان ينطبق فيما مضى على الحيوانات المقدسة فى البلد نفسه ، وهو أن مصر بلد من الأسهل فيه أن تجد لها من أن تجد رجلا .

وأدخل اثناسيوس فكرة الرهينة وممارستها فى روما ، حيث فتح تلاميذه أنطونيوس مدرسة لهذه الفلسفة الجديدة ، حين رافقوا مطرانهم الى أعتاب الفاتيكان المقدسة . وأثار المظهر الهمجى الغريب لهؤلاء المصريين فى أول الأمر فزع الناس واحتقارهم ، ولكنه دفعهم فى النهاية الى استحسانه والتحمس لتقليده ، وحول أعضاء السيناتور ، والسيدات الثريات بنوع خاص ، قصورهم و (فلاتهم) الى بيوت دينية ، وتضاءلت المؤسسات الصغيرة ، مؤسسة العذارى الست (١) ، الى جانب الأديرة الكثيرة التى أقيمت على أطلال المعابد القديمة وفى وسط ساحة روما .

(١) فستا Vesta ربة الامرة الطاهرة عند قدماء الرومان والعذارى الست

فى الديانة الرومانية القديمة ، كن مكرسات للالهة فستا .

وثمة شاب سوري اسمه هيلاريون (١) تحمس للمثل الذي ضربه أنطونيوس ، فأقام له مأوى موحشا على شاطئ رملى بين البحر وأحد المستنقعات على بعد سبعة أميال من مدينة غزة ، وأشاعت هذه الكفارة الصارمة التي ثابر عليها ذلك الرجل القديس ثمانى وأربعين سنة ، حماساً مائثلاً ، فكان كلما ذهب لزيارة الأديرة الكثيرة فى فلسطين سار وراءه الفان أو ثلاثة آلاف من الزهاد . وكذلك اكتسب باسيليوس شهرة خالدة فى تاريخ الرهبنة الشرقية . فقد تذوق عقله علم أثينا وبلاغتها ، وكان طموحه أكثر من أن يشبعه منصب رئيس أساقفة (٢) قيصرية ، فانسحب الى بنطس حيث عاش فى عزلة موحشة ، وفى فترة من الوقت رأى من المناسب أن يسن القوانين للمستعمرات الروحية التى نشرها بكثرة على طول شاطئ البحر الأسود . وفى الغرب كان هناك مارتن ، أسقف مدينة تور ، وهو جندى ، وناسك ، وأسقف ، وقديس ، وهو الذى أسس أديرة الغال ، وعندما مات شيعه الى قبره الفان من تلاميذه ، ولهذا نرى مؤرخه الفصيح يتحدى صحراوات طيبة أن تجود ببطل فى مثل فضيلته رغم أن مناخها أكثر ملاءمة . ولم يكن تطور الرهبان أقل سرعة هو شمولاً من تطور المسيحية نفسها ، فامتلات كل ولاية ، من ولايات الامبراطورية ، بل وكل مدينة على الأقل ، بجماهيرهم المتزايدة ، ووقع اختيار الزهاد على الجزائر الكثيرة الجرداء المتناثرة فى البحر التسكانى ، من جزيرة لرنس Lerins الى جزيرة ليبارى Lipari لتكون موطن منفاهم الاختيارى . وكان هناك اتصال دائم سهل بين ولايات العالم الرومانى عن طريق البحر وعن طريق البر ، وتدل حياة هيلاريون على السهولة التى استطاع بها ناسك فقير من فلسطين أن يعبر مصر ، ويركب البحر الى صقلية ، ويفر الى أبروس ، ويستقر أخيراً فى جزيرة قبرص (٣) :

(١) انظر كتاب « حياة هيلاريون » The Life of Hilarion تأليف سانت جيروم . وكذلك يقص نفس المؤلف قصص بول وهيلاريون ومالكوس فى طلاوة عجيبة والعيب الوحيد فى هذه المقالات هو أنها تنفقر الى الصندق والبداهة .
(٢) انظر « حياته » والمحاولات الثلاث ، تأليف سلبكيوس ساويرس Sulpicius Severus الذى يؤكد أن بانعى الكتب فى روما كانوا مفتيطين لأن كتابه الشهير كان يباع بسهولة وسرعة .

(٣) عندما أبحر هيلاريون من باريقونيوم الى رأس باخينوس عرض أن يقدم نسخة من الانجيل أجراً للرحلة .

وهناك راهب من بلاد الغال اسمه بوسثيوميان Pothumian زار مصر ووجد سفينة تجارية ذاهبة من الاسكندرية الى مرسيليا ، وأكمل الرحلة فى ثلاثين يوماً .
وإثناسيوس الذى وجه كتابه « حياة القديس أنطونيوس » الى الرهبان الأجانب ، اضطر الى الاسراع فى تأليف الكتاب حتى يتم قبل أبحار السفن .

وقد اعتنق المسيحيون اللاتين أنظمة روما الدينية ، كما أن الحجاج الذين زاروا أورشليم كانوا ينقلون النموذج الصادق لحياة الرهبنة الى أبعـد أرجاء الأرض . وانتشر تلاميذ أنطونيوس فيما وراء المدار ، فذهبوا الى امبراطورية أثيوبيا المسيحية ، كما أن دير بانكور في مقاطعة فلنـتشر Flintshire الذي كان يضم أكثر من ألفين من الاخوة ، نشر مستعمرة كبيرة العدد بين متبربري أيرلندة ، وكذلك أشعت جزيرة أيونا ، إحدى جزائر الهبريدز ، وهي جزيرة زرعها الرهبان الأيرلنديون . أشعت هذه الجزيرة في الأرجاء الشمالية شعاعا مبهما من العلم والخرافة .

أسباب سرعة تطور الرهبنة

هؤلاء التعساء الذين اعتزلوا الحياة الاجتماعية كانوا مدقوعين الى حياة الرهبنة بدافع من العبقرية الخرافية ، وهي عبقرية مبهما لا تحبو نارهـا ، وكان عزمهم المشترك يستند الى المثل الذي ضربه ملايين من الجنسين ، من كل عمر ، ومن كل مرتبة ، وكان كل مهتد من الداخلين الى رحاب الدير مقتنعا بأنه عبر الطريق الشائك الوعر الى السعادة الأبدية (١) . غير أن فعل هذه الدوافع الدينية كان يحدده بصورة مختلفة خلق الناس ووضعهم ، فالعقل قد يقهر أثرها ، والعاطفة قد توقف ذلك الأثر ، غير أن هذه الدوافع الدينية كان لها الأثر على ضعاف العقول من النساء والأطفال ، وكانت قوتها تزداد بفعل ندم على خطيئة خفية أو محنة طارئة ، ومن الجائز أنها كانت تستمد بعض العون من بعض الاعتبارات الدنيوية ، كاعتبارات الغرور أو المصلحة . وكان من الطبيعي أن يسود الاعتقاد بأن الرهبان الأنقياء المتواضعين ، الذين نبذوا العالم لكي يعملوا على خلاص أنفسهم ، هم أجدر الناس بأن يتولوا حكم المسيحيين حكما روحيا . وكان الناسك ينتزع من صومعته على غير رغبة منه ويوضع على العرش الأسقفى وسط تهاليل الناس : وكادت أديرة مصر وبلاد الغال والشرق موردا منتظما متصلا يجرى منه القديسون والأساقفة ، وسرعان ما اكتشفت الإطماع ذلك الطريق السرى الذى يؤدى الى الحصول على الثروة والوصول الى المناصب . ومن ثم فإن الرهبان ذوى الصيت الذائع ، الذى ارتبطت سمعتهم بشهرة طائفتهم ونجاحها ، عملوا جاهدين على

(١) خصص كريستوستم ثلاثة كتب لاطراء حياة الرهبنة والدفاع عنها . وقد شجعه المثل الذى ضرب فى قصة فلك نوح على أن يدعى أن المختارين وحدهم (الرهبان) هم الذين يمكن أن ينالوا الخلاص . ولما كتب أخرى أصبح أكثر تسامحا ، وشبه الرهبان بالشمس والقمر والنجوم وفى مقارنته الطويلة بين الملك والراهب . يفرض (وهذا بعيد عن الانصاف) أن الملك سوف يلقي ثوبا أقل ، وعظما اشد .

مضاعفة عدد أترابهم الأسرى ، فكانوا يفسون أنفسهم وسط الأسر النبيلة الغنية ، ويستخضمون فنون اللق والاغراء المثيقة لجذب أولئك المهتمين الذين يمكن أن يفسقوا على مهنة الرهبنة من ثرائهم ويضيفوا عليها من مكائدهم . وكان الولد الساخط يولول على فقدان ابن ربما كان ابنه الوحيد ، كما كانت العذراء الساذجة يضللها الغرور ويدفعها الى خرق قوانين الطبيعة ، وكذلك كانت السيدة الثرية تتطلع الى الكمال الروحي حين تنبذ ميزات الحياة العائلية . وعلى هذا النحو أذعنّت الأرملة المرموقة بولا الى اغراء جيروم (١) وفصاحته ، واستمالها أن تصبح ابنتها يوستوخيوم Eustochium عروس الله (٢) ، فكرست ابنتها هذه للرهبنة . وغادرت بولا روما ، تاركة ابنها الوليد ، بناء على مشورة مرشدها الروحي ، وذهبت في صحبته الى قرية بيت لحم المقدسة ، وهناك أسست مستشفى وأربعة أديرة ، وحصلت ، باحساناتها وكفارتها ، على مكانة رفيعة مرموقة في الكنيسة الكاثوليكية . ولا شك في أن هذه القلة النادرة من أمثال هؤلاء التائبين ضربوا مثلاً لصرهم ، وكانوا عنواناً لمجده وعظمته ، غير أن الأديرة كانت مليئة بجمهور من الدهماء المضورين الفقراء ، الذين كانوا يريحون في أديرتهم أكثر بكثير مما ضجروا في دنياهم . فالفلاحون ، والعبيد ، والصناع كانوا يهربون من الفاقة والازدواء الى مهنة شريفة يخفف من محنها الظاهرة حكم العادة ، واستحسان الناس ، والتراخي الخفي في النظام (٣) . كما أن رعايا روما الذين تعرضت ثرواتهم وأشخاصهم لخراج باهظ غير متكافئ كانوا يهربون من ظلم الحكومة الامبراطورية . أما الشبان الجبناء فقد كانوا يفضلون كفارة حياة الرهبنة على أخطار الحياة العسكرية . وكذلك كان سكان الولايات

(١) يتحدث جيروم في كتبه حديثاً طويلاً عن سيدهاته الثقيلات . والبحث الخاص الذي سماه « رثاء بولا » (Epitaph of Paula) يعتبر مدحاً يتسم بالغلاة . وفي المقدمة زهو يدعو الى السخرية .

وفيها يقول :

« لو أن كل أطرافي تحولت الى السنة ، وكل أعضاء جسمي أصبح لها صوت انساني ، لما استطعت أن .. » الى آخره .

(٢) تلبس الراهبة خاتماً في اصبع يدها اليماني ، ثم ينقل الى يدها اليسرى في احتفال ديني ويعتبر هذا رمزا الى انها نبذت الزواج الدنيوي وأصبحت عروس الله بمعنى انها نذرت حياتها للرهبنة - (الترجمة) .

(٣) هناك راهب من اخوة الدومنيكان كان يعيش في مدينة قادس في دير خاص بهؤلاء الاخوة وسرعان ما أدرك انه لم تكن هناك عبادة ليلية تزج راحتهم ، « مع انهم لم ينسوا دق الاجراس لدعوة الشعب الى التعلم والتعذيب » .

من كل مرتبة ، هم الذين تملكهم الذعر ، وعمدوا الى الفرار أمام المتبريرين ، كان كل هؤلاء يجدون فى الأديرة مأوى وغذاء ، وهكذا غصت هذه الأماكن الدينية المقدسة بفرق كاملة من هؤلاء الناس ، وأصبحت الأداة التى أنقذت الأفراد من محنتهم سببا من الأسباب التى أوهنت قوة الامبراطورية وحطت من ثباتها وعزمها .

وكانت مهنة الرهبنة عند الأقدمين عملا اختياريا من أعمال العبادة ، وكان الراهب المتقلب فى حماسه الدينى مهيدا بانتقام الله الأبدى اذا تخلى عن عبادته ، غير أن أبواب الدير كانت تظل مفتوحة للندم والتوبة . ومن ثم فإن الرهبان ، الذين كان ضميرهم يستمد قوة من عقولهم أو عواطفهم ، كان فى مقدورهم التحلل من الرهبنة والعودة الى وضع المواطنين والعلمانيين ، بل ان الراهبات ، عرائس المسيح ، كان فى مقدورهن العدول عن الرهبنة وتقبل الغرامات المشروعة من محب دنيوى . غير أن الفضائح ، وأزدياد الخرافة ، أوجت بوجوب فرض قيود أشد ثلاثم الحال . فكان الرجل الذى يعد للرهبنة يوضع تحت التجربة فترة كافية ، ثم يدعم ولاده بأن ينذر نفسه نفرا رسميا أبديا ، وكانت قوانين الكنيسة والدولة تقر ارتباطه الذى لا رجعة فيه . فاذا هرب واحد من هؤلاء ، اقتضى أثره ، واعتقل ، وأعيد الى سجنه الدائم . كما أن تدخل الحاكم فى مثل هذه الحالات قضى على الحرية والميزة اللتين كانتا من قبل تخففا لبعض الشئ من العبودية الذليلة التى اتسم بها نظام الرهبنة . وكانت أعمال الراهب ، وكلماته ، وحتى أفكاره ، تحددها قواعد صارمة ، أو يحددها رئيس متقلب المزاج ، واذا ارتكب أتفه الذنوب عوقب بالتشهير المشين ، أو الحبس أو الصيام غير العادى ، أو الجلد القاسى . أما العصيان ، أو التضجر ، أو الماطلة ، فانها كانت تعتبر فى عداد الخطايا الرهيبة الممقوتة (١) . وكان الخضوع الأعمى لأوامر رئيس الدير ، مهما بلغت بعيدة عن الصواب ، أو حتى اجرامية ، فانها كانت المبدأ الأعلى ، والفضيلة الأولى للرهبان المصريين ، وكثيرا ما كانوا يتعرضون لأشد الاختبارات حتى يتدربوا على الصبر ، ومن أمثلة ذلك أنهم كانوا يتلقون توجيهها بازالة

(١) كانت قاعدة كوليبانوس Columbanus ، السائدة فى الغرب ، تقضى بتوقيع عقوبة مائة جلدة كعصا للذنوب التافهة . وقبل عصر شارلمان كان رؤساء الأديرة يقطعون أطراف الرهبان ويفلقون عيونهم ، وهى عقوبة أقل قسوة بكثير من السجون أو القبور المشيدة تحت سطح الأرض ، والتى ابتكرت بعد ذلك .

انظر مقالا رائعا كتبه مابيون Mabillon الذى يبدو انه فى هذا الشأن كان يكتب جوى من عقوبة الانسانية وجزاء مجهوده هذا استطاع أن اتسامح فى دمه فاندوم Vandôme المقدسة .

صخرة ضخمة ، أو بالثأيرة على رى عصا يابسة مفروسة فى الأرض لمدة ثلاث سنوات حتى يخضر عودها وتزدهر وتصير شجرة ، أو بعبور أتون من النار ، أو بقذف طفلهم فى بركة عميقة . وثمة كثير من القديسين ، أو المجانين ، خلدت أسماؤهم فى قصص الرهبنة بفضل ما أظهروه من طاعة تتسم بالجرأة والتهور . ولا شك فى أن عادات التصديق والخضوع هذه قد حطمت حرية العقل وهى منبع كل احساس كريم عاقل ، وكان الراهب اذا ما اكتسب رذائل العبيد ، ينعن فى ورع الى عقيدة طاعته الدينى وأهوائه . ومن ثم فإن جمهورا كبيرا من المتعصبين الذين لا يعرفون الخوف ، أو التعقل ، أو الانسانية ، طغى على سلام الكنيسة الشرقية ، واعترفت القوات الامبراطورية ، دون خجل ، أنها كانت لا تخشى مقابلة أشد المتبربرين ضراوة مثلما تخشى هؤلاء الناس .

وكثيرا ما كانت الخرافة تشكل الأردية الغربية التى يلبسها الرهبان . وتكسبها قدسية ، غير أن شذوذهم الواضح كان مبعثه فى بعض الأحيان تمسكهم جميعا وبصورة واحدة بنموذج بدائى بسيط أصبح فى نظر كافة الناس مثارا للسخرية بفعل التطورات التى اعتورت طراز الملابس . وانك لترى الأب بنديكت ، مؤسس الرهبة البندكتية (١) ، ينبذ فى صراحة كل فكرة عن حرية الراهب فى اختيار ملبسه ، أو ميزة ذلك الملابس ، ويحض تلاميذه فى جدية على ارتداء الملابس العادية المريحة التى يلبسها أهل البلاد التى يقطنونها . وكانت عادات الرهبان الأقدمين فى الملابس تختلف باختلاف المناخ وطريقة المعيشة ، فكان لا يهمهم أن يرتدوا جلود الأغنام التى يلبسها فلاخو مصر ، أو العبادة التى يرتديها فلاسفة الاغريق . وفى مصر كانوا يستخدمون الكتان لأنه رخيص الثمن ومصنوع فى البلاد ، ولكنهم فى الغرب كانوا يبنذون مثل هذه السلعة الغالية التى تعتبر ترفا أجنبيا . وكان من عادة الرهبان أن يقصوا شعورهم أو يحلقوها . ويفطوا رؤوسهم ووجوههم حتى لا يشاهدوا أشياء مدنسة ، أما أقدامهم وأرجلهم فكانت عارية الا فى برد الشتاء القارص ، وكانوا يتوكانون على عصى طويلة تشد من خطواتهم البطيئة الضعيفة . وكان منظر الزاهد الأصل مفرعا نابيا ، وكل احساس منفر للانسان كان يعتبر مقبولا لدى الله ، كما أن المبدأ اللائكى فى جزيرة تابن Tabenne كان يدين عادة غسيل الأطراف بالماء ومسحها بالزيت . وكان الرهبان

(١) رهبنة القديس بنديكت St. Benedict (٤٨٠ - ٥٤٢ م) التى أسسها فى مونت

كاسينو - (الترجمة)

المختوشون يفرشون الأرض على حصيرة خشنة أو حرام خشن ، ويستخدمون حزمة من أوراق النخيل يجلسون عليها نهاراً ، ويسندون إليها رؤوسهم ليلاً . أما صوامعهم فقد كانت الكواخا منخفضة ضيقة من أنفه المواد ، وموزعة في الشوارع بصورة منتظمة تشكل في مجموعها قرية كثيرة السكان تضم داخل السور المشترك كنيسة ، ومستشفى ، وربما مكتبة ، وبعض المرافق الضرورية ، وحديقة ، وناوذة أو مستودعا للماء العذب . وكان كل ثلاثين أو أربعين من الأخوة يكونون أسرة لها نظامها وغداؤها المستقل . أما الأديرة الكبيرة في مصر فقد كانت تتألف من ثلاثين أو أربعين أسرة .

والمتعة والذنب لفظان مترافقان في لغة الرهبان ، وقد اكتشفوا بالتجربة أن الغذاء القليل والصيامات الصارمة هي أجدى وقاية تحمي الإنسان من شهوات الجسد البدنية . ولم تكن قواعد الصيام ، التي فرضوها إلا ماوسوسها ، دائمة أو من نوع واحد : فكان الاحتفال المرح بعيد العنصرة يقوض عن التقشف غير العادى الذى يمارسونه في الصيام الكبير . غير أن حماس الأديرة الجديدة تراخى شيئاً فشيئاً ، ولم يستطع رهبان بلاد الشام الشرهون أن يهملوا فضيلة الصبر والاعتدال التي اتسم بها رهبان مصر . فتلاميذ أنطونيوس وباخوميوس كانوا يقفون بوجه يومية (١) قوامها اثنتا عشرة أوقية من الخبز يقسمونها على أكلتين بستانيتين ، أحدهما بعد الظهر والثانية في المساء . وكان يعتبر قسلاً ، بل وواجباً ، أن يعطى الرهبان عن الخضروات المستوفى التي تقدم في قاعة الأكل . غير أن رئيس الدير كان في بعض الأحيان يظهر كرماً قائماً وجود عليهم بالكتاليات كالجبين ، والفاكهة (والسلاطة) وأسماك الغيل الصغيرة المحققة . وبالتدريج زادت كمية أسماك البحر أو النهر المسموح بها للرهبان أو التي يجوز السماح بها ، غير أن أكل اللحم ظل فترة طويلة مقصوراً على المرضى والمسافرين . وعندما مناد أكل اللحم بالتدريج في أديرة أوروبا الأقل صرامة ، سمح ، بلعم الطيور البرية أو الأليفة فقط ، كان لحمها أكل دسناً من لحم حيوانات الحقل الكبيرة ، فيأله من مميّز عجيب ! . وكان الماء هو الشراب النقي البرئى للنقي البدائيين ،

(١) انظر كتاب (The Slate of the Prisons in Engalnd and Wales)

(١٧٨٤) تأليف مستر هوارد Mr. Howard - صحيفة ٤٠ - حيث يقول :

« أولئك الذين يشربون الماء لظ ، دون أية شوائب عذبة ، يجب أن يعرف لهم رطال ونصف من الخبز يوميا ، »

ولهذا فإن مؤسس الرهبنة البنديكتية جزن عليها اضطرابه فيراجل العصر الى التنازل عن نصيب يومي من النبيذ قدره نصف لتر ، وكانت كروم ايطاليا تيسر عليه منح هذا القدر من النبيذ . وعندما عبر قلاميذه الظافرون جبال الالب ونهر الراين وبحر البلطيق كانوا يطلبون يدلا من النبيذ قدرا مناسباً من البيرة أو خمر عصير التفاح .

وكان طالب الرهبنة المتطلع الى فضيلة الفقر التي يحض عليها الانجيل ، ينبذ ، بمجرد انضمامه الى جماعة رهبان منظمة ، فكرة امتلاك أى شيء يختص به أو ينفرد به (١) دون غيره . بل انه كان لا يستخدم لفظ الامتلاك نفسه . وكان الاخوة يعتمدون على عملهم اليومي ، فالعمل في شريعتهم واجب يحضون عليه بكل قوة ، على اعتبار أنه كفارة وتدريب وعلى أساس أنه أكرم وسيلة للحصول على غذائهم اليومي . وكانوا يزرعون بأيديهم تلك الحدائق والحقول التي كثيرا ما كانوا يستخلصونها بجهدهم من الغابات والمستنقعات . وكان الرهبان يؤدون طراعية كل الحرف العديدة التي لابد منها للحصول على الملابس والمأوى والأواني وكانت دراسات الرهبنة ، في أكثر الأحوال ، لا تعجل على تبديد سحر الخرافة ، بل تزيدها دكنا ومع ذلك فإن ما اتسم به بعض علماء النساك من الجشاس أو جب المعرفة والاستطلاع هو الذي هذب العلوم الدينية ، بل والعلوم الدنيوية ، ولابد للأجيال التالية من أن تعترف في شكر وامتنان بأن أقلام هؤلاء الرهبان هي التي دأبت دون ككل أو ملل على حفظ آثار اليونان والرومان ، وضاعتها . غير أن الرهبان الذين لم يرتفع عملهم الى هذا المستوى ، وخاصة في مصر ، كانوا يقنعون ، بأعمال صامتة يؤدونها وهم جالسون ، فيصنعون النعال الخشبية ، أو السلال والحصائر من أوراق النخيل المصفورة وكان الفائض لديهم مما يستخدمونه في الأغراض المحلية ، يسد عن طريق التجارة حاجات المجتمع ، وكانت سفن تابن Tabenne وأديرة طيبة الأخرى تسير في النيل شمالا حتى الاسكندرية . وفي الأسواق المسيحية كان من الجائز أن ترتفع القيمة الاسمية للمصنوعات بفضل قدسية صانعيها .

(١) أمثال تعبيرات « كتابي » ، « ردائي » ، « حذائي » لم تكن محظورة بهذا القدر بين رهبان الغرب ، وكانت قاعدة كولبانوس تقضي بطلبهم ست جلدات
ويبدو أن المؤلف الساخر لكتاب Ordre Monastique ، وهو الذي يسخر من رقة الأديرة الحديثة ، يبدو أنه لا يدري شيئا عن سخر الرهبان القدمين .

غير أن الرهبان تخلوا رويدا عن ضرورة العمل اليدوى ، وكان الراهب الذى يؤهل للرهبنة يستمال الى منح ثروته للقسيسين الذين اعترزم أن يقضى بقية حياته فى مجتمعهم ، وسمح له التساهل الضار من جانب القوانين بأن يتسلم أية مواد تؤول اليه فى المستقبل عن طريق الوصية أو الميراث ، ثم يخصصها لهؤلاء القديسين ، وعلى هذا النحو قدمت ميلانيا طبقا من الفضة وزنه ثلاثمائة رطل ، كما اقترضت يولا دينارا كبيرا للتخفيف عن الرهبان الذين كانوا موضع حبا ، وعلى ذلك تفضل الرهبان بمنح صلواتهم وكفارتهم للخاطئين الثريتين السخيتين (١) . وضاعف مرور الزمن بصورة مستمرة من أملاك الأديرة المعروفة ، أما أحداث الزمن فقلما أنقصتها : وانتشرت هذه الأديرة فى القرى والمدن المجاورة ، وقد لاحظ المؤرخ الكافر زوسيموس Zosimos أن الرهبان المسيحيين ، خلعة للفقراء ، قد هبطوا بجزء كبير من الناس الى حالة التسول . ومع ذلك فانهم طالما كانوا محتفظين بغيرتهم الأولى ، فقد اعتبروا أنفسهم حفظة أخيارا أمناء على الصدقات التى يؤتمنون عليها غير أن الرخاء أفسد نظامهم ، فاتخذوا لأنفسهم بالتدريج مظهر الكبرياء الذى يبعثه الثراء ، وفى نهاية الأمر انغمسوا فى ترف السعة وبحبوحة العيش . وقد تكون فخامة العبادة الدينية ، والدوافع النبيلة التى دفعتهم الى بناء مساكن قوية متينة لمجتمعهم الخالد ، قد تكون كل هذه الأشياء مبررا لبذخهم العام ، غير أن كل عصر من عصور الكنيسة قد اتهم أباحية الرهبان المنحلين الذين لم يعودوا يذكرن الهدف من نظام الرهبنة ، بل انغمسوا فى ملذات الدنيا الحسية الباطلة التى كانوا نبذوها ، وأساءوا بصورة فاضحة استخدام الثروات التى حصل عليها مؤسسو الرهبنة بفضائلهم القوية الصارمة (٢) . ومن الجائز أن تراجعهم الطبيعى عن مثل هذه الفضيلة المؤلمة الخطيرة وانحدارهم الى الرذائل البشرية العادية ، من الجائز ألا يثير ذلك كثيرا من الحزن والسخط فى عقل الفيلسوف .

(١) أرادت ميلانيا أن تحدد قيمة هديتها ، فاجابها الراهب بامبو Bambo اجابة رائعة قائلا :

« اتمنحين هذه الهدية لى أم لله ؟ فإذا كانت لله فان الذى يعلق الجبال فى ميزان ليس فى حاجة الى أن نخبره عن وزن هذا الطبق » .

(٢) سمعت فى مكان ما أو قرأت فى كتاب ما عن الاعترافات الصريحة التى أدلى بها رئيس دير لرهبان البندىكت . وهو يقول :

(لقد نذرت الفقر ، وكسبت من وراء تلك مائة ألف « كرون » سنويا . ونذرت الطاعة ، وارتفعت بفضلها الى مكانة حاكم سيد) .
ولقد نسيت مكسبه من وراء نذره العفة .

وكان الرهبان البدائيون يقضون حياتهم فى التوبة والعزلة ، لا ترعجهم مختلف الأعمال التى تشغل وقت العقلاء الكادحين من بنى البشر ، والتى تكسب ملكاتهم مرانا وتدريبا . وكلما كان يؤذن لهم بمجاوزة نطاق الدير ، كان يسمح لزميلين بالخروج ، على أن يكون الواحد منهما حارسا على زميله ورقيبا على أعماله بدافع من الغيرة المتبادلة ، وبعد عودتهما كان يفرض عليهما أن يتناسيا ، أو على الأقل يكتما فى صدريهما ، كل ما شاهداه أو سمعاه فى العالم . وإذا زار الدير غرباء من معتنقى العقيدة الأرثوذكسية (الصحيحة) كان الرهبان يكرمون وفادتهم فى بيت مستقل ، غير أن أحاديثهم الخطيرة كانت تحصر فى نطاق نخبة مختارة من الرهبان كبار السن ذوى الحكمة والاخلاص . وكان الراهب المستبعد لا يسمح له باستقبال أصدقاء أو أقارب الا فى حضور هؤلاء الكبار ، فإذا صدم شعور أخت رقيقة ، أو والد عجوز باصراره على رفض كلمة معهم أو نظرة اليهم ، كان ذلك من جانبه عملا يستحق عليه عظيم التقدير . وكان الرهبان أنفسهم يقضون حياتهم دون اتصالات شخصية ، وبين جمهور جمعته الصدفة ، وأصبح حبيس السجن نفسه ، بحكم الاضطراب أو الهوى . وليس لدى الرهبان المتنسكين كثير من الأفكار أو الأحاسيس ينقلونه الى غيرهم ، كما أن رئيس الدير هو الذى يمنحهم تصريحاً خاصاً يحدد فيه وقت زيارتهم العادية وفترة دوامها ، وهم يتناولون طعامهم صامتين ، ويغطون رؤوسهم بحيث لا يشاهد بعضهم بعضا . والدراسة هى الملاذ الوحيد للانسان فى عزلته ، غير أن الصانع والفلاحين الذين امتلأت بهم مجتمعات الأديرة لم يتلقوا من التعليم ما يهيئهم أو يؤهلهم لأية دراسات حرة . ومن الجائز أنهم كانوا يلجأون الى العمل ، غير أن غرورهم بكمالهم الروحي كان يفريهم على احتقار ممارسة العمل اليدوى ، وبدهى أن العمل الذى لا يهواه صاحبه لابد أن يكون عملا ضعيفا فائرا .

وكانوا يقضون النهار فى صوامعهم ، ويستغلونه ، حسب إيمانهم وغيرتهم ، فى صلوات يتلونها بصوت مسموع ، أو فى صلوات صامتا . ثم يجتمعون فى المساء ، ويستيقظون فى الليل للعبادة العامة التى يقضيها الدير ، والتى تحدد لحظتها الدقيقة نجوم الليل التى قلما تحجبها السحب فى سماء مصر الصاقية . وكنت تسمع صوت نفير أو بوق يدعو الى الصلاة ، ويخرق سكون الصحراء مرتين كل ليلة . وحتى النوم وهو آخر ملاذ للبؤساء التعساء ، كان يقاس ويحسب فى صرامة ، وكانت ساعات الفراغ التى يقضيها الراهب تمر فى بطله دون عمل أو متعة . لهذا كان قبل انتهاء كل نهار يتهم الشمس مرارا وتكرارا بالثلكو الذى يثير الملل . وفى هذه

الحالة المتعبة المجهدة كانت المخراقة تطلرد أولئك البؤساء المتعلقين بها ،
وتعذبهم ، وراحة البال التى ذهبوا الى الدير ينشدونها كانت تزعجها فكرة
التوبة المتأخرة ، والشكوك الدنسة ، والشبهوات الأثيمة . ولأنهم كانوا
يعتبرون كل دافع طبيعى خطيئة لا تغتفر ، فقد كانوا يرتعدون دواما على
حافة هاوية ملتعبة لا تفرار لها . وفى بعض الأحيان كان الجنون أو الموت
ينقذ هؤلاء الضحايا المباشين من كفاحهم المؤلم ضد المرض واليأس . فاقيم
فى القرن السادس مستشفى فى أورشليم لعدد صغير من أولئك التائبين
الزاهدين الذين فقدوا صوابهم . وقبل أن يصل هؤلاء الرهبان الى هذه
الحالة القصوى من الجنون الأكيد كانت تقرأى لهم رؤى شكلت مادة
غزيرة فى تاريخ ما وراء الطبيعة . وكانوا يعتقدون اعتقادا راسخا أن
الهواء الذى يستنشقه مملوء بأشباح الأعداء غير المنظورة ، وبشياطين
لا يحصى لها عدد ، وكلها تتحين كل فرصة ، وتبدو فى كل شكل ، لتخيف
أو فضلا عن ذلك لتغرى ما لديهم من فضيلة تفقر الى الحماية والصون .
وكانت أوهام التعصب المضطرب تخدع خيالهم ، بل وتضلل حواسهم ،
ولا شك فى أن الناسك الذى يطفى النوم اللاإرادى على صلواته التى يتلوها
فى منتصف الليل ، من السهل أن يخلط بين أشباح الفزع وبين أطياف
الفرح التى شغلت أحلام نومه وأحلام يقظته .

« سانت سيمون » العمود

كان الرهبان ينقسمون الى طائفتين ، رهبان الكاينوبيت Caenobite
الذين يعيشون تحت نظام مشترك رتيب ، والرهبان الزهاد Anachorets
الذين يمارسون العبادة الصارمة المتزمتة فى عزلة عن الناس وبطريقتهم
الخاصة . وكان المتطرفون فى تقواهم ، أو فى طموحهم ، من الاخوة
الروحانيين ، ينبذون الدير كما نبذوا العالم . وكانت أديرة مصر وفلسطين
وسوريا المتخالية فى حماسها الدينى محاطة بدائرة بعيدة من صوامع
منعزلة يعيش فيها الرهبان ، ويمارسون فيها كفارة مبالغ فيها بدافع من
المنافسة والرغبة فى نوال التقدير والاستحسان ، وكانوا يحملون من
الصلبان والقيود ما ينوءون تحت أثقاله الأليمة ، ويحيطون أعناقهم
وأطرافهم الهزيلة الضامرة بالعقود ، والأساور ، والقفازات ، ودروع
الأرجل المصنوعة من الحديد السميك ، وطرحوا عن أجسادهم فى احتقار
كل ملابس يضايقهم ولا يحتاجون اليه . فاذا ما تجرد بعض القديسين

الهمج من ملابسه ، رجالا أو نساء ، وأصبحت أجسادهم العارية لا يسترها شيء سوى شعورهم ، صاروا موضع الإعجاب . وكانوا يتطلعون الى الهبوط بأنفسهم الى الحالة البدائية البائسة التي لا يكاد يمتاز فيها الحيوان الانساني عن أقاربه من الحيوانات الأخرى ، وقد اشتق أبناء طائفة الزهاد Anachorets الكثيرة العدد اسمهم هذا من العادة الوضيعة التي درجوا عليها ، وهى أنهم كانوا يشاركون قطعان الماشية فى أكل حشائش الأرض فى حقول العراق . وكثيرا ما اغتصبوا جحور بعض الحيوانات الضارية التي أرادوا التشبه بها ، ودفنوا أنفسهم فى بعض الكهوف المظلمة التي تحتها الفن ، أو تحتها الطبيعة فى الصخر ، وما تزال محاجر الرخام فى طيبة تحمل آثار كفارتهم . وكان المفروض أن أكثر النساك كمالاتهم أولئك الذين يقضون أياما كثيرة دون طعام ، وليالى كثيرة دون نوم . وسنوات كثيرة دون التحدث الى أحد . ويالمجد ذلك «الرجل» (وانى هنا أسئ الى ذلك الاسم) الذى كان يبتدع صومعة ذات طراز عجيب يتعرض فيها لقسوة الطقس فى مختلف الفصول ، أو يتخذ لنفسه جلسة تحقق الغرض نفسه !

ومن بين أبطال حياة الرهبنة هؤلاء ، راهب اسمه سيميون (العمود) خلد اسمه وعبقريته بابتكار عجيب فريد ، هو كفارة هوائية . فعندما كان هذا الشاب السورى فى الثالثة عشرة من عمره ترك مهنة الرعى . وقذف بنفسه فى دير من هذه الأديرة الصارمة . وبعد أن قضى فترة طويلة مؤلة فى الاعداد للرهبنة ، أنقذ فيها مرارا من الانتحار نتيجة ممارسته ورعه وتقواه ، استقر فوق جبل يقع على بعد ثلاثين أو أربعين ميلا الى الشرق من أنطاكيا . وهناك قبع داخل (مندره) أو دائرة من الأحجار ، وربط نفسه بقيد ثقيل . وبعد ذلك ارتقى عمودا كان فى الأصل يرتفع تسعة أقدام عن الأرض ، ثم رفعه على التوالى الى ستين قدما . وفى هذا الوضع المرتفع الأخير تحمل الزاهد السورى حرارة ثلاثين صيفا وبرد ثلاثين شتاء . وتعلم بالتعود والمران أن يظل فى هذا الوضع الخطير دون أن يشعر بخوف أو دوار ، وأن يتخذ مختلف أوضاع التجدد واحدا بعد الآخر . فكان فى بعض الأحيان يقوم بالصلاة منتصب القامة ، باسطا ذراعيه على شكل صليب ، غير أن الطريقة المألوفة لديه أكثر ما يكون هى أنه كان يشنى جذعه النحيل من جبهته الى قدميه مرات ومرات يمل حصرها المشاهد بعد أن يجاوز الألف عدا . وقد أصيب من جراء ذلك بقرحة فى فخذه (١) قصرت هذه الحياة السماوية ، ولكنها لم تزعجها ، وأخيرا مات

(١) يجب ألا أخفى خرافة قديمة تصف أصل هذه القرحة . فقد قيل ان الشيطان اتخذ صورة ملاك ودعا للنزول فى عربة من نار كما فعل النبى ايليا . وبإابر القديس الى رفع قدمه ، فانتهز الشيطان هذه اللحظة وصب عقابه على الراهب المغرور .

ذلك الناسك الصبور دون أن ينزل من فوق عموده . ولو أن حاكما دفعه مزاجه الى توقيع هذه الألوان من العذاب لرمى بالطغيان ، غير أنه ليس فى مقدور أية طاغية أن يفرض على ضحايا قسوته حياة طويلة بائسة يعيشونها كارهين مرغمين . ولابد أن هذا التعذيب الاختيارى القاتل قد قضى شيئا فشيئا على حساسية العقل والجسم . ولا يمكن أن يدعى أحد أن المتعصبين الذين يعذبون أنفسهم بهذه الصورة يحسون بأى حب قوى لغيرهم من بنى الانسان . وفى الحق أن الرهبان ، فى كل الصور وفى كل البلدان ، قد اتسموا بطباع قاسية لا تحس ولا تتأثر ، كما أن جفاءهم وعدم اكتراثهم بأى شيء ، وهو الذى قلما تخففه صداقة شخصية ، انما يزيد التهايا بفعل الكراهية الدينية . وقد تحكم حماسهم الذى لا يعرف شفقة أو رحمة فى المهمة المقدسة التى كانت تقوم بها محاكم التفتيش الرومانية الكاثوليكية .

وكان قديسو الأديرة ، الذين لا يحتقرهم ويرثى لهم الا رجل فيلسوف ، كان هؤلاء موضع احترام بل وتقديس الحاكم والشعب . فثمة جماهير متلاحقة من حجاج بلاد الغال والهند كانت تقدم التحية للعمود المقدس الذى جلس عليه سيميون ، وقبائل العرب المشاركة كانت تتنازع بالسلاح شرف بركته ، وملوك بلاد العرب وبلاد الفرس كانوا يعترفون فى امتنان بفضيلته الخارقة ، كما كان ثيودوسيوس الأصغر يستشير الناسك الملائكى فى أهم شئون الكنيسة والدولة . وقد نقلت رفات هذا الناسك من جبل تليسيسا Telenissa فى موكب مهيب يتألف من البطريرك ، والقائد الأعلى للشرق ، وستة أساقفة ، وواحد وعشرين ترببونا ، وستة آلاف جندى ، وأصبحت عظامه موضع تبجيل أنطاكيا على أساس أنها حليتها المجيدة ودرعها الواقى الذى لا ينال منه أحد . وتضاءلت شهرة الرسل والشهداء شيئا فشيئا الى جانب هؤلاء الزهاد الذين أحبهم الناس . وخر العالم المسيحى ساجدا أمام أضرحتهم ، وزادت المعجزات المنسوبة الى رفاتهم ، فى عددها وطول مدتها على الأقل ، عن تلك الأعمال البطولية التى حققوها أثناء حياتهم . غير أن اخوتهم من الرهبان أصحاب المصلحة أظهروا فى مكر ودهاء أنهم يصدقون قصتهم الذهبية ، وبذلك أضفوا عليها رونقا وجمالا ، وكان من السهل عليهم أن يقنعوا أبناء ذلك العصر من السذج المصدقين بأن آتفه تقلب فى مزاج راهب مصرى أو سورى كان كفيلا بأن يوقف قوانين الكون الأبدية . وقد درج أحباب السماء هؤلاء على شفاء الأمراض المتأصلة بلدسة ، أو كلمة ، أو رسالة من بعيد ، وعلى طرد أكثر الأرواح الشريرة عنادا من النفوس أو الأجسام التى تسكنها . وكانوا يرقدون فى ألفة الى جانب سباع الصحراء وحياتها ، أو يسيطرون عليها بأوامرهم العالية ، ويبعثون

الخضرة فى جذوع الأشجار اليابسة ، ويجعلون الحديد يطفو على سطح الماء ، ويعبرون النيل على ظهور التماسيح ، وينعشون أنفسهم فى آتون ملتهب . وهذه القصص المتسمة بالمغالة والمبالغة ، والتي يبدو فيها خيال الشعر ، دون عبقريته أثرت تأثيرا خطيرا فى ايمان المسيحيين وأخلاقهم ، وأفسد تصديقها ملكات العقل وحقر من شأنها ، كما أفسدت هى نفسها شواهد التاريخ ، وأطفات الخرافة شيئا فشيئا نور الفلسفة والعلم . وكان كل نوع من أنواع العبادة الدينية التى مارسها هؤلاء القديسون ، وكل مذهب غامض من المذاهب التى يؤمنون بها ، يلقي تأييدا ويستمد قوة من الرؤى السماوية ، كما أن كل فضائل الرجولة سحقها حكم الرهبان المتسم بالذلة والجبن والضعفة . وإذا كان فى مقدورنا أن نقيس الفرق بين كتابات شيشرون الفلسفية وقصة ثيودورت المقدسة ، وبين شخصية كاتو وشخصية سيميون ، استطعنا أن نقدر الثورة المشهودة التى حدثت فى الامبراطورية الرومانية خلال فترة قدرها خمسمائة عام .

٢ - تميز نمو المسيحية بنصرين مجيدين حاسمين : نصر على المتعلمين المترفين من مواطنى الامبراطورية الرومانية ، ونصر على شجعان المتبربرين من أبناء سكوديا وجرمانيا الذين قوضوا الامبراطورية واعتنقوا ديانة الرومان . وكان القوط أول هؤلاء المهتدين الهمج . ويرجع الفضل فى اعتناق هذه الأمة للمسيحية الى مواطن أو على الأقل الى فرد من أفراد الرعية ، جدير بأن يوضع فى مصاف مبتكرى الفنون النافعة الذين أصبحوا أهلا لأن يذكرهم الخلف ، ويلهج بفضلهم وقد حدث أن عصابات القوط التى اجتاحت آسيا فى عصر جالينوس Gallienus ، أسرت عددا كبيرا من سكان الولايات الرومانية ، كان من بينهم كثير من المسيحيين ، وعدد من رجال الكنيسة وأصبح كل هؤلاء مبشرين من غير قصد ، وتفرقوا كأرقاء فى قرى منطقة داكيا (١) Dacia ، وعملوا تباعا على خلاص سادتهم ، وانتشرت بالتدريج بذور العقيدة الانجيلية التى غرسوها ، وقبل أن ينصرم قرن من الزمان تحقق هذا العمل التقى نتيجة مجهودات يولفيلاس Ulphilas الذى كان أجداده قد انتقلوا الى ما وراء الدانوب من بلدة صغيرة فى اقليم كبادوكيا .

واكتسب يولفيلاس ، أسقف القوط ورسولهم ، محبة أفراد شعبه واحترامهم بفضل حياته المستقيمة الطاهرة وغيرته التى لا يعترىها الوهن ، فتقبلوا فى ثقة أكيدة مبادئ الحق والفضيلة التى كان يمارسها ويعظ

(١) تشغلها الآن على وجه التقريب رومانيا وبعارابيا - (المترجمة)

بها . وقام بمهمة شاقة هي ترجمة الكتاب المقدس الى لغتهم الوطنية وهي لهجة من لهجات اللغة الجرمانية أو التيتونية ، غير أنه أعمل في حصة ترجمة « أسفار الملوك الأربعة » ، لأنها قد تهيج روح المتبربرين المتسمة بالشراسة والضراوة . وكانت ألفاظ الجنود والرعاة جافة معيبة ولا تصلح لنقل أية أفكار روحية ، فاتجهت عبقرية يولفيلاس الى تهذيبها وترخيمها ، ومن ثم فانه قبل أن يصوغ ترجمته اضطر الى تكوين حروف هجاء جديدة مكونة من أربعة وعشرين حرفا ابتكر أربعة منها للتعبير عن الأصوات الخاصة التي لم تكن معروفة في النطق اليوناني واللاتيني . غير أن ازدهار الكنيسة القوطية سرعان ما ابتلى بالحرب والنزاع الداخلي ، وانقسم الزعماء من حيث الدين ومن حيث المصلحة . فاهتدى فريترجن *Fritgern* صديق الرومان على يد يولفيلاس ، بينما ازدرى أتاناريك *Atharic* نير الامبراطورية ، ونير الانجيل على السواء وأثار اضطهادا امتحن به ايمان المتحولين الجدد الى المسيحية ، فسير في طرقات المعسكر عربة تحمل صورة لا شكل لها للاله ثور *Thor* أو للاله وودن *Woden* ، وسط هوكب مهيب فاذا ما أبى المتمردون عبادة اله أجدادهم أحرقهم على الفور وأحرق معهم أسراتهم وخيامهم . أما يولفيلاس ، فان أخلاقه أكسبته تقدير البلاط الشرقي ، وذهب هناك مرتين رسولا للسلام ، يدافع عن قضية القوط المنكوبين الذين التمسوا حماية الامبراطور فالنز *Valens* وأطلق على هذا الرائد الروحي اسم « موسى » لأنه قاد شعبه عبر مياه الدانوب العميقة الى أرض الميعاد . وتعلق الرعاة الأتقياء بشخصه ، وانصاعوا لصوته ، ووافقوا على الاستقرار عند سفوح جبال ميزيا *Maesian Mountains* ، في اقليم كثير الأشجار والمراعي يكفي قطعانهم ، ويمكنهم من شراء القمح والنبذ من الولايات الأكثر غنى . وتكاثر هؤلاء المتبربرون المسالمون في ظل السلام والمسيحية .

أما اخوتهم الأكثر غلظة من القوط الغربيين العتاة فقد اعتنقوا جميعا ديانة الرومان الذين كانوا على اتصال دائم بهم عن طريق الحرب أو الصداقة أو الغزو . وفي مسيرتهم الطويلة الظافرة من الدانوب الى المحيط الأطلنطي حولوا حلفاءهم الى المسيحية ، ونشروا التعليم بين الجيل الصاعد ، وكان الولاء السائد في معسكر الأريك ، أو في بلاط تولوز ، مثلا يتعلم منه قصر الامبراطور في روما ، وقصر القسطنطينية أو يشعرهما بالخزي والعار . وخلال الفترة نفسها اعتنق المسيحية كل المتبربرين تقريبا من الدين أقاموا ممالكهم على أنقاض الامبراطورية الغربية - النرجنديون في بلاد الغال ، السويفي في أسبانيا ، الوندال في أفريقيا ، القوط الشرقيون في بازنونيا ، ومختلف عصابات المرتزقة التي رفعت

أدواكر الى عرش إيطاليا . أما الفرنجة والسكسون فقد ظلوا متمسكين بأخطاء الوثنية ، غير أن الفرنجة استولوا على مملكة الغال بخضوعهم للمثل الذى ضربه كلوفيس Clovis ، كما أن غزاة السكسون الذين فتحوا بريطانيا تحولوا عن خرافاتهم الهمجية بفضل مبشرى روما . وقد أبدى هؤلاء البرابرة المهتدون حماسا متقدما موفقا فى نشر العقيدة المسيحية ، فملوك ميروفنجيان Merovingian kings وخلفاؤهم ، شارلمان والملوك الذين يحملون اسم « آتو » The Othos ، سنوا من القوانين وأحرزوا من الانتصارات ما وسع نطاق الصليب . وخرج من انجلترا رسول الألمان ، وانتشر نور الانجيل شيئا فشيئا من اقليم نهر الراين الى أمم نهر الألب والفستيو لا وبحر البلطيق .

وليس فى مقدورنا أن نتحقق فى سهولة من مختلف الدوافع التى أثرت فى أحاسيس المتبربرين الذين تحولوا الى المسيحية . فلقد كانوا فى أكثر الأحيان يستجيبون لانفعالاتهم وللصدف التى تقابلهم ، فيتأثرون بحلم ، أو فال ، أو قصه معجزة ، أو مثل ضربه كاهن أو بطل ، أو مفاتن زوجة مؤمنة ، وفوق كل شيء بما ينالون من توفيق نتيجة صلاة أو نذر لاله المسيحيين فى ساعة خطر . وقد زال بالتدريج ما غرسه فيهم تربيتهم من تعصب قديم بفضل تعودهم على الاختلاط الكثير بالمجتمع ، ووجدت تعاليم الانجيل الأخلاقية من فضائل الرهبان المفرطة ما يصونها ويحميها ، كما أن الايمان الدينى الروحى كان يؤيده ما للذخائر الدينية من قوة منظورة ، وما للعبادة الدينية من عظمة وأبهة . غير أن المبشرين الذين جاهدوا فى تحويل الكفار الى المسيحية كانوا يستخدمون فى بعض الأحيان أسلوب اقناع بارع اقترحه أسقف سكسونى على أحد رجال الدين المعروفين . قال ذلك المجادل الحصيف :

« تقبل كل ما يلد لهم تأكيدهم عن التسلسل المادى الخرافى لأنساب الهتهم وآلهتهم الذين تناسلوا بعضهم من بعض . ومن هذا المبدأ يمكنك أن تستنتج أن هؤلاء الآلهة من طبيعة ناقصة وتتسم بالضعف البشرى ، أى ثبوت مولدهم وامكان فنائهم . وسلهم فى أى زمان ، وبأية وسيلة ، وجد أكبر الآلهة أو الالهات عمرا ؟ وما الذى بعث على وجودهم ؟ وهل لا يزالون يلدون ، أو أنهم توقفوا عن التناسل ؟ وإذا كانوا قد توقفوا عن التناسل ، فسل خصومك أن يعلنوا السبب فى هذا التغير العجيب ، وإذا كانوا لا يزالون يلدون ، فإن عدد الآلهة سوف يكون غير محدود ، وهل اذا عبدنا دون تبصر الها عاجزا ، ألا نخاطر بإثارة سخط اله غيور أعظم منه مكانة ؟ ثم هذه السموات والأرض المنظورة ، أى نظام الكون كله ، وهو

شيء يستطيع العقل ادراكه ، هل هو مخلوق أو أزلي ؟ فإذا كان مخلوقا ، فكيف أو أين وجد الآلهة أنفسهم قبل الخليقة ؟ وإذا كان أزليا ، فكيف يدعى هؤلاء الآلهة أنهم حكموا عالما مستقلا كان موجودا من قبل ؟ ادفع بهذه الحجج في هدوء واعتدال . وتطرق في فترات مناسبة الى صدق الإلهام المسيحي وجماله ، وحاول أن تشعر الكفار بالخجل دون أن تثير غضبهم .

غير أن هذا التفكير الميتافيزيقي ، الذي ربما كان أدق من أن يصل اليه ادراك متبربري جرمانيا ، استمد قوة من السلطة ورضاء الناس ، وهما أكثر وزنا وأقوى أثرا . فميزة الازدهار الدنيوي لم تعد في جانب القضية الوثنية ، بل انتقلت الى خدمة المسيحية ، والرومان أنفسهم ، وهم أقوى أمم الأرض وأكثرها استنارة ، قد نبذوا خرافتهم القديمة ، وإذا كان الدمار الذي أصاب امبراطوريتهم يبدو كأنه اتهام موجه الى فعالية الدين الجديد ، فإن هذه الوصمة قد عوضها تحول القوط الظافرين الى المسيحية . أما البرابرة الشجعان الموفقون الذين أخضعوا ولايات الغرب فقد استوعبوا الدرس نفسه واتعظوا به وعكسوه على غيرهم . وقبل عصر شارلمان كانت أمم أوروبا المسيحية تنأى بأنها تمتلك وحدها المناخ المعتدل ، والأراضي الخصبة التي تنتج القمح والنبذ والزيت ، بينما انحصر الوثنيون الهمج مع أصنامهم العاجزة في أطراف الأرض ، في مناطق الشمال المظلمة المتجمدة .

وقد فتحت المسيحية للمتبربرين أبواب السماء وأحدثت تغيرا هاما في حالتهم الأخلاقية والسياسية ، وتعلموا في الوقت عينه استخدام الحروف ، وهو شيء أساسي بالنسبة لدين دونت مبادئه في كتاب مقدس . وبينما كانوا يدرسون الحقيقة الالهية ، كانت مداركهم تتسع دون أن يحسوا باتساع نظراتهم الى التاريخ والطبيعة والفنون والمجتمع . ولا بد أن ترجمة الكتاب المقدس الى لغتهم الوطنية ، الأمر الذي يسر تحولهم الى المسيحية ، قد أثارت شغف رجال الدين منهم بقراءة النص الأصلي ، وتفهم الطقوس المقدسة ، وتمحيص سلسلة التقاليد الكنسية في كتابات آباء الكنيسة . وكانت هذه النعم الروحية مدونة باللغتين اللاتينية واليونانية اللتين انطوت فيهما آثار العلم القديم ، كما أن المؤلفات الخالدة التي كتبها فرجيل وشيشرون وليفى ، والتي أصبحت في متناول البرابرة المسيحيين ، حافظت على وجود اتصال صامت بين عهد أغسطس وبين عصور كلوفيس وشارلمان ، وذكرت الناس بوجود حالة سابقة أكثر كمالا ، وشجعتهم على التنافس . وظلت شعلة العلم ، بصورة خفية ، متقدة متوهجة تبعث الدفء

فى عصر النصج الذى بلغه العالم الغربى ، وتلقى عليه ضوء الاستنارة والثقافة . وعندما كانت المسيحية فى أكثر حالاتها فسادا كان فى مقدور البرابرة أن يتعلموا العدالة من القانون ، ويأخذوا الرحمة من الانجيل ، وإذا كانت معرفتهم بواجبهم غير كافية لهداية أعمالهم وضبط عواطفهم وأهوائهم ، فانهم فى بعض الأحيان كانوا يجدون رادعا من ضميرهم ، وكثيرا ما كان الندم عقابهم . غير أن سلطة الدين المباشرة كانت أقل فعالية من تناول القربان المقدس الذى ألف بين قلوب المسيحيين فى صداقة روحية . وقد أسهم تأثير هذه الأحاسيس فى ضمان ولائهم للرومان أو للتحالف معهم ، وفى التخفيف من أهوال الحرب ، وفى تلطيف حدة الغزو وصلفه ، وفى الإبقاء على احترام دائم لاسم روما ونظمها ، إبان سقوط الامبراطورية وفى أيام الوثنية كان كهنة بلاد الغال وجرمانيا يحكمون الشعب ، ويسيطرون على قضاء الولاة والحكام ، وبالمثل حول المهتدون الغيرون قدرا مماثلا ، أو قدرا أكبر ، من الخضوع الخاشع لأخبار العقيدة المسيحية وكانت شخصية الأساقفة المقدسة تلقى سنداً من ممتلكاتهم الدنيوية ، فحصلوا على مقام كريم فى المجالس التشريعية للجنود والمدنيين ، وكان من مصلحتهم ، ومن واجبهم على السواء ، أن يخفوا بالنصح الهادى من ضراوة روح البرابرة . وكانت العلاقة الدائمة بين رجال الدين اللاتين ، وزيارات الحج الكثيرة لروما وأورشليم ، وتزايد سلطة البابوات ، كل أولئك دعم وحدة الجمهورية المسيحية ، وأنتج بالتدريج تماثلا فى العادات وشريعة مشتركة بين الأمم المستقلة ، بل والمتنازعة ، فى أوربا الحديثة ، الأمر الذى جعلها متميزة عن بقية الجنس الانسانى .

20

21

الفصل الثامن والثلاثون

(٤٧٦)

سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب • ملاحظات عامة

بين عامى ٤٧٦ م و ٤٩٦ م استطاع كلوفيس ، ملك الفرنجة أن يقيم سلطته فى بلاد الغال ، واعتنق المسيحية • وبعد غزوات آكوينتين وبرجانديا أسست مملكة فرنسية فى بلاد الغال • وبعد أن طرد القوط الغربيون من بلاد الغال فتحوا أسبانيا • واستقر السكسون فى بريطانيا من سنة ٤٥٥ الى سنة ٥٨٢ •

سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب

لقد أتممت الآن الرواية الشاقة التى تقص تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، منذ عصرها الموفق فى أيام تراجان والأنطونيين الى أن أفل نجمها تماما فى الغرب ، بعد خمسة قرون تقريبا من عهد المسيح • وفى ذلك الوقت التمس كان هناك كفاح مرير فى بريطانيا بين السكسون والوطنيين على امتلاك البلاد : وقسمت بلاد الغال وأسبانيا بين مملكتى الفرنجة والقوط الغربيين القويتين ، وبين المملكتين التابعتين - مملكة السويفى ومملكة البرجنديين • وتعرضت أفريقيا لقسوة اضطهاد الوندال ، ولهجمات العرب العاتية : أما روما وإيطاليا ، حتى ضفاف الدانوب ، فقد دهمها جيش من المرتزقة البرابرة المتسمين بالطغيان الهمجى ، ثم جاء بعدهم تيمودوريك القوطى الشرقى • وناء رعايا الامبراطورية ، الذين استحقوا بنوع أخص اسم الرومان وامتيازاتهم بفضل استخدام اللغة اللاتينية ، ناء هؤلاء جميعا تحت نير الغزو الأجنبى ولحقهم عاره ، وأقامت أمم المانيا الظافرة نظاما جديدا من العادات والحكم فى البلدان الغربية من أوروبا • وأصبحت عظمة روما ممثلة تمثيلا واهيا

فى أشخاص ملوك القسطنطينية - وهم الخلفاء المزعزعون الضعفاء
للإمبراطور أغسطس . ومع ذلك فقد ظلوا يحكمون الشرق ، من الدانوب
الى نهر النيل ونهر دجلة . ثم قوضت جيوش جستينيان مملكة القوط فى
إيطاليا ومملكة الوندال فى أفريقيا ، وما يزال فى مقدورنا أن نستمد من
تاريخ الإباطرة اليونان سلسلة طويلة من الدروس النافعة والثورات
الشائقة .

ملاحظات عامة على سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب

بعد أن تحولت بلاد اليونان الى ولاية رومانية كان اليونان ينسبون
انتصارات روما الى حظ تلك الدولة ، لا الى ميزة فيها . فالآلهة المتقلبة ،
التي توزع أفضالها وتستردها بصورة عمياء ، قد ارتضت الآن أن تتخلى
عن جناحيها ، وتهبط من دنياها وتوطد عرشها القوى الثابت على ضفاف
نهر التيبر (تلك كانت لغة الملق الحاقد) . غير أن يونانيا أكثر حكمة
كتب بروح فلسفته تاريخا مشهودا للعصر الذى عاش فيه ، وحرّم فيه أبناء
وطنه من هذا العزاء الباطل المضلل بأن عرض أمام أبصارهم الأسس
العميقة التي قامت عليها عظمة روما . فذكر أن اخلاص المواطنين بعضهم
لبعض ، وللدولة ، كان يدعمه التعليم والتحمس للدين ، وكان الشرف
والفضيلة مبدأ الدولة ، والمواطنون الطموحون كانوا يعملون جاهدين لكي
يكونوا أهلا لأمجاد نصر عظيم مهيب . كما أن حماس شبان الرومان كان
يشتمل ويتحول الى منافسة قوية كلما شاهدوا الصور الوطنية التي تمثل
أجدادهم . وانتهى الكفاح المعتدل بين طبقة النبلاء وطبقة العامة الى اقرار
توازن دستوري راسخ متكافئ يوحّد بين حرية المجالس الشعبية ، وبين
حكمة السيناتو ، وبين السلطات التنفيذية التي يتمتع بها حاكم ملكي .
وعندما كان القنصل يرفع علم الدولة كان كل مواطن يلزم نفسه ، بمقتضى
قسم ارتبط به ، بأن يمتشق الحسام دفاعا عن قضية بلاده الى أن يتم
الواجب المقدس بأداء خدمة عسكرية قدرها عشر سنوات . وكان من شأن
هذا النظام الحكيم أن تدفقت الأجيال الصاعدة من الجنود والمدنيين الى
ساحة القتال ، وتزايد عددهم بمن انضم اليهم من ولايات إيطاليا المقاتلة
الكثيرة السكان ، التي قاومت الرومان مقاومة باسلة ، ثم أذعنّت لشجاعتهم
وقبلت التحالف معهم . وهذا المؤرخ الحكيم ، الذى نفث القوة فى صدر
سكيبيو الأصغر ، وشاهد سقوط قرطاجة ودمارها ، هو الذى وصف نظام
الرومان العسكرى ، وحشودهم ، وأسلحتهم ، وتدريباتهم ، وامثالهم ،
ومسيراتهم ، ومعسكراتهم ، وفيلقهم الجبار الذى لا يقهر الذى تفوق فى

قوته العاتية على الفيلق المقدوني الذي اشتهر في عهد فيليب والاسكندر .
ومن أنظمة السلم والحرب هذه عرف المؤرخ بوليبيوس Polibius
روح الشعب الروماني وسر نجاحه ، فهو شعب لا يعرف الخوف ولا يطيق
الراحة والسكون . ولقد رسم الرومان خطة طموحة للغزو كان من الممكن
أن يحبطها تأمر الجنس البشري عليهم في الوقت المناسب ، غير أنهم
حاولوها وحققوها ، كما أن انتهاكهم الدائم للعدالة كان يلقي سندا من
فضائلهم السياسية ، فضائل الحكمة والشجاعة . ومع أن جيوش الرومان
كانت تخسر المعركة أحيانا ، الا أنها كانت تكسب الحرب دائما ، ولهذا
تقدمت بخطوات سريعة حتى بلغت نهر القرات ، ونهر الدانوب ونهر النيل ،
والمحيط ، وحطمت ملكية روما الاستبدادية على التوالى تلك التماثيل
الذهبية والفضية والنحاسية التي كانت تمثل الأمم وملوكها .

ولا شك في أن نمو مدينة اتسع نطاقها حتى أصبحت امبراطورية ،
هو شيء يستحق تفكير عقل فلسفي ، على أساس أنه معجزة فريدة في
نوعها . غير أن تدهور روما واضمحلالها هو نتيجة طبيعية حتمية لعظمة
جانبيها الاعتدال ، فالرفاهية أنضجت مبدأ الاضمحلال ، وعوامل الدمار
تضاعفت بامتداد الغزو ، وبمجرد أن أزال الزمن أو الحظ والصدفة
ما كان هناك من دعائم مصنعة ، انهار الكيان الضخم تحت وطأة ثقله هو
نفسه . وقصة انهيار هذه الامبراطورية بسيطة واضحة ، وأحرى بنا أن
نتساءل عن السبب في بقاء الامبراطورية الرومانية تلك المدة الطويلة بدلا
من أن نتساءل عن سبب سقوطها . ذلك أن الجيوش الظافرة ، التي
اكتسبت في حروبها النائية رذائل الغرباء والمترقة ، طغت في أول الأمر
على حرية الدولة ، ثم حطمت بعد ذلك جلال الملك وعظمته . كما أن
الاباطرة ، رغبة منهم في تأمين أشخاصهم والمحافظة على السلام العام ،
أصبحوا أداة حقيرة في افساد النظام الذي أكسبهم مهابة لدى الدولة
صاحبة السيادة ولدى عدوهم سواء بسواء . وتراخت قوة الحكومة
العسكرية ، وتفككت في نهاية الامر نتيجة النظم المتحيزة التي وضعها
قسطنطين ، ثم طغى على العالم الروماني طوفان من البرابرة .

وكثيرا ما نسب تدهور روما الى نقل مقر الامبراطورية ، غير أن هذا
التاريخ أظهر لنا أن سلطات الحكم قد قسمت أكثر من أن تكون قد نقلت ،
فعرش القسطنطينية أقيم في الشرق بينما كان الغرب تحت سلطان أباطرة
يقيمون في ايطاليا ولهم ميراث متكافئ من الجيوش والولايات . وهذه
البدعة الخطيرة أضعفت قوة حكم مزدوج ، وأهاجت رذائله . وتضاعفت
بذلك أدوات نظام ظالم مستبد ، وقامت بين خلفاء ثيودوسيوس المنحلين
منافسة باطلة على الترف لا على الجدارة . وإذا كانت المحنة الشديدة تتوى

فضيلة شعب حر وتوحيدها ، فانها تنفث المראה فى أحزاب مملكة تسير الى الاضمحلال . ومن ثم فان أخصاء أركادايوس وأونوريوس المتخاصمين المتنازعين غدروا بالدولة لدى أعدائها المشتركين ، وأصبح بلاط بيزنطة ينظر فى غير اهتمام ، وربما فى غبطة وسرور ، الى العار الذى أصاب روما ، والى المحن التى حلت بايطاليا ، والى فقدان الغرب . وفى العهود التالية أعيد التحالف بين الامبراطوريتين ، غير أن معونة الرومان الشرقيين كانت بطيئة ، ومشكوكا فيها ، وعديمة الجدوى ، واتسعت هوة الخلاف القومى بين اليونان واللاتين بفعل الاختلاف الدائم فى اللغة والعادات والمصالح ، بل وفى الديانة نفسها . غير أن هذا الحدث الكبير الاثر (سقوط الغرب) أثبت بعض الشيء صدق حكم قسطنطين ، ذلك أن مدينته المنيعه صدت ، خلال فترة طويلة من الاضمحلال ، جيوش المتبربرين الظافرة ، وصانت ثروة آسيا ، وسيطرت ، فى السلم وفى الحرب على المضائق الهامة التى تصل البحر الأسود بالبحر المتوسط . وهكذا كان تأسيس القسطنطينية عاملا رئيسيا أسهم فى المحافظة على الشرق ، أكثر من أن يسهم فى سقوط الغرب .

ولما كانت سعادة الحياة الآخرة هى الهدف العظيم للدين ، فقد لا ندهش أو نخجل اذا سمعنا أن دخول المسيحية ، أو على الأقل اساءة استغلالها ، كان لها بعض الأثر فى تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها . فرجال الدين نجحوا فى تعليم مبادئ الصبر والاستكانة ، وفضائل المجتمع الايجابية كانت تقابل بالتشبيط ، وآخر بقايا الروح العسكرية دفنت فى الأديرة ، وخصص جزء كبير من الثروة العامة والخاصة لمطالب الصدقة والعبادة المظهرية ، وبعثت رواتب الجنود على الجماهير العديمة النفع من الجنسين ، وهى الجماهير التى لم يكن فى مقدورها الا الدفاع عن مزايا التقشف والعفة . وأشعل الايمان ، والغيرة وحب الاستطلاع ، وعواطف الحياة الدنيا من حقد وطمع ، أشعلت كل هذه الأشياء نار النزاع اللاهوتى ، والكنيسة ، بل والدولة ، التهمت الأحراب الدينية التى كانت تتصارع فيما بينها صراعا لا تخبو ناره مطلقا ، ويصل فى بعض الأحيان الى درجة القسوة والعنف . وتحول اهتمام الأباطرة من المعسكرات الى المجالس الكنسية ، وناء العالم الرومانى تحت نير نوع جديد من الطغيان ، وأصبحت الطوائف المضطهدة عدوا خفيا لبلادها . ومع ذلك فان روح الحزبية مهما كان ضررها أو سخفها ، هى مبدأ للوحدة ومبدأ للتفرقة سواء بسواء . فالأساقفة غرسوا من فوق ألف وثمانمائة منبر واجب الخضوع السلبى لحاكم شرعى أرثوذكسى ، وحافظت اجتماعاتهم الكثيرة واتصالاتهم الدائمة على ارتباط الكنائس البعيدة واتلافها ، كما أن التحالف الروحى بين الكاثوليك زاد من قوة ما فى

الانجيل من حُض على الخير . وقد سلم جيل متخنت ذليل ، فى وِرع وتقوى ، بحياة الكسل المتسم بالقدسية التى كان يحياها الرهبان ، ولكن ، لو أن الخرافة لم تجذب أبناء ذلك العصر الى العزلة بقصد التعبد لكانت هذه الرذائل نفسها قد أغرت الرومان التافهين على التخلي عن علم الدولة ، مدفوعين فى ذلك بدافع أكثر دناءة وحقارة ، والتعاليم الدينية يمكن أن تطاع فى يسر وسهولة اذا أجازت الميول الطبيعية للمتعلقين بها ، وأكسبتها قدسية ، غير أن النفوذ الخالص الأصيل للمسيحية يمكن أن نتبعه فى تأثيرها اثناجع على المهتدين من برابرة الشمال ، وان يكن هذا التأثير ناقصا . واذا كان تحول قسطنطين الى المسيحية قد عجل باضمحلال الامبراطورية الرومانية ، فان ديانتها الظافرة كسرت حدة سقوطها ، وخففت من شراسة طباع الغزاة .

وهذه الثورة الرهيبة يمكن أن يستفاد منها بصورة مجدية فى تعليم العصر الحاضر . فمن واجب الرجل المحب لوطنه أن يفضل مصلحة وطنه المطلقة ومجدها المطلق ، وأن ينمى هذه المصلحة ، وذلك المجد ، غير أن الفيلسوف من حقه أن يوسع نظره ، وأن يعتبر أوروبا دولة واحدة كبيرة وصل مختلف سكانها تقريبا الى مستوى واحد من الأدب والرقى ولسوف يستمر توازن القوى فى حالة تذبذب ، وسوف ترتفع تارة وتنخفض تارة أخرى رفاهية مملكتنا أو الممالك المجاورة ، غير أن هذه الأحداث الجزئية لا يمكن أن تضير ضيرا أساسيا ما نحن فيه من سعادة عامة ، أو تسمى الى نظام الفنون ، والقوانين والعادات الذى يميز الأوروبيين ومستعمراتهم عن بقية الجنس الانسانى بهذه الصورة النافعة . ان الأمم الهمجية فى العالم هى العدو المشترك للمجتمع المتحضر ، ومن حقنا أن نتساءل فى شئ من الفضول الممتزج بالقلق ، ما اذا كانت أوروبا لا تزال مهددة بتكرار تلك الكوارث التى ناءت تحت ثقلها جيوش روما ونظمتها . ولعل هذه الأفكار نفسها توضح لنا سقوط تلك الامبراطورية العاتية ، وتفسر الأسباب المرجحة التى أدت الى طمانينتنا الحالية وأمننا الحاضر .

١ - وكان الرومان يجهلون مدى الخطر المحدق بهم ، وعدد أعدائهم . ففيماء وراء الدانوب والراين كانت البلدان الشمالية من أوروبا وآسيا أهلة بعدد لا يحصى من قبائل الرعاة والصيادين تتسم جميعها بالفقر ، والنهم ، والمشغبة ، والشجاعة فى القتال ، والتحرق الى نهب ثمار العمل . وسرى فى العالم المتبربر حافز سريع الى الحرب ، واهتمز السلم فى بلاد الغال وايطاليا بفعل الثورات البعيدة المنذلة فى الصين . ذلك أن قبائل الهون التى فرت أمام عدو طافر منتصر ، وجهت مسيرتها صوب الغرب ، وتضخم سيلها بما انضم الى تلك القبائل شيئا فشيئا من

أسرى وحلفاء . كما أن القبائل الهاربة التي استسلمت للهون اتخذت بدورها روح الغزو . وترتب على ذلك أن طابورا لا نهاية له من المتبربرين أناخ على الامبراطورية الرومانية بشقل متراكم متجمع ، وعندما كانت مقدمته تنهزم وتهلك كان الفراغ يملأ على الفور بسيل جديد من المهاجمين . ولم تعد الآن مثل هذه الهجرات الرهيبة تأتي من الشمال ، وتعتبر فترة الهدوء والراحة الطويلة ، التي نسبت الى نقص عدد السكان ، نتيجة سعيدة لتقسيم الفنون والزراعة فبعد أن كانت ألمانيا بلدا يضم قرى بدائية مبعثرة هنا وهناك بين غاباتها ومستنقعاتها ، أصبحت الآن مشتملة على ألفين وثلاثمائة مدينة مسورة . وكذلك قامت على التوالي ممالك الدنمارك والسويد وبولندا المسيحية ، ومدة تجار الهانسا Hanse (١) وفريسان التيتوتون مستعمراتهم على طول ساحل البلطيق حتى خليج فنلندا . وأصبحت روسيا الآن ، من خليج فنلندا الى المحيط الشرقي ، امبراطورية لها طابع القوة والتحضر . وظهر المحراث ، والمغزل ومصنع الحديد على ضفاف أنهار فولجا وأوبى ولينا . ولقنت أقصى قبائل التتار درسا في الخوف والطاعة . وقد انكمش الآن عهد البربرية المنطلقة في حيز ضيق ، ولم يعد في مقدور قبائل الكلموك والأوزبك والتي تكاد قواتها تعد ، لم يعد في مقدورها أن تثير مخاوف دولة أوربا العظيمة . غير أن هذا الأمن الواضح يجب ألا يغرينا على أن ننسى أن أعداء جددا قد يجيئون وأخطارا مجهولة قد تنشأ من شعب مغمور لا نكاد نكتبين مكانه على خريطة العالم . فالعرب، الذين نشروا فتوحاتهم من الهند الى أسبانيا ، كانوا قبل ذلك قوما خاملين يعيشون في فقر وذلة حتى نفت فيهم النبي محمد روح الحماس .

٢ - ولقد كانت امبراطورية روما صرحا راسخا بفضل ائتلاف أعضائها ائتلافا فريدا كاملا . فالأمم الخاضعة لها تخلت عن الأمل ، بل وعن الرغبة في الاستقلال ، وأخذت طابع المواطنين الرومان ، والولايات التابعة لها انتزعها المتبربرون ، وهي كارهة ، من قلب وطنها الأم . غير أن روما اشتريت هذه الوحدة على حساب فقدان الحرية الوطنية والروح العسكرية ، وأصبحت الولايات المستعبدة خلوا من الحياة ومن الحركة تنشده سلامتها على أيدي القوات المرتزقة والحكام الذين يتلقون التوجيه من أوامر بلاط ملكي بعيد . وأصبحت سعادة مائة مليون من البشر تعتمد على الميزة الشخصية التي يتصف بها شخص أو اثنان ، ربما كانا من الأطفال ، أفسد عقليهما الترف ، والسلطة المستبدة ، ونوع التعليم . وأصبحت الامبراطورية بأعمق الجروح عندما كان أبناء ثيودوسيوس

(١) مجموعة من المدن التجارية الألمانية - (الترجمة) .

وأحفاده تحت الوصاية ، وبعد أن بدأ على هؤلاء الملوك العاجزين أنهم بلغوا سن الرجولة ، تخلوا عن الكنيسة للأساقفة وتخلوا عن الدولة للخصيان ، وتركوا الولايات للمتبربرين . وتنقسم أوروبا الآن الى اثنتى عشرة دولة قوية ، وان تكن غير متكافئة ، وثلاث دول تؤلف مجموعة محترمة من الكومنولث ، وعدد من الدول المستقلة المختلفة الأصغر من هؤلاء . وتضاعفت فرص المواهب الملكية والوزارية تبعا لعدد حكامها ، على الأقل ، فقد يحكم شخص مثل جوليان ، أو سميراميس فى الشمال ، بينما ينال أشخاص من شاكلة أركاديوس وأونوريوس على عروش الجنوب . وحده تأثير الخوف والعار معا من مساوىء الطغيان ، وحققت الجمهوريات نظاما واستقرارا ، وتشربت الملكيات مبادئ الحرية ، أو على الأقل ، مبادئ الاعتدال ، واتسمت أشد الدساتير نقضا بشئ من الاحساس بالشرف والعدالة بتأثير اتجاهات الحياة العامة فى هذه العصور . وفى السلم أدت المنافسة بين كثير من المتنافسين النشاط الى زيادة سرعة تقدم المعرفة والصناعة ، وفى الحرب أصبحت الصراعات التى تنشعب بين القوى الأوروبية من النوع المعتدل غير الحاسم . واذا برز الآن فاتح همجى من صحراوات التتار ، وجب عليه أن يقهر مرارا وتكرارا فلاحى روسيا الأقوياء ، وجيوش ألمانيا العديدة ، ونبلاء فرنسا الأمجاد ، وأحرار بريطانيا الشجعان ، الذين يتضافرون على الدفاع المشترك فى أنفسهم . واذا حدث أن تمكن المتبربرون الظافرون من تخريب البلدان واستعبادها حتى شاطئ المحيط الأطلنطى ، فان عشرة آلاف سفينة تستطيع أن تنقل بقايا المجتمع المتحضر بعيدا عن متناول أيديهم ، وتستطيع أوروبا أن تحيا وتزدهر فى العالم الأمريكى ، الذى امتلا فعلا بمستعمراتها ونظمها (١) .

٣ - ان البرد ، والفقر ، وحياة الخطر والتعب تعزز قوة البرابرة وشجاعتهم . وقد طفوا فى كل عصر على أمم الصين والهند وفارس المتسمة بالأدب والدعة ، والتى أهملت ، وما تزال تهمل معادلة قدراتها الطبيعية هذه بحيل الفن العسكرى . والمعروف أن الدول العسكرية القديمة ، اليونان ومقدونيا وروما ، قد علمت جيلا من الجنود ، ودربت أجسامهم ، وهذبت شجاعتهم ، وضاعفت قوتهم بمناورات حربية منتظمة ، وحولت الحديد الذى كانت تملكه الى أسلحة قوية نافعة . غير أن هذا التفوق

(١) تشتمل أمريكا الآن على ما يقرب من ستة ملايين من دم وأصل أوروبى ، ويزداد عددهم بصورة مستمرة ، على الأقل فى الشمال . ومهما كانت تغييرات وضعهم السياسى ، فلابد لهم من الحفاظ على عادات أوروبا ، وانه لمن دواعى سرورنا ان اللغة الانجليزية من المحتمل ان تنتشر فى قارة شاسعة أهلة بالسكان .

تدهور بصورة غير محسوسة مع تدهور قوانينها وأخلاقها ، وترتب على السياسة الضعيفة التي انتهجها قسطنطين وخلفاؤه أن تعلم المرتزقة المتبربرون كيف يوجهون شجاعتهم البدائية الى تدمير الامبراطورية ، وزودتهم تلك السياسة الضعيفة بسلاح حققوا به ذلك الهدف . وقد تغير الفن العسكري بفضل اختراع البارود ، الذي يمكن الانسان من السيطرة على أقوى عاملين فى الطبيعة ، الهواء والنار . واستغلت العلوم الرياضية ، والكيمياء ، والميكانيكا ، وفن البناء ، لخدمة الحرب وأصبحت الاطراف المتخصصة يواجه بعضها بعضا بأعظم أساليب الهجوم والدفاع احكاما . وقد يلاحظ المؤرخون فى غضب وسخط أن استعدادات الحصار تكفى لتأسيس مستعمرة وازدهارها . ولكن يجب ألا يضايقنا أن يكون تدمير مدينة عملا كثير التكاليف شديد الصعوبة . أو أن الشعب العامل المجده ينبغي أن تصونه تلك الفنون التي تعمل على فناء الصفة العسكرية وتظل باقية بعد ذلك . وفى الوقت الحاضر تشكل المدافع والحصون حاجزا منيعا ضد خيول التتار ، وأصبحت أوروبا آمنة من أية غارات يشنها المتبربرون فى المستقبل ، لأنهم قبل أن يستطيعوا الغزو يجب أن يتخلوا عن همجيتهم ، وسوف يكون تقدمهم التدريجي فى علم الحرب مقترنا دائما ، كما هى الحال فى روسيا ، بتقدم متناسب فى فنون السلم والسياسة المدنية ، يجب أن يكونوا هم أنفسهم أهلا لمكانة يحتلونها بين الأمم المتحضرة التي يخضعونها .

وإذا وجه أحد أن هذه الأفكار موضع شك وتنطوى على مغالطة ، فانه لا يزال هناك مصدر أكثر تواضعا نستمد منه راحة وأملا . فاكشافات الملاحين القدماء والحديثين ، والتاريخ أو التراث الوطنى لاكثر الأمم استنارة ، تصور لنا الانسان الهمجى عارى الجسم والعقل معا ، ويفتقر الى اللغة (١) . ومن هذه الحالة الوضيعة التي ربما كانت هى الحالة البدائية الشاملة ، ارتفع الانسان تدريجيا الى مستوى السيطرة على الحيوان ، وتخصيب الأرض وعبور المحيطات ، وقياس السماء . ولقد كان تقدمه فى تحسين وتدريب مواهبه الجسمية والعقلية تقدما متنوعا غير منتظم ، بطيئا كل البطء فى مبدأ الأمر ، ويزداد درجة درجة بسرعة مضاعفة .

(١) انه لايرى سيرا ، وان يكن مملا ، أن نستخرج المراجع التي كتبها الشعراء ، والفلاسفة والمؤرخون . . ومن ثم فاني أقتنع بالرجوع الى ما كتبه ديودوروس سكيولوس مما يعتبر دليلا حاسما أصيلا . واکلة الاسماك الذين كانوا فى عصرهم يجوبون سواحل البحر الاحمر ، لا يمكن مقارنتهم الا بالوطنيين فى بلاد هولندا الجديدة . وما يزال فى مقدور الخيـان ، وربما العقل ، أن يفترض وجود حالة طبيعية مطلقة اقل بكثير من مستوى هؤلاء الهمج الذين كان لهم بعض الفنون ، ويملكون بعض الأدوات .

بمرت عصور من الصعود المجهّد لتلتها لحظة انهيار سريع ، وشاهدت كل بقاع الأرض تقلبات بين الضوء والظلام ، غير أن تجربة أربعة آلاف سنة ينبغي أن تفسح آمالنا وتقلل مخاوفنا ، وليس في مقدورنا أن نحدد مدى الرقى الذى يصبو اليه النوع الانسانى فى تقدمه نحو الكمال ، غير أننا نستطيع أن نقرر فى اطمئنان أنه ليس هناك شعب من الشعوب يمكن أن يرتد الى حالته الهمجية الأولى . والتقدم الذى يصور المجتمع يمكن أن ينظر اليه من ثلاثة جوانب :

١ - فالشاعر أو الفيلسوف يصور عصره وبلاده بمجهودات عقل واحد بمفرده . غير أن هذه القدرات الممتازة التى يمتلكها العقل أو الخيال هي انتاج ناهض وذاتى ، ولا شك فى أن عبقرية هوميروس أو شيشرون أو نيوتن لا تلقى مثل ما تلقاه من اعجاب لو كان فى مقدور ارادة حاكم أو دروس معلم أن تخلقها .

٢ - ان فوائد القانون والسياسة والتجارة والصناعة ، والفنون والعلوم هي أكثر ثباتا ودواما ، وقد يؤهل التعليم والنظام كثيرا من الأفراد لتنمية مصلحة المجتمع كل فى مركزه ووظيفته . غير أن هذا النظام العام هو نتيجة المهارة والعمل ، وقد يضمحل الجهاز المعقد بفعل الزمن ، او يضار بتأثير العنف .

٣ - ومن حسن حظ الجنس البشرى أن الفنون الأكثر نفعا ، أو على الأقل ، الأكثر ضرورة ، يمكن أداؤها دون حاجة الى مواهب ممتازة ، أو الى الخضوع لتنظيم قومى ، دون كفايات فرد ، أو تضافر كثرة من الناس . فكل قرية ، وكل أسرة ، وكل فرد ، كل من هؤلاء يجب أن يمتلك قدرة ورغبة تمكنانه من المداومة على استخدام النار والمعادن ، وعلى تنمية الحيوانات الأليفة والانتفاع بها ، وعلى استخدام وسائل الصيد البرى والبحرى ، وعلى الامام بأوليات الملاحة ، وعلى زراعة القمح والحبوب الغذائية الأخرى بطريقة عادية ، وعلى ممارسة الحرف الآلية ممارسة بسيطة . فالعبقرية الشخصية قد تهلك ، والصناعة العامة قد تنقرض ، غير أن تلك النباتات القوية تعيش بعد العاصفة ، وتضرب بجذور دائمة فى أقل أنواع التربة ملائمة لها . ولقد غطت سحابة من الجهل عصور أغسطس وتراجان الرائعة ، وقوض المتبربرون قوانين روما وقصورها ، غير أن المنجل ، الذى اخترعه اله الزراعة الرومانى « زحل » ، أو الذى أصبح رمزا له ، ظل يستخدم سنويا فى جنى محاصيل ايطاليا ، ولم تتجدد

أبدا تلك الولا ئم البشرىة التى كان يقيمها اللستريجون (١) Laestrigons
على شاطئ كمبرانيا •

ومنذ أول اكتشاف للفنون ، نشرت الحروب ، والتجارة ،
والحماس الدينى هذه النعم التى لا تقدر قيمتها ، بين الهمج فى الدنيا
القديمة والدنيا الجديدة ، وتوالى انتشارها بحيث أصبحت أشياء لا تزول •
ومن ثم ينبغى علينا أن نرتضى هذه النتيجة السعيدة ، وهى أن كل عصر من
عصور الدنيا قد ضاعف وما يزال يضاعف ثروة الجنس البشرى الحقيقية ،
وسعادته ، ومعرفته ، وربما فضيلته (٢) •

(١) جنس من كلة لحوم البشر المردة قابلهم أوديسيوس - (الترجمة) •

(٢) كثيرا ما تلوث فضل الاستكشاف بالجنشع ، والقسوة ، والتعصب ، كما ان
الاتصال الذى حدث بين الأمم قد ترتب عليه انتقال المرض والتحيز • وهناك شذوذ
عجيب عن هذه القاعدة يعود الى ما يتصف به عصرنا هذا ويلدنا هذه من فضيلة .
فالرحلات الخمس الكبيرة التى تمت بأمر من صاحب الجلالة الحالى ، كان الباعث عليها
حبه الخالص الكريم للعلم وللجنس البشرى • وهذا الملك ، الذى يوزع احساناته بما يلائم
مختلف مراحل المجتمع ، أسس فى عاصمته مدرسة للرسم ، وأدخل فى جزائر البحر
الجنوبى تلك الخضروات والحيوانات الأكثر نفعا للحياة الانسانية •

دولتِ اِطالیا

الفصل التاسع والثلاثون

(٤٩٤ - ٥٢٦)

حكم ثيودوريك القوطى الشرقى • رخاء روما وايطاليا •
أريوسية ثيودوريك • قتل بويثيوس • موت ثيودوريك

غزا ثيودوريك ايطاليا بموافقة زينون ، امبراطور الشرق ، وهزم
أدواكر ، وقتل أدواكر فى سنة ٤٩٣ • وفى السنة نفسها ارتقى عرش
القسطنطينية Anastasius خلفا لزينون • وحكم ثيودوريك مملكة قوطية
فى ايطاليا ، من ٤٩٤ الى ٥٢٦ م •

عهد ثيودوريك

نشر انتصار ثيودوريك بين متبربرى الغرب حالة ذعر عامة ،
ولكن بمجرد أن ظهر لهم أنه قنع بالغزو وأصبح راغبا فى السلام ،
تحول الذعر الى احترام ، وأذعنوا الى وساطة قوية استخدمت لتحقيق
أحسن الأهداف ، وهى تسوية نزاعاتهم وتهذيب عاداتهم • وعندما
ذهب السفراء الوافدون من أبعد بلدان أوربا الى رافنا ، أعجبوا بحمكته ،
وفخامته ، وأدبه ، وإذا كان فى بعض الأحيان قد قبل العبيد أو الأسلحة ،
أو الخيول البيضاء أو الحيوانات الغريبة ، فإن اهداءه مزولة ، أو ساعة
مائية ، أو موسيقارا ، كان يوجه نظر ملوك بلاد الغال أنفسهم الى تفوق
رعاياه الايطاليين فى الفن والصناعة • وكانت أسرة ثيودوريك تتألف من
زوجة وابنتين ، وأخت ، وابنة أخت وقد ألفت مصاهراته العائلية بين
أسرته وبين ملوك الفرنجة والبرجنديين ، والقوط الغربيين ، والوندال
والثورنجيين ، وأسهمت فى المحافظة على اتساق ، أو على الأقل ، توازن

دولة الغرب الكبرى • ومن الصعب أن نتتبع ، فى غابات ألمانيا وبولندا المظلمة ، هجرات شعب الهيرولى . وهو شعب شديد المراس كان يزدري استخدام الدرع ، ويحكم على النساء الأرامل بالموت اذا مات أزواجهن ، وعلى الآباء الطاعنين فى السن ألا يعيشوا بعد أن تضمحل صحتهم • وقد التمس ملك هؤلاء المقاتلين الهمج صداقة ثيودوريك ، ورفع هذا الى مرتبة ابنه بمقتضى الطقوس البربرية الخاصة بالتبنى العسكرى ، وجاء أهل استونيا أو ليفونيا من شواطئ بحر البلطيق يضعون هداياهم من العنبر الوطنى تحت أقدام ملك دفعتهم شهرته الى القيام برحلة مجهولة خطيرة قطعوا فيها ألفا وخمسمائة ميل • وكان ثيودوريك على اتصال ودى متكرر بالبلد الذى اشتقت منه الأمة القوطية أصلها ، فكان الايطاليون يلبسون فراء السمور الثمينة الواردة من بلاد السويد ، كما أن أحد ملوك هذه البلاد ، وجد فى قصر رافنا ملاذا كريما ، بعد أن اعتزل العرش راغبا أو مكرها • وقد كان هذا الملك يحكم قبيلة من القبائل الثلاث عشرة الكثيرة العدد التى كانت تزرع جزءا صغيرا من جزيرة أو شبه جزيرة اسكنديناوة الكبرى التى كان يطلق عليها فى بعض الأحيان اسم غامض هو تول Thule • وكان هذا الاقليم الشمالى مسكونا حتى خط العرض الثامن والستين ، أو انه اكتشف منه الجزء المحسود بهذا الخط ، حيث يستمتع سكان الدائرة القطبية بظهور الشمس ، فى كل انقلاب صيفى ، فترة قدرها أربعون يوما ، ويفتقدونها فترة مماثلة فى كل انقلاب شتوى • وكان الليل الطويل الذى تعيب فيه الشمس أو تموت ، فصلا حزيننا يسوده الكرب والقلق ، الى أن يكتشف الرسل ، الذين أوفدوا الى قمم الجبال ، ظهور أول خيوط الضوء ، ويعلنوا الى السهول السفلى عيد بعث الشمس من جديد •

وكانت حياة ثيودوريك مثلا نادرا جديرا بالثناء لرجل متبربر وضع سيفه فى غمده وهو فى زهوة النصر وعنفوان العمر • وقد كرس ثلاثا وثلاثين سنة لواجبات الحكم المدنى ، ومع أنه كان فى بعض الأحيان يخوض الحروب ، الا أن تلك الحروب كانت سرعان ما تنتهى بفضل مسلك ضباطه ، ونظام قواته ، وجيوش حلفائه ، بل وبفضل الخوف الذى كان يبعثه اسمه • وأخضع ، تحت حكومة قوية منظمة ، بلدانا عديمة النفع هى ريتيا ، ونوريكوم ، ودلماشيا ، وبانونيا ، من منبع الدنواب واقليم بافاريا الى المملكة الصغيرة التى أقامتها قبائل جبيدى على أنقاض سرميوم • وكان من الحكمة بحيث لا يستطيع مطمئنا أن يأتى هؤلاء الجيران الضعفاء المشاغبين على بلاد تعتبر حصنا لايطاليا ، كما أن عدله كان يتطلب منه أن يسترد البلدان التى وقعت تحت نيرهم ، كجزء من

مملكته أو ميراث والده . وآثارت عظمة ذلك الخادم الذى نعت بالخيانة لأنه كان ناجحاً مظفراً ، غير الامبراطور أناستاسيوس ونشبت بينهما حرب على حدود داكيا لأن الملك القوطى أطل بحمايته شخصاً من سلالة أتिला ، فى غمرة من تقلبات الأحوال الانسانية . وتقدم سابنيان ، وهو قائد مشهور بكفايته ، وبكفاية أبيه ، على رأس عشرة آلاف جندي من الرومان ووزع المؤن والأسلحة التى ملأت صفا طويلاً من العربات على أشد القبائل البلغارية مراساً . غير أن القوات الشرقية هزمت فى حقول مارجوس على أيدى القوط والهون الأقل منها عدداً ، وهلكت زهرة الجيوش الرومانية ، بل وأملها ، هلاكاً لا يعوض . وقد نفت ثيودوريك فى قواته الظافرة روح الاعتدال ، مما جعلهم لا يمسون أسلاب العدو الكثيرة الملقاة تحت أقدامهم ، طالما أن قائدهم لم يصدر لهم إشارة بنهبها . واستشاط بلاط بيزنطة غضباً ، فأرسل مائتى سفينة وثمانية آلاف رجل لنهب الاقليم الساحلى فى كالابريا وأبوليا ، فهاجموا مدينة تارنتم القديمة ، وعوقوا الزراعة والتجارة فى ذلك البلد النعس ، ثم أبحروا راجعين الى الدردنيل ، فخوذين بانتصار القرصنة الذى أحرزوه على شعب كانوا لا يزالون يدعون اعتباره من اخوتهم الرومان . ومن الجائز أن نشاط ثيودوريك جعلهم يبادرون الى الانسحاب ، فقد حمى ايطاليا بأسطول يتألف من ألف سفينة خفيفة بناها بسرعة لا تصدق ، وسرعان ما كوفىء على اعتداله الحازم بعقد صلح شريف قوى . ولقد حافظ ثيودوريك بيد قوية على توازن الغرب ، حتى انهار ذلك التوازن فى نهاية الأمر من جراء أطماع كلوفيس Clovis ورغم أنه عجز عن مساعدة قريبه المتهور المنكود ، ملك القوط الغربيين ، الا أنه أنقذ البقية الباقية من أسرته وشعبه ، وكسر شكيمة الفرنجة وهم منتصرون . ولست أرغب فى اطالة قصة الأحداث الحربية هذه أو تكرارها ، وهى أقل الأحداث فى عهد ثيودوريك ، وسوف أقنع بأن أضيف الى ما قلت انه حمى قبائل الألمان ، وعاقب البرجنديين عقاباً شديداً على غارة شنوها ، وغزا آرل ومرسيليا فأقام بذلك اتصالاً حراً مع القوط الغربيين ، الذين احترموه وبجلوه على اعتبار أنه حامى وطنهم ، والوصى على حفيده ، ابن أليريك الطفل . وبهذه الشخصية المبجلة ، أعاد ملك ايطاليا ولاية الغالين البريتورية ، وأصلح بعض مساوىء الحكم المدنى فى أسبانيا . وقبل جزية سنوية وخضوعاً ظاهرياً من حاكمها العسكرى ، الذى رفض فى حكمة أن يأمن على نفسه بالذهاب الى قصر رافنا . واستقرت السيادة القوطية من صقلية الى الدانوب ، ومن سرميوم أو بلجراد الى المحيط الأطلنطى ، واعترف اليونان أنفسهم بأن ثيودوريك حكم أجمل جزء فى الامبراطورية الغربية .

وكان من الجائز أن يديم اتحاد القوط والرومان سمادة إيطاليا العابرة عصورا طويلة ، وكان من المحتمل أن يترتب على المنافسة المتبادلة بين فضائل هذين الشعبين بعث جديد لأمة هي أولى الأمم ، ولشعب جديد من الرعايا الأحرار . غير أن حكم ثيودوريك كان مفتقرا إلى الصفة السامية ، صفة قيادة مثل هذه الثورة أو تأييدها . فقد أعوزت هذا الرجل عبقرية المشرع ، أو الفرص المتاحة له ، وبينما سمح للقوط أن يستمتعوا بالحرية الفظة ، فانه قلد في ذلة نظم ، بل ومساوىء ، الكيان السياسي الذي أقامه قسطنطين وخلفاؤه . وقد دفعه احترامه الرقيق لميول روما ، تلك الميول التي قاربت على التلاشي ، إلى نبذ اسم الإمبراطور ، وتاجه ، وردائه الأرجواني . غير أنه اتخذ لنفسه ، تحت لقب الملك الوراثي ، كل الامتيازات الإمبراطورية من حيث جواهرها وتمامها . فكانت رسائله إلى العرش الشرقي تنسب بالاحترام والغموض ، وكان يبجل فيها بأسلوب فخم ذلك الاتساق القائم بين الدولتين ، ويشيد بحكومته هو على أنها صورة كاملة لإمبراطورية واحدة موحدة ، ويدعى لنفسه ، أكثر من جميع ملوك الأرض ، تلك الرفعة نفسها التي أجازها في تواضع لشخص أناستاسيوس أو لمقامه . وكان التحالف بين الشرق والغرب يعلن سنويا باختيار قنصلين اختيارا جماعيا . غير أنه يبدو أن المرشح الإيطالي ، الذي كان يعينه ثيودوريك ، كان يحصل على تصديق رسمي من عاهل القسطنطينية . وكان القصر القوطي في رافنا يعكس صورة بلاط ثيودوسيوس أو فالنتينيان . فالوالى البريتوري . ووالى روما ، والكوستر ، ورئيس الديوان ، وأمناء الأموال العامة والموروثة الذين صورت بلاغة كاسيدوروس مهامهم في ألوان براق ، كل هؤلاء ظلوا يعملون كوزراء للدولة . أما مهمة الإشراف على العدالة والإيرادات ، وهي مهمة دون المهام السابقة ، فقد كان يتولاها سبعة قناصل ، وثلاثة مشرفين (١) ، وخمسة رؤساء يحكمون أقاليم إيطاليا الخمسة عشر بمقتضى المبادئ ، بل والشكليات ، الخاصة بالقضاء الروماني . وترتب على بطلان الإجراءات القانونية اضعاف عنف الغزاة أو تجنبه ، واقتصرت الإدارة المدنية ، بمناصبها وأرباحها ، على الإيطاليين . وظل الناس يحتفظون بملبسهم ولغتهم ، وبقوانينهم وعاداتهم ، وبحريتهم الشخصية ، وبشأن أملكهم من الأرض . وفيما مضى كان هدف الإمبراطور أغسطس أن يخفي دخول النظام الملكي ، وكذلك كانت سياسة ثيودوريك هي ستر حكم رجل متبربر .

(١) Corrector وهو المشرف على الحقوق المدنية . كانت وظيفته تعادل وظيفة

الوالى البريتورى .

ومع أن رعاياه كانوا يستيقظون فى بعض الأحيان من حلمهم اللذيد ، حم وجود حكومة رومانية ، الا أنهم كانوا يستمدون راحة أكثر من أخلاق منك قوطى يمتلك قدرة نافذة تمكنه من معرفة مصلحته الشخصية والمصلحة العامة ، كما يمتلك الحزم الذى يؤهله لتحقيق هاتين المصلحتين . وكان ثيودوريك يعتز بما يمتلكه من فضائل ، ويحب ما يفتقر اليه من مواهب . ورفع ليبريوس الى منصب الوالى البريتورى نظير اخلاصه الثابت لقضية أدواكر التنسعة . أما كاسيدوروس وبويثيوس ، وزيرا ثيودوريك ، فقد أضفيا على عهده ، رونق عبقريتهما وعلمهما . وكان كاسيدوروس أكثر حكمة أو أحسن حظا من زميله ، فاستطاع الحفاظ على مكانته دون أن يخسر الخطوة الملكية ، وبعد أن استمتع بأمجاد الدنيا ثلاثين عاما ، نم بفترة ماثلة من الراحة فى عزلة كرسها للتعبد والدرس فى سكويلاس Squillace .

رخاء روما وإيطاليا

كان من واجب الملك القوطى ومصلحته ، باعتباره سيد إيطاليا ، أن يغرس فى نفوس الشعب والسناتو مشاعر الحب نحوه . فاجتنب نبلاء روما بما أغدقه عليهم من صفات رنانة ومناصب رسمية ، كتلك التى كان يتمتع بها أجدادهم بصورة أقرب الى العدالة ، نظرا لما توفر لهم من جدارة وسلطة . واستمتع أفراد الشعب ، دون خوف أو خطر ، بنعم العاصمة الثلاث . وهى النظام ، والرخاء ، والملاهى العامة ، غير أن أعدادهم تناقصت تناقصا ملحوظا رغم هذا الكرم ، ومع ذلك فإن أبوليا ، وكالابريا ، وصقلية كانت تبعث بخراج القمح المفروض عليها الى مخازن الحنطة فى روما ، ووزع نصيب من الخبز واللحم على المواطنين المعوزين ، وكانت كل رعاية تخصص للعناية بصحتهم تعتبر رعاية كريمة . وكانت الألعاب العامة ، التى قد يمتدحها سفير يونانى ، مجاملة وتادبا ، صورة باهتة ضعيفة لروعة مثيلاتها فى عهد القياصرة . غير أن فنون الموسيقى ، والرياضة ، والتمثيل الصامت ، لم تذهب كلية الى زوايا النسيان . وظلت الوحوش الأفريقية الضارية تطلق فى مدرجات الألعاب فى مواجهة الصيادين لتدريبهم على الشجاعة والبراعة . وكان الملك القوطى المتسامح يتحمل فى صبر ، أو يكبح فى رقة ، فرق المجالدين الزرقاء والخضراء ، التى كثيرا ما ملأت ساحة اللعب بالصخب والضوضاء ، بل وخضبتها بالدماء . وزار ثيودوريك فى السنة السابعة من حكمه الهادىء العاصمة القديمة للدنيا ، وخرج

أعضاء السناتو والشعب فى موكب مهيب لتحية تراجان ثان ، وفالتينيان جديد . وعزز نيودوريك هذه الشخصية بان أكد فى خطاب لم يتهيب أن يلقبه أمام الجماهير ويكتبه على لوحة من النحاس ، أن حكومته تتوخى العدالة وتحكم بمقتضى القانون ، وفى هذا الاحتفال العظيم أطلقت روما آخر شعاع من أشعة مجدها المتدهور المضمحل ، ولم يكن فى وسع أحد القديسين ، وقد شاهد ذلك المنظر العظيم ، الا أن يأمل فى خياله الورع ألا يكون هناك ما هو أفخم من ذلك الا الروعة السماوية لأورشليم الجديدة . وأقام الملك القوطى فى روما ستة شهور أثار فيها شهرته ، وشخصيته ، ومسلكه المذهب الكريم ، اعجاب الرومان ، وكان هو أيضا يتأمل ، بالقدر نفسه من العجب والدهشة ، تلك الآثار الباقية من عظمتهم القديمة ، وارتقى مرتفع الكابيتول فى خطوات الفاتح ، واعترف فى صراحة أنه كان يشاهد كل يوم ، وفى عجب جديد ، ساحة روما Forum التى أقامها تراجان ، وعموده الشاهق .

وبدا مسرح بومبى ، حتى فى تدهوره ، كجبل شامخ جوفته صناعة الانسان وصقلته ، وكان فى تقديره المقتدر الى الدقة أن مدرج الألعاب الضخم ، الذى بناه تيتوس Titus لابد أنه استنزف نهرا من الذهب . وكانت تصب فى المدينة سقايات للمياه عددها أربع عشرة فتغذى كل جزء منها بالمياه العذبة الغزيرة ، ومن بينها سقاية كلوديان التى كانت تنبع على ثمانية وثلاثين ميلا من جبال سابين ، ثم تنساب فوق منحدر سهل مستمر يتركز على أقواس صلبة حتى تهبط على تل أفنتين Aventine Hill أما القباء الطويلة الفسسيحة ، التى شيدت لتصريف المياه العامة ، فقد احتفظت بصلابتها الأصلية بعد اثنى عشر قرنا من الزمن . وظلت تلك القنوات الجوفية من الأشياء التى تفضل عجائب روما البادية للعيان ، وقد اتهم ملوك القوط ظلما وعداونا بتخريب الآثار القديمة ، غير أنهم فى واقع الأمر كانوا يحرصون على المحافظة على آثار الأمة التى أخضعوها ، فقد صيغت المراسيم الملكية بحيث تمنع المواطنين أنفسهم من اساءة استعمالها ، أو اهمالها ، أو نهبها . وخصص للاصلاحات العادية اللازمة للأستوار والمباني العامة مهندس معمارى خبير ، ومبلغ سنوى قدره مائتان من الأرتال الذهبية ، وخمسة وعشرون ألف قطعة من القرميد ، وعائد الجمارك من ميناء لوكرين . وامتدت العناية نفسها الى التماثيل المعدنية أو الرخامية التى تمثل الانسان والحيوان . فكان تماثلا الجوادين المقامين عند مدخل قصر الكويرينال واللذان أكسباه اسما حديثا ، موضع اعجاب البرابرة ، كما أعيدت تماثيل الفيلة النحاسية التى كانت قائمة فى طريق ساكرا

Via Sacra • وكان تمثال العجل الذى نحتة ميرون (١) **Myron** يخدم الماشية عندما كانت تساق فى ساحة سوق السلم • وعين ضابط لحماية هذه الأعمال الفنية التى كان ثيودوريك يعتبرها أنبل حلية تزدان بها مملكته •

وجرى ثيودوريك على عادة آخر الإباطرة ، ففضل الإقامة فى قصر رافنا ، حيث زرع بيديه بستانا ، وكلما كان المتبريرون يهدون سلام مملكته (لأنها لم تغز قط) ، كان ينتقل بلاطه الملكى الى فيرونا على الحدود الشمالية ، وما تزال صورة قصره مرسومة على عملة باقية الى الآن ، وتمثل أقدم وأصدق طراز لفن المعمار القوطى •

وهاتان العاصمتان بالإضافة الى بافيا ، وسبوليتو ، ونابولى ، وبقية المدن الإيطالية ، زينت فى عهده بالكنائس ، والحمامات ، والأروقة ، والقصور وكلها زينات نافعة أو رائعة ، غير أن سعادة أفراد الرعية كانت أكثر وأصدق ظهورا ، فى انهماكهم فى العمل والتشرف معا ، وفى سرعة زيادة الثروة القومية ، والجرأة على الاستمتاع بها ، فقد ظل أعضاء السناتو يهرعون فى الشتاء من ظلال التيبر وبرانست الى الشمس الدفيئة ، والينابيع الصحية فى مدينة بايه **Baiae** ، وكانت (فلاتهم) القائمة على حواجز حجرية صلبة ، تبرز فى خليج نابولى ، وتشرف على مختلف مناظر السماء والأرض والماء • وعلى الجانب الشرقى من بحر الادرياتيک أقيمت كمبانيا الجديدة فى ولاية استريا الجميلة الياينة التى كان يصلها بقصر رافنا طريق ملاحى سهل طوله مائة ميل ، وكانت منتجات لوكانيا والولايات المجاورة يتبادلها الناس الى جوار نافورة ماركيليا ، فى سوق مزدحمة تخصص سنويا للتجارة ، والمرح ، والخرافة ، وفى مدينة كوموم **Comum** المنعزلة ، التى أقام فيها العالم الرومانى بلىنى **Pliny** فيما مضى ، وأضفى عليها من عبقريته الرقيقة ، كان لا يزال هناك غدير شفاف طوله أكثر من ستين ميلا يعكس ماؤه منظر المقاعد الريفية التى أحاطت بحافة بحيرة لاريا • وكانت منحدرات التلال المدرجة مغطاة بمزارع الزيتون ، والكروم وأشجار البلوط ، وازدهرت الزراعة فى ظل السلام والهدوء ، وتضاعف عدد الفلاحين بعد أن افتدى

(١) نحات يونانى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد - (الترجمة) •

الأسرى (١) . واكتشفت فى عناية مناجم الحديد فى دالماشيا ، ومنجم الذهب فى بروثيوم ، كما جفت مستنقعات بومبتين ، ومستنقعات سبوليتو ، وتولى زراعتها أناس على حسابهم الخاص يتوقف ربحهم البعيد على استمرار الرخاء العام . وعندما كان الانتاج يقل فى بعض الفصول ، كانت تتخذ احتياطات غير مؤكدة النتائج ، كفتح حوانيت للقمح وتحديد الأسعار ، وحظر التصدير ، وكلها تثبت على الأقل أن الدولة تعمل للخير .

غير أن ما أنتجه الشعب المجد العامل من تربة البلاد الصالحة أوجد فى البلاد وفرة غير عادية بحيث كان جالون النبيذ يباع فى إيطاليا أحيانا بأقل من ثلاثة فاردينج (أصغر عملة إنجليزية وتعادل ربع البينسى) ، والريح من القمح بما يقرب من خمسة شلنات ونصف ، ولا شك فى أن بلدا يملك مثل هذه الأشياء الكثيرة الثمينة التى تصلح للتبادل ، سرعان ما اجتذب اليه تجار العالم ، وكانت روح ثيودوريك الكريمة المتحررة تشجع تلك التجارة النافعة وأعيد ، بل زيد ، الاتصال الحر بين الولايات عن طريق البر والبحر ، وكانت أبواب المدينة تظل مفتوحة نهارا وليلا ، وشاع هناك القول بأن فى مقدور الإنسان أن يترك وهو آمن كيسا من الذهب فى الحقول ، وفى هذا القول تعبير عن شعور السكان بالأمن والطمأنينة .

أريوسية ثيودوريك

لا شك فى أن اختلاف الديانة ضار دائما بما هنالك من اتساق وانسجام بين الحاكم والشعب ، وكثيرا ما يقضى على ذلك الانسجام ، ولقد نشأ الفاتح القوطى على عقيدة أريوس ، بينما كانت إيطاليا تدين بعقيدة نيقيا ، غير أن ايمان ثيودوريك لم تلوثه الغيرة والحساس ، وكان متمسكا بهرطقة آبائه دون أن يتلمز الى وزن الحجج الدقيقة الخاصة بالميتافيزيقا اللاهوتية ، وقد قنع بتسامحه الشخصى مع أبناء الطائفة الأريوسية ، واعتقد بصدق أنه خارس العبادة العامة ، وربما كان احترامه الظاهرى لعقيدة خرافية يحترقها من الأمور التى غذت فى عقله شيئا من عدم الاكثيرات المفيد الذى هو من شيم السياسة أو الفلاسفة ، وقد اعترف

(١) خلاص القديس ابيفانيوس St. Epifanius من أهل بافيا ، بالصلوات او القدية ، ستمائة من الأسرى من البرجنديين فى ليون وساقوى ، ومثل هذه الأعمال هى أحسن المعجزات .

الكاثوليك في بلاده ، ربما على غير رغبة منهم ، بأن الهدوء يظل كنيستهم ، وكان رجال الدين منهم يلقون الحفاوة والتكريم في قصر ثيودوريك ، بقدر مقامهم وجدارتهم . وكان الملك يبجل قدسية الأحياء منهم ، مثل سيزاريوس أسقف آدل الأرثوذكسي ، وابيفانيوس أسقف بافيا ، وقدم قربانا لاثقا علي قبر القديس بطرس ، دون أن يهتم بالاستفسار عن عقيدة ذلك الرسول ، وسمح للمقربين اليه من القوط ، حتى أمه ، بأن يحتفظوا بعقيدة أثناسيوس أو يعتنقوها ، ولم يحدث في عهده الطويل أن كاثوليكيا إيطاليا واحدا تحول الى دين الفاتح ، طواعية أو كرها ، وازدادت القوة الروحية بين الشعب ، وبين المتبربرين أنفسهم ، بفضل عظمة العبادة الدينية ونظامها ، وتعلم الحكام أن يجموا الحصانات العادلة التي كانت لرجال الكنيسة وممتلكاتها ، وكان الأساقفة يعقدون مجالسهم الكنسية ورؤساء الأساقفة يمارسون سلطتهم القضائية ، كما أن امتيازات أماكن العبادة ظلت كما هي أو خفت وفق روح الفقه الروماني . والى جانب أن ثيودوريك كان حامى الكنيسة ، فانه أصبح صاحب السيادة الشرعية عليها ، وبفضل ادارته الحازمة استعادت الكنيسة أو اكتسبت بعض الامتيازات المفيدة التي كان أباطرة الغرب الضعفاء قد أهملوها . ولم يغب عنه ما كان هنالك من مكانة وأهمية للحبر الروماني الذي أطلق عليه الآن الاسم المبجل « البابا » ولا شك في أن السلام أو الاضطراب في إيطاليا قد يتوقف على أخلاق أسقف ثرى له مكانته بين الناس ، أسقف له مثل هذا السلطان العظيم في السماء وفي الأرض ، أسقف أعلن مجلس كنسي كبير العدد أنه طاهر من كل خطيئة ، ومعنى من كل حكم ، وعندما حدث تنازع على كرسي القديس بطرس بين سيماخوس ولورانس ، دعاهما الملك الآريوسى الى المثل أمام محكمته ، وهناك أقر انتخاب المرشح الأعظم جدارة أو الأكثر طاعة ، وفي نهاية حياته ، وفي لحظة غيرة وسخط ، منع الرومان من الاختيار ، بأن عين بابا في قصر رافنا ، وبهذا كبج في لين ورفق خطر الانقسام وما يقترب به من صراعات حادة ، وكان آخر قانون أصدره السناتو يهدف ، اذا أمكن ، الى القضاء على ما كان يعتور الانتخابات البايوية من فساد الرشوة المغيب .

لقد أطلت الحديث في سرور عن الحالة السعيدة التي حظيت بها إيطاليا ، غير أن خيالنا يجب ألا يذهب بنا سريعا الى الاعتقاد بأن الغزو القوطى قد حقق في البلاد عصر الشعراء الذهبى ، عصر جنس من الناس

لا تشوبهم رذيلة ، ولا يشعرون بشقاء ، فالمنظر الجميل كانت تزحف عليه السحب فى بعض الأحيان ، وحكمة ثيودوريك كانت تنخدع ، وسلطته كانت تقاوم ، كما أن سنوات عمره الأخيرة لوئتها كراهية الشعب ، ولطخها دم النبلاء ، ولقد أغرته العجرفة التى تملكته فى بادئ الأمر فور انتصاره ، على حرمان فريق أدواكر كله من حقوق المجتمع المدنية ، بل ومن حقوقه الطبيعية ، ولو أنه جانبه التوفيق ، وفرض ضريبة بعد كوارث الحرب لقضى على الزراعة الناشئة فى إقليم ليجوريا ، ولو أنه استولى استيلاء صارما على القمح المخصص لاغاثة الشعب لضاعف بذلك من محنة إقليم كامبانيا ، غير أن هذه المشروعات الخطيرة حالت دون اتمامها قدرة وفصاحة ابيفانيوس وبوييتيوس اللذين نجحا فى الدفاع عن قضية الشعب فى حضرة ثيودوريك نفسه . ولكن اذا كانت أذن الملك مفتوحة لاستقبال صوت الحق ، فليس من المستطاع دائما أن يكون هناك قديس وفيلسوف الى جوار آذان الملوك . فكثيرا ما أسى استغلال المقام ، أو الوظيفة ، أو الخطوة ، من جراء خداع الايطاليين وعنف القوط ، وتجلي جشع ابن شقيق الملك علانية ، ففى مبدأ الأمر اغتصب أملاك جيرانه التسكانيين ظلما وعدوانا ، ثم أعيدت اليهم بعد ذلك . وكان هناك فى قلب ايطاليا مائتا ألف من المتبربرين الذين كانوا يعتبرون مصدر خوف وفزع ، حتى بالنسبة لسيدهم ، وتحمل هؤلاء على مضض قيود الأمن والنظام ، وكانوا يسببون الاضطراب دائما بمشيتهم العسكرية ، ويكافأون عليها فى بعض الأحيان ، وعندما كان من الخطورة أن يعاقبوا على نزوات ضراوتهم التى جبلوا عليها بلادهم ، كان من الحكمة أن يتغاضى عنها . وعندما تساهل ثيودوريك وتجاوز عن ثلثي الخراج الذى كانت تدفعه ليجوريا ، تنازل بايضاح مصاعب موقفه ، وأبدى أسفه للأعباء الثقيلة الحتمية التى فرضها على رعاياه من أجل الدفاع عنهم . ولم يكن مستطاعا أبدا أن يرضى هؤلاء الرعايا الجاحدون من صميم قلوبهم عن أصل الفاتح القوطى أو عن ديانتته ، أو حتى عن فضائله ، فنسوا الكوارث الماضية ، وزاد هناؤهم الحالى من حدة احساسهم بما هنالك من إساءات أو بما يظنون أنه إساءة .

وحتى التسامح الدينى الذى كانت اشاعته فى العالم المسيحي فخرا ومجدا لثيودوريك كان شيئا يؤلم حماس الايطاليين للمعتقد الصحيح ويسئ اليه . ولقد احترموا هرطقة القوط المستندة الى قوة السلاح ، غير أنهم وجهوا غضبهم الدينى وهم آمنون نحو اليهود العزل الأغنياء

الذين كانوا قد استقروا في نابولي وروما ورافنا وميلان وجنوة سعيًا وراء
المنفعة التجارية وتحت حماية القوانين فتعرضت أشخاصهم لللاهانة ،
وممتلكاتهم للنهب • ومما بهم للحريق ، على أيدي سكان رافنا وروما
الساثرين الذين أشعلت النار في صدورهم ادعاءات أكثر ما يكون استهتارا
أو تطرفا ، ولا شك في أن الحكومة لو أنها أهملت هذا الاضطراب
لاستحقت أن تصاب به ، ومن ثم فقد أجرى على الفور تحقيق قانوني ،
ولما كان مثيرو الشغب قد تواروا وسط الجمهور ، فقد حكم على
المجتمع كله بأن يصلحوا الأضرار التي وقعت ، أما المتعصبون للدين ،
الذين رفضوا الاسهام في دفع التعويضات ، فقد جلدوا في الشوارع
بيد الجلاد • وأثار هذا العمل البسيط العادل نائرة الكاثوليك الذين
هللوا لما اتصف به هؤلاء القساوسة المقدسون من فضيلة وصبر ،
فارتفعت الأصوات من فوق ثلاثمائة منبر تأسف لاضطهاد الكنيسة ،
وإذا كانت كنيسة القديس اسطفان قد هدمت بأمر من ثيودوريك ،
فمن المحتمل أنه حدث في ذلك المكان المقدس معجزة تسيء الى اسمه
ومكانته • وقد اكتشف ملك ايطاليا في نهاية حياة مجيدة أنه أثار كراهية
شعب عمل جاهدا على تحقيق سعادته ، فامتلات نفسه بالآلام السخط
والغيرة ، ومرارة الحب المحجود ، وعمد الفاتح القوطي الى تجريد أبناء
ايطاليا الجبناء من أسلحتهم ، وخطر كل الأسلحة التي يمكن أن
تستخدم في العدوان ، فيما عدا مطواة صغيرة ينتفع بها في الشئون
المنزلية ، وقد اتهم منقذ روما بالتآمر مع أخط المخبزين على حياة أعضاء
السناتو ، الذين اشتبه في أنهم على اتصال سرى خائن مع البلاط
البيزنطي ، وبعد موت أناستاسيوس كان تاج الامبراطور قد وضع
على رأس رجل عجوز ضعيف ، غير أن سلطات الحكم اضطلع بها ابن
شقيقه جستينيان ، الذي كان اذ ذاك يفكر فعلا في استئصال الهرطقة
وغزو ايطاليا وأفريقيا • فأصدر في القسطنطينية قانونا صارما يهدف الى
اخضاع الآريوسيين الى سلطة الكنيسة ، والا تعرضوا للعقاب ، وأثار هذا
القانون ، سخط ثيودوريك الذي كان يطالب لآخوته المنكوبين في الشرق
بنفس التسامح الذي منحه هو تلك المدة الطويلة لكاثوليك بلاده ، فأصدر
أمرا حازما صريحا الى الحبر الروماني بأن يرحل الى القسطنطينية مع أربعة
من أعضاء السناتو اللامعين ، في مهمة كان يخشى فشلها أو نجاحها سواء
بسواء • وقد استقبل أول بابا يزور تلك المدينة باحترام فريد ، غير أن
ملكه ثيودوريك ، استشعر من ذلك غيرة دفعته الى عقابه على ما اعتبره
جرما • ومن الطبيعي أن الرفض الصريح القاطع ، أو الملتوى ، الذي جاء
من البلاط البيزنطي كان مبررا لاجراء انتقامي يساويه ، ويثير اجراء أوسع

نطاقا ، ومن ثم فقد أعد في إيطاليا أمر عال يقضى بحظر ممارسة العبادة الكاثوليكية بعد يوم معين ، وهكذا أدى تعصب رعايا ثيودوريك ، وتعصب أعدائه الى دفع أكثر الملوك تسامحا الى حافة الاضطهاد ، وطالت حياة ثيودوريك أكثر مما ينبغي لأن العمر امتد به حتى أذان فضيلة بويثيوس وسيماخوس .

اعدام بويثيوس

كان عضو السناتو بويثيوس آخر روماني يستطيع كاتو Cato أو تلي Tully أن يعترف به رجلا من بنى وطنه ، ولقد نشأ هذا الرجل طفلا يتيما ورث أملاك أسرة أنيكيا وأمجادها ، وكان اسم هذه الأسرة يفاخر به ملوك وأباطرة ذلك العصر ، وكان لقب مانليوس Manlius يؤكد انحدره الحقيقي أو الخرافي من سلالة قناصل وحكام بأمرهم ، استطاعوا صد الغاليين عن الكابيتول ، وضحو بأبنائهم من أجل اقرار النظام في الدولة ، وعندما كان بويثيوس في ريعان شبابه لم تكن دراسات روما قد أهملت تماما ، اذ ما يزال هناك الآن مؤلف من مؤلفات الشاعر الروماني فرجيل صححته يد أحد قناصل ذلك العهد . كما أن أساتذة النحو والبلاغة Rhetoric وعلم الفقه ظلوا محتفظين بامتيازاتهم ومعاشاتهم بفضل سخاء القوط وكرمهم . غير أن تمكنه من اللغة اللاتينية لم يكن كافيا لاشباع فضوله المتقدم ، ويقال انه قضى ثمانية عشر عاما من الدراسة الجادة في مدارس أثينا لقي فيها عوناً من حماس بروكليوس Proclus وتلاميذه ، ومن علمهم ومثابرتهم . ومن حسن الحظ أن عقل تلميذهم الروماني وتقواه لم يصابا بعدوى الغموض والسحر التي لوثت أدغال « الأكاديمية » ، غير أن بويثيوس تشرب روح الأموات والأحياء من أساتذته وقلد أسلوبهم ، أولئك الأساتذة الذين حاولوا التوفيق بين قوة روح أرسطو ودقتها ، وبين التأمل الورع ، والخيال الرائع اللذين اتسم بهما أفلاطون ، وبعد عودته الى روما وزواجه من ابنة صديقه النبيل سيماخوس ، ظل يواصل الدراسات نفسها في قصر من العاج والرخام ، وغذى الكنيسة بدفاعه العميق عن العقيدة الأرثوذكسية الصحيحة ضد هرطقات آريوس ويوتيكيوس ونسطور ، وفسرت الوحدة الكاثوليكية أو عرضت في بحث كتبه ثلاثة أشخاص مختلفين وان كانوا جميعا من المؤمنين بعقيدة وحدة الجوهر ، دون أن يكون هناك أى ضغط عليهم نحو ذلك الاتجاه ، ومن أجل منفعة قرائه اللاتينيين استخدم عبقريته في تعليم المبادئ الأولى لفنون اليونان وعلومهم ، ولقد ترجم وشرح هذا السناتور الروماني بقلم

لا يعرف الكلل هندسة أفليدس ، وموسيقى فيثاغورس ، وحساب نيقوماخوس ، وميكانيكا أرشميدس ، وفلك ، ولاهوت أفلاطون ، ومنطق أرسطو مع تعليق بورفيرى . وكان هو وحده يعتبر كلها ، لوصف عجائب الفن ، كالمزولة ، أو الساعة المائية ، أو الدائرة التى تمثل حركات الكواكب ، ومن هذه الأفكار الغامضة نزل بويثيوس ، أو بعبارة أصدق ارتفع الى الواجبات الاجتماعية المتعلقة بالحياة العامة والخاصة ، فأغاث المعوزين بسخائه ، واستغل فصاحته ، التى قد يشبهها المثلقون بصوت ديموستين أو شيشرون ، فى تأييد قضية الانسانية وطهارة الذيل . ولقد أحس الملك الحصيف بهذه الفضائل البارزة وكافأه عليها . فأضفى على مكانته ما يجعلها ، بمنحه لقب القنصل و لقب النبيل ، واستغل مواهبه استغلالا نافعا فى المنصب الهام الذى أسنده اليه ، وهو منصب رئيس الديوان . ورغم تكافؤ حقوق الشرق والغرب ، فقد عين ولداه ، وهما فى مستهل الشباب ، قنصلين فى سنة واحدة ، وفى ذلك اليوم المشهود الذى توليا فيه ذلك المنصب تقدما فى موكب مهيب من قصرهما الى ساحة روما وسط تهليل السناتو والشعب ، وكان والديهما ، قنصل روما الأصيل ، فرحا يفيض بالبشر ، وبعد أن ألقى خطابا أطرى فيه مولاة الملك الكريم وزع هبات الظفر والنصر فى ساحة ألعاب (السيرك) ، وربما جاز اعتبار بويثيوس سعيدا موقفا اذ وأتته الشهرة والثروة ونال المناصب العامة ، وعقد الصداقات الخاصة واستطاع تنمية العلم ، وأحس بما فيه من فضيلة ، ربما جاز اعتباره سعيدا ، لو أن هذه الصفة المزعجة ، صفة السعادة ، يمكن أن تصدق على انسان قبل الفترة الأخيرة من حياته .

ولقد كان بويثيوس جوادا بماله ضنيانا بوقته ، ولم يتأثر بسفريات الطمع العادية ، وهى التعطش الى الذهب والمنصب . وربما كان بعض الفضل فى ذلك راجعا الى أنه قد أكد تأكيداً قويا أنه مرغم على طاعة المعلم الجليل أفلاطون الذى يحتم على كل مواطن فاضل أن ينقذ الدولة من أن تغتصبها الرذيلة والجهالة ، وكانت ذكرى بلاده تبهث النزاهة فى مسلكه العام ، وقد استخدم سلطته فى كبح كبرياء موظفي الملك واستبدادهم ، كما أن فصاحته أنقذت يوليانوس من أوغاد القصر ، ونقد كان يرثى دائما لمحنة سكان الولايات ، وكثيرا ما أغاثهم منها ، لأن ثروات هؤلاء الناس قد استنزفها النهب العام والخاص ، وكان بويثيوس وحده هو الذى يملك من الشجاعة ما يمكنه من مقاومة طغيان البرابرة الذى ضاعفه الغزو وأثاره الجشع ، وأصبح التجاوز عنه موضع شكواه . وفى هذه النزعات الشريفة كانت روحه تعلو على اعتبارات الخطر ، وربما اعتبارات الفتنة والحرص ، وقد نتعلم من المثل الذى ضربه كاتو أن

الشخصية التى تتسم بالفضيلة النقية الصلبة هى أكثر الشخصيات قابلية لأن يضلها التحيز ، ويثيرها الحماس ، ولأن تخلط بين العداوات الشخصية وبين العدالة العامة ، ولابد أن تلميذ أفلاطون قد بالغ فى عجز الطبيعية البشرية ونقائص المجتمع . وكان أرق شكل لمملكة قوطية ، وحتى ثقل الولاء وعرفان الجميل ، لابد أن هذا وذاك كانا من الأمور التى لا تتحملها روح وطنى رومانى حرة ، غير أن حظوة بويثيوس وولاه تدهورا بنفس النسبة التى تدهورت بها رفاهية الشعب ، وفرض الملك على رئيس ديوانه زميلا تافها يقتسم معه سلطته ويتحكم فيها . وفى الفترة المظلمة الأخيرة من عهد ثيودوريك شاعر بويثيوس فى غضب وسخط أنه أصبح عبدا ، ولكن لما كان سيده لا يملك إلا سلطانا على حياته ، فقد وقف ، دون سلاح ودون وجل ، فى مواجهة بربرى غاضب أصبح يعتقد أن سلامة السناتو لا تتفق مع سلامة شخصه . وقد اتهم عضو السناتو ألبينوس ، وحكم عليه فعلا ، بناء على الظن بأنه ، كما قيل ، كان « يأمل » فى أن تحصل روما على حريتها ، وفى هذا الشأن قال الخطيب بويثيوس : « اذا كان ألبينوس مجرما ، فانى وأعضاء السناتو نعتبر مذنبين لأننا اقترفنا الذنب نفسه . واذا كنا بريئين ، فان من حق ألبينوس أيضا أن تحميه القوانين » .

وهذه الرغبة البسيطة العقيمة فى نعمة مستحيلة التحقيق كان من الممكن ألا تصبح موضع مؤاخظة هذه القوانين ، غير أن هذه القوانين نفسها كان لابد أن تكون أقل تسامحا مع الاعتراف المتسم بالتهور الذى صرح به بويثيوس ، وهو أنه لو كان قد عرف بوجود مؤامرة لما أطلع الطاغية عليها . وسرعان ما اعتبر بويثيوس ، محامى ألبينوس ، شريكا فى الخطر المحيق بعميله ، وربما اعتبر شريكا فى ذنبه . فوضع توقيعاهما (اللذان أنكرهما ودفعا بأنهما مزوران) على الخطاب الأصلى الذى يدعو الامبراطور الى انقاذ ايطاليا من القوط ، وجيء بثلاثة شهود من أصحاب المراكز المحترمة ، وربما من أصحاب السمعة السيئة ، فشهدوا بصحة الخطط الخائنة التى وضعها النبيل الرومانى . ومع ذلك فمن الواجب أن نفترض براءته لأن ثيودوريك حرمة من الوسيلة التى يستطيع بها تبرير موقفه وسجنه فى برج بافيا ، بينما كان السناتو ، على مسافة خمسمائة ميل ، يصدر حكما بالمصادرة والموت على ألع أعضائه وأعظمهم قدرا ، وبمقتضى أوامر البرابرة دمغ ما كان يتصف به الفيلسوف

من علم غامض بأنه سحر وانتهاك للمقدسات (١) . وهكذا أدان أعضاء السناتو أنفسهم بأصوات مرتجفة تعلق بويثيوس بالسنانو تعلقا يتسم بالورع والامتنال ، على أنه عمل إجرامى ، واستحق نكرانهم للجميل تلك الرغبة أو النبوة التى عبر عنها بويثيوس بقوله ان أحدا من بعده لن يرمى باقتراف الذنب نفسه .

وخلال الفترة التى كان فيها بويثيوس مثقلا بالأغلال فى برج بافيا وينتظر فى كل لحظة حكم الموت أو ضربته ، ألف كتاب « عزاء الفلسفة » Consolation of Philosophy وهو سفر جليل جدير بأن يجد فيه أفلاطون أو تلى Tully متعة فى أوقات فراغهما ، غير أن همجية العصر الذى كتب فيه ، والوضع الذى كان فيه مؤلفه يجعلانه سفرا لا يدانيه فى ميزته كتاب آخر . وقد استرشد فيه بالهداية السماوية التى طالما ابتهل إليها طويلا فى روما وأثينا ، والتى هبطت عليه الآن لتضى له سجنه ، وتبعث فيه شجاعته ، وتمسح جروحه ببلسمها الشافى . وقد علمته أن يقارن بين رفاهيته الطويلة السابقة ومحنته الحالية ، وأن ينتظر من تقلبات الحظ آمالا جديدة . وكان العقل قد هداه الى أن هباتها لا تثبت على حال ، وأقنعتة التجربة بقيمها الصحيحة ، فهو قد استمتع بها فى براءة ، وعليه الآن أن يودعها غير أسف عليها ، وأن يحتقر فى هدوء ما يضره له أعداؤه من ضغينة عاجزة ، فهم قد تركوا له السعادة اذ تركوا له الفضيلة . وقد خلق بويثيوس فى أجواز السماء باحثا عن الخير الاسمى ، واكتشف المتاهات الميتافيزيقية لموضوع الحظ والقدر ، وموضوع الجبرية والاختيار ، وموضوع الزمن والأبدية ، وحاول بصورة كريهة أن يوفق بين صفات الكمال التى يتسم بها الآلهة وبين ما يبدو على حكمه المادى والمعنوى من اضطراب . ولا شك فى أن مثل هذه الموضوعات المغرية ، سواء أكانت واضحة ، أم غامضة ، أم مبهمة فانها عديمة الجدوى فى التغلب على مشاعر الطبيعة البشرية . غير أن المجهود الفكرى قد يصرف صاحبه عن الاحساس بالمحنة ، ومن ثم فإن ذلك الرجل الحكيم ، بويثيوس ، الذى استطاع فى براءة أن يجمع فى مؤلف واحد مختلف نقائس الفلسفة ، والشعر ، والبلاغة لابد أنه امتلك ذلك الهدوء المتسم بالشجاعة الذى اتجه الى البحث عنه . وأخيرا أنهى رسل الموت حالة الانتظار التى كان فيها ، وهى أسوأ الشرور والبلايا ،

(١) حدث تحقيق شديد فى جريمة المسح . وكان المعتقد ان كثيرا من المسحرة امكنهم الهرب من سجونهم بأن اصابوا حراسهم بالجنون . واتى افضل استعمال لفظ (السكر) بدلا من لفظ الجنون ، اى أنهم كانوا يسقونهم حتى يشملوا ثم يهرون .

فنفذوا فيه ، وربما تجاوزوا ، أمر ثيودوريك المتنافي للانسانية . ذلك أنهم طلقوا عنقه بحبل متين ، وضيقوه عليه حتى برزت عيناه من مقلتيهما ، وربما أبدوا نحوه بعض الشفقة عندما ساموه عذابا أقل ، وضربوه بالهراوات حتى لفظ أنفاسه . غير أن عبقريته بقيت بعد موته ترسل شعاعا من المعرفة على أظلم عصور العالم اللاتيني . وترجم أعظم ملوك الانجليز كتابات هذا الفيلسوف ، ونقل ثالث امبراطور يسمى باسم أوثر Otho عظام القديس الكاثوليكي الى مقبرة أكثر تكريما واحتراما ، ذلك القديس الذى حصل من مضطهديه الآريوسيين على أمجاد الاستشهاد وشهرة المعجزات (١) . وفى الساعات الأخيرة من حياة بويثيوس وجد بعض العزاء فى أن ولديه ، وزوجه ، ووالد زوجه ، سيماخوس المحترم المبجل كانوا فى خير وأمان . غير أن حزن سيماخوس لم يتسم بالحكمة ، وربما كان خلوا من الاحترام ، فقد اجترأ على اظهار حزنه على موت صديق أصيب ، وتجاسر على طلب الانتقام له ، فجروه مقيدا بالسلاسل من روما الى قصر رافنا ، ولم تهدأ مخاوف ثيودوريك وريبه الا بدم ذلك الشيخ البريء عضو السناتو .

موت ثيودوريك

سوف تميل الانسانية الى تشجيع أية قصة تشهد بحكم الضمير وندم الملوك ، وليس بخاف على الفيلسفة أن قوة الخيال المضطرب وضعف الجسم المعتل كفيلا فى بعض الأحيان بخلق أفظع الأشباح وأكثرها هولا . فبعد حياة فاضلة مجيدة أصبح ثيودوريك للآن فى طريقه الى القبر وسط العمار والاثم ، تذلل عقله مقارنة حاضره بماضيه وتزعج نفسه بحق أهوال المستقبل غير المنظورة . ويحكى أنه فى أمسية من الأمسيات كان يتناول عشاءه على مائدته الملكية ، حيث قدمت اليه رأس سمكة كبيرة ، فما كان منه الا أن قال متعجبا انه يشاهد سحنة سيماخوس الغاضبة المتجهمة ، ويرى عينيه تلمعان بالغضب والانتقام ، وفمه مسلحا بأسنان

(١) البابا العالم سلفستر الثانى ، معلم أوثر الثالث ، هو الذى ألف ما كتب على مقبرته الجديدة ، وهذا البابا وصفه جهل ذلك العصر بأنه ساحر ، شأنه فى ذلك شأن بويثيوس نفسه . ولا شك فى أن الشهيد الكاثوليكي أبدى الكثير من التهور ، غير أن سيده اعرفها قد لاحظت فى قصة مماثلة « أن الشوط فى هذا المقام ليس كبير الأهمية ، فالخطوة الأولى هى التى لها وزنها » (مدام دى فان Madame du Deffand ، وكانت تتحدث عن المعجزة المائلة التى فعلها القديس دنيس St. Denis - د.م.ل) .

حادة طويلة تهدد بافتراسه . فانسحب الملك على الفور الى غرفته ، وبينما كان راقدا على فراشه يهزه الألم والعذاب هزا عنيفا ، ويشعر بقشعريرة تحت ثقل من الأغطية ، قال لطبيبهِ البيديوس Elpidius انه نادم نلما عميقا على قتل بويثيوس وسيماخوس . ثم اشتدت وطأة المرض عليه ، وبعد أن أصيب بمرض الدوسنتاريا ثلاثة أيام ، وافته منيته في قصر رافنا ، في السنة الثالثة والثلاثين من حكمه ، أو في السنة السابعة والثلاثين . اذا حسبنا حكمه ابتداء من غزوه إيطاليا . وعندما شعر باقتراب أجله قسم أمواله وولاياته بين حفيديه ، وجعل نهر الرون حدا مشتركا بينهما . فأعاد أمالاريك الى عرش أسبانيا ، وأوصى بإيطاليا وكل فتوحات القوط الشرقيين الى أثالاريك ، الذي لم يزد عمره على عشرة أعوام ، ولكنه كان طفلا معززا على اعتبار أنه آخر ذكر في سلالة أسرة أمالي Amali من زواج قصير الأمد بين أمه أمالاسوندا ولاجيه ملكي من الأسرة نفسها . وفي حضرة الملك المحتضر أقسم رؤساء القوط والحكام الإيطاليون بسين الولاء والاخلاص للأمير الصغير ولأمه الوصية عليه ، وتلقوا ، في اللحظة الرهيبة نفسها آخر نصيحة نافعة أسداها لهم ، وهي أن يحافظوا على القوانين ، وأن يجبو مجلس السناتو وشعب روما ، وأن يتعهدوا بالاحترام اللائق صداقة الامبراطور . وقد أقامت له ابنته أمالاسوندا تمثالا في مكان بارز يشرف على مدينة رافنا ، والميناء ، والشاطئ المجاور . وهناك كنيسة دائرية الشكل قطرها ثلاثون قدما ، متوجة بقبة نحتت من قطعة جرانيتية واحدة ، وفي وسطها أربعة أعمدة تحمل اثناء من حجر السماقي بداخله عظام الملك القوطي ، وتحيط به تماثيل نحاسية للثني عشر رسولا . ومن الجائز أن روحه ، بعد أن كفرت عن ذنوبها ، قد سمح لها بأن تختلط بأرواح الأبرار من بني الانسان ، لولا أن ناسكا إيطاليا شاهد رؤيا على هلاك ثيودوريك الذي ألقيت روحه بأيدي رسل الانتقام الالهى في بركان ليبارى ، وهو واحد من أفواه عالم الشياطين والأرواح الشريرة .

۱۰
 ۲۰
 ۳۰
 ۴۰
 ۵۰
 ۶۰
 ۷۰
 ۸۰
 ۹۰
 ۱۰۰
 ۱۱۰
 ۱۲۰
 ۱۳۰
 ۱۴۰
 ۱۵۰
 ۱۶۰
 ۱۷۰
 ۱۸۰
 ۱۹۰
 ۲۰۰
 ۲۱۰
 ۲۲۰
 ۲۳۰
 ۲۴۰
 ۲۵۰
 ۲۶۰
 ۲۷۰
 ۲۸۰
 ۲۹۰
 ۳۰۰
 ۳۱۰
 ۳۲۰
 ۳۳۰
 ۳۴۰
 ۳۵۰
 ۳۶۰
 ۳۷۰
 ۳۸۰
 ۳۹۰
 ۴۰۰
 ۴۱۰
 ۴۲۰
 ۴۳۰
 ۴۴۰
 ۴۵۰
 ۴۶۰
 ۴۷۰
 ۴۸۰
 ۴۹۰
 ۵۰۰
 ۵۱۰
 ۵۲۰
 ۵۳۰
 ۵۴۰
 ۵۵۰
 ۵۶۰
 ۵۷۰
 ۵۸۰
 ۵۹۰
 ۶۰۰
 ۶۱۰
 ۶۲۰
 ۶۳۰
 ۶۴۰
 ۶۵۰
 ۶۶۰
 ۶۷۰
 ۶۸۰
 ۶۹۰
 ۷۰۰
 ۷۱۰
 ۷۲۰
 ۷۳۰
 ۷۴۰
 ۷۵۰
 ۷۶۰
 ۷۷۰
 ۷۸۰
 ۷۹۰
 ۸۰۰
 ۸۱۰
 ۸۲۰
 ۸۳۰
 ۸۴۰
 ۸۵۰
 ۸۶۰
 ۸۷۰
 ۸۸۰
 ۸۹۰
 ۹۰۰
 ۹۱۰
 ۹۲۰
 ۹۳۰
 ۹۴۰
 ۹۵۰
 ۹۶۰
 ۹۷۰
 ۹۸۰
 ۹۹۰
 ۱۰۰۰

1. *Journal of the American Medical Association*, 1997; 277: 1033-1036.

• • • • •

عصر جتیاں

الفصل الأربعون (٥٢٧ - ٥٦٥)

حكم جستنيان • الامبراطورة تيودورا • شعب نيقية استراذ
الحرير من الصين • كنيسة اياصوفيا • القضاء على مدارس
اينا وعلى وظيفة القنصل الروماني •

ولد الامبراطور جستنيان بالقرب من اطلال ساردنيا (مدينة صوفيا
الجدية) ، في عرق وضيع مهور من المتبريرين الذين كانوا يقطنون
رقية موحدة منعزلة أطلق عليها تباعا اسم داردانيا ثم داكيا ثم بلقاريا •
وقد دبر أمر اعتلائه العرش عمه جوستين الذي اتسم بروح المغامرة ، والذي
هجر ، مع اثنين من الفلاحين من القرية نفسها ، حرفة أكثر نفعاً هي فلاحه
الأرض أو الرعي ، بغية الانخراط في سلك الجندية وخرج هؤلاء الشبان
الثلاثة - جوستين ورفيقاه - معهم قدر يسير من الزاد سيرا على الأقدام ،
متبعين الطريق العام الى القسطنطينية ، وسرعان ما انخرطوا في حرس
الامبراطور ليو Leo • بفضل قوتهم وقوامهم • وتعاقب على الفلاح
الذي اهتم له الحظ عهدان أصاب فيهما ثروة ومجد ، وأفلت من بعض
الأخطار التي كانت تهدد حياته ، مما نسب فيما بعد الى الملك الحارسي
الذي يرعى مصير الملوك ! وقد أبلى جوستين بلاء حسناً لفترة طويلة في
خروب ايزوريا Isauria (قسم من ولاية غلاطية الرومانية في آسيا
الصغرى) وفي خروب فارس ، وربما كان من الجائز ألا تخلط هذه الخدمة
الطويلة الجيلة اسم جوستين من الأندثار في زوايا النشيان ، ولكننا
كانت كغيلة بتدرجه في سلك المناصب العسكرية ، فقد ارتقى ، في مدى
خمسين عاماً ، من وظيفة تربيون الى كونت ، وإلى منصب القائد ، ثم حظي
بمهمزة السناتو ، ثم تولى قيادة الحرس الذين امتثلوا لأمره بوحشية

رئيسا لهم فى الأزمة الخطيرة التى أطاحت بحياة امبراطور أنسطاسيوس ، واستبعد عن العرش ذوو قرباه الأقوياء الذين كان هو - أى الامبراطور - قد رفعهم وأعقد عليهم الغنى والثراء ، حيث كان الخصى أمانتيوس - صاحب الأمر والنهى فى القصر - قد عقد العزم سرا على أن يخص بالتاج أكثر صناعه خنوعا وخضوعا . وضمانا لأصوات فرق الحرس وضع تحت تصرف قائدهم أموالا طائلة ليشتري بها رضاهم . ولكن جوستين خيانة منه وغدرا ، استخدم هذه الأسانيد القوية لمصلحته هو نفسه ، ولما لم يجرؤ أى منافس على الظهور فى الميدان ، فقد فاز فلاح داكيا - جوستين - بالحنة الامبراطورية حيث نال بالاجماع رضا الجنود الذين عرفوا فيه الشجاعة ودعائه الخلق ، ورضا رجال الدين والشعب الذين آمنوا بأنه أرثوذكسى مستقيم ، ورضا أهل الولايات الذين خضعوا خضوعا أعمى مطلقا لارادة العاصمة . ومن ثم ارتقى جوستين الأكبر - وهكذا يسمونه تمييزا له عن امبراطور آخر من نفس الأسرة يحمل نفس الاسم - ارتقى العرش البيزنطى وهو فى سن الثامنة والسنين . ولو أنه ترك وشأنه ليتصرف بوحى من عنده ، لتعرض رعاياه فى كل لحظة طوال سنى حكمه التسع لمغبة سيئه اختيارهم . وكان جهل جوستين يماثل جهل الامبراطور ثيودوريك . وانه لأمر مشهود جدير بالذكر أنه عاش فى عصر لم يكن خلوا من نور العلم ، عاش امبراطوران معاصران الواحد منهما للآخر (أحدهما فى الشرق والثانى فى الغرب) لم يضيا من التعليم حتى حروف الهجاء ، على أن جوستين كان أقل ذكاء من ملك القوط بكثير ، فان خبرته بوصفه جنديا لم تكن تؤهله لتولى زمام الحكم فى الامبراطورية ، ورغم ما أوتي من بسالة شخصية ، فانه كان يعرف قدر ضعفه ، وطبيعى أن يقترب هذا بالشك وسوء الظن والهواجس السياسية ، ولكن وزير المالية بروكلوس Broclos نهض بالمهام الرسمية للدولة فى يقظة واخلاص وتبنى الامبراطور الهرم ابن أخيه ، جستينيان ، بما أوتي من مواهب وطموح ، وهو شاب متطلع استنقذه عمه من براثن العزلة الموحشة فى داكيا ، وتلقى تعليمه فى القسطنطينية بوصفه وريثا لثروة الامبراطور الخاصة ، ثم للامبراطورية الشرقية فى النهاية .

ولما اغتصبت أموال الخصى أمانتيوس على هذا النحو ، كان لزاما أن يقضوا على حياته كذلك . وما كان أيسرها من مهمة ، عن طريق اتهامه بمؤامرة حقيقية أو ملفقة ، وقيل للقضاة استكمالا لخيوط الجريمة ، انه كان منغمسا فى الهرطقة المانوية (ديانة فارسية قديمة) . ومن ثم قطعت رأس أمانتيوس ، وعوقب بالموت أو النفى ثلاثة من رفاقه ، ممن كانت لهم الصدارة بين خدم القصر ، أما مرشحهم المنكود للعرش فقد ألقى به فى

غياض جب سحيق ، ورجم بالحجارة ، ثم قذف به ، بشكل مهين مرر ، الى البحر ليكون له في أعماقه مقبرة بدلا من أن يوارى على الأرض قبرا . ولكن انهيار فيتاليان - الذى كان مرشحا للحلة الامبراطورية - كان عملا شقيا وأشد خطرا . ذلك أن هذا الرئيس القوطي - فيتاليان - كسب لنفسه شعبية في الحرب التى شنها فى جراءة وبسالة أيمطاسيوس ، دفاعا عن العقيدة الأرثوذكسية ، وانتهى الأمر بفقد معاهدة تتلاءم مع أهدافه ، وظل فيتاليان على مقربة من القسطنطينية ، على رأس جيش قوى ظافر من المثبررين . واستدرج تحت اغراء الاطمئنان الواهن الى اليهود والايمن حتى تخلى عن موقعه الحصين ، وأسلم نفسه الى أحضان مدينة ، كان أهلها ، وبخاصة حزب أصحاب الحلل الزرقاء فيها ، قد أثرت خواطرهم ضده فى دهاء ، بتذكيرهم حتى بخصوصيتهم الدينية التى تنسم بالتقى ، ورضى الامبراطور وابن أخيه (جوستين وجستنيان) بوصفه المناضل المخلص الجدير بالنضال عن الكنيسة والدولة . وأسبغا على صديقهما الصفى - امتانا وعرفانا منهما - لقب القنصل والقائد ، ولكن فيتاليان ، فى الشهر السابع من توليه منصب القنصل ، أئجن بسبع عشرة طعنة فى المادية الملكية ، واتهم جستنيان ، الذى آل اليه كل الغنم ، بقتل أخ روحى كان هو (جستنيان) قد عاهده منذ عهد قريب على الاشتراك فى الأسرار المسيحية . وارتقى جستنيان - ولو لم يزعم أن له فى مجال الخدمة العسكرية أى نشاط - بعد سقوط غريمه ، الى منصب القائد الأعلى لجيوش الشرق التى كان من واجبه أن يقودها الى ميدان القتال ضد العدو العام . ولكن كان من الجائز أن يفقد جستنيان ، فى سعيه وراء الشهرة والمجد ، سيطرته الحالية على عمه الذى كان يوزح تحت وطأة الشيخوخة والضعف ، وبدلا من أن يحظى بتقدير مواطنيه ومدحهم عن طريق غنائم الحرب مع سكيثيا أو فارس ، عمد المحارب الحصيف الى الفوز برضا هؤلاء المواطنين وحبههم فى الكنائس والملاعب وفى مجلس السناتو فى القسطنطينية . وتعلق الكاثوليك بابن أخ جوستين الذى سلك بين هرطقة النساطرة وهرطقة اليوترخيين (١) طريقا ضيقا ينحصر فى أرثوذكسية قاسية متعصبة وفى الأيام الأولى من الحكم الجديد ألهب

(١) نسطوريوس Nesotrius أحد مطارنة القسطنطينية فى القرن الخامس ، وكان يقول بأن للمسيح طبيعة جسدية وأخرى الهية ، وأنهما طبيعتان متميزتان لا تتحدان . أما يوترخيس Eutyches فكان أحد مشايخ الكنيسة ، وقد عارض مذهب النساطرة بشدة ، وقال باتحاد الطبيعتين . ودمج مجمع أقيسوس ٤٥١ هذين الازدهيق واكباغهما بالهرطقة - (الترجمة) .

جستينيان وأرضي حماس الشعب إزاء ذكرى الإمبراطور المتوفى ، وبعد شقاق دام أربعين وثلاثين سنة ، حل الوئام محل الخصام بين الحبر الرومانى المزهو الغاضب وبين الإمبراطور ، وراجت بين اللاتين أبناء سارة تقيض يذكر الإجلال المقرون بالتقوى والورع الذي يكنه الإمبراطور للمقام الرسول . وملئت كنائس الشرق بأساقفة كاثوليك وقفوا أنفسهم على رعاية مصلحته ، وكسب سخاؤه رجال الدين والرهبان لجانبه ، أما الشعب فقد لفت أن يصل من أجل حاكمه الجديد ، حاكم المستقبل ، أمل العقيدة الحقنة ودعامتها وسندها . وتجلت عظمة جستينيان في بهاء احتفالاته ومشاهدته العامة وسنائها الفائقة ، وهذا أمر لا يقل في أعين الجماهير قدسية وأهمية عن مذهب نيقيا أو خلقدونية ، فقامت قدوت نفقات الاحتفال بتقلده مرتبة القنصل يمانتين وثمانين ألف قطعة ذهبية ، وظهر على الملعب في وقت مما عثرونه أسعدا وثلاثون فهدا ، وأنعم على الفائزين في سباق العربات في السيرك بعدد كبير من الخيل المطومة بوصفها هدية استثنائية وبينما ارتضى أهل القسطنطينية ، واستقبل رستائل الملوك الأجانب ، تاجر جستينيان على توثيق روابط الصداقة مع السناتو ، فإن هذا الاسم الموقر السناتو كان فيض يبدو ، يؤهل أعضائه للتصير عن شهور الألفه ، وتنظيم ارتقاء المعوش الإمبراطورى . وكان ضعف أنسطاسيوس في هذا السلطة الحكومية أن تضمحل إلى مجرد شكل الأرستقراطية أو جوهرها ، وسار وراء القادة العسكريين الذين خطوا بمرتبة السناتو حراسهم المخلصون ، وهم عشتابة من الجنود القدامى المحنكين كافة أسلحتهم أو حبيباتهم تقوى في صناعة الشعب والصحف مهير تاج المشرق . وبددت أموال الدولة في المرافق في تسهيل الحصول على أصوات شيوخ السناتو ، ونقلت إلى الإمبراطور جوستين وغتهم الاجتماعية في أن يرتضى جستينيان شريكا له في السيادة الإمبراطورية ، ولكن هذا المطلب الذي كان من الواضح أنه نذير باقتراب نهايته لم يلق قبولا لدى الإمبراطور الهوم الحقود الراغب في استعادة سلطة كان عاجزا عن ممارستها . ومن ثم فإن جوستين الذي كان يعرض على الحلة الإمبراطورية بالنواجذ ، أشار على أعضاء السناتو ، طالما كان الانتخاب عملية مريبة ، بأن يتخيروا مرشحا أكبر سنا (من جستينيان) وعلى الرغم من هذا اللوم والتأنيب ، تقدم السناتو فأضفى على جستينيان اللقب الملكى Nobilissimus ، وصدق العم (جوستين) على هذا القرار بوحى من حبه لابن أخيه أو تخوفه منه . وتطلب الهرال الذي أصاب عقله وجسمه نتيجة جرح استعصى برؤه في فخذة ، أن يكون إلى جانبه وفى أو قيم يعاونه ، ومن ثم استدعى جوستين البطريرك وشيوخ السناتو ، وفى حضرته وضع التاج ، في وقار وهيبه ،

على رأس ابن أخيه ، الذى شخص من القصر الى الملعب حيث حيثه صيحات الشعب المدوية مهتلة ومرجبة . ولم تطل حياة جوستين بعد ذلك الا نحو أربعة اشهر ولكنه اعتبر منذ اللحظة التى تم فيها هذا الاختفال ميتا فى نظر الامبراطورية التى اعترفت بجستينيان الحاكم الشرعى للشرق ، وهو فى التاسعة والأربعين من عمره .

وحكم جستينيان الامبراطورية الرومانية ، من ارتقائه العرش الى وفاته - ثمانية وثلاثين عاما وسبعة شهور وثلاثة عشر يوما . ولقد روى بروكوبيوس Procopius (سكرتير القائد البيزنطى المشهور بليساريوس - القرن السادس) ، روى فى خدق وبراعة أحدات حكم جستينيان ، تلك الأحدات التى تثير أشد مخضولتنا وانتباهنا ، لكثرة عددها وتنوعها وأهميتها ، وبروكوبيوس كاتب بليغ رفعه بيلانه التناصح الى عضوية السناو ثم الى منصب والى القسطنطينية وتبعاً لظروف التغلب بين الجراة والاقدام أو الانكماش والمثالة ، وبين المحبة والعطف أو الخزي والمعار نجد بروكوبيوس قد دون تاريخ العصر الذى عاش فيه متقلبا كذلك بين المدح والاطراء أو القذع والهجاء ، وإن الكتب الثمانية التى تناولت اطروب مع الفرس واليونان والقوط ، - والتى استكملها أجاثياس Agathius نى كتبه الخمسة (تاريخ جستينيان) - نقول ان هذه الكتب الثمانية لتستحق تقديرنا بوصفها تقليدا شاقا موقفا لكتاب اثيكنا ، أو على الأقل للكتاب الآسيويين ، كتاب اليونان القديمة . وقد جمع الحقائق التى أوردها فى تاريخه هذا من تجربته الشخصية ومن مناقشات الحرة بوصفه رجلا عسكريا ، ورجل دولة وسياسة ، وسائحا ، وكان طموحا ، وكثيرا ما حقق طموحه فى أن يرقى بأسلوبه حتى يكون جديرا بأن يوصف بالقوة والرشاقة . أما تأملاته وآراؤه - وبوجه أخص فى الخطب والأحاديث - تلك التى كثيرا ما يشتها فى كتبه ، فانها تزخر بمعين لا ينضب من المعلومات السياسية ، ويسدو أن بروكوبيوس المؤرخ الذى كان مسوقا بأمله العريض فى ادخال البهجة والسرور على الأجيال القادمة وتزويدها بالمعرفة - يبدو أنه نظر بعين الزراية والاحتقار الى أهواء الشعب والى ملق البلاط . وكان معاصرو بروكوبيوس يقرءون كتاباته ويمتدحونها . ولكن على الرغم من أنه وضعها مع الاجلال والاحترام تحت أقدام العرش ، فان الثناء على البطل الذى يزرى دوما بمجد مليكه الضامل وبيزه ، هذا الثناء لابد أنه قد جرح كبرياء جستينيان . وأذلت الآمال والمخاوف عنق التابع الذليل - بروكوبيوس - وأخضعت فيه شعوره الواعى بالاستقلال والحرية ، ومن ثم بذل الجهد ، سعيا وراء الحصول على الصفع وحسن الجزاء فى كتبه الستة عن « المنجزات الامبراطورية » ، وكان قد اختار

فى حذق ومهارة موضوعا يبدو فيه رداء الجلال والفخار ، يمكنه فيه أن يبعد بأعلى صوته عبقرية الأمير وعظمته وورعه ، وهو أمير تفوق - كفاتح ومشرع ، على تيموستكليس وكورش فى شمائلهما الصبيانية . وربما دفع اليأس بالمادح المتملق الى الانتقام الخفى المستتر ، وربما عادت أول بادرة للعطف والرضا الى اغرائه الى احماد أو اخفاء وصمة هوت بكورش الرومان (جستنيان) الى طاغية ممقوت محقر ، مثل فيها ، بشكل رهيب ، كل من الامبراطور وقرينته تيودورا فى صورة شيطان على هيئة انسان ، يعملان على تدمير الجنس البشرى (١) . ولابد ، دون ريب ، أن يلوث مثل هذا التناقض الحقيق سمعة بروكوبيوس وينتقص من الثقة فيه ، ولكن على الرغم من أن الفرصة قد تهيأت لينفث سموم حقه وخبئه ، فإن القصص ، البقية الباقية من كتابه وما تضمنته حتى من أشد الحقائق عارا وفضيحة - تلك التى أشار هو الى بعضها إشارة خفيفة فى تاريخه العام - نقول ان هذه البقية الباقية قد أكدت الشواهد الداخلية أو الآثار الصادقة الناطقة لهذا العصر . ومن هذه المواد المتنوعة ساعمد الآن الى وصف عهد جستنيان الذى سوف يشغل حيزا كبيرا هو جدير به . وسأعرض فى هذا الفصل للملك الشرق . وسأعالج فى الفصول الثلاثة التالية موضوع حروب جستنيان التى انتهت بغزو أفريقيا وإيطاليا ، وسوف أتبع انتصارات بلساريوس ومارسيكس دون اخفاء ما اقترن بها من زهو وغرور أو من اغفال فضائل الأعداء ، أبطال الفرس والقوط . وتضم هذه الفصول كذلك فقه الامبراطور وجوانبه اللاهوتية ، والمشادات والمذاهب التى لا تزال تقسم الكنيسة الشرقية الى طوائف وشيع ، وأصلاح القانون الرومانى الذى تطبقه أو تنظر اليه أمم أوروبا الحديثة بعين الاحترام والاجلال (٢) .

الامبراطورة تيودورا

كان أول عمل قام به جستنيان فى ممارسة السلطة العليا ، هو أنه اقتسم هذه السلطة مع المرأة التى أحبها ، ألا وهى تيودورا الشهيرة ،

(١) يملن بروكوبيوس وأصدقائه عن تصديقهم لبعض القصص الشيطانية : جستنيان جش ، مثله فى ذلك مثل دوميتيان بالضبط - شياطين منافسون يطردون عشاق تيودورا من مخدعها - القنبؤ بزواجها من شيطان كبير - أحد الرهبان رأى ملك الجن مكان جستنيان على العرش - وقع نظر الخدم الذين كانوا يرقبون الأمور ، على وجهه لا تبدو فيه أية ملامح ، وعلى جسم بلا رأس .. الخ .

(٢) يلاحظ ان المختصر الذى بين أيدينا والذى نقلناه الى العربية حذف الفصلين

٤١ ، ٤٢ وأورد إشارة موجزة اليهما فى نهاية هذا الفصل (٤٠) - (الترجمة) .

التي لا يمكن أن تقابل ارتقاءها الشاذ الى العرش بالاستحسان والتهيل ، على أنه انتصار لفضيلة المرأة . وفي عهد انسطاسيوس كان حزب « القمصان الخضراء » يقوم على رعاية الحيوانات المتوحشة ، وقد وكل أمرها الى أكايوس Acacius وهو عبد من مواطني جزيرة قبرص اشتق لقبه من مهنته « سيد الدببة » وبعد موته ورغم نشاط أرملته التي كانت قد أعدت بالفعل زواجا لها وخلفا للمفيد الراحل ، أسندت هذه الوظيفة المشرفة الى مرشح آخر ، وكان أكايوس قد خلف وراءه ثلاث بنات هن كوميتو ، تيودورا ، أنسطاسيا ، لم تتجاوز كبرهن آنذاك السابعة من العمر ، وفي أحد الاحتفالات المهيبة دفعت الأم المكروبة الحانقة بكريماتهما اليتيمات الثلاث الى وسط المسرح في زى الضارعات المتوسلات ، فقابلهن أصحاب الحلل الخضراء بالازدراء والاحتقار ، على حين استشعر حزب الحلل الزرقاء نحوه من الشدة والرافة ، وكان لهذا التباين أثره العميق في نفس تيودورا حتى لقد أحسست به بعد ذلك بزمان طويل في ادارة الامبراطورية . وترعرعت الأخوات الثلاث وازددن فتنة وجمالا ، فانصرفن بالتتابع الى العمل في الحفلات العامة والخاصة لادخال البهجة والسرور على شعب بيزنطة ، وكانت تيودورا تظهر على المسرح بعد أختها كوميتو ، في ملابس عبد رقيق ، حاملة على رأسها كرسيها صغيرا ، ثم أجيئ لها بعد ذلك أن تظهر بمفردها لتعرض مواهبها الخاصة ، ولم تكن ترقص أو تغنى أو تعزف على الناي ، بل انحصرت مهارتها في فنون التمثيل الهزلي ، وبرعت في انتحال شخصية البهلول أو البهلوان ، وكلما انتفخت أوداج الممثلة وشكت في صوته وإشارات مضحكة من الضربات التي كانت تكال لها ، ضجج مسرح القسطنطينية بأسره بالضحك ودوى بالتصفيق الاستحسان وبات جمال تيودورا أكثر فأكثر موضوع اطراء وثناء مقرونين بالملق ، ومصدر بهجة واعتباط شديدين ، وكانت قسمت وجهها رقيقة منتظمة ، كما كانت بشرتها ، رغم شحوبها نوعا ، مشربة بلون طبيعي ، وكانت عينها امتلئتان حيوية تنم على الفور عن أى احساس يعتلج في نفسها . وتجلت في خفة حركتها مفاتن جسمها الصغير الرشيق معا . وربما قال الحب أو الملق ان التصوير والشعر عاجزان عن وصف جسمها الذي لا يبارى في روعته ، ولو أنه انتقص من قدره سهولة عرضه نهبا لأعين الجمهور ، وفسقت به كل رغبة فاجرة . وكانت مفاتها لقمة سائفة مباحة لخليط من المواطنين والغرباء من كل مرتبة وكل مهنة . وكثيرا ما طرد من مخدعها المحظي الذي هو أشد قوة وأكثر مالا ، العاشق السعيد الحظ الذي كانت قد وعدته قبلا بليلة ممتعة . وكان ينتحى عن طريقها ويتفادى لقاءها كل من يرغب في تجنب الفضيحة أو الاغراء . ولم يخجل المؤرخ الساحر المتكلم

من أن يصف المشاهد العارية التي لم تخل تيودورا من عرضها على المسرح . وكانت بعد أن تستنّفه كل أفانين اللذة الشهوانية ، كثيرا ما تتذمر أشد ما يكون التذمر من بخل « الطبيعة » ، ولكن يجدر أن تغلف تذمراتها وملذاتها وأفانينها في لغة مهذبة . وبعد أن سيطرت لبعض الوقت على عرش المرح في العاصمة كما باتت باحتقارها لها ، تنازلت بمصاحبة ايكبولس Ecebolis أحد نوابي صور ، الذي كان قد عهد إليه بحكومة المدن الخمس في أفريقية . ولكن هذا الائتلاف كان عابرا سريع الزوال ، وسرعان ما نبذ ايكبولس هذه الخيلة الكثيرة النفقة الخائنة . واشتدت بها الضائقة والكرب في الاسكندرية ، وفي طريق عودتها الشاقة الى العاصمة ، أعجبت واستمتعت كل مدينة في الشرق بالقبرصية الجميلة التي برر مزاياها انحدارها من سلالة فينوس الفريدة . وكانت في علاقات تيودورا الغامضة وتحولاتها البغيضة وقاية لها من الخطر الذي كانت تخشاه ، ومع ذلك فقد صارت أما مرة واحدة ، وواحدة فقط . وبعد أنقذ الوالد طفله وعلمه في بلاد العرب ، وأطلقه ، وهو على فرائش الموت ، على أنه ابن امبراطورة . وأصرع الشاب الذي لم يتطرق اليه الشك من فوره الى قصر القسطنطينية ، وقد امتلأت نفسه بالأمال الكبار ، وأدخل الى أمه ، ولما لم تقع عليه العين قط بعد ذلك ، حتى بعد موت تيودورا ، فقد استحققت الوصمة الشائنة بأنها دفنت ، بالقضاء على حياته ، سرا يسىء الى شمالكها الامبراطورية أيضا اساءة .

وفي يوم من آنفس أيام فقرها وسوء سمعتها رأت تيودورا فيما يرى العالم ، أو صور لها الوهم ، شبعا همس اليها مؤكدا نبا سارا ، هو أنه مقدر لها أن تكون قرينة ملك قوى ، ووعيا منها بما ينتظرها من عظمة وجلال عادت من بفلانجونيا الى القسطنطينية ، واصطنعت ، وكأنها ممثلة بارعة . شخصية أكثر حشمة ولياقة . واستعانت على سيد عوزها بعمل محمود . وهو غزل الصوف ، وتظاهرت بحياة العفة والعزلة في دار صغيرة حولتها فيما بعد الى معبد فخم ضخم ، وسرعان ما اجتذب جمالها مع شيء من الدهاء ، أو بعض الصدفة - النبيل جستنيان وسحره ، ورسخ في قلبه ، وكان جستنيان يملك آنذاك ناصية السلطة المطلقة باسم عمه (جوستين) وربما ساقط تيودورا من جانبها شيئا من الدلال لتزيد من قيمة متاع كثيرا ما كانت قد أباحت اسرافا وبدارا لأحفاد بني البشر ، أو قل انها في البداية بالتمتع المقرون بالخمر ، وأخيرا بالمغريات الجسدية - ربما أشعلت النار وأهاجت الرغبات في قلب عاشق كان يحكم طبيعته أو ولعه ، يلزم السهر ويقنع بالقليل من الغذاء . ولما خمدت فيه جذوة انشوة التي اضطرمت بين ضلوعه أول الأمر ظلت تيودورا قادرة على

الاحتفاظ بنفسى سيطرتها على عقله ، بفضل ما توافر لها من مميزات أكثر ثباتا ، تمثلت فى رقة طبعها وحسن ادراكها ، وكان يلذ له ، ان يرفع من قدر الحبيبة التى تعلق بها ويغدى عليها الثروة ، فتدفقت كنوز الشرق تحت قدميها ، واستقر رأى ابن أخ جوستين ، وربما كان ذلك نتيجة لوساوسه الدينية ، على أن يسبغ على خليلته الصفة المقدسة المشروعة ، وهى صفة الزوجية . ولكن قوانين روما كانت تحرم صراحة زواج عضو السناتو من أية امرأة حط من قدرها أصلها الوضع أو عملها فى المسرح . وأبت الامبراطورة لوبيكينا *Lupicina* (أو يوفيميا *Euphemia*) - وهى متبربرة ذات آداب رفيعة خشنة ، ولكن لا مأخذ على حسن شمائلها - أثبت أن تتخذ من عاهرة زوجة لابن أخى زوجها وحتى فجيلانشيا *Vigilantia* والدة جستنيان ، المتمسكة بالخرافات ، أوجست أشد الخيفة ، رغم اقرارها بذكاء تيودورا وجمالها ، من أن يكدر طيش تيودورا وعجبها بنفسها تقوى ابنها وسعادته . ولكن مثابرة جستنيان التى لا تلين أزالت كل هذه العقبات ، فقد ترقب ، فى صبر ، وفاة الامبراطورة ، واحترق دموع أمه التى سرعان ما انهضت تحت وطأة أحزانها وكروبها ، وسن باسم جوستين قانونا أبطل التشريع الجامد القديم ، وكما جاء فى المرسوم بالنص : فتح باب التوبة النصوح أمام النسوة التعيسات اللاتى دنسن أنفسهن على المسرح ، وأجيز لهن عقد القران المشروع على أبرز الشخصيات الرومانية . وما أن جاء المرسوم بهذا التسامح حتى تم فى أعقابها على الفور الزواج المهيىب بين جستنيان وتيودورا ، وعلا قدرها يوما بعد يوم بارتفاع شأن عشيقها ، وحالما أضفى جوسنين على ابن أخيه الحلة الامبراطورية ، أسرع بطريك القسطنطينية يضح التاج على رأسى امبراطور الشرق وامبراطورته . ولكن الأمجاد المألوفة التى كانت الآداب الرومانية الجامدة تجيزها لزوجات الأمراء ، لم تستطع أن ترضى طموح تيودورا أو تشبع غرام جستنيان وولعه . فقد أجلسها على العرش بوصفها شريكا متكافئا مستقلا فى السيادة على الامبراطورية . وفرض على حكام الولايات تادية يمين الولاء لجستنيان وتيودورا معا . وخرت دينا الشرق راكعة أمام عبقرية ابنة أكايوس وحظها . ذلك أن العاهرة التى دنست مسرح القسطنطينية أمام جمهور لا يحصى من النظارة ، احتفى بها الآن ، بوصفها ملكة ، وفى نفس المدينة ، القضاة والحكام العظام ، والأساقفة الأرثوذكس والقواد الظافرون والملوك الأسارى (١) .

(١) « وإذا ما رقت مدارج العظمة ، فإن الناس لن يعودوا يرون أصلها الوضع » . لولا نظرة واربرتن *Werberton* الناقدة ، لما قدر لى أن أرى فى هذه الصورة العامة لثريذيلة المنتصرة أى تلميح الى تيودورا .

ان الذين يؤمنون بأن فقدان العفة يفسد عقل المرأة افسادا تاما ،
انما يصغون في لهفة الى براعت الحسد الخاص أو السخط العام التي
أنكرت أو تنكرت لفضائل تيودورا ، وبالغت في رذائلها ودمغت في قسوة
الخطايا التي ارتكبتها الفاجرة الشابة طوعا أو كرها . وكثيرا ما تجنبت
بدافع من الخزي أو الازدراء ، ولاء الجماهير الذليل ، وهربت من ضوء
العاصمة الكريه وقضت الجزء الأكبر من العام في القصور والحدائق التي
أقيمت بشكل بهيج على شاطئ بحر مرمره والبسفور وخصصت ساعات
الفراغ للعناية بجمالها ، عناية مقرونة بالحكمة والشكر ، ولاستكمال
اسباب الترف في الحمام والمائدة ، وللنوم الطويل في المساء والصباح ،
وامتلأت أجنحتها الخاصة في القصور بالنسوة والخصيان المقربين الذين
رعت مصالحهم وأهواءهم على حساب العدالة ، أما كبار الشخصيات في
الدولة فكانت تزدهم بهم غرفة الانتظار ، حتى اذا أذن لهم أخيرا وبعد
انتظار ممل ، في الدخول وتقبيل قدمي تيودورا ، عانوا - وفق ما يطيب
لها - من الفطرسنة الصامتة في الامبراطورة ، أو من الطيش الفاجر في
المثثة الهزلية . وربما أمكن التماس العذر لها في الشره الفظيع في جمع
ثروة كثيرة ، لحشيتها من موت زوجها ، حيث لن يبقى لها بعده الا الدمار
أو العرش ، وهما أمران لا ثالث لهما . وربما أثار الخوف والطمع معا غضب
تيودورا على قائدين أعلنوا في نزع وتهور ، في أثناء مرض الامبراطور
أنهما غير مستعدين لأن يبغيا عن العاصمة بديلا . ولكن لومها على القسوة ،
وهي أمر تعافه حتى رذائلها الناعمة ترك على ذكرى تيودورا وصمة
لا تمحى . وكان جواسيسها العديدون يراقبون ، ويبلغون في حماس بالغ
عن أى عمل أو أية نظرة تمس سيدتهم الامبراطورة بأذى . فزج بمن
يتهمونهم أيا كانوا في غيايب سجونها الخاصة التي لا يمكن أن تصل اليها
يد العدالة ، وأشيع أن الطاغية المرأة كانت تشهد بنفسها تعذيبهم بالخازوق
أو السياط دون أن تحس بصوت الضراعة أو تستشعر الرحمة . وهلك
بعض ضحاياها المنكودين في أعماق هذه السجون غير الصحية ، على حين
أبيع لآخرين ، بعد فقدان أطرافهم أو عقولهم أو ثرواتهم بالخروج الى
الحياة ، شراهد حية على انتقامها ، الذي امنت عادة الى أطفال من كانت قد
ارتابت فيهم أو آذتهم . وكان عضو السبناو أو الأسقف الذي تنطق
تيودورا بالحكم عليه بالاعدام أو النفي ، يسلم الى رسول موثوق فيه ،
تستثير هي همته ونشاطه بتهديد يجرى به لسانها : « أقسم بالحي الذي
لا يموت ، ليسلمن جلدك عن لحبك اذا أخفقت في تنفيذ أوامري » .

واذا لم تكن عقيدة تيودورا مصطبغة بأية هرطقة ، لكفر تعبدها
المثالي ، في رأى معاصريها ، عن الغرور والجشع والقسوة ، واذا استخدمت

نفوذها للتخفيف من بطش الامبراطور الذى لا يحتمل ، فان الجيل الحاضر «يرجع بعض الفصل فى هذا لديها ، ويلتمس بعض التسامح فى أخطائها الخطيرة . لقد أطلق اسم تيودورا بنفس القدر من التكريم والشرف على كل المؤسسات التى أقامها جستنيان على التقوى والاحسان ، وترجع أعظم مؤسسة للبر والخير فى عهده الى عطف الامبراطورة على بنات جنسها اللاتى قعد بهن العظ ، واللاتى أغرين أو اضطرون الى ممارسة مهنة الدعارة . وحول قصر على الشاطيء ، الأسىوى للبسفور الى دير فخم فسيح ، وخصص معاش سخي لخمسمائة من النسوة جمعن من شوارع ومواخير القسطنطينية . وفى هذا الملجأ الأمين المقدس عكفن على العزلة الدائمة ، وضاع يأس بعض من القين بأنفسهن رأسا الى البحر وسط عرفان التائبات النادمات اللاتى انتشلتن المحسنة الكريمة من وهدة الخطيئة والبؤس . ولقد أشاد جستنيان نفسه بتبصر تيودورا وفطنتها بل ان قوانينه لتنسب الى النصائح الحكيمة لزوجته الموقرة التى تقبلها بوصفها منحة من عبد الله . وتجلت بسانتها وسط هياج الشعب وفزع البلاط . وارتكزت طهارة تيودورا منذ اللحظة التى اقترنت فيها بجستنيان ، على صمت أعدائها الألداء ، وعلى الرغم من أن ابنة أكاكىوس ربما أدركت من الحب غاية المنى ، فانها تستحق شيئا من المديح والاعجاب بقوة عزيمتها التى مكنتها من أن تضحي باللذة والعادة فى سبيل شعور أقوى بالواجب أو بالمصلحة . ولم تستطع رغبات تيودورا ولا صلواتها وتضرعاتها أن تحقق لها نعمة ولد شرعى ، وقد أودعت الثرى ابنة كانت الثمرة الوحيدة لزوجها ورغم هذه الخيبة التى منيت بها ، ظل حكمها ثابتا مطلقا ، واحتفظت بفضل دهائها أو أهليتها ، بتعلق جستنيان بها وحبه لها . وكانت خلافاتها اظاهرة تقع دوما وقوع الصاعقة على رجال الحاشية الذين اعتقدوا أنها خلافات جادة ، وربما كانت صحتها قد تأثرت بفجورها أيام شبابها ، ولكنها كانت ضعيفة دائما ، وقد نصحتها أطباؤها باستعمال الحمامات الدافئة فى بيثيا (فى اليونان) . وصحب الامبراطورة فى هذه الرحلة الوالى البريتورى وكبير الصرافين ، وعدد من الكونتات النبلاء كما سار فى ركابها موكب فخم من أربعة آلاف من الخدم والأتباع . وأصلحت الطرق العامة كلما اقترب مقدها ، وأقيم قصر لاستقبالها ، وعند مرورها فى بيثيا أغدقت صدقات سخية على الكنائس والأديرة والمستشفيات ، لعلها ترفع أكف الضراعة الى السماء حتى تسترد الامبراطورة صحتها ، وفى السنة الرابعة والعشرين من زواجها ، الثانية بعد العشرين من حكمها حطمها السرطان وأذنت شمس حياتها بمغيب ، وحزن لهذه الخسارة الفادحة التى لا تعوض ، زوجها الذى كان فى مقدوره أن يتخير أنبل وأطهر عذراء فى الشرق ، بدلا من داعرة المسرح الفاجرة .

شغب نيقا

يمكن أن يلحظ في ألعاب الأقدمين خلاف جوهرى ، فقد كان أبرز الاغريق لاعبين على حين كان الرومان مجرد متفرجين . وكان ميدان الألعاب الأولمبية مفتوحا أمام الثراء والجدارة والطموح ، ولو استطاع المتبارون أن يعتمدوا على مهارتهم الشخصية ونشاطهم الخاص ، لجاز أن يتبعوا خطوات ديوميدي ومنلاوس (١) Diomede and Menelaus ويقودوا جيادهم فى السباق السريع . وكان يرخص لعشر أو عشرين أو أربعين عربة فى البدء دفعة واحدة وكان اكليل الفار جزاء الفائز ، كما كانت تخلد شهرته ر شهرة بلده الالحان الغنائية التى كانت أبقى على الزمن من الآثار النحاسية والرخامية . ولكن ربما تورع خجلا أى عضو فى السناتو ، أو أى مواطن يعتز بكرامته عن أن يعرض نفسه أو جياده فى الملعب الشعبى فى روما . وكانت الألعاب تعرض على حساب الدولة أو الحكام أو الأباطرة وتركت أعنة الخيل فى أيدي جماعة من الأتباع الأذلاء ، فإذا جاوزت أرباح سائق العربة المحظوظ أحيانا أرباح المحامى ، فيجب أن تعتبر تلك الأرباح اسرافا وتبذيرا من الشعب وأجرا عاليا لمهنة شائنة حقيرة . وكان السباق فى بداية نشأته مباراة بين عربتين تميز أحد سائقيهما بحلة بيضاء ، والثانى بأخرى حمراء ، وأدخل فيما بعد لوانان اضافيان هما الأخضر الفاتح والأزرق الداكن وكان السباق يتكرر خمسا وعشرين مرة وتشترك فيه مائة عربة فى اليوم الواحد ، زيادة فى أبهة المسرح الشعبى . وسرعان ما اكتسب الفرقاء الأربعة وجودا مشروعا ذا أصل غامض ، وكانت الألوان الأربعة مأخوذة من مختلف مظاهر الطبيعة على مدار فصول السنة الأربعة : الأحمر القانى من الصيف ، بياض الثلج الناصع من الشتاء ، زرقة الظلال الكثيفة من الخريف ، ثم الأخضر الزاهى البهيج من الربيع . وثمة تأويل آخر لاختيار هذه الألوان ، وهو تفسير يرجح العناصر على الألوان ، وقيل ان النزاع بين الأخضر والأزرق يحكى التباين بين عنصرى التراب والماء . فاتخذوا من فوز « الأخضر » بشيرا « بسنة خضراء » أى بوفرة المحصول واستبشروا من غلبة الأزرق بجولات موفقة آمنة فى البحر . على أن العداء بين الفلاحين والبحارة كان نوعا ما أقل حمقا من التحمس الأعمى الذى كان يبدیه أفراد الشعب الرومانى الذين وهبوا حياتهم وأموالهم ، كل للون الذى تحيز له . وكان الأمراء الذين أوتوا أكبر قدر من الحكمة والتعقل

(١) فى الأساطير اليونانية - ديوميدي محارب اشترك فى حصار طروادة ، ساعد أوديسيوس فى سرقة تمثال أثينا . ومنلاوس أحد ملوك اسبرطة ، اخو أجاممنون .

يسخرون من مثل هذا الخرق ويتغاضون عنه ، ولكن عمد كل من الفريقين : الأخضر والأزرق ، الى أن يتخذ في الملعب الشعبي أسماء كاليجولا ، نيرون ، فيتليوس ، فيروس ، كمودوس ، كراكلا ، الاجابالوس ، وكثيرا ما ترددوا على اسطبلاتهم ، وأطروا محبيهم واعتدوا على خصومهم ، واستحقوا تقدير الجماهير بالتقليد الطبيعي أو المصطنع لسلوكهم وظل الصراع الدموي صاحب يعكر صفو الابتهاج العام حتى آخر عهد روما بهذه المشاهد والاحتفالات ، وتدخل ثيودوريك بسلطانه ، بدافع من العدالة أو التعلق والحب ، لحماية الفريق الأخضر من عنف أحد القناصل وأحد الأشراف ، كانا منحازين ، في وح زائد ، الى الفريق الأزرق في الملعب الشعبي .

واقتبست القسطنطينية حماقات روما ، ولو أنها لم تقتبس فضائلها ، ومن ثم نرى أن نفس الفرقاء أو الأحزاب التي أهاجت الملعب في روما ، الهبت في مزيد من العنف المضاعف مضمار السباق في القسطنطينية . وكانت الغيرة الدينية ، في عصر أنسطاسيوس تثير جنون الشعب ، وكان من نتيجة هذا الخبل والحنق أن الفريق الأخضر - الذي كان يخفي الحجارة والخناجر خيانة وغدرا في سلال الفاكهة قتل في أثناء احتفال مهيب ثلاثة آلاف من خصومه « الزرق » . وانتشر هذا الوباء من العاصمة الى ولايات الشرق ومدنه ، وانبثق عن هذا التمييز باللونين في مجال الألعاب الرياضية حزبان قويان متناجزان هما أركان الحكومة الضعيفة . والحق أن الانقسامات الشعبية القائمة على أخطر الميول أو المزايم الدينية قلما بلغت حدة هذا التمزق العنيف الطائش الذي هدد وشائج الود في الأسرات وفرق بين الأصدقاء وبين الاخوة . وأغرى النساء ، رغم ندرة وجودهن في الملعب الشعبي ، بأن تميل كل منهن مع هوى عشيقها ، أو تعارض ميول زوجها ، وضرب بكل قانون وضعى أو سماوى عرض الحائط ، وطالما أحرز هذا الفريق أو ذاك قصب السبق ، لم يلق مشايعوه بالا لأية ضائقة خاصة أو كارثة عامة . وسادت في أنطاكية والقسطنطينية فوضى الديمقراطية دون ما يصاحبها من روح الحرية ، وبات التأييد الحزبى ضرورة لازمة لكل طلاب الوظائف المدنية أو الكنسية . وقبيل أن ثمة علاقة خفية بين أسرة أنسطاسيوس أو طائفته وبين الحزب الأخضر ، وإن الحزب الأزرق كان منحازا انحيازاً متحمساً الى جانب الأرثوذكسية وجانب جستنيان . راعى هذا الحزب الأزرق ، وأن هذا الراعى الشكور كان ، لأكثر من خمسة أعوام ، وراء كل الاضطرابات التي أثارها حزب أفزع القصر والسنااتو وكل عواصم الشرق ، مشاغباته في كل مناسبة ، وانطلاقاً من هذا العطف الملكي طغى الفريق الأزرق وتوقحوا ، وتصنعوا اشاعة الرعب والارهاب ، بزي بربرى - شعر الهون الطويل وأكمامهم

المزمومة الضيقة وثيابهم الفضفاضة ، ومشية متعالية وصوت جهورى
طنان . وكانوا نهارا يخفون الخناجر ذوات الحدين ، أما فى الليل فقد
تسلخوا وتكتلوا فى جرة ، فى عصابات كثيرة مستعدة لكل أعمال العنف
والسلب والنهب ، وكان لصوص الليل هؤلاء يسلبون وكثيرا ما يذبحون
أعداءهم من الفريق الأخضر ، بل حتى المواطنين المسالمين الأبرياء ، حتى لقد
بات من الخطر ارتداء الأزرار أو الأحزمة الذهبية ، أو الظهور ثيابا فى
شوارع عاصمة هادئة . ولقد عمدت روح جريئة ، فى مأمن من العقاب
والحساب ، الى انتهاك حرمة الدور الخاصة ، واستخدمت الحرائق لتسهيل
سطو هؤلاء المشاعيين المحزبين أو اخفاء جرائمهم ولم يكن ثمة مكان فى
مأمن من هذه الغارات . وكم أسرف هؤلاء المشاعيون فى سفك دماء الأبرياء .
وكم لوثوا الكنائس والمباني بأعمال القتل ، وكم كانوا يفاخرون بمهارتهم
فى اصابة الفريسة بجرح مميت بطعنة خنجر واحدة . واختار شباب
القسطنطينية المنحل « حزب الحلة الزرقاء » وأخرس صوت القانون ،
وانحلت روابط المجتمع ، واضطر الدائنون الى التخلي عن وثائق ديونهم ،
والقضاة الى نقض أحكامهم ، والسادة الى تحرير عبيدهم ، والآباء الى
الاستجابة لتبذير أبنائهم ، وهتك الخدم أعراض كرام السيدات ، وانتزع
الأولاد الذين يتسمون بالجمال من بين أذرع آبائهم . واغتصبت الزوجات
أمام أزواجهن الا اذا آثرن الموت طواعية واختيارا ، أما الفريق الأخضر ،
الذين اضطهدهم أعداؤهم وتخلي عنهم الحكام ، فقد دفع بهم ياسهم الى
التزام خطة الدفاع ، أو ربما قتل نفس بنفس ، وانقض هؤلاء المشردون
التعساء الذين هربوا الى الغابات والكهوف انقضوا بلا رحمة على المجتمع
الذى لفظهم أما من بقى منهم بعد الصراع فقد أعدم ، وأصبح رجال القضاء
الذين أوتوا من الشجاعة ما أمكن معه معاقبة المجرمين ، والتصدى لسطخ
الفريق الأزرق - نقول أصبحوا هدفا للغيرة الطائشة من جانب هذا
الفريق : فأوى والى القسطنطينية الى القبر المقدس هربا ، وضرب أحد
كونتات الشرق بالسياط ، وشنق حاكم قيليقيا ، بأمر من تيودورا ،
على قبر سفاحين أدانهما بقتل سائسه . وبالاعتداء الجرىء عليه هو نفسه
لمحاولة قتله . وربما أغرق الانسان الطموح بتأسيس عظمته على ركيزة من
مثل هذه الفوضى الشاملة . ولكن من مصلحة الملك ومن واجبه أن يحفظ
للقانون سيادته وهيبته . وأعلن جستنيان فى مرسومه الاول الذى
كثيرا ما كرره ، وأحيانا نفذه ، عن عزمه على حماية الأبرياء ومحاسبة
المجرمين ، من كل طائفة ومن كل « لون » . على أن ميزان العدالة ظل
يرجح كفة الفريق الأزرق ، بفضل حب الامبراطور الدين وبحكم عادته
وبفعل مخاوفه ، وخدمت فيه روح الانصاف ، بعد صراع ظاهرى ، دون

تردد أو امتصاص ، أمام أهواء تيودورا التي لا تثنى ولا تلين ، فإن الامبراطورة لم تنس أو تغفر قط ما كان يلحق بالمثلثة الهزلية من أذى وإساءة . وعند ارتقاء جوستين الصغير الى العرش ، أدان اعلان التزام العدالة الصارمة القائمة على المساواة ، بطريق غير مباشر ، تحيز العهد السابق ، حيث جاء فيه : « أيها الزرق : ان جستينيان قد مات . أيها الخضر : انه ما يزال حيا ! » .

وكادت الكراهية المتبادلة والمصالحة العارضة المؤقتة بين الفريقين ، أن تثيرا في القسطنطينية فتنة هوجاء تحيلها الى خراب يباب (١) . واحتفل جستينيان . فى السنة الخامسة من حكمه ، بمنتصف يناير ، وكانت صيحات السخط من جانب الخضر تعكر صفو الألعاب دون انقطاع . واحتفظ الامبراطور بمهابته الساكنة الى الشوط الثانى والعشرين ، وأخيرا نفذ صبره ، وانطلق بصوت عال ، وفى عبارات متقطعة ، فى أغرب حوار جرى يوما بين ملك ورعاياه . وكانت شكاياتهم فى البداية تتسم بالاحترام والاعتدال والتواضع ، فاتهموا الوزراء التابعين بالظلم والجور ، ودعوا للامبراطور بطول العمر والنصر . فانفجر جستينيان متعجبا : « اصبروا وأنصتوا أيها اللاثمون الوقحاء ! أخرجوا ألسنتكم أيها اليهود ، أيها السامريون ، أيها المانويون ! » وظل الخضر يحاولون أن يستندروا عطفه : « نحن فقراء ، نحن أبرياء ، لقد أودينا فى أموالنا وفى أنفسنا ، اننا لا نجرؤ على السير فى الطرقات اننا مضطهدون بسبب اسمنا ولوننا . اننا نستعذب الموت ، أيها الامبراطور ، ولكن بأمر منكم وفى سبيلكم ! » ولكن تكرار عبارات التائب المتسمة بالتحيز والانفعال حطت فى أعينهم (الخضر) من قدر الامبراطور فى حلته الأرجوانية ، فأعلنوا تخليهم عن ولائهم لأمر لا يرعى قواعد العدالة مع شعبه ، وأبدوا أسفهم وحرزهم لأن أباه كان قد ولد ، ودمغ ابنه بهذه الألقاب الشائنة المخزية : قاتل جحش - طاغية كذاب . فصرخ الامبراطور الحائق : « هل تستهينون بحياتكم ! » عند ذلك نهض الزرق من مقاعدهم والدم يغلى فى عروقهم ، ودوت صيحاتهم العدائية مثل قصف الرعد فى المضمار ، ولكن أعداءهم الذين تجنبوا النزال غير المتكافئ نشروا الرعب واليأس

(١) كان السبب الحقيقى لمشاغبات نيقا هو الاستياء والسخط نتيجة ابتزاز الاموال بفعل ادارة جستينيان الغافلة المهمة ولم يوضح جييون هذه الناحية ، كما انه لم يظن الى ان حزبي الملعب الشعبى هما فى الحقيقة الابريشيتان القديمتان الذابلتان فى المدينة ومن ثم بقيتا - الى حد ما - الواسطة الدستورية للاتصال بين الشعب والامبراطور - د.م.لو .

فى شوارع القسطنطينية ، وفى تلك الآونة الحرجة المليئة بالخطر ، سيق سبعة من القتلة الأرذال ، ممن أصدر عليهم الوالى حكمه بالاعدام ، للطواف بهم فى شوارع المدينة ، ونقلوا آخر المطاف الى ساحة التنفيذ فى ضاحية بيرا ، حيث قطعت رهوس أربعة منهم على الفور ، وشنق الخامس ، وما أن بدى بشنق الاثنين الباقيين حتى انقطع الحبل ، وسقطا على الأرض دون أن يفارقا الحياة ، وصفق الجمهور لافلاتهما ، ونقلهما الرهبان الذين جاءوا من دير سانت كرونون المجاور . فى قارب الى محراب انكنسية .

ولما كان أحد هذين المجرمين من أصحاب الحلة الزرقاء ، والثانى من أصحاب الحلة الخضراء . فقد أهاجت حفيظة الفريقين قسوة ظالمهم أو جحود راعيهم ، وعقدت بينهما هدنة قصيرة حتى تمكنا من انقاذ السجينين وارضاء شهوة الانتقام . وأحرق على الفور قصر الوالى الذى تصدى لتيار الشغب ، وقتل موظفوه وأفراد حرسه ، وفتحت أبواب السجون عنوة ، وأعيدت الحرية لأولئك الذين يحسنون استخدامهما فى التخريب والتدمير ، وأرسلت قوة من الجيش لمساعدة الحاكم المدنى ، فالتحمت معها حشود مسلحة كانت أعداها وبسالتها فى ازدياد مستمر . وعمد رجال الهرىولى وهم أكثر من استخدمتهم الامبراطورية من المتبربرين وحشية - الى ايقاع القساوسة على الأرض وتركمت مخلقاتهم على الأرض فى طيش ونزق لتمنع التلاحم السموى وتفصل بين الفريقين ، بدافع التقوى والغيرة الدينية .

وزاد انتهاك الحرمات على هذا النحو من الشغب وتفاقم السخط والهاياج ، وتحمس الشعب فى الدفاع عن حرمة الدين ، وأمطرت النسوة من الأسطح والنوافذ رهوس الجند بوابل من الحجارة ، فحذف الجند البيوت بالمواد المحترقة ، وغطت النيران التى أشعلها المواطنون والغرباء فى كل مكان وجه المدينة بلارقيب أو حسيب . وامتدت الحرائق الى كنيسة أيا صوفيا وحمامات زيوكسيبوس Zeuxippus والى جزء من القصر ، من أول مدخل له حتى مذبح الاله مارس ، والى الرواق الطويل الممتد من القصر الى ساحة قسطنطين ، كما التهمت النيران مستشفى كبيرا بمن كان فيه من المرضى . ودمر كثير من الكنائس والمباني الضخمة ، وذاب قدر كبير من الذهب والفضة بفعل النيران أو تبدد . ولجأ المواطنون العقلاء والأغنياء ، هربا من مناظر الفزع والضيق هذه ، عبر البسفور ، الى الشاساطىء الآسيوى ، وفى خمسة أيام تركت القسطنطينية خاوية على عروشها ، للفريقين ، وكانت كلمة السر عندهما « نيقا » ، أى « أسحق » ومن ثم أطلق هذا اللفظ على الشغب المشهود - وطالما ساد الخصام بين الفريقين ، فقد بدا أن الزرق وهم المنتصرون الغالبون ، والخضر وهم القانطون الجزوعون ، كانوا ينظرون بنفس الاستهتار الى الخلل فى الدولة . واتفقا على أن يهاجما الادارة الفاسدة فى العدل والخزانة . ومن ثم وجه الاتهام

علنا الى الوزيرين المسئولين : تريبونيان الداهية ، وجون الكبادوكي الجشع ، باعتبارهما سبب هذا البؤس العام . وكان من الجائز ألا يلقي أحد بالا لتدمير الشعب وقت الهدوء ، ولكن التدمير لقي الآن آذانا صاغية حين كانت المدينة تشتعل ، فعزل على الفور وزير المالية والوالي ، وشغل مكان كل منهما بعضو من السناتو لم يرق الشك الى نزاهته . وبعد الاذعان العام ، شخص جستنيان الى مضمار السباق ليعترف هو نفسه بأخطائه ، وليتقبل ندم رعاياه الشاكرين العارفين لفضله ، ولكنهم لم يثقوا في توكيداته ، رغم أنه أقسم بها على الكتاب المقدس . وأزعج ارتياهم الامبراطور فانسحب على عجل الى الحصن المكين في القصر ، ونسبت حدة الشغب الآن الى مؤامرة خفية حاك الطمع والطموح خيوطها ، وثار الظن بأن هؤلاء المتمردين ، وبوجه أخص الفريق الأخضر ، يزودهم بالمال والسلاح هيباشيوس Hypatius وبومبي ، وهما نبيلان لم يستطيعا قط أن يتناسيا بشرف ، أو يتذكرا في أمان أنهما ابنا أخ الامبراطور أنسطاسيوس . وكان الامبراطور متقلب الأطوار في معاملتهما ، فارتضت رعونته وطيشه بأن يوليها ثقتهم تارة ، ويفضح أمرهما تارة أخرى ، ثم يصفح عنهما بعد ذلك . . . ومن ثم كان يبدو أنهما خادمان مخلصان للعرش ، واحتجزا طيلة أيام الفتنة الخمسة كرهينتين ذواتي شأن ، حتى غلبت مخاوف جستنيان آخر الأمر على رزائته فتصور هذين الأخوين جاسوسين ان لم يكونا قاتلين ، فأمرهما في جفاء وعنف بمغادرة القصر . وبعد محاولة عقيمة للاقناع بأن الامتثال لهذا الأمر ربما أدى الى خيانة لا تكون لهما فيها ارادة ، عاد الأخوان الى دارهما . وفي صباح اليوم السادس أحاط الشعب بأحدهما وهو هيباشيوس وأمسكوا به ، ورغم ما أبدى من مقاومة صادقة ورغم دموع زوجته وتوسلاتها نقلوا أميرهم المحبوب - أي هيباشيوس - الى ساحة قسطنطين ، وبدلا من التاج وضعوا على رأسه طوقا ثميناً . ولو أن الغاصب الذي دافع فيما بعد عن فضل تمهله كان قد استمع الى مشورة السناتو ، واستثار حمية الجماهير المحتشدة ، فنقول لو أنه فعل ذلك لكان من الجائز أن تضيق محاولتهم العنيدة الأولى الخناق على غريمه الذي يرتجف فرقا ، أو تبعده . وكان القصر البيزنطي يتصل بالبحر اتصالا مباشرا ، ورست القوارب على أهبة الاستعداد أمام الحديقة ، واستقر الرأي سرا بالفعل على انتقال الامبراطور وأسرته وأمواله الى ملجأ آمن بعيدا عن العاصمة .

وكان مآل جستنيان الى الدمار والضياع ، لو لم تتخل القاهرة التي انتشلها من وهدة المسرح عن الجبن المركب في بنات جنسها وعن فضائلهن على حد سواء ، ذلك أن تيودورا وحدها وسط مجلس شهوده القائد

بليساريوس ، أظهرت روح البطولة ، كما استطاعت هي وحدها كذلك دون أن ترهب ما يمكن أن يصب عليها الامبراطور من نقمة فيما بعد - أن تخلص الامبراطور من الخطر الداهم ومن مخاوفه العقيمة ، وصاحت بجستنيان شريكة حياته : « اذا كان الهرب هو الوسيلة الوحيدة للنجاة ، فاني أربأ بنفسى أن أهرب ، وان الموت مال كل حي ، وما ولدنا الا لموت ، ولا يجوز لمن تولوا الملك أن يبقوا على قيد الحياة بعد فقدان ملكهم ومنزلتهم الرفيعة ، واني لأدعو الله ألا يمد فى أجلى ، ولو يوما واحدا بدون تاجى وحلتى الامبراطورية ، وألا أرى النور فى اللحظة التى لا يعود الشعب فيها يدعونى بالملكة . واذا اعتزمت الهرب فان لديك ثروة وكنوزا ، وان لديك سفنا ، ولكن تدبر ، حتى لا تعرضك رغبتك فى الحياة الى الانزواء فى منفى كئيب أو الى ميتة شائنة . أما أنا فلسوف ألتزم الحكمة القديمة القائلة بأن العرش مئوى كريم » . وبعث ثبات المرأة فى الامبراطور من جديد روح الشجاعة ليتروى ويعمل . وسرعان ما تستبين الشجاعة وسيلة التحايل على أشد موقف يأسا وقنوطا . فلقد كان من أيسر الأمور وأكثرها حسما أن تستثار من جديد حفيظة الحزين (الزرق والخضر) ، فقد عرت الدهشة الزرق لخطيئتهم وحماقتهم فى أن يستفزههم شيء يسير من الأذى الى أن يتآمروا مع ألد أعدائهم ضد امبراطور محسن كريم خير ، فنادوا من جديد بجستنيان ملكا ، وترك فريق الحلة الخضراء ، مع امبراطورهم المحدث وحدهم فى ميدان السباق . وكان الحرس رجالا غير موثوق باخلاصهم وأمانتهم ، ولكن قوات الجيش التى استعان بها جستنيان تألفت من ثلاثة آلاف جندي محنك كانوا قد تدرّبوا على البسالة والنظام فى حروب فارس والليريا . فانقسمت هذه القوات الى قسمين تحت قيادة بليساريوس ومندوس ، وشق كل منهما طريقه عنوة من القصر ، عبر الدروب الضيقة والنيران الخامدة والأبنية المتداعية ، حتى أطبقا فى لحظة واحدة على المدخلين المتقابلين لميدان السباق ، وما كان فى مقدور الحشد المضطرب الذى تولاه الفرع أن يتصدى فى تلك اللحظة الحرجة لهجوم مركز منظم من جانبى الملعب . وأبدى الزرق أقصى الحمية وأشد البأس تعبيرا عن ندمهم ، حتى لقد بلغ عدد القتلى فى تلك الملحمة العاتية الصاخبة فى ذاك اليوم أكثر من ثلاثة آلاف واقتلع هيباشيوس عن عرشه ، واقتيد مع أخيه بومبى حتى خرا تحت قدمى جستنيان يرجوان الرفق والرحمة ، ولكن جرمهم كان صارخا ، وكانت براءتهم موضع شك ، وحالت شدة فزع جستنيان دون غفران الذنب . وفى صباح اليوم التالى أعدم الجنود خفية ابنى انسطاسيوس مع ثمانية عشر آخرين من أبرز شركائهم فى الجريمة من الأشراف والقناصل ، وألقيت جثثهم فى البحر ، وهدمت قصورهم وصودرت أموالهم . أما ميدان السباق نفسه فقد قضى

عليه بالصمت الحزين لعدة سنين ، فلما أعيدت الألعاب عادت الاضطرابات سيرتها الأولى ، وظل الفريقان الأزرق والأخضر يسيثان الى حكم جستنيان ، ويكدران هدوء الامبراطورية الشرقية .

استيراد الحرير من الصين

ظلت هذه الامبراطورية الشرقية ، بعد استيلاء المتبربرين على روما ، على صلة بالأمم التي كانت قد غزتها فيما وراء الأدرياتيك حتى حدود أثيوبيا وفارس . فقد بسط جستنيان حكمه على أربع وستين ولاية وتسعمائة وخمس وثلاثين مدينة ، وجادت الطبيعة على ممتلكاته بمزايا التربة والموقع والمناخ . وكان فن الانسان يخطو دائما مدارج الرقى على طول ساحل البحر المتوسط وضفاف النيل من طروادة القديمة الى طيبة في مصر . وقد أنقذت خيرات مصر الوفيرة المشهودة ابراهيم وقومه ، وكان لا يزال في مقدور هذا الوادى الصغير الأهل بالسكان أن يصدر في كل عام خمسة وستين ألف طن من القمح الى القسطنطينية . وكانت صيدا تزود عاصمة جستنيان بمصنوعاتها التي خلدت أشعار هوميروس ذكرها قبل ذلك بخمسة عشر قرنا ، وبدلا من أن تضعف قوة الأرض سنة بعد سنة باستنبات ألفى محصول ، كانت تجدها وتنعشها الفلاحة الماهرة والأسمدة الغنية والراحة الموسمية ، وكانت الحيوانات تتكاثر بغير حدود . كما تكاثرت ، بفضل عناية الأجيال المتعاقبة ، المزارع والمباني وأدوات العمل والترف التي كانت أبقي على الزمن من حياة الانسان . وحفظت التقاليد ممارسة الفنون المتواضعة وعملت التجربة والمران على تبسيطها ، وكان تقسيم العمل وسهولة التبادل سببا في اثراء المجتمع ، فعملت آلاف من أيدي الصناعات النشيطة على تهيئة المسكن والملبس والغذاء ، لكل روماني ، وجدير بالذكر أن اختراع النول والمغزل نسب الى الآلهة . على أنه في كل عصر ، وجدت منتجات حيوانية أو نباتية ، مثل الشعر والجلد والصوف ، والكتان والقطن ، وأخيرا الحرير ، وصنعت تصنيعا بارعا لستر جسم الانسان أو تزيينه . وصبغت هذه كلها بخليط من الألوان الثابتة ، واستخدمت الفرشاة بنجاح في تحسين نتائج الأنوال ، وكان لكل انسان مطلق الحرية - تبعا لذوقه وزيه - في اختيار هذه الألوان التي تحكى جمال الطبيعة ، الا أن الأرجواني القاتم الذي استنبطه الفينيقيون من بعض المحار كان وقفا على شخص الامبراطور المقدس وقصره ، وكانت عقوبة الخيانة تنزل بالرعايا الطامعين الذين تجاسروا على سلب العرش امتيازاه الخاص .

ولست فى حاجة الى ايضاح أن الحرير (١) فى الأصل عبارة عن أفرزات من غدد يرقة وأنه ينسج حولها مقبرة ذهبية (شرنقة) تخرج منها بعد ذلك فراشة • وكان دود القز الذى يتغذى على أوراق كالتوت الأبيض ، محصورا ، حتى أيام جستنيان ، فى الصين وكانت أشجار الصنوبر والبلوط والدردار معروفة فى غابات آسيا وأوروبا ، ولما كانت تربية الدود على أوراقها ، أكثر مشقة وانتاجها أقل ضمنا ، فقد أهملت بصفة عامة ، اللهم الا فى جزيرة كيوس الصغيرة قرب شاطئ أتيكا « اليونان » ، وكان يؤخذ منها نسيج رقيق • وظلت هذه الصناعة الكيوسية التى اخترعتها امرأة لاستعمال النساء موضع إعجاب الشرق وروما ، لفترة طويلة • ومهما أثارت ملابس الميدين والأشوريين من شكوك ، فإن فرجيل هو أقدم كاتب ذكر صراحة الصوف الناعم الذى يستخرج من أشجار التبت أو الصين ، وصحح هذا الخطأ الطبيعى - الذى كان أقل غرابة من الحقيقة - شيئا فشيئا - بمعرفة الحشرة الثمينة التى كانت أول من ابتدع البذخ الذى رفلت فيه الأمم ، وكم استهجن أكثر الرومان تمسكا بأهداب الوقار والرزانة هذا اللون الظريف النادر من الترف ، أيام تيبيريوس ، كما هاجم ، بلينى فى أسلوب متكلف ولو أنه عنيف ، هذا الشره فى الكسب الذى دفع الانسان الى ارتياد أقصى أركان المعمورة سعيا وراء هدف سيئ ، فانهم انما يعرضون للأنظار هذه الثياب التى هى أقرب شئ الى العرى ، والتى تشف عن أجسام من يرتديها ، وربما أرضى الرداء الذى يكشف عن مفاتن الجسم ولون البشرة - أرضى الغرور أو حرك الشهوة • وكان النسوة الفينيقيات أحيانا يخلطن هذه المنسوجات الحريرية المحبوكة التى سبق صبغها فى الصين ، فكان هذا السندس الثمين يمزج بنسيج أقل حبا من خيوط الكتان ، وكان استخدام الحرير النقى أو المخلوط لمائتى عام بعد عصر بلينى - وقفا على النساء ، حتى ألف المواطنون فى روما والولايات أن يتشبهوا ، دون أن يحسوا ، بالامبراطور الأجابالوس الذى لوث بتخنثه كرامته بوصفه امبراطورا ورجلا معا • وشكا أوريليان من أن الرطل من الحرير كان يباع فى روما بائنتى عشرة أوقية من الذهب ، ولكن العرض ازداد بازدياد الطلب عليه ،

(١) تحتل دودة القز مكانا مرموقا فى تاريخ الحشرات (وهو أشد غرابة من مؤلف اوفيد فى التطور) ويمكن تشبيه دودة الحرير فى جزيرة كيوس - كما وصفها بلينى ، بنوع مشابه لها فى الصين • ولكن دود القز عندنا وكذلك أوراق القوت الأبيض لم تكن معروفة لدى تيوفراستوس ولا بلينى • (خلط جيبون بين كيوس Céos وكوس Cos وكان أرسطر أول كاتب اغريقى ذكر الحرير ، يحتل أن الحرير الخام كان يؤتى به من آسيا الى كوس حيث يصنع هناك • د.م • لو) •

فهبط السعر نتيجة لكثرة العرض . وإذا كانت الظروف الطارئة أو الاحتكار قد رفعت أحيانا هذا السعر حتى عن الحد الذى ذكره أوريليان ، فقد اضطّر الصناع فى صور وبيروت أحيانا نتيجة لهذه الاسباب نفسها الى الاكتفاء بجزء من تسعة اجزاء من هذه القيمة الباهظة . واتجه التفكير الى أنه من الضروري سن قانون للتمييز بين ثياب المثلىن الهزليين وأردية شيوخ السناتو ، وكان رعايا جستنيان هم الذين يستهلكون الجزء الأكبر من الحرير المستورد من منشئه الاصلى . وكانوا لا يزالون يعرفون كل المعركة نوعا من اصداق البحر المتوسط يطلق عليه « دودة قر البحر » . وإن الصوف أو الشعر الناعم الذى تلصق به هذه الصدفه أو المحارة بالصخر ، يصنع انيوم لمجرد أنه تحفه طريفة ، ولكنه لا يستخدم ، وكان الامبراطور الرومانى يقدم مثل هذا الثوب المصنوع من مثل هذه المادة الغريبة الفريدة هدية الى حكام أرمينية .

وكانت هذه التجارة أو السلعة الغالية القيمة ، رغم أنها تشغل حيزا صغيرا ، تفى بنفقات النقل البرى . وكانت القوافل تحترق قلب آسيا من بحر الصين الى شواطئ البحر فى سوريا فى مائتين وثلاثة وأربعين يوما ، وكان الرومان يحصلون على الحرير من التجار الفرس الذين ترددوا على أسواق أرمينيا ونصيبين ، ولكن هذه التجارة التى كانت تنسم فى أوقات السلم بالجشع والحد ، اضطربت أحوالها أيما اضطراب بسبب الحروب الطويلة التى كانت تنشب بين الملوك المتصارعين . وربما جاز للملك العظيم أن يعد فى زهو وفخار اقليم أربكستان (عاصمته سمرقند) ، بل حتى الصين ، بين ولايات امبراطوريته ولكن نهر سيحون كان يحده ملكه الحقيقى ، ولكن اتصاله المثمر النافع بأهالى أربكستان ، فيما وراء النهر كان يتوقف على رضا الفاتحين الغزاة - وهم الهون البيض والترك ، الذين تعاقبوا على حكم هذا الشعب النشيط ، شعب أربكستان . ولكن أشد ألوان الحكم وحشية وهمجية لم تستطع أن تقضى على الزراعة والتجارة فى اقليم اشتهر بأنه أحد بساتين آسيا الأربعة . وكان موقع مدينتى سمرقند وبخارى صالحا لتبادل مختلف منتجات هذا الاقليم . واشترى تجار هاتين المدينتين من الصينيين (١) الحرير الخام أو المصنوع ،

(١) خلط الاعجاب الأعمى عند الجزويت ، بين الحقب لتاريخ الصين . ولكن ميز بينها مع قدر أكبر من الدقة ، مسيو دى جين M. de Guignes الذى اكتشف تدرج الحقائق فى الحوليات ، وامتداد الملكية حتى العصر المسيحى . . . ودرس بعين فاحصة علاقات الصين مع أمم الغرب ، ولأن هذه العلاقات يسيرة طارئة غامضة . ولم يخلم الرومان أى شك فى أن للصين امبراطورية ، لا تقل شأنا عن امبراطوريتهم .

ونقلوه الى فارس ، لاستخدامه في الامبراطورية الرومانية وكانت عاصمة الصين المختالة تيهيا وعجبا ترحب بقوافل ازبكستان على أنها بعثات ذليئة ضارعة وافدة من ممالك تابعة ، فاذا رجعت القوافل سالمة آمنة كان جزاء المغامرة الجريئة كسبا وفيرا الى حد الافراط . وما كان من الميسور أن يقطع الطريق الوعر المحفوف بالمخاطر من سمرقند الى المدينة الصينية الأولى في ولاية شنسي في ستين أو ثمانين أو مائة يوم . حتى اذا عبرت نهر سيحون ، أصبحت في عرض الصحراء وسط القبائل الرحل ، الا اذا تصدت لهم الجيوش والحاميات التي اعتبرت كل مواطن وكل سائح هدفا سائغا لأبشع أنواع السلب والنهب . وكانت قوافل الحرير - هربا من وجه لصوص التتار وطغاة الفرس ، تتراد طريقا أكثر اتجاها الى الجنوب ، فكانوا يقطعون جبال التبت ويجتازون نهر الكنج أو السند ، وينتظرون متلهفين في ثغور جوزيرات ومالابار ، وصول السفن التي تفد اليها سنويا من الغرب (١) . ولكنهم كانوا يجدون مخاطر الصحراء أيسر احتمالا من العناء والجوع وضيق الوقت ، وقل أن كانت المغامرة تتكرر ، وان الأوربي الوحيد الذي اجتاز هذا الطريق غير المطروق ليزهو ويحمد لنفسه مثابرته ووصوله بعد تسعة أشهر من مغادرته بكين الى دلتا نهر السند . على أن البحر على أية حال ، كان مفتوحا أمام الجميع للملاحة الحرة . وكانت ولايات الصين . ابتداء من هذا النهر العظيم الى مدار السرطان - قد أخضعها وعمل على تحضيرها بأبطرة الشمال ، كما كانت زاخرة ، حوالى العصر المسيحي ، بالمدن والسكان وأشجار التوت وما يعيش عليها من حشرات ثمينة . ولو أن الصينيين الى جانب معرفتهم للبوصلة أوتوا عبقرية اليونان والفينيقيين وذكاءهم ، فلربما امتدت كشوفهم الى نصف الكرة الجنوبي . وليس في مقدوري أن أدرس ، ولست ميالا الى أن أصدق ، رحلاتهم البعيدة الى الخليج الفارسي (الخليج العربي) أو رأس الرجاء الصالح . ومن الجائز أن الأسلاف كانوا يعدلون العناصر الحالية في جهودهم ومدى نجاحهم ، وأن مجال نشاطهم البحري امتد من جزر اليابان الى مضائق ملقا ، أو أعمدة هرقل الشرق اذا جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير . وكانوا يبحرون ، دون أن تغيب أنظارهم عن الأرض ، على طول الساحل الى نهاية مرتفعات آخن ، التي كان يقصد اليها سنويا عشر أو اثنتا عشرة سفينة محملة بمنتجات الصين ومصنوعاتها ، بل حتى ومهرة الصناعات فيها . وقليل ما أشير الى جزيرة سومطرة وشبه الجزيرة المقابلة

(١) يمكن الرجوع - فيما يختص بالطرق بين الصين وبين فارس والهند - في سير هالكوت Hackluyt وتقنوت Thevenot . وقد اكتشف أحد الحكام الانجليز في البنغال مؤخرا طريقا عبر التبت .

لها على أنهما موطن الذهب والفضة ، وقد توضح المدن التجارية التي ورد ذكرها في جغرافية بطليموس أن هذه الثروة لم تكن تستخرج من المناجم وحدها . وبلغ طول الطريق المباشر بين سومطرة وسيلان نحو ثلثمائة فرسخ ، وكان الملاحون الصينيون والهنود يسترشدون بتحركات الطيور واتجاهات الرياح الموسمية ، وكانوا يعبرون المحيط عبورا آمنا في مواكب مربعة الشكل احكم وناق أجزائها بواسطة جبال متينة اتخذت من أشجار جوز الهند ، بدلا من الحديد ، وكانت جزيرة سيلان (أو سرنديب أو تايرويانا) موزعة بين أميرين متناجزين سيطر أحدهما على الجبال والفيلة والعقيق البراق واستمتع الثاني بالثروة التي هي أكثر ثباتا ، وهي الصناعة المحلية والتجارة الخارجية وميناء ترينكمالي Trinquemale الضخمة التي كانت تستقبل وتودع أساطيل تجارة الشرق والغرب . وفي هذه الجزيرة الكريمة المضياف - وهي تبعد نفس المسافة عن أى بلد من بلاد تجار الحرير الصينيين (كما قدروا هم) كان هؤلاء التجار الذين جمعوا في رحلاتهم الصبر والقرنفل وجوزة الطيب وخشب الصندل يحتفظون بعلاقات طيبة ، فان رعايا الملك العظيم مجدوا - بلا منازع - قوته وعظمته ، أما الفرد الروماني الذي كان ينتقص من غرور هؤلاء الرعايا بالموازنة بين العملة التافهة لهذا الملك العظيم وبين عملة الامبراطور أنسطاسيوس الذهبية ، فقد أبحر الى سيلان على سفينة أثيوبية بوصفه راكبا عاديا .

ولما بات من العسير الاستغناء عن الحرير ، فقد أبصر الامبراطور جستنيان بعين القلق والاهتمام أن الفرس احتكروا في البر والبحر هذا المعين الذي لا ينضب ، وأن أمة الأعداء الوثنيين تستنزف باستمرار ثروة رعاياه ، وكان من الجائز أن تسترد حكومة يقظة جادة تجارة مصر والملاحة في البحر الأحمر ، وكانت قد انحطت هذه وتلك في الوقت الذي ازدهرت فيه الامبراطورية ، وأن تبخر القوارب الرومانية ، لشراء الحرير ، الى موانئ سيلان وملقا ، بل حتى الى موانئ الصين . ولكن جستنيان لجأ الى وسيلة أكثر تواضعا ، تلك هي أنه استعان بحلفائه المسيحيين الأحباش سكان أثيوبيا ، الذين كانوا قد أصابوا مؤخرا شيئا من فنون الملاحة وروح التجارة ، ووضعوا أيديهم على ثغر أدوليس Adulis ، الذي كان لا يزال يزدان بالأنصاب التذكارية لأحد الغزاة اليونان . وشق هؤلاء الأحباش طريقهم على طول الساحل الأفريقي الى خط الاستواء بحثا عن الذهب والزمرد والعطور ، ولكنهم ، في حكمة وتعقل ، تجنبوا منافسة غير متكافئة لابد أن يحول فيها الفرس المجاورون بينهم وبين أسواق الهند . واستسلم الامبراطور لليأس وخيبة الأمل ، حتى تحققت رغبته

نتيجة حادث مفاجيء غير متوقع ، فقد بشر أحد الأساقفة بالانجيل في الهند ورعى أمور مسيحيي القديس توماس على ساحل مالابار المشهور بالفلفل ، وشيدت كنيسة في سيلان ، وتتبع الارساليات التبشيرية طريق التجارة الى أطراف آسيا . وأقام راهبان فارسيان لمدة طويلة في الصين ، وربما كانت اقامتهما في المدينة الملكية نانكين ، وكانت مقر ملك انصرف الى العقيدة الأجنبية . واستقبل بالفعل لهذا الغرض بعثة من جزيرة سيلان . وقد تطلعت أبصارهما وسط مشاغلهما الدينيه الى الثياب التي يرتديها الصينيون عامة ، والآلاف من ديدان القز التي تربي على الأشجار أو في البيوت وتلك عملية كانت تعتبر من أعمال المذلات . وسرعان ما اتضح للراهبين أن نقل هذه الحشرة القصيرة الاجل أمر غير عملي ، ولكن البويضات يمكن أن تنسل ويتكاثر نتاجها في بلد بعيد ، وكان للديانة أو للمصلحة على الراهبين الفارسيين سلطان أقوى من حبهما لوطنهما ، فوصلا بعد رحلة طويلة الى القسطنطينية ، وأظهرا الامبراطور على مشروعهما ، فشجعهما جستنيان بما أغدق عليهما من هدايا ثمينة ووعود سخية . ومن الغريب أنه بدأ للمؤرخين الذين دونوا تاريخ هذا الأمير ، أن حملة في سفح جبال القوقاز أجدر بسرد أخبارها في تفصيل دقيق ، من جهود تلك البعثات التجارية ، التي عادت الى الصين ، وخذعت شعب الصين الحقوق فأخفت بويضات دودة القز في قصبات مجوفة ، وعادوا ظافرين بغنائم الشرق ، وأمكن تحت اشرافهم فقس البويضات في الوقت المناسب بفعل الحرارة الصناعية نتيجة لحفظ البويضات تحت التراب ، وغذيت الديدان يورق التوت ، فعاشت وقامت بعملها في مناخ أجنبي . وحافظوا على عدد كاف من الفراشات إبقاء على النوع ، وغرست أشجار التوت لتوفير الغذاء للأجيال الصاعدة من دود القز . وعملت التجربة واعمال الفكر على تصحيح أى خطأ يقع في المحاولة الجديدة واعترف مبعوثو أذربكستان فيما بعد أن الرومان لم يقلوا شأنا عن أهل الصين في تربية الحشرات وصنع الحرير الذي تفوقت فيه صناعة أوروبا الحديثة عن الصين والقسطنطينية معا . انى لست غافلا عن مزايا هذا الترف الناعم ، ولكنى أتأمل فيما بينى وبين نفسى فى شيء من الحسرة والألم : لو أن مستوردي الحرير أدخلوا فن الطباعة الذي كان الصينيون يمارسونه بالفعل وقتذاك لأمكن تخليد مسرحيات ميناندر Menander ومؤلفات ليفي Livy في طبعات القرن السادس ؟! ولكن من الجائز كذلك أن تعمل نظرة أوسع الى الكرة الأرضية على النهوض بالعلوم النظرية ، ولكن الجغرافية المسيحية كانت تستمد بحكم الضرورة من نصوص الأسفار المقدسة كما كانت دراسة الطبيعة دلالة لا نقض فيها ولا ابرام على قلب لم يعمر بالايمان ، ولقد حصرت العقيدة المسيحية الصحيحة

(الأرثوذكسية) العالم المسكون فى منطقة معتدلة واحدة ، وصورت الأرض على شكل مستطيل ، يمكن اختراقه طولا فى أربعمائة يوم ، وعرضا فى مائتى يوم . يحوطه البحر ، ويفطية غشاء القبة الزرقاء الثابت . .

كنيسة أيا صوفيا

لقد شاد جستنيان ما شاد من مبان بدماء الشعب وأمواله ، ولكن هذه العمارة كانت تنبئ فى ظاهرها عن رخاء الامبراطورية ، وتجلت فيها بالفعل مهارة مهندسيها ، ولقد نشأت تحت رعاية الأباطرة نظريات وتطبيقات الفنون التى تعتمد على العلوم الرياضية والقوة الميكانيكية ، وكان كل من بروكلوس Proclus وأنثيميوس Anthemius ينازع أرشميدس شهرته ومكانته العلمية . ولو أن رواة أذكيا بارعين دونوا أو رووا ما شاهدوا من آيات فنهما ، لزادت الآن تأملات الفلاسفة بدلا من إثارة شكوكهم . لقد سادت خرافة بأن الأسطول الرومانى تحول الى رماد فى ميناء سيراكوز بفعل عدسات أرشميدس الحارقة ، كما أكدوا أن بروكلوس استخدم وسيلة شبيهة بهذه لتدمير قوارب القوط فى ميناء القسطنطينية ، ولحماية الامبراطور المحسن أنسطاسيوس ضد محاولة فيتاليان الجريئة . ف قيل انه قد ثبت على أسوار المدينة آلة فيها مرآة سداسية الأضلاع من النحاس المصقول ، مع ألواح كثيرة أخرى مضلعة صغيرة تتلقى وتعكس أشعة شمس الظهيرة . ومنها صوب لهب مدمر لمسافة امتدت الى مائتى قدم . ولقد زعزع من قيمة هاتين الحقيقتين الفريدتين صمت أصدق المؤرخين عنهما . ولم تستخدم العدسات الحارقة قط فى الدفاع عن أى موقع أو مهاجمته ، على أن التجارب المدهشة التى قام بها أحد العلماء الفرنسيين أوضحت امكان وجود مثل هذه المرآة . فاذا كان الأمر كذلك فانى أكثر ميلا الى نسبة هذا العمل الى كبار الرياضيين القدامى ، منى الى ارجاع قيمة هذه الرواية الى خيال عظيم لراهب أو سفسطائى . وجاء فى رواية أخرى أن بروكلوس استخدم الكبريت فى تدمير أسطول القوط . وان لفظ الكبريت فى التفكير الحديث يرتبط فورا بالاشتباه فى البارود . وقد ذاع أمر هذا الاشتباه بفعل الفنون الخفية التى ابتدعها تلميذه أنثيميوس . ولهذا قصة نوجزها فيما يلى . أنجب أحد المواطنين بمدينة ترالس Tralles فى آسيا خمسة أولاد ، تميز كل منهم فى مهنته الخاصة بالمقدرة والتوفيق . فبرر أوليمبيوس فى الالمام بالفقه الرومانى وتطبيقه . وأصبح ديوسكورس

Dioscorus والاسكندر طبيبين عالمين ، ووقف أولهما مهارته وعلمه على خدمة مواطنيه ، على حين سعى الأخ الثانى ، وهو الأكثر طموحا ، وراء الثروة والشهرة فى روما . ووصلت شهرة مترودوروس عالم النحو ، وأنتيموس العالم الرياضى الهندسى ، الى أسماع الامبراطور جستنيان الذى دعاهما الى القسطنطينية ، على حين عكف أولهما على تنشئة الأجيال الصاعدة فى مدارس البلاغة ، ملأ الثانى أرجاء العاصمة والولايات بآثار أبقى على الزمن أبداً فنه ، وكان زينون قد تغلب يوماً بفصاحته على جاره أنتيموس فى مشادة تافهة وقعت بينهما بشأن جدران أو نوافذ داريهما المتجاورتين ، ولكن العالم الميكانيكى (أنتيموس) قهر الخطيب المفوه زينون بدوره ، بحيله وخططه الخبيثة غير المؤذية التى صورها جهل أجاثيوس - مؤرخ عصر جستنيان - تصويراً غامضاً لا غناء فيه . ذلك أن أنتيموس أعد بضعة أوعية أو مراجل ماء غطى كلا منها بقاع عريض لأنبوبة من الجلد تنتهى بطرف ضيق ، وتمتد فى تفنن بارع ، الى براطيم أو دعائم سقوف المباني المجاورة ، وكان تحت هذه المراجل نار متقدة ، وسار الماء المغلى فى الأنابيب ، فاهتزت أركان البيت بفعل الهواء المضغوط ، وربما تولى العجب سكانه المرتعدين فرقا من أن المدينة لم تقطن الى الزلزال الذى أحسوا هم به . وفى مرة أخرى ، بينما كان زينون وأصدقاؤه جالسين الى المائدة ، خطف أبصارهم ضوء شديد لا يحتمل توهج فى أعينهم من مرايا أنتيموس العاكسة ، كما ذهلوا من الصوت الذى أحدثه بعض جزيئات معينة دقيقة رائانة ، وأعلن الخطيب (زينون) الى السنااتو ، فى لغة مؤثرة أن أى انسان فان ، لابد أن يستسلم لعدو استطاع أن يهز الأرض بصولجان نبتيون (اله البحر) ، وأن يثير رعد وبرق جوف Jove نفسه (هو جوبيتر اله الحرب) . لقد ألهم عبقرية أنتيموس وزميله أيزيدور الملطى (من مالطة مدينة يونانية قديمة فى غرب آسيا الصغرى) واستغلها أمير انحط تذوقه للفنون الى هوى خبيث باهظ النفقة . لقد بسط المهندسون المقربون مشروعاتهم ومصاعبهم أمام أعين جستنيان ، واعترفوا فى حصافة وفطنة الى أى حد تفوق على تأملاتهم المضنية وأبحاثهم المرهقة ما تفيض به قريحة الامبراطور من معارف بدهية أو الهام سماوى ، وهو الامبراطور الذى اتجه اتجاها مباشرا الى خير شعبه ومجد عصره وخلص نفسه .

وكانت الكنيسة الرئيسية التى خصصها مؤسس القسطنطينية للقديسة صوفيا أو « الحكمة الخالدة » قد دمرتها النيران مرتين : مرة بعد نفى جون كريسستوم ، ومرة فى أثناء شغب نيقا بين الحزبين الأزرق والأخضر . وما أن هدا الشغب حتى حزن جمهور المسيحيين لتهورهم

الديني ، وكان من الجائز أن يغتبطوا بهذه الكارثة لو أنهم تنبأوا بعظمة الكنيسة الجديدة التي أخذ جستنيان ووزعه على عاتقه في غيرة ونشاط أقامتها ، وكان قد انقضى على تدميرها أربعون يوما فقط . فازيلت الأنقاض ، ووضع تصميم للبناء على مساحة أوسع اقتضت الحصول على موافقة بعض ملاك الأرض ، الذين حصلوا على أكثر الشروط سخاء نتيجة لما سيطر على الامبراطور من رغبة ملحة ورهبة شديدة . ووضع أنتميوس المشروع ، ووجه بذكائه وعبقريته جهود عشرة آلاف عامل ، لم يتأخر تسديد أجورهم في عملة من الفضة الخالصة عن مساء كل يوم من أيام العمل قط ، وكان الامبراطور نفسه ، مرتديا سروالا من الكتان ، يرقب كل يوم تقدمهم السريع ، ويشجعهم على الجد في العمل برفع الكلفة بينهم وبينه وبغيرته وبمكافآته . وافتتح البطريرك كنيسة أيا صوفيا الجديدة بعد خمس سنين وأحد عشر شهرا وعشرة أيام من وضع حجر الأساس فيها . ووسط الاحتفال المهيّب ، قال جستنيان متعجبا في زهو يتسم بالتقى والورع : « المجد لله الذي قدر أنى جدير بانجاز هذا العمل العظيم . . لقد جاوزت فيه قدرة سليمان وتفوقت عليه » . ولكن زلزالا دمر الجانب الشرقي من القبة أودى بزهو سليمان الرومان وغروره ، قبل أن ينقضى على البناء عشرون عاما . فاعيدت للكنيسة فخامتها ورواؤها . بفضل مثابرة الأمير نفسه ، وفي السنة السادسة والثلاثين من حكمه احتفل جستنيان للمرة الثانية بتدشين معبد ما يزال - بعد مرور اثني عشر قرنا - أثرا عظيما شاهدا على عظمته ، وقلد سلاطين الأتراك عمارة أيا صوفيا التي تحولت الى المسجد الرئيسي في المدينة ، وما يزال هذا الموقع الجليل يثير أشد إعجاب اليونانيين كما يثير حب استطلاع أكثر تعقلا في نفوس السائحين الأوروبيين . وقد يبعث الخيبة في نفس المشاهد ما يرى من منظر شاذ لأنصاف قباب وسقوف منحدره ، فالواجهة الغربية - أي المخل الرئيسي - خال من البساطة والعظمة ، ولقد فاقت عدة كنائس لاتينية هذا المبنى كثيرا في نسب أبعاده ومساحاته . ولكن المهندس الذي شاد لأول مرة هذه القبة الصاعدة في الهواء الى علو شاهق يستحق الثناء والمديح من أجل تصميمه الجريء وتنفيذه البارع . لقد بنيت قبة أيا صوفيا التي ينفذ اليها الضوء من أربع وعشرين نافذة بانحناء بسيط ، بحيث أن عمقها يبلغ سدس محيطها فقط . ويبلغ هذا القطر نحو مائة وخمسة عشر قدما . أما جزؤها الأوسط الشاهق الذي حل فيه الهلال محل الصليب ، فانه يرتفع عموديا الى نحو مائة وثمانين قدما فوق الأرضية . أما الدائرة التي تحيط بالقبة فانها تستند استنادا خفيفا على أربعة عقود متينة ، تدعمها أربع ركائز (خوازيق) قوية صماء ، يريد من متانتها ، في الجهتين الشمالية والجنوبية أربعة أعمدة من الجرانيت

المصرى • ويحتل صليب منقوش فى شكل رباعى شكل المبنى : عرضه بالمدة مائتان وثلاثة وأربعون قدما ، أما أقصى الطول فيبلغ مائتين وتسعة وستين قدما : من المذبح الى الأبواب التسعة الغربية التى تفتح على المدخل ومن هنا الى الرواق الخارجى • وكان هذا الرواق مأوى متواضعا للتائبين الذين جاءوا يكفرون عن خطاياهم أما حرم الكنيسة فكان يعج بجمهور المؤمنين • وفى شئ من الفطنة والحكمة أفرد لكل من الجنسين مكان خاص به ، وخصصت الشرفات العليا والسفلى لمن أراد من النساء الخلوة للتعبد • ووراء الأعمدة الضخمة الشمالية والجنوبية كان هناك جلق (درابزين) وضع فى نهاية طرفيه كرسى البطريرك وعرش الامبراطور ، وكان هذا الدرابزين يفصل بين حرم الكنيسة وبين فرقة الترانيم ، ومن هذا المكان حتى الدرجات التى توصل الى المذبح كان يجلس رجال الدين والمرتلون • أما المذبح نفسه ، وتلك لفظة ألفتها أسماع المسيحيين بطريقة غير ملحوظة ، فكان يقع فى فتحة فى الجهة الشرقية ، وكان مبنيا على شكل نصف دائرة بطريقة فنية بارعة ، وكان قدس الأقداس يتصل ، عن طريق عدة أبواب ، بحجرات المقتنيات والملابس المقدسة والتعميد ، وبعبارة موجزة كانت هذه الأبنية المتلاصقة وقفا على جلال العبادة أو الاستعمال الخاص للقساوسة ، وأوحت الكوارث الغابرة الى جستنيان بفكرة صائبة استقر رأيه على الأخذ بها ، تلك هى ألا تدخل الأخشاب الى العمارة الجديدة الا لصنع الأبواب فحسب ، أما اختيار مواد البناء الأخرى فكان رهنا بما تقتضيه أجزاء المبنى من متانة أو خفة أو فخامة ورواء • وكانت الركائز (الخوازيق) الضخمة التى تحمل القبة مصبوبة من كتل كبيرة من الحجر الصوان مشدودة بأطواق من الحديد ، منحوتة فى أشكال مربعة أو مستطيلة ، مثبتة تثبيتا محكما بمزيج من الرصاص والجير الحى • وكان يقلل من ثقل القبة خفة المادة التى بنيت منها : وهى الحجر الخفاف الذى يطفو على الماء ، أو الطوب الذى جئ به من جزيرة رودس ، وهو نوع لا يصل ثقله لأكثر من خمس ثقل النوع العادى وكان المبنى كله مشيدا من الطوب ، ولكن كسيت هذه المادة الأساسية بطبقة من الرخام • وان هذه الصورة الجميلة الفاخرة المزركشة - صورة أيا صوفيا من الداخل ، والقبة الكبرى والقبتين النصفيتين الكبيرتين والقباب الست النصفية الصغرى ، والأسوار والأعمدة المائة والأرضية - تسر الناظرين حتى من المتبربرين •

ويعدد شاعر شاهد كنيسة أيا صوفيا فى بهائها الأول - يعدد ما رأى من الألوان والظلال ، والأجزاء المكسوة بالرخام وحجر اليشب والفسيفساء فى مجموعات تتكون من عشر قطع أو اثنتى عشرة قطعه

منها ، مما جادت به الطبيعة فى سخاء وتنوع • وبدأ فيها التناسق والتباين
وكانتاهما من ابداع ريشة مصور ماهر • وازدانت الكنيسة ، - وهى
رمز غلبة المسيحيين - بأخر ما غنموا من الوثنيين من اسلاب • ولقد
قطع الجزء الاكبر من هذه الأحجار من محاجر آسيا الصغرى وبلاد اليونان
وجزرها ، ومصر وإفريقية والغال • وقدمت سيدة رومانية ورعة ثمانية
أعمدة من الفسيفساء كان أوريليان قد وضعها فى « معبد الشمس » •
وأهدى حكام أفيسوس المتحمسون الطموحون ثمانية أخرى من الرخام
الأخضر ، وكانت هذه وتلك موضع إعجاب لحجمها وجمالها ، ولكن أى
فن من فنون العمارة لابد أن ينفر من تيجانها الغريبة الشكل • وصنعت
- صناعة عجيبة - مجموعة من الزخارف والرسوم من « الموزايك »
وتعارضت مع خرافة اليونان ، بشكل خطير ، صور المسيح والعذراء
والقديسين والملائكة ، تلك الصور التى أزالها الأتراك نتيجة لتعصبهم
وكان نصيب كل صورة من هذه الصور من الأحجار الكريمة يتفق مع
قدر قدسيتها ، فأصبحت هذه قشورا رقيقة ، وأصبحت تلك قطعاً ضخمة
من تلك الأحجار الكريمة • وكان حاجز فرقة المرتلين وتيجان الأعمدة
وزخارف الأبواب والشرقات ، مصنوعة من البرونز المذهب • وكان بريق
القبة يبهى الأبصار • وكان فى المحراب ما زنته أربعون ألف رطل من
الفضة ، أما الأواني المقدسة وملابس الكهنة فكانت من الذهب الخالص
الموشى بأثمن الجواهر • وقبل أن يرتفع مبنى الكنيسة عن الأرض قدر
ذراعين ، كان قد أنفق بالفعل خمسة وأربعون ألفاً ومائتاً جنيه ،
أما جملة التكاليف فقد بلغت ثلاثمائة وعشرين ألف جنيه ولكل قارئ ،
تبعا لدرجة تصديقه ، أن يقدر هذه القيمة بالذهب أو الفضة ولكنها
لا تقل بحال من الأحوال عن مليون من الجنيهات الاسترلينية (١) •
وربما كان المعبد الفخم شاهد صدق على ذوق الأمة وديانتها ، وربما
ذهبت الغيرة بالمتحمس لدينه - اذا دخل قبة أيا صوفيا ، الى حد القول
بأن هذه القبة مقر الله أو أنها من صنع يديه ، ولكن ما أتفه هذا الفن ،
وما أهون هذا الجهد ، اذا قيسا بخلق أحقر حشرة تزحف على سطح
هذه الكنيسة !! •

وقد يجدي الوصف الدقيق لهذه العمارة - أيا صوفيا - التى
أضفى عليها الزمن مجدا وجلالا ليكون شاهد صدق على ما لا يحصى

(١) جاء فى صحيفة ٢٢٥ - المجلد الرابع - من كتاب تاريخ العالم الذى نشرته
وزارة التعليم العالى بالقاهرة ، فى مقال الأستاذ بريس عن القسطنطينية وعصر
جستينيان ، أن أحد المؤرخين ذكر أن تكاليف بناء كنيسة أيا صوفيا وثمان الاثالث بلغت
رقما لا يصدق العقل وهو ١٤ مليونا من الجنيهات الانجليزية - (الترجمة) •

من الأبنية التي شادها جستنيان في العاصمة والولايات ، على مقياس أصغر وأساس أقل متانة ، وليبرر العلاقة بينها ، فقد أقام تمجيدا للمسيح والعذراء والقديسين ، في القسطنطينية وضواحيها الغربية خمسا وعشرين كنيسة ، زينت معظمها بالرخام والذهب واختيرت مواقعها اختيارا حسنا في حي أهل بالسكان أو غابة لطيفة ، أو قريبا من شاطئ البحر ، أو على مرتفع من الأرض يشرف على أوروبا وآسيا . ويبدو أن كنيسة « الرسل المقدسين » في القسطنطينية ، وكنيسة القديس جون في أفيسوس قد صممتا على نفس الطراز ، فقد ارتفعت قبابهما تحكى قبة أيا صوفيا ، ولكن المذبح في كل منهما وضع بشكل أكثر احكاما تحت الجزء الأوسط من قبة . في نقطة اتصال أربعة من الأروقة الفخمة . ومثلت الصليب اليوناني بصورة أدق ، وربما اعتزت عذراء أورشليم بالمعبد الذي نذره الامبراطور لاسمها في بقعة غير ملائمة الى أبعد حد لا من حيث سعة المكان ، ولا من حيث المواد التي يجب توافرها للمهندس ، وقد هييء لها الموقع بتعليق جزء من واد سحيق الى ارتفاع الجبل ، ونحتت الأحجار من محجر مجاور في أشكال منتظمة ، ووضع كل منها على عربة يجرها أربعون من أقوى الثيران ، ووسعت الطرقات لمروء مثل هذه الأثقال الضخمة . وزود أرز لبنان الكنيسة بما يلزمها من أخشاب واكتشف في الوقت المناسب محجر للرخام الأحمر ، فأخذت منه الأعمدة الجميلة ، وقيل ان العمودين اللذين يحملان الرواق الخارجى ، هما أضخم ما في العالم من أعمدة . وإذا كان الامبراطور قد أغدق بسخاء مقرون بالورع خيرات وكرمه على الأراضي المقدسة ، وإذا كان العقل لا يقر الأديرة التي بناها الامبراطور أو جدد بنائها لكل من الجنسين ، فان حب الخير أو البر ليتجلى في الآبار التي حفرها والمستشفيات التي أنشأها للتخفيف من ويلات الحجاج . وإذا كان الشقاق الدينى في مصر قد حجب عنها كرم الامبراطور وسخاءه ، فقد بذلت بعض المعونات في سوريا وأفريقية لعلاج آثار الكوارث والزلازل ، وحق لقرطاجة وأنطاكية أن تمجدا اسم الامبراطور المحسن الكريم الذى مد اليهما يد المساعدة . وكان الأمر يصل الى تشييد معبد لكل قديس في سجل القديسين ، وكادت كل مدينة في الامبراطورية تكون قد حظيت بالمرافق الثابتة من قناطر ومستشفيات وخزانات للمياه . ولكن الامبراطور أبى عليه سخاؤه الحازم الحكيم أن يهيء لرعاياه مجال الانغماس في الترف الشعبى المألوف . ترف الحمامات والمسارح والملاهى . وبينما جهد جستنيان وكده في توفير الخدمات العامة للشعب ، نجد أنه لم يهمل العناية بمكانته وتوفير أسباب الراحة والعظمة لشخصه . فان قصر بيزنطة الذى كان قد دمره الحريق ، جدد بناؤه مع مزيد من الفخامة والروعة ، وقد يكون من الميسور تكوين فكرة عن المبني بأسره

من المدخل أو البهو الذي أطلق عليه « النحاسي » نسبة الى جدرانه أو سقفه . وكان له قبة كبيرة ذات شكل رباعي تقوم على أعمدة ضخمة ، وكانت الأرضية والحوائط مكسوة برخام متعدد الألوان ، مثل اللون الزمردي الأخضر الوارد من لوكونيا ، أو الأحمر القاني ، أو الأبيض الوارد من فريجيا ، مجزعة كلها بعروق في لون خضرة البحر . وكانت نقوش الموزاييك في القبة وعلى الجوانب تمثل الانتصارات الرومانية في أفريقيا وإيطاليا . وأعد قصر جيروم الفخم وحداثته الواقعة على الشاطئ الآسيوي لبحر مرمرة على بعد مسافة قصيرة من خلقدونية شرقا - أعد ليكون مقرا صيفيا لجستينيان ، وبصفة أخص للامبراطورة تيودورا . وكم أظن شعراء العصر في وصف الانسجام النادر المثال بين الطبيعة والفن ، وحوريات الأحراش ، والنافورات والأمواج ، ومع ذلك كانت حشود الأتباع الذين جاءوا في ركاب البلاط تشكو من عدم توفر وسائل الراحة في الأماكن التي أعدت لاقامتهم ، كما أن الحوريات كثيرا ما تولاهن الفزع من « بورفيريا الشهر Porphyria » وهو حوت عرضه عشرة أذرع وطوله ثلاثون ذراعا ، يقال انه ارتطم بالشاطئ عند مصب نهر سانجارس Sangaris بعد أن نشر الرعب والفزع في بحار القسطنطينية أكثر من نصف قرن من الزمان .

القضاء على مدارس أثينا

قضى جستينيان على مدارس أثينا وعلى وظيفة القنصل في روما ، وكم أخرجت هذه وتلك للعالم من حكماء وأبطال ! ولا بد من القول بأنها كانتا قد هبطتا منذ زمن طويل دون مكانتهما الرفيعة الأولى ، ولكن لا بد كذلك من القاء بعض اللوم بحق على الأمير الذي دمر بيديه تلك البقايا أو المعالم المجيدة ، نتيجة لجشعه وحقده .

احتضنت أثينا بعد انتصاراتها على الفرس ، فلسفة أيونيا وبلاغة صقلية ، وأصبحت هذه الدراسة تركة لمدينة لم يتجاوز عدد سكانها ثلاثين ألفا من الرجال ، تركزت فيهم على مدى جيل واحد عبقرية العصور والملايين . وانا لنزداد احساسا بعظمة الطبيعة البشرية اذا تذكرنا أن ايسوقراط Isocrates كان زميل أفلاطون وزينوفون ، وأنه عاون ، وربما مع المؤرخ ثيوكديديس ، في العروض الأولى لرواية سوفوكليس « أوديب » ورواية « يوربيديس » : ايفيجينيا Iphigenia وأن تلميذه أسكينز Aeschines وديموستين تنازعا قصب السبق في مضمار الوطنية في حضرة أرسطو أستاذ ثيوفراتوس Theophratus الذي علم في

مدارس أثينا مع مؤسسى المذهبين الرواقى والأبيقورى . ونعمت أثينا فى عصر شبابها البرى بمزايا تعليمهما المحلى الذى كان ينتقل دون ما حقد أو حسد الى المدن المتنافسة . واستمع الى دروس ثيوفراتوس آلاف من التلاميذ ، ولابد أن مدارس البيان والبلاغة كانت أكثر اكتظاظا من مدارس الفلسفة ، فنشرت الأجيال المتعاقبة من التلاميذ شهرة معلمهم ، الى آخر ما وصلت اليه لغة الاغريق واصمهم من حدود ، واتسعت هذه الحدود نتيجة لانتصارات الاسكندر ، فعاشت فنون أثينا بعد زوال حريتها وانقضاء ملكها . وكثيرا ما حج أهل المستعمرات اليونانية التى أنشأها المقدونيون فى مصر ، وهنا وهناك فى آسيا - نقول حج هؤلاء ، فى رحلات طويلة ، ليعبدوا ربات البلاغة والآداب والفنون فى معبدهن المفضل الواقع على ضفاف نهر اليسوس *Ilissus* . واصفى الغزاة اللاتين الى تعاليم رعاياهم واسراهم . وسجل اسم كل من شيشرون وهوراس فى مدارس أثينا ، وبعد أن استقرت الامبراطورية الرومانية بات مواطنو ايطاليا وأفريقيا وبريطانيا يتبادلون الحديث مع أقرانهم طلبة الشرق فى حدائق الأكاديمية (الجامعة) . ان دراسات الفلسفة والبلاغة لتلتئم كل الالتئام مع دولة شعبية تشجع حرية البحث ولا تستسلم الا لقوة الاقناع . وكان فن الكلام فى جمهوريات اليونان وروما أداة قوية للوطنية والطموح . وأنجبت مدارس البلاغة مجموعة من رجال السياسة ومن المشرعين . فلما قضى على حرية المناقشة ، عمد الخطيب الذى يشتغل بالمهنة الشريفة ، مهنة المحاماة ، الى الدفاع عن قضية البراءة والعدالة . وربما أساء استغلال مواهبه فى عملية تدر ربحا أكثر ، هى كيل المديح والاطراء . وبقيت نفس التعاليم توجه الى السفسطائي بخطاباته المؤثرة المليئة بزخرف القول ، والى المؤرخ بكتاباتاته التاريخية التى تتسم بمحسنات أبسط وأكثر عفة . ان المذاهب التى أعلنت أنها تكشف عن طبيعة الله والانسان والكون أثارت فضول دارس الفلسفة ، وان الأمر هنا ليختلف باختلاف المزاج العقلى لكل دارس ، فلربما تشكك مع المتشككين ، أو استقر رأيه مع الرواقيين ، أو سسما بتأملاته مع أفلاطون ، أو جادل جدالا مضنيا مع أرسطو ، وكانت المذاهب المتعارضة المتعالية قد وضعت للسعادة الروحية والكمال الروحي مستوى لا يمكن بلوغه ، ولكن السباق كان رائعا نافعا . فقد تعلم تلاميذ زينون ، بل حتى تلاميذ ابيقور أن يجدوا وأن يكابدوا ، ولم يكن موت بترونيوس أقل أثرا من موت سينيكا فى اذلال أحد الطغاة باكتشاف عجزه . وما كان من الميسور حصر نور العلم بين جدران أثينا . ذلك أن كتابها المنقطعى النظير كانوا يخاطبون الجنس البشرى بأسره . ورحل المعلمون الباقون على قيد الحياة الى ايطاليا وآسيا . واختصت بيروت ، فى عصر متأخر ، بدراسة القانون ، كما أنشئت دراسة الطبيعة

دلالة لا نقض فيها ولا ابرام على قلب لم يعمر بالايمان ، والفلسفة في
أتیکا بقيت محتفظة بسمو مكانتها وتلوق شهرتها منذ حروب البلوبونيز
الى عهد جستنيان ، ولقد تمتعت أثينا ، رغم وقوعها في واد غير ذى زرع ،
بطيب الهواء وسهولة المواصلات البحرية ، وآثار الفن القديم . وقلما
كدرت مهام التجارة والحكومة صفو هذه الخلوة المقدسة . وتميز كل
الأثينيين بالذكاء المتوقد ، ونقاوة الذوق واللغة ، والآداب الاجتماعية ،
وبآثار من الشهامة على الأقل في الحديث ، مما كان يعرف به أجدادهم .
وقامت في ضواحي المدينة أكاديمية الأفلاطونيين ، ومدرسة (ليسيوم)
المشائين ، وحلقة الرواقيين . وحلقة الأبيقوريين ، وكانت كلها مكسورة
بالأشجار مزدانة بالتماثيل . ولم يكن الفلاسفة يقبعون في أديرة ،
بل كانوا يلقون تعاليمهم ودروسهم متنقلين في هذه المسالك الفسيحة
البهيجة ، في ساعات مخصصة لرياضة العقل والجسم معا . وعاشت
عبقرية المؤسسين الأولين في هذه الأماكن الوقورة . وخلق التطلع الى
خلافة أساتذة البشرى بين الطامحين فيها منافسة غريمة شريفة ، ولكن
الرأى الحر للشعب المستنير هو الذى كان يحدد أو يقرر أهلية المرشحين
للفوز بهذه الخلافة ، اذا خلا مكان . وكان التلاميذ يأجرون أساتذتهم
الأثينيين ، تبعا لحاجات الطرفين وقدراتهما . ويبدو أن هذا الأجر كان
يتراوح بين Mina (أى ما يعادل نحو ثلاثة جنيهات انجليزية و Talent
أى نحو عشرين جنيها انجليزيا) . وتقاضى ايسوقراط الذى كان يسخر
من جشع السفسطاين نحو ثلاثين جنيها من كل تلميذ من تلاميذه المائة
في مدرسة البلاغة . ولا ريب في أن الأجر عن العمل عادل ومشرف ، ولكن
ايسوقراط نفسه ذرف الدمع عندما تسلم أول أجر أو راتب . وربما
احمرت وجنتا الرواقي خجلا حين كان يستأجر ليعظ الناس في احتقار
المال والشراء . وكم شعرت بالأسى والأسف عندما تبينت أن أرسطو
أو أفلاطون انحطأ عن المثل الذى ضربه سقراط ، حيث كانا يبيعان المعرفة
بالذهب . ولكن القوانين ووصايا الأصدقاء المتوفين كانت تبيح وقف
بعض الأراضى والدور على كراسى الفلسفة في أثينا . وأوصى ابيقور
لتلاميذه بالبساتين التى كان قد اشتراها بثمانين تالنت أى بنحو مائتين
وخمسين جنيها ، مع مبلغ من المال كاف لاعاشتهم معيشة مقتصدة ،
ولحفلاتهم الشهرية ، أما تركة أفلاطون فكانت تدر ايجارا سنويا زاد
في مدى ثمانية قرون من ثلاث قطع الى ألف قطعة ذهبية . ولقد رعى
أحكام الأباطرة الرومان وأفاضلهم مدارس أثينا وحافظوا عليها . وكانت
المكتبة التى أسسها هادريان قائمة في رواق مزدان بصور وتماثيل وسقف
من المرمر ، على مائة عمود من رخام فريجيا . واقتضت أريحية الانطونيين
وكرمهم تخصيص مرتبات عامة . وكان كل أستاذ في السياسة والبلاغة ،

أو في مدرسة أفلاطون أو في مدرسة المشائين ، أو الرواقين للفلسفة ، يتقاضى راتباً سنوياً قدره عشرة آلاف دراهمة ، أى أكثر من ثلاثمائة جنيه استرلينى . وبعد موت ماركوس ألتيت الامتيازات والمنح السخية المخصصة للملك العلم والمعرفة ، ثم أعيدت وأنقصت ثم زيدت . ولكن قد نجد لهذه المنحة الملكية أثراً باقياً فى عهد خلفاء قسطنطين . ولكن التحكم فى اختيار ، وإن شئت فى فرض مرشح غير أهل للأستاذية ، ربما كان مدعاة لأسف فلاسفة أثينا وحزنهم على أيام الاستقلال مع الفقر والفاقة . وتجدر الإشارة هنا إلى أن الأباطرة الأنطونيين كانوا يولون مدارس الفلسفة الأربع على اختلاف مذاهبها عطفهم دون تحيز إلى فئة دون فئة ، حيث اعتبروها نافعة ، أو على الأقل بريئة ، على قدر سواء . وكان ينظر إلى سقراط فى غابر الأيام على أنه مجد وفخار ، وسبة لبلده . ولقد آذت دروس أبيقور الأولى أذان الأتنيين بدرجة غريبة ، إلى حد أنهم ، بعد أن نفوه هو ومعارضيه ، أسكتوا المناقشات العقيمة التى كانت تدور حول طبيعة الآلهة . ولكنهم فى السنة التالية تذكروا القرار الذى تعجلوا اتخاذه ، وأعادوا لمدارس الفكر حريتها ، وأقنعتهم خبرة الزمن بأن الطابع الخلقى للفلاسفة لا يتأثر بتعارض تأملاتهم فى المسائل اللاهوتية .

وكانت حراب القوط وأسلحتهم أقل خطراً على مدارس أثينا من إقرار دين جديد عطل رجاله استخدام العقل والمنطق ، وقضوا فى كل مسألة بحكم من أحكام العقيدة ، وتوعدوا كل كافر متشكك بعذاب النار وسوء المصير . وكما سيطروا من مجلدات حشوها بالجدل المضنى ، وشهروا فيها بضعف عقول الحكماء القدامى وفساد قلوبهم ، وجرحوا طبيعتهم البشرية وحرموها روح البحث الفلسفى ، وهو أمر بغض بالنسبة للعقيدة المؤمن المتواضع أو على الأقل لطبعه ومزاجه . وأسرف الأفلاطونيون المحدثون ، الذين كان من الجائز أن يخجل أفلاطون نفسه من الاعتراف بهم ، نقول أسرفوا فى خلط نظرية أفلاطون السامية بممارسة الخرافة والسحر ، وبقوا وحدهم وسط العالم ، المسيحي ، وهم يطوون صدورهم على حقد دفين على رجال الكنيسة والدولة اللتين كان بطشهما لا يزال مسلطاً فوق رؤوسهم ، وبعد مضي قرن من الزمان على عصر جوليان رخص لبروكلوس فى شغل كرسي الفلسفة بالأكاديمية ، وبلغ من نشاطه وجده أنه كثيراً ما كان يلقي خمسة دروس ويدبج سبعمائة سطر فى اليوم الواحد . وارتاد ذهته الخصيب أعوص قضايا الأخلاق والميتافيزيقا ، وتجاسر على إثارة ثمانى عشرة حجة ضد نظرية خلق العالم فى المسيحية . ولكنه كان فى أوقات الدراسة يناجى شخصياً « بان ، وأسكولابيومس ،

ومينرفا « (من آلهة اليونان) الذين تلقن أسرارهم خفية ، والذين عبد تماثيلهم المحطمة ، مع اقتناع مخلص بأن الفيلسوف الذى هو أحد مواطني الكون يجب أن يكون كاهنا لكل معبوداته وآلهته . وقد آذن كسوف الشمس بدنو أجله . وأن « سيرة حياته » مع تلميذه ايزيدور - وقد دونها اثنان من أغزر تلاميذهما علما - لتكشف عن صورة محزنة كثيبة للطفولة الثانية التى ينحدر إليها العقل الانسانى . ولكن السلسلة الذهبية - كما كان يلذ للناس تسميتها - لخلفاء أفلاطون (فى مدرسته) استمرت أربعة وأربعين عاما ، من بعد وفاة بروكلوس الى وقت صدور مرسوم جستنيان الذى قضى على مدارس أثينا بالصمت البليغ الى الأبد ، وأهاج حزن البقية الباقية من أنصار علم الاغريق وخرافتهم ، وأثار استيائهم ، فاستقر رأى سبعة من الفلاسفة الأصدقاء - هم ديوجين Diogenes وهرمياس Hermias ، يولاليوس Eulalius ، برسكيان Priscian ، دماسكيوس Damascius ، ايزيدور Isidore ، وسمبليكيوس Simplicius ، الذين خرجوا على دين مليكهم - استقر رأيهم على اللجوء الى بلد آخر سعيا وراء الحرية التى أنكرها عليهم وطنهم . وكانوا قد سمعوا وصدقوا فى سذاجة أن جمهورية أفلاطون قد تحققت فى حقوة الفرس الاستبدادية المطلقة ، وأن ملكا محبا لوطنه قد تولى مقاليد الحكم فى أمة هى أسعد الأمم وأكثرها فضيلة ، وسرعان ما عرتهم الدهشة اذ تبينوا بصورة طبيعية أن فارس لم تكن تشذ عن سائر بلاد المعمورة ، وأن خسرو الذى انتحل اسم الفيلسوف كان ملكا مغرورا قاسيا شرها ، وأن طائفة الكهنة هناك كان يسيطر عليها التعصب وروح التزمّت ، وأن النبلاء كانوا غلاظا متغطرسين ، ورجال البلاط أذلاء أدنياء ، والقضاة ظالمين جائرين ، فافلت المجرمون أحيانا ، وعانى الأبرياء من الظلم كثيرا . وأدى اليأس وخيبة الأمل بهؤلاء الفلاسفة الى اغفال الفضائل الحقيقية عند الفرس وأذى شعورهم أكثر كثيرا مما يقتضى مقام مهنتهم ما رأوا من تعدد الزوجات والخيلات ، وزواج المتعة ، وعادة تعريض جثث الموتى للكلاب والطيور الجارحة بدلا من مواراتها التراب أو حرقها ، وتجلى ندمهم فى عودتهم السريعة الى أرض الوطن حيث أعلنوا بصوت عال أنهم انما يؤثرون أن يموتوا على حدود الامبراطورية ، على أن يتمرغوا فى ثروة المتبربرين وعطفهم . ومهما يكن من أمر فقد جنوا من رحلتهم هذه فائدة تلقى المبعوض على شخصية خسرو ، فقد طلب اغفاء الحكماء السبعة الذين زاروا بلاط فارس من العقوبات التى فرضها قانون جستنيان ضد رعاياه الوثنيين . ونص على هذه الميزة بصراحة فى بند من بنود معاهدة الصلح التى أشرف على تنفيذها وسيط قوى يقظ . وأمضى سمبليكيوس ورفاقه بقية حياتهم هادئين مغمورين . ولما لم يتركوا وراءهم تلاميذ ، فانهم

يختمون الثبت الطويل للفلاسفة الاغريق الذين يمكن تمجيدهم بحق ، بوصفهم رغم نقائصهم ، أعقل وأفضل معاصريهم . وما تزال كتابات سمبليكيوس باقية . وذهبت هباء تبعا لروح العصر ، تعليقاته الطبيعية والميتافيزيقية على أرسطو ، ولكن تفسيره الأخلاقي لفلسفة إبكتيتوس Epictetus احتفظ به في مكتبات العالم بوصفه تراثا قديما استخدم بشكل بارع لتوجيه الارادة وتنقية القلب ، وتشبيث العقل عن طريق الثقة الحقيقية بطبيعة الله وطبيعة الانسان .

القضاء على وظيفة

القنصل الروماني

أقام بروتسي الأكبر صرح الحرية وأنشأ وظيفة القنصل في روما ، في نفس الوقت الذي ابتدع فيه فيثاغورس اسم الفيلسوف لأول مرة تقريبا . وورد في الكتاب الذي بين أيدينا بين الحين والحين ، ذكر تطورات وظيفة القنصل التي يمكن تتبعها في أضواء مختلفة : من حقيقة مادية ملموسة ، الى ظل من الحقيقة ، الى مجرد لقب أجوف . . وكان الشعب يختار حكام الجمهورية الأولين ليبارسوا في السناتو وفي المعسكر سلطات السلم والحرب التي انتقلت فيما بعد الى الأباطرة ، ولقد نظر الرومان والمتبريرون أمدا طويلا بعين الاجلال والتقدير الى التقليد الذي توارثوه ، ألا وهو هذه الوظيفة . وان أحد المؤرخين القوط ليمتدح قنصلية ثيودوريك بوصفها ذروة المجد والعظمة الديويتين . وان ملك ايطاليا نفسه ليقدم التهنئة الى أولئك الذين يسعدهم الحظ مع كل عام جديد ليكونوا قناصل ، يعمون بأبهة العرش دون همومه . وبعد ألف من الأعوام عين ملكا روما والقسطنطينية في كل منهما قنصلا ، لا شيء الا مجرد تحديد بدء العام ، واقامة مهرجان يشهده الشعب ولكن نفقات هذا المهرجان الذي تطلع فيه الموسرون والمغرورون الى أن يبرزوا أسلافهم ، قفزت دون أن يحسوا الى ثمانين ألف جنيه . ونبد أعقل شيوخ السناتو هذا الشرف العقيم الذي انطوى على دمار محقق لأسراتهم . ولابد أن أنسب الى هذا الاحجام والنفور كثرة توقف المهرجان بتنصيب القناصل في آخر عهود القنصلية . وكان أسلاف جستنيان يساعدون من الأموال العامة في المحافظة على كرامة المرشحين الذين هم أقل يسرا وثراء . ولكن جشع هذا الأمير أدى به الى ايثار طريقة أقل نفقة وعناء للحصول على المشورة والتنظيم ، وأصدر مرسوما قصر فيه الاحتفالات على سبعة فقط : لسباق الخيل والعربات ولللألعاب الرياضية ، وللموسيقى المسرح وتمثيلياته المضحكة ، ولصيد الوحوش الكاسرة : واستبدلت في جكمة القطع الفضية بالميداليات الذهبية التي كانت دائما تثير الشغب ونشوة

الخمر عندما تنثرها اليد السخية فى سرف بالغ على الجمهور ، ورغم هذه الاحتياطات ، ورغم المثل الذى كان يضربه هو نفسه ، فقد بطل تنصيب القناصل نهائيا فى السنة الثالثة عشرة من حكم جستنيان الذى ربما أرضيت نزعة الاستبداد فيه بالقضاء قضاء صامتا على لقب ذكر الرومان بحريتهم القديمة . ولكن الذكرى السنوية لتنصيب القناصل ظلت حية فى أذهان الشعب ، وكانوا يتعجلون عودتهم فى لهف زائد ، وكم أثنوا على كرم الأمراء المتعاقبين الذين افترضوا أنهم فى أول سنى حكمهم سيعيدون هذه الوظيفة ، ولكن انقضت بعد موت جستنيان ثلاثة قرون قبل أن يستطاع بحكم القانون إلغاء هذه الوظيفة المهجورة التى كان قد قضى عليها . واستبدلت الطريقة المعيبة ، طريقة تمييز كل سنة باسم أحد الحكام ، بنظام آخر معين ، وذلك باتخاذ تاريخ عصر ثابت . فحدد الاغريق التاريخ ببدء الخليفة - كما جاء فى الترجمة اليونانية « للعهد القديم - » ، أما اللاتين ، منذ عصر شارلمان ، فقد بدأ حسابهم لزمانهم من مولد المسيح .



هناك ، الى جانب امجاد عصر جستنيان ، حدثان خطيران سيئان : اولهما تذييره الاقتصادى ، وثانيهما عجزه من الناحيتين اللاهوتية والسياسية عن التوفيق بين الولايات الشرقية والغربية . وكانت زوجته القديرة تيودورا يعقوبية المذهب (تعتقد أن للمسيح طبيعة واحدة) وبعد وفاتها فى ٥٤٨ حاول جستنيان أن يسترضى العناصر اليعقوبية . ولو أنه أفلح فى ذلك لكان من الجائز أن يحتفظ بولاء الولايات الشرقية ، ولكن المذهب اليعقوبى كان فى الواقع قريبا من العقيدة الاسلامية ، الى حد انه كان من السهل بل ومن المحتمل معا ، أن تلتشق وتسقط هذه الولايات الشرقية ، عند ظهور الاسلام .

ويصف جييون فى الفصل الحادى والأربعين فتوحات جستنيان (٥٣٣ - ٥٤٠) . وسيطر جستنيان بفصل قائديه بليساريوس ونارسيس على الجبهة الشرقية ، واسترد من الوندال أفريقية وجزءا من أسبانيا . وأعاد البحر المتوسط بحيرة رومانية مرة أخرى . وقضى بليساريوس على حكم القوط الشرقيين فى إيطاليا ، واسترد روما ، وأفلح فى مقاومة الحصار الذى ضربه عليها القوط ، ومن ثم استطاع محاصرة رافنا والاستيلاء عليها .

وفى الفصل الثانى والأربعين يروى جييون قصة نشوء المباردين ، وظهور السلاف والشعوب التركية .

الفصل الثالث والأربعون

(٥٤٦ - ٥٩٤)

آخر انتصارات بليساريوس وموته • أخلاق جستنيان وموته • المذنبات والزلازل والطاعون خلال حكم جستنيان

ثار القوط بقيادة توتिला واستولوا على روما في سنة ٥٤٦ • واستعادها بليساريوس ولكنها أخذت مرة ثانية بعد استنعاثه • وفي سنة ٥٥٢ هزم الخصى نارسيس توتिला ، وحرر روما • وبعد ذلك هزم خليفة توتिला ، تياس ، آخر ملوك القوط ، وسحق غزوة قام بها الفرنجة والألمان • وجلس على عرش ملوك القوط نواب رافنا ، وهم ممثلو امبراطور القسطنطينية • وأصبح نارسيس نفسه أول نائب ، وحكم مملكة إيطاليا كلها أكثر من خمسة عشر عاما •

آخر انتصارات

بليساريوس وموته

بودى أن أصدق ، ولكننى لا أجرؤ على التأكيد ، بأن بليساريوس اغتبط فى إخلاص لانتصار نارسيس ، غير أن شعوره بمآثره هو نفسه ربما علمه أن يقدر ، دون شعور بالغيرة ، جدارة منافسه ، وتوجت راحة المحارب العجوز بانتصار أخير أنقذ الامبراطور والعاصمة • وكان المتبربرون الذين يرتادون سنويا ولايات أوربا ، لا تثبط من عزائمهم بعض الهزائم العابرة ، بقدر ما كان يثيرهم الأمل المزدوج فى النهب ، وفى المنح والاعانات • وفى الشتاء الثانى والثلاثين من عهد جستنيان كان الدانوب مغطى بطبقة سميكة من الجليد ، وقاد زابرجان فرسان البلغار وانضم تحت لوائه جمهور خليط من الصقالية • وعبر الزعيم الشرس ، دون مقاومة ، النهر والجبال ، ونشر قواته فوق مقدونيا وتراقيا •

وتقدم على رأس ما لا يزيد عن سبعة آلاف من الفرسان صوب سلسلة الأسوار الطويلة التي كان يجب أن تحمي اقليم القسطنطينية . غير أن ما يبنيه الانسان لا يجدى نفعا أمام هجمات الطبيعة : فقد حدث زلزال قبل ذلك بفترة وجيزة خلخل أساس الأسوار ، كما أن قوات الامبراطورية كانت مشغولة على الحدود البعيدة لاطاليا ، وأفريقيا وفارس . وكانت فرق المشاة السبع التي يتألف منها الحرس ، أو القوات الأهلية ، قد زيد عددها الى خمسة آلاف وخمسةائة رجل ، وكان مركزهم العادى فى مدن آسيا الهادئة . غير أن أماكن الأرمن الشجعان شغلها بصورة غير محسوسة مواطنون من الكسالى الذين اشتروا اعفاء من واجبات الحياة المدنية دون أن يتعرضوا لأخطار الخدمة العسكرية . وقلة من أمثال هؤلاء الجنود كان يمكن اغراؤها على تجاوز أبواب المدينة فى هجومهم ، كما أنه كان مستحيلا أن يستمال أحد منهم الى البقاء فى الميدان الا اذا أعوزته القوة والسرعة للهرب من البلغار . وكانت الأخبار التي نقلها اللاجئون تبالغ فى أعداد العدو وفى قسوته وضراوته ، ذلك العدو الذى اعتدى على العذارى المقدسات ، وترك الأطفال الرضع للكلاب والطيور الجارحة . وامتلات المدينة بجمهور من سكان الريف يلتمسون الغذاء والحماية ، فزاد ذلك من حالة الذعر السائدة فيها . ونصب زابرجان خيامه على مسافة عشرين ميلا ، على ضفاف نهر صغير يحيط بميلانثياس ثم يصب بعد ذلك فى بحر مرمرة . وكان جستنيان يرتعد خوفا ، وأولئك الذين لم يروا الامبراطور الا فى شيخوخته سرهم أن يعتقدوا أنه قد فقد نشاط شبابه وقوته ، وأمر الامبراطور بنقل الأواني الذهبية والفضية من الكنائس القائمة فى مدينة القسطنطينية بل وفى ضواحيها . واصطف النظارة الواجبون الى جوار الاستحكامات ، وازدحم الباب الذهبى بالقواد والتربيونات التافهين ، وشارك السناتو شعب المدينة فى متاعبه ومخاوفه .

غير أن عيون الملك والشعب اتجهت فى ذلك الوقت نحو جندى محنك ضعيف الجسم اضطره الخطر الداهم الى ارتداء الدرع الذى كان يلبسه عندما دخل قرطاجة ودافع عن روما . وجمعت على وجه السرعة جياد الملك ، وجياد المواطنين ، بل وجياد السيرك ، وأشاع اسم بليساريوس المنافسة بين الكبار والصغار ، وأقيم أول معسكر له على مرأى من عدو ظافر منتصر . وبفضل فطنته ، ومجهود الأصدقاء من الفلاحين استطاع أن يحفر خندقا ويقيم سورا ضمن بهما الأمان والراحة خلال الليل ، وأشعلت النيران ، وأثيرت سحب من الغبار ، بصورة يتجلى فيها الدهاء ، لكى يضخم من قوته فى نظر العدو ، وانتقل جنوده من

حالة اليأس والقنوط الى حالة الجراءة والبسالة وبينما ارتفعت أصوات
عشرة آلاف رجل تطلب خوض المعركة ، أخفى بليساريوس ما كان يبور
يخلده من أنه ، عندما تحين ساعة الاختبار ، ينبغي أن يعتمد على عزم
ثلاثمائة من قدامى الجنود المحنكين . وفي صبيحة اليوم التالى تقدم
فرسان البلغار للهجوم ، غير أنهم سمعوا صيحات عدد كبير من الجنود
وشاهدوا أسلحة مقدمة الجيش ونظامها ، وهاجمهم من الجناحين كمينان
ظهرا من الغابات فسقطت ثلاثتهم على أيدي البطل العجوز وجنود حرسه ،
وأصبحت سرعة دورائهم عديمة الأثر أمام هجوم الرومان المتلاحق وسرعة
مطاردهم ، وفي هذه العملية لم يفقد البلغار الا أربعمائة من الفرسان
(اذ كان فرارهم غاية فى السرعة) ، غير أن القسطنطينية نجت من
الخطر ، وشعر زابرجان بسطوة خصمه وطول باعه ، فانسحب الى مسافة
بعيدة تدل على احترامه له . غير أن أصدقاءه كالوا كثيرى العدد فى
مجالس الامبراطور ، وامتلئ بليساريوس كارها لأحكام الحقد وأوامر
جستينيان التى منعه من تحقيق خلاص بلاده . وعند عودته الى المدينة ،
كان الناس لا يزالون يحسون بالخطر المحدق بهم ، فقابلوا ظفقه بأصوات
الفرح وعرفان الجميل واعتبر ذلك جريمة اقترفها القائد المنتصر . وعندما
دخل القصر وجد رجال الحاشية صامتين ، وبعد أن عانقه الامبراطور
عناقا فاترا لا اثر فيه للشكر وعرفان الجميل ، سمح له بالانصراف
لينضم الى صفوف الأرقاء . غير أن عظمة بليساريوس كانت عظيمة الأثر
على عقول الناس الى درجة أن جستينيان ، وهو فى السابعة والسبعين
من عمره وجد من الشجاعة ما دفعه الى قطع مسافة تقرب من أربعين ميلا
من العاصمة ليشاهد بنفسه استرجاع السور الطويل الذى كان يخشى
العاصمة . وأضاع البلغار ذلك الصيف فى سهول تراقيا ، ولكنهم
أصبحوا نزاعين الى الصلح بسبب فشل محاولاتهم المتهورة فى اليونان
وكرسوثيسسيوس . وتلقوا تهديدا بقتل أسراهم ، فسارعوا بدفع فدية
ضخمة ، وعجل برحيل زابرجان ذلك النبا الذى بلغه من أن سفنا
مزدوجة المقدمة قد بنيت فى نهر الدانوب لاعتراض طريقه . وسرعان
ما نسي الناس الخطر ، وثار على السنتهم سؤال تافه عما اذا كان ملكهم
قد كان أكثر حكمة أو ضعفا فى تصرفه نحو بليساريوس ، وأصبح ذلك
السؤال مصدر تسلية المدينة الخاملة .

وبعد انقضاء سنتين على آخر انتصار أحرزه بليساريوس ، عاد
الامبراطور من رحلة الى تراقيا قضاها فى الاستشفاء ، أو العبادة . وكان
جستينيان يعاني من ألم فى رأسه ، وأيد دخوله المدينة سرا اشاعة
موته . وقبل أن تحين الساعة الثالثة من اليوم نهب الخبز من حوانيت

الخبازين وأغلقت المنازل ، وتاهب كل مواطن ، بدافع من الفزع أو الأمل ،
 لما ينتظر من شغب وشيك الوقوع . ودعى أعضاء السناتو أنفسهم
 للاجتماع فى الساعة التاسعة وهم فى حالة خوف وريبة ، وتلقى الوالى
 أوامره بزيارة كل حى فى المدينة لكى يعلنوا للناس جميعا ما يوضح
 ان الامبراطور بخير وقد استرد صحته . وبهذا هدأ الهياج ، غير أن كل
 الاحداث كانت تنم عن عجز الحكومة ، وعن اتجاه الناس الى الشغب ،
 وكانت هناك بين الحراس نزعة الى التمرد كلما تغيرت ثكناتهم ، أو توقف
 دفع رواتبهم . وهىأت كوارث الحرائق والزلازل الكثيرة فرص الاضطراب ،
 وتفاقمت النزاعات بين الفرق الزرقاء والفرق الخضراء ، وبين الأرثوذكس
 والهرطقة ، فتحولت الى معارك دموية ، واحمر وجه جستنيان خجلا من
 نفسه ومن رعاياه فى حضرة السفير الفارسى . وترتب على مغالة الامبراطور
 فى العفو وتعسفه فى العقوبة أن اشتد ضيق الناس وتبرمهم بطول حكمه ،
 فحيكت ضده مؤامرة فى القصر ، وما لم تكن مخدوعين باسمى ماركيللوس
 وسرجيوس ، فان أكثر أعضاء الحاشية فضيلة ، وأشدهم استهتارا ،
 كانوا شركاء فى المخططات نفسها . وكانوا قد حددوا ساعة التنفيذ ،
 وسمحت لهم مراكزهم بحضور الوليمة الملكية ، ووضعوا عبيدهم السود
 فى بهو القصر وفى الأروقة لإعلان موت الطاغية ولائحة فتنه فى العاصمة .
 غير أن رعونة أحد الشركاء فى المؤامرة أنقذت الفترة البائسة المتبقية من
 أيام جستنيان . فافتضح أمر المتآمرين ، وضبطوا بخناجر مخبأة تحت
 أرديتهم . فانتحر ماركيللوس ، وانتزع سرجيوس من المكان المقدس الذى
 لجأ اليه ، فما كان منه ، بدافع من الندم ، أو بأمل فى النجاة ، الا أن
 اتهم ضابطين من رجال بليساريوس ، وأرغمهما التعذيب على الاعتراف
 بأنهما تصرفا بمقتضى تعليمات سيدهم . وسوف لا تتسرع الأجيال المقبلة
 فى الاعتقاد بأن بطلا ، ازدرى وهو فى ريعان شبابه وعنفوان حياته أجمل
 عروض الطمع والانتقام ، يمكن أن ينحدر الى قتل مليكه الذى لم يكن يتوقع
 أن يعيش بعده طويلا . وكان أتباع بليساريوس يتلهفون على الفرار ،
 غير أن الفرار كان لا بد أن تؤيده ثورة ، ولم يكن بليساريوس طامعا فى
 طول أجل أو نوال مجد ، فذهب أمام المجلس ساخطا حائقا أكثر منه هيابا
 وجلا . وكان الامبراطور قد حكم عليه مقدما ، بعد أن خدم بلاده أربعين
 عاما ، واكتسب هذا العمل الظالم قدسية بفضل حضور البطريك وبفضل
 سلطته الدينية . وتكرم الامبراطور بالعفو عن حياة بليساريوس ، غير أن
 ثروته صودرت ، وظل هو نفسه سجيناً تحت الحراسة فى قصره من
 شهر ديسمبر الى شهر يولية . وأخيرا ثبتت براءته وأعيدت اليه حريته
 وأمجاده ، غير أن الحزن والحنق ربما عجلا بموته ، ففارق الحياة بعد

ثمانية شهور من اطلاق سراحه . ولن يموت اسم بليساريوس أبدا الدهر ، ولكنه بدلا من أن يشيع الى قبره ، وتقام له النصب والتماثيل ، بصورة تليق بذكراه ، فأننى لم أقرأ عنه الا أن خزائنه التى اشتملت على أسلاب القوط والوندال قد صادرها الامبراطور بعد موته مباشرة ، وخصص جزء مناسب منها لأرملته أنتونينا Antonina ، ولما كانت أنتونينا قد فعلت فى حياتها الكثير مما تندم عليه ، فقد خصصت بقية حياتها و ثروتها لتأسيس دير . هذه هى القصة البسيطة الصادقة لسقوط بليساريوس ، وجود جستنيان . أما القصة التى تقول بأنه فقد بصره ، واضطره حقد أعدائه عليه الى التسول قائلا : « أحسنوا الى القائد بليساريوس » ، فهى قصة ظهرت فى عصور متأخرة ، ولقيت من يصدقها ، أو يجذبها ، كمثمل عجيب لصروف الحظ وتقلباته .

أخلاق جستنيان وموته

إذا كان الامبراطور قد استطاع أن يغتبط لموت بليساريوس فانه لم ينعم بهذه المتعة الدنيئة الا ثمانية شهور فقط ، وهى الفترة الأخيرة من حكم دام ثمانية وثلاثين عاما ، ومن حياة طالت ثلاثا وثمانين سنة . وانه لمن الصعب أن نتتبع أخلاق ملك لم يكن أبرز الأشياء فى العصور التى عاش فيها ، غير أننا نستطيع أن نتقبل اعترافات عدو له على أنها أصدق دليل على فضائله . ويقال فى خبث انه يشبه التمثال النصفى للامبراطور دوميتيان مع الاعتراف ، رغم ذلك ، بأنه كان ذا جسم متناسب ، وبشرة وردية اللون ، وسحنة سمحة يرتاح لها النظر . وكان الامبراطور يفتح بابه للناس ، صبرا على الانصات ، مهذبا وبشوشا فى الحديث ، قادرا على التحكم فى الانفعالات الحادة التى تضطرم اضطراما مدمرا فى صدر حاكم مستبد .

وقد لامه المؤرخ بروكوبيوس على قسوته الهادئة المتعمدة ، وهو لوم يعتبر اطراء لطباعه ، غير أن حكما أكثر صراحة يستطيع ، فيما يختص بالأمورات التى حيكت ضد شخصه وساطرانه ، أن يوافق على عدالته ، أو يعجب برقته وشفقته . وكان ممتازا فى الفضيلتين الشخصيتين ، فضيلة العفة وفضيلة الاعتدال ، غير أن الحب المنزه عن الأغراض للجمال كان يمكن أن يكون أهون ضررا من حنوه الزوجى على تيودورا ، ولم يكن تحكمه فى غذائه الضعيف راجعا الى حكمة الفيلسوف بل الى خرافة الراهب . وكان مقلا فى الأكل ولا يقضى فيه وقتا طويلا ، وفى فترات

الصوم الرسمية كان يقنع بالماء والخضروات ، وكان من القوة والحماس بحيث أنه كثيرا ما كان يقضى يومين ، وليالي كثيرة دون أن يذوق طعاما . ولم يكن تحكمه فى نومه أقل صرامة من تحكمه فى طعامه ، فقد كان لا يستريح الا ساعة واحدة ، ثم يستقيظ جسده على نداء روحه ، ولشد ما كان يدهش أمناء القصر عندما يرونه سائرا أو منكبا على الدراسة حتى يلوح ضوء الصباح . ولقد أطل هذا الوضع القلق ما كان يخصه من وقت لتحصيل المعرفة وانجاز الأعمال ، وربما استحق بصورة جدية ذلك اللوم الذى وجه اليه من أن تلك اليقظة الدقيقة البعيدة عن الصواب قد سببت ارتباكا فى النظام العام لادارته . وكان الامبراطور يدعى لنفسه الامام التام بالموسيقى وفن المعمار ، وبالشعر والفلسفة ، وبالقانون واللاهوت . وإذا كان قد أخفق فى التوفيق بين الطوائف المسيحية ، فان تنقيحه للقانون الرومانى يعتبر أثرا نبيلًا يدل على همته وجده . وكان فى حكم الامبراطورية أقل حكمة ، أو أقل نجاحا . فقد كان العصر منكودا ، والشعب مظلوما ومتذمرا ، وزوجته تيودورا تسيء استخدام سلطتها ، كما أنه ابتلى بوزراء سيئين ألصقوا بحكمه الخزي والعار ، ومن ثم فان جستنيان لم يكن محبوبا فى حياته ، ولم يأسف عليه أحد عند موته . وكان حب الشهرة عميق الجذور فى نفسه ، ولكنه تدلى الى الطمع الرخيص فى الألقاب ، والمظاهر الشرفية ، والاطراء الذى يكيه له معاصروه . ومع أنه كان يعمل جاهدا على نيل اعجاب الرومان الا أنه خسر تقديرهم ومحبتهم . وقد وضع فى جراءة خطة الحروب الأفريقية والايطالية ، ونفذها فى بسالة وشجاعة . ومكنته بصيرته النافذة من اكتشاف مواهب بليساريوس فى ميدان الحرب ، ومواهب نارسيس فى رحاب القصر . غير أن أسماء قواده الظافرين طغت على اسمه ، وما يزال اسم بليساريوس حيا يوجه النقد المرير الى ما اتسم به مليكه من حسد وجحود . والناس ينزعون نزوعا جزئيا الى الاشادة بعبقرية فاتح يوجه رعاياه الى ممارسة القتال ويقودهم فى الميدان ، غير أن شخصيتى فيليب الثانى وجستنيان تتسمان بذلك الطمع الذى يقتبط بالحرب ولكنه يأبى أن يخوض المعركة . ومع ذلك فهناك تمثال ضخم من البرونز يمثل الامبراطور على ظهر جواده متاهبا لملاقاة الفرس فى ثياب أخيلليس (١) وعدته . وفى الميدان الكبير أمام كنيسة أيا صوفيا رفع هذا الأثر على عمود

نحاسى وقاعدة حجرية ترتفع سبع درجات ، وأزال جشع جستنيان وغروره من المكان نفسه عمود تيودوسيوس ، الذى كان يزّن سبعة آلاف واربعمائة رطل من الفضة . ولقد كان الملوك الذين جاءوا بعده أكثر انصافا لذكراه ، أو أكثر تغاضيا عنها ، ففي بدء القرن الرابع عشر أصلح أندرونيكوس الأكبر تمثاله الراكب وجملته . فلما سقطت الامبراطورية صهره الترك الظافرون وحولوه الى مدافع .

المذنبات

سوف أختتم هذا الفصل بذكر المذنبات ، والزلازل ، والطاعون ، وكلها أشياء نكب بها عصر جستنيان أو كانت مثارا لدهشته .

ففى السنة الخامسة من عهده ، وفى شهر سبتمبر ، شوهذ مذنب فى الجانب الغربى من السماء طوال عشرين يوما ، وكان يرسل أشعته صوب الشمال . وبعد ذلك بشمانية أعوام ، وبينما كانت الشمس فى مدار الجدى ، ظهر مذنب آخر يسير فى مجموعة السهم . وكان حجمه يزداد شيئا فشيئا ، وكانت رأسه فى الشرق وذنبه فى الغرب ، وظل مرثيا أكثر من أربعين يوما . وتوقعت الأمم ، التى تولتها الدهشة لرؤية هذه المذنبات ، قيام الحروب ووقوع الكوارث نتيجة لتأثيرها الضار المؤذى ، وكثيرا ما تحققت هذه التوقعات . وأخفى الفلكيون جهلهم بطبيعة هذه النجوم المتوهجة المشتعلة ، التى تظاهروا بتصويرها على أنها شهب الهواء الطافية ، وقلة من بينهم أخذت بالفكرة البسيطة التى قال بها سينيكا والكلدانيون من أن هذه المذنبات لا تعدو أن تكون كواكب أطول بقاء وأكثر شذوذا فى حركتها . ولقد حقق الزمن والعلم ظنون الحكيم الرومانى وتنبؤاته ، فالمنظار المقرب فتح عوالم جديدة أمام أبصار علماء الفلك ، وفى الفترة القصيرة ، التى يصفها التاريخ وتذكرها الأساطير ، تكرر ظهور مذنب واحد بعينه فى جو الأرض فى سبع دورات متساوية استغرقت كل منها خمسمائة وخمسا وسبعين سنة وكان أول ظهور له قبل العهد المسيحى بألف وسبعمائة وسبع وستين سنة ، فى عهد أوجيجيز Ogyges أقدم شخصيات التاريخ اليونانى . وهو يفسر الرواية التى ورد ذكرها فى كتابات العالم والمؤلف الرومانى فارو Varro ، وهى أنه فى عهده تغير لون كوكب الزهرة ، وحجمه ، وشكله ، ومداره ، وهذه معجزة لم يكن لها نظير فى العصور السابقة أو اللاحقة وكان ظهوره للمرة الثانية فى

سنة ألف وثلاث وتسعين ، وقد أشير اليه اشارة غامضة فى أسطورة الكترا Electra ، وهى النجم السابع مع نجوم مجموعة بلياذز Pleiades (١) التى قل عددها الى ستة نجوم منذ حرب طروادة . وتذكر تلك الأسطورة أن تلك الحورية الكترا ، زوجة داردانوس ، لم تطق رؤية السمار الذى حل ببلادها فتخلت عن رقصات شقيقاتها الأخريات من النجوم ، وفرت من منطقة البروج الى القطب الشمالى ، وأطلق عليها اسم المذنب لأن خصلات شعرها كانت محلولة . أما المرة الثالثة التى ظهر فيها فقد انتهت فى سنة ستمائة وثمانى عشرة ، وهو تاريخ يتفق تماما مع ظهور المذنب الضخم الذى ذكرته المتنبة سيبييل Sibyl ، والعالم بلينى ، وقد ظهر فى بلاد الغرب قبل عهد كورس بجيلين . وكان ظهوره الرابع قبل ميلاد المسيح بأربع وأربعين سنة ، وتعتبر هذه المرة أروع وأهم مرات ظهوره ، فبعد موت قيصر ظهر نجم طويل المذنب رأته روما والشعوب الأخرى أثناء الألعاب التى أمر بعرضها أوكتافيانوس الصغير ، تكريما لفينوس وتكريما لعمه . وكان هناك رأى شائع يقول بأن ذلك النجم حمل الى السماء روح الدكتاتور الالهية ، ولقى هذا الرأى قبولا وقدسية لدى سياسى تقى ورع ، بينما كانت خرافته السرية تعزو ظهور المذنب الى عظمة عصره . أما ظهوره الخامس فقد سبق القول بأنه كان فى السنة الخامسة من عهد جستنيان ، وهى التى تتفق مع السنة الخمسمائة والاحدى والثلاثين من العهد المسيحى . ومما هو جدير بالذكر أن المذنب ، فى هذه المرة كما فى المرات السابقة ، قد أعقبه اصفرار الشمس بصورة واضحة ، ولو أن هذه الظاهرة حدثت فى هذه المرة بعد فترة أطول . ثم عاد المذنب للظهور مرة سادسة فى سنة ألف ومائة وست وسجلته تواريخ أوروبا والصين ، وفى الحماس الأول الذى اقترن بالحروب الصليبية ربما توهم المسيحيون والمسلمون أن تلك الظاهرة تنذر بهلاك الكفار ، ولهؤلاء عذر متكافئ فيما ذهبوا اليه . أما الظاهرة السابعة ، وهى التى حدثت فى عام ألف وستمائة وثمانين ، فقد شاهدها أبصار عصر مستنير . وبددت فلسفة العالم بايل Bayle ذلك التحامل الذى نمقه ملتون فى شعره منذ عهد قريب حيث قال ان المذنب « ينفتح الوباء والحرب من شعره المخيف » . وقد راقب فلامستيد وكاسينى مداره فى السماء بمهارة رائفة ، كما بحث برنوللى ونيوتن وهالى قوانين

(١) "Pleiades" : بنات أطلس السبع اللاتى تحولن الى نجوم كما تحكى الأسطورة اليونانية . - وهى مجموعة من النجوم فى برج طوروس ، مكونة من ستة نجوم يمكن رؤيتها بالعين المجردة .

دورانه : وعندها يظهر للمرة الثامنة فى سنة ألفين وثلاثمائة وخمس وخمسين ربما استطاع فليكون فى عاصمة مقبلة فى بيداء سيبيريا أو أمريكا أن يحققوا تقديرات هؤلاء العلماء .

الزلازل

ان اقتراب مذنب من الكرة الأرضية التى نساكنها قد يصيبها بضرر أو يدمرها ، غير أن التغيرات التى تعتور سطحها ، كانت حتى الآن نتيجة لفعل البراكين والزلازل . وقد تدل طبيعة التربة على البلدان التى هى أكثر تعرضا لهذه الاهتزازات لأنها اهتزازات تنشأ بفعل النيران المتأججة فى باطن الأرض ، وهذه النيران انما تشتعل من اتحاد الحديد والكبريت وما يترتب على ذلك من تغير كيميائي يحدث فورانا . غير أن أوقات حدوثها ونتائجها يبدو أنها تدق على المعرفة الانسانية . ولا شك فى أن الفيلسوف يتورع فى حكمه عن التنبؤ بالزلازل حتى يكون قد أحصى قطرات الماء التى تتسرب الى المعدن الملتهب ، وقاس الكهوف التى تضاعف انفجار الهواء المحبوس بمقاومتها . ويبين التاريخ تلك الفترات التى ندرت أو كثرت فيها هذه الأحداث المشنومة المفجعة دون تحديد الأسباب ، ويلاحظ أن هذه الحمى الأرضية هاجت بعنف غير عادى خلال عهد جستنيان . فقد تكرر حدوث الزلازل كل سنة ، وطالت مدتها الى درجة أن القسطنطينية اهتزت أكثر من أربعين يوما ، كما اتسع مداها الى درجة أن الهزة انتقلت الى كل أرجاء الأرض ، أو على الأقل الى كل أرجاء الامبراطورية الرومانية وشعر الناس بحركة دافعة أو هزات شديدة ، وانشقت فى سطح الأرض فجوات هائلة ، وقذفت فى الهواء أجسام ضخمة ثقيلة ، وتقدمت مياه البحر ثم انحسرت على التوالى الى ما وراء حدودها العادية ، وانتزع جبل من جبال لبنان وقذف فى أمواج البحر حيث أصبح رصيفا يحوى ميناء بوتريس الجديدة فى فينيقيا . والضربة التى تزعزع تلا من التراب حفره النمل قد تسحق آلاف الحشرات ، غير أنه ، اقرارا للحق ، ينبغي علينا أن نعتزف بأن الانسان قد سعى الى حثفه بظلفه ، وعمل جاهدا على تدمير نفسه بنفسه . ذلك أن تأسيس المدن الكبيرة ، التى تضم كل منها أمة بأسرها داخل أسوارها ، تكاد تحقق رغبة كاليجولا Caligola فى ألا يكون للشعب الرومانى الا عنق واحد حتى يقطعه بضربة واحدة . ويقال ان مائتين وخمسين ألف شخص هلكوا فى زلزال أنطاكية التى ازدادت جماهير سكانها بمن وفد اليها من الغرباء لحضور الاحتفال بعيد الصعود . وكانت خسارة بيروت أقل عددا ولكنها أعظم قيمة . ذلك أن هذه المدينة الواقعة

على شاطئ فينيقيا ، كانت شهيرة بدراسة القوانين المدنية التي كانت
أضمن طريق الى الثراء والرفعة ، وكانت مدارس بيروت خاصة بشبيل
العصر الصاعد ، وقد أهلك الزلزال كثيرا من الشبان الذين كان يمكن أن
يعيشوا حتى يصبحوا حماة بلادهم أو عدتها في ردع أعدائها . وفي هذه
الكوارث يعتبر المهندس المعماري عدو الجنس الانساني ، ذلك أن عشة
الرجل الهمجى ، أو خيمة الأعرابي ، يمكن أن تنهار دون أن تؤذى ساكنها ،
ولا شك في أن سكان بيروت كان لهم الحق في الاستهزاء بحماقة غزاتهم
الأسبان ، الذين كلفوا أنفسهم الكثير من المال والجهد لاقامة قبورهم .
فقد انهارت الجدران الرخامية في قصور النبلاء على رؤوسهم ، ودفن شعب
بأكمله تحت أنقاض المباني العامة والخاصة ، واشتعلت الحرائق وانتشرت
بفعل النيران اللازمة لحياة مدينة كبيرة ولصناعاتها . وبدلا من أن يتبادل
السكان ألوان العطف التي قد تريح المنكوبين وتعينهم ، فقد تعرضوا
بصورة مروعة الى الرذائل والأهواء التي تحررت من خوف العقاب ، ونهبت
المنازل المتهاوية بأيدي المغامرين الذين تملكهم الجشع الجرى . والانتقام
يتحين لحظته ويختار ضحيته ، وكثيرا ما ابتلعت الأرض أولئك الذين
ارتكبوا أعمال الاغتتيال والنهب بينما كانوا يرتكبون جرائمهم . وقد
أضفت الخرافة على الخطر القائم أهوالا غير مرئية ، وإذا كان طيف الموت
فى بعض الأحيان يتضائل أمام فضيلة الأفراد أو توبتهم ، فإن الشعب
الخائف المرتعد يندفع بقوة أكثر الى توقع نهاية العالم ، أو الى أن يسترحم
بالخضوع الدليل الها منتقما .

الطاعون

وصمت اثيوبيا ومصر فى كل عصر بأنهما المصدر والمنبت الأصلي
للطاعون وفى الجو الرطب الحار الخائق ، تتولد هذه الحمى الأفريقية
من تعفن المواد الحيوانية ، وخاصة أسراب الجراد التي لا يقل أذاها
للانسان فى موتها عنه فى حياتها . وهذا المرض المميت الذى استنزف
سكان الأرض فى عهد جستنيان وخلفائه ، ظهر أول ما ظهر فى مدينة
بيلويزيوم بين المستنقع السربوني ومجرى النيل الشرقى . ومن هناك
سار فى اتجاهين ، فانتشر صوب الشرق فى سوريا وفارس وجزائر
الهند ، واتجه صوب الغرب على طول ساحل أفريقيا ثم الى قارة
أوروبا . وفى ربيع السنة التالية زار الوباء مدينة القسطنطينية خلال
ثلاثة أو أربعة شهور . وقد راقب المؤرخ بروكوبيوس ببصيرة الطبيب
سير الوباء وأعراضه ، منافسا فى ذلك مهارة ثيوكديدس واجتهاده فى
وصف طاعون أثينا . وكان النذير بالعدوى فى بعض الأحيان هو تلك

الاطياف التى يراها خيال معتل ، وسرعان ما ينتاب الضحية اليأس بمجرد ان تسمع وعيد الشبح الخفى وتشعر بوطأة ضرباته . غير ان آثره الناس ، سواء اكانوا فى فراشهم ، أم فى الطرقات ، أم فى أعمالهم العادية ، كانوا يفاجئون بحمى خفيفة لا يصاحبها أى تغير فى النبض أو فى اللون مما يعتبر علامة على اقتراب الخطر . وفى نفس اليوم ، أو فى اليوم الثانى ، أو فى اليوم الذى يليه يتمثل المرض فى تورم الغدد ، وخاصة غدد أصل الفخذ ، وتحت الابط ، وتحت الأذن ، وعندما كانت تفتح هذه الأورام كان يوجد بها مادة سوداء فى حجم حبة العدس تسمى فحما Coals . فإذا انتفخت هذه الأورام وتقيحت كما ينبغي ، أنقذ المريض بفضل هذا النوع من الافراز الطبيعى للصديد الوبيل ، ولكنها اذا ظلت صلبة وجافة ، أصيب المريض بتسسم سريع ، وانتهت حياته عادة فى اليوم الخامس . وكثيرا ما كانت أجسام المرضى تغطى بالبثور أو اللعامل السوداء ، وهى أعراض الموت المباشر . وفى حالة الأجسام الضعيفة التى لا تستطيع تفجير الأورام ، كان المريض يصاب بقىء دموى يتبعه تسسم الأمعاء . وكان الطاعون بوجه عام مميتا للحوامل ، ومع ذلك فقد حدث أن استخرج جنين حى من بطن أمه الميتة . كما عاشت ثلاث نساء بعد اصابة أجنتهن بالطاعون . وكان سن الشباب أخطر وقت يصاب فيه الانسان بهذا المرض ، كما أن الاناث كن أقل قابلية للاصابة من الذكور . غير أن المرض هاجم الناس دون تمييز ، وكان له ضحاياه من كل مرتبة وكل مهنة ، وكثير من هؤلاء الذين نجوا منه فقدوا القدرة على الكلام ، دون أن يامنوا عودة المرض . وكان أطباء القسطنطينية يتسمون بالغيرة والبراعة ، غير أن فنهم أعياء تنوع أعراض المرض وحدته العنيدة ، فقد كان العلاج الواحد يحدث نتائج متناقضة ، كما أن النتيجة المتقلبة كانت تخيب تنبؤهم بحياة المريض أو موته . واختل فى ذلك الوقت نظام الدفن وحق الأموات فى قبورهم ، وأولئك الذين تركوا دون خدم أو أصدقاء ظلت جثثهم ملقاة فى الطرقات ، أو فى منازلهم المقفرة المهجورة ، وخول أحد الحكام سلطة جمع أكوام الجثث المختلطة ، ونقلها بالبر أو البحر ، ثم مواراتها فى حفر عميقة بعيدا عن حدود المدينة . وأحس أقسى الناس قلوبا وأكثرهم رذيلة بالخطر المحدق بهم ، وبالمحنة العامة التى تنتظرهم ، فأيقظ ذلك كله بعض الندم فى نفوسهم ، حتى اذا ما رجعت اليهم الثقة بالصحة ، عادوا الى أهوائهم وعاداتهم ، غير أن الفلسفة ينبغي أن تزدري الملاحظة التى أبداها بروكوبيوس من أن حياة أمثال هؤلاء الناس كان يصونها الحظ أو العناية الالهية . فقد نسي ذلك المؤرخ ، أو ربما ذكر فى دخيلة نفسه ، أن الطاعون أصاب شخص جستنيان

نفسه ، غير أن غذاءه الضعيف ، شأنه في ذلك شأن سقراط ، ربما كان سببا أشرف وأكثر معقولة مما ذكره بروكوبيوس لتعليل شفائه (١) من المرض . وخلال مرضه كان الذعر العام يتجلى في عادات الناس ، وترتب على تراخيمهم وقنوطهم أن أصيبت عاصمة الشرق بفاقة عامة وندرة في المواد الغذائية .

والعدوى هي العرض الملازم لوباء الطاعون ، وهو مرض ينتقل عن طريق التنفس من الشخص المصاب الى رثتي من يقترب منه والى معدته . ومع أن الفلاسفة يعلمون ذلك ويرتعدون خوفا ، الا أنه من العجيب أن وجود هذا الخطر الحقيقي كان ينكره شعب يميل أكثر ما يكون الميل الى توهم أهوال باطله خيالية (٢) . غير أن مواطني بروكوبيوس قد اقتنعوا ، نتيجة تجربة قصيرة جزئية ، بأن العدوى لا يمكن أن تنتقل بالمخالطة ، مهما كانت قريبة ، وهذا الاقتناع كان يدعم مثابرة الأصدقاء أو الأطباء على العناية بالمرضى ، الذين كان الحرص القاسي كفيلا بأن يقضى عليهم بالعزلة واليأس . غير أن هذا الاطمئنان القاتل ، شأنه شأن ايمان الترك بالقضاء والقدر ، لابد أنه ساعده على انتشار العدوى ، كما أن تلك الاجتياحات الصحية ، التي يرجع اليها الفضل في نجاة أوروبا ، لم تكن معروفة لدى حكومة جستنيان . فلم توضع أية قيود على حرية الانتقال الكثير بين الولايات الرومانية . ومن بلاد فارس الى فرنسا كان هناك اختلاط بين الشعوب عن طريق الحرب والهجرات فسرت بينها العدوى ، وكانت الرائحة الوبائية تكمن عدة سنوات في (بالة) من القطن ، ثم تنتقل عن طريق هذه التجارة الخادعة الى أبعد المناطق . وقد وضع بروكوبيوس طريقة انتشار العدوى في ملاحظة أبداهها ، حيث قال انها كانت تنتشر دائما من شاطئ البحر الى الأقاليم الداخلية ، وأصيبت بهذا الوباء تباعا أكثر الجزائر والجبال عزلة ، كما أن الأماكن ، التي نجت من حدة الوباء في دورته الأولى ، كانت هي وحدها التي أصيبت بالعدوى في السنة

(١) هكذا أنقذ الاعتدال الفيلسوف سقراط من طاعون أثينا . ويعمل الدكتور ميد Dr. Mead نقاء الأديرة بأنها كانت منعزلة عن غيرها ، وبأن القاطنين فيها كانوا مقلين في طعامهم .

(٢) أثبت الدكتور ميد أن الطاعون مرض معد بالرجوع ليوكميديديس ، ولوكرشيوس ، وأرسطو ، وجالن ، ومن التجربة العادية . وهو يدحض الرأي المضاد الذي قاله الأطباء الفرنسيون الذين زاروا مرسيليا في عام ١٧٢٠ . ومع ذلك فان هؤلاء الأطباء كانوا نظارة حديثين مستنيرين شاهدوا المرض وهو يقضى في شهور قلائل على ٥٠.٠٠٠ من سكان مدينة لا تشتمل الآن على أكثر من ٩٠.٠٠٠ نسمة ، رغم رخائها وازدهار تجارتها .

التالية • وربما ساعدت الرياح على نشر هذا السم الخفى ، ولكن اذا لم يكن الجو مهياً من قبل لاستقباله ، فانه سرعان ما كان يتلاشى فى الأجواء الباردة أو المعتدلة • ولقد تلوث الهواء الى درجة أن الوباء الذى حدث فى السنة الخامسة عشرة من حكم جستنيان لم يتوقف أو يخف نتيجة أى اختلاف فى الفصول • وبمرور الزمن خفت وطأته الأولى وتشتتت ، وأخذ المرض يتراخى مرة وينشط مرة أخرى ، غير أن الناس لم يستردوا صحتهم ، والهواء لم يعد الى سابق نقائه وطيبه الا بعد انصرام فترة موبوءة قدرها اثنان وخمسون عاما • وليس لدينا الآن من الحقائق ما يبين أعداد من هلكوا فى هذا الفناء الشاذ غير العادى حتى عن طريق الحسد والتخمين ، وكل ما أمكننى الوصول اليه هو أن عدد الوفيات فى مدينة القسطنطينية ، خلال فترة ثلاثة شهور ، بلغ فى أول الأمر خمسة آلاف شخص يوميا ، ثم ارتفع الرقم الى عشرة آلاف ، وأن مدنا كثيرة فى الشرق أصبحت خاوية من أهلها وأن المحاصيل وغلة الكرم ذبلت على الأرض فى عدة أقاليم من ايطاليا ، وقد نكب رعايا جستنيان بنقم ثلاث ، هى الحرب ، والوباء ، والمجاعة ، ولحق بعهد العار المتمثل فى نقص ملحوظ فى الجنس الانسانى ، لم يعوض أبدا فى بعض أجمل بلدان الكرة الأرضية •

★★★

كان تقنين التشريع الرومانى أعظم ما انجز فى عهد جستنيان • وقد وصف ذلك جيبون فى الفصل الرابع والأربعين ، المحذوف هنا •

الفصل الخامس والأربعون (٥٩٠ - ٥٩٤)

شقاء روما قرب نهاية القرن السادس • بابوية جريجورى العظيم •

بين سنتي ٥٦٨ و ٥٧٠ ، وبعد موت نارسيس ، غزا اللومبارد بقيادة
ألويين الجزء الأكبر من ايطاليا • وظلت ايطاليا خلال مائتى عام مقسمة
بين مملكة اللومبارد ، وولاية رافنا التابعة لبيزنطة •

يصف جييون فى الفصل السادس والأربعين نهاية أسرة جستنيان
وبدء الأسرة المالكة الجديدة ، أسرة هرقلوس •

شقاء روما فى نهاية القرن السادس

وسط جيوش اللومبارد ، وتحت الحكم المطلق لليونان ، نعود مرة
ثانية الى بحث مصير روما ، التى كانت قد وصلت قرب نهاية القرن
السادس الى أقصى فترات بؤسها وشقائها • فبعد أن انتقل منها مقر
الامبراطورية ، وتوالى خسارة الولايات ، استنفدت موارد الثراء العام
والخاص : وجردت من أوراقها وفروعها تلك الشجرة الوارفة الشامخة
التى استظلت فى ظلها أمم العالم ، وذوى على الأرض ذلك الجذع الذى جفت
عصارته • ولم يعد أصحاب الزعامة والسلطان ، ورسل الظفر والنصر ،
يلتقون فى طريق آبيا أو طريق فلامينيا ، وكثيرا ما كان الناس يشعرون
باقتراب أعدائهم اللومبارد ، الذى أصبح مصدر خوفهم وفزعهم بصورة
مستمرة • وفى مقدور سكان عاصمة قوية آمنة ، ممن يرتادون حدائق
الريف المجاور دون أن يسماورهم القلق ، أن يتمثلوا فى خيالهم صورة
باهتة لمحنة الرومان وشقائهم • فقد كانوا يفتحون أبوابهم أو يغلقونها

بيده مرتجفة ، ويشاهدون من فوق الأسوار ألسنة النيران المنبعثة من منازلهم ، ويسمعون عويل اخوتهم وهم يقيدون أزواجا أزواجا كالكلاب ، ويساقون الى الاسترقاق بعيدا فيما وراء البحار والجبال . ولا شك في أن مثل هذه المخاوف المستمرة كفيفة بالقضاء على متع الحياة الريفية وتعويق أعمالها وجهودها ، وسرعان ما تدهور الريف الذي يحيط بمدينة روما ، وتحول الى فلاة مقفرة ، تعرت أرضها ، وتلوث ماؤها ، وفسد هواؤها . ولم يعد الطمع وحب الاستطلاع يجذب الأمم الى عاصمة الدنيا ، ولكن ، اذا اتجهت الى ذلك المكان خطوات أجنبي مرتحل ، بحكم الضرورة أو بمحض الصدفة ، فانه كان يتأمل في فزع ورهبة ما آلت اليه حال مدينة خاوية منعزلة ، وربما ثار في نفسه سؤال ، أين السناتو ، وأين الشعب ؟ وقد حدث أن انهزم المطر في أحد الفصول ، ففاض نهر التيبر على ضفتيه ، واندفع بقوة عارمة الى وديان التلال السبعة ، وانتشر مرض وبائي من ركود مياه الفيضان ، وسرت عدواه بصورة سريعة أسفرت عن موت ثمانين شخصا في ساعة واحدة ، وسط موكب رهيب يستمطر رحمة السماء . والمجتمع الذي يشجع الزواج وتكثر فيه الصناعة يستطيع بسرعة أن يعوض الخسارة العابرة التي تصيب سكانه نتيجة وباء أو حرب . غير أن الجزء الأكبر من أهل روما كان مقضيا عليه بالفاقة وحياة العزوبة دون ما أمل في التخلص منهما ، ومن ثم فإن تناقص السكان كان ظاهرة مستمرة ملموسة ربما دفعت المتحمسين المتشائمين الى توقع انقراض الجنس البشري في وقت قريب . ومع ذلك فإن عدد السكان ظل متجاوزا حد الكفاف ، وكان الناس يحصلون على طعامهم بصورة مزعزعة مقلقة من محاصيل صقلية ومصر ، وكانت كثرة المجاعات وتكرارها دليلا على إهمال الامبراطور لشئون ولاية بعيدة . وتعرضت أبنية روما ومساكنها لنفس الخراب والاضمحلال ، وتهاوت الصروح البالية بسهولة من جراء الفيضانات والعواصف والزلازل ، واغتبط الرهبان ، الذين كانوا يشغلون أحسن الأماكن ، لانتصارهم الحقيير على أطلال اليهود القديمة . ومن المعتقد بوجه عام أن البابا جريجورى الأول هاجم معابد المدينة وحطم تماثيلها ، وأن مكتبة تل بالاتين Palatine تحولت بأمر هذا الهمجي الى رماد ، وأن تعصبه الأحق الخبيث كان يستهدف بوجه خاص مؤلفات المؤرخ الروماني ليفي . وتدل كتابات جريجورى نفسه على كراهيته العنيدة لآثار العبقريّة القديمة ، فهو يسدد أعنف النقد الى العلم الديوى الذى كان يمتاز به أسقف قام بتعليم فن النحو ، ودرس شعراء اللاتين ، ونطق بالصوت نفسه تسابيح جوبيتر وتسابيح المسيح . غير أن الدليل على ثورة غضبه الممكرة هو دليل قريب العهد ومشكوك فيه ، فمعيد السلام ومسرح مركيللوس قد تهدما شيئا فشيئا بفعل الزمن ومرور الوقت .

ولو أنه أصدر حظرا رسميا على مؤلفات فرجيل وليفى ، لأدى ذلك الى زيادة نسخ تلك المؤلفات فى البلدان الخاضعة لهذا الدكتاتور الدينى .

بابوية جريجورى العظيم

كان يمكن أن يمحي اسم روما من الأرض ، شأنه فى ذلك شأن طيبة وبابل وقرطاجة ، لو لم تبعت فيها الحياة عقيدة حيوية جوهرية أعادت لها مجدها وسلطانها . فقد تناقل الناس رواية غامضة تقول بأن معلمين يهوديين ، أحدهما صانع خيام وثانيهما صائد سمك ، كانا فى سابق العهد قد أعلما فى ساحة (سيرك) نرون ، وبعد نهاية خمسمائة سنة أصبحت عظامهما الحقيقية أو المزعومة موضع التقديس والعبادة ، على أساس أن هذه العظام هى حصن روما المسيحية كتمثال الهة الحكمة التى حمت طروادة . وذهب حجاج الشرق والغرب لزيارة العتبة المقدسة ، غير أن الضريحين المقدسين اللذين رقدت فيهما عظام الرسولين كانت تحرسهما المعجزات والمخاوف الخفية ، ولم يكن فى استطاعة الكاثوليك الأتقياء أن يقتربوا من قبلة عبادتهم هذه دون أن يتولاهم الوجع والحزن . وكان لمس جسد القديسين مميتا ، ومشاهدتهما خطيرة ، وأولئك الذين تجرأوا على ازعاج راحة الضريح ، مدفوعين الى ذلك بأطهر الدوافع وأنقاها ، كانت ترعبهم الأشباح ، أو يعاقبون بالموت الفجائى . وقد رغبت امبراطورة فى أن تحرم الرومان من كنزهم المقدس ، وهو رأس القديس بولس ، غير أن ذلك الطلب غير المعقول قوبل برفض مقترن بأشد المقت والكرهية ، وأكد البابا ، ومن المحتمل أنه كان صادقا فى ذلك التأكيد ، أن قطعة قماش من الأقمشة المقدسة التى غطى بها جسد القديس ، أو برادة من قيوده الحديدية ، التى كان الحصول عليها سهلا فى بعض الأحيان ، ومستحيلا فى أحيان أخرى ، كانت تمتلك بنفس القدر خاصية اتيان المعجزات . غير أن قدرة الرسولين وفضيلتهما احتوتهما صدور خلفائهما بقوة حية ، وشغل كرسى القديس بطرس فى عهد موريس ، نائب الامبراطور ، أول وأعظم البابوات الذين أطلق عليهم اسم جريجورى . وكان جده فليكس قد شغل هو نفسه كرسى البابوية ، ولما كان الأساقفة متلزمين بقانون العزوبة ، فلا بد أن رسالته قد سبقها موت زوجته وكان أبوه جورديان وأمه سيلفيا أنبل أسرة من أسر السنااتو ، وأكثر أبناء كنيسة روما ورعا وتقوى . وكان أقاربه من الإناث فى عداد القديسات والعذارى ، وقد رسمت له صورة عائلية مع والده ووالدته تبرع بها لدير القديس أندراوس ، وظلت موجودة قرابة الثلاثمائة عام . وان تصميم هذه الصورة وتلوينها ليبدل دلالة صادقة على أن فن الرسم غرسه الايطاليون

في القرن السادس . غير أن ذوقهم وعلمهم لا يرسم في الأذهان الا أسوأ الصور ، لأن رسائل جريجورى ، وعظاته ، ومحاوراته انما هي من عمل رجل لم يكن فى لودعيته تاليا لآى من معاصريه . وقد رفعه أصله وقدراته الى منصب والى المدينة ، وكان يتمتع بميزة احتقار أبهة هذه الدنيا وزهوها . وقد خصص ميراثه الكبير لتأسيس سبعة أديرة ، كان أحدها فى روما وستة فى صقلية ، وكانت رغبة جريجورى هي أن يظل مجهولا فى هذه الدنيا ، وألا يحظى بالمجد الا فى الآخرة . غير أن ورعه ، وربما كان ورعا صادقا مخلصا ، سلك الطريق الذى كان يمكن أن يختاره سياسى ماهر طموح . ذلك أن مواهبه ، والفخامة التى كانت تصاحب رياضاته الروحية جعلته عزيزا على الكنيسة نافعا لها ، وكان فى عظاته يفرس فى الناس دائما أن الطاعة الثابتة هي الواجب الأول للراهب . ومنذ أن أصبح جريجورى شماسا أرسل للإقامة فى البلاط البيزنطى ، حيث كان قاصدا رسوليا للحبر الرسولى ، واتخذ لنفسه فى جرأة ، باسم القديس بطرس ، اسلوب صاحب المكانة المستقلة ، الأمر الذى كان يمكن أن يعتبر عملا اجراميا لو اتبعه أبرز العلمانيين . ثم عاد الى روما وقد زادت شهرته عن جدارة واستحقاق ، وبعد أن مارس فضائل الرهبنة فترة قصيرة أخذ من الدير الى العرش البابوى باجماع أصوات رجال الدين ، والسناتو ، والشعب . وكان هو وحده الذى قاوم ، أو تظاهر بمقاومة ، هذه الرفة ، والتمس فى خضوع من موريس ، نائب الامبراطور ، أن يتفضل برفض اختيار الرومان ، فلم يكن لذلك من أثر الا أنه أضفى على شخصيته رفعة ومجدا فى أعين الامبراطور والشعب . وعندما صدر الأمر بالخطير التمس جريجورى عون بعض أصدقائه التجار ، وطلب منهم أن ينقلوه فى سلة من سلالهم الى ما وراء أبواب روما ، وأخفى نفسه بضعة أيام بين الغابات والجبال حتى اكتشف مأواه ، وقيل ان نورا سماويا هو الذى دل عليه .

وقد دامت بابوية جريجورى العظيم ثلاث عشرة سنة وستة شهور وعشرة أيام ، وكانت تلك الفترة من أعظم الفترات البناءة فى تاريخ الكنيسة . وكانت فضائله ، بل وحتى أخطاؤه ، خليطا عجيبا من البساطة مع الدهاء ، والكبرياء مع التواضع ، وقوة الادراك مع الخرافة ، وكان كل أولئك يتلاءم تلاؤما موفقا مع مركزه ومع طابع العصر الذى عاش فيه . وقد أدان فى منافسه ، بطريرك القسطنطينية ، ذلك اللقب المتعارض مع المسيحية الذى كان يحمله ، وهو لقب الأسقف العام ، الذى كان خليفة القديس بطرس أعلى من أن يعترف له به وأضعف من أن يتخذه لنفسه ، واقتصرت سلطته الكنسية على صفته الثلاثية ، أسقف روما ، ورئيس أساقفة ايطاليا ، ورسول الغرب . . . وكثيرا ما كان يرتقى المنبر ، ويشعل

يفصاحته الفجة ، وإن تكن فصاحة شجوية ، عواطف سامعية المتجانسة
 وكان يفسر كلام أنبياء اليهود ويطبقه ، ويوجه عقول الشعب الذى أضنته
 الكوارث القائمة الى آمال العالم غير المنظور ومخاوفه ، وحدد فى وصاياه ،
 وبالمثل الذى ضربه ، الطقوس الدينية الرومانية ، وتوزيع الأبرشيات ،
 وتاريخ الأعياد ، ونظام المواكب ، وخدمة القساوسة والشمامسة ، وتنوع
 الأردية الكهنوتية وتغيرها . وكان الى آخر أيام حياته يخدم القديس
 الكنسى الذى كان يدوم أكثر من ثلاث ساعات ، واحتفظ الترتيل الجريجورى
 بالموسيقى الصوتية والآلات الموسيقية المستخدمة فى المسرح ، وحاولت
 أصوات المتبربرين الخشنة محاكاة ألحان المدرسة الرومانية العذبة ، وقد
 علمته التجربة فعالية هذه الشعائر المقدسة المهيبة فى تخفيف محنة عامة
 الناس ، وفى تثبيت إيمانهم ، وتلطيف حدة طباعهم ، وصرهم عن حماسهم
 الأحرق ، وتساهل فى التجاوز عن نزعتهم الى تشجيع حكم الكهنوت
 والخرافة . واعترف أساقفة إيطاليا المجاورة بالحبر الرومانى مطرانا
 خاصا لهم ، بل إن وجود الكراسى الأسقفية ، واتحادها ، وتبديلها ، أصبح
 هو صاحب التصرف المطلق فى تقريرها ، كما أن تدخلاته الناجحة فى
 ولايات اليونان وإسبانيا وبلاد الغال ربما أيدت ما كان للبابوات الذين
 جاءوا بعده من مطلب أكثر سموا . وقد تدخل لمنع مساوئ الانتخابات
 الشعبية ، وحافظ بغيرته ورعايته على نقاء العقيدة والنظام ، ودأب هذا
 الراعى الرسول على مراقبة نظام الرعاة التابعين له وعقيدتهم . وفى عهده
 انضم الآريوسيون فى إيطاليا وإسبانيا الى الكنيسة الكاثوليكية ، وكان
 غزوه الدينى لبريطانيا أعظم تشريفا لاسمه من المجد الذى ناله اسم قيصر
 بفتح تلك البلاد . فبدلا من الفرق الست التى بعثها قيصر ، أرسل هو الى
 تلك الجزيرة أربعين راهبا ، وأسف ذلك الحبر لأن واجباته الصارمة منعه
 من المشاركة فى أخطار حربهم الروحية . وفى أقل من سنتين استطاع أن
 يعلن لرئيس أساقفة الاسكندرية أنهم عمدوا ملك كنت وعشرة آلاف من
 الأنجلوسكسونيين ، وأن بعثات التبشير الرومانية ، شأنها شأن بعثات
 الكنيسة الأولى ، لم يكن لديها من الأسلحة الا قوتها الروحية الخارقة .
 وكانت سداجة جريجورى أو فطنته تنزع دائما الى تأكيد حقائق الدين بأدلة
 الأشباح ، والمعجزات وبعث الموتى ، وقد اعترفت الأجيال التالية لذكراه
 بنفس الفضل الذى أقره هو لفضيلة جيله أو الجيل الذى سبقه . ولقد
 كانت الأمجاد السماوية تمنح فى سخاء بسلطة البابوات ، غير أن جريجورى
 هو آخر شخص من أبناء طبقتهم تجرأوا على تدوين اسمه فى قائمة
 القديسين .

وقد نشأت السلطة الزمنية لهؤلاء البابوات من كوارث تلك الأيام ،
 واضطر الأساقفة الرومان ، الذين أغرقوا أوروبا وآسيا فى الدمار ، الى

أن يحكموا كخدم للصدقة والسلام ١٠ - وقد سبق أن لاحظنا أن كنيسة روما كان لها ممتلكات في إيطاليا وصقلية ، وفي الولايات الأكثر بعدا ، وقد حصل وكلاؤهما ، الذين كانوا عادة من مساعدي الشماسية ، على سلطة القضاء المدني ، بل والجنائي ، على مستأجريهم ومزارعيهم . وقد أدار خليفة القديس بطرس ممتلكاته الموروثة بخلق المالك اليقظ المعتدل ، وكانت رسائله مليئة بالاشعارات النافعة الى تجنب القضايا الكيدية أو المشكوك فيها ، والى المحافظة على سلامة الكيل والميزان ، والى التجاوز عن كل تأخير معقول ، والى تخفيض الخراج المفروض على العبيد العاملين في أراضي الكنيسة الذين اشتروا حق الزواج بدفع غرامة مقرر ، وكانت غلة أو منتجات هذه الممتلكات تنقل الى مصب نهر التيبر تحت مسئولية البابا وعلى حسابه . أما في استخدام الثروة ، فقد كان يتصرف كخدام أمين للكنيسة وللفقراء ، وكان يستخدم في سد حاجاتهم تلك الموارد التي لا ينضب معينها والتي كان يحصل عليها بالتقشف وبالنظام . وقد بقي حساب إيراداته ومصروفاته الضخم في كاتدرائية لاتران أكثر من ثلاثمائة عام كنموذج للاقتصاد المسيحي . وفي الأعياد الأربعة الكبيرة كان يقسم الأموال ربع السنوية المخصصة لها ، على الكهنة ، وخدمة الأديرة ، والكنائس ، والمقابر ، وبيوت البر والصدقة ، ومستشفيات روما ، وبقية الأبرشيات . في أول يوم من كل شهر كان يوزع على الفقراء ، حسبما يتفق مع الفصل ، نصيبهم المقرر من القمح والنبيد ، والجبن ، والخضروات ، والزيت ، والسمك ، والمؤن الطازجة ، والملابس ، والمال . وكانت خزائنه تفتح بصورة مستمرة لتسد باسمه المطالب غير العادية التي يتقدم بها أصحاب الحاجة وذوو الجدارة . وإذا تبين محنة عاجلة أصابت المرضى أو العاجزين ، أو الغرباء الحجاج ، فإن كرمه اليومي ، وفي كل ساعة من ساعات اليوم ، كان كفيلا بتخفيف هذه المحنة وإغاثة أصحابها . ولم يكن لطيب لهذا الخبر أن يتناول أكلة بسيطة الا اذا أرسل أطباقا من مائدته الخاصة الى من يستحقون حنانه وشفقته . وكان يؤس ذلك العصر قد ألجا نبلاء روما ونبيلاتهما الى قبول احسان الكنيسة دون خجل ، وكان هناك ثلاثة آلاف عذراء يتلقين طعامهن وكساءهن من يد هذا المحسن الكريم ، كما أن كثيرا من أساقفة إيطاليا فروا من المتبربرين الى عتبة الفاتيكان المضيافة . ويحق لجريجورى أن يلقب بوالد بلاده ، وكان ضميره شديد الحساسية الى درجة أن موت متمسول في شوارع المدينة كان كفيلا بأن يدفعه الى حرمان نفسه أياما كثيرة من ممارسة مهامه الكهنوتية ٢٠ - وقد كان من أثر المصائب التي حلت بروما أن تورط الراعي الرسولي في قضايا السلام والحرب ، وربما كان موضع شكه هو نفسه ما اذا كان الورع أو الطمع هو الذى شجعه على الحلول مكان فليكه المتغيب . وأيقظ

جريجورى الامبراطور من سبات طويل ، وكشف ذنب نائبه أو عجزه ، وذنّب أو عجز الوزراء التابعين له ، وشكا للامبراطور من أن قدامى الجنود كانوا يسحبون من روما للدفاع عن سبوليتو ، وشجع الايطاليين على حراسة مدنها وهياكلهم ، وتفضل ، فى أزمة الخطر ، بتعيين التربيونات وتوجيه عمليات القوات الاقليمية . غير أن روحه العسكرية كان يصدها تورعه الدينى والانسانى ، ومن قبيل ذلك أن فرض الجزية ، رغم أن العائد منها كان يستخدم فى الحرب الايطالية ، إلا أنه أدان ذلك جهارا بأنه شيء ظالم ممقوت ، وفى الوقت عينه كان ، رغم المراسيم الامبراطورية ، يحمى الجنود الجبناء الأتقياء الذين هجروا الحياة العسكرية ولجأوا الى حياة الرهبنة . واذا جاز لنا أن نصدق التصريحات التى أدلى بها ، فقد كان من اليسير عليه أن يقضى على اللبارد باستغلال نزاعاتهم الحزبية الداخلية ، دون أن يترك لهم ملكا ، أو دوقا ، أو (كونتا) ينقذ تلك الأمة التعسة من انتقام أعدائها . وبوصف كونه أسقفا مسيحيا ، فقد كان يفضل الخدمات النافعة التى تحقق السلام ، ومن ثم فقد توسط لاصماد تمرد الجيوش ، غير أنه كان متنبها لحيل اليونان ولأهواء اللبارد بدرجة منعه من أن يرتبط بوعد مقدس لضمان احترام الفريقين للهدنة . وقد خاب أمله فى تحقيق معاهدة عامة دائمة ، ولهذا تجرأ على انقاذ بلاده دون موافقة الامبةاطور أو نائبه . ولقد كان سيف العدو مسلطا على روما ، فاستطاع الحبر ، الذى استحوذ على احترام الهراطقة والمتبريرين أن يتجنبه بفصاحته الهادئة الرقيقة ، وبمواهبه اللاتقة . وقابل البلاط البيزنطى هذه الصفات الحميدة ، التى تحلى بها جريجورى ، باللوم والاساءة ، غير أن هذا الحبر وجد فى تعلق شعبه به وفى اعترافه بفضل ، أنبل ما يجرى عليه المواطن ، وأعظم حق لملك على رعيته .



يصف جيون فى الفصل السادس والأربعين نهاية أسرة جستنيان وبدء الأسرة المالكة الجديدة ، أسرة هرقلوس .

وشاهدت نهاية أسرة جستنيان أولا تحت حكم موريس (٥٨٢ - ٦٠٢) ، ثم تحت حكم فوكاس (٦٠٢ - ٦١٠) ، تطور الأمر من حالة الضعف المتناهى الى حالة الفوضى المطلقة تقريبا ، وهى حالة اقترنت بها الغزوات الأجنبية والتفكك الداخلى .

وفى عهد هرقلوس (٦١٠ - ٦٤٢) نهب الفرس اورشليم خلال حرب طويلة ، ثم غزوا مصر ، وكادوا يستولون على القسطنطينية بمعاونة

الآفار • الا أن هرقليوس سحق قوة الفرس الى الأبد في سنة ٢٦٨ ، كما
صد السلاف في البلقان •

وفي الفصل ٤٧ يناقش جييون النظريات التي لا تنتهي الخاصة
بالتجسد ، ويبين أن السر في ذلك يكمن في الفرق بين عقيدة نيقيا وعقيدة
اليقويين التي تقول بأن للمسيح طبيعة واحدة • واستهوت هذه العقيدة
الأخيرة شعوب الولايات الشرقية الذين أقروا بأن المسيح هو اله متجسد
وأن جسمه ذو شكل بشري ، غير أن طبيعته كانت طبيعة واحدة الهية •

المؤثرات اللاهوتية

الفصل السابع والأربعون (٤١٢ - ٥٦٥)

تاريخ عقيدة التجسد • الأبيونيون والغنوصيون •
النظريات المضادة التي قال بها كرينثوس وأبولليناريس ،
وكيرلس ، ونسطور ومجالس أفيسوس الكنسية الأولى • هرطقة
يوطاخيوس ومجلس أفيسوس الثاني • مجلس خلقدونية •
قانون التوفيق الذي وضعه زينون • لاهوت جستنيان •

بعد القضاء على الوثنية ، كان يمكن للمسيحيين أن يستمتعوا
بانتصارهم الوحيد في هدوء وتقوى • غير أن مبدأ الفرقة كان حيا في
صدورهم ، وكان تحمسهم لكشف طبيعة مؤسس دينهم أكثر من قلقهم على
ممارسة شرائعه • وقد سبق لي القول بأن النزاعات التي دارت حول التثليث
قد أعقبتها النزاعات حول التجسد • وكانت تلك الخصومات شائنة
للكنيسة وضارة بالدولة سواء بسواء ، بل إن نشأتها كانت أكثر دقة
وغموضا ، وآثارها أكثر دواما • وفي نيتي أن أضمن هذا الفصل الحالي
تاريخ حرب دينية دامت مائتين وخمسين عاما وأن أصور الانشقاق الكنسي
والسياسي للطوائف الشرقية ، وأن أمهد لوصف صراعاتهم الصاخبة
أو الدموية ببحث متواضع في عقائد الكنيسة الأولى •

الأبيونيون

١ - إن الاحترام المشكور لكرامة المهتدين الأوائل يؤيد الاعتقاد ،
والأمل ، والرغبة ، في أن الأبيونيين ، أو على الأقل النصارى ، لا يتميزون
الابمشاربتهن العنيدة على ممارسة الشعائر الموسوية • وقد اختفت كنائسهم ،
وطمست كتبهم ، غير أن الحرية التافهة التي تمتعوا بها ربما أجازت القول
بأنه كان لهم بعض الايمان ، كما أن عقيدتهم اللينة الناشئة كان يمكن

أن تتشكل تشكلا منوعا بفضل الغيرة أو الفطنة التي دامت ثلاثمائة سنة .
 ومع ذلك فإن أكرم نقد وأسخاه لابد من أن ينكر على أبناء هذه الطوائف
 أية معرفة بالوهمية المسيح الخالصة الصحيحة . فقد تعلموا في مدرسة
 النبوة اليهودية والتعصب اليهودي ، ولم يتعلموا أبدا أن يسموا بأمالهم
 الى ما هو أكبر من مسيح بشرى دنيوى . وإذا كان لديهم من الشجاعة
 ما جعلهم يحيون ملكهم عندما ظهر فى رداء العامة ، فإن مداركهم البليدة
 لم تستطع تمييز الهمم ، الذى دأب على اخفاء شخصيته السماوية تحت
 اسم وشخصية رجل من البشر (١) . وكان رفاق يسوع الناصرى المقربون
 اليه يتحدثون مع صديقهم وابن وطنهم الذى كان يبدو أنه من نفس الجنس
 البشرى الذى ينتمون اليه فى كل الأعمال المتعلقة بالحياة العقلية
 والحيوانية . وتميز تطوره من الطفولة الى الشباب والرجولة بزيادة منتظمة
 فى قوامه وحكمته ، وبعد أن تألم عقله وجسمه آلاما مبرحة مات على
 الصليب . ولقد عاش ومات لخدمة بنى البشر ، غير أن سقراط من قبله
 عاش ومات مثله من أجل قضية الدين والعدالة ، ورغم أن الرواقى أو البطل
 قد يحتقر الفضائل الودية المتواضعة التى تحلى بها يسوع ، فإن الدموع
 التى ذرفها على صديقه وبلاده يمكن أن تعتبر أنقى وأخلص دليل على
 إنسانيته . ولم تكن معجزات الانجيل موضع دهشة شعب آمن إيمانا
 جريئا بمعجزات الشريعة الموسوية الأكثر روعة ، فأنبياء العصور القديمة
 شفوا المرضى ، وأحيوا الموتى ، وشطروا البحر ، وأوقفوا سير الشمس ،
 وصعدوا الى السماء فى عربة نارية ، كما أن أسلوب العبرانيين المجازى ربما
 نسب الى اسم قديس وشهيد لقبا اضافيا هو لقب ابن الله .

غير أن عقيدة النصارى والأبوينيين غير الكاملة يكاد يلاحظ فيها
 تمييز بين الهراطقة الذين خلطوا ولادة المسيح بنظام الطبيعة العادى ، وبين
 المنشقين الأقل ذنبا الذين بجلوا طهر أمه وعذريتها ، واستبعدوا أن يكون
 قد مسها بشر . وكان انكار الطائفة الأولى لهذه الظاهرة تؤيده الظروف
 الملموسة التى أحاطت بمولده ، والزواج الشرعى الذى حدث بين والديه
 الشهيرين ، يوسف ومريم ، وحقه الوراثى فى مملكة داود وميراث يهوذا .
 غير أن التاريخ السرى الصحيح قد سجل فى عدة نسخ من الانجيل بناء على
 أقوال القديس متى ، واحتفظ بها أبناء هذه الطوائف مدة طويلة باللغة
 العبرية الأصلية باعتبارها الدليل الوحيد على إيمانهم . ولقد زالت الريب
 الطبيعية التى ساورت زوج مريم الذى كان يشعر بطهارته وعفته بفضل

(١) يضطر كريستوسوم وأثناسيوس الى الاعتراف بأن الوهمية المسيح قلما وردت على
 لسانه أو على لسان حواربيه .

التأكيد الذى أوحى اليه (فى حلم) أن زوجته حبلى من الروح القدس ، وبما أن هذه المعجزة البعيدة العائلية لم يكن مستطاعا أن تقع تحت ملاحظة المؤرخ الشخصية ، فلا بد أنه استمع الى نفس الصوت الذى قال للنبي أشعيا أن عذراء سوف تحمل فى المستقبل . ولا شك فى أن ابن عذراء يولد من الروح القدس بطريقة لا يمكن وصفها ، كان مخلوقا لا مثيل أو شبيه له ، يسمو عن أبناء آدم فى كل صفة من صفات العقل والجسم . ومنذ دخول الفلسفة اليونانية أو الكلدانية اقتنع اليهود بأن للأرواح وجودا سابقا . كما اقتنعوا بتناسخها وخلودها . وأن الله تعالى قد شاءت إرادته أن تظل هذه الأرواح حبيسة فى سجونها الدنيوية لتكفر عن ذنوبها وخطاياها التى ارتكبتها فى حياة سابقة . غير أن درجات النقاء والفساد تكاد لا تحصى ولا تعد . ومن الانصاف أن نفترض أن أسمى روح من بين الأرواح البشرية ، وأكثر فضيلة ، هى التى نفخت فى خلف مريم والروح القدس ، وأن نزوله من السماء كان بمحض اختياره ، وأن الهدف من رسالته كان تطهير ذنوب العالم لا ذنوبه هو . وعند رجوعه الى موطنه فى السموات تلقى الثواب الأعظم على خضوعه ، وهو مملكة المسيح الخالدة الى الأبد ، التى كان الأنبياء قد تنبأوا بها فى شيء من الغموض ، وصوروها فى صورة حسية يتمثل فيها السلام ، والغزو ، والسيطرة .

واستطاعت قدرة الله على كل شيء أن توسع مواهب المسيح البشرية الى مدى مكانته السماوية ، وفى لغة الأقدمين ، لم ينحصر لقب الله انحصارا شديدا فى الآب الأول ، وحق لرسوله الذى لا شبيه له وهو ابنه الوحيد ، أن يطلب الى العالم الأدنى ، دون غطرسة أو زهو ، أن يقم له العبادة الدينية ، وإن تكن عبادة ثانوية .

الغنوصيون

٢ - نمت بذور الايمان رويدا رويدا فى التربة الصخرية الجاحدة لبلاد اليهودية Judea ، ثم انتقلت فى كامل نضجها الى أجواء الأميين الأكثر هناء وصفاء ، وكان الغرباء عن المسيحية من سكان روما وآسيا ، الذين لم تقع أبصارهم قط على المسيح وهو فى دور رجولته ، أكثر نزوعا الى الايمان بالوهيته . وكان المشرك والفيلسوف ، واليونانى والمتبربر ، قد درجوا ، سواء بسواء على تصور سلسلة لا نهاية لها وتعاقب طويل ، من ملائكة ، أو أرواح ، أو آلهة ، أو قوى منبعثة من الآلهة أو انبثاقات منبعثة من عرش النور . ولم يكن بالشئ الغريب ، أو الذى لا يصدق ، أن أول هذه القوى ، وهو اللوجوس ، كلمة الله الذى هو من نفس جوهر الآب ، ينزل الى الأرض ليخلص أبناء البشر من الرذيلة والخطيئة ،

وليرشددهم الى طرق الحياة والخلود . غير أن العقيدة السائدة عن أبدية المادة والفساد الكامن فيها أصابت بعدواها كنائس الشرق الأولى ، فقد رفض الكثيرون من بين المهتمدين المؤمنين أن يؤمنوا بأن روحا سماوية ، وجزءا لا يتجزأ من الجوهر الأول ، قد اتحد اتحادا شخصيا مع كتلة من الجسد المدنس الملوث ، وفي غمرة حماسهم لالوهية المسيح أنكروا بشريته بدافع من الورع والتقوى وبينما كان دمه لا يزال حديث العهد على جبل الجلجثة الذي صلب عليه المسيح ابتدعت طائفة الدوكيت (١) Docetes (أى طائفة الخياليين) وهي طائفة متعلمة كبيرة العدد من الآسيويين ، عقيدة الوهم التي انتشرت بعد ذلك على أيدي أتباع ماركيون (٢) ، وأتباع ماني (٣) ، وطوائف الهرطقة الغنوصية الأخرى . وقد أنكروا جميعا صحة الأناجيل وصدقها فيما يختص بروايتها لحمل مريم ، ومولد المسيح ، والثلاثين سنة التي سبقت ممارسته لرسالته . وقالوا ان المسيح ظهر أول ما ظهر على ضفاف نهر الاردن في صورة الرجولة الكاملة ، ولكنها كانت صورة فقط دون أن تكون مادة ، وشكلا بشريا خلقتة يد الله القادر على كل شيء ليقبله قدرات الانسان وأعماله ، وليفرض وهما دائما على حواس أصدقائه وأعدائه . وكانت الأصوات الواضحة تتذبذب على أذان تلاميذه ، غير أن الصورة التي انطبعت على أبصارهم استطاعت أن تتملص من الدليل الأقوى وهو دليل اللمس ، وتمتعوا بوجود ابن الله بروحه لا بجسده . وضاع غضب اليهود دون جدوى ضد طيف لا يتأثر ولا يتألم ، وتمثلت المشاهد الغامضة المتعلقة بالآلام المسيح وموته ، وقيامته وصعوده ، على مسرح أورشليم لمصلحة بنى البشر . واذا قيل ان مثل هذا التقليد الكامل ، والخداع المستمر لم يكن لاثقا برب الحق ، فان الدوكيت وافقوا الكثيرين من اخوانهم الأرثوذكس على تبرير هذا الزيف الصالح الورع . وفي عقيدة الغنوصيين ، يعتبر يهوه Jehovah ، اله اسرائيل ، وخالق هذا العالم الأدنى ، روحا متمردة ، أو على الأقل جاهلة ، وقد نزل ابن الله الى الأرض للقضاء على هيكله وشريعته ، ولكي يحقق هذه الغاية السليمة ، نقل الى شخصه في براعة نبوءة مسيح دنيوى والأمل الذى كان معقودا عليه .

-
- (١) طائفة من الهرطقة في القرن الثاني الميلادى أنكرت بشرية المسيح . وقالت ان جسده كان مجرد صورة ، وأنه عاش وتآلم في الظاهر فقط .
- (٢) ماركيون من أهل سينوب . مات في سنة ١٦٥ م .
- (٣) ماني من أهل اكباتانا (٢١٥ - ٢٧٦ م) . وكان يقول بأن كل شيء انبثق من النور والظلام ، أو الخير والشر .

وثمة واحد من أخبث مجادلى مدرسة ماني أشبار فى الحاج الى ما هنالك من خطر ومجافاة لليساقة فى الاعتقاد بأن الهه المسيعيين خرج من رحم امرأة فى شكل جنين بشرى بعد انقضاء تسعة شهور ، فأصاب هذا المجادل خصومه بفزع منبعث من ورعهم وتقواهم ، فدفعهم ذلك الى انكار أية ظروف حسية تتعلق بالحمل والولادة ، والى التأكيد بأن الاله اخترق مريم كما يخرق شعاع من أشعة الشمس لوحا من الزجاج ، وأن بكارتها ظلت كما كانت حتى فى اللحظة التى أصبحت فيها أم المسيح . غير أن هذا التسليم المتدفع من جانبهم شجع طائفة الدوكيت على اتخاذ موقف أكثر ملاينة ورقة ، فقالوا ان المسيح لم يكن طيفا ، بل انه كان مغطى بجسم لا يتأثر بشيء ولا يعترية الفساد . وفى الحق أن المسيح ، فى رأى العقيدة الأرثوذكسية الأكثر صحة ، قد اكتسب هذه الصفة منذ بعثه ، ولا بد أنه كان يتصف بها دائما ، ما دام أنها استطاعت أن تخرق كثافة المادة الوسيطة دون أن تلقى مقاومة أو تسبب ضررا . وبما أن جسم المسيح هذا كان خلوا من أهم خصائص الجسد ، فمن الممكن أن يستثنى من صفات الجسد وعمله . فالجنين الذى استطاع أن يتطور من نقطة غير مرئية الى حالة النضج المكتمل ، والطفل الذى استطاع النمو حتى بلغ قوام الرجولة الكاملة دون أن يستمد أى غذاء من المواد العادية ، يمكن أن يبقى حيا دون أن يعوض عن شيء يفقده يوميا بمادة خارجية يتناولها كل يوم . وقد استطاع يسوع أن يشترك فى وجبات تلاميذه دون أن يشعر بعطش أو جوع ، ولم يتلوث طهره العذرى مطلقا بأرجاس الشهوة الحسية . وهذا الجسم المفرد فى تكوينه انما يثير سؤالا عن الكيفية التى شكل بها فى الأصل وعن المادة التى صنع منها ، وهنا يفاجأ لاهوتنا الأكثر صحة بجواب لم يكن مستغربا على الغنوصيين ، وهو أن الشكل والمادة هما من الجوهر الالهى . وفكرة الروح النقية الخالصة المطلقة هى فكرة هذبتها الفلسفة الحديثة ، فالجوهه اللامادى الذى نسبته الاقدمون الى النفوس البشرية ، والمخلوقات السماوية ، بل والى الله نفسه ، لا يستبعد فكرة القضاء الممتد ، وقنع خيالهم بأن للهواء أو النار ، أو الأثير ، طبيعة غامضة أكثر كمالا بما لا يقاس من خشونة العالم المادى . وإذا حددنا مكان الله ، فلا بد من أن نصف شكله ، وتصور تجربتنا وربما غرورنا ، قدرات العقل والفضيلة وهى متمثلة فى كيان بشرى . وقد استطاع الكثيرون من أولئك الذين صوروا الاله فى صورة الانسان ، والذين كثر عددهم بين رهبان مصر وكاثوليك أفريقيا ، أن يجيئوا بالقول الصريح الذى ورد فى الانجيل من أن الانسان صنع على صورة خالقه . وقد تخلى سيرايون الميجل ، وهو من قديسى صحراء النطرون ، عن تحيزه العزيز عليه ، وهو يذرف الدمع

كالطفل على تغييره التعس لعقيدته ، ذلك التغيير سلبه ربه ، وترك عقله دون شئ مرئى يؤمن به ويعبد .

النظريات المضادة التي قال بها كرينثوس وابوللينارس

٣ - هكذا كانت الخيالات السريعة العابرة التي تراءت لطائفة الدوكيت . وهناك فرض أكثر قربا الى الحقيقة ، وان كان أقل بساطة من تلك الخيالات ، ابتدعه كرينثوس (١) الآسيوى ، والذي تجاسر على معارضة آخر الحواريين ، وقد عاش ذلك الرجل على تخوم عالم اليهود والأميين ، وعمل جاهدا على التوفيق بين الأيونيين والغنوصيين ، فاعترف مسيحيهم نفسه بأن الانسان والاله قد اتحدا فى شخصه اتحادا خارقا للطبيعة ، وقد اعتنق هذه العقيدة الغامضة بعد أن دخلت عليها تحسينات خيالية كثيرة ، كاربوكراتس ، وباسيليدس ، وفالنتين ، وهم هرطقة المدرسة المصرية . وكان يسوع الناصرى فى نظرهم مجرد بشر ، وابنا شرعيا ليوסף ومريم ، ولكنه كان أفضل أبناء الجنس البشرى وأكثرهم حكمة ، وقد وقع عليه الاختيار ليكون أداة صالحة تعيد عبادة الاله الحقيقى الاسمى على الأرض . وعندما تعمد فى الأردن ، نزل المسيح ، وهو أول قوة منبعثة من الله ، وابن الله نفسه ، على يسوع فى شكل حمامة ، لكى يستقر فى عقله ويوجه أعماله خلال الفترة المحدد لأداء رسالته . وعندما سلم المسيح الانسان الى أيدي اليهود تخلى المسيح الاله ، وهو كائن خالد لا يتأثر بشئ ، عن جسمه الانسانى الأرضى ، وعاد الى عالم الأرواح . غير أننا لابد أن نتساءل فى قوة عن مبلغ العدالة والكرم فى هذا التخلي ، كما أن المصير الذى لقيه شهيد برىء دفعه رفيقه الالهى الى العمل فى بادىء الأمر ، ثم تخلى عنه فى نهاية المطاف ، هذ المصير أثار رثاء الدنيويين وسخطهم . وأسكت تدمرهم ، بصورة مختلفة ، أبناء الطوائف التي اعتنقت وعدلت المذهب المزوج الذى وضعه كرينثوس . وقالوا ان يسوع ، عندما ثبت بالمسامير على الصليب ، منح عقله وجسمه قدرة معجزة على عدم

(١) تقابل القديس يوحنا وكرينثوس مصادفة فى حمام عام بمدينة افيسوس ، غير أن الحوارى يوحنا هرب من الهرطوقى كرينثوس لئلا يظهار عليهما البناء ، وهذه القصة السخيفة ، التي نبذها دكتور مدلتون ، يقصها رغم ذلك ايريناوس مستشهدا بما قاله بوليكارب Polycarp ، وربما كانت هذه القصة ملائمة لعصر كرينثوس والمكان الذى وجد فيه .

التأثر جعلته لا يحس بالآلام الظاهرة ، وأكدوا أن هذه الآلام المؤقتة ، مع أنها آلام حقيقية ، سوف يثاب عليها ثوابا كثيرا بحكم زمني قدره ألف عام خصص للمسيح في مملكة اورشليم الجديدة ، ولمحوا الى أنه اذا كان قد تألم وتعذب ، فانه استحق العذاب ، وأن الطبيعة الانسانية لا يمكن أن تنال الكمال المطلق ، وأن الصليب والألم قد يكفرون عن الذنوب العريضة التي ارتكبها ابن يوسف قبل اتحاده الغامض مع ابن الله .

٤ - كل أولئك الذين يؤمنون بلامادية الروح ، وهي عقيدة جميلة نبيلة ، لابد أن يعترفوا ، من تجربتهم الحالية بأن اتحاد العقل والمادة شيء يندق على الفهم . واتحاد من هذا النوع لا يتعارض مع المواهب العقلية الأكثر سموا ، بل مع أسمى المواهب العقلية ، وتجسد قوة منبعثة من الله أو من ملك من كبار الملائكة ، وهو الذي يعتبر أكثر الأرواح المخلوقة كمالا ، لا يتضمن أى تناقض أكيد . وفي عصر الحرية الدينية الذي قرره مجلس نيقيا الكنسي ، كانت كرامة المسيح تقاس بمقياس الحكم الخاص بناء على قانون الانجيل المطلق ، أو العقل ، أو العرف والتقليد . ولكنه عندما توطدت الوهية الخالصة الحقيقية على أنقاض الآريوسية ، اهتز ايمان الكاثوليك على حافة هاوية حيث كان النكوص مستحيلا ، والبقاء خطيرا ، والسقوط مخيفا مريعا . وازدادت متاعب عقيدتهم الكثيرة من جراء سمو طابع لاهوتهم . وترددوا في القول بأن الله نفسه ، وهو الأبنوم الثاني من بين ثلاثة أقانيم متساوية ومتحدة في الجوهر ، ظهر في الجسد ، وأن كائنا يوجه في كل مكان من الكون قد انحصر في رحم مريم ، وأن بقاءه الخالد الأبدى كان يقاس بأيام وشهور وسنين من الوجود الانساني ، وأن القادر على كل شيء جلد بالسوط وصلب ، وأن جوهره الذي لا ينفذ اليه الألم شعر بالألم والعذاب وأن علمه بكل شيء لم يكن خلوا من الجهل ، وأن منبع الحياة والخلود مات على جبل الجلجثة . وهذه النتائج المزعجة ثبتتها ببساطة صفاقة أبولليناريس ، أسقف لاوديكية (اللاذقية) ، وأحد أئمة الكنيسة . وكان ابن أحد علماء النحور ، وبرع في كل علوم اليونان ، وخصص لخدمة الدين في تواضع ، فصاحته ولوذييته وفلسفته التي برزت في مؤلفاته . وكان صديقا لأثناسيوس جديرا بصداقته ، وخصما لجوليان جديرا بخصومته . وصارع أتباع آريوس والمشركن في جراءة وبسالة ، ومع أنه اصطنع صرامة التدليل الهندسي ، الا أن تعليقاته أظهرت تشربه بروح الانجيل في حرفيتها ومجازاتها . وثمة سر غامض ظل مفتقرا الى الوضوح في عقيدة الشعب استطاع أبولليناريس بمنابرته العنيدة أن يحدده في صيغة فنية ، فكان أول من صرح بالكلمات المشهودة : « ان للمسيح طبيعة متجسدة واحدة » ، وهي كلمات ما تزال ترددها أصوات

صاحبة عدائية في كنائس آسيا ومصر وأثيوبيا ونادى بأن اللاهوت اتحد أو امتزج بجسم بشرى ، وأن اللوجوس ، وهو الحكمة الأبدية ، حل في الجسد مكان النفس البشرية وقام بوظيفتها . ورغم ذلك فإن أبولليناريس ، شأنه شأن الطبيب الذي انزعج لتهوره هو نفسه ، قد سمع وهو يتمتع ببعض عبارات الاعتذار والتفسير الخافتة . فسلم بالتمييز القديم الذي قال به فلاسفة اليونان بين نفس الانسان العاقلة ونفسه الحساسة حتى يستطيع تخصيص اللوجوس للوظائف العقلية ، واستخدام الصفة البشرية الأدنى مرتبة في أعمال الحياة الحيوانية الأقل قيمة . وأقر بما أقر به أبناء طائفة الدوكيت المعتدلون من تبجيل لمريم على اعتبار أنها الأم الروحية ، لا الجسدية للمسيح ، الذي جاء جسسه من السماء وكان جسما لا يتأثر بشيء ولا يعترية الفساد ، أو أن جسسه استوعب في جوهر الاله أو تحول اليه . وقد لقيت عقيدة أبولليناريس مقاومة عنيفة من رجال اللاهوت الآسيويين والسوريين ، الذين شرفت مدارسهم بأسماء باسيلي ، وجريجورى ، وكريسوستوم ، وتلطخت بأسماء ديودوروس ، وتيودور ونسطور . غير أن شخص أسقف لاوديكيه العجوز ، وأخلاقه ، ومكانته ، ظلت مصنونة طاهرة ، أما منافسوه ، فيما أننا لا نستطيع أن نرميهم بضعف التسامح ، فرموا أدهشتهم طرافة الحجة وجدتها ، وكانوا غير واثقين من الحكم الأخير الذى سوف تصدره الكنيسة الكاثوليكية . وأخيرا جاء حكمها فى صالحهم ، وأديننت هرطقة أبولليناريس ، وحظرت القوانين الرومانية اجتماعات تلاميذه المتفرقة . غير أن مبادئه ظلت مأخوذا بها سرا فى أديرة مصر ، وشعر أعداؤه بكراهية توفيلوس وكيرلس ، وهما اللذان توليا منصب بطريرك الاسكندرية ، واحدا بعد الآخر .

هـ - وهكذا نبذ الابيونيون الحقراء ، وأبناء طائفة الدوكيت الخياليون ، ونسيهم الناس ، أما الكاثوليك فقد دفعهم الحماس الحديث ضد أخطاء أبولليناريس الى الموافقة الظاهرة على عقيدة الطبيعة المزدوجة التى قال بها كرينثوس . ولكن بدلا من أن يكون هناك اتفاق مؤقت عرضى ، فانهم أقروا ، ونحن مازلنا نقر ، عقيدة الاتحاد المادى ، الوثيق ، والدائم الى الأبد ، بين الاله الكامل والانسان الكامل ، بين الأقسام الثمانية من الأقسام الثلاثة ، وبين نفس عاقلة وجسم بشرى . وفى بدء القرن الخامس كانت عقيدة وحدة الطبيعتين هى العقيدة السائدة للكنيسة . واعترفت كل الأطراف بأن طريقة وجودهما المشترك لا يمكن أن تصورهما أفكارنا أو تعبر عنها لغتنا . غير أن خلافا سريا مستمعا نشب بين أولئك الذين كانوا يشعرون بأشد الخوف من مزج الوهية المسيح ببشريته ، وبين أولئك الذين كانوا يخافون أكثر الخوف من فصلهما . وقد دفع

الجنون الدينى كلا من الفريقين الى الهرب بسرعة مشثومة من الخطأ الذى وقع فيه الفريق الآخر والذى يرى أنه يفتك أشد الفتك بالحقيقة والخلص . وكان القائلون بالمزج والقائلون بالفصل حريصين على حماية عقيدتهم وغيورين على الدفاع عنها ، الى ابتداء تلك الصيغ اللفظية ، والاصطلاحات الرمزية المعبرة عن العقيدة ، التى لا تحتل الا أقل قدر من الشك واللبس . وأغرامهم فقر الأفكار واللغة على البحث فى مجال الفن والطبيعة عن كل تشبيه ممكن ، وكان كل تشبيه من هذه التشبيهات يضلل خيالهم فى تفسير غموض لا يمكن أن يقارن بشئ آخر ، وتحت مجهر الجدل تتضخم الذرة فتصبح وحشا هائلا ، ومن ثم فقد برع كل فريق فى تضخيم النتائج الباطلة أو الملحدة التى أفكن انتزاعها من مبادئ خصومه . ولكى يهرب كل فريق من الآخر ضلوا جميعا طريقهم فى أدغال مظلمة متوهة ، حتى فاجأتهم أشباح كرينثوس وأبوللينارييس المخيفة ، وقد وقف هذان الرجلان يذودان عن القضايا المضادة من المتاهة اللاهوتية . وما أن شاهدا الضوء الخافت المنبعث من العقل والهرطقة حتى تولاهم الفزع ، وعادوا أدراجهم ، واكتنفتهم مرة ثانية ظلمة الأرثوذكس الخالكة . ولكى يظهروا أنفسهم من ذنب الخطأ الملعون ، أو يتخلصوا من اللوم عليه ، أنكروا النتائج التى وصلوا اليها ، وفسروا مبادئهم ، والتمسوا العذر لحماقتهم ، ورددوا بالاجماع أصوات الوفاق والايان . ورغم ذلك فقد كانت هناك شرارة خفية لا تزال مختبئة بين جمرات الخصومة ، فأشعلتها سريعا أنفاس التحيز والهوى حتى غدت لهيبا عاتيا ، وهزت النزاعات الشفوية التى احتدمت بين الطوائف الشرقية أعمدة الكنيسة والدولة .

كيرلس ، ونسطور ، ومجانس افيسوس الكنسية الأولى

اشتهر اسم كيرلس السكندرى فى قصة الجدل الدينى ، ويعتبر لقب « القديس » الذى لقب به دليلا على أن آراءه وفريقه كتبت لهم الغلبة فى نهاية الأمر . وقد تشرب فى منزل عمه ، رئيس الأساقفة توفيلوس ، دروس الغيرة والسيطرة الأرثوذكسية ، وقضى خمس سنوات من شبابه بصورة مجدية فى أديرة صحراء النطرون المجاورة حيث انكب على الدراسات الدينية بحماس لا يعرف الكلل ، وتحت توجيه الأب سيرابيون ، حتى انه فى ليلة واحدة قضاه ساهرا استوعب الأناجيل الأربعة ، والرسائل الكاثوليكية ، والرسالة الى الرومان . وكان يمت أوريجن Origen ، غير أن كتابات كليمان وديونيسيوس ، وأثناسيوس ، وباسيلي ، كانت لا تفارقه ، وحذق الجدل ، نظرية وممارسة ، وبذلك ثبت

إيمانه ، ولمع ذكاؤه . ونثر في صومعته كتب اللاهوت العريضة التي ترك عليها الزمن آثاره ، وأمعن فكره في قراءة كتب القصص الرمزي والميتافيزيقا التي ما تزال بقاياها محفوظة في سبع مجلدات مطولة ، ترقد في هدوء الى جوار مثيلاتها . وكان كيرلس يؤدي الصلاة والصيام خلال اقامته في الصحراء ، غير أن أفكاره (وهذا تقرع من صديق له) ظلت عالقة بالدنيا ، وعندما استدعاه توفيلوس الى جلبة المدن والمجامع الدينية بادر الناسك الطموح الى استجابة تلك الدعوة . وشجعه عليه على تقلد منصب واعظ الشعب ، ونال في ذلك الميدان صيتا وشهرة . وازدان المنبر بشخصه الفخم المهيب ، ودوى صوته الغدب الرخيم في أرجاء الكاتدرائية ، وكان أصداؤه يجلسون هنا وهناك ليكونوا في مقدمة المصفيق من بين المجتمعين ، أو لتأييد التهليل والتصفيق لهم . ودون الكتبة مذكرات سريعة لأحاديثه ومواعظه التي يمكن مقارنتها ، من حيث أثرها لا من حيث أسلوبها ، بتلك التي كان يلقيها خطباء أثينا . وقد اتسعت بموت توفيلوس آمال ابن أخيه وتحققت ، وانقسم رجال الدين في الاسكندرية حول المرشح لذلك المنصب ، وأيد الجنود وقائدهم مطالب رئيس الشمامسة ، غير أن الجماهير التي لا تقاوم انتصرت لقضية كيرلس المحبب اليهم ، واستخدمت في ذلك التأييد أصواتها وأيديها ، وبعد فترة قدرها تسع وثلاثون سنة جلس كيرلس على عرش اثناسيوس .

ولامت هذه المكافأة أطماع كيرلس . وكان بطريك الاسكندرية ، كما أصبح يلقب الآن ، قد استغل بعده عن البلاط الامبراطوري ، ورئاسته لعاصمة ضخمة ، فاغتنب شيئا فشيئا مكانة حاكم مدني وسلطته ، وتصرف بمحض ارادته في صدقات المدينة العامة والخاصة ، وكان صوته يلهب مشاعر الجماهير أو يهدئها ، كما أن أتباعه المتعصبين الكثيري العدد من البارابولاني (١) ، الذين ألفوا في عملهم اليومي مشاهد الموت ، كانوا يطيعون أوامر طاعة عمياء ، وكانت السلطة الزمنية التي تمتع بها هؤلاء الأحرار المسيحيون تخيف ولاة مصر أو تثير غضبهم ، واشتد حماس كيرلس الى اضطهاد الهرطقة ، ووفق في بدء عهده الى التكنيل بأتباع نوفاشيانوس ، وهم أكثر أبناء الطوائف براءة وبعدها عن الأذى . وبدا تحريم عبادتهم في نظره عملا عادلا جديرا بالثناء ، فصادر أوانيهم المقدسة دون أن يخشى ذنب تدنيس الأماكن الدينية . أما اليهود ، الذين تضاعف عددهم الى أربعين ألفا ، فقد كان التسامح معهم ، بل وامتيازاتهم ، أمرا كفلته قوانين

(١) غلمانيون كانوا يساعدون رجال الدين في الكنائس الشرقية في الاشراف على

القياصرة والبطالة ، واقامة طويلة قدرها سبعمائة سنة ، منذ تأسيس الاسكندرية . غير أن البطريك ، دون أى حكم قانونى ، ودون أى تفويض ملكى ، قاد جمهورا متمردا مشيرا للفتنة فى فجر أحد الأيام للمهاجمة معايدهم . وعجز اليهود عن المقاومة وهم عزل لم يأخذوا للأمر عدته ، فهدمت أماكن عبادتهم وسويت بالأرض ، وبعد أن كافأ المحارب الأسقى أفراد قواته بأن سمح لهم بنهب بضائع اليهود ، طرد من المدينة من تبقى من أبناء الشعب الكافر . وربما برر هذا العمل بأنهم كانوا مسفين فى النراء ، وبكراهيتهم المميتة للمسيحيين الذين سفكوا هم دماءهم منذ عهد قريب فى اضطراب خبيث كان مدبرا ، أو حدث مصادفة ، وكانت مثل هذه الجرائم التى ارتكبتها كيرلس تستحق لوم الحاكم وتقريعه ، غير أنه فى هذا الاضطراب العنيف ، الذى اختلط فيه الحابل بالنابل ، ضاع البرىء مع المذنب ، وأصاب الفقر مدينة الاسكندرية بفقدانها جالية ثرية مجدة . وتعرض كيرلس من جراء حماسه هذا الى قصاص القانون الجولياني ، غير أن الحكومة الضعفية والعصر المتسم بالخرافة جعلاه فى مأمن من العقاب ، بل وضمنا له المدح والإطراء . وقد شكوا أورستيس ، حاكم مصر ، غير أن شكواه العادلة لم تقابل من وزراء ثيودوسيوس الا بالنسيان السريع ، ولكن الأسقف وضع تلك الشكاوى فى أصماق ذاكرته ، ومع أنه تظاهر بالصفع عن الوالى الا أنه ظل يضرر له المقت والكراهية . فعندما كانت عربته تخترق الشوارع هاجمها فريق مكون من خمسمائة راهب من رهبان صحراء النيطرون ، فهرب حراسه أمام وحوش الصحراء هؤلاء ، وقوبلت احتجاجاته بأنه مسيحي وكاثوليكي بسيل من الأجبار ، فسالت الدماء من وجهه ، وسارع مواطنو الاسكندرية المخلصون الى نجده ، واستطاع أن يشبع عدالته وانتقامه على الفور ضد الراهب الذى جرحه ، ووقع أمونيوس قتيلًا بعضى الجلاد . فما كان من كيرلس الا أن أمر برفع جثته من الأرض ، ونقلها فى موكب مهيب الى الكاتدرائية ، ثم غير اسمه الى توماسيوس « المذهل » ، وزين قبره بنصب الاستشهاد ، ثم ارتقى البطريك منبر الكاتدرائية ليشهد بشهادة راهب نائر وقاتل . وكانت مثل هذه الأمجاد كفيفة بدفع المؤمنين الى القتال والموت تحت أعلام القديس ، وسرعان ما شجع الناس على التضحية بعذراء اعتنقت ديانة اليونان ونالت صداقة أورستيس ، أو قل ان هذه التضحية صادفت منه قبولا . ذلك أنه كانت هناك فتاة اسمها هيباشيا Hypatia ، ابنة العالم الرياضى ثيون Theon وقد حظت دراسات أيبها ، وشرحت بتعليقاتها اللوغية هندسة أبولونيوس وديوفانتوس ، وكانت تدرس علانية ، فى أثينا والاسكندرية ، فلسفة أفلاطون وأرسطو . ورغم أن هذه العذراء المتواضعة كانت بارعة الجمال ، ناضجة الحكمة ، الا أنها رفضت عشاقها

وعلمت تلاميذها ، وتلهف أشهر الناس مقاما وجدارة على زيادة تلك الفيلسوفة ، وكان كيرلس يشاهد بعين الحقد والحسد ذلك الرتل الفخم من الجياد والعبيد الذين اصطفوا على باب أكاديميتها . وسرت أشاعة بين المسيحيين تقول بأن ابنة ثيون هي العقبة الوحيدة في طريق التوفيق بين الوالى ورئيس الأساقفة ، وفي يوم مشئوم من فصل الصيام الكبير المقدس ، انتزعت هيياشيا من عربتها ، وجردت من ملابسها ، وجذبت الى الكنيسة حيث ذبحت كالشاة بيد قارى الصلوات ، بطرس ، وفريق من المتعصبين المتوحشين قساة القلوب . ثم انتزع لحمها من عظامها بقشور المحار ، وألقيت أطرافها المرتعدة فى لهيب النار . وأوقف البطيريرك سير التحقيق والعقاب العادل بالهدايا المناسبة ، غير أن قتل هيياشيا وصم أخلاق كيرلس الاسكندري وديانته بوصمة تار لا تزول ولا تمحى .

ومن الجائز أن تكفر الخرافة عن دم عنراء بصورة أكثر رقة من تكفيرها عن نفى قديس ، وكان كيرلس ، فيما مضى قد صحب عمه الى مجمع « البلول » الجائز الظالم . وعندما أعيدت ذكرى كريسوستم وحظيت بالتقديس ، ظل ابن شقيق توفيلوس ، على رأس حزب منقرض ، متمسكا بعدالة الحكم الذى كان قد صدر ضده ، ولم يذعن لرغبة العالم الكاثوليكي الا بعد مطاطلة متعبة ومقاومة عنيدة . ولم تكن عداوته لأخبار بيزنطة نزوة من نزوات الهوى ، بل احساسا بالمصلحة ، فكان يغبطهم على مركزهم السعيد فى أضواء البلاط الامبراطورى ، وكان يخشى أطماعهم الحديثة التى جارت على عواصم أوربا وآسيا ، وغزت ولايات أنطاكيا والاسكندرية ، وجعلتهم يتطلعون الى أن تكون حدود الامبراطورية مقياسا لاتساع مجالهم الأسقى . وتوقفت عداوات البطارقة الشرقيين بفضل الاعتدال الطويل الأمد الذى أظهره أنيكوس ، المقتصب الرقيق لعرش كريسوستم . غير أن كيرلس استيقظ فى نهاية الأمر بتأثير الزفة التى نالها منافس أجدر بتقديره وبكراهيته . ذلك أنه بعد عهد قصير تولى فيه سيسينيوس أسقفية القسطنطينية ، هدأت ثائرة أحزاب رجال الدين والشعب بعد أن وقع اختيار الامبراطور فى هذه المناسبة على رجل غريب ليكون أسقفا ، وقد دفعه الى هذا الاختيار ذبوع شهرته وما اتصف به من فضل وجدارة . ذلك الرجل هو نسطور ، من أهل جرمانيكيا وأحد رهبان أنطاكيا ، وقد زكته لهذا المنصب خشونة حياته وفصاحة عطاقة الدينية ، غير أن أول عظة ألقاها أمام الامبراطور الورع ثيودوسيوس نبئت عن حماسه الحاد الذى لا يتوانى ولا يصبر . وقد قال فى تلك العظة : « أعطنى الأرض أينما القيصر ! وقد ظهرت من الهراطقة ، وسوف أعطيك فى مقابل ذلك مملكة انسماء . استاصل معى شاة الهراطقة ، وسوف أقضى معك على الفرس » .

وفى اليوم الخامس • وكان المصاهرة قد وقعت ، اكتشف بطريك القسطنطينية اجتماعا دينيا سرىا لاتباع آريوس ، ففاجأهم وهاجمهم ، ولكنهم فضلوا الموت على الخضوع ، وأشعلوا النار بدافع اليأس فى مكان الاجتماع ، وسرعان ما امتدت النار الى المنازل المجاورة • وخيم على انتصار نسطور اسم « خالق الفتن » • ولقد فرضت قوته الأسقفية على جانبي الدردنيل تعليمات صارمة مشددة تتعلق بالعقيدة والنظام - وكان أى خطأ فى الترتيب التاريخي فيما يختص بعيد القيامة يعاقب عليه مرتكبه على اعتبار أنه جريمة ضد الكنيسة والدولة • وقد ظهرت مدن ليديا وكاريا ، وساردس وميليتوس بسماء « الكوارتودسيمان » Quartodecimans (١)، المتشبهين (الذين احتفلوا بعيد القيامة فى اليوم الرابع عشر من شهر نيسان) • وقد اشتمل مرسوم الامبراطور ، أو قل مرسوم البطريك ، على ثلاث وعشرين درجة وتسمية لذنوب الهرطقة وعقابه • غير أن سيف الاضطهاد الذى استخدمه نسطور يمثل هذه الوحشية سرعان ما ارتد الى صدره ، وكانت الديانة هى العذر الظاهري الذى ادعاه الأسقف لتبرير هذه الحرب الدينية ، غير أن الطمع هو الذى كان الدافع الحقيقي لتلك الحرب ، كما قرر أحد رجال الدين الصالحين فى ذلك العصر •

وقد تعلم نسطور فى مدرسة الفكر السورية أن يمقت عقيدة امتزاج الطبيعتين ، وأن يفرق بدقة بين بشرية سيده المسيح وبين ألوهية الرب يسوع • وكان يبجل ويقدر العذراء المباركة على أنها أم المسيح ، غير أنه كان يستاء لسماع اللقب الحديث الطائش ، أم الله ، الذى أطلق عليها بصورة غير محسوسة منذ بدء النزاع الآريوسى • ومن فوق القسطنطينية ، أخذ أحد أصدقاء البطريك ، ثم البطريك نفسه ، يهاجم فى عظاته المرة بعد الأخرى استعمال ، أو أساءة استعمال كلمة أم الله التى لم يعرفها الحواريون ، ولم تقرها الكنيسة ، وهى كلمة تزعج المتخوفين ، وتضلل البسطاء ، ويتسلى بها الكفار ، وتبرر تسلسل النسب القديم الى اولمبيوس ، بطريق التشابه الظاهري • وكان نسطور ، فى لخطاته الأكثر هدوءا ، يعترف بأن هذه الكلمة يمكن التسامح فيها أو التجاوز عنها باتحاد الطبيعتين الالهية والبشرية واختلاط لفظيهما ، غير أن التناقض فى هذا الأمر كان يثيره ويدفعه الى التنصل من عبادة وليد حديث ، واله طفل ، والى أخذ تشبيهاته غير المناسبة من المشاركات المدنية ومشاركات الزواج

(١) أولئك الذين كانوا يحتفلون بعيد القيامة فى الرابع عشر من شهر نيسان دون اعتبار ليوم الاسبوع • وكانت الكنائس الغربية تحتفل به فى يوم الأحد التالى لليوم الرابع عشر بمقتضى قرار مجمع نيقيا (٣٢٥ م) - (الترجمة) •

التي تحدث في الحياة ، وإلى وصف رجولة المسيح بأنها رداء ألوهيته ، وأداتها ، ومظلتها . وقد اهتزت لهذه الأصوات الكافرة أعمدة الكنيسة ، وانغمس منافسوه الفاشلون في سخطهم الديني أو الشخصي ، واستاء قساوسة بيزنطة في دخيلة أنفسهم من تطفل رجل غريب عنهم ، ولقى كل ما كان خرافة أو حمقا تأييد الرهبان وحمايتهم ، وانصرف اهتمام الشعب إلى مجد سيدتهم العذراء . وكانت عظات رئيس الأساقفة والطقوس الدينية أمام المذبح ، تقابل بالصخب المثير للفتنة ، كما أن محافل دينية مختلفة نبذت سلطته وعقيدته ، وكانت كل ريح تنشر حول الامبراطورية أوراق النزاع والخصومة ، وترددت أصداء صوت المتخاصمين المتجادلين على ذلك المسرح الصاخب في صوامع رهبان فلسطين ومصر . وكان من واجب كيرلس أن يشق حماس رهبانه العديدين وينير جهلهم . وكان في مدرسة الاسكندرية قد تشرب عقيدة تجسد طبيعة واحدة واعتنقها ، ومن ثم فإن خليفة أثناسيوس استلهم كبرياه وطموحه عندما هب للقتال ضد أريوس آخر ، هو أعظم قوة وأشد اجراما من أريوس نفسه ، وهو نسطور المتريع على العرش الثاني للحكم الكنسي . وبعد مراسلة قصيرة أخفى فيها الأسقفان المتنافسان كراهيتهما في لغة الاحترام والمحبة الجوفاء ، وكشف بطريرك الاسكندرية للحاكم والشعب ، وللشرق والغرب ، عن الأخطاء الملعونة التي ارتكبها الحبر البيزنطي . وقد تلقى من الشرق ، وخاصة من أنطاكية ، نصائح مبهمة تدعو إلى التسامح والصمت وجهت إلى الطرفين المتنازعين مع أنها تميل إلى جانب قضية نسطور . غير أن الفاتيكان فتح ذراعيه لرسول مصر ، وأرضى النداء غرور البابا الروماني سلسطين ، Celestine كما أن الترجمة المغرضة التي قام بها أحد الرهبان جددت عقيدة البابا ، وكان هو والقساوسة اللاتين يجهلون لغة اليونان وفنونهم ولاهوتهم . فراس سلسطين مجما إيطاليا ، وبحث حقائق القضية ، ووافق على عقيدة كيرلس ، وأدان شخص نسطور ومشاعره ، وأنزل الهرطوقي من منصبه الأسقفى ، ومنحه مهلة عشرة أيام للتوبة وسحب أقواله ، وخول لعدوه تنفيذ هذا الحكم الطائش غير القانوني . غير أن بطريرك الاسكندرية ، مع أنه أطلق رعود اله ، إلا أنه كشف عن أخطاء انسان وأهوائه ، وما تزال لعناته الاثنتا عشرة تعذب الأرقاء الأرثوذكس الذين يقدسون ذكرى قديس دون أن يخسروا ولاهم لمجمع خلقدونية . وهذه التأكيدات الجريئة مخضبة بالوان هرطقة أبولليناريس التي لا تمحى ، غير أن المعتقدات الخطيرة ، وربما الصادقة ، التي قال بها نسطور قد أرضت رجال لاهوت العصور الحالية الأكثر حكمة والأقل تحيزا .

غير أنه لا الامبراطور ولا أسقف الشرق كانا على استعداد لطاعة أمر كاهن ايطالى ، وأصبح المطلوب بالاجتماع أن يجتمع مجلس كنسى للكنيسة الكاثوليكية ، أو قل الكنيسة اليونانية ، على أساس أن ذلك هو العلاج الوحيد لتهدئة هذا النزاع الكنسى ، أو للفصل فيه . ووقع الاختيار على مدينة أفيسوس لتكون مكانا للاجتماع لسهولة الوصول اليها بالبحر وبالبر ، كما حدد يوم عيد العنصرة موعدا له . وأرسلت دعوات الحضور لكل عاصمة ، وعين حرس لحماية الآباء والاحاطة بهم الى أن يفصلوا فى أسرار السماء وعقيدة الأرض . وجاء نسطور كقاض ، لا كمجرم ، وكان يعتمد على مكانة أساقفته ووزنهم أكثر من اعتماده على عددهم ، وكان عبيده الأشداء ، الذين أحضرهم معه من حمامات زيوكسيبوس ، مزودين بالأسلحة وعلى استعداد لأية خدمة يؤدونها اىذاء لغيرهم أو دفاعا عن أنفسهم . غير أن خصمه كيرلس كان أقوى منه فى الأسلحة التى تصيب الجسد والروح ، وقد رفض الانصياع لأمر الاستدعاء الملكى فى حرفينه ، أو على الأقل فى معناه ، وجاء الى المدينة متبوعا بخمسين أسقفا مصريا ينتظرون من ايماءة بطريركهم الهام الروح القدس . وكان كيرلس قد عقد تحالفا وثيقا مع ممنون ، أسقف أفيسوس ، واستطاع هذا الرجل ، وهو رئيس أساقفة آسيا صاحب السلطة المطلقة ، أن يضمن الى جانبه ثلاثين أو أربعين من أصوات الأساقفة ، وتدفق الى المدينة جمهور من الفلاحين بالاضافة الى عبيد الكنيسة ، لكى يؤيدوا ، بالصخب وبالضرب ، جدلا ميتافيزيقيا ، وأكد الناس فى حماس مجد العذراء التى رقد جثمانها داخل أسوار أفيسوس (١) وكان الأسطول الذى أقل كيرلس من الاسكندرية محملا بنفائس مصر ، وأنزل منه عددا كبيرا من البحارة ، والعبيد والمتصبين ، الذين جندوا تحت راية القديس مرقس وأم الله . وأشاع هذا النظام العسكرى رهبة وخوفا فى نفوس آباء الكنيسة ، بل وفى نفوس الحراس ، أما خصوم كيرلس ومريم فقد أهينوا فى الطرقات ، أو هددوا فى بيوتهم ، وتضاعف عدد أنصار كيرلس كل يوم بفضل فصاحته وسخائه ، وسرعان ما قلدر الأسقف المصرى أنه يضمن حضور مائتى أسقف وأصواتهم ، غير أن مؤلف اللعنات الاثنتى عشرة أدرك مقدما معارضة يوحنا أسقف أنطاكيا ، وكان يحسب حسابها ويخشأها . وكان ذلك الأسقف يتقدم فى بطاء من عاصمة الشرق البعيدة ومعه حاشية صغيرة.

(١) كان مسيحيو القرون الأربعة الأولى يجهلون موت مريم ودفنها . ويؤكد المجمع الرواية المتعلقة بمدينة أفيسوس ، ومع ذلك فقد طغى عليها ادعاء اورشليم ، كما أن ضريحها الخاوى ، كما رآه الحجاج ، أوجد قصة بعثها وصعودها الى السماء ، وهى القصة التى اعترفت بها الكنائس اليونانية واللاتينية .

محترمة من المطارنة ورجال الدين . وفقد صبر كيرلس لهذا التأخير الذي وصمه بأنه تأخير متعمد يستحق اللوم ، فما كان منه الا أن أعلن افتتاح المجلس بعد ستة عشر يوما من عيد العنصرة . أما نسطور ، الذي اعتمد على قرب وصول أصدقائه الشرقيين ، فقد أصر كما سبق أن أصر سلفه كريسوستوم على اغفال قضاء خصومه ، وعصيان استدعائهم . ولكنهم عجلوا بمحاكمته ، وجلس متهمه على منصة الحكم . وقد دافع عن نسطور ثمانية وستون أسقفا ، واثنتان وعشرون من رتبة المطارنة ، باعتراض متواضع معتدل ، فاستبعدوا عن مجالس اخوانهم . وطلب حاكم المدينة ، كانديان ، باسم الامبراطور ، تأجيل المجلس أربعة أيام ، فطرد ذلك الحاكم الدنيوى من اجتماع رجال الدين بصورة تتمثل فيها الاهانة والاساءة . واستغرقت كل هذه العملية الخطيرة يوما واحدا من أيام الصيف ، وأدلى الأساقفة بأرائهم المستقلة ، غير أن تماثل أسلوبهم دل على وقوعهم تحت تأثير أو سطوة سياداتهم بشراء دليل علنى يستند الى أعمالهم وتوقعاتهم . وقد أقرروا جميعا ودون أن يشذ صوت واحد بأن رسائل كيرلس تتضمن عقيدة نيقيا ومذهب آباء الكنيسة ، أما المقتطفات المفرضة التى أخذت من خطابات نسطور وخطبه ، فقد قوطعت بالشتائم واللعنات ، وجردها الهرطوقى من منصبه الأسقفى والكنسى . وكتب عن هذا الحكم فى خبث وحقد أنه حكم على يهوذا الجديد (الذى أسلم المسيح الى أعدائه اليهود) ، وعلق الحكم على الجدران وأعلن فى طرقات أفيسوس . وعندما خرج الأساقفة المجهدون المكدودون من كنيسة أم الله ، حياهم الناس بوصف كونهم أبطال العذراء ، واحتفلوا بانتصارها باضاءة الأنوار ، وانشاد الترانيم ، والصخب والضجيج طوال الليل .

وفى اليوم الخامس اكهر جو ذلك النصر بوصول أساقفة الشرق . وبما اظهروه من غضب وسخط . وقبل أن يستريح يوحنا ، أسقف أنطاكيا ، من وعشاء السفر ، استقبل فى غرفته بالفندق الوزير الامبراطورى كانديان الذى قص عليه ما بذله عبثا من مجهودات لمنع الأسقف المصرى من القيام بذلك العمل المتسم بالعنف والعجلة ، أو لالغاء ما حدث . وبنفس العجلة والعنف اجتمع المجلس الشرقى المكون من خمسين أسقفا ، وجرده كيرلس وممنون من مقامهما الأسقفى ، وحكم على اللعنات الاثنتى عشرة بأنها السم الزعاف الذى نفثته هرطقة أبواليناريس ، ووصف الأسقف السكندرى بأنه وحش ولد وتعلم لكى يدمر الكنيسة ويقضى عليها . وكان عرشه بعيدا ولا يمكن الوصول اليه ، فقرر أعضاء المجلس الشرقى على الفور أن يمنحوا رعية أفيسوس بركة راع مخلص أمين . غير أن ممنون استطاع بيقظته أن يوصد الكنائس فى وجوههم ،

ودفع بحامية قوية الى داخل الكاتدرائية وتقدمت القوات بقيادة كاندريان
لهاجمتها ، واستطاعت أن تهزم الحرس الامامى وتقتل أفراده ، غير أن
المكان كان منيعا لا ينال ، فانسحب المحاصرون ، وتبعتهم حامية الكاتدرائية
بهجوم قوى فقدوا فيه جيادهم وأصيب كثير من الجنود بجروح خطيرة من
الهرارات والأحجار . وهكذا لوئت أفيسوس ، مدينة العذراء ، بالهياج
والصخب ، وبالفتنة والدماء . وقذف كل من المجمعين خصمه باللعنات
وقرارات الحرم الكنسى ، ووقع بلاط ثيودوسيوس فى حيرة وارتباك من
جاء الروايات المتعارضة المتناقضة التى نقلتها الأحزاب السورية والمصرية .
وحاول الامبراطور ، خلال فترة عصبية حافلة بالجهود قدرها ثلاثة أشهر ،
أن يسوى هذا النزاع اللاهوتى ، واستخدم فى ذلك كل وسيلة الا الوسيلة
الأكثر فعالية ، وهى الاحتقار وعدم الاكتراث . وحاول عزل الزعماء
أو تخويلهم باصدار حكم مشترك بالتبرئة أو الادانة ، ومنع ممثليه فى
أفيسوس سلطة كبيرة ، وقوة عسكرية كافية ، واستدعى من كل فريق
ثمانية مندوبين منتقنين لحضور مؤتمر حر صادق صريح يعقد الى جوار
العاصمة بعيدا عن عدوى الجنون الشعبى . غير أن الشرقيين رفضوا
الاذعان ، كما أن الكاثوليك ، اعتزازا بعددهم ، وبحلفائهم اللاتين ، رفضوا
كل شروط الاتحاد أو التسامح . وهنا نفذ صبر ثيودوسيوس ، فأمر
غاضبا بانهاء تلك الضجة الأسقفية التى انتحلت منذ ثلاثة عشر قرنا طابع
المجمع المسكونى الثالث . وقال الملك التقى : « فليشهد الله على أنى لم أكن
خالق هذا الشعب . وهو الذى يعلم من المذنب ويوقع به القصاص .
فعودوا الى ولاياتكم ، وانا الندعو الله أن يجعل من فضائلكم الخاصة ما يعوض
عن الضرر والعار الذى أحدثه اجتماعكم » . وقد عادوا الى ولاياتهم ، غير
أن الأهواء نفسها التى ألهمت مجلس أفيسوس انتشرت فى العالم الشرقى .
وبعد ثلاث حملات عنيدة متكافئة ، تنازل يوحنا الأنطاكى وكيرلس
السكندرى بالتعاقب وشرح الموقف . غير أن هذه العودة الظاهرية الى الاتحاد
لا بد أنها كانت وليدة الحرص أكثر من أن تكون وليدة التعقل والادراك
السليم ، ولا بد أنها جاءت نتيجة شعور الطرفين بالاعياء والملل ، أكثر من
أن تكون نتيجة لمحبة المسيحية التى شعر بها البطريركان .

وكان الخبر البيزنطى قد أوغر صدر الامبراطور ضد أخلاق منافسه
المصرى ومسلكه . فأرسل اليه مع أمر الاستدعاء رسالة تهديد وقدح
اتهم فيها بأنه كامن فضولى صفيق ، أزعج بساطة الايمان ، وانتهك
سلام الكنيسة والدولة ، وأرسل خطابات مأكرة منفصلة الى زوجة
ثيودوسيوس وأخته ، طلبا منه بأن هناك فرقة فى الأسرة الامبراطورية ،
أو محاولا بذلك بذر بذور تلك الفرقة . وكان كيرلس بأمر صارم من

ملكه ، قد عاد الى أفيسوس حيث قوبل من الحاكم بالمقاومة والتهديد ، ثم حوصر هناك لمصلحة نسطور والأساقفة الشرقيين ، الذين جمعوا قوات ليديا وإيونيا لقمع حاشية البطريك المتعصبة المخلة بالنظام . غير أنه لم ينتظر إذن الامبراطور ، بل فر من حراسه ، وركب البحر على عجل تاركا المجلس المعيب ، وعاد الى معقلة الأسقفى حيث الأمان والاستقلال .

غير أن رسله الدهاء الماكرين ، فى البلاط الامبراطورى وفى المدينة ، نجحوا فى تهدئة سخط الامبراطور وكسب حظوته . وكان ابن أركاديوس الضعيف يقع تحت تأثير زوجه وأخته مرة ، ويخضع لحصيان القصر ونسائه مرة أخرى . وكانت الخرافة والأطماع هى الاهواء الغالبة على الجميع ، أما زعماء الأرثوذكس فقد حاولوا جاهدين ارباب الزوجة والأخت ، وارضاء الخصيان والنساء . وكانت القسطنطينية وضواحيها تحمل طابع القدسية بما فيها من أديرة كثيرة ، وكان الراهبان دماشوس ويوتيكيوس قد كرسا حماسهما وولاءهما لقضية كيرلس ، وعبادة مريم ، ووحدة المسيح . ومنذ أول لحظة فى حياتهما الرهبانية لم يختلطا بالدنيا ، أو يضعا أقدامهما على أرض المدينة الدنسة . غير أنهما شعرا فى تلك الفترة الرهيبة التى أحرق فيها الخطر بالكنيسة بأن هناك واجبا أسمى من العهد الذى قطعاه على نفسيهما وأكثر الحاحا ، فتقدما من الدير الى القصر على رأس مسيرة طويلة من الراهبان والنسك يحملون الشموع المشتعلة فى أيديهم ، وينشدون الصلوات لأم الله . وبعث هذا المشهد العجيب غير العادى إيمانا وحماسا فى صدور الشعب ، واستمع الملك الواجب المرتعد الى صلوات وتضرعات القديسين الذين صرحوا فى جرأة بأن أحدا من الناس لن يأمل فى الخلاص الا اذا أعلن الولاء لشخص خليفة أثناسيوس الأرثوذكسى ، واعتنق عقيدته . وفى الوقت عينه نثر الذهب فى كل طريق يؤدى الى العرش ، فقدمت الرشوة الى رجال البلاط ونسائه ، كل واحد منهم حسب قوته وجشعه ، وأطلقت على هذه الرشوة أسماء مهذبة ، فقبل انها اكراميات ومنح مباركة . غير أن طلباتهم التى لم تقف عند حد استنزفت معابد القسطنطينية والاسكندرية ، ولم تستطع سلطة البطريك أن تسكت التذمر الصادق الذى أبداه رجال الدين من أنهم قد اقترضوا ستين ألفا من الجنيهات للانفاق على هذا الفساد الشائن المعيب . وكانت بولكيريا التى أراحت أخاها من أعباء الامبراطورية ، أقوى عمد الأرثوذكسية وبلغ التحالف بين رعود المجمع وهمسات البلاط درجة من التفوق ضمنت لكيرلس الظفر والنجاح ما دام قد استطاع أن يعزل خصيا ويضع مكانه خصيا آخر يرضى عنه ثيودوسيوس . غير أن الأسقف المصرى لم يستطع أن يفاخر بنصر مجيد حاسم ، ذلك أن الامبراطور تمسك ، فى ثبات غير

مألف ، بما سبق أن وعد به من حماية لبراءة الأساقفة الشرقيين ، وكان من أثر ذلك أن خفف كيرلس من لعناته ، واعترف في غموض واحجام بأن للمسيح طبيعة مزدوجة ، قبل أن يسمح له بأشباع انتقامه ضد الشمس المنكود ، نسطور .

وقبل انتهاء المجمع أصبح الأسقف المتهور العنيد ، نسطور ، يواجه اضطهاد كيرلس ونميمة البلاط ، دون أن يلقي الا تأييدا ضعيفا من اصدقائه الشرقيين ، ودفعه احساس بالخوف أو السخط الى التظاهر ، قبل فوات الوقت ، بأنه يبغى نوال مجد التنحي عن منصبه ، وأجيب على الفور الى رغبته ، أو على الأقل الى رجائه ، ورحل مكرما عن أفيسوس الى دير القديم في أنطاكيا ، وبعد فترة قصيرة ، نصب خليفته ، ماكسيميان وبروكليوس ، أسقفين شرعيين للقسطنطينية ، غير أن البطريك الذي جرد من رتبته لم يستطع أن يعود في صمت صومعته الى براءة حياة الرعية وأمانها . فقد أسف على ماضيه ، وتذمر من حاضره ، وكان له الحق في أن يخشى مستقبله . وفصل الأساقفة الشرقيون قضيتهم عن اسمه المكروه ، واحدا بعد الآخر ، ونقص ، يوما بعد يوم ، عدد المنشقين الذين كانوا يحترمونه ويرون فيه راعي العقيدة الذي نذر نفسه لها . وبعد أن أقام أربع سنوات في أنطاكيا خط ثيودوسيوس بيده مرسوما يضع نسطور في مرتبة الساحر سيمون ، ويحظر آراؤه ويحرم أتباعه من حماية القانون ، ويحكم على كتاباته بالحرق ، ويقرر نفيه الى البطراء في بلاد العرب ، ثم في نهاية الأمر الى واحة في الصحراء الليبية . وظل الرجل المنفي معزولا عن الكنيسة والدنيا ، تطارده سورة التعصب الأعمى والحرب التي شنت عليه . واقتحمت عليه سجنه المنعزل قبيلة مرتحلة من البليمين أي النوبيين ، وعند انسحابهم أطلقوا سراح عدد من الأسرى الذين لا قيمة لهم ، غير أن نسطور ، ما كاد يصل الى ضفاف النيل ، حتى تمنى لو أنه هرب من مدينة رومانية أرثوذكسية الى عبودية الهمج ، وهي عبودية أهون وأقل قسوة ، واعتبر هربه جرما جديدا يعاقب عليه ، وأثار عليه البطريك سلطات مصر المدنية والدينية ، فأخذ الحكام والجنود والرهبان يعذبون ، بدافع من التقوى ، عدو المسيح وعدو القديس كيرلس . وتعرض الهرطوقي الى الدفع والجذب من مصر الى حدود أثيوبيا حتى تحطم جسمه الذي نالت منه الشيخوخة ، بفعل المحن والحوادث التي تعرض لها في هذه الرحلات المتكررة . ورغم ذلك ظل عقله مستقلا ثابتا ، ولقيت خطابهات الرعوية احترام رئيس مدينة طيبة ، وامتد به العمر بعد أن مات طاغية الاسكندرية الكاثوليكي . وبعد فترة نفى دامت ستة عشر عاما ، كان من

الجائز أن يعيده مجمع خلقدونية الى مناصب الكنيسة ، أو على الأقل الى أخوتها . غير أن موته منعه من تلبية دعوتهم الكريمة ، كما أن المرض الذى أصيب به قد يجيز قبول الرواية المشينة التى تقول بأن لسانه الذى نطق بالكفر ، كان غذاء لديدان الأرض . ودفن نسطور فى مدينة من مدن مصر العليا اسمها خميس ، أو بانوبوليس ، أو أخميم ، غير أن ما أضمره له اليعقوبيون من حقد لا تخبو ناره جعلهم يثابرون عسورا طويلة على قذف قبره بالأحجار ، وعلى ترويج الرواية الحقة التى تقول بأن ذلك القبر لم تروه أقطار السماء مطلقا ، وهى التى تنزل على الأبرار والأشرار سواء بسواء . وقد تذرّف البشرية دمعة على مصير نسطور ، غير أن العدالة ينبغي أن تقول انه عانى الاضطهاد الذى أجازته وسامه الناس .

هرطقة يوتيكيس ومجلس أفسسوس الثانى

مات الأسقف السكندرى ، بعد عهد دام اثنتين وثلاثين سنة ، وترك الكاثوليك يتمادون فى رعونة الحماس وسوء استغلال النصر ، ونادى رجال الدين فى قوة بعقيدة الطبيعة الواحدة المتجسدة ، وذلك فى كنائس مصر وأديرة الشرق . وحث قدسية كيرلس عقيدة أبولليناريوس البدائية ، وأطلق اسم يوتيكيس ، صديق كيرلس المحترم ، على الطائفة التى عارضت أشد المعارضة هرطقة نسطور السورية . وكان منافسه يوتيكيس رئيسا لدير يضم ثلاثمائة راهب ، غير أن آراء ذلك الناسك البسيط الأمى كان يمكن أن تتلاشى فى الصومعة التى رقد فيها أكثر من سبعين سنة لو أن حنق الحبر البيزنطى ، فلافيان ، أو نزقه ، لم يدفعه الى عرض تلك الفضيحة أمام أبصار العالم المسيحى . وذلك أنه عقّد على الفور مجمعه المحلى ، وتلوثت تصرفات الأعضاء بالصخب والخدع الماكرة ، وأوقع بالهرطوقى الشيخ فيما يشبه الاعتراف بأن المسيح لم يستمد جسده من مادة العذراء مريم . وقد رفع يوتيكيس هذا القرار المعرض الى مجلس عام ، وأيد قضيته تأييدا قويا ابنه فى المعمودية كريسافيوس ، الذى كانت له السيطرة على حصيان القصر ، وشريكه ديوسكوروس الذى كان قد ورث عرش كيرلس ، ابن شقيق توفيلوس ، كما ورث عقيدته ، ومواهبه ، ورذائله . وتضمن الأمر الخاص الذى أصدره ثيودوسيوس بعقد مجلس أفسسوس الثانى أن يتألف المجلس بصورة حكيمة عادلة من عشرة مطارنة وعشرة أساقفة من

كل من الأبرشيات الست للإمبراطورية الشرقية . وبفضل بعض الاستثناءات التي دعت إليها المحاباة أو الجدارة ازداد عدد المجلس الى مائة وخمسة وثلاثين عضوا ، ودعى برسوماس السورى الى الجلوس والتصويت مع خلفاء الحواريين بوصف كونه رئيس الرهبان وممثلهم غير أن استبداد البطريك السكندري سيطر مرة ثانية على حرية النقاش ، واستخدمت نفس الأسلحة الروحية والمادية المأخوذة من ترسانات مصر ، وخدم الجنود الأسبيريون القدامى ، وهم فرقة من رماة السهام ، تحت أوامر ديوسكوروس ، كما أن الرهبان الأشد بأسا ، الذين لا يعرفون التعقل أو الرحمة ، حاصروا أبواب الكاتدرائية ، وقبل آباء الكنيسة عقيدة كيرلس ، بل ولعناته ، بأصوات عامة لا ضابط لها ولا كابح لجماحها ، وأدينوا بصورة رسمية هرطقة الطبيعة. مثلة في أشخاص الأساقفة الشرقيين وكتاباتهم . وعبرت هذه الكلمات عن الرغبات الكريمة التي أبداهم مجلس كنسى مسيحي : « ان من يشطرون المسيح ليستحقون أن يشطروا بالسيف ، وتقطع أجسادهم قطعا ويحرقوا أحياء » . وأقر المجلس دون تردد قدسية يوتيكيوس وبراءته . غير أن الأساقفة وخاصة أساقفة تراقيا وآسيا ، لم يرغبوا في عزل بطريركهم بسبب استخدامه ، أو حتى سوء استخدامه ، لقضائه الشرعى . فما كان منهم الا أن قبلوا أقدام ديوسكوروس وهو واقف على كرسي عرشه وقد بدا عليه مظهر التهديد ، واستحلفوه أن يغفر ذنوب أخيه ، ويحترم مكانته ، فقال الطاغية الصارم : « أتريدون إثارة فتنة وتمرد ؟ أين الضباط ؟ » وعند هذه الكلمات اقتحم الكنيسة جمهور ثائر من الرهبان والجنود يحملون الهراوات والسيوف والقيود ، واختبأ الأساقفة الواجفون وراء المذبح ، أو تحت المقاعد ، ولما كانوا مفتقرين الى حماس الاستشهاد ، فقد وقعوا تباعا على أوراق بيضاء ملئت فيما بعد ، بادانة الحبر البيزنطى . وسلم فلاقيان على الفور الى الوحوش الضارية التي غصت بهم هذه الساحة الروحية . ودفعهم صوت برسوماس والمثل الذي ضربه ، الى الانتقام للآساءات التي وجهت الى المسيح . ويقال ان بطريك الاسكندرية أهان أخاه أسقف القسطنطينية ، وصفعه ، وركله ، ووطئه بأقدامه . ومن المؤكد أن الأسقف الضحية مات فى اليوم الثالث متأثرا بالجروح والكدمات التي أصيب بها فى أفيسوس ، قبل أن يصل الى منفاه . وقد استحق المجلس الكنسى الثانى أن يوصم بأنه عصابة من اللصوص والقتلة ، وأن أولئك الذين اتهموا ديوسكوروس بالغوا فى تضخيم عنفه وقسوته ليخففوا من جبن مسلكتهم وتذبذبه

مجلس خلقونية الكنسى

هكذا سادت عقيدة مصر ، غير أن الفريق المهزوم لقي سندا من البابا نفسه الذى واجه دون خوف غضب أتتلا وجنسريك العدوانى . وكان لاهوت البابا ليو ، الذى ضمنه رسالته الشهيرة عن سر التجسد ، موضع اهمال مجمع أفسسوس ، وأهينت سلطته وسلطة الكنيسة اللاتينية فى أشخاص مبعوثيه ، الذين فروا من العبودية والموت ليقتصوا القصة المحزنة لطغيان ديوسكوروس أسقف الاسكندرية واستشهاد فلافيان . وقد ألغى مجمعه الاقليمى الاجراءات غير القانونية التى اتخذت فى أفسسوس ، ولكن لما كانت هذه الخطوة نفسها غير قانونية ، فقد طلب عقد مجلس عام فى ولايات ايطاليا الحرة التى تدين بالمذهب الصحيح . وكان الأسقف الرومانى لا يخشى خطرا وهو يتحدث ويعمل من فوق عرشه المستقل على اعتبار أنه هامة المسيحيين . وكتبت أوامره فى ذلة وخضوع بلاكيديا ، (ابنة ثيودوسيوس الأول) ، وابنها فالنتينيان اللذان ناشدا زملاءهما فى الشرق أن يعيدوا للكنيسة هدوءها ووحدتها . غير أن العظمة الجوفاء التى اتسمت بها الملكية الشرقية هى أيضا حركتها يد الخصى بمهارة ماثلة ، واستطاع ثيودوسيوس أن يعلن ، دون تردد ، أن الكنيسة هادئة وظاهرة فعلا ، وأن القضاى العادل الذى ناله نسطور قد أطفأ النار التى اندلعت أخيرا . ومن الجائز أن اليونان كان يمكن أن يتم ادخالهم فى هرطقة القائلين بالطبيعة الواحدة لو أن جواد الامبراطور لم يتعثر به ويسقط الامبراطور من فوق ظهره ، وكان ذلك من حسن حظ اليونان ، فمات الامبراطور ، وخلفته أخته الأرثوذكسية بلكيريا ، ومعها زوجها الذى كان زوجا بالاسم فقط . وأحرق كريسافوس ، والحق العار بديوسكوروس ، وأعيد المنفيون الى وطنهم . ووقع الأساقفة الشرقيون رسالة البابا ليو . غير أن البابا خاب أمله فى مشروعه الذى كان يعتز به ، وهو عقد مجلس لاتينى . وازدرى أن يرأس المجمع اليونانى الذى انعقد على عجل بمدينة نيقيا فى بيشنيا ، وطلب مبعوثوه بلهجة قاطعة حاسمة حضور الامبراطور ، ونقل الآباء المجهدون الى خلقونية تحت أبصار ماركيان وسناتو القسطنطينية مباشرة . وعلى مسيرة ربع ميل من بوسفور تراقيا ، كانت كنيسة القديسة يوفيميا Euphemia مشيدة على قمة منحدر متدرج شاهق ، واشتهر مبناها الثلاثى بأنه معجزة من معجزات الفن ، وكان منظر الأرض والبحر الذى لا تصل العين الى نهايته كفيلا بأن يسمو بعقل رجل الدين الى تأمل خالق الكون . واصطف بنظام فى صحن تلك الكنيسة ستمائة وثلاثون من الأساقفة ، غير أن بطاركة الشرق وقفوا خلف مبعوثى البابا ، وكان ثالث

هؤلاء المبعوثين قسيسا عاديا ، وخصص مكان الشرف لعشرين من العلماء ممن هم في مرتبة القناصل وأعضاء السناتو . ووضع الانجيل في مكان متوسط بارز ، غير أن ممثل البابا والامبراطور ، الذين رأسوا الجلسات الثلاث عشرة التي عقدها مجلس خلقدونية ، جددوا قانون الايمان ، وأخرس توسطهم الجزئي تلك الصيحات واللعنات الهوجاء التي تحط من الوقار الأسقفى . غير أن الاتهام الرسمي الذى وجهه مبعوثو البابا الى ديوسكوروس أرغمه على النزول من عرشه الى مستوى مجرم أدين بالفعل فى نظر قضاته . أما الشرقيون ، وهم أقل عدواة لنسطور منهم لكيرلس . فقد قبلوا أن يأتبهم الخلاص على أيدي الرومان ، وثار غضب تراقيا وبنطس وآسيا لمقتل الأسقف فلافيان ، أما البطارقة الجدد للقسطنطينية وأنطاكيا فقد وطلدوا مراكزهم بالتضحية بولى نعمتهم . وكان أساقفة فلسطين ومقدونيا واليونان يؤيدون عقيدة كيرلس ، غير أن زعماءهم ، فى مواجهة المجمع وفى حرارة المعركة ، اتجهوا من الجناح الأيمن الى الجناح الأيسر ، تتبعهم حاشيتهم الخاضعة المتقادة ، وحققوا انتصار ذلك الفريق بهذه الخيانة التى جاءت فى وقتها المناسب . أما مساعدو الأساقفة السبعة عشر الذين أبحروا من الاسكندرية ، فقد أمكن اغراء أربعة منهم على التخلي عن ولائهم ، وارتمى الثلاثة عشر على الأرض يلتمسون رحمة المجلس بالدموع والتأوهات قائلين فى حزن انهم اذا أذعنوا ، فسوف يذبحهم الشعب الحانق عند عودتهم الى مصر . وسمح لشركاء ديوسكوروس بالتوبة المتأخرة للتكفير عن ذنوبهم أو أخطائهم ، غير أن آثامهم تراكت فوق رأسه ، ولم يطلب هو العفو أو يأمل فيه . وضاع اعتدال أولئك الذين التمسوا عفوا عاما وسط صيحة النصر والانتقام السائدة . ولانقاذ سمعة أنصاره السابقين ، أذاع خصومه فى مهارة بعض اساءات شخصية اقترفها ، كقرار الحرمان الطائش غير القانونى الذى أصدره ضد البابا ، ورفضه المتسم بالعصيان والتمرد (عندما كان مسجوناً) تنفيذ المثل أمام المجلس . وجيء بشهود لاثبات الحقائق الخاصة التى تدل على كبريائه وجشعه وقسوته ، واستمع آباء الكنيسة فى دقت وكراهية الى أن صدقات الكنيسة كانت تنفق فى سخاء على الراقصات ، وأن قصره وحمامه ، كانا مفتوحين لعاهرات الاسكندرية ، وأن العاهرة يانصوفيا ، أو ايرين كانت تكرم علانية كخليفة البطريرك .

من أجل هذه الذنوب الشائنة عزل المجمع ديوسكوروس ونفاه الامبراطور ، غير أن نقاء عقيدته أعلن فى حضور آباء الكنيسة وبموافقتهم الضمنية . ودفعهم الحرص الى التسليم ، دون التصريح ، بهرطقة يوتيكيس ، الذى لم يستدع للحضور أمام محكمتهم ، وجلسوا فى صمت

وخجل عندما رمى أحد اليعقوبيين (أنصار الطبيعة الواحدة) كتابا من
 تأليف كيرلس تحت أقدامهم ، وتحداهم أن يلعنوا في شخصه عقيدة
 القديس . وإذا نحن قرأنا بامعان قوانين خلقدونية كما سجلها الفريق
 الأرثوذكسي ، فسوف نجد أن أكثرية كبيرة من الأساقفة كانوا يؤمنون
 بوحدة المسيح البسيطة ، أما التسليم المبهم بأنه « كان مكبونا » من
 طبيعتين ، أو أنه « تكون » من طبيعتين ، فقد يعنى بالنسبة لهاتين الطبيعتين
 وجودا سابقا . أو امتزاجا لاحقا ، أو وجود فترة خطيرة بين الحبل بالإنسان
 وبين صعود الاله . وكان اللاهوت الروماني أكثر قطعية ودقة ، واستخدم
 العبارة التي نفرت منها أسماع المصريين أشد النفور ، وهي أن المسيح كان
 موجودا « فى » طبيعتين ، وهذه النقطة الخطيرة (التى ينبغى أن تعيها
 الذاكرة أكثر من أن يعيها الإدراك) كادت أن تخلق شقاقا بين الأساقفة
 الكاثوليك . وكانوا قد وقعوا رسالة البابا ليو فى احترام ، وربما فى
 صدق وإخلاص ، غير أنهم اعترضوا فى مناقشتين متعاقبتين بأنه ليس من
 الأمور المجدية أو القانونية أن يجاوزوا الخطوط المقدسة التى تقررت فى
 نيقيا ، والقسطنطينية وأفيسوس ، طبقا لقانون الكتاب المقدس وللتراث .
 وفى نهاية الأمر أذعنوا للاحاح سادتهم وإصرارهم ، غير أن قرارهم الثابت
 المنزه عن الخطأ ، بعد أن صودق عليه بأصوات حازمة وهتافات حارة ،
 هدم فى الجلسة التالية نتيجة معارضة مبعوثى البابا وأصدقائهم الشرقيين .
 وذهبت أدراج الرياح أصوات جمهور من الأساقفة كانت تردد بصورة
 جماعية : « أن تعريف آباء الكنيسة هو تعريف صحيح لا يقبل التغير ! وقد
 انكشف الآن أمر الهرطقة ! اللعنة على النساطرة ! فليغادروا المجمع !
 فليعودوا الى روما » . وقد وقف مبعوثو البابا موقف التهديد ، وتشدد
 الامبراطور ، فتألفت لجنة من ثمانية عشر أسقفا قامت بوضع قرار جديد
 فرض على المجتمعين وهم كارهون . وباسم المجلس العام الرابع أعلن الى
 العالم الكاثوليكي أن المسيح كان فى أقنوم واحد ، ولكنه فى طبيعتين .
 وهكذا رسم خط غير مرئى بين هرطقة أبولليناريس وإيمان القديس كيرلس ،
 وأصبح الطريق الى الجنة ، وهو طريق دقيق كحد السيف ، مبعقا فوق
 الهاوية بفضل براعة الفنان واللاهوتى . ولقد ظلت أوروبا خلال عشرة قرون
 من الجهل والعبودية تتلقى آراءها الدينية من وحى الفاتيكان ، وظل
 المذهب نفسه ، الذى طلاه صدى القدم ، يجد له مكانا فى عقيدة المصلحين
 دون جدل أو مناقشة ، رغم أنهم نبذوا سيطرة الحبر الروماني . ولا يزال
 مجمع خلقدونية منتصرا فى كنائس البروتستانت ، غير أن ثورة الجدل
 هدأت حدتها ، وأصبح أكثر المسيحيين ورعا وتقوى يجهلون فى الوقت
 الحاضر معتقدتهم الخاص فيما يتعلق بسر التجسد ، أو لا يكثرثون به .

ولقد كان موقف اليونان والمصريين في عهدى ليو وماركيان مختلفا عن ذلك أختلافا كبيرا ونفذ هذان الامبراطوران الدينيان بقوة السلاح وبالمراسيم ما كانا يعتبرانه رمزا لايمانهما ، وأعلن خمسمائة من الأساقفة ، بدافع من الضمير أو الشرف ، أن قرارات مجمع خلقدونية يمكن تأييدها من الناحية الشرعية ، بل وبالدماء . ولاحظ الكاثوليك في رضا أن ذلك المجمع نفسه كان موضع كراهية النساطرة واليعقوبيين على السواء ، غير أن النساطرة كانوا أقل غضبا ، أو أقل قوة ، ووقع الشرق في حيرة وارتباك بسبب الحماس العنيد الدموى الذى اتسم به اليعقوبيون (المتشيعون للطبيعة الواحدة) . واحتل أورشليم جيش من الرهبان الذين ارتكبوا ، باسم الطبيعة الواحدة المتجسدة ، جرائم النهب والحرق ، والقتل ، وتلوث قبر المسيح بالدم ، ووضعت أبواب المدينة الصاخبة الثائرة تحت الحراسة ضد قوات الامبراطور . وبعد أن لحق العار بديوسكوروس وأبعد عن البلاد ، ظل المصريون يأسفون على أبيهم الروحى ، ويمقتون خليفته الذى اغتصب مركزه ، والذى جاء به أباء خلقدونية . وكان عرش ذلك المعتصب ، بروتيريوس Proterius ، مستندا الى حرس قوامه ألفان من الجنود ، وقد شن حربا دامت خمس سنوات ضد شعب الاسكندرية ، وبعد أن وصلهم أول نداء عن موت ماركيان ، أصبح ذلك الرجل ضحية حماسهم . وفى اليوم الثالث قبل عيد القيامة حوصر البطريك فى الكاتدرائية ، وقتل فى مكان العماد ، وألقيت جثته الممزقة فى النار ، وترك رمادها تذروه الرياح ، وقيل ان هذا العمل أوحى به طيف أحد الملائكة . وخلفه فى منصبه وفى آرائه راهب طجوح اسمه تيموتاوس القط . وأشعلت نار هذا التعصب القاتل من الجانبين بفعل مبدأ الثأر وممارسته . وذبح عدة آلاف من الناس فى متابعة ذلك الخلاف الميتافيزيقى ، وحرم المسيحيون من كل مرتبة من متع الحياة الاجتماعية الكثيرة ، ومن البركات الخفية التى تأتيهم من المعمودية ، ومن تناول القربان المقدس . ومن الجائز أن تخفى أسطورة جامعة الخيال ترددت فى تلك العصور ، صورة رمزية لهؤلاء المتعصبين الذين عذبوا أنفسهم وعذب بعضهم بعضا . وفى هذا الشأن قال أحد الأساقفة الوقورين: « فى عهد قنصلية فينانتئوس وكلر تملك شعب الاسكندرية وشعب مصر كلها جنون عجيب شيطاني ، فالكبار والصغار ، والأرقاء والأحرار ، والرهبان والكهنة ، وسكان البلاد الوطنيون الذين عارضوا مجمع خلقدونية ، كل هؤلاء فقدوا عقلهم وقدرتهم على التعبير ، وأخذوا ينبحون كالكلاب ، ويمزقون اللحم من أيديهم وأذرعهم بأنيابهم هم أنفسهم » .

قانون التوفيق الذى وضعه زينون

وفى نهاية الأمر أسفرت الاضطرابات التى دامت ثلاثين عاما عن القانون الشهير الذى وضعه الامبراطور زينون ووقعه فى عهده وفى عهد أنستاسيوس كل أساقفة الشرق بعد أن هددوا بعقوبة التجريد والنفي اذا رفضوا أو انتهكوا ذلك القانون الأساسى المفيد . وقد يبتسم رجال الدين أو يزمجرون لغرور رجل علمانى يحدد قواعد الايمان ، غير أن ذلك الرجل ، اذا كان قد طأطأ رأسه وقبل المهمة المذلة ، فان عقله كان أقل تلوثا بالهوى أو المصلحة وسلطة الحاكم لا يمكن الاحتفاظ بها الا بموافقة الشعب .

ولقد بدأ زينون فى قصة التاريخ الكنسى فى صورة أقل ما يكون مدعاة للاحتقار ، وليس فى مقدورى أن أتبين أى ذنب من ذنوب مانى أو يوتيكيوس فى القول الكريم الذى قاله أناستاسيوس انه لم يكن جديرا بامبراطور أن يضطهد عباد المسيح أو مواطنى روما . ولقد اغتبط المصريون كل الاغتياب لقانون زينون ، ومع ذلك فان عيون رجال اللاهوت المتسمين بالغيرة ، بل وبالتحيز ، لم تكتشف فى هذا القانون أقل عيب ، وهو يمثل بصورة دقيقة ايمان الكاثوليك فيما يختص بالتجسد دون أن يقر أو ينبذ الألفاظ أو المبادئ الخاصة التى استخدمتها الطوائف المادية . وقد وجه لعنة رسمية الى نسطور ويوتيكيوس ، والى كل الهراطقة الذين قالوا باننسطار المسيح ، أو بامتزاجه ، أو بأنه طيف وخيال . وأكد فى احترام العقيدة الخالصة التى وضعها القديس كيرلس ، وعقيدة نيقيا ، والقسطنطينية ، وأفيسوس ، دون أن يضع تعريفا لكلمة « الطبيعة » من حيث العدد أو القيمة . وبدلا من أن يبدى قانون زينون احترامه للمجلس الرابع ، فانه تجاهل هذا الموضوع بأن وجه اللوم والنقد الى كل المذاهب المعارضة . اذا كانت أمثال هذه المذاهب قد قيل بها فى خلقدونية أو فى أى مكان آخر . وبفضل هذا التعبير الغامض المبهم كان يمكن لأنصار المجلس الأخير وأعدائه أن يتحدوا ويتعانقوا عناقا صامتا . ولقد أقر أكثر المسيحيين فطنة هذا النوع من التسامح ، غير أن عقلهم كان ضعيفا ويعوزه الثبات ، واعتبر خضوعهم ذلة وجبنا فى نظر اخوتهم المتسمين بالجرأة والحماس المتقد . وكان من العسير ، أن يقف المرء على الحياد الدقيق ، فى موضوع شغل أفكار الناس وأحاديثهم ، فأى كتاب ، أو عظة ، أو صلاة ، كانت كقيلة باشغال نار الخصومة من جديد ، وكثيرا ما كانت أواصر الأخوة تنفصم ثم تلتئم من جراء العداوة الشخصية بين الأساقفة . وامتلات الفجوة التى كانت قائمة بين آراء نسطور وآراء يوتيكيوس بألوان كثيرة من الآراء والتعابير ، وفى مقدور المرء أن يجد عند طرفى السلم اللاهوتى طائفة

مصر المفتقرة الى الزعامة ، وأحبار روما ، تحدوهم جميعا شجاعة متكافئة . وإن كانت قوتهم غير متعادلة . ولقد انفصلت طائفة مصر هذه ، وهى دون ملك أو أسقف ، أكثر من ثلاثمائة سنة عن بطاركة الاسكندرية الذين قبلوا مذهب القسطنطينية دون أن ينتزعوا اداة رسمية لمجمع خلقدونية . وبالمثل انصبت لجنة البابوات على بطاركة القسطنطينية لأنهم قبلوا مذهب الاسكندرية دون موافقة رسمية من المجمع نفسه . وترتب على استبدادهم التعنيد أن أصيبت كنائس اليونان الأرثوذكسية المتطرفة بهذه العدوى الروحية ، وأنكر هؤلاء البابوات على تلك الكنائس صلاحية قربانها المقدس . أو ساورهم الشك فى صلاحيته ، وأناروا الشقاق بين الشرق والغرب فترة قدرها خمس وثلاثون سنة ، حتى محوا فى نهاية الأمر ذكر أربعة من أحبار بيزنطة الذين كانوا قد تجاسروا على معارضة سيادة القديس بطرس . وقبل ذلك العهد ، كانت الهدنة المزعجة بين القسطنطينية قد انتهكها الأحبار المتنافسون مدفوعين بالحماس الدينى . وقد أيد مقدونيوس ، الذى اتهم بالهرطقة النسطورية ، مجمع خلقدونية ، رغم وجوده فى المنفى ورغم العار الذى لصق به ، وفى الوقت عينه كان خليفة نيرلس على استعداد لشراء انهيار ذلك المجمع برشوة قدرها ألفان من الجنيهات الذهبية .

وفى حى تلك العصور كان معنى مقطع لفظى ، أو قل صورة ذلك المقطع ، كافيا لازعاج سلم الامبراطورية بأكملها . فعبارة « قدوس ، قدوس ، هو رب الجنود » Trisigion هى فى نظر اليونان نفس التسبيح الذى تكررهِ الملائكة والشاروبيم أمام عرش الله ، وهى التى تجلت بصورة معجزة لكنيسة القسطنطينية فى منتصف القرن الخامس . وسرعان ما أضاف اليها ورع أنطاكية عبارة : « الذى صلب من أجلنا ! » ، وهذا الابتهاال المعبر عن الشكر ، للمسيح وحده ، أو للثالوث كله ، قد تبرره قواعد اللاهوت ، واستخدمه شيئا فشيئا كاثوليك الشرق والغرب . غير أن أسقفا يعقوبيا كان من قبل قد تخيل ذلك التسبيح ورفضت فى أول الأمر هبة ذلك العدو على اعتبار أنها كفر مريع خطير ، وكادت تلك البدعة الطائشة تكلف الامبراطور أناستاسيوس عرشه وحياته . وكان أهل القسطنطينية يفتقرون الى أية مبادئ رشيدة للحرية ، ولكنهم كانوا يعتبرون لون رداء من أردية السباق ، أو مسحة طقس غامضة من الطقوس الدينية فى المدارس ، سببا مشروعاً للتمرد . وحدث فى الكاتدرائية أن رتل ذلك التسبيح بهذه الاضافة المقبولة وبدونها ، فرقتان متعارضتان . وعندما بحث أصواتهم لجأوا الى حجج أقوى ، هى العصي والأحجار . وعاقب الامبراطور المعتدين ، وحماهم البطريرك ، ومن ثم فإن ذلك الشجار

الخطير عرض تاج الملك وتاج الأسقفية للخطر . وامتلات الطرقات على الفور
 بجماهير عديدة من الرجال والنساء والأطفال ، وسارت على رأسهم فرق
 من الرهبان فى صفوف منظمة وهم يضربون ويصيحون : « أيها المسيحيون !
 هذا هو يوم الاستشهاد ، يجب ألا نتخلى عن أبينا الروحي ، اللعنة على
 الطاغية الذى يدين بعقيدة ماني ، فانه غير جدير بالحكم » . تلك كانت
 صيحة الكاثوليك ، واستعدت سفن أناستاسيوس بمجاذيفها أمام القصر
 حتى عفا البطريك عن ملكه التائب ، وأسكت شغب أمواج الجمهور
 الهائج . وسرعان ما صدر الأمر بنفى مقدونيوس ، وبذلك أوقف
 انتصاره . غير أن حماس رعيته ثار ثانية للسؤال نفسه : « هل صلب
 أحد الأقاليم الثلاثة ؟ » وفى هذه المناسبة الخطيرة أوقفت وحطمت
 القسطنطينية الزرقاء والخضراء ما كان هناك من خلاف بينها ، وحطمت
 السلطات المدنية والعسكرية فى حضورهم ، ووضعت مفاتيح المدينة ،
 وأعلاهم الحراس فى ساحة قسطنطين ، وهى مركز المؤمنين الرئيسى
 ومعسكرهم . وانشغل هؤلاء المؤمنون ليلاً ونهاراً فى انشاد الترانيم لمجد
 ربهم ، أو فى سرقة أتباع مليكهم وقتلهم . ورفعت على حربة طويلة رأس
 الراهب الذى اكتسب حظوة الملك ، وهو الراهب الذى أطلق عليه اسم
 صديق عدو الثالوث الأقدس . وقذفت مباني الهراطقة بجذوات النار التى
 نشرت الحرائق فى تلك المباني وفى مباني الأرثوذكس سواء بسواء
 ودون تمييز . وحطمت تماثيل الامبراطور ، أما الامبراطور نفسه فقد
 اختبأ فى إحدى الضواحي ثلاثة أيام حتى وافته الشجاعة لالتماس رحمة
 رعاياه . وأظهر أناستاسيوس على المنصة الملكية فى ساحة السيرك ، وهو
 مجرد من تاجه ، وفى وضع السائل المتوسل . وأنشد الكاثوليك أمام
 وجهه دعاءهم الأصلى الصحيح ، وهللوا للعرض الذى أعلنه على لسان
 المنادى ، بأنه سوف يتنحى عن العرش . واستمعوا الى العظة التى تقول
 بأنه ما دام الشعب كله لا يستطيع أن يحكم ، فلا بد من أن يتفق مقدما
 على اختيار الملك ، ورحب الناس بدم وزيرين مكروهين لم يتردد مولاهما
 فى الحكم عليهما بأن يكونا فريسة الأسود . وهذه الفتن العنيفة العابرة
 لقيت ما يشجعها فى ظفر فيتاليان الذى نصب نفسه نصيراً للعقيدة
 الكاثوليكية يؤيده جيش من الهون والبلغار الذين كان أغلبهم من الوثنيين .
 وهذه الثورة الدينية أقفرت تراقيا من سكانها ، وحاصر القسطنطينية ،
 وأباد خمسة وستين ألفاً من زملائه المسيحيين حتى حصل على وعد باعادة
 الأساقفة وإرضاء البابا وإقرار مجلس خلقدونية . كما اضطر أناستاسيوس
 وهو على فراش الموت الى أن يوقع وهو كاره معاهدة أرثوذكسية ، نفذها من
 بعده عنه جستينيان بصورة أكثر أمانة وإخلاصاً . تلك كانت قصة أول
 الحروب الدينية التى شنها تلاميذ رب السلام ، وباسم رب السلام .

لاهوت جستنيان

لقد سبق أن عالجتنا شخصية جستنيان في نواح مختلفة بوصفه : ملكا ، وفاتحا ، ومشروعا • ولا يزال باقيا علينا أن نراه رجلا من رجال اللاهوت ، ولا شك في أنه من المآخذ التي ليست في صالحه أن لاهوته كان يشكل سمة بارزة من سمات صورته • ولقد عطف هذا الملك على رعاياه في احترامهم الخرافي للأحياء والأموات من القديسين ، وجاءت مجموعة قوانينه Code ، ويوجه أخص اضافاته القانونية الجديدة Novels تؤكد امتيازات رجال الدين وتوسعها ، وفي كل نزاع بين راهب وعلماني ، كان ذلك القاضي المخرض يقرر أن الحق والبراءة والصدالة في جانب الكنيسة دائما • وكان الامبراطور في عبادته العامة دعويا ومثلا يحتذى ، وتمثلت في صلواته ، وصياماته وسهره الليلي للتعب ، التوبة الصارمة التي يتسم بها الراهب ، وداعب خياله الأمل في أن يكون ذا الهام شخصي ، أو الاعتقاد بأنه كذلك • وكان قد ضمن لنفسه رعاية العذراء والقديس ميخائيل ، أحد كبار الملائكة ، ونسب شفاه من مرض خطير الى العون المعجز الذي تلقاه من الشهيدين المقدسين كوزماس ودميان • وزينت العاصمة وولايات الشرق بآثار ديانتها ، ومع أن الجزء الأكبر من هذه الصروح الباهظة التكاليف يمكن أن ينسب الى ذوقه أو زهوه ، إلا أن حماس ذلك المهندس المعماري الملكي ربما دفعه اليه احساس أصيل بالحب والامتنان نحو أولياء نعمته غير المرئيين • وكان لقب « الملك التقى » ، من بين ألقاب العظمة الامبراطورية ، هو اللقب الذي تطرب له أذنه أجمل الطرب • وكان الشغل الشاغل في حياته أن يشجع مصلحة الكنيسة الدنيوية والروحية ، وكثيرا ما ضحى بواجبه كوالد لبلاده في سبيل واجبه كدعامي حمى الايمان • ولاعت نزعات ذلك العصر خلقه ومداركه ، ولا بد أن أساتذة اللاهوت كانوا يسخرون في دخيلة أنفسهم من مثابة رجل غريب عن ذلك المجال على تنمية فنهم واهمال فنه • ولقد قال متأمر جرى لشركائه : « ماذا تخشون من طاغيتكم الذي أعماه التحمس لعقيدته ؟ انه يسهر الليالي بأكملها في مخدعه وهو أعزل ، يناقش أصحاب اللحي البيضاء ، ويقلب صفحات المجلدات الدينية » • وتجلت ثمار هذه الدراسات الليلية في كثير من المؤتمرات حيث كان جستنيان يتألق كاشد المجادلين دهاء وأعلام صوتا ، وفي كثير من العظات التي أعلنت للامبراطورية لاهوت المليك تحب اسم المراسيم والرسائل • وبينما كان المتبرمرون يغزون ولايات الامبراطورية ، وتسير فرقهم الظافرة تحت أعلام بليساريوس ونارسييس ، كان خليفة تراجان ، الذي لم يره الجنود في معسكرهم ،

يقنع بالنصر والظفر على رأس مجمع ديني . ولو أن جستينيان دعا الى تلك المجمع مشاهدا عاقلا منصفاً ، لعلم ، ان الخصومة الدينية وليدة الزهو والحساسة ، وأن الورع الحقيقي يعبر عنه الصمت والخضوع أصدق تعبير ، وأن الانسان الذى يجهل طبيعته هو نفسه ، يجب ألا يتجرا على تحليل طبيعة الله ، وأنه يكفيننا أن ندرك أن القوة والبر هما الصفتان الكاملتان اللتان يتصف بهما الرب ، .

ولم يكن التسامح من فضائل ذلك العصر ، كما أن العفو عن الثوار قلما كان من فضائل الملوك . غير أن الملك ، اذا ما انحدر الى طابع الشراسة وضيق الأفق الذى يتسم به المجادل ، أصبح من السهل أن يستثار الى التعويض عن قصور الحجة باظهار قوته الكاملة ، وأن يعاقب دون شفقة أو رحمة معارضيه المفتقرين الى الابصار الذين يعتمدون اغلاق عيونهم حتى لا يروا ضوء الدليل والبرهان . ولقد كان عهد جستينيان مشهدا واحدا للاضطهاد . وإن اتخذ هذا الاضطهاد اشكالا مختلفة ، ويبدو أنه بز أسلافه المتراخين المتوانين فى ابتداع القوانين وفى صرامة تنفيذها على السواء . وقد أهمل جميع الهراطقة فترة قصيرة قدرها ثلاثة شهور للارتداد والا كان مصيرهم النفي ، واذا كان قد ظل متغاضيا عن بقائهم المزعزع فى البلاد ، فقد حرّمهم ظلمه ونيره ، لا من مزايا المجتمع فحسب ، بل من حقوقهم الطبيعية كبشر وكمسيحيين ، وهى حقوق مشتركة للجميع . وفي نهاية اربعمائة سنة كان أتباع مونتانوس من أهل فريجية لا يزالون ينقثون حماس الكمال والنهوة الجامع الذى غدّ لهم به رسلهم الناطقون بالروح القدس ، ذكورا وإناثا . وعند اقتراب القساوسة والجنود الكاثوليك رحب هؤلاء الناس فى سرور بالموت والاستشهاد ، وحرق مبنى جمعيّتهم الدينية وهلك المجتمعون فى النار ، غير أن هؤلاء المتعصبين البدائيين ظلوا قائمين دون أن يندثروا بعد ثلاثمائة سنة من موت طاغيّتهم . وكانت كنيسة الأريوسيين فى القسطنطينية ، تحت حماية الحلفاء القوط ، وقد واجهت قسوة القوانين دون اكتراث أو مبالاة ، وكان قساوستهم يضارعون أعضاء السنااتو فى ثرائهم وفخامتهم ، واستولت يد جستينيان الجشعة على ما كان فى الكنيسة من ذهب وفضة ، ولعله اعتبره بمثابة أسلاب الولايات وغنائم المتبربرين ، وكانت هناك بقية من الوثنيين لا يزالون متوارين عن الأنظار ، ويعيش بعضهم فى أحسن الأوضاع الانسانية ، بينما يعيش البعض الآخر فى أخسّها وأبسطها ، وقد أثار هؤلاء الوثنيون سخط المسيحيين الذين ربما كانوا غير راغبين فى أن يكون هناك أى شهود من الغرباء على خلافاتهم ونزاعاتهم الداخلية . ومن ثم فقد عين أسقف ليكون محققا يتحرى شئون

العقيدة ، وسرعان ما اكتشفت عينه اليقظة ، فى البلاط وفى المدينة ،
 أولئك الحكام ، ورجال القانون ، والأطباء ، والسفسطائيين الذين ما زالوا
 يعتقدون خرافة اليونان . وقد طلب اليهم فى قسوة وجفاء أن يختاروا دون
 إبطاء بين غضبه الههم جربيترو وبين غضب جستننيان ، وقيل لهم ان
 كراهيتهم للانجيل لم يعد ممكنا أن تتوارى وراء قناع فاضح من الإلحاد
 وعدم الاكتراث . وربما كان النبيل فوتيوس هو وحده الذى عقد العزم
 على أن يعيش ويموت كما عاش آباؤه وأجداده من قبل ، فحرر نفسه بضربة
 خنجر ، وترك لطاغيته عزاء تافها وضيقا هو عرض جثة اللاجمء الشارد
 بصورة شائنة بعد ان فقد صاحبها حياته . أما اخوانه الأكثر ضعفا ، فقد
 خضعوا للملكهم الدنيوى وأدوا شعائر المعمودية ، وجاهدوا فى حماس خارق
 نحو ريبة الوثنية أو التكفير عن ذنبها . وكان البلد الذى نشأ فيه
 هوميروس ، والذى كان مسرحا لحرب تراجان ، لا يزال يحتفظ بآخر
 جذوات أساطيره ، ويفضل عناية الأسقف نفسه ، أمكن اكتشاف سبعين ألفا
 من الوثنيين ، وتم تحويلهم الى المسيحية ، فى ولايات آسيا وفرنيجيا ،
 وليديا ، وكاريا ، وبنيت للمهتدين الجدد ست وتسعون كنيسة زودها
 سخاء جستننيان بملابس الكهنة التبليية ، وبالأنجيل والطقوس الدينية ،
 وبالآواني الذهبية والفضية . أما اليهود ، الذين كانوا قد جردوا من
 امتيازاتهم شيئا فشيئا ، فقد وقعوا تحت وطأة قانون مزعج أرغمهم على
 الاحتفال بعيد الفصح فى نفس اليوم الذى يحتفل فيه المسيحيون بهذا
 العيد . وكان لهم الحق فى أن يجازوا بالشكوى على أساس أقوى ، وهو
 أن الكاثوليك أنفسهم لم يوافقوا على التقديرات الفلكية التى أتى بها
 ملكهم ، وأجل أهل القسطنطينية هذه حقومهم الكبير أسجوها بأكمله بعد
 اليوم الذى قرره السلطات ، وكان من ذواعى سرورهم أن يظلوا صائمين
 سبعة أيام ، بينما كان اللحم يعرض للبيع بأمر الأمبراطور . أما السامريون
 الفلسطينيون ، فقد كانوا جنسا خليطا ، وطائفة غامضة ، ينبذهم الوثنيون
 بوصف كونهم من اليهود ، وينبذهم اليهود باعتبارهم من المشقيين ،
 وينبذهم الكاثوليك على أساس أنهم من الوثنيين . وكان فزعهم من الصليب
 ومقتهم له قد زرع من قبل فوق جبلهم المقدس ، جبل جرزيم ، غير أن
 اضطهاد جستننيان لم يتح لهم خيارا إلا المعمودية أو الثورة ، فاختاروا
 لأنفسهم الثورة ، وهبوا للقتال تحت راية زعيم يائس مسخيت ، وثاروا
 للأذى الذى لحق بهم بالاعتداء على أرواح شعب أعزل ، وعلى ممتلكاته
 ومعابده . وفى نهاية الأمر أخضعتهم قوات الشرق النظامية ، وذبح منهم
 عشرون ألفا ، وباع منهم العرب عددا مائلا الى كفار فارس والهند ، وكفرت
 بقية تلك الأمة التعسة المنكودة عن جريمة الخيانة بخطيئة النفاق . وقدر

أن مائة ألف من رعايا الرومان هلكوا في الحرب السامرية التي حولت
الولاية التي كانت من قبل ولاية مزدهرة منتجة الى يبداء قاحلة يتصاعد
منها الدخان غير أن جزيرة القتل في عقيدة جستينيان كانت لا تنطبق على
ذبح الكفار ، ومن ثم فقد عمل جاهدا وبدافع من التقوى على اقرار وحدة
العقيدة المسيحية باستخدام النار والسيف .

وكان من الواجب عليه ، على الأقل ، وهو يشعر بهذه الأحاسيس ،
أن يلتزم الحق دائما . وفي السنوات الأولى من حكمه أعلن عن غيرته
على الأرثوذكسية بوصف كونه تلميذا وراعيها . وترتب على الوفاق
الذي تم بين اليونان واللاتين أن أصبحت رسالة القديس ليو عقيدة
الامبراطور ، وتعرض أتباع نسطور وأتباع يوتيكيوس لاضطهاد ذى حدين ،
من جانب اليونان ومن جانب اللاتين ، وأقر قانون مشرع كاثوليكي تلك
المجامع الدينية الأربعة التي عقدت في نيقيا ، والقسطنطينية ، وافيسوس ،
وخلقدونية . ولكن بينما حاول جستينيان أن يحافظ على وحدة العقيدة
والعبادة ، كانت زوجته تيودورا ، التي لم تتعارض رذائلها مع تعبدها ،
قد استمعت الى معلمين من اليعقوبيين ، وانتعش أولئك الذين كانوا
يناصبون الكنيسة العداء سرا أو علانية ، وتضاعف عددهم بفضل الابتسامة
الكريمة التي علت وجه مولاتهم . وتمزقت العاصمة ، والقصر وفراش
الزوجية بفعل الخلاف الروحي . ومع ذلك فإن صدق الزوجين الملكيين
كان أمرا مشكوكا فيه الى درجة أن خلافهم الظاهري نسبة الكثيرون الى
تحالف سرى خبيث ضد ديانة الشعب وسعادته . وهذه الروح الماكرة
المراوغة انما يتسم بها اتساما عميقا ذلك النزاع الشهير الذي نشب حول
« الفصول الثلاثة » ، وهو نزاع ملأ من المجلدات أكثر مما يستحق أن يملأ
من سطور . وكانت قد انقضت اذ ذاك ثلاثمائة سنة منذ أن أكل الدود
جثمان أوريجن (١) ، وأصبحت روحه ، التي آمن بأنها كانت
كائنة من قبل ، في يد خالقها ، غير أن كتاباته كان رهبان فلسطين
يطالعونها في شغف ، واكتشفت عين جستينيان النافذة في هذه الكتابات
عشرة أخطاء ميتافيزيقية ، وقرّر رجال الدين أن ذلك الأستاذ البدائي لابد
أن يكون في نار جهنم الأبدية التي تجرأ على انكارها ، وهو هناك في صحبة
أفلاطون وفيثاغورس ، وتحت ستار هذه السابقة صوبت ضربة غادرة الى
مجلس خلقدونية . وكان آباء الكنيسة قد استمعوا دون ملل الى اطراء
أهل موبسوستيا Mobsuestia وكان عدلهم أو تسامحهم قد أعاد

(١) كاتب وفعل يوناني واحد آباء الكنيسة - عاش بين سنتي ١٨٥ - ٢٥٤ م .

تيودورت أسقف كرخا ، وإيباس أسقف أذاسا (الرها) الى أخوية الكنيسة ، غير أن شخصيات هؤلاء الأساقفة كانت ملوثة بعيب الهرطقة ، فالأول كان أستاذا لنسطور ، والاثنان الآخران كانا من أصدقائه ، ووجه الاتهام تحت عنوان « الفصول الثلاثة » الى فقرات كتبهما وكانت موضعا لأقوى الشكوك والريب ، ولابد أن أدانة ذكراهم قد أخرجت شرف مجمع ديني كان العالم الكاثوليكي يذكر اسمه باحترام صادق أو مصطنع ، وهؤلاء الأساقفة ، سواء أكانوا أبرياء أم مذنبين ، اذا كانت أشخاصهم قد تلاشت في سببات الموت ، فلم يكن المحتمل أن توقظها تلك الضجة التي أثارت فوق قبرهم بعد انقضاء مائة سنة . واذا كانوا بين أنياب الشيطان ، فإن يد البشر لن تستطيع زيادة آلامهم وعذابهم أو تخفيفها ، واذا كانوا ينعمون بثواب التقوى في صحبة القديسين والملائكة ، فلا بد أنهم ابتسموا لذلك الهياج التافه الباطل الذي تملك الحشرات اللاهوتية التي ما زالت تزحف على سطح الأرض . وكان امبراطور الرومان في طبيعة هذه الحشرات ، فصوب لدفته ، ونفت رسمه ، وربما فعل ذلك دون أن يتبين البواعث الحقيقية لزوجته تيودورا وحزبها الديني . ولم يعد هؤلاء الضحايا في متناول سلطته ، ولم تستطع مراسيمه بأسلوبها المتقد أن تفعل شيئا أكثر من أن تعلن هلاك هؤلاء الأساقفة ، وتدعو رجال الدين في الشرق الى الاشتراك في صب اللعنات عليهم . وقد استجاب الشرق في شيء من التردد ، لصوت مليكه ، وعقد في القسطنطينية مجلس عام خامس يضم ثلاثة بطاركة ومائة وخمسة وستين أسقفا ، وأعلن ذلك المجلس أن مؤلفي « الفصول الثلاثة » والمدافعين عنها قد فصلوا من أخوية القديسين ، وأسلمهم رسميا الى ملك الظلام . غير أن الكنائس اللاتينية كانت أكثر غيرة على شرف ليو وشرف مجمع خلقدونية ، ولو أنها قاتلت كما قاتلت دائما تحت راية روما ، لكان من الجائز أن يسود رأيها في قيمة العقل والانسانية . غير أن رئيسها كان سجيناً في أيدي العدو ، وكان عرش القديس بطرس قد ألحق به العار فيجلبوس الذي كان يتاجر في الرتب الكهنوتية ، ثم خانه في جبن واستكانة حين أذعن بعد كفاح طويل متقلب الى استبداد جستينيان وسفسطة اليونان ، وأثار ارتداده عن العقيدة سخط اللاتين ، ولم يقبل الا اثنان من الأساقفة أن يضعوا أيديهم على رأس شماسه وخليفته بيلاجيوس . غير أن مثابرة البابوات نقلت الى خصومهم بصورة غير محسوسة اسم المنشقين . أما كنائس الليريا وأفريقيا وإيطاليا فقد كانت تنوء تحت ضغط السلطات المدنية والدينية ، ولم يخل الأمر من الاستعانة بشيء من القوة العسكرية ، ونسخ المتبررون البعيدون عقيدة الفاتيكان ، وفي مدى قرن واحد تلاشى الانشقاق الذي حدث من جراء

« الفصول الثلاثة » في ركن مظلم من ولاية فينيسيا ، غير أن التذمر الديني الذي شعر به الإيطاليون كان قد شجع بالفعل غزوات اللمبارد ، ودرج الرومان أنفسهم على الارتياح في عقيدة طاغيتهم البيزنطي ، وعلى كراهية حكومتهم .

ولم يكن جستينيان ثابتا ولا مستقرا على حال في عملية تحديد آرائه المتقبلة وآراء رعيته . وكان في شبابه يستأه لأقل انحراف عن الخط الأرثوذكس ، ولكنه في شيخوخته تجاوز حد الهرطقة المعتدلة ، وأسأه الى اليعقوبيين وإلى الكاثوليك على السواء بإعلانه أن جسد المسيح كان غير قابل للفساد ، وأن رجولته لم تخضع مطلقا لأية حاجات أو علل من تلك التي ورثتها أجسادنا الفانية . وقد أعلن هذا الرأي الخيالي في مراسيمه الأخيرة . وفي لحظة رحيلة المناسب عن هذا العالم ، كان رجال الدين قد رفضوا التوقيع بموافقتهم على آرائه ، وكان الملك على استعداد للقيام بأعمال الاضطهاد ، وأصر الشعب على تحمل الاضطهاد أو المقاومة ، وتوجه أسقف من تريف Treves بخطاب الى عاهل الشرق في لغة السلطان والمحبة . وكان الأسقف إذ ذاك بعيدا عن متناول سلطة الملك ، فقال : « أيها الامبراطور الحليل جستينيان ، تذكر معبوديتك وعقيدتك ، ولا تلوث شيخوختك بالهرطقة . أرجع آباء الكنيسة من منافعهم ، وأنقذ أناسك من الهلاك . انك لا يمكن أن تجعل أن إيطاليا وبلاد الفال وأسبانيا وأفريقيا ، قد أصبحت ترثي لسقطتك وتلعن اسمك . فإذا لم تحطم ما ناديت به دون إبطاء ، وإذا لم تطلق الصوت عاليا وتقول ، لقد أخطأت ، لقد أذنبت ، اللعنة على نسطور ويوتيكيوس ، فانك تلقى بروحك الى السنة النار التي سوف يحترقان فيها الى الأبد » ، غير أنه مات دون أن يأبه بشيء . واستعادت الكنيسة بموته هدوءها بعض الشيء ، وتميزت عهود خلفائه الأربعة ، جستين ، وتيبريوس ، وموريس ، وفوكاس ، بأن تاريخ الشرق الديني قد خلا من ذكرهم ، وكان ذلك شيئا نادر الحدوث ، وإن كان من حسن حظهم .

★★★

حاول هرقل أن يسترضي اليعقوبيين بعقيدة المشيئة الواحدة ، وهي القائلة بأن المسيح كانت له مشيئة واحدة ، غير أن انتصاره ولاهوته الدبلوماسي جاء متأخرين إذ كانت الفتوحات العربية وشيكة الوقوع .

في الفصل الثامن والأربعين ، وهو المحذوف ، هنا ، لخص جيون خطة الجزين الصغيرين الآخرين من كتابه ، وأعطى بيانا بالتعاقب الامبراطوري في أربع أسر رئيسية من هرقل (٦١٠ - ٦٦٤) الى غزو اللاتين للقسطنطينية في ١٢٠٤ ، والجدول الآتي يحل محله :

أسرة هرقليوس

٦١٠ - ٧١٧ م

هزم هرقل الفرس ووقف أول وقفة ضد الاسلام . وترتب على هزيمته في سنة ٦٣٦ على ضفاف اليرموك أن خسرت الإمبراطورية سوريا . وسقطت أورشليم في سنة ٦٣٨ ، والإسكندرية في ٦٤٧ (انظر الفصل الحادي والخمسين) .

وفي سنة ٦٧٩ عبر البلغار الدانوب ، وكان الجزء الأخير من عهد أسرة هرقل فترة انحلال .

أسرة الإيسوريين ٧١٧ - ٨٦٧ م - معظمو التماثيل الدينية

استطاع ليو الثالث الإيسورى (٧١٧ - ٧٤٠) ، أن يحبط هجوما كبيرا قام به العرب على القسطنطينية .

وفي سنة ٧٥٤ أدان المجمع المسكونى السابع المنعقد فى القسطنطينية عبادة التماثيل الدينية وأعادت الامبراطورة ايرين (٧٩٧ - ٨٠٢) مؤقتا استخدام التماثيل . وأقرت هذا الأمر الامبراطورة تيودورا فى ٨٤٣ م (انظر الفصل التاسع والأربعين) .

وقد تنحو النزاعات التى دارت حول التماثيل الى اخفاء حقيقة هامة وهى أن محطى التماثيل منحوا الامبراطورية تنظيما مدنيا وعسكريا جديدا ، وحاولوا تكييف القانون الرومانى حسب الحاجات القائمة ، وتحرير السلطة المدنية من نفوذ الرهبان .

وانتهت الأسرة الإيسورية بمقتل ليو الخامس (٨١٣ - ٨٢٠) . وجاء بعده عهد أسرة فريجيا القصير (٨٢٠ - ٨٦٧) .

أسرة المفلونيين

٨٦٧ - ١٠٥٧ م

أسس هذه الأسرة باسيل الأول (٨٦٧ - ٨٦٨) . وكان من بين خلفه قسطنطين السابع بورفиро جينيتوس (٩١٢ - ٩٥٩) ، وزوج أمه رومانوس الأول ليكاينوس (٩١٩ - ٩٤٤) ويوحنا الأول زيمسكيس (٩٦٩ - ٩٧٠) الذى أنجب ثلاث بنات ، يودوكسيا الراهبة ، وتيودورا وزوى Zoe . وسيطرت المتاعب الشخصية والسياسية للسيدات الأخيرتين على المشهد الامبراطورى حتى موت تيودورا فى ١٠٥٦ . وبقيت

هذه الأسرة سنة أخرى تحت حكم ميخائيل ستراتيوتيكوس الذى عينته تيودورا .

وخلال هذه الفترة ظهر تعارض سياسى جديد فى أوروبا بين الإمبراطور والبطيريك فى الشرق من ناحية ، وبين الإمبراطور والبابا فى الغرب من ناحية أخرى . وخلق الشقاق بين الكنائس ، وأصبح انشقاقا نهائيا فى سنة ١٠٥٤ . وأصبحت الأمم السلافية أهم من أمم الغرب من الناحية السياحية بالنسبة للإمبراطورية الرومانية .

وفى القرنين التاسع والعاشر استعادت الإمبراطورية بعض سلطتها وأملاتها . واستحدث قسطنطين السابع اصلاحات فى القانون ، ونهضة فكرية (انظر الفصل ٥٣) . واسترد نقفور فوكاس (٩٦٣ - ٩٦٩) ، ويوحنا زيمسكيس (٩٦٩ - ٩٧٦) ولايتى سوريا والعراق من المسلمين . وحطم باسيل الثانى بولجارو كتونوس : أى ذابح البلغار ، سلطة السلاف . وبعد موته تدهورت للمرة الثانية قوة الإمبراطورية ، واضمحل رخاؤها .

الأسرة الكمينية

(١٠٥٧ - ١٢٠٤ م)

تنحى عن العرش اسحق الأول كمينوس (١٠٥٧ - ١٠٥٩) ، وتلت ذلك فترة عصيبة منكوبة تميزت بانتصار الترك السلاجقة فى منزيكرت فى سنة ١٠٧١ ، وكان ذلك مقدمة لفقدان آسيا الصغرى كلها (انظر الفصل السابع والخمسين) . وأسس ابن شقيقه اسحق أسرة مالكة فى سنة ١٠٨١ . وبدأ عصرا من الإصلاح . وفى ذلك الوقت اتجه الشرق نحو الغرب ، وتبين الغرب من نواح مختلفة أن هناك فوائد يمكن الحصول عليها من الشرق . وفى سنة ١٠٩٥ بدأت الحرب الصليبية الأولى . وأصيب الإمبراطورية بضربة قاتلة فى سنة ١٢٠٤ عندما أسفرت الحرب الصليبية الكمينية الرابعة عن الاستيلاء على القسطنطينية ونهبها ، والقضاء على الأسرة المالكة . (انظر الفصل الستين) .

الفصل التاسع والأربعون

(٧٢٦ - ٨١٤)

عبادة الصور والتماثيل • ليو محطم التماثيل • ثورة
ايطاليا • علاقات بين وشارلمان بالبابوات • اعادة التماثيل
والصور في الشرق • انفصال البابوات النهائي عن
الامبراطورية الشرقية • عهد شارلمان وأخلاقه • حكم شارل
الرابع ومقارنته بأغسطس •

فى العلاقة بين الكنيسة والدولة اعتبرت الكنيسة تابعة للدولة فقط ، ومتصلة بها وهذه قاعدة مفيدة ، لو أنها روعيت فى واقع الحال مراعاة دقيقة كما راعيتها فى القصة التاريخية ، ولقد تعمدت أن أترك لعلماء اللاهوت الشغوفين بالمعرفة والتأمل موضوع فلسفة الفنوصيين الشرقية ، والموضوع المحاط بالغموض الشديد المتعلق بالقدرية والنعمة ، والتحول العجيب للقربان المقدس من الرمز الى مادة جسم المسيح • غير أنى استعرضت فى جد وسرور موضوعات التاريخ الدينى التى كان لها أثرها الملموس فى انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، وموضوعات انتشار المسيحية ، وتكوين الكنيسة الكاثوليكية ، ودمار الوثنية ، والطوائف التى نشأت من المجادلات والنزاعات الغامضة المتعلقة بالتثليث والتجسد • وفى مقدورنا بحق أن نضع فى مصاف هذه الموضوعات وعلى رأسها ، عبادة التماثيل والصور الدينية ، التى ثار حولها جدل عنيف فى القرنين الثامن والتاسع ، لأن هذا الموضوع الذى تمثلت فيه الخرافة الشعبية قد أسفر عن ثورة فى ايطاليا ، واستحواذ البابوات على سلطة زمنية ، وعودة الامبراطورية الرومانية فى الغرب •

ولقد كان المسيحيون الأولون يمتقنون أشد المقت استخدام التماثيل والصور الدينية واساءة استخدامها ، وقد ترجع هذه الكراهية الى أنهم

كانوا من نسل اليهود ، والى عداوتهم لليونان . وكانت الشريعة الموسوية قد حرمت بشدة وصرامة كل ما يمثل الله ، ورسخت هذه السنة رسوخا قويا ثابتا في ميادى الشعب المختار وفي تصرفاته وفعاله . ووجه المحاجون والمجادلون المسيحيون ذكاهم الى مناهضة الوثنيين الحمقى الذين كانوا يحنون رؤوسهم أمام ما تصنعه أيديهم ، وهى التماثيل النحاسية والرخامية التى ، لو أنها أوتيت الفهم والحركة ، لكان الأحرى أن تثير قاعدتها الافتتان بالقدرة الخلاقة التى اتسم بها صانعها الفنان . ومن الجائز أن بعض المتحولين الحديثين الى المسيحية من أمثال الغنوصيين ، وهم الذين لم يكن إيمانهم كاملا ، كانوا يتوجون تماثيل المسيح والقديس بولس بالكرامات الدنيوية التى أضفوها على تماثيل أرسطو وفيثاغورس ، غير أن ديانة الكاثوليك العامة كانت بسيطة وروحانية على وتيرة واحدة ، وورد أول ذكر لاستخدام الصور فى النقد الذى أصدره مجلس الليبريس الكنسى بعد ثلاثمائة سنة من العهد المسيحى . وفى عهد خلفاء قسطنطين ، حين كانت الكنيسة تتمتع بالهدوء والرخاء والظفر ، تفضل الأساقفة الأكثر حكمة بالتجاوز عن خرافة واضحة فى سبيل منفعة الجمهور ، وبعد أن اندثرت الوثنية لم يعد يكبلهم الخوف من خرافة ممقوتة مماثلة . وتمثلت أول عبادة للرموز فى تبجيل الصليب وبقايا القديسين ، وتصور الناس أن القديسين والشهداء الذين يطلبون شفاعتهم كانوا يجلسون الى يمين الله . غير أن الكرامات والأفضال الخيرة ، الخارقة للطبيعة فى كثير من الأحيان ، والتى كانوا يعتقدون أنها تنهمر حول أضرحتهم ، كانت تبرز بصورة أكيدة مسلك الحجاج الأتقياء الذين كانوا يزورون تلك الآثار الخالية من الحياة ، ولمسونها ، ويقبلونها ، على اعتبار أنها آثار فضائلهم وآلامهم . غير أن الأثر التذكارى الأهم من جمجمة الراحل صاحب الكرامات هو وجود صورة صادقة لشخصه وملامحه من خلق فى الرسشم أو النحت ، وأمثال هذه الصور ، التى تتفق مع المشاعر البشرية وتلائمها ، كانت فى كل عصر من العصور موضع الغريب والاعزاز بفضل حمية المحبة الفردية أو الاجلال العام . ولقد كانت تماثيل أباطرة الرومان موضع التكريم المدنى ، بل والدينى ، غير أن تماثيل الحكماء وأبطال الوطن كانت تمنح احتراما أقل زهواً ولكنه أكثر اخلاصا وصدقا ، وهذه الفضائل الدنيوية ، أو قل هذه الذنوب الرائعة ، تلاشت الى جانب أولئك المقدسين من الناس الذين ماتوا من قبل فى سبيل الملكوت السماوى الدائم . وفى بادىء الأمر جرت تجربة عبادة الصور والتماثيل فى حرص وتورع ، واتجه استخدام الصور المقدسة فى شئ من الحكمة الى تهذيب الجهلة ، وإيقاظ ذوى الايمان الفاتر ، واشباع تحيز المهتدين الوثنيين . ثم تطور الأمر تطورا بطيئا ،

وان يكن حتميا ، فانتقلت أمجاد الأصل الى الصورة ، وأخذ أتقياء
المسيحيين ، يقيمون الصلاة أمام القديس ، وتسرع الى الكنيسة الكاثوليكية
شعائر الوثنية المتمثلة في الركوع ، وإيقاد الشموع ، وحرق البخور ،
وصيحت صيوت العقل أو التقوى أمام دليل قوى جده به الرؤى
والمعجزات وسرى الاعتقاد بأن الصور التي تتكلم ، وتحرك ، وتنزف
الدم ، لابد أن تكون قد وهبت قوة الهية ، ويمكن اعتبارها موضعا صحيحا
للعبادة الدينية . ولا شك في أن اجرا قلم قد يرتعد ويهتز إذا تملكه
التهور وحاول أن يرسم الروح اللانهاية غير المحدودة وهي الآب الأزلي
الأبدي الذي يسرى في التكون كله ويحافظ عليه ، غير أن العقل الذي
سيطر عليه الخرافة استباح لنفسه في سهولة أن يصور الملائكة
ويعبدهم ، وفوق كل شيء صورة ابن الله ، في الشكل البشري الذي تناولوا
باتخاذهم . ولقد كان الأفق من الثاني من الثالث مغطى بجسد بشري حقيقي ،
غير أن ذلك الجسد صعد الى السماء ، ولولا أن أعين تلاميذه شاهدت
شبهه ، لتلاشت عبادة المسيح الروحية أمام بقايا القديسين المنظورة
وصورهم . وكان من اللازم والتناسيب أن يحدث مثل ذلك التجاوز
فيما يتعلق بالعدراء مريم ، إذ كان القبر الذي دفنت فيه مجهولا ، وصديق
اليونان واللاتين أن روحها وجسدها صعدا الى السماء . ورسخ استخدام
التمائيل والصور ، بل وعبادتها ، قبل نهاية القرن السادس ، وكان الخيال
الخصيب الذي تمتع به اليونان والآسيويون يتقبلها ويرحب بها ،
وازدان الباشيون والفاتيكان برموز خرافة جديدة . غير أن المتبررين
الخشنين ورجال الدين الآريوسيين في الهرب تقبلوا بفطور تلك الخرافة التي
تشبه عبادة الاوثان . أما خيال اليونان المسيحيين وضميرهم فقد نفرا من
التمائيل الضخمة الصارخة المصنوعة من النحاس أو الرخام ، وكان في
رايهم أن طلاء هادئا من الألوان يعتبر أسلوبا للحلابة أكثر لياقة وأقل
إيذاء للنظر .

وتتوقف ميزة الصورة وأثرها على مشابقتها للأصل ، غير أن
المسيحيين الأولين كانوا يجهلون الملامح الأصلية الصادقة لابن الله ، وأمه ،
وحواريه ، ومن الأرجح أن تمثال المسيح في مدينة بانياس Panias
بفلسطين كان تمثالا لمنقذ أو مخلص دنيوسى . وقد نبذ الفخوصيون
وأدينوا هم وتمائيلهم الدنسة ، ولم يجد خيال الفنانين المسيحيين
ما يسترشد به الا أن يقلد بطريقة سرية بعض النماذج الوثنية . ثم تكونت
خرافة جديدة على أساس شعبي من قصة سوروية تحكى أمر الرسالة التي

أرسلها المسيح الى أبجاروس Abgaros (١) ، وهى قصة ذاع خبرها فى أيام يوسيبوس (٢) ، وتخلى عنها أنصارها الحديثون على غير رغبة منهم . وقد سجل أسقف قيصرية هذه الرسالة ، ومن العجب العجائب أنه نسى صورة المسيح - وهى انطباع كاملة لوجهه على قطعة من القماش ، أشبع بها المسيح ايم - أن ذلك الملكى الغريب الذى كان قد استنجد بقدرته على الشفاء ، وعرض مدينة أذاسا القوية لتحميه من حقد اليهود . وتفسير جهل الكنيسة الأولى بهذا الموضوع هو أن الصورة ظلت حبيسة فترة طويلة من الوقت فى فجوة باحدى الجدران ، وبعد أن نسييت هناك خمسمائة سنة أخرجها أحد الأساقفة الحكماء ، وبدأ يبعدها أبناء تلك العصور ، وأول ماثرة لتلك الصورة ، بل وأعظم مآثرها مجدا ، هى أنها أنقذت المدينة من جوش كسرى أنوشروان ، وسرعان ما لقيت الاحترام والتبجيل على اعتبار أنها ضمان للوعد الالهى بأن أذاسا لن يستولى عليها عدو أجنبى مطلقا . ومع أن النص الذى أورده المؤرخ بروكوبيوس ينسب انقاذ المدينة مرتين الى ثراء وشجاعة مواطنيها الذين اشتروا تقيب الملك الفارسى ، وصعدوا هجمات جيوشه ، الا أن المؤرخ الدنس كان يجهل الشهادة التى اضطر الى الادلاء بها فى التاريخ الدينى الذى ألفه ايفاجريوس (٣) ، وهى أن تمثال البلاديوم Palladium (٤) كان مكشوبا فوق الحصن ، وأن الماء الذى نثر على الوجه المقدس ألهب حماس المحاصرين داخل المدينة بدلا من أن يطفئه . وبعد هذه الكرامة الجليلة بقيت صورة أذاسا موضع الاحترام وعرفان الجليل ، واذا كان أهل أرمنيا قد نبذوا الأسطورة ، الا أن اليونان الذين هم أكثر تصديقا عبدوا الصورة التى لم تكن من صنع بشر ، بل من خلق الأصل الالهى مباشرة . وهناك نشيد يزنطى يبين أسلوبه والمشاعر التى يعبر عنها الى أى مدى كانت عبادة هؤلاء الناس بعيدة عن الوثنية الفاضحة . يقول النشيد : « كيف نستطيع بعيوننا البشرية الفانية أن نتأمل هذه الصورة التى لا يجرؤ جنود السماء أن يشاهدوا بهاءها الالهى ؟ انه « هو » الساكن فى السماء قد تنازل اليوم بزيارتنا عن طريق صورته

(١) أحد ملوك ميزوبوتاميا (العراق الآن) .

(٢) أسقف قيصرية (٢٦٠ - ٣٤٠ م) .

(٣) مؤرخ الكنيسة (٥٣٦ - ٦٠٠) . وكان مستشارا قانونيا لجريجورى بطريرك انطاكية ، ودافع عنه فى القسطنطينية ضد التهم الموجهة اليه . وله كتاب اسمه التاريخ الكنسى فى ستة مجلدات .

(٤) تمثال بالاس اثينا Pallas Athena الذى قيل ان بقاءه كان ضمانا لآمان طروادة وكان موجودا فى كثير من المدن الأخرى .

المقدسة ، انه « هو » الجالس على عرش الملائكة قد زارنا اليوم بصورة رسمها الآب بيده الطاهرة وشكلها بطريقة لا يمكن وصفها ، وهي صورة نقدها ونعبدتها في خوف ومحبة . وقبل نهاية القرن السادس انتشرت في معسكرات الامبراطورية الشرقية ومدنها تلك الصور التي لم ترسُمها يد بشرية (وقد عبرت اللغة اليونانية عن هذه العبارة بكلمة واحدة) ، وفي ساعة الخطر أو الشغب والهياج ، كان وجودها المقدس ينعش الأمل في صدور الفرق الرومانية ، أو يذكى شجاعنها ، أو يهدئ من ثورتها وغضبها . وكانت أكثر هذه الصور من صنع ريشة البشر ، ولم يكن في مقدور صانعها أن يزعم إلا أنها تحمل للأصل شيئا ثانويا ، ولهذا لم يكن الاسم الذي يطلق عليها مناسباً . غير أنه كانت هناك صور أخرى جاءت من مصدر أسمى وأعلى ، واستمدت شبيهاً من اتصال مباشر بالأصل ، ووهبت من أجل ذلك قدرة معجزة مثمرة . وكانت أكثر هذه الصور طموحاً تتطلع الى الارتقاء في محاكاتها لصور أذاً من شبه الابن لأبيه الى شبه الأخ لأخيه . وهذا شأن صورة المنديل في روما ، أو أسبانيا ، أو أورشليم ، وهو المنديل الذي مسح به المسيح عرقه الدموي وهو في ذروة ألمه ، ثم أعطاه للقديسة فيرونيكا . وانتقلت هذه السابقة المثمرة الى العذراء مريم ، والى القديسين والشهداء . ففي كنيسة ديوسبوليس بفلسطين ، نقشيت ملامح أم الله نقشا عميقا على عمود من الرخام . وازدان الشرق والغرب بصور من ريشة القديس لوقا ، وهذا الحواري الانجيلي ، الذي ربما كان طبيباً ، اضطر الى ممارسة مهنة الرسم ، التي كانت مهنة دنسة ممقوتة في نظر المسيحيين الأولين . ومن الجائز أن يبعث تمثال جوبيتر القائم على جبل أولمبوس والذي خلقه شعب هوميروس ونحته المثال فيدياس ، روح الورع والتعبد في عقلية فلسفية فترة من الوقت ، غير أن تلك الصور الكاثوليكية رسمها فنانون من الرهبان بطريقة لا تأثير لها وتدل على أشد الانحطاط في الذوق والعبقرية (١) .

« ليو » محطم التماثيل

تسربت عبادة الصور والتماثيل الدينية الى الكنيسة شيئاً فشيئاً وبطريقة غير محسوسة . وكانت كل خطوة صغيرة تبهج العقل المؤمن بالخرافات لأنها تمنحه العزاء والبرء من الذنوب . ولكن في بدء القرن

(١) « أن أشكال المعية تكاد تبرز من القماش ، وهي لا تقل عن التماثيل في رداءتها » . هكذا أطرى قسيس يوناني ، في جهل أو تعصب ، صوراً قدمها له الرسام تيتيان ، وكان القسيس قد طلبها منه ثم رفض قبولها .

الثامن . حين كان سره استخدام تلك الصور والتماثيل قد بلغ ذروته ،
 ايقظ اليونان الأكثر تهيبا خوفهم من أنهم . تحت ستار المسيحية ، قد
 اعدوا ديانة آباءهم وأجدادهم وسمعوا في حزن وملل وصمم بالوثنيين -
 وعلى تهمة وجهها اليهم بصورة مستمرة اليهود والمسلمون الذين استمدوا
 من شريعة موسى زمن القرآن كراهية دائمة للتماثيل المنحوتة ولكل عبادة
 لغير الله . ومن الجائز أن عبودية اليهود كبحت حماسهم وأضعفت
 سلطانهم . غير أن المسلمين الظافرين ، الذين حكموا دمشق وهددوا
 القسطنطينية ، ألقوا في ميزان التآنيب والتقريع وزنا ثقيلًا متراكما ،
 هو وزن الحق والنصر . وكانت مدن سوريا وفلسطين ومصر محصنة
 بصور وتماثيل المسيح ، وأمه ، وقديسه ، وعلنت كل مدينة نفسها
 بالأمل في دفاع معجز أو بأنها وعدت بذلك الدفاع . وفي غضون عشر
 سنوات استغراقتها فتوحات العرب السريعة ، أخضعوا تلك المدن وتغلبوا
 على تلك التماثيل ، وكان في رأيهم أن رب الجنود قد أصدر حكما فاصلا بين
 عبادة هذه الأوثان الصماء الخالية من الحياة وبين ازدهارها واحتقارها .
 وقاومت مدينة أذاسا فترة من الوقت هجمات الفرس ، غير أن المدينة
 المختارة ، عروس المسيح ، أصابها الدمار المشترك ، وأصبحت صورته
 الالهية أسيرة في أيدي الذين لا يؤمنون به وشاهدوا على انتصارهم . وبعد
 استمرقاق طام ثلاثمائة سنة أعيد تمثال البلاديوم الى القسطنطينية المتعبدة
 نظير قديسة بقبرها اثنا عشر ألف جنيه من الفضة وإطلاق سراح مائتين من
 المسلمين ، وعقد مدينة دائمة لإقليم أذاسا . وفي هذه الفترة التي سادت فيها
 المحنة وطغى عليها الخوف والفرع استخدم الرهبان فصاحتهم في الدفاع
 عن الصور والتماثيل . وحاولوا أن يثبتوا أن غطيشة الجزء الأكبر من
 الشرقيين والشقاق الذي حدث بينهم قد أفقدهم عطف هذه الرموز الثمينة
 وقضى على قيمتها وميزتها . غير أن هؤلاء الرهبان بددوا الآن يجابهون
 تدمير الكثير من بسطاء المسيحيين أو عقلائهم الذين استشهدوا بالتصوص ،
 والحقائق ، وبما كان يجري في العصور الأولى وكانوا في دخيلة أنفسهم
 يرغبون في اصلاح الكنيسة . وبما أن عبادة الصور والتماثيل لم تكن قد
 أقرتها أية قوانين عامة أو وضعية ، لهذا كان نموها في الامبراطورية
 الشرقية بطيئا أو سريعا تبعا لاختلاف الناس والعادات ، ودرجة الرقي
 المحلي ، وأخلاق وشخصيات الأساقفة . ومن ثم فإن تلك العبادة الرائجة
 كانت موضع الترحيب في العاصمة التي اتسمت بالرعونة والبطش ،
 وشجعته العبقرية المبدعة التي اتصف بها رجال الدين البيزنطيون .
 أما أقاليم آسيا البدائية النائية فقد كانت غريبة على تلك البدعة من الترف
 المقدس . ولقد احتفظت جماعات كثيرة من الغنوصيين والآريوسيين بعد
 تحولها الى المسيحية بتلك العبادة البسيطة التي سبقت انفصالهم ، وظل

اهل أرمينيا ، وهم أشجع رعايا روما ، لا يطبقون رؤية الصور والتماثيل حتى القرن الثانى عشر . وظلت هذه الطوائف المختلفة من الناس تحتزن معينا من الكراهية لها والتحيز ضدها ، وكانت تلك الكراهية قليلة الاثر والأهمية فى قرى الأناضول وتراقيا ، ولكنها ربما كانت فى أغلب الأحيان تؤثر فى مستقبل الجنيدى ، أو الأسقف أو الخصى .

وكان الامبراطور ليو الثالث أسعد هؤلاء المغامرين حظا ، وهو الذى جاء من جبال أيسوريا ليرتقى عرش الشرق ، وكان يجهل الأدب الدينى والدينوى ، غير أن تعليمه ، وعقله ، وربما اتصاله باليهود والعرب ، كل أولئك بعث فى الفلاح العسكرى كراهية الصور والتماثيل ، وكان يعتقد أن واجب الملك يحتم عليه أن يفرض على رعيته ما يميله ضميره . غير أنه فى بدء عهد غير مستقر ، وخلال عشر سنوات من الكدح والخطر ، خضع لحقارة النفاق ، وانحنى أمام الأصنام التى احتقرها ، وأرضى الجبر الرومانى بأن كان يجهر سنويا بارتوذكسيته وغيخته الدينية . وعندما بدأ اصلاح الديانة كانت خطواته الأولى معتدلة وحريضة ، فجمع مجلسا كبيرا من الأساقفة والسنانو ، وأصدر بموافقتهم قانونا يقضى بنقل كل الصور والتماثيل من المحراب والمذبح الى مكان مرتفع فى الكنيسة ، حيث تستطيع الأبصار رؤيتها ، وحيث تكون يمتلئ عن خرافة الشعب . غير أنه كان مستحيلا من هذا الجانب أو ذاك كبت الحافز السريع ، وإن يكن جافزا متعارضا ، وهو حافز التقديس من ناحية ، والكراهية من الناحية الأخرى ، فالصور المقدسة ظلت فى ذلك الوضع المرتفع تُغنى أنصارها وتشن الطاغية ، وقد تار هو نفسه لتلك المقاومة ولهذا الاتهام العنيف ، وأنه حربه بأنه لم يقم بواجبه كاملا ، وألح عليه بأن يحذو حذو الملك اليهودى الذى لم يتورع عن تحطيم الشعبان النجاسى الذى كان فى الهيكل . فأصدر مرسوما ثانيا حرم فيه وجود الصور الدينية واستخدامها سواء بسواء . وعلى هذا ظهرت كنائس القسطنطينية والولايات من الوثنية ، وأزيلت صور المسيح ، والعذراء ، والقديسين ، أو طليت جدران المبنى بطبقة رقيقة من الطلاء . ولقد لقيت طائفة محطى الصور سندا وتأييدا من ستة أباطرة يحكمون بأمرهم ويفيضون حماسا ، واشتبك الشرق والغرب فى صراع صاحب دام مائة وعشرين عاما . وكانت خطة ليو الايسورى أن يصدر حكما يدين فيه الصور على أن يكون ذلك الحكم جزءا من العقيدة ، وبمقتضى سلطة مجلس عام ، غير أن دعوة مثل هذا المجلس كانت من نصيب ابنه قسطنطين (١) . ورغم أن التعصب الدينى الظافر قد وصم ذلك المجلس

(١) هو قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥) .

بأنه اجتماع يضم الحمقى والملاحدين ، الا أن القرارات المفرضة المبثورة التي أصدرها هؤلاء الناس انما تحمل الكثير من علائم التعقل والتقوى . وقد أسفرت مناقشات وقرارات كثير من المجالس الكنسية في الولايات عن دعوة مجلس عام عقد في ضواحي القسطنطينية ، وتألف من عدد محترم من أساقفة أوروبا والأناضول بلغ ثلاثمائة وثمانية وثلاثين أسقفا ، لأن بطارقة أنطاكية والاسكندرية كانوا عبيد الخليفة ، كما أن الحبر الروماني كان قد أبعد كنائس ايطاليا والغرب عن الاتصال باليونان . واحتل ذلك المجمع الميزنطى مرتبة المجلس العام السابع واتخذ سلطاته ، ومع ذلك فان هذا الاسم نفسه كان بمثابة اعتراف بالمجالس الستة السابقة ، التي عملت جاهدة على بناء صرح العقيدة الكاثوليكية . وبعد مناقشات خطيرة دامت ستة أشهر أصدر هؤلاء الأساقفة قرارا اجماعيا حمل توقيعاتهم ، وهو يقضى بأن كل الرموز المرئية ، الا في القربان المقدس ، تعتبر الحادا أو هرطقة ، وبأن عبادة الصور هو افساد للمسيحية وتجديد للوثنية ، وبأن الذين يرفضون تسليم الأشياء التي تعبدها خرافتهم الخاصة ، انما يقتربون جريرة عصيان سلطة الكنيسة وسلطة الامبراطور . وهلل الأساقفة في أصوات عالية مخلصة ، وأشادوا بفضائل قاديتهم ومخلصهم الدينوى ، ووكلوا الى غيرته وعدالته تنفيذ أحكامهم الروحية . وفي مجلس القسطنطينية ، كما فى المجالس السابقة ، كانت ارادة الملك هى سنة الايمان الأسقفى ، غير أنى ، فيما يختص بتلك المناسبة ، أميل الى الشك فى أن أكثرية كبيرة من الأساقفة ، قد ضحوا بضمايرهم الباطنة مدفوعين بالأمل أو الخوف . وكان المسيحيون فى الفترة المظلمة الطويلة التى سادت فيها الخرافة قد ابتعدوا كثيرا عن بساطة الانجيل ، ولم يكن من السهل عليهم أن يتبينوا الدليل ، ويعودوا ادراجهم خارجين من منعطفات تلك المتاهة . وامتزجت عبادة الصور امتزاجا كاملا ، على الأقل فى خيال أصحاب الورع ، والتقوى ، بالصليب ، والعذراء ، والقديسين وآثارهم ، وغطت الأرض المقدسة سحابة من المعجزات والرؤى ، وتخذرت أعصاب العقل ، وحب الاستطلاع والميل الى الشك بعبادات الطاعة والتصديق . وقد اتهم قسطنطين نفسه بأنه أجاز باذن ملكى الشك فى أسرار الكاثوليك ، او انكارها ، أو السخرية منها ، غير أن تلك الأسرار كانت راسخة فى عقيدة أساقفته العامة ، ولم يكن فى مقدور أجرا محطى الصور والتماثيل الدينية أن يهاجم آثار العبادة العامة الا وهو يشعر بالقرع والرهبة فى دخيلة نفسه ، تلك الصور والتماثيل التى كرسست لمجد سادته السماويين . وفى حركة الاصلاح التى قامت فى القرن السادس عشر كانت الحرية والمعرفة قد وسعت مواهب الانسان ومداركه ، وطفى التعطش الى التجديد

على احترام القديم ، واستطاعت حيوية أوروبا أن تحتقر تلك الأشباح والأطياف التي كانت تزعج ضيف اليونان المتيسم بالذلة والمرض .

ولا يمكن أن تفكشف فضيحة هرطقة مجردة إلا إذا أعلنها للناس صوت النكير الديني ، غير أن أكثر الناس جهلا يستطيعون رؤية تدنيس آلهتهم المروية وسقوطها ، كما أنه أقلهم حسا لابد أن يشعروا بذلك . وقد وجه ليو أول هجماته العدائية الى تمثال مرتفع للمسيح في مدخل القصر وفوق بابيه ، وأعد سلما للقيام بهذا الهجوم ، غير أن جمهورا من المتحمسين والنساء طوحوا به في عنف وقسوة ، وشاهد هؤلاء الناس في نشوة دينية زبانية التدنيس وهم يسقطون من ذلك الارتفاع ويرتطمون بالأرض ، واستشهد هؤلاء المجرمون الذين استحقوا قصاص القتل والثورة ، وأساءوا بذلك الى أمجاد الشهداء القدامى . وقام الناس بالكثير من الهياج والشغب في القسطنطينية وفي الولايات لمقاومة تنفيذ القرارات الامبراطورية ، وتعرض شخص الامبراطور للخطر ، وذبح ضباطه ، وبذلت السلطات المدنية والعسكرية أقوى الجهود لقمع ذلك الحماس الشعبي . وكانت الجزر الكثيرة في الأرخبيل ، أو البحر المقدس ، مليئة بالتمائيل الدينية والرهبان . ولم يتورع أنصار هؤلاء الرهبان وتلك التماثيل عن نبذ عدو المسيح ، وعدوا أمه وقديسيه ، وسلحوا أسطولا من القوارب والغلايين ، ورفعوا أعلامهم المقدسة ، وأبحروا في جراءة وبسالة صوب مرفأ القسطنطينية لكي يجلسوا على العرش شخصا جديدا يكون مقربا لله وللشعب وكانوا في ذلك الهجوم يعتمدون على عون يأتيهم بمعجزة ، غير أن معجزاتهم كانت عديمة الجدوى أمام « قذائف النار اليونانية » ، وبعد هزيمة أسطولهم واحتراقه ، تركت الجزائر العارية لرحمة الفاتح أو عدالته . وقام ابن ليو ، في السنة الأولى من حكمه ، بحملة ضد العرب ، وفي أثناء غيابه استولى قريبه أرتافاسديس Artavasdes بطل العقيدة الأرثوذكسية . الطموح ، على العاصمة والقصر والعرش . وأعيدت عبادة الصور والتماثيل في ظفر وانتصار ، وتخلي البطريرك عن رايته ، أو أخفى أجاسييسه ، واعترفت روما الجديدة والقديمة بالحق العادل للمغتصب . وحرب قسطنطين الى الجبال التي نشأت فيها أسرته ، غير أنه هبط ثانية على رأس مريديه من الأيسوريين الشجعان ، وأزعج انتصاره الحاسم ، جيوش المغتصبين وتكهنتهم . غير أن عهده الطويل ساد الصخب والفتنة والتآمر ، والكراهية المتبادلة ، والانتقام السموي ، وكان اضطهاد الصور والتماثيل دافعا من الدوافع التي أوغرت صدور أعدائه ، أو ذريعة تذرعوها بها لمناصبته العداء ، وإذا كانوا قد خسروا تاجا دينويا ، فقد كفأهم اليونان بتاج استشهاده ، وفي كل عمل من أعمال الخيانة السافرة أو الخفية

كان الامبراطور يشعر بما يضره له الرهبان من عداوة لا تعرف الصفح ، لأنهم عبيد أمناء للخرافة التي يرجع اليها الفضل في ثرائهم ونفوذهم . فكانوا يصلون ، ويمطون ، ويصفحون ، ويشيرون النفوس ، ويتأملون ، وانهزم من فلسطين الموحشة سيل من الاتهام ، وجرى قلم القديس يوحنا الدمشقي (١) ، آخر الآباء اليونانيين ، يطلب الهلاك للطاغية في هذه الدنيا وفي الآخرة . وليس لدى فسحة من الوقت لبحث الى أى مدى كان الرهبان هم السبب في خلق الآلام الحقيقية أو المصطنعة ، وإلى أى مدى بالغوا في تلك الآلام ، أو لمعرفة عدد من فقدوا حياتهم أو أطرافهم ، أو عيونهم أو لحاهم ، نتيجة قسوة الامبراطور . ولقد انتقل الامبراطور من معاقبة الأفراد الى إلغاء طائفة الرهبان كلها ، وبما أن تلك الطائفة كانت غنية ولا نفع منها ، فمن الجائز أن سخطه قد أثاره الجشع وبررته الوطنية ، وكان الاسم المخيف « التنين » ، الذي أطلق على رجل يتولى مهمة التفتيش العام ، مصدر فزع وكرامية لأصحاب الأردية السوداء (الرهبان) ، وقد حلت الجماعات الدينية ، وحولت مبانيهم الى مخازن وثكنات ، وصودرت أراضيهم وأمتعتهم ، ومواشيهم ، وإن سوابقنا الحديثة لنؤيد الاتهام الموجه الى الامبراطور أن آثار الأديرة ، بل والكتب الموجودة فيها ، قد تعرضت لتخريب عابث داعر ، أو خبيث حاقد . وإلى جانب تحريم مهنة الرهبنة وردائها ، حرمت عبادة الصصور والتماثيل تحريما صارما ، سواء أكانت العبادة خاصة أم عامة ، ويبدو أن الامبراطور قد أجبر رعايا الامبراطورية الشرقية أو على الأقل رجال الدين منهم ، على نبذ الوثنية والاقلاع عنها .

ثورة ايطاليا

نبذ الشرق الصابر صوره وتماثيله الدينية مرغما كارها ، غير أن حرص الايطاليين المستقلين دفعهم الى تقبل هذه العبادة بشغف ، وإلى الدفاع

(١) كان يوحنا أو منصور ، نبلا مسيحيا من دمشق يشغل منصبا كبيرا في خدمة الخليفة ، وعرضه حساسه لقضية الصور لسخط الامبراطور اليوناني ودسيسته ، وقد اشتبه في أنه على اتصال خائن بأعداء الخليفة ، فقطعت يده اليمنى ، ولكن العذراء أعادتها له بصورة معجزة . وبعد هذا الانقاذ استقال من منصبه ، ووزع ثروته ، وانزوى في دير القديس ساباس ، بين اورشليم والبحر الميت . والقصة شهيرة دائمة ، غير أن المؤلف الذي كتب عنه ، وهو الأب لكوين Lequien أثبت لسوء الحظ ، أن يوحنا الدمشقي كان راحيا فعلا قبل حدوث النزاع حول حركة تحطيم الصور والتماثيل الدينية .

عنها في عزم وقوة . وكان بطريرك القسطنطينية وبابا روما متساويين من حيث المقام والاختصاصات الدينية ، غير أن الحبر اليوناني كان عبدا أجيرا تحت عين سيده ، الذي يستطيع بإيماة من رأسه أن ينقله من الدير الى العرش الأسقفى ، أو من العرش الى الدير . وكان أساقفة اللاتين يعيشون وسط متبربري الغرب في مكان ناء محفوف بالأخطار ، وأثار ذلك فيهم شجاعة وحرية ، وكان انتخابهم الشعبي يحجب الرومان فيهم ويقربهم الى قلوبهم ، وكانوا يستخدمون دخلهم الكبير في التخفيف من فاقة الأفراد والجماعات . وأرغمهم ضعف الأباطرة واهمالهم على الاهتمام بأمان المدينة الدنيوى ، سواء في السلم أو في الحرب . وفي مدرسة المحنة والشدة كان الكاهن يتعلم بصورة غير محسوسة فضائل الحاكم وطموحه ، وكان الايطالى ، أو اليابانى ، أو السورى ، الذي يجلس على كرسي القديس بطرس ، يتخذ طابعا واحدا ويسير على سياسة واحدة ، وبعد أن فقدت روما جيوشها وولاياتها ، أعادت لها عبقرية البابوات وثرواتهم تفوقها وسيادتها . ومن المتفق عليه أن سلطانهم قام في القرن الثامن على الثورة ، وأن هرطقة محطى الصور والتماثيل الدينية هي التي أحدثت تلك الثورة وبررتها . غير أن مسلك جريجورى الثانى وجريجورى الثالث في هذا الصراع المشهود قد فسرتهم رغبات أصدقائهما وأعدائهما تفسيرا مختلفا . فالكتاب البيزنطيون يعلنون بالاجماع أنها ، بعد تحذير عديم الثمرة ، قررا انفصال الشرق عن الغرب ، وحرما الطاغية الذى دنس الأماكن المقدسة من دخل ايطاليا والسيادة عليها . ولا يزال اليونان ، الذين شاهدوا اكتمال الانتصارات البابوية ، يعبرون في وضوح أكثر عن حرمانهم من أخوية الكنيسة ، وبما أنهم أكثر تعلقا بدينتهم من تعلقهم ببلادهم ، فانهم يمتدحون حماس هذين الرجلين الرسولين (البابوين) وأرثوذكسيتهما بدلا من توجيه اللوم اليهما . أما أنصار روما الحديثون فانهم يتوقون الى قبول هذا المديح وتلك السابقة ، وهذا المثل المجيد العظيم لخلع هراطقة ملكيين يشيد به الكاردينال بارونىوس والكاردينال بللامين (١) ، وإذا سنلا عن السبب في عدم توجيه نفس التهديدات الى أشباه نيرون وجوليان من الأقدمين ، وأجابوا بأن ضعف الكنيسة الأولى هو الذى كان السبب فى صبرها على ولائها . وفى هذا الشأن لا تختلف آثار المحبة عن آثار الكراهية ، وأنا لنرى البروتستانت المتحمسين ، الذين يسمعون الى اثاره سخط الملوك والحكام واثارة مخاوفهم ، يسهبون فى وصف وقاحة جريجورى الثانى والثالث وخيانتهم للملكهما الشرعى .

(١) كاردينالان عاشا فى القرن السادس عشر .

ولم يدافع عنهما الا الكاثوليك المعتدلون ، وأغلبهم ينتمون ، الى الكنيسة الغالية ، وهم الذين يحترمون القديس دون الموافقة على الذنب . وهذان المدافعان عن تاج الملك وتاج البابوية يحيطان صدق الحقائق بقواعد العدالة ، والكتاب المقدس ، والقول المأثور ، ويستشهدان باللاتين ، وبسير حياة البابوات أنفسهم ورسائلهم .

وما تزال هناك رسالتان أصليتان كتبهما جريجورى الثانى الى الامبراطور ليو ، واذا كنا لا نستطيع اطراءهما كأصديق نماذج البلاغة والمنطق ، فانهما ترسمان صورة لمؤسس المملكة البابوية ، أو على الأقل تبيينان القناع الذى اختفى وراءه . يقول جريجورى : « لقد تذوقنا خلال عشر سنوات صافية موقفه عزاء رسائلك الملكية السنوية ، التى تجعل توقيعك مكتوبا بخط يدك بالحبر الأرجوانى ، ووعودك المقدسة بالتمسك بعقيدة آباءك الأرثوذكسية . فبالأسف على التغير ، وبالجسامة الفضيحة ! انك الآن تتهم الكاثوليك بالوثنية ، وانك يهذه التهمة انما تظهر جهلك وبعدك عن التقوى . وقد اضطررنا الى أن نستخدم خشونة الأسلوب والحجج لكى تتفق مع هذا الجهل . ان المبادئ الأولى للأدب المقدس انما تكفى لإخراجك ، ولو أنك دخلت مدرسة أولية وجاهرت بعدائك لعبادتنا ، لقدف الأطفال السذج الأنقياء بكتبهم التى يتعلمون منها القراءة والهجاء فى وجهك ، . وبعد هذه التحية المهذبة اللائقة يتناول البابا بيان الفرق العادى بين الأوثان القديمة وبين الصور والتماثيل الكاثوليكية ، فالأولى هى صور خيالية لأشباح أو شياطين ، فى وقت لم يكن الرب الحقيقى قد أظهر شخصه فى أية صورة مرئية ، أما الثانية فهى أشكال صادقة للمسيح ، وأمه ، وقديسيه ، وقد وافقت هذه الأشكال ، بما أتت من معجزات كثيرة ، على براءة هذه العبادة النسبية وفضلها . وفى الحق أن جريجورى لابد أنه كان واثقا من جهل ليو ، حيث انه أكد أن استخدام الصور كان مستمرا منذ عهد الرسل ، وأنه كان لها وجود مبجل محترم فى المجالس الكنسية الستة التى عقدتها الكنيسة الكاثوليكية . ثم لجأ البابا الى حجة أكثر تمويها تستند الى ما للصور من سيطرة حالية ، وإلى ما جرى بشأنها حديثا : وقال ان انسجام العالم المسيحى يقوم مكان طلب عقد مجلس عام ، ويعترف جريجورى بأن مثل هذه المجالس لا يكون لها نفع الا تحت حكم أمير أرثوذكسى ، وينصح ليو الفاجر المتجرد من الانسانية ، والذي يعتبر مذنبا أكثر من أن يعتبر هرطقيا ، ينصحه بالهدوء والصمت والانصياع المطلق لمرشديه الروحيين فى القسطنطينية وروما . ويحدد الحبر حدود السلطة المدنية والسلطة الدينية ، فيخصص الجسد للأولى ، والنفس للثانية ، ويقول ان سيف العدالة فى يد الحاكم ،

أما رجال الدين فحفي يدهم سلاح القوى وأمضى ، وهو سلاح العزم من الكنيسة ، وأنهم في ممارسة مهمتهم الإلهية لا يستطيع الابن الغيور أن يرى أباه المذنب ، ومن ثم فإن خليفة القديس بطرس يستطيع مقابلة ملوك الأرض . ومضى يقول : « أيها الطاغية ، أنك تهاجمنا بيد عسكرية من لحم ودم ، ونحن العزل البسطاء لا نستعنا إلا أن نتوصل إلى المسيح ، تلك الجنود السماويين ، أن يبعث لك شيطاناً يحطم جسدك وبذلك يتاح لنفسك الخلاص . لقد أعلنت في زهو أحق ، « سوف أرسل أوامري إلى روما ، وأحطم تمثال القديس بطرس قطعة قطعة ، وأجء بجريجورى إلى موطنه العرش الإمبراطورى مبعداً عن البلاد ومكبلاً بالسلاسل كسلفه مارتن » ، زانى لأدعو الله أن يسمح لى بأن أأخذ حلو القديس مارتن ! ولكنى أحذرك من أن مضير الإمبراطور كوستانز ينتظر مضطهدى الكنيسة . ولقد أصدر أساقفة صقلية حكماً عادلاً بالادانة على ذلك الطاغية . وبعد ذلك قتل أحد خدم القصر وكل ذنوبه فوق ظهره ، بينما لا يزال القديس موضع التبجيل والاحلال من الأمم السكودية التى أنهى بينها فترة نفيه وحياته . غير أنه من واجبنا أن نفحص لكى نعلم الشعب المؤمن وثقت إلى جواره ، وليس هناك ما يضطرنا إلى المخاطرة بحياتنا إذا تشب بيننا وبينكم قتال . ورغم أنك لا تستطيع الدفاع عن الرعايا الرومان ، فإن موقع المدينة البغرى قد يعرضها لتهتك وسلبك ، غير أننا نستطيع أن ننقل إلى أول قلعة فى بلاد اللبارد على بعد أربعة وعشرين (ستاديا وهو ما يساوى ٦٠٧ أقدام انجليزية) ، ولك عندئذ أن تطارد الرياح . هل تجهل أن البوابات هم رابطة الوحدة ووسطاء السلام بين الشرق والغرب ؟ أن عبود الأمم مركزة على شخصنا الضعيف المتواضع ، وهى تقدس الحوارى القديس بطرس كاله على الأرض ، وهأت تهدد بتحطيم تمثاله . ان ممالك الغرب الداخلية النائية تقدم ولاءها للمسيح ولنائبه ، وها نحن نتأهب لزيارة ملك من أقوى ملوكها يرغب فى أن يتلقى من أيدينا سر المعمودية المقدس . لقد خضع المتبربرون للانجيل . ولم يبق هناك أحد غيرك يصم أذنيه لصوت الراعى . لقد اتقد الغضب فى صدور هؤلاء المتبربرين الأتقياء ، وهم متعطشون للانتقام ممن سلط سيف الاضطهاد على الشرق ، فإذا أصرت على موقفك فتحن أبرياء من الدماء التى سوف تسفك فى الصراع ، وليقع ذنب هذه الدماء على رأسك » .

وأول هجوم قام به ليو ضد التماثيل الدينية فى القسطنطينية كان قد شاعده ستهور من الغرباء من إيطاليا والغرب ، ثم روى فى حزن وسخط ذلك العمل الدنس الذى قام به الإمبراطور ، ولكنهم عندما تلقوا قراره التحريمى تولاهم الخوف على آلهتهم المحلية . وقد ألغيت من كل

كنائس ايطاليا نمائيل المسيح ، والعذراء ، والملائكة ، والشهداء والقديسين ، وعرض على الحبر الرومانى أن يختار بين أمرين أحلاهما مر ، فاما رضا الملك ثمنا لموافقته ، واما التجريد والنفى قصاصا على العصيان . ولم تسمح له اغيره ولا السياسة بأن يتردد ، وتبين لنا اللهجة المتشامخة التى خاطب بها الامبراطور ثقته فى صدق عقيدته أو قوة مقاومته . ولم يعتمد الحبر الرومانى على الصلوات أو المعجزات ، بل امتشق الحسام ضد العدو العام ، وحذر الايطاليين فى رسائله الرعوية من الخطر المحقق بهم ، ووجه نظرهم الى الواجب عليهم . وعند هذه الاشارة هبت مدني رافنا ، وفينسيا (البندقية) ، وبنتابوليس ، والمدن الخاضعة لنائب الامبراطور ، هبت كلها لتأييد قضية الدين ، وكانت أغلب قوتهم الحربية بالبحر والبر تتألف من الوطنيين ، وسرت روح الوطنية والحساس فى الجنود المرتزقة الغرباء ، وأقسم الايطاليون أن يعيشوا ويموتوا دفاعا عن البابا والتماثيل المقدسة ، وكان الشعب الرومانى مخلصا لأبيهم الروحي ، وحتى اللمبارد أنفسهم كانوا طامعين فى نوال نصيب من فضل حربه المقدسة ومزيتها . وكان أكبر عمل من أعمال الغدر بالامبراطور هو تدمير تماثيله ، غير أنه كان فى الوقت عينه عملا انتقاميا واضحا أكثر ما يكون الواضح . أما أشد اجراءات الثورة فعالية ، وأكثرها ارضاء للشوار فهو أنهم امتنعوا عن دفع الجزية المفروضة على ايطاليا ، وحرموا الامبراطور بذلك من قوة أساء استخدامها منذ عهد قريب بفرض ضريبة جديدة . وكان انتخاب الولاة والحكام من العوامل التى حافظت على شكل من أشكال الحكم ، وبلغ السخط العام حدا جعل الايطاليين على استعداد لانتخاب امبراطور أرثوذكسى ونقله على رأس أسطول وجيش الى قصر القسطنطينية . وفى ذلك القصر أدين ، جريجورى الثانى وجريجورى الثالث أسقفا روما ، بخلق الثورة ، وبذلت كل محاولة ، بالتدليس أو بالقوة ، للقبض عليهما وقتلهما . ولهذا زار المدينة ، أو هاجمها ، ضباط الحرس ودوقات ، ونواب الامبراطور ، من أصحاب المناصب الرفيعة أو المهام السرية ، ونزلوا الى البر مع قوات أجنبية ، وحصلوا على بعض المساعدات الداخلية ، ولا شك فى أن أهل نابولى المتعصبين لخرافاتهم الدينية قد يستشعرون الخجل من أن آباءهم الدينيين كانوا على اتصال بقضية الهيراطقة . غير أن شجاعة الرومان ويقظتهم صدت هذه الهجمات السرية أو السافرة ، فهزم اليونان وقتلوا ، ومات زعمائهم بصورة شائنة ، ورفض البابوات رغم نزوعهم الى الرحمة والشفقة ، أن يتوسطوا من أجل هؤلاء الضحايا المذنبين . وفى رافنا كانت أحياء المدينة الكثيرة تعاني من عداء دموى وراثى ، ووجدوا فى الخصومة الدينية غذاء جديدا للفتنة ، غير أن انصار التماثيل كانوا أكثر عددا أو أقوى روحا وشجاعة ، عندما حاول

نائب الامبراطور أن يصد التيار فقد حياته فى شغب شعبى • وأرسل الامبراطور أسطولا وجيشا لمعاقبة هذا العمل الفاضح الفاحش ، وبعد أن تعرض اليونان لخسارة كبيرة وتأخير طويل بسبب الرياح والأمواج • نزلوا جوار رافنا ، وهددوا بإبادة العاصمة المذبذبة ، وبأن يحذوا حذو جستنيان الثانى ، أو يفوقوه فيما فعله حينما أراد عقاب ثورة سابقة ، فاختار خمسين فردا من سكانها البارزين وقتلهم ، وارتمى النساء ورجال الدين على الأرض يتلون الصلوات وهم يلبسون الخيش ، وقد علا وجوههم شحوب الموت ، وحمل الرجال السلاح للدفاع عن بلدهم ، وألف الخطر المشترك بين الأحزاب وفضل كل هؤلاء خوض المعركة على شقاء الحصار الطويل • وحينما كان القتال على أشده بين الجيشين ، وكل منهما يتقدم مرة ويتأخر مرة أخرى ، ظهر طيف ، وسمع صوت ، وانتصرت رافنا لأن الطيف أكد لها النصر • وعاد الغرباء الى سفنهم ، غير أن شاطئ البحر الزاخر بالناس امتلأ بعدد كبير من القوارب ، وتلوثت مياه نهر البو بالدماء الى درجة أن الناس ، تحيزا منهم ، امتنعوا عن أكل سمك النهر طوال ستة أشهر ، وأصبح ذلك النصر موضع احتفال سنوى ساعد على دوام عبادة التماثيل وكرامية الطاغية اليونانى • وفى وسط انتصار الجيوش الكاثوليكية عقد الحبر الرومانى مجلسا من ثلاثة وتسعين أسقفا ضد هرطقة محطى التماثيل الدينية ، وأصدر بموافقتهم حرمانا عاما ضد جميع من يهاجمون الآباء الدينين وتماثيل القديسين ، سواء بالكلام أو الأعمال • وانطبق هذا الحكم بصورة ضمنية على الامبراطور • غير أنه اعترض اعتراضا أخيرا عديم الجدوى ، ويفهم من هذا أن اللعنة ظلت مطلقة على رأسه المذبذبة • وما أن حقق البابوات سلامتهم ، وعبادة التماثيل ، وحرية روما وإيطاليا حتى تراخوا فى شدتهم وتجاوزوا للبلاط عن بعض بقايا السلطة • ودفعتهم آراؤهم المعتدلة الى تأخير انتخاب امبراطور جديد ثم الى منعه ، ونصحوا الايطاليين ألا ينفصلوا عن جسم الملكية الرومانية • وسمح لمنائب الامبراطور بأن يقيم فى رافنا أسيرا أكثر منه سيديا ، وظل حكم روما وإيطاليا يمارس باسم خلفاء قسطنطين حتى لبس شارلمان تاج الامبراطورية •

ولقد سبق أن قاست حرية روما من ظلم جيوش أغسطس وفنون دهائه وهما هى الآن تخلع عن نفسها ، بعد سبعمائة وخمسين سنة من الاسترقاق ، نير الامبراطور ليو الأيسورى واضطهاده • وكان القياصرة قد قضوا على الانتصارات التى حققها قناصل روما ، وعندما اضمحلت الامبراطورية وسقطت كانت حدودها المقدسة قد تراجعت شيئا فشيئا

وابتعدت عن المحيط ، ونهر الراين ، ونهر الدانوب ، ونهر الفرات ، وعادت روما الى حدودها القديمة ، من فيترى الى تراتشينا ، ومن تارنى الى مصب نهر التيبر . وعندما استبعد الملوك وانتهى عهدهم ، ارتكزت الجمهورية على ذلك الأساس الراسخ المتين الذى شادته حكمة الرومان وقضيلتهم . واصبحت السلطة الشرعية الدائمة مقسمة بين حاكمين سنويين ، وظل السناتو يارس سلطة الادارة وسلطة الشورى ، ووزعت السلطة التشريعية فى مجالس الأمة حسب مقياس متناسب من الملكية والخدمات ، ولقد كان الرومان الأوائل يجهلون فنون الترف ، فارتقوا بعلم الحكم وعلم الحرب ، وكانت ارادة المجتمع مطلقة ، وحقوق الأفراد مقدسة وكان الدفاع عن الفتوحات موكولا الى مائة وثلاثين ألفا من المواطنين المسلحين ، وهكذا تشكلت عضابة من اللصوص والخارجين على القانون وعمدت فى قالب أمة تستحق الحرية وتطمح فى المجد . وعندما تلاشت سيادة الباطرة اليوتان ، تمثلت فى أنقاض روما صورة مخزنة للتدهور ونقص السكان وأصبح استرقاقها عادة ، وخريتها غابرة تجيء بها الصدفة ، وكان ذلك كله وليد خرافتها الدينية ، وموضع دهشتها وفزعها . واندثر من ذاكرة الرومان ، ومن حياتهم العقلية ، آخر أثر من مادة الدستور ، بل ومحيط أشكاله نفسها ، ولم تعد لديهم المعرفة ، أو الفضيلة التى تمكنهم من بناء صرح دولة لها كيانهما . وكانت بقيتهم الضئيلة ، وهى ذرية العبيد والغرباء ، موضع الازدراء والاحتقار فى أعين المتبربرين ، وكلما كان الفرنجة أو اللمبارد يعبرون عن احتقارهم الشديد المرير لعدو من أعدائهم كانوا يتسمونه رومانيا ، وتحت هذا الاسم كما يقول الأسقف ليوتبراند Lieutprand ، « نقسم كل ما يتسم بالحقارة والجبن والخيانة ، وكل ما يتصف بالتطرف فى الجشع والترف ، وكل رذيلة تحط من قدر الطبيعة البشرية » . وبحكم الضرورة التى أملاها وضع سكان روما عليهم انصبوا فى قالب فج من الحكم الجمهورى ، واضطروا الى انتخاب بعض القضاة فى وقت السلم ، وبعض القادة فى وقت الحرب ، وكان النبلاء يجتمعون للتشاور ، وكانت قراراتهم لا توضع موضع التنفيذ الا بعد اتفاق كلمة الشعب وموافقة عليها . ومع أن السناتو والشعب الرومانى استعدادا الطابع القديم ، الا أن الروح لم يعد لها وجود ، وتلوث استقلالهم الجديد بعار الصراع الصاخب الذى يتسم به الشطط والظلم ، ولم يكن ممكنا أن يستعاض عن الافتقار الى القوانين الا بتأثير الدين ، واستطاع سلطان الاسقف أن يلطف من آرائهم الداخلية والخارجية . وبفضل احساناته ، وعظائمه ، واتصاله بملوك الغرب وأخباره ، وخدماته الحديثة ، وعرفان الرومان لفضله ، والقسم الذى أقسموه بالولاء له ، كل أولئك عودهم على

اعتبار الحاكم أو الملك الأول للمدينة . ولم يكن مما يسمى الى التواضع
المسيحي الذي اتسم به البابوات أن يطلق عليهم اسم « المولى » Dominus ،
وما تزال وجوههم وأسمائهم ظاهرة على أقدم العملات . أما سلطتهم
الزمنية فإن ألف سنة من التبجيل والاحترام تؤكدتها وتدعمها ، كما أن
أثبات لقب شرف يحملونه قد اختاره لهم اختيارا حرا ذلك الشعب الذي
أنقذوه من العبودية .



أخضع للمبارد مدينة رافنا ، وأنهوا حكم نائب الامبراطور ، ثم
هاجموا روما . وأنقذت روما على يد بين ، ملك الفرنجة ، وفي نهاية
الأمر استسلم للمبارد لابنه شارلمان في سنة ٧٧٤ .

علاقات بين وشارلمان والبابوات

تشكل الالتزامات المتبادلة بين البابوات وأسرة كارلوفنجيا نقطة
عامة بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث ، وبين التاريخ المدني والتاريخ
الديني . ولقد حظى أنصار الكنيسة الرومانية من غزو إيطاليا بقرصة
مواتية ، ولقب مظهرى جذاب ، وتمنيات الشعب ، وصلوات رجال الدين
ودسائسهم . غير أن أهم هدية قدمها البابوات الى أسرة كارلوفنجيا هي
منصب ملك فرنسا ومنصب نبيل روما Patrician ١ - في ظل ملكة
القديس بطرس الكهنوتية بدأت الأمم ترجع الى عادة التطلع الى ضفاف
نهر التيبر بحثا عن ملوكها ، وقوانينها ، والمتكهنين بمصيرها . واحتار
الفرنجة بين اسم حكومتهم وجوهرها . فكل سلطات الملك كان يمارسها
بين ، ناظر القصر الملكي ، ولم يعوزه لبلوغ منتهى أطماعه الا اللقب
الملكي . ولقد سحق أعداءه بقوة بأسه ، وضاعف عدد أصدقائه بكرمه
وسخائه ، وكان أبوه (١) هو الذي أنقذ العالم المسيحي ، وتعاقب من هذه

(١) هو شارل مارتل الذي كان ناظرا للقصر في عهد الملك الضعيف ثيودوريك الرابع
الميروفنجي - (الترجمة)

الأسرة أربعة أجيال كانوا جديريين بما بلغوا من مكانة بل أنهم اضمفروا عليها مجدا وشرافا . وكان الملك الضعيف شلدريك الميروفنجي ، آخر سلالة كلوفيس ، لا يزال محتفظا باسم الملكية وصورتها ، غير أن حقه الملكي الذي عفا عليه الزمن لم يعد يستخدم الا كأداة للفتنة ، وكانت الأمة راغبة في استعادة بساطة الدستور ، كما أن بين ، وهو فرد من الرعية وحاكم في الوقت عينه ، كان يطمح في تدعيم مركزه ومصير أسرته . وكان ناظر القصر والنبلاء مرتبطين بقسم الولاء للملك الصوري ، ودم أسرهم كلوفيس في نظرهم كان دما نقيًا مقدسا ، فأرسلوا رسلهم الى الحبر الروماني يطلبون منه ازالة مخاوفهم أو احلالهم من وعدهم . أما البابا زخاري ، خليفة جريجوري الثاني وجريجوري الثالث ، فقد دفعته مصلحته الى تأييد قضيتهم ، وأصدر قرارا بأن الأمة في مقدورها بصورة شرعية أن تجمع في شخص واحد بين لقب الملك وسلطته ، وأن شلدريك المنكود ، وهو ضحية السلامة العامة ، يجب أن يجرد من لقبه ، وتحلق لحيتته ، ويوضع في دير طوال الأيام الباقية من حياته . وقبل الفرنجة تلك الاجابة التي لا تمت رغباتهم ، على اعتبار أنها فتوى شرعية ، أو حكم قاض ، أو صوت نبي . وهكذا اختفت سلالة أسرة الميروفنجيين من الأرض ، وارتفع قدر بين على أسنة الرماح نتيجة انتخاب شعب حر تعود طاعة قوانينه والانضواء تحت لوائها . ثم توج بموافقة البابوات مرتين ، توجه في احدهما القديس بونيفاس ، أشد أتباع البابوات اخلاصا وأكبر رئيس ديني في ألمانيا ، وتوج للمرة الثانية على يد اسطفانوس الثالث الذي اعترف بفضل ولي نعمته ووضع التاج على رأسه في دير القديس دنيس ، ثم مسح بالزيت المقدس في براعة كما كان شأن ملوك اسرائيل . واتخذ خليفة القديس بطرس شخصية سفير الهى ، وتحول زعيم قبيلة ألماني الى ملك دهن بالزيت الالهى . وانتشر هذا النوع من الشعائر اليهودية في أوروبا الحديثة وظل معمولًا به بفضل خرافتها وغرورها ، وهكذا أحل الفرنجة من قسمهم القديم ، غير أنهم هددوا وذريتهم بلعنة رهيبة اذا تجرأوا على معاودة حرية الاختيار نفسها ، أو انتخابوا ملكا لا يكون من نسل الملوك الكارلوفنجيين المقدسين ذوى الفضل والجدارة . ولم يدرك هؤلاء الملوك الخطر المخدق بهم ، فتشامخوا بحصانتهم الحالية ، ويؤكد أمين سر الملك شارلمان أن صولجان الملك الفرنسى قد انتقل اليهم بسلطة البابوات ، وكانوا في أجرا مشروعاتهم يتمسكون في ثقة بهذا الدليل على السلطة الشرعية الزمنية ، وبعملها الناجح .

٢ - عندما تغيرت العادات واللغة أصبح نبلاء روما بعيدين كل البعد عن سناتو روميلوس ، أو قصر قسطنطين - عن نبلاء الجمهورية الأحرار ،

أو آباء امبراطور الوهميين . وبعد أن استعادت جيوش جستينيان ايطاليا وأفريقيا ، استلزمت هذه الولايات البعيدة كما استلزم الخطر المحدق بها ، وجود حاكم أعلى ، وأطلق عليه اسم نائب امبراطور أو النيبيل Patrician سواء بسواء (١) . وامتدت السلطة الشرعية لحكام رافنا هؤلاء ، الذين أصبح لهم مكان في تاريخ الملوك ، الى المدينة الرومانية . ومنذ ثورة ايطاليا وزوال النيابة الامبراطورية Exarch استلزمت مخنة الرومان بعض التضحية باستقلالهم . ورغم ذلك فانهم ، حتى في هذا العمل ، مارسوا حق التصرف من تلقاء أنفسهم ، وكانت قرارات السناتو والشعب تمنح شارل مارتل وذريته على التوالي مناصب نبلاء روما . ولا شك في أن زعماء أمة قوية كان ينبغي عليهم أن يرفضوا مثل هذا اللقب الذليل والمنصب الثانوي ، غير أن حكم الأباطرة اليونان كان معطلا ، وفي هذا الفراغ الذي منيت به الامبراطورية ، استمدوا من البابا والجمهورية تكليفا أكثر فخارا ومجدا . وأهدى سفراء الرومان هؤلاء النبلاء مفاتيح ضريح القديس بطرس كههد ورمز للسيادة ، ومعها علم مقدس كان من حقهم ومن واجبهم أن ينشروه دفاعا عن الكنيسة والمدينة . وفي عهد شارل مارتل وبين ، كان تدخل مملكة اللبارد يضمن حرية روما ولكنه يهدد سلامتها . وكان منصب النيبيل لا يمثل الا حق هؤلاء الحماة البعيدين وخدمتهم والتحالف معهم . وحطمت قوة شارلمان وسياسته عدوا وفرضت سيدا . وفي أول زيارة قام بها للعاصمة قوبل بكل ألوان التكريم التي كانت تقدم من قبل لنائب الامبراطور وممثله ، واكتسب هذا التكريم شيئا من الروعة الجديدة لأن البابا هادريان الأول قابل الزيارة بالفرح والشكر . فما كاد يعلم بهذه الزيارة الملكية المفاجئة وبمقدم شارلمان ، حتى أوفد حكام روما ونبلاءها لاستقباله بالعلم ، على بعد ثلاثين ميلا من المدينة . وعلى بعد ميل منها ، اصطف على طريق فلامينيا أبناء الجاليات الوطنية من اليونان ، واللبارد والسكسون ، وغيرهم ، وكان الشباب الروماني يحمل الأسلحة ، أما الأطفال الأصغر سنا ، فقد حملوا في أيديهم سعف النخل وأغصان الزيتون . وأخذوا ينشدون المدائح لمنقذهم العظيم . وعندما شاهد شارلمان الصليبان المقدسة وأعلام القديسين ، ترجل من فوق جواده وتقدم موكب نبلائه الى الفاتيكان ، وعندما ارتقى السلم ، أخذ يقبل في ورع وتقوى كل درج من الدرجات المؤدية الى عتبات الرسل . وكان هادريان في مدخل الفاتيكان متأهبا لاستقباله على رأس قساوسته . ثم تعانق الرجلان . معانقة الأصدقاء والأنداد ، ولكنهما في مسيرتهما

(١) كان مقره مدينة رافنا .

صوب المذبح اتخذ الملك وضعه الى يمين البابا . ولم يقنع ملك الفرنجة بهذه المظاهر الباطلة الجوفاء التى تعبر عن الاحترام ، ففى الأعوام الستة والعشرين التى انقضت بين غزو لمبارديا وتويجه الامبراطورى ، خضعت روما ، التى انقذها بسيفه ، الى صولجان شاركان كما لو كانت ملكا خالصا له . وأقسم الشعب يمين الولاء لشخصه ولأسرته ، وصكت النقود وأقيمت العسالة باسمه ، كما أن انتخاب البابوات . كان خاضعا لسلطته ، يبحثه ويصادق عليه . ولم يبق هناك أى امتياز منكى يستطيع لقب امبراطور أن يضيفه الى نبيل روما اللهم الا أن يكون له فى الملك حق أصيل يشعر به فى دخيلة نفسه .

وكان عرفان الملوك الكارلوفنجيين بالجميل متناسبا مع التزاماتهم ، فلقد قدست أسمائهم كمخلصى الكنيسة الرومانية وأولياء نعمتها . وبفضل سخائهم وجودهم تحول ميراثها القديم من مزارع ومنازل الى سيطرة زمنية على مدن وولايات ، وكان منصب نائب الامبراطور أول ثمرات فتوحات بيزن . ولقد تخلى أستولفوس عن غنيمة هذه وهو حزين مكبود ، وسلمت مفاتيح المدن الرئيسية وبرهانتها الى السفير الفرنسى ، وقسمها هو بدوره وباسم مولاة أمام قبر القديس بطرس وكان من الممكن أن يمتد نطاق هذه الولاية الكبيرة التى كانت خاضعة لنائب الامبراطور بحيث تشمل ولايات ايطاليا التى كانت قد أطاعت الامبراطور ونائبه ، غير أن حدودها الدقيقة الأصلية شملت أقاليم رافنا وجولونيا وفيرارا ، وصعها ولاية تابعة لها ولا تنفصل عنها ، وهى بنتابوليس Pentapolis ، التى كانت تمتد على طول ساحل الأدرياتيك من ريمنى الى أنكونا ، وتتقدم فى الاقليم الأوسط حتى سلاسل جبال الأبين . وفى هذه العملية أدين طمع البابوات وجشعهم ادانة شديدة . ولعله كان حريا بتواضع كاهن مسيحى أن يتبذ مملكة دنيوية لم يكن من السهل عليه أن يحكمها دون أن يتخلى عن فضائل مهنته ، ومن الجائز أيضا أن فردا مخلصا من أفراد الرعية ، بل وعدوا كريما ، كان يمكن أن يكون أقل تلها على تقسيم أسلاب المتبرر ، ولو أن الامبراطور كان قد وكل الى البابا أسطفان أن يلتبس باسمه إعادة الاكسرخية لنائبه فانى لا أبرىء البابا من لوم الخيانة والزيف . غير أن التفسير الجاهل للقوانين يتيح لكل انسان أن يقبل دون ارتكاب اساءة أى شىء يمنحه اياه ولى نعمته اذا لم يكن فى هذا المنح ظلم لأحد . ولقد تخلى الامبراطور عن حقه فى تعيين نائبه ، أو أنه خسر ذلك الحق ، وتحطم سيف أستولفوس على سيف أقوى هو سيف الملك الكارلوفنجى . ولم يكن بيزن قد عرض للخطر شخصه وجيشه فى حملة مزدوجة الى ما وراء

جبال الألب من أجل محطم التماثيل الدينية . فلقد كان سيدا للبلاد التي فتحها ، ومن حقه الشرعى أن يتنازل عنها ، وردا على لجاجة اليونان أجاب في ورع وتقوى . بأنه ليست هناك أية اعتبارات انسانية يمكن أن تغريه على أن يسترد الهبة التي خلعها على الحبر الرومانى من أجل غفران ذنوبه وخلص نفسه . ولقد منحت الهبة الرائعة هشفوعة بسيطرة مطلقة عليا ، وشاهد العالم لأول مرة أسقفا مسيحيا يمتلك امتيازات ملك دنيوى - كاختيار الحكام ، وممارسة القضاء ، وعرض الضرائب ، والتحكم فى ثروة قصر رافنا . وعندما تفككت مملكة اللمبارد ، حاول سكان دوقية سبوليتو أن يتجنبوا العاصفة ، فحلقوا شعر رؤسهم على الطريقة الرومانية ، وجاهرُوا بأنهم خدام القديس بطرس ورعاياه ، وأكملوا بهذا الاستسلام الاختيارى الحلقة الحالية التى تحيط بالنولة الكنسية . واتسعت تلك الدائرة الغامضة الى حدود لانهاية لها بفضل الهبة الشفوية أو المكتوبة التى منحها شارلمان ، وهو الذى ، فى أول نشوات ظفره ، جرد نفسه وجرد الامبراطور اليونانى من المدن والجزائر التى كانت من قبل ملحقة بمنطقة النيابة الامبراطورية . غير أنه فى لحظات الشرود والتأمل كان ينظر بعين الغيرة والحسد الى العظمة الحديثة التى وصل اليها حليفه الدينى ، فتهرب فى احترام من تنفيذ وعوده ووعوده أبيه ، ومن ثم أكد ملك الفرنجة واللمبارد أن حقوق الامبراطورية لا يمكن التصرف فيها ، وفى حياته وموته اعتبرت رافنا وروما فى عداد عواصم ملكه . وتلاشت سيادة ولاية النيابة الامبراطورية فى أيدي البابوات ، ولكنهم وجدوا فى رؤساء أساقفة رافنا منافسا محليا خطيرا ، كما أن النبلاء والشعب استنكفوا الخضوع لسلطان قسيس ، ولم يكن فى مقدورهم ، وسط متاعب ذلك العصر واضطرابات ، الا الاحتفاظ بذكرى حق قديم استطاعوا فى عصر أكثر ازدهارا أن يحيوه ويؤكدوه .

والخداع هو حيلة الضعف والمكر ، وكثيرا ما وقع المتبرير القوي الجاهل فى حبال السياسة الكهنوتية ، وكان قصر الفاتيكان وقصر اللاتيران ترسانة ومصنعا أنتجا أو أخفيا ، وفقا للظروف ، مجموعة متنوعة من الأعمال الزائفة أو الصادقة ، والفاسدة أو المريبة . حسينا كانت تلك الأعمال تخدم مصلحة الكنيسة الرومانية . وقبل نهاية القرن الثامن ألف كاتب رسولى ، من الجائز أنه ابن يدور السبيء السمعة ، قصة الأحكام التى أصدرها قسطنطين والهبة التى منحها ، وهما العمودان السحريان للذان تركز عليهما مملكة البابوات الروحية والدنيوية . وهذه الهبة المشهودة عرف بها العالم فى رسالة كتبها البابا هادريان الأول الى شارلمان يحضه فيها على تقليد سخاء قسطنطين العظيم واحياء اسمه . وتقول القصة أن

قسطنطين ، أول الأباطرة المسيحيين شفى من مرض الجذام ، وتظهر في
 ماء المعمودية ، على يد الأسقف الرومانى ، القديس سيلفستر Silvester ،
 فكافأ الأسقف مكافأة لم يحظ طبيب بمثل عظمتها ومجدها . ذلك أن
 المهتدى الملكى انسحب من مقر القديس بطرس ومن أرضه الموروثة ،
 وأعلن عزمه على تأسيس عاصمة جديدة في الشرق ، وترك البابوات
 السيادة المطلقة الدائمة على روما ، وإيطاليا ، وولايات الغرب . ولقد أثمرت
 هذه الرواية أنفع الثمار ، فاتهم ملوك اليونان بجريمة الاغتصاب ، وأصبحت
 صورة جريجورى حقا يطلب بمقتضاه ميراثه الشرعى . وتخلص البابوات
 من دين العرفان بالجميل ، وأصبحت الهبات الضئيلة التى وهبها الملوك
 الكارولوفنجيون لاتعدو أن تكون ردا عادلا لا رجعة فيه لجزء صغير من الدولة
 الكنسية . ولم تعد السيادة على روما وقفا على اختيار شعب متقلب ، وتقلد
 خلفاء القديس بطرس وقسطنطين حلة الملك التى كانت للقيصرة ، كما
 اكتسبوا امتيازاتهم ولقد بلغ من جهل تلك العصور وسذاجتها أن أسخف
 قصة خرافية قوبلت بالاحترام نفسه فى اليونان وفى فرنسا ، وما تزال
 مسجلة بين قرارات القانون الكنسى . ولقد عجز الأباطرة والرومان عن
 تبين تدليس قوض حقوقهم وحريتهم ، ولم يعترض عليه الا رهبان دير
 فى سابين Sabine أنكروا فى بدء القرن الثانى عشر صحة وصدق هبة
 قسطنطين . وفى أثناء حركة احياء اللوم وانتعاش الحرية دحضت كتابات
 لورتنىوس فاللا هذا التصرف الموهوم ، وهى كتابات جرى بها قلم ناقد
 بليخ رومانى محب لوطنه . وكم دهش معاصروه فى القرن الخامس عشر
 لجرائه الدنسة ، ولكن تلك هى شيمة العقل فى تطوره الصامت الذى
 لا يقف فى طريقه شيء ، حتى ان المؤرخين والشعراء ، قبل نهاية العصر
 التالى أنكروا فى احتقار تلك الخرافة ، كما نبذها المدافعون عن الكنيسة
 الرومانية صراحة أو نقدوها فى أسلوب معتدل . بل ان البابوات أنفسهم
 كانوا ينظرون فى ابتسامة ساخرة الى سذاجة الدهماء ، ولكن ظل اللقب
 الزائف البائد يكسب حكمهم قدسية ، وبقي الصرح قائما بعد أن قوضت
 الأسس التى كان مرتكزا عليها ، وانتهت الى المصير نفسه الذى انتهت اليه
 الأحكام البابوية وتكهنات العرافين الغامضة .

اعادة التماثيل والصور

الدينية فى الشرق

بينما كان البابوات يوطدون حريتهم وسلطانهم فى إيطاليا ، كانت
 الصور والتماثيل الدينية ، وهى أول أسباب ثورتهم ، قد أعيدت فى
 الامبراطورية الشرقية . وفى عهد قسطنطين الخامس ، كان اتحاد السلطة

المدنية والسلطة الدينية قد طوح بشجرة الخرافة دون أن يستأصل جذورها ، ولقيت الأوثان ، وقد اعتبرت الصور والتماثيل الدينية اذ ذاك أوثانا ، لقيت تلك الأوثان صدرا رحبا من طائفة الرهبان والنساء ، وهما أكثر الناس نزوعا الى التعبد ، وحاز التحالف الوثيق العزيز بين هؤلاء وهؤلاء نصرا نهائيا على عقل الرجال وسلطتهم . وحافظ ليو الرابع على ديانة أبيه وجده بصورة أقل صرامة ، غير أن زوجه ايرين الجميلة الطموح كانت قد تشربت حماس الاثنيين ، ورثة الوثنية ، أكثر من تشربها لفلسفة أجدادهم . وعندما كان زوجها على قيد الحياة ، أشعل الخطر والرياء نار هذه الأحاسيس ، ولم يكن في وسعها الا أن تعمل على حماية وتشجيع بعض المقربين اليها من الرهبان الذين أخرجتهم من كهوفهم وصوامعهم ، وأجلستهم على العروش الأسقفية في الشرق . ولكن ما أن حكمت باسمها وباسم ابنها ، حتى تولت القضاء على أعداء التماثيل الدينية بصورة أكثر جدية وخطورة ، وكانت أول خطوة خطتها على طريق اضطهادها لهؤلاء الناس في المستقبل هو أنها أصدرت مرسوما عاما يقضى بحرية الضمير . وعندما عاد الرهبان الى مراكز القوة عرضت آلاف الصور والتماثيل أمام الناس لتكون موضع تقديسهم وتبجيلهم وابتدعت آلاف القصص عن آلامها ومعجزاتها . وعندما كانت تخلو بعض المناصب الأسقفية بموت أصحابها أو إبعادهم ، كانت أماكنهم تشغل في حكمة وحذر ، وكان أكثر المتنافسين تلهفا على الخطوة الدنيوية أو السماوية ينتظرون حكم ملكتهم ويتملقونه ، وترتب على ترقية أمين سرها تاراسيوس أن أصبح بطريرك القسطنطينية في يدها ، وبذلك دانت لها الكنيسة الشرقية . غير أن قرارات مجمع عام لا يمكن الغاؤها الا بقرار مجمع مماثل ، وكان أعداء التماثيل الدينية الذين جمعهم يتسمون بالجرأة في الدفاع عن آرائهم ، ويكرهون المناقشة ، ومع أن صوت الأساقفة كان ضعيفا الا أن جنود القسطنطينية وشعبها ردوا ذلك الصوت في صخب أعظم قوة وأشدد بأسا . غير أن المماطلة والدسائس التي دامت سنة بأكملها ، وعزل القوات المتمردة ، واختيار نيقيا لتكون مكانا لاجتماع مجلس كنسي أرثوذكسي . ثان ، كل أولئك أزال تلك العقبات ، وأصبح ضمير الأساقفة مرة أخرى في يد الحاكم ، وفق الأسلوب اليوناني . ولم يسمح لهذا المجلس الا بثمانية عشر يوما لاتمام هذا العمل الهام ، وجاء أعداء التماثيل والصور الدينية لا كقضاة بل كمجرمين أو تائبين ، وازدان المشهد بحضور سفراء البابا هادريان وبطاركة الشرق ، وصاغ القرارات الرئيس تاراسيوس ، ثم قوبلت تلك القرارات بأصوات الاستحسان من ثلاثمائة وخمسين أسقفا ،

وحظيت بتوقيعاتهم . وقد أعلنوا بالاجماع أن عبادة الصور والتماثيل الدينية تتفق مع الكتاب المقدس ، ويرتاح لها آباء الكنيسة ومجلسها . ولكنهم ترددوا فيما إذا كانت تلك العبادة مباشرة أو نسبية ، وفيما إذا كان نفس اللون من العبادة ينبغي تقديمه للرب ولصورة المسيح سواء بسواء . وما تزال قوانين هذا المجلس النيقى الثانى موجودة كأثر عجيب للخرافة والجهل ، ولزيف والحساقة . وليست أريد أن أبدي أية ملاحظة اللهم الا عن حكم الأساقفة فيما يختص بالميزة المقارنة التى لعبادة الصور الدينية وللأخلاق . فثمة راهب كان قد عقد هدنة مع شيطان الزنا ، شريطة أن يعترض الشيطان صلواته اليومية التى كان يقدمها لصورة معلقة فى صومعته . غير أن شكوكه دفعته الى استشارة الكاهن ، فأجاب ذلك المفتى قائلا : « من الأفضل لك أن ترتاد كل ماخور فى المدينة ، وترور كل عاهرة ، على أن تتخلى عن عبادة المسيح وأمه فى صورهما المقدسة » . وانه لمن سوء الحظ نوعا ما ، فيما يتعلق بشرف الأرثوذكسية ، وعلى الأقل الأرثوذكسية الرومانية ، أن الحاكمين اللذين عقدا مجلسى نيقيا ملوثان بدم أبنائهما . وكان ثانى هذين الاجتماعين قد عقد ونفذت قراراته تنفيذا صارما بموافقة الملكة ايزين وبحكم سلطانها المطلق ، وأبت هى على خصومها ذلك التسامح الذى منحته فى بادئ الأمر لأصدقائها . وخلال العهود الخمسة التالية ، التى استغرقت ثمانية وثلاثين عاما ، ظل النزاع محتددا على أشده ، وكان النجاح حليف أنصار عبادة الصور الدينية مرة ، ومحطى تلك الصور مرة أخرى ، ولكنى لا أميل الى أن أتبع بالتفصيل الدقيق تكرار الأحداث نفسها . فهناك نفور الذى سمح بالحرية العامة فى الأقوال والفعال ، وهذه الفضيلة الوحيدة فى عهده يتهما الرهبان بأنها سبب من أسباب هلاكه الدنيوى والأبدى . أما ميخائيل الأول فقد انضم خلقه بالضعف والخرافة ، غير أن القديسين والصور والتماثيل الدينية عجزت عن تدعيم مركز نصيرهم على العرش . وعندما كان ليو الخامس يشغل منصب صاحب الحلة الأرجوانية ثبت اسم أحد أبناء أرمينيا وأكد ديانتته ، وأزال الأوثان ، وحكم على أنصارها المشاعبين بالنفى للمرة الثانية . وكان يمكن لاستحسانهم أن يضيفى صفة القدسية على قتل طاغية مارق ، غير أن قاتله وخليفته ، ميخائيل الثانى ، كان ملوثا بهذا مولده بهرطقات قريجية . ولقد حاول أن يتوسط بين الأطراف المتنازعة ، غير أن روح الكاثوليك العنيدة قذفت به الى الكفة المضادة دون أن يشعر وكان الحزن صونا لاعتداله ، غير أن ابنه توفيلوس كان لا يعرف الخوف ولا الرحمة ، وكان آخر أعداء الصور الدينية ، وأشداهم قسوة . وجرى تيار الحساس عنيفا قويا ضدهم ، وعندما حاول هؤلاء الأباطرة صد

ذلك التيار ، لم يقابلوا الا بالكراهية العامة التي ضاعفت آلامهم . وبعد موت توفيلوس تحقق النصر النهائي للصور الدينية على يد امرأة ثانية هي أرملة تيودورا التي تركها وصية على الامبراطورية ، وكانت اجراءاتها في هذا الشأن جريئة حاسمة . وقد ابتدعت قصة تقول ان زوجها قد ندم وتاب عما فعل توبة متأخرة ، وبذلك أنقذت سمعة زوجها الراحل ونفسه ، وخففت الحكم على البطريك عذر الصور من فقء عينيه الى جلده مائتي جلدة . فارتعدت فرائص الأساقفة ، وعلا صراخ الرهبان ، واحتفلت الأرثوذكسية سنويا بذكرى انتصار الصور والتماثيل الدينية . ولم يبق الا سؤال واحد ، وهو ما اذا كانت تلك الصور والتماثيل تمتلك أية قدسية حقيقية كاسنة فيها . وقد أثار اليونان هذا السؤال في القرن الحادى عشر ، وبما أن هذا الرأى يتسم بأعظم قدر من السخف ، فانى لأعجب من أنه لم يلق ردا صريحا بالإيجاب . وفى الغرب قبل البابا هادريان الأول قرارات مجمع نيقيا وأعلنها ، وأصبح الكاثوليك الآن يبجلون ذلك المجمع على اعتبار أنه المجمع السابع بين المجالس الكنسية العامة . وانتقدت روما وإيطاليا لصوت أبينها الرومى ، غير أن الجزء الأكبر من المسيحيين اللاتين كان شديد التخلف فى سباق الخرافة . أما كنائس فرنسا ، وألمانيا ، وإنجلترا ، وأسبانيا ، فقد اتخذت طريقا وسطا بين عبادة الصور وتدميرها ، فقبلوا وجودها فى معابدهم لا كاشياء يعبدونها الناس ، بل كأثار تذكارية حية نافعة تذكهم بالإيمان والتاريخ . ولقد ألف باسم شارلمان كتاب شديد اللهجة عن هذا النزاع ونشر على الناس ، وعقد تحت سلطته فى فرانكفورت مجلس كنسى من ثلاثمائة أسقف وجهوا اللوم الى حدة محطى الصور وعنفهم ، غير أنهم وجهوا لوما أشد الى خرافة اليونان ، والى قرارات مجلسهم المزعوم الذى كان موضع احتقار متبربرى الغرب فترة طويلة . ولقد تقدمت عبادة الصور بين هؤلاء المتبربرين فى صمت وبصورة غير محسوسة . غير أن هذا التردد والتأخر من جانبهم انما تعوض عنه تعويضا كبيرا تلك الوثنية الغفلة التى تتسم بها العصور السابقة للإصلاح ، ودول أوروبا وأمريكا التى ما تزال غارقة فى ظلام الخرافة .

انفصال البابوات عن

الامبراطورية الشرقية نهائيا

بعد مجمع نيقيا ، وفى عهد الامبراطورة ايرين التقية أكمل البابوات انفصال روما وإيطاليا (عن القسطنطينية) بنقل الامبراطورية الى شارلمان الذى كان أقل تمسكا بالعقيدة الصحيحة (الأرثوذكسية) . لقد كان لزاما عليهم أن يتخيروا أى جانب ينحازون اليه من بين الأمم المتناحرة ، ولم يكن

هو الدافع الوحيد الذي يحدد اختيارهم هذا ، وفي الوقت الذي غضوا فيه الطرف عن سقطات أصدقائهم ومواطن الضعف فيهم نراهم ينظرون في امتعاض وريبة الى فضائل أعدائهم الكاثوليكية . ولقد ثبت الاختلاف في اللغة والعادات جذور العداوة بين العاصمتين ، كما ياعد بينهما النفور اللدود الذي دام سبعين عاما . وتذوق الرومان في غمرة هذا الشقاق طعم الحرية ، كما ألف البابوات مظاهر السيادة ، وكان من الجائز أن يمرضهم خضوعهم لانتقام طاغية حقود ، وكانت ثورة إيطاليا قد فضحت عجز البلاط البيزنطي وطفيلانه معا . وكان الأباطرة اليونان قد أعادوا الصور والتماثيل ، ولكنهم لم يعيدوا ضياع كالابريا وأبرشيات الليريا التي كان محطمو الصور قد انتزعوها من خلفاء القديس بطرس . وإن البابا هادريان (٧٧٢ - ٧٩٥) ليهدهم بالحرمان من الكنيسة اذا لم يسارعوا بالاقلاع عن هذه الهرطقة الفعلية . لقد كان اليونان آنذاك أرثوذكسيين ، ولكن ربما شاب عقيدتهم شيء من روح الملك الحاكم ، كما كان الفرنجة متمردين ، ولكن النظرة الفاحصة قد تبين أنهم عما قريب سيتحولون من استخدام الصور الى عبادتها . وقد تلوث اسم شارلمان بما اتسمت به مجادلات كتابه من حدة وفظاظة ، ولكن الفاتح نفسه ، بوصفه رجلا سياسة ودولة ، ساير مختلف عادات فرنسا وإيطاليا . وفي المرة الأربع التي زار فيها الفاتيكان أو حج إليه ، عانق البابوات ، باسم الصداقة والتقوى ، وركع أمام قبر القديس بطرس ، وبالتالي أمام صورته ، واشترك ، دون أن يخامره ريب ، في الصلوات والمواكب وفق الطقوس الرومانية ، فهل تجيز الفطنة أو عرفان الجميل للأخبار أن يتنكروا لولى نعمتهم الذي أحسن اليهم ؟ وهل كان لهم الحق في التنازل عن هبة الولاية أو النيابة التي منحهم إياها ؟ وهل كان لديهم من القوة ما يمكنهم من القضاء على حكمه في روما ؟ لقد كان لقب « النبيل » Patrician دون ما يستحق شارلمان ودون مستوى عظمته ، وكان أحياء الامبراطورية الغربية هو الوسيلة الوحيدة التي يستطيعون بها الوفاء بالتزاماتهم أو الإبقاء على كيانهم . وسوف يقضون نهائيا بهذا الاجراء على مزاعم اليونان ، ويستعيدون مجد روما . وينتشلون منها من وهدتها كمجرد بلدة في ولاية ، وسوف يتحد المسيحيون اللاتين في ظل رياسة سامية في عاصمتهم القديمة . وسوف يتسلم فاتحو الغرب تيجانهم من خلفاء القديس بطرس . وسوف تكسب الكنيسة الرومانية محاميا غيورا محترما ، وسوف يمارس الأسقف حكم المدينة . (روما) ، معززا مكرما مطمئنا ، في ظل سلطة الكارلوفنجيين .

وقبل القضاء على الوثنية في روما ، كثيرا ما أسفرت المناقشة على الحظوة بأسقفية غنية ، عن الشغب والهياج وسفك الدماء . وكان الشعب

أقل عددا ، ولكن روح العصر كانت أشد همجية وشراسة ، والجزء أجل قديرا ، والتطاحن على كرسي القديس بطرس عنيقا بين قادة رجال الكنيسة الذين تطلّموا الى مقام الملك . ولقد جاوز حكم هادريان الأول كل مقاييس الأعصر الخالية والقادمة : فقد كانت أسرار روما ، وأملاك الكنيسة ، والقضاء على المباردين ، وصداقة شارلمان كانت هذه كلها دلائل شهرته . انه وطد بطريقة غير محسوسة أركان عرش خلفائه ، وأبرز في فترة قصيرة فضائل أمير عظيم . لقد كانت ذكراه موضع الاجلال والاكبار ، ولكن في الانتخابات التالية اختير أحد قساوسة اللاتيران ، وهو ليو الثالث ، وفضل على ابن أخى هادريان وصفه الذى كان قد رفعه الى أعلى مناصب الكنيسة . وتحت ستار من رضاهم أو ندمهم اختفت لأكثر من سنوات أربع ، أبشع وأفظع نوايا الانتقام ، حتى حان يوم أحد المواكب حين فرقت عصاة عاتية من المتأمرين الحشود العزلاء ، وكالت الضربات لشخص البابا وأثخنه بالجراح . ولكن مشروع المتأمرين للقضاء على حياته أو سلبه حرّيته باء بالخيبة ، وربما كانت هذه الخيبة نتيجة للاختلال الذى دب فى صفوفهم أو نتيجة لوخز ضمائرهم . وترك ليو ممددا على الأرض ، وقد حسبوا أنه فارق الحياة . فلما أفاق من اغمائه ، وتقلب على ما غشيه لما نzf من دمه ، استرد قدرته على الكلام والأبصار . وارتقى هذا الحادث الطبيعى الى مرتبة المعجزة ، معجزة استرداد بصره ولسانه اللذين سلبه سكين القتلة اياهما مرتين وهرب ليو من سجنه الى الفاتيكان : حيث خف دوق (سبوليتو) لنجدته ، وواساه شارلمان وأظهر العطف عليه فى محنته . وارتضى ، أو قل التمس - وهو فى بادربون Paderbown فى وستفاليا ، أن يقوم الحبر الرومانى بزيارته . وعبر ليو جبال الألب للمرة الثانية ترافقه ، بعثة من الكونتات والأساقفة لحراسته وليكونوا شهود براءته . وفى شىء من الامتعاض أجل فاتح سكسونيا (شارلمان) الى السنة التالية قيامه شخصا بهذه المهمة الدينية . وفى حجتة الرابعة والأخيرة لروما استقبل شارلمان بمظاهر اجلال والتكريم اللاتقة به وبوصفه ملكا ونبىلا ، ورخص للبابا ليو فى أن يقسم على تطهير نفسه من الجرائم التى نسبت اليه : وأخرست السنة أعدائه ، وعوقبت المحاولة الدنيئة المدنسة لقتله بعقوبة خفيفة لا تتناسب مع الجرم هى النفى . وفى يوم عيد الميلاد فى آخر سنة من سنى القرن الثامن (سنة ٨٠٠) ظهر شارلمان فى كنيسة القديس بطرس وارضاء لغرور روما استبدل بملابسه الوطنية البسيطة ملابس النبلاء . وبعد الانتهاء من الاحتفال بالأسرار المقدسة ، وضع ليو فجأة تاجا ثمينا على رأس شارلمان ، وعند ذاك دوت القبة بهتافات الشعب : « فليحي شارل ، النصر لشارل ، أغسطينس التقى الورع ، الذى

توج بإرادة الله امبراطورا عظيما محبا للسلام ، على الرومان « . ومسح رأس شارلمان وجسمه بالزيت الملكي ، وقام الجبر الأعظم بمراسم التحية والتكريم لشخصه ، على غرار القياصرة ، وتعتبر اليمين التي أداها شارلمان لمناسبة تنويجه بمثابة وعد بالحفاظ على عقيدة الكنيسة وامتيازاتها ، وكانت الهدايا التي قدمها لضريح الرسول بطرس أول ثمار هذا الوعد . وفي أحداثه العادلة أعلن الامبراطور جهله بمقاصد ليو ، التي ربما كان في مقدوره احباطها بتغيبه في هذا اليوم المشهود ، ولكن لابد أن الاستعدادات لهذا الحفل قد فضحت هذا السر ، كما أن رحلة شارلمان تكشف عن أنه كان يعلم به ويتوقعه ، فقد اعترف بأن اللقب الامبراطوري كان منتهى أطماعه ، كما قرر في مجمع روماني أن هذا اللقب كان الجزاء الوفاق الوحيد لمزاياه وخدماته .

عصر شارلمان وشخصيته

ما أكثر ما كان يسبح لقب « الأكبر » ، على الملوك والأمراء ، وقد يكونون أحيانا جديرين به ، ولكن شارلمان هو الأمير الوحيد الذي من أجله اقترن اللقب بالاسم اقترانا وثيقا . ولقد دون ذلك الاسم في التقويم الروماني مشفوعا بلفظة « القديس » . كما توج لقب القديس مديح المؤرخين والفلاسفة واطراؤهم في عصر مستنير ، وفي ابتهاج نادر المثال . ولا شك في أن بربرية الأمة التي أنجبته وهمجية الزمان الذي نشأ فيه رفعا من شأن جدارته الحقيقية . ولكن المقارنة غير المتكافئة تزيد كذلك من قدر العظمة أو الأهمية الظاهرية لأي شيء . ألست ترى أن جذب الصحراء المحيطة بأطلال تدمر يضفي عليها بهاء عارضا ؟ ولست أقصد قط إلى الحظ من قدر الرجل الذي استرد الامبراطورية الغربية أو الخفض من شهرته ، ولكنني أرى بعض الشوائب في قداسته وعظمته . فليست العفة أبرز فضائله الخلقية (١) ، ولكن الشعور العام لم يلحقه ضرر بليغ بزوجاته أو خليلاته التسع ، وبوقوعه المتكرر في شرك غرام دنىء أو عابر ، وبالعدد الكبير من الأبناء غير الشرعيين الذين وهبهم للكنيسة ، وبحياة العزوبة

(١) ان « رؤيا ولتن Weltin » التي ابتدعها أحد الرهبان بعد أحد عشر عاما من موت شارلمان ، تظهره وهو في « المطهر » أو « الأعراف » (مكان بين الجنة والنار) ، ومعه ثمر جارح يأكل من العضو الأثم في جسده ، أما بقية الجسد ، أو شعار فضائله ، فكان سليما لم يمس بسوء .

الطويلة وحياة الفجور التي تردى فيها بناته (١) اللاتي كان يشك في أن أباهن يحبهن حبا جنونيا جارفا . ولا أكاد أستبيح لنفسى كيل الاتهام لأطماع الفاتح ، ولكن أبناء أخيه كارلومان Carloman والأمراء الميروفنجيان في أكويتين Aquitian (ولاية قديمة في الجنوب الغربي من الغال) ، والأربعة آلاف والخمسمائة سكسوني الذين ضرب أعناقهم في المكان نفسه - كل أولئك سوف يكون لديهم ما يقولون ضد عدالة شارلمان وإنسانيته يوم يقوم الحساب وتوزن الأعمال بالعدل والقسطاس . لقد كانت معاملته للسكسون المهضومين ضربا من سوء الاستغلال لحق الفتح ، كما أن قوانينه لم تكن أقل من أسلحته فتكا وشراسة . وفي تقصى البواعث التي كانت تتمثل في نفسه يجدر أن ينسب إلى مزاجه وطبعه كل ما أسقط من حساب تعصبه . وإن القارئ الذي لا يكاد يبرح مكانه ليدهش لما تميز به شارلمان من نشاط دائم لا يفتر في عقله وجسمه ، كما أن رعاياه وأعداءه على السواء لم يكونوا أقل دهشة لظهوره المفاجئ في اللحظة التي كانوا يعتقدون فيها أنه في أقصى أركان الإمبراطورية ، وما كان زمن الحرب أو السلم ، ولا فصل الصيف أو الشتاء ، أوانا يخلد فيه إلى الراحة . وأنه لمن العسير على خيالنا أن يوفق بين حوليات حكمه وبين جغرافية رحلاته وتنقلاته، ولكن هذا النشاط كان خلة تميز بها بنو عشيرته عامة أكثر منها ميزة شخصية له خاصة . فقد كان الرجل من الفرنجة يقضى حياته شريدا لا يقر له قرار : في الصيد أو في الحج أو في المغامرات الحربية . ولم تكن جولات شارلمان تميز عن ذلك بشيء أكثر من حشد ضخم يسير في ركابه ، وهدف أجل خطرا يسعى إليه . ويجب الحكم على شهرته العسكرية بأمعان النظر في جيوشه وأعدائه وأعماله . لقد غزا الإسكندر بأسلحة أبيه فيليب . ولكن البطلين اللذين سبقا شارلمان أورثاء اسمهما أو شهرتهما ، وقدة حسنة يحتذيهما ، كما أورثاء رفاق انتصاراتهما . وبطش ، وهو على رأس جيوشه المحنكة المتفوقة ، بالأمر الهمجية المنحلة التي عجزت عن الائتلاف والاتحاد من أجل سلامتها المشتركة ، كما أنه لم يواجه قط أى عدو متكافئ معه في العدد أو النظام أو العتاد . وكم تدهور علم الحرب ثم انتمش مع تدهور فنون السلام وانتعاشها . ولكن حملات شارلمان لم تتميز قط بأى حصار أو معركة

(١) إن زواج اجنهارد Eginhard من إنا Imma ابنة شارلمان ، لتدخضه دخضا كافيا في رأيي ، تلك الفضائح والشكوك التي لوثت هؤلاء الغادات الحسنات ، دون استثناء زوجته . ولا بد أن الزوج كان أقوى من أن يتعرض له المؤرخ بسوء .

ذات مشقة فريدة أو نجاح نادر المثال ، ومن الجائز أنه كان ينظر بعين
الحقد والحسد الى الغنائم التي اسنولى عليها جده من العرب . وبعد حملته
على اسبانيا هزمت مؤخرة جيشه فى جبال البرانس (١) ، وليس بمستبعد
أن يكون جنوده الذين كان موقفهم عصيبا ، وجرأتهم لا غناء فيها ، قد
اتهموا ، وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة ، قائدهم بأنه كانت تعوزه المهارة
والحرص والحذر . وانى لأمس مع الاجلال والاحترام ، قوانين شارلمان
التي حظيت فى سهولة ويسر بالثناء والاطراء من جانب قاض وقور ،
تلك القوانين التي لم تشكل نظاما ، بل سلسلة من مراسيم طارئة هزيلة :
لتصحيح الأخطاء أو تهذيب الآداب العامة ، وإدارة مزارعه ، والعناية
بدواجنه ، بل حتى وبيع ما تنتجه من بيض . لقد كانت به رغبة الى تحسين
قوانين الفرنجة وأخلاقهم ، وان محاولاته فى هذا المجال جديرة بالثناء
مهما كانت ضعيفة ، فقد أبطل حكمه أو عدل من مساوىء العصر المزمته .
ولكنى لا أكاد أثبت فى نظمه تلك النظريات العسامة والروح الخالدة ،
للمشرع الذى تبقى آثاره من بعده سندا ونفعا للأجيال القادمة . ومن ثم
اعتمدت وحدة امبراطوريته واستقرارها على حياة فرد واحد . وأخذ بهذا
التقليد المحفوف بالخطر ، ألا وهو تقسيم ممالكه بين أبنائه . وبعد المجالس
العامة الكثيرة التي عقدها ، ترك الدستور يتأرجح بين الاختلال الناشئ
عن الفوضى والاستبداد . وأغراه تقديره لتقوى رجال الدين وعلمهم بأن
يعهد الى هذه الطائفة الطموحة المتطلعة بمقاييد الحكم الزمنى والقضاء
المدنى . وربما نعى ابنه لويس ، الى حد ما ، على أبيه شارلمان حمقه وعدم
تبصره ، حين انتزع الأسس المأقوفة من هذا الاين ملكه وامتهنوه . وفرضت
قوانينه العشور لأن شياطين الجن أعلنت فى الهواء أن التخلف عن الدفع
كان السبب فى الفاقة التي حلت أخيرا . أما فضل شارلمان على الأدب
فيشهد به تشييده للمدارس ، وإدخال الفنون ، والمؤلفات التي نشرها
باسمه ، واتصاله الوثيق برعاياه وبالغرباء الذين كان يدعوهم الى بلاطه
لتعليم الأمير والشعب معا . وكانت دراسته الخاصة مختلفة مضنية
ناقصة ، واذا كان قد تحدث باللاتينية أو فهم الاغريقية ، فانه انما اكتسب

(١) سقط فى هذا الاشتباك قائد شجاع اسمه رولان لا يكاد التاريخ يعرف عنه شيئا
سوى هذا الخبر ، وان كان قد أصبح أبرز شخصية من شخصيات الأساطير ، فبعد ذلك
بثلاثة قرون تناول الشاعر تلك القصة الشعبية ، لا من حيث تفاصيلها الصحيحة ، بل فى
حدة المثل الأعلى للفروسية للمسيحية ، ونسج منها ملحمة خالدة تسمى بأنشودة رولان
Chanson de Roland محورها شخصية شارلمان وعظمة فرسانه .

هذه المبادئ الأولية من المعرفة من الحديث لا من الكتب ، وقد حاول
الامبراطور جاهدا في سنتي نضجه أن يتعلم الكتابة التي يتعلمها الآن كل
فلاح في طفولته . أما قواعد النحو والمنطق والموسيقى والفلك ، فما كان
يتزود بها الا لأنها توابع تخدم الخرافة أو العقيدة ، ولكن حب الاستطلاع
الكامن في العقل البشري ، لا بد أن يتجه في النهاية إلى النهوض به . وإن
تشجيع العلم والمعرفة ليعكس على شخصية شارلمان أحسن رواء وأبهجه .
وإن وقار شخصه ، وطول عهده ، وظفر جيوشه ، ونشاط حكومته ، وتبجيس
أقصى أمم الأرض له ، كل أولئك ميزه عن العدند العدند من الملوك ،
وإن أوروبا لتعتبر استعادة شارلمان للامبراطورية الغربية ، بداية عصر
حديث من تاريخها .

في سنة ٩٦٢ أخضع ملك ألمانيا « أتبو » إيطاليا ، ووضع يده على
الامبراطورية الغربية . ومن ثم انتقل الآن التاج الامبراطوري الى ألمانيا
والأمة الألمانية .

الامبراطور شارل الرابع

يمكن في القرن الرابع عشر أن نعتين في أسطع ضيوء ممكن حالة
الامبراطورية الرومانية في ألمانيا وتباينها ، تلك الامبراطورية التي لم يعد
لها - فيما عدا حدود الراين والدانوب - الا ولاية واحدة من ولايات
تراجان وقسطنطين وكان خلفاؤهما الهزيلون الذين لا يستحقون الذكر
هم أمراء (كوثلت) آل هابسبرج ، وناسو ، ولكسمبرج ، وشوارتنبيرج .
وحصل الامبراطور هنري السابع لابنه على تاج بوهيميا ، وولد حفيده
شارل الرابع وسط شعب غريب متبربر ، على حد قول الألمان أنفسهم .
وبعد أن حرم لويس أمير بافاريا من رحمة الكنيسة . تلقى (شارل) هدية
أو قل وعدا ، بالامبراطورية انشاغرة من الأبحار الرومان الذين زعموا ،
وهم في المنفى أو في الأسر في أفينون Avignon ، أنهم يملكون الأرض
وما عليها . واتحدت ، بموت منافسيه ، كلمة هيئة الناحين ، ونودى
بالاجماع بشارل ملكا على الرومان ، وامبراطورهم المقادم ، وهو لقب امتن
في نفس العصر باضفائه على قنصرة ألمانيا واليونان . فلم يكن الامبراطور
الألماني آنذاك أكثر من حاكم منتخب هزيل ضعيف ، على جماعة من الأمراء
الأرستقراطيين الذين لم يتركوا له قرية واحدة يمكن أن يقول انها ملك
خاص له . ولعل أعظم امتياز له هو حقه في الرئاسة وفي تقديم الاقتراحات

فى مجلس السناتو الوطنى الذى كان يجتمع بناء على دعوة منه . أما مملكته الأولى ، وهى وطنه الأصلى وفيها كان منشؤه ، أى مملكة بوهيميا ، وهى أقل ثراء من مدينة نورمبرج المجاورة لها - نقول ان بوهيميا هذه كانت أثبت قاعدة لسلطانه وقوته ، وأكبر مورد لدخله . وكان الجيش الذى عبر به جبال الألب يتألف من ثلاثمئة فارس . وتوج شارل فى كاتدرائية سانت أمبروز بالتاج الحديدى الذى نسبته الرواية الماثورة الى ملوك اللمبارد . ولم يرخص له فى دخول المدينة الا بصحبة رجال غير مسلحين . وأغلقت عليه بعد ذلك أبواب المدينة ، وأخذ ملك ايطاليا أسيراً - أسره جنود آل فيسكونتى Visconti الذين دعم سلطانهم فى ميلانو . وتوج شارل مرة ثانية بتاج الامبراطورية الذهبى فى الفاتيكان ، ولكن الامبراطور الرومانى ، تنفيذاً لمعاهدة سرية ، انسحب على الفور ، ولما ينقض عليه بين جدران روما ليلة واحدة لمجرد الراحة . وان بتراكم (الشاعر الايطالى المشهور الذى عاش فى القرن الرابع عشر) صاحب البيان الساحر الذى أحيا خياله أمجاد الكايتول الوهمية ، يرثى لهذا الهروب الكريه الذى عمده اليه فتى بوهيميا وينحى عليه باللائمة . وكان فى مقدور معاصريه أنفسهم أن يلحظوا أنه لم يمارس سلطته الا فى بيع الامتيازات والألقاب وهو عمل رابح دون ريب . ولقد ضمن ذهب ايطاليا انتخاب ابنه ، ولكن بلغ الفقر المهين بالامبراطور الرومانى الى حد أن قصاباً قبض عليه فى شوارع مدينة ورمز Worms واحتجز فى نزل عام ، ضماناً أو رهينة للوفاء بالتزاماته .

لننول وجوهنا عن هذا المنظر المخزى الى عظمة شارل نفسه . تلك العظمة التى برزت فى مجالس الديت فى الامبراطورية . فان المرسوم (١) الذهبى الامبراطورى الذى يقرر الدستور الألمانى قد أعلن فى أسلوب ملك

(١) Golden Bull ومعناها المرسوم الذهبى أو الامبراطورى ، لأنه كان يختم بخاتم الذهب . وافر المرسوم الذى نحن بصدده مركز هيئة الناخبين السبعة وحده . وهؤلاء هم : ثلاثة أساقفة ، أى أساقفة مينتز ، وكولون ، وتريف - وأربعة أمراء أى أمراء سكسونيا . برانديج ، البلاتينات ، وملك بوهيميا . ووضع هذا المرسوم قواعد الوراثة فى الامارات الناجبة بصفة دائمة ، على حين حذف اميرى بافاريا والنمسا من قائمة الناخبين ، وهما أعظم الأمراء شأنًا من الناحية الإقليمية ، كذلك مها المرسوم ، ضماناً ، ما كان يزعمه البابا لنفسه من شأن فى انتخاب امبراطور ، وان لم ينص المرسوم صراحة على ذلك . وشكل الناخبون هيئة واحدة تعتبر فوق مستوى الأمراء ، وتجد من سلطة التاج ، وتجمع بينها مصلحة مشتركة فى المحافظات على درجة من الاتحاد فى امبراطورية مهددة بالانقسام .

ومشروع . فقد انحنى أمام عرشه مائة أمير ،
 بما أسبغوا طواعية واختيارا من أمجاد على ربي
 المادبة الملكية قام الضباط العظام الوراثيون وهم
 كانوا يساوون الملوك منزلة ولقبا ، قاموا بالخدمة الحقة
 القصر . فأختام الملكة المثلثة كان يحملها بصفة رسمية
 مينتز Maintz وكولون Cologne وتريف Treves
 المستشارين الدائمين في ألمانيا وإيطاليا وأرل . وكان كبير
 يمارس مهمته وهو يمتطى جواده ، ومعه مكيا لفضي ممتليء باله
 ينثره على الأرض ، حتى اذا فرغ من ذلك ترجل لتوه ليشرف على ترتيب
 الضيوف . وكان النادل الأكبر (رئيس خدم المائدة) وهو كونت ولاية
 بالاتين الواقعة في حوض الراين يضع الصحف على المائدة ، على حين قدم
 كبير الأمناء - حاكم برندنبرج - الابريق والطست الذهبين للغسل بعد
 الانتهاء من الطعام . أما ملك بوهيميا وكبير السقاء أو حاملو الأكواب فقد
 مثله أخو الامبراطور ، وهو دوق لكسمبرج وبراتانت . واختتم الحفل
 بكبار الصيادين الذين كانوا يدخلون بخنازيرهم أو غزلانهم ، وسط
 نفخ الأبواق ونباح كلاب الصيد . ولم تكن المكانة السامية للامبراطور
 مقصورة على ألمانيا وحدها ، بل ان ملوك أوربا الوراثيين اعترفوا كذلك
 بسمو مرتبته ومقامه ، فكان يتصدر الأمراء المسيحيين ، وكان الحاكم الزمني
 للدولة الكبرى في الغرب . ولقد أضفى على شخصه لقب صاحب الجلالة
 لأمد طويل ، وكان ينازع البابا في ميزة رفيعة واحدة هي صنع الملوك
 وعقد المجالس . أما فقيه القانون المدني ، العلامة بارتولوس Bartolus
 الذي كان يجري عليه شارل الرابع راتبا ، فقد دوت مدرسته بالنظرية
 التي تقول بأن الامبراطور الروماني كان الملك الشرعي للأرض من أقصاها
 الى أقصاها ، أو من مشرق الشمس الى مغربها . وحكم على الرأي المعارض
 لهذه النظرية . لا بأنه مجرد خطأ ، بل بأنه هرطقة ، حيث ورد في الانجيل :
 « لقد صدر أمر من قيصر أغسطس بأن تفرض الضريبة على العالم كله » .

موازنة بين شارل الرابع وأوغسطس

اننا اذا أغفلنا فارق الزمان والمكان بين أغسطس وشارل ، فلسوف
 يكون التباين شديدا صارخا بين القيصريين ، البوهيمي الذي أخفى ضعفه
 تحت قناع من التباهي والتفاخر ، والروماني الذي ستر قوته تحت مظهر

نان أغسطس وهو على رأس جيوشه الظافرة ،
 من النيل والفرات الى المحيط الأطلسي ، يعلن أنه
 منو لكل فرد من بنى وطنه • ولقد باشر فاتح روما
 بالشرعية المألوفة : على الناس جميعا ، ولكنه فى إعلان
 صوت السناتو والشعب ، وبمقتضى أوامرهم تقبل مليكهم ،
 بتمته أو تفويضه الموقوت فى ادارة الجمهورية • واحتفظ
 ، فى لباسه ، وفى حياته المنزلية ، وفى كل مظاهر الحياة
 بتماعية - احتفظ بشخصية الرومانى العادى • ولقد أكبر فيه أشد
 متملقه دهاء سر حكمه المطلق الثابت •

اقرأ في هذه السلسلة

أحلام الاعلام وقصص أخرى	برتداند رسل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ي . رادونسكايا
نقطة مقابل نقطة	الدس مكسلى
الجغرافيا فى مائة عام	ت . و . فريمان
الثقافة والمجتمع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر . ج . فوريس
الأرض الغامضة	ليمسترديل راي
الرواية الانجليزية	والتر الن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
آلهة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشاشة	د . قبرى حفى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات النقود	ديفيد وليام ماكديوال
الموسيقى - تعبير لغى - ومنطق	عزيز الشوان
عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى	د . محسن حاسم الموسوى
ديلان توماس	اشراف س . يى . كوكس
الانسان ذلك الكائن الفريد	جون لويس
الرواية الحديثة	جول ويست
المسرح المصرى المعاصر	د . عبد المعطى شعراوى
على محمود طه	انور المعداوى
القوة النفسية للأهرام	يل شول وأدبنيت
فن الترجمة	د . صفاء خلوصى
تولستوى	رالف ثى ماتلو
ستندال	فيكتور برومبير

التنشئة الأسرية والأبناء الصغار

نظرية الفيلم الكبرى

مختارات من الأدب القصصى

الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد

حرب الفضاء

إدارة الصراعات الدولية

الميكروكمبيوتر

مختارات من الأدب اليابانى

الفكر الأوروبى الحديث ٣ ج

تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة

أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

كتابة السيناريو للسينما

الزمن وقياسه

أجهزة تكييف الهواء

الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى

سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى

التجربة اليونانية

مركز الصناعة فى مصر الإسلامية

العلم والطلاب والمدارس

الشارع المصرى والفكر

حوار حول التنمية الاقتصادية

تبسيط الكيمياء

العادات والتقاليد المصرية

التذوق السينمائى

التخطيط السياحى

البلور الكونية

دراما الشاشة

د • محبى الدين أحمد حسين

ج • دافلى أندرو

جوزيف كونراه

د • جوهان دوشنز

طائفة من العلماء الأمريكىين

د • السيد عليوة

د • مصطفى عنانى

صبرى الفضل

فرانكلين ل • باومر

جابريل باير

انطونى دى كرسبى

داويت سـوين

زافيلكسكى ف • سـ

ابراهيم القرضاوى

بيتر رداى

جوزيف داموس

س • م • بورا

د • عاصم محمـه زقى

رونالد • سمبسون

د • اثور عبـه الله

والـت وتيمان روستو

فريد سـ هيس

جون يوركهارت

الآن كاسـبيار

سـلمى عبـه المعطى

فريد هـويل

شاندرا ويكراما سـسينج

حسين حلمى المهندس

روى روبرتسون
 هاشم النحاس
 دوركاس ماكلينتوك
 بيتر لورى
 بوريس فيدروفيتش سيرجيف
 ويليام بينز
 ديفيد الدرتون
 جمعها : جون ر • بودر
 وميلتون جولد ينجر
 ارنولد توينبى
 د • صالح رضا
 م • ه • كنج وآخرون
 جورج جاموف
 د • السيد طه أبو سديرة
 جاليليو جاليليه
 اريك موريس وآلان هو
 سيريل الدريد
 آرثر كيستلر
 توماس • هاريس
 مجموعة من الباحثين
 روى ارمز
 ناجاي متشيو
 بول هاريسون
 ميخائيل الپى ، جيمس لفلو
 فيكتور مورجان
 اعداد محمد كمال اسماعيل
 بيرتون بودر

الهيرويين والايدز
 نجيب محفوظ على الشاشة
 صبور افريقية
 الحضرات حقائق اجتماعية ونفسية
 وظائف الأعضاء من الألف الى الياء
 الهندسة الوراثية
 تربية أسماك الزينة
 الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)
 الفكر التاريخى عند الاغريق
 قضايا وملاحق الفن التشكيلى
 التغذية فى البلدان النامية
 بداية بلا نهاية
 الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية
 حوار حول النظامين الرئيسيين
 للكون
 الارهاب
 اخناتون
 القبيلة الثالثة عشرة
 التوافق النفسى
 الدليل البيلىوجرافى
 لغة الصورة
 الثورة الاصلاحية فى اليابان
 العالم الثالث غدا
 الالتقراض الكبير
 تاريخ النقد
 التعليل والتوزيع الاوركستراالى
 الحياة الكريمة (٢ ج)

الشاهنامه (٢ ج)	الفردوسي الطوسي
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد كوبريلي
عن النقد السينمائي الأمريكي	ادوارد ميرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د . فيليب عطية
السينما العربية	اعداد / موني براخ وآخرون
دليل تنظيم المتاحف	نادين جورديمر وآخرون
سقوط المطر وقصص اخرى	آدامز فيليب
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبئر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن اوزمنت
الحملة الصليبية الاولى	جوناثان ريلي سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	توني بار
العثمانيون في اوربا	بول كولنسر
صناع الخلود	موريس بير براير
الكنائس القبطية القديمة في مصر (٢ ج)	الفريد ج . بنكر
رحلات فارتيماس	رودريجو فارتيماس
انهم يصنعون البشر (٢ ج)	فانس بكارد
في النقد السينمائي الفرنسي	اختيار / د . رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتر نيكوللز
السلطة والفرد	برتراند راصل
الأزهر في الف عام	بينارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامه	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانية	نفتالى لويس
كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر	جاله كرابس جونيور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الاداب الآسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانساني (٥ ج)	احمد محمد شنوانى
الشعوس المتفجرة	اشحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو تود

